

جوزيه ر. دوس سانتوس

# المعادلة الإلهية

ترجمها عن البرتغالية:  
سعيد بنصيف الواحد

منشورات الجمل

مكتبة ٨٧٧

رواية

مكتبة | 877  
سُرْمَن قَرَأ

جوزيه ر. دوس سانتوس: المعادلة الإلهية، رواية

12 7 2022 مكتبة  
t.me/t\_pdf

جوزيه ر. دوس سانتوس: المعادلة الإلهية، رواية، الطبعة الأولى  
ترجمها عن البرتغالية: سعيد بنعبد الواحد  
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية  
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ٢٠٢١

José Rodrigues dos Santos: *A Fórmula de Deus*, roman  
© José Rodrigues dos Santos/Gradiva Publicações, S.A., 2006

© Al-Kamel Verlag 2021  
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany  
WebSite: www.al-kamel.de  
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

جوزيه ر. دوس سانتوس

مكتبة | 877

سُرْمَن قَرَأ

# المعادلة الإلهية

رواية

ترجمها عن البرتغالية:  
سعيد بنعبد الواحد

منشورات الجمل

إلى فلوريلا .



«أَنَا هُوَ الْأَلْفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنَّهَائَةُ  
يَقُولُ الرَّبُّ الْكَائِنُ وَالَّذِي كَانَ وَالَّذِي يَأْتِي،  
الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.»

سفر الرؤيا، ١ : ٨ .





## تنبيه

كل المعطيات العلمية الواردة هنا حقيقية .  
كل النظريات المعروضة هنا دافع عنها  
علماء معروفون في مجال الفيزياء والرياضيات .



# تصدير مكتبة

t.me/t\_pdf

أشعلَ الرجلُ ذو النظارتين السوداوين عودَ ثقابٍ وقرَّبَ الشُّعلةَ من سيجارته . سحبَ نفساً فارتفعت بتثاقلٍ سحابةً من الدخان الطيفي . جال الرجل بنظره عبر الشارع واستحسن هدوء ذلك الركن البهيج .

كانت الشمس تلمع ، شجيراتٌ خضراء تُبهجُ الحديقة المرتبة ، منازلٌ خشبية جميلة تحفّ الشوارع ، الأوراقُ تخفق تحت نسيم صباحي مفعم بالروائح والأنغام ، تُعطرُه نضارةُ نباتات الوستارية ، وتُهدئه أغاني الزيز وزقزقات العصافير العذبة . امتزجت ضحكةٌ غير مبالية بهذا اللحن المتناغم ، ضحكةٌ طفل أشقر يصرخ ويقفز من الفرح فوق الرصيف ، يجرب ببعاء متعدد الألوان من طرف خيط . الربيع في برينستون .

بعيداً ، أثار صوتُ محرك اهتمام الرجل ذي النظارتين السوداوين . مطَّ رأسه وحدَّق بعيداً في عمق الشارع . أربع دراجات بوليسية ، على رأس موكب من السيارات التي تتقدم بسرعة كبيرة ، برزت من الجانب الأيمن ؛ فارتفع صوتها وتحول إلى هديرٍ صاخب . أخرج الرجل السيجارة من فمه وسحقها في المنفضة الموضوعة على حافة النافذة .

- إنهم يصلون - قال وهو يديرُ رأسه إلى الخلف .

- هل أبدأ التسجيل؟ - سأله الآخر، وهو يضع إصبعه على زرّ آلة تسجيل ذات شريط مغناطيسي.

- نعم، من الأفضل.

توقف موكب السيارات في هرج ومرج أمام البيت الواقع في الجهة الأخرى من الشارع، بناية بيضاء من طابقين بها شرفة وواجهة ذات أسلوب يحيي التقاليد اليونانية. رجالٌ شرطة ببدلات رسمية وآخرون في زيّ مدني آمنوا مراقبة المحيط، بينما رجلٌ قوي البنية، حارس شخصي على ما يبدو، ذهب وفتح باب سيارة الكاديلاك السوداء التي توقفت قبالة الباب. رجلٌ مسن، بجمجمة صلعاء وشعر أشيب خرج من السيارة وعدّل بدلته الداكنة.

- إنني أرى بن غوريون - قال الرجل ذو النظارتين السوداوين من النافذة في البيت المقابل.

- وهل ترى صاحبنا؟ هل هو هنا أيضاً؟ - سأله حامل آلة التسجيل بخيبة لأنه لا يستطيع متابعة المشهد من النافذة.

حوّل صاحب النظارتين السوداوين عينيه عن سيارة الكاديلاك لينظر نحو البيت. الظلّ المعهود لرجل عجوز، المقوس قليلاً، شعره المُسرح نحو الخلف وشاربه الرمادي المزهو، ظهر عند عتبة الباب ونزل السلالم مبتسماً.

- نعم، إنه هنا.

التقى صوتا الرجلين عند سلالم الحديقة وتردّد صداهما في مكبرات صوت آلة التسجيل.

- شالوم، سيدي الوزير الأول.

- شالوم، أستاذ.

- مرحباً بك في بيتي المتواضع . إنه لشرف كبير أن أستقبل دافيد بن غوريون الشهير .

ضحك رئيس المسؤول الحكومي .

- لا بدّ أنك تمزح . كل الشرف لي أنا، أعرف ذلك؟ إن المرء لا يزور كل يوم بيت السيد أينشتاين العظيم، أليس كذلك؟

نظر الرجل ذو النظارتين السوداوين إلى زميله .

- هل تسجل؟

تحقّق الآخر من أن العقارب تتأرجح داخل إطار الآلة .

- نعم . لا تقلق .

هناك، في الجهة المقابلة، كانت ومضات آلات تصوير الصحفيين تقصف أينشتاين وبن غوريون، أمام ستار أخضر بنفسجي من نباتات الوستارية التي تتسلق حتى الشرفة . كان يوماً ربيعياً رائعاً، فاقترح العالمُ أن يبقىا في الخارج وأشار إلى الكراسي الخشبية الموضوعة فوق العشب الرطب . جلسا معاً هناك بينما واصل المصورون تخليد تلك اللحظة . بعد بضع دقائق، فتح حارس شخصي ذراعيه ليُبعد الصحافة، تاركاً الرجلين وحدهما، منفردين بحديثهما في هدوء الحديقة المشمسة .

في البيت المقابل، استمر تسجيل الأصوات في آلة التسجيل .

- هل أنت مرتاح لزيارتك، سيدي رئيس الوزراء؟

- نعم . استطعتُ الحصول على بعض الدعم وكثير من الهبات،

الحمد لله . عليّ أن أذهب أيضاً إلى فيلادلفيا حيث أمل في الحصول

على مزيد من الأموال. لكن ذلك لا يكفي أبداً، أليس كذلك؟ أمتنا الناشئة محاطة بالأعداء وهي بحاجة إلى كل المساعدة التي يمكن أن تحصل عليها.

- إن عمر إسرائيل لا يتجاوز ثلاث سنوات، سيدي رئيس الوزراء. ومن الطبيعي أن تكون هناك بعض الصعوبات.  
- لكن لا بدّ من المال لتجاوزها، يا أستاذ. الإرادة الحسنة وحدها لا تكفي.

برز ثلاثة رجال يرتدون بدلات سوداء، عند باب البيت المقابل، ووجهوا مسدساتهم التي يشدونها بكلتا اليدين نحو المجهولين اللذين يراقبان المشهد.

- لا تتحركا! - صاح الرجال المسلحون. نحن مكتب التحقيقات الفيدرالية! ارفعا الأيدي ولا تقوما بأي حركة مفاجئة.  
رفع الرجل ذو النظارتين السوداوين وزميله ذراعيهما، دون أن تبدو عليهما أدنى علامات الذعر. اقترب منهما رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية، وهم يُصوّبون مسدساتهم مهددين.

- انبطحاً أرضاً، كما قلتُ! - قال رجل مكتب التحقيقات الفيدرالية - لن أكرر هذا الأمر.

- لا داعي لذلك، يا رجال - ردّ الرجل ذو النظارتين السوداوين.

- انبطحاً أرضاً، قلتُ لكما! لن أكرر ذلك.  
- اهدأوا، أيها السادة. نحن من وكالة المخابرات الأمريكية.  
قطب شرطي مكتب التحقيقات الفيدرالية حاجبيه.  
- هل يمكنكما إثبات ذلك؟  
- نعم. إن أنتم تركتموني أخرج بطاقتي.

- حسناً. لكن بكل هدوء. لا أريد أي حركة نزقة.

أنزل صاحب النظارتين السوداوين ذراعه اليمنى ببطء، دسّ يده في معطفه وأخرج بطاقة عرَضَها على شرطي مكتب التحقيقات الفيدرالية. كانت البطاقة تحمل الخاتم الدائري لوكالة المخابرات الأمريكية، وتشير إلى اسمه فرانك بيلامي، شرطي من الدرجة الأولى. أشار رجل مكتب التحقيقات الفيدرالية إلى زملائه بأن يُنزلوا أسلحتهم ثم نظر من حوله وهو يتفحص القاعة.

- ماذا يفعل هنا «مكتب الخدمات الاستراتيجية».

- لم يعد هناك وجود لمكتب الخدمات الاستراتيجية، يا رجل، نحن وكالة المخابرات الأمريكية اليوم.

- أوكي. ماذا تفعل هنا وكالة المخابرات الأمريكية؟

- هذا الأمر لا يعنيك.

- إنكما تسجلان حديث عالمنا العبقري، أليس كذلك؟

- هذا الأمر لا يعنيك.

- إن القانون يمنعكم من تسجيل أحاديث مواطنين أمريكيين.

هل تعرفان ذلك؟

- رئيس الوزراء الإسرائيلي ليس مواطناً أمريكياً.

فكر رجل مكتب التحقيقات الفيدرالية قبل الرد. وفي الواقع،

استنتج، كان لدى جاسوس الوكالة المناهضة حجة جيدة.

- منذ عدة سنوات ونحن نحاول أن نتصت على صاحبنا ذلك

هناك - قال وهو ينظر إلى ظل أينشتاين عبر النافذة - لدينا معلومات

تفيد بأنه، رفقة تلك البغية كاتبته، يرسلان معلومات سرية إلى

السوفيات. لكن هوفر يمنعنا من وضع ميكروفونات، لأنه يخشى

كثيراً الفضيحة - ثم حكّ رأسه - يبدو أنكما تجاهلتما المشكلة.

لوى بيلامي شفته الرقيقتين، وورسم ما بدا مثل بقايا ابتسامة على فمه .

- لسوء الحظ أنكما من عناصر مكتب التحقيقات الفيدرالية -  
ثم أشار إلى الباب بحركة من ذقنه - الآن، اختفيا من هنا. دعوا  
الكبار يشغلون - ثم رفع شرطي مكتب التحقيقات الفيدرالية شفته في  
حركة احتقار.

- دائماً نفس البلداء، إيه؟ - دمدم قائلاً قبل أن يلتفت نحو  
الباب. النازيون الحقراء - ثم أوماً إلى زميليه - هيا بنا، أيها  
الرجلان.

وما إن غادر رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية حتى التفت  
بيلامي إلى النافذة ليرى اليهوديين يتحدثان جالسين في الحديقة  
المقابلة.

- أما زلت تسجل، يا بوب؟

- نعم - قال الآخر - إن الحديث قد دخل في مرحلة حاسمة.  
سوف أرفع حجم الصوت.

أدار بوب الزر فملاً الصوتان الغرفة من جديد.

- ... دفاع إسرائيل - قال بن غوريون - وهو يتم جملته على  
ما يبدو.

- لا أدري إن كنت أستطيع القيام بذلك - ردّ أينشتاين .

- ألا تستطيع ذلك أم أنك لا ترغب في ذلك، يا أستاذ؟

ثم ران صمت قصير .

- كما تعرف، أنا من دعاة السلم - استطرد أينشتاين - هناك  
كثير من المآسي في هذا العالم، ولا داعي لخلق مزيد منها. إننا



نلعب بالنار، سلاح كهذا يعطي قوة رهيبة ولا أدري إن كنا نملك ما يكفي من النضج للتعامل مع ذلك .

- لكن، أنت من أقنعت روزفلت بتطوير القنبلة .

- كان ذلك أمراً مختلفاً .

- كيف ذلك؟

- القنبلة كانت من أجل محاربة هتلر . أنا من أقنعت الرئيس بصنعها، لكن، هل تعرف، أنا نادم على ذلك اليوم .

- آه، فعلاً؟ وماذ لو أن النازيين طوّروا القنبلة أولاً؟ ماذا كان

سيحدث؟

- طبعاً - وافق أينشتاين متردداً - كانت ستكون كارثة . رغم أنه يعز عليّ أن أعترف بذلك، فإن صناعة القنبلة ربما كان شراً لا بد منه .

- إذن، أنت تعترف أنني على حق .

- أتظن ذلك؟

- طبعاً . ما أطلبه منك هو شر ضروري جديد لضمان بقاء أمتنا الفتية، أعني بهذا أنك قد تخليت عن دعوتك السلمية أثناء الحرب العالمية الثانية، وستفعل ذلك مرة أخرى لمساعدة إسرائيل على نشوئها . أريد أن أعرف إن كنت مستعداً للقيام بذلك .

- لست أدري .

تنهّد بن غوريون .

- أستاذ، إن خطر الموت يحدق بأمتنا الفتية . أنت تعرف كما أعرف أن إسرائيل محاطة بالأعداء وأنه يلزمنا سلاح ردع فعال، شيء ما يدفع بعيداً خصومنا . وإلا فإن البلد سيموت، مخنوقاً في المههد . لذلك، فإنني أطلب منك، أتوسل إليك وأرجوك بالحاح . رجاء،

تخلّ لآخر مرة عن دعوتك المسالمة وساعدنا في هذه اللحظة العصية .

- إن المسألة لا تختزل في هذا الأمر، سيدي رئيس الوزراء .

- وماذا، إذن؟

- المسألة أنني غارق في المشاغل . أحاول أن أتصور نظرية الحقل المُوحد، التي تشمل الجاذبية والكهرومغناطيسية . إنه عمل في غاية الأهمية، بل ربما هو أهم . . .

- هيا، يا أستاذ - قاطعه بن غوريون - أنا واثق أنك تتفهم أولوية الحالة الراهنة .

- طبعاً - اعترف العالمُ - لكن يبقى أن نعرف إن كان طلبكم قابلاً للتحقيق .

- وهل هو كذلك؟

- ربما - قال أخيراً - لست أدري، ينبغي أن أدرس المسألة .

- قم بذلك، يا أستاذ . قم بذلك من أجلنا، قم بذلك من أجل إسرائيل .

خربش فرانك بيلامي بعض الملاحظات بسرعة قبل أن يلقي نظرة على عداد الأسطوانة . كانت العقارب الحمراء تتأرجح على إيقاع الصوت لتدل على أن الحديث كان مسجلاً بشكل صحيح .

ظل بوب متبهاً للحديث إلى أن حرك رأسه .

- أظن أن لدينا الأهم، هل أوقفُ التسجيل؟ - قال .

- كلا - قال بيلامي - تابع التسجيل .

- لكنهما غيرا موضوع الحديث .

- لا بأس . ربما يرجعان إلى الموضوع بعد حين . تابع

التسجيل .

- ... أحياناً، لا أملك رؤية مألوفة عن الله، لكنني أجد صعوبة في الاعتقاد بأنه لا شيء يوجد وراء المادة - قال بن غوريون - لست أدري إن كان ما أقوله مفهوماً.  
- تماماً.

- انتبه - قال الرجل السياسي مُلحاً - إن دماغنا يتشكل من المادة، مثله مثل طاولة، لكن الطاولة لا تفكر. والحال أن دماغنا ليس سوى جزء من جهاز حي، تماماً مثل أظافرنا، لكن الأظافر لا تفكر. ودماغنا، إن فُصل عن الجسد، لا يفكر بدوره. إن التحالف بين الجسد والذهن هو ما يسمح بالتفكير. مما يقودني إلى فرضية أن الكون، في مجمله، جسد مُفكّر. ما رأيك؟  
- هذا ممكن.

- لقد سمعتُ دائماً أنك رجل ملحد، يا أستاذ، لكن ألا تظن أن ...

- كلا، أنا لستُ ملحداً.

- صحيح؟ هل أنت متدين؟

- نعم، أنا متدين. يمكن أن نقول ذلك.

- لكنني قرأت في مكان ما أنك ترى أن الكتاب المقدس غير

صحيح ...

ضحك أينشتاين.

- طبعاً، أظن ذلك.

- إذن، هذا يعني أنك لا تؤمن بالله.

- هذا يعني أنني لا أؤمن بإله الكتاب المقدس.

- وما هو الفرق؟

سُمعت تنهيدة.

- هل تعرف، في طفولتي، كنت طفلاً متديناً. لكن في سن الثانية عشرة، بدأت أطلع كتباً علمية، من تلك التي تبسط العلوم، لست أدري إن كنت تعرفها . . .

- نعم . . .

- . . . وخلصتُ إلى نتيجة مفادها أن معظم الحكايات الواردة في الكتاب المقدس لم تكن سوى حكايات أسطورية. فلم أعد أومن بين عشية وضحاها. بدأت أفكر في المسألة فأدركت أن فكرة إله مجسّد فكرةً ساذجة نوعاً ما، بل طفوليّة.

- لماذا؟

- لأن الأمر يتعلق بمفهوم مجسّد في صفات بشرية، وهُم صنعهُ الإنسان في محاولة للتأثير على مصيره ومنح نفسه عزاء في اللحظات العصبية. بما أننا لا نستطيع السيطرة على الطبيعة، فقد ابتكرنا فكرة أن من يديرها هو الله الخيّر الأبوي الذي يستمع إلينا ويقودنا. إنها فكرة تسلي النفس، أليس كذلك؟ صنعنا الوهم المتمثل في أنه لو صلينا كثيراً، فإن الله سيتحكم في الطبيعة ويلبّي رغباتنا، بطريقة سحرية. وحين تمشي الأمور بشكل سيّئ، بما أننا لا نفهم كيف يمكن لإله خيّر أن يسمح بذلك، نقول إن الأمر يخضع لقدر غامض ونظمئن لذلك. لكن، هذا الأمر لا معنى له، ألا ترى ذلك؟

- ألا تؤمن بأن الله يهتم بنا؟

- يجب أن تعرف، سيدي رئيس الوزراء، أننا نوع ضمن ملايين الأنواع التي تشغل الكوكب الثالث من نجم بعيد عن مركز مجرة متوسطة تضم مليارات النجوم، وهذا المجرة بدورها ليست سوى واحدة من مليارات المجرات الموجودة في الكون. كيف تريدني أن أومن بإله يتجشم عناء الاهتمام بكل واحد منا في كل هذه الشساعة ذات الأبعاد التي يستحيل تصورها؟

- حسناً، إن الكتاب المقدس يقول إنه إله طيب وقادر على كل شيء. وبما أنه قادر على كل شيء، فإنه يستطيع فعل كل شيء، بما في ذلك الاهتمام بالكون وبكل واحد منا.  
ضرب أينشتاين ركبته براحة يده.

- طيب وقادر على كل شيء، أهذا ما تقوله؟ لكن، هذه فكرة عبثية! إن كان، بالفعل، طيباً وقادراً على كل شيء، كما يقول الكتاب المقدس، فلأي سبب يسمح بوجود الشر؟ لأي سبب سمح بحدوث المحرقة، مثلاً؟ إن نظرنا جيداً، نجد أن المفهومين متناقضان. إن كان الله طيباً، فلا يمكنه أن يكون قادراً على كل شيء، ما دام غير قادر على إقصاء الشر. وإن كان قادراً على كل شيء، فلا يمكنه أن يكون طيباً، لأنه يسمح بوجود الشر. كل مفهوم ينفي المفهوم الآخر. فأأي المفهومين تفضل؟

- أوه... أفضل مفهوم إله طيب، أظن.

- لكن هذا المفهوم يطرح عدة مشكلات، هل انتبهت لذلك؟ إن قرأت الكتاب المقدس بتأن ستلاحظ أنه لا يعطي صورة إله خير، بل صورة إله غيور، إله يشترط وفاء أعمى، إله يجازي ويعاقب، إله قادر على أن يطلب من إبراهيم أن يقتل ابنه، فقط للحصول على دليل بأن الشيخ الجليل سيكون وفياً له. لكن، إن كان عليمًا بكل شيء، فإنه يعرف أن إبراهيم سيكون وفياً له. إذن، ما دام طيباً، فكيف يُنزل عليه هذا الابتلاء القاسي؟ إنه لا يمكن أن يكون طيباً.

أطلق بن غوريون قهقهه عالية.

- لقد سجلت عليّ انتصاراً، يا أستاذ! - صاح - حسناً، إن الله ليس طيباً بالضرورة، لكن، ما دام هو خالق الكون فإنه القادر على كل شيء، أليس كذلك؟

- وهل الأمر كذلك؟ إن كان قادراً على كل شيء، لماذا يعاقب

مخلوقاته ما دام كل شيء من خلقه؟ ألا يعاقبها لأمر هو المسؤول الوحيد عنها، في نهاية الأمر؟ وهو يحكم على مخلوقاته، ألا يحكم على نفسه أيضاً؟ في نظري، حتى أكون صريحاً، فقط عدم وجوده يمكن أن يغفر له ذلك - ثم لزم العالم لحظة صمت - من جهة أخرى، بتعميق التفكير في الأمر، حتى قُدرته على كل شيء لم تعد ممكنة. فالأمر يتعلق بفهوم يعج أيضاً بكثير من التناقضات التي يصعب حلها.

- مثلاً؟

- ثمة مفارقة تبرهن على استحالة القدرة الشاملة، يمكن أن نصوغها كما يلي: إن كان الله قادراً على كل شيء، فإنه يستطيع خلق حجر ثقيل جداً لا يستطيع هو نفسه أن يرفعه - رفع أينشتاين حاجباً متسائلاً - هل تفهمني؟ وهنا بالضبط يبرز التناقض. إن كان الله عاجزاً عن رفع الحجر، فإنه ليس قادراً على كل شيء. وإن أفلح في رفعه، فإنه أيضاً ليس قادراً على كل شيء لأنه فشل في خلق حجر لا يستطيع رفعه - ابتسم أينشتاين - والنتيجة أنه لا وجود لإله قادر على كل شيء. هذا وهم من أوهام البشر في سعيهم للعزاء وطريقة يشرحون بها ما لا يستطيعون فهمه.

- إذن، أنت لا تؤمن بالله.

- أنا لا أؤمن بالله كما هو مُجسّد في الكتاب المقدس، كلا.

- وتظن أنه لا وجود لأي شيء وراء المادة، أليس كذلك؟

- كلا، على العكس من ذلك. لا بد من وجود شيء ما وراء

الطاقة والمادة.

- إذن، بماذا تؤمن؟

- أؤمن بإله سبينوزا، الذي يتجلى في النظام المتناغم لما هو

موجود. أنا معجب بالجمال والمنطق الأساسي للكون، أو من ياله يكشف عن نفسه من خلال هذا الكون، ياله ي . . .

أدار فرانك بيلامي عينيه وحرك رأسه .

- يا إلهي! - همهم قائلاً - إنني لا أصدق ما أسمع .

تململ بوب فوق كرسيه ، قبالة آلة التسجيل .

- علينا أن ننظر إلى الجانب الإيجابي - قال . أتدري يا فرانك ،

إننا بصدد الاستماع إلى أكبر عبقري من بني البشر وهو يكشف عن

رأيه في الله . كم من الناس قد يدفعون مقابل الاستماع لهذا الأمر؟

- هذه ليست صناعة ترفيه ، يا بوب . يتعلق الأمر بالأمن القومي

وعلىنا أن نعرف المزيد عن الطلب الذي توجه به بن غوريون

لأينشتاين . لو حصلت إسرائيل على القنبلة النووية فكم يلزم من

الوقت لباقي دول العالم كي تمتلكها بدورها؟

- معك حق . سامحني .

- يجب أن نحصل على مزيد من التفاصيل .

- هذا صحيح . من الأحسن أن نستمع لحديث الرجلين .

- . . . إله سبينوزا .

ثم ران صمّت طويلاً .

كان بن غوريون هو أول من كسره .

- أستاذ ، هل تظن أنه من الممكن البرهنة على وجود الله؟

- كلا ، لا أظن ذلك ، سيدي رئيس الوزراء . يستحيل أن نبرهن

على وجود الله ، تماماً كما يستحيل أن نبرهن على عدم وجوده . لدينا

فقط القدرة على الشعور بالغامض ، والإحساس بنوع من الدهشة أمام

هذا النظام العجيب الذي يعبر عن نفسه من خلال الكون .

ثم ساد الصمت مرة أخرى .

- لكن، لماذا لا تحاول أن تبرهن على وجود أو على عدم وجود الله؟

- لأن هذا يبدو لي غير ممكن . لقد قلتُ لك ذلك للتو .

- لكن، لو كان ذلك ممكناً، فما هو السبيل إليه؟  
صمتُ .

وجاء الدور على أينشتاين ليأخذ وقتاً كافياً قبل أن يستأنف الكلام . استدار العالمُ العجوز برأسه وتأمل كل ذلك الاخضرار الذي يحف شارع ميرسير؛ تأمل بعيني العالمِ، تأمل بعيني الطفل، تأمل بعيني الرجل الذي يملك كل وقته ولم يفقد القدرة على الاندهاش حين يلتقي فصل الربيع .  
أخذ نفساً عميقاً .

- *Raffiniert ist der Herrgott, aber boshaft ist er nicht* -  
قال في الأخير .

بدا بن غوريون حائراً .

*Was wollen Sie damit sagen ?* -

*Die Natur verbirgt ihr Geheimnis durch die* -

*.Erhabenheit ihres Wesens, aber nicht durch List*

وجه فرانك بيلامي لكمة إلى حافة النافذة .

- اللعنة! - صاح متعجباً - ها هما الآن يتدحشان باللغة الألمانية .

- ماذا يقولان؟ - سأله بوب .

- وما أدراني! هل ترى أن لي وجه شخص من ألمانيا؟  
بدا بوب مرتبكاً .



- ماذا أفعل؟ هل أوصل التسجيل؟

- طبعاً. سوف نحمل الشريط بعد ذلك إلى الوكالة ليتكلف أحد أولئك الموهوبين الملائعين بترجمته - ثم رسم تكشيرة احتقار على شفتيه - مع كل أولئك النازيين الذين لدينا هناك لن يكون الأمر صعباً، أليس كذلك؟

أسند الشرطي أنفه إلى النافذة وظل هناك، يراقب الرجلين العجوزين في غمرة حديثهما في الجهة الأخرى من الشارع. كانا يبدوان مثل شقيقين، الواحد بجانب الآخر، فوق كرسيّ الحديقة، عند رقم ١١٢ من شارع ميرسير.

مكتبة

t.me/t\_pdf



# 1

في الشارع، كانت الفوضى تفوق الوصف. سياراتُ تبعّجت صفائِحُها، شاحناتُ صاخبة وحافلاتُ مدخنة تتسارع فوق الزفت الوسخ، ترتجف تحت الهدير وأصوات المنبهات. كانت رائحة البنزين المحروق تُشيع الهواء الساخن عند نهاية ذلك الصباح، بينما ضباب التلوث يلف البنايات الخربة. كان ثمة شيء من التدهور في منظر تلك المدينة العتيقة التي تحاول الالتحاق بالمستقبل وهي تتعلق بأسوأ مظاهر الحداثة.

متردّداً أي طريق يسلكه، توقّف الرجلُ ذو الشعر الداكن والعينين الخضراوين الفاتحتين أمام السُّلم وفكر في عدة خيارات. أمامه كانت تمتد ساحة التحرير، بمقاهيها المتعددة، لكن المشكلة تكمن في حركة السير المختنقة الناتجة عن تلك القطع من الحطام المتحرك. يستحيل المرور من هناك. استدار بنظره جهة اليسار. كان البديل هو أن يأخذ طريق «قصر النيل» ليصل إلى مطعم «غروبي» ويتذوق هناك بعض الحلويات مع الشاي. لكن الجوع كان ينخره، وشهيته لن تقنع ببعض الحلويات البسيطة. أما الإمكانية الأخرى، فهي أن يتجه يمينا ويتابع سيره على طول كورنيش النيل، حيث يرتفع فندق فخم يحمل نفس الاسم، به مطاعم راقية ومنظر رائع على النهر والأهرامات.

- هل هذه أول زيارة لك إلى القاهرة؟

أدار الرجل ذو العينين الخضراوين رأسه، يبحث عن الصوت  
الأنثوي الذي يناديه .

- عفواً؟

- أول زيارة لك إلى القاهرة؟

اقتربت منه امرأة ذات شعر طويل أسود . كانت تغادر المتحف  
وترسم على شفيتها ابتسامة ساحرة . لها عينا بلون كستنائي مذهب ،  
شفتان حمراوان شهوانيتان ، وياقوتتان محتشمتان في الأذنين . ترتدي  
بدلة رمادية مشدودة إلى جسدها وتنتعل حذاء كعب يُبرزُ تضاريس  
جسمها الرائعة .

جمال شرقي .

- كلا - غمغم الرجل . لقد زرتُ المدينة عدة مرات .

مدت له المرأة يدها .

- تشرفت بمعرفتك ، اسمي أريانا . أريانا باكرافان - قالت  
مبتسمة .

- كيف حالك؟

تصافحا ثم أخذت أريانا تضحك ضحكة خفيفة .

- ألا تقول لي ما اسمك؟

- آه! عفواً . اسمي طوماس . طوماس نورونيا .

- كيف حالك ، طوماسي؟

- طوماس - قال مصححاً - المدُّ يوجد فوق الألف .

- طوماس - ردّدت وهي تجتهد في تقليد اللكنة .

- نعم . إن النساء العريّات يجدن صعوبة في نطق اسمي .

- ومن قال لك إنني عربية؟

- أأنت عربية؟

- بالصدفة أنا لست عربية . أنا إيرانية .

- آه - قال ضاحكاً - لم أكن أعرف أن الإيرانيات بكل هذا الجمال .

تهلل وجه أريانا بابتسامة .

- أرى أنك رجل يحسن مغازلة النساء .

احمرّ وجه طوماس خجلاً .

- عفواً، كانت زلّة لسان .

- لا داعي لطلب العفو . كان ماركو بولو يقول إن الإيرانيات

هن أجمل نساء الدنيا - ثم رمشت بعينيها، في غنج - ثم هل هناك من امرأة لا تحب أن تسمع إطراء؟

ثم تفحص المؤرخ البدلة المشدودة إلى جسدها .

- لكن لباسك عصري للغاية . أنت من إيران، بلاد الآيات الله،

وهذا شيء مدهش .

- أنا حالة خاصة .

تأملت أريانا تلك الفوضى التي تلف ساحة التحرير .

- أخبرني، ألا تشعر بالجوع؟

- تسأليني إن كنت لا أشعر بالجوع؟ يا إلهي، يمكن أن ألتهم

عجلاً .

- إذن اتبعني . سوف آخذك لتذوق بعض الأطباق المحلية .

توجهت سيارةُ الأجرة نحو القاهرة الإسلامية، شرق المدينة .

وبينما كانت السيارة تعبر العاصمة المصرية، فسحت الشوارع

الواسعة للمدينة المجال لمتاهة من الأزقة الضيقة التي تعج بالحياة .

عربات تجرّها الحمير، مارة يرتدون جلابيات، باعة متجولون،

دراجات هوائية، رجال يلوحون بأوراق البردي، مقاعد لأكل

الطعمية، دكاكين تعرض سلعاً من النحاس والجلد، تجار

السجادات، والأثواب والعاديات التي خرجت لتوها من المعمل،

فسحات مقاهٍ حيث الزبناء يدخنون الشيثة، ومطاعم حقيرة تتصاعد  
منها روائح المقلبات، والزعفران، والخرقم والفلفل.  
تركتهما سيارة الأجرة عند باب مطعم في ساحة الحسين، مكان  
هادئ به حديقة تحت ظل صومعة مسجد.

كان «أبو الحسين» يبدو مطعماً ذا طابع غربي أكثر من معظم  
المطاعم المصرية الأخرى. كل الموائد مغطاة بأسمطة ذات بياض لا  
تشوبه شائبة، ويتوفر على شيء مهم في هذه المدينة هو الهواء  
المكيف، الذي كان يشتغل بشكل تام، ويملاً المطعم بانتعاش ممتع.  
جلسا قرب نافذة مظلة على مسجد سيدنا الحسين، فجاء النادل،  
يرتدي بدلة بيضاء، يحمل بطاقتين بقوائم الطعام، قدم واحدة لكل  
منهما. ألقى طوماس نظرة على القائمة وحرك رأسه.

- لا أفهم شيئاً في هذه القائمة.

نظرت إليه أريانا من فوق قائمة المأكولات في يدها.

- ماذا تريد أن تأكل؟

- اختاري عني. أستودعك أمري.

- هل أنت متأكد؟

- تماماً.

فحصت الإيرانية قائمة الطعام وطلبت الأطباق.

صوت مفاجئ، ذو نبرة حزينة، مزق السماء؛ كان هو المؤذن،  
الذي صعد إلى أعلى الصومعة وراح يرفع الأذان منادياً المؤمنين إلى  
الصلاة. انتشر لحن «الله أكبر» الرخيم عبر المدينة فلاحظت أريانا  
عبر الزجاج حشداً من الناس يتوجهون نحو المسجد.

- غريب - قال طوماس - ها نحن معاً نتناول الغداء، دون أن  
يعرف أي واحد منا شيئاً عن الآخر. أنت، مثلاً، لا تعرفين عني  
شيئاً آخر غير الاسم.

رفعت حاجبيها واتخذت هيئة مآكرة.

- أنت مخطئ.

- صحيح؟ - قال طوماس متعجباً - ولكنني لم أقل لك أي

شيء.

- لا داعي. لقد استعلمتُ بنفسي.

- حقاً؟

- بالطبع.

- لا أصدّقك.

- أتريدُ أدلّة؟ أعرف أنك برتغالي وأنك تُعتبر من أكبر الخبراء

العالميين في علم التشفير واللغات القديمة. كما أعرف أنك تُعطي

دروساً في إحدى جامعات لشبونة وتشتغل مستشاراً لدى مؤسسة

كولبنكيان، حيث تقوم بمراجعة ترجمة الكتابات الهيروغليفية

والمسمارية في النقوش الآشورية التي تملكها المؤسسة - كانت

تتحدث كما لو أنها تجتاز امتحاناً - ولقد جئتُ إلى القاهرة لإلقاء

محاضرة حول معبد الكرنك، واقتناء نصب الملك نارمير المحفوظ

في قبو المتحف المصري لصالح متحف كالوست كولبنكيان في

لسبونة.

- إنك تعرفين أشياء كثيرة. أنا مندهش جداً لذلك . . .

- أعرف أيضاً أنك عشت مأساة شخصية قبل عشر سنوات وأنك

تطلقت من زوجتك مؤخراً.

قطب طوماس حاجبيه، محاولاً تقييم الوضع. كانت هذه

المعلومات الأخيرة تتعلق بحياته الخاصة فشر بشيء من القلق لأن

أحداً ما نبش في ماضيه.

- كيف تستطيعين معرفة كل هذه الأمور بحق السماء؟

- أستاذي المحترم، هل تظن أنني واحدة من فتوحاتك السهلة؟

- ابتسمت أريانا وحركت رأسها - إنني هنا في مهمة وهذا الغداء

وجبة عمل، هل فهمت؟

بدا البرتغالي مُرتبكاً.

- كلا، إنني لا أفهم.

- فكّر بعض الشيء، يا أستاذ. أنا امرأة مسلمة، وفق هذا، كما

لاحظتَ قبل قليل، أنا من بلاد الآيات الله، حيث الأخلاق صارمة.

كم من النساء، في رأيك، يسألن رجلاً أوروبياً في الشارع ويدعونه

لوجبة غداء من دون سبب؟

- حسناً، في الحقيقة . . . ليست لدي أي فكرة.

- لا يمكن لأي امرأة أن تقوم بهذا في إيران، أستاذي المحترم.

ولا امرأة واحدة. إن كنا معاً جالسَيْن هنا، فلأن لدينا مسألة ينبغي أن

نعالجها.

- صحيح؟

وضعت أريانا مرفقيها على المائدة وحدقت في عيني طوماس.

- أستاذ، كما قلتُ لك، أعرف أنك جئت إلى القاهرة لإلقاء

محاضرة واقتناء قطعة أثرية مصرية قديمة لصالح متحف كالوست

كولبنكيان في لشبونة. لكنني استقدمتك إلى هذا المكان على أساس

أن أعرض عليك أمراً آخر - انحنيت، أخذت حقيبتها اليدوية

ووضعتها على المائدة - لديّ هنا نسخة من المخطوط الذي يمكن أن

يكون هو اكتشاف القرن - ثم داعبت حقيبتها اليدوية بأطراف أصابعها

- أنا هنا بأمر من حكومتنا كي أعرض عليك أن تشتغل لصالحنا في

ترجمة هذه الوثيقة.

ظل طوماس لحظة يحدق في الإيرانية.

- حسب ما فهمت، تريدون أن تتعاقدوا معي، أليس كذلك؟

- نعم، هو كذلك.

- أليس لديكم مترجموكم الخاصون؟

ابتسمت أريانا .

- لنقل إن هذا النص يدخل في إطار تخصصك .

- لغات قديمة؟

- ليس هذا بالضبط .

- علم التشفير؟

- نعم .

حك طوماس ذقنه .

- هممم - هممم - أي مخطوط هذا؟

اعتدلت الإيرانية في جلستها، بهيئة جدية تكاد تكون رسمية .

- قبل الدخول في هذا الموضوع، لدي شرط مسبق .

- تفضلي .

- ابتداء من هذه اللحظة، كل ما سيدور بيننا يعتبر أمراً سرياً . لا

ينبغي أن تكشف لأي كان عن محتوى حديثنا . هل فهمت؟ لأي

كان . إن لم نتوصل إلى اتفاق، عليك أن تلزم الصمت بخصوص كل

ما سأقوله لك - ثم حدثت في عينيه - هل كنت واضحة بما يكفي؟

- تماماً .

- هل أنت متأكد؟

- نعم . كوني مطمئنة .

فتحت أريانا حقيبتها اليدوية، ثم أخرجت ورقة وبطاقة عرضتها

على مُحاورها .

- هذه بطاقتي بوصفي موظفة لدى وزارة العلوم .

أخذ طوماس البطاقة . كانت مكتوبة فقط باللغة الفارسية وعليها

صورة أريانا تغطي رأسها بحجاب إسلامي .

- دائماً جميلة، إيه؟



ابتسمت الإيرانية .

- وأنت؟ هل تمارس دائماً مغازلة النساء؟

نظر المؤرخ إلى البطاقة مرة أخرى .

- لا أفهم شيئاً مما كتب على هذه البطاقة - قال، ثم أعاد إليها

الوثيقة بحركة غير مبالية - ربما تكون بطاقة مزيفة صنعها أحدهم في مطبعة ما .

ابتسمت أريانا .

- مع مرور الوقت سوف ترى أن كل شيء حقيقي - قالت وهي

تعرض الورقة - هذه وثيقة من وزارة العلوم تشهد على أصالة وصحة المخطوط الذي تمنى أن تشتغل عليه .

فحص البرتغالي الوثيقة وقرأها بكاملها . الوثيقة الرسمية، التي

تحمل الخاتم الإيراني، المرقونة باللغة الإنجليزية، تشهد على أن

أريانا باكرافان هي رئيسة فريق العمل المعين من لدن وزارة العلوم

والبحث والتكنولوجيا للجمهورية الإسلامية الإيرانية للقيام بفك شفرة

وتحقيق المخطوط الذي يحمل اسم « *Die Gottesformel* » . عند

أسفل الورقة، توقيع لا يُقرأ، يحمل اسم شافاق، وزير العلوم

والبحث والتكنولوجيا .

أشار طوماس بإصبعه إلى عنوان المخطوط .

- *Die Gottes* ماذا؟

- *Die Gottesformel* . إنها اللغة الألمانية .

- لقد فهمت أنها لغة ألمانية - قال مبتسماً - لكن، ما هذا؟

أخرجت أريانا ورقة أخرى من حقيبتها اليدوية، مطوية أربع

طيات؛ بسطتها ثم قدمتها إلى طوماس . كانت مرقونة بحروف كبيرة

على ورق به مربعات، وتظهر، فوق قصيدة وتوقيع، عبارة *DIE*

*GOTTESFORMEL* .

- هذه نسخة الصفحة الأولى من المخطوط - شرحت له المرأة  
- وكما ترى، يتعلق الأمر بنفس العنوان الذي ذكره الوزير شافاق في  
الوثيقة التي عرضتها عليك.

- نعم، *Die Gottesformel* - كرّر طوماس - لكن، ما هذا؟

- إنه مخطوط حرّثه واحدة من أكبر الشخصيات البشرية.

- من يكون؟ - سألها طوماس ضاحكاً - يسوع المسيح؟

- أرى أنك تحب المزاح.

- هيا، أخبريني من يكون؟

قطعت أريانا كسرة خبز، طلتها بالحمص وقضمتها بتشاقل

مقصود، كما لو أنها تريد أن تبرز القوة الدرامية لما ستكشف عنه.

- ألبرت أينشتاين.

فحص طوماس من جديد النسخة، بفضول متزايد.

- أينشتاين، تقولين؟ شيء مثير - ثم نظر إلى أريانا - وهذا

التوقيع، هل هو حقاً توقيع أينشتاين؟

- نعم.

- وهذا خط يده؟

- بالطبع. أجرينا عليه فحوصاً للتحقق من خط اليد أكدت

صحته.

- ومتى نُشر هذا النص؟

- لم يُنشر قط.

- كيف ذلك؟ أتقصد أنها وثيقة لم يسبق نشرها من قبل؟

- تماماً.

أطلق المؤرخ همهمة تخمين. كان الفضول الآن يحتدم كالنار

بداخله. فحص مجدداً النسخة، حروف العنوان، القصيدة والتوقيع.

ثم مال بعينه نحو الحقيبة اليدوية لأريانا الموضوعة فوق المائدة.

- وأين هي بقية أوراق الوثيقة؟

- في طهران.

- هل يمكنك أن تعطيني نسخة حتى أدرّسها؟

ابتسمت الإيرانية.

- كلا. يتعلق الأمر بوثيقة في غاية السرية. ينبغي لك أن تأتي

إلى طهران لتدرس المخطوط - ثم أمالت رأسها - ماذا لو ذهبت مباشرة إلى هناك؟

أخذ طوماس يضحك ثم رفع يده في الهواء، مثل شرطي يوقف حركة السير.

- بهدوء، ومن دون تسرع. أولاً، لست واثقاً من قدرتي على

إنجاز هذا العمل. في نهاية الأمر، أنا هنا في مهمة لصالح مؤسسة

كولبنكيان. من جهة أخرى، لدي التزامات في لشبونة، هناك دروس

لا بد . . .

- مئة ألف أورو - قاطعته أريانا دون أن يرمش لها جفن - نحن

مستعدون أن ندفع لك مئة ألف أورو.

تردد المؤرخ.

- مئة ألف أورو؟

- نعم. مع تحمّل كل النفقات.

- وكم مدة العمل؟

- ما يتطلبه ذلك من وقت.

- يعني؟ أسبوع؟

- شهر أو شهرين.

- شهر أو شهرين؟ - بدا طوماس مفكراً - هممم . . . لا

أدري إن كنت أستطيع ذلك.

- لماذا؟ نحن ندفع لك أكثر مما تدفع مؤسسة كولبنكيان

والجامعة، أليس كذلك؟

- كلا . ليس هذا . المشكلة أن لدي التزامات . . . لا يمكنني  
 ألا أحترمها هكذا بين عشية وضحاها ، أفهمين؟  
 انحنت أريانا على المائدة وحدقت فيه بعينها العسليتين .
- أستاذ ، مئة ألف أورو ، هذا مال كثير . ونحن ندفع لك مئة  
 ألف أورو شهرياً ، بالإضافة إلى النفقات .
- شهرياً ، تقولين؟
- شهرياً - قالت مؤكدة - إن استمر ذلك لمدة شهرين سوف  
 تتقاضى مئتي ألف أورو ، وهكذا دواليك .
- فكر طوماس في العرض . مئة ألف أورو شهرياً ، أي أكثر من  
 ثلاثة آلاف أورو يومياً . بعبارة أخرى ، سوف يكسب في يوم واحد ما  
 يكسبه في شهر بكامله في الكلية . فلماذا يتردد؟ ابتسم المؤرخ ومدّ  
 ذراعه فوق المائدة .
- اتفقنا .
- ثم تصافحا لإبرام الصفقة .
- إذن ، سوف ننطلق مباشرة نحو طهران - أضافت أريانا .
- هذا . . . غير ممكن - قال المؤرخ - عليّ أن أذهب ، أولاً ،  
 إلى لشبونة كي أرتب بعض الأمور .
- نحن بحاجة مستعجلة إلى خدماتك ، يا أستاذ . عندما يكون  
 المرء على وشك الحصول على مبلغ مهم فإنه لا يعبأ بأمور ثانوية .
- اسمعي ، يجب أن أذهب إلى مؤسسة كولبتكيان لأقدم تقريراً  
 عن اجتماعي بهيئة المتحف المصري ، ومن جهة أخرى ، يجب أن  
 أقوم بإجراء مهام معلقة في الكلية . بقي لي أن أعطي دروساً لإنهاء ما  
 تبقى من الفصل وينبغي أن أجد أستاذاً مساعداً ليقوم بذلك . بعد  
 ذلك ، سأكون مستعداً للذهاب إلى طهران .
- تنهدت الإيرانية وقد نفذ صبرها .

- إذن، بعد كم من الوقت تستطيع أن تذهب؟

- بعد أسبوع.

تنهدت أريانا ثم حرّكت رأسها.

- حسناً. أظن أننا نستطيع أن نصمد إلى غاية ذلك الحين.

أخذ طوماس النسخة من جديد وتفحص العنوان مرة أخرى.

- كيف وصل هذا المخطوط إلى أياديكم؟

- لا أستطيع أن أخبرك بذلك. هذا أمر لا يعنيك في شيء.

- حسناً. لكن، يمكنك أن تقولي لي ما هو الموضوع الذي

يتناوله أينشتاين في هذه الوثيقة التي لم تنشر من قبل.

تنهدت أريانا وهي تحرك رأسها.

- مع الأسف، هنا أيضاً لا أستطيع أن أوضح لك أي شيء.

- لا تقولي إنه أمر سري.

- طبعاً، إنه كذلك. كل ما يتعلق بهذا المشروع يدخل في إطار

السرية. هل فهمت؟ لكن، في هذه الحالة بالضبط، لا أستطيع أن

أجيبك لسبب بسيط ووجيه، وهو أننا نحن أيضاً، مهما بدا لك ذلك

غير قابل للتصديق، لا نستطيع فهم هذا النص.

- كيف ذلك؟ - ثم جحظت عينا طوماس من الدهشة - ما

صعوبة الأمر؟ أليس لديكم شخص يقرأ اللغة الألمانية؟

- المشكلة أن جزءاً من الوثيقة لم يُحرر باللغة الألمانية.

- ليس باللغة الألمانية؟

- كلا.

- إذن؟

- اسمع، ما سأقوله لك يتطلب سرية تامة، هل فهمت؟

- نعم، لقد قلت لي ذلك من قبل، كوني مطمئنة.

أخذت أريانا نفساً عميقاً.

- كل الوثيقة تقريباً محررة باللغة الألمانية ومكتوبة بخط يد أينشتاين. لكن، لأسباب ما تزال غامضة، هناك مقطع قصير مُشفر. فحصه خبراءنا في مجال التشفير واستنتجوا أنهم لن يفلحوا في العثور على مفتاحه لأن هذا المقطع كتب بلغة ليست هي الألمانية ولا الإنجليزية.

- ربما تكون العبرية؟

حرّكت الإيرانية رأسها.

- كلا. كان أينشتاين يتحدث العبرية بشكل سيئ. كان يعرف مبادئ اللغة لكنه كان بعيداً كل البعد من إتقانها. بل إنه لذلك تحاشى طقس البلوغ أو «البارمتزفا» في التقاليد اليهودية.

- إذن، بأي لغة يتعلق الأمر؟

- لدينا أسباب قوية لنشك في لغة بعينها.

- وما هي هذه اللغة؟

- البرتغالية.

فغر طوماس فاه، غير مصدق.

- البرتغالية؟

- نعم.

- لكن... لكن، هل كان أينشتاين يتحدث اللغة البرتغالية؟

- طبعاً، لا - قالت أريانا مبتسمة - ولكن لدينا أسباب تدفعنا

للاعتقاد بأن أحد مساعديه، ممن يتحدثون اللغة البرتغالية، هو من حرر ذلك المقطع القصير وقام بتشفيره.

- لكن، لماذا؟

- لم تتضح بعد أسباب ذلك. ربما لذلك علاقة بأهمية النص.

فرك طوماس عينيه كما لو أنه يحاول أن يلزم شيئاً من الصمت،

يربح بعض الوقت وينظم أفكاره، حتى يستخرج معنى مما سمعه للتو.

- مهلاً، مهلاً - طلب منها - هناك شيء لا أفهمه. هذا النص، هل هو نص لأينشتاين نُشر أم لم يسبق نشره؟
- لم يسبق نشره قط، طبعاً.
- هل حرّره أم لم يحرّره أينشتاين؟

- النص، في معظمه تقريباً، من تحرير أينشتاين، كتبه بخط يده. لكن، لسبب ما يزال غامضاً، فإن الجزء المهم من النص كتب بلغة مختلفة، مشفرة بدورها - ثم كررت أريانا كلامها ببطء، حتى يفهم جيداً ما تقوله - بعد تحليل المقطع المشفّر وفحص حكاية المخطوط، توصل خبراءنا في التشفير إلى استنتاج مفاده أنه من المحتمل جداً أن تكون لغة المقطع الأصلية هي اللغة البرتغالية.

حرك طوماس رأسه مؤكداً، بنظرات شاردة في نقطة لامتناهية.

- آه - مهم قائلاً - من هنا جاء اهتمامكم بشخصي ...
- تماماً - ثم فتحت أريانا ذراعيها كما لو أنها تبرز تلك البداية - إن كان المقطع المشفر من الوثيقة محرراً باللغة البرتغالية، فإنه من البديهي أننا بحاجة إلى خبير تشفير برتغالي، أليس كذلك؟
- أخذ المؤرخ نسخة الصفحة الأولى من المخطوط وفحصها بعناية. مسح بنظره العنوان المكتوب بحروف كبيرة، *DIE GOTTESFORMEL*، ثم تأمل القصيدة المرقونة تحته. وضع إصبعه على الأبيات الشعرية ونظر إلى أريانا.

- ما هذا؟

- قصيدةٌ مثل أي قصيدة شعر - رفعت الإيرانية أحد حاجبيها - إنها السطور الوحيدة المكتوبة باللغة الإنجليزية، باستثناء إشارة غريبة

قبل المقطع المشفر. ما تبقى كله باللغة الألمانية. هل تعرف اللغة الألمانية؟

ضحك طوماس.

- أعرف البرتغالية، والإسبانية، والإنجليزية، والفرنسية، واللاتينية، واليونانية، والقبطية. كما قطعتُ أشواطاً كبيرة في تعلُّم العبرية والآرامية، لكنني، مع الأسف، ما زلتُ بعيداً كل البعد عن إتقان اللغة الألمانية. أعرف فقط بعض مبادئها الأولية.

- بالفعل - قالت - هذا ما قرأته وأنا أقوم بأبحاثي عنك.

- أخبريني، هل قمت بأبحاث كثيرة عني؟

- لنقل إنني استعلمتُ عن الشخص الذي كنت بحاجة إلى التعاقد معه.

ألقي البرتغالي نظرة أخيرة على النسخة، وانتباهه دائماً منجذب نحو العنوان.

- *Die Gottesformel* - قال - ما هذا؟

- إنه عنوان المخطوط.

ضحك طوماس.

- شكراً! - قال وشرارة ساخرة تتطاير من عينيه - إلى حد هنا

فهمت، لكنني لا أعرف هذه العبارة باللغة الألمانية. ماذا تعني؟

- *Die Gottesformel* ؟

- نعم.

أخذت أريانا كأسها، عبّت جرعة من شراب الكركديه فشعرت بمذاق أوراق النبات تُحلّي لسانها. وضعت الشاي على المائدة وحدقت في طوماس.

- المعادلة الإلهية.

مكتبة

t.me/t\_pdf



# 2

أخْطَرَ الصوْتُ المتعددة النغمات الوارِدُ من الجيب طوماس بأن هناك من يتصل به على الهاتف. دسَّ يده في جيبه وأخرج الجهاز الصغير المُلبَّس بالكروم. على الشاشة عبارة «الوالدان».

- ألو؟

في الجهة الأخرى من الخط، ردَّ عليه صوتٌ مألوف كما لو أنه على بعد متر واحد.

- ألو؟ طوماس؟

- مساء الخير، أمي.

- أين أنت، يا ابني؟ هل عدت؟

- نعم، وصلت هذا الزوال.

- هل مرَّ كل شيء على أحسن ما يرام؟

- نعم.

- آه، يا إلهي! كل مرة تسافر فيها أظل أنا في حالة من الذعر.

- آه، أمي، كُفِّي عن هذا! في أيامنا هذه، ركوب الطائرة أمر

عادي تماماً. انتبهي، إن ذلك مثل ركوب الحافلة أو القطار، الفرق أن الطائرة أسرع وأوفر راحة.

- رغم ذلك، هذا الأمر دائماً يصيبني بالقلق. ثم إنك كنت في

بلد عربي، أليس كذلك؟ إنهم مجانيين هناك، يقضون كل وقتهم في

- تفجير القنابل وقتل الناس، شيء فظيع. ألا تشاهد نشرات الأخبار؟
- إنك تبالغين! - ضحك الابن - إنهم ليسوا أشراراً إلى هذا الحد! بل إنهم ظرفاء للغاية وجد مهذبين.
- طبعاً، إلى أن تنفجر القنبلة التالية.
- تنهّد طوماس وقد نفذ صبره.
- حسناً، حسناً - قال وهو غير مستعد إطلاقاً لمواصلة هذا الحديث - المهم أن كل شيء مر على أحسن ما يرام وقد عدت.
- هذا جيد.
- وأبي، كيف حاله؟
- تردّدت الأم في الجهة الأخرى من الخط.
- أبوك... هممم... حاله ليست سيئة.
- هذا جيد - أجابها طوماس، دون أن ينتبه إلى ترددها -
- وأنت، أمي؟ أما زلت تتصفحين مواقع الإنترنت؟
- نوعاً ما.
- لا تقولي لي إنك تزورين مواقع إباحية - قال الابن مازحاً.
- هيا، كف عن قول هذه الحماقات - قالت الأم محتجة - ثم
- تنحنحت - اسمع، يا طوماس، سوف نحل أنا وأبوك غداً بمدينة لشبونة.
- هل تأتبان غداً؟
- نعم.
- إذن، لا بد أن نتناول الغداء معاً.
- طبعاً. سوف ننطلق باكراً من هنا، وقد نصل حوالي الساعة الحادية عشرة، أو عند منتصف النهار.
- إذن، تلحقان بي في مؤسسة كولبنكيان على الساعة الواحدة زوالاً.

- الواحدة زوالاً في مؤسسة كولبنيكيان؟ اتفقنا .

- لكن، ما سبب هذه الزيارة؟

ترددت الأم مرة أخرى .

- نتحدث في الأمر غداً، يا بني - قالت لتنهى كلامها -

نتحدث في الأمر غداً .

هندسة البناية الإسمنتية، بخطوطها الأفقية، كانت بنيةً لازمنيةً تبرز من الخضرة مثل بناء مغليتي، كأنها دُلمِنٌ ضخْمٌ يرتفع فوق ربوة معشوشبة . بينما كان يصعدُ المنحدرَ تأمل طوماس البناية بنفس الافتتان المعهود، بنفس الإحساس بأنه أمام أكروبول حديث، معلمة ميتافيزيقية، حجر ضخْمٌ مبلَّطٌ مندمج في حديقة مُشجرة كما لو أنها كانت دائماً جزءاً منها .  
مؤسسة كولبنيكيان .

ولج باحة الدخول، يحمل منديلاً في يده، ثم صعد السلالم الواسعة . كانت نوافذ زجاجية كبيرة تشق الجدران السميقة، وتُدْرُجُ البناية في الحديقة، تُدمجُ البنية الاصطناعية في المنظر الطبيعي، والإسمنت في النباتات . مرّ عبر الصالة الكبرى لقاعة المحاضرات، ثم ولج المكتب بعد أن طرق الباب .

- صباح الخير أليبرتينا، كيف حالك؟

كانت الكاتبة تضيف إلى الأرشيف بعض الوثائق وتضعها في الخزانة . التفتت نحوه وابتسمت .

- صباح الخير، أستاذ . هل رجعت؟

- كما ترين .

- هل مرّ كل شيء على ما يرام؟

- بشكل رائع . هل الأستاذ فيتال هنا؟

- لا. إنه في اجتماع مع مستخدمي المتحف. لن يعود قبل الظهيرة.

ظل طوماس متردداً.

- حسناً... جئت لأسلمه تقريراً عن زيارتي إلى القاهرة. لا أدري ما أفعل الآن. ألا يُستحسن أن أمرّ من جديد هذه الظهيرة؟  
- جلست ألبيرتينا إلى مكتبها.

- اتركه هنا - اقترحت - سأسلمه التقرير عندما يعود. إن كانت لديه أسئلة فسوف يتصل بك، هل توافق على هذا؟  
فتح المؤرخ محفظته وأخرج منها بعض الأوراق المشدودة بشبك عند طرفها.

- حسناً - قال وهو يسلم الأوراق إلى الكاتبة - أترك لك التقرير. يمكنه أن يتصل بي إن احتاج إلى ذلك.  
استدار طوماس ليخرج، لكن الكاتبة أوقفته.  
- آه، أستاذ.

- نعم؟

- اتصل الأستاذ غريغ سوليفان، من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية. طلب أن تتصل به في أقرب وقت ممكن.

رجع المؤرخ عبر نفس الطريق وذهب إلى مكتبه في الطابق السفلي، غرفة صغيرة يشغلها عادة مستشارو المؤسسة. جلس إلى مكتبه وباشر العمل يُحضّر خطاطة الدروس التي بقي له أن يعطيها قبل نهاية الفصل.

كانت نافذة المكتب تطل على الحديقة حيث الأوراق والعشب يموجان على إيقاع الريح، وقطرات الماء المنبجسة من آلات الرش تلمع تحت أشعة شمس الصباح. اتصل بأستاذ مساعد ورتب تفاصيل الدروس، ووعد بأن يترك لدى كتابة الكلية التصاميم التي أكملها

للتو. بعد ذلك، بحث في قائمة هاتفه المحمول عن رقم الملحق الثقافي للسفارة الأمريكية، واتصل به.

- معك سوليفان.

- سلام غريغ. أنا طوماس نورونيا، من مؤسسة كولبُنكيان.

- أهلاً طوماس! كيف حالك؟

كان الملحق الثقافي يتكلم البرتغالية بلكنة أمريكية قوية، ونبرة أنفية حادة.

- أنا بخير. وأنت؟

- Great. كيف كانت القاهرة؟

- عادية. أظن أننا سنعقد الصفقة ونقتني النصب. والقرار، الآن، يعود إلى الإدارة، بطبيعة الحال. لكن انطباع إيجابي والشروط تبدو لي مقبولة.

- لا أعرف أي شيء خاص تجدونه في تلك الأشياء المصرية القديمة - قال الأمريكي ضاحكاً - أظن أن هناك أشياء أكثر أهمية تستحق أن يُنفق عليها المال.

- إنك تقول هذا لأنك لست مؤرخاً.

- ربما - قال ثم غير نبرة كلامه - طوماس، حاولت أن أتصل بك لأنه عليك أن تمر إلى السفارة.

- آه، نعم؟ ماذا يجري؟

- إنها مسألة... على أي... لا يمكن الحديث عنها عبر الهاتف.

- لا تقل إن لديك أخباراً تتعلق بالاقتراح الذي تقدمنا به لمتحف «غيتي سينتر». هل يكونون قد قبلوا ذلك، أخيراً، في لوس أنجلوس...  
أنجلس...

- لا ، لا يتعلق الأمر بهذا - قاطعه سوليفان - إنه شيء آخر .  
- هممم - هممم طوماس ، وهو يحاول أن يتكهن بأي شيء يتعلق ذلك . ربما يكون خيراً يتعلق بالمتحف العبراني ، فكَرَّ . منذ أن بدأ يتعلم العبرية والآرامية ، كان الملحق الثقافي الأمريكي عادة ما يقترح عليه أن يذهب إلى نيويورك ليزور المتحف - حسناً . متى تريدني أن آتي .

- هذا الزوال .

- هذا الزوال؟ لست أدري إن كنتُ أستطيع ذلك . سيكون والداي هنا بعد حين وعليّ أن أمرّ إلى الكلية أيضاً .

- طوماس ، يجب أن تمر هذا الزوال .

- لكن ، لماذا؟

- وصل شخص ما من الولايات المتحدة . أخذ الطائرة خصيصاً كي يأتي ليتحدث معك .

- ليتحدث معي أنا؟ ومن يكون؟

- لا يمكنني أن أخبرك عبر الهاتف .

- هيا ، أخبرني من يكون .

- لا أستطيع ذلك .

- هل تكون أنجلينا جولي؟

ضحك سوليفان .

- يا إلهي ، إنك مهووس بأنجلينا جولي . هذه ثاني مرة تحدثني عنها .

- فتاة ذات جمال أخاذ . . . لنقل . . . جدير بالتقدير - علق

طوماس مبتسماً - لكن ، هذا الشخص ليس أنجلينا جولي ، فمن يكون؟

- سوف ترى .

- انظر يا غريغ، لدي مشاغل أخرى عدا تحمُّل مزاحك، أفهمت؟ أخبرني من يكون وإلا لن تطأ قدمي ذلك المكان.  
تردّد الملحق الثقافي في الجهة الأخرى من الخط.  
- أوكي، سوف أعطيك إشارة. لكن تعديني أنك ستكون هنا عند الساعة الثالثة زوالاً.

- الرابعة.

- حسناً، الرابعة هنا في السفارة. إنني أعول عليك، اتفقنا؟

- كن مطمئناً، يا غريغ.

- ممتاز. أراك قريباً، إذن.

- انتظر - قال طوماس - إنك لم تعطني أية إشارة بعد، يا رجل.

- كنت آمل أن تنسى ذلك.

- أنت ماكر، هيا، أعطني تلك الإشارة.

- المسألة سرية، هل تفهم؟

- نعم، نعم. أفهم ذلك. لكن، هيا، اكشف عن الإشارة.

- أوكي - قال الأمريكي موافقاً، ثم أخذ نفساً عميقاً -  
طوماس، هل سبق لك أن سمعت شيئاً عن وكالة المخابرات الأمريكية؟

ظن المؤرخ أنه لم يسمع جيداً.

- ماذا؟

- نتحدث في الأمر هذا الزوال. إلى اللقاء.

ثم قطع المكالمة.

كانت ساعة الحائط تشير إلى الواحدة إلا عشر دقائق عندما طرق أحدهم باب المكتب. دار المقبضُ ورأى طوماس وجهاً مألوفاً يطل،

امرأة ذات شعر أشقر مجعد، بنظارتين سميكتين تحجبان عيني  
خضراوين فاتحتين، هما نفس العينين اللتين ورثهما عنها.  
- ممكن؟

- أمي! - صاح المؤرخ وهو ينهض - هل أنت بخير؟

- ابني العزيز - قالت وهي تضمه وتعانقه بكل حنان - كيف  
حالك؟

ومن خلفها سُمع سعالٌ جاف أعلنَ عن قدوم وجه آخر.

- أهلاً، أبي - حياه طوماس، وهو يمد يده بكل لطف.

- سلام، ابني. كيف حالك؟

تصافحا، محرجين شيئاً ما، كعادتهما دائماً عندما يلتقيان.

- كل شيء على ما يرام - قال طوماس.

- متى ستجد امرأة تعتني بك؟ - سألته أمه - لقد بلغت اثنين

وأربعين عاماً، وينبغي أن تعيد بناء حياتك، يا ولدي.

- حسناً، إنني أفكر في الأمر.

- يجب أن تهبنا حفدة.

- طبعاً، طبعاً.

- أليس هناك من وسيلة حتى تقوم أنت وكونستانسا . . . أعني

. . . أنتما

- ليس هناك من وسيلة - قاطعها طوماس، ثم نظر إلى الساعة

وهو يحاول تغيير الموضوع - ماذا لو ذهبنا لنأكل؟

تردّدت الأم.

- حسناً، ولكن . . . لكن يستحسن أن نتكلم بعض الشيء.

- نتحدث في المطعم - أوماً بحركة من رأسه - هيا بنا. لقد

حجزت مائدة و . . .

- علينا أن نتحدث هنا - قالت أمه مقاطعة.



- هنا؟ - قال الابن مندهشاً - ولكن، لماذا؟

- لأنه ينبغي أن نتحدث وحدنا. دون أي شخص من حولنا.

بدا طوماس منشغلاً ثم أغلق باب المكتب بكل هدوء. سحب

كرسيين جلس عليهما والداه، ثم التحق بمكانه، خلف المكتب.

- ماذا إذن؟ - سأل وهو يحدجها بنظرة متسائلة - ما الذي

يجري؟

بدا أبواه محرجين. نظرت الأم إلى ابنها مترددة، كما لو أنها

تنتظر منه أن يبدأ الحديث. وبما أنه ظل صامتاً، أخذت المبادرة

وبدأت الكلام.

- أبوك لديه شيء ما يريد أن يحدثك عنه - قالت ثم نظرت مرة

أخرى إلى زوجها - أليس كذلك يا مانويل؟

عدّل الأب جلسته فوق الكرسي وسعل.

- إنني منشغل لأن أحد زملائي اختفى - قال وهو يبدو قلقاً -

أوغوستو . . .

- مانويل - قاطعته المرأة - لا تبدأ في الهذيان.

- إنني لا أهذي. اختفاء أوغوستو تركني منشغلاً، ماذا تريدان؟

- نحن لم نأت إلى هنا لتتحدث عن أوغوستو.

كانت نظرات طوماس تنتقل من أحدهما إلى الآخر.

- من هو أوغوستو؟

قلّبت الأم عينيها، مستاءة.

- إنه الأستاذ أوغوستو سيزا، زميل والدك في الجامعة. يدرّس

الفيزياء واختفى منذ أسبوعين.

- آه، فعلاً؟

- يا بني، هذه القصة لا تعيننا. نحن هنا لسبب آخر - قالت،

ثم نظرت إلى زوجها - أليس كذلك، يا مانويل؟

طأطأ مانويل نورونيا رأسه وتفحص أظافره، التي اصفرّت بعد سنوات طويلة من مداعبة التبغ. جالساً وراء المكتب، تفحص طوماس والده. كان أصلع تقريباً، ولم يعد يقاوم الصلغ غير دائرة من الشعر الأشيب المنسدل على أذنيه ورقبته. حاجباه، الكشان المتمردان، كانا يشيبان ووجهه غائر. أما وجنتاه الناتئتان، فكانتا تغطيان عينيه الصغيرتين بلونهما الكستنائي الفاتح. تجاعيد كبيرة تحزّت وجهه مثل ندوب. وحقيقة الأمر أن والده أصبح عجوزاً؛ عجوزاً ونحيفاً، بجسد ضامر وجاف، لم يعد فيه غير الجلد والعظام. كان يبلغ سبعين عاماً، وقد بدأت وطأة السنين تثقله، ويبدو أمراً لا يصدق أنه ما زال يلقي دروس الرياضيات في جامعة كويمبرا. وحدهما جلاء وعيه وموهبته كانا يسمحان له بذلك، ورغم هذا كان لا بد له من ترخيص خاص من لدن رئيس الجامعة؛ وإلا لكان قد ذُبل في بيته منذ وقت طويل.

- مانويل - ألحّت المرأة - هيا، تكلم. أحذرك أنه إن لم تقل شيئاً، فسأخبره بنفسى.

- يقول ماذا؟ - سألها طوماس، وقد حيّره هذا السر.

- سوف أخبره - قال الأب.

لم يكن أستاذ الرياضيات شخصاً ثرثاراً. اعتاد الابن أن يراه، مع مرور السنين، مثل كائن قصي، رجل صموت، دائماً بسيجارة في يده، يغلق على نفسه في مكتب القبو، متشبث بقلم أو طبشورة، منقطع عن الحياة، كأنه زاهد من زهاد التجريد. كان عالمه يتلخص في نظريات كانتور، وهندسة إقليدس، ومُبرهنات فيرمات وغودل، وكسورية ماندلبروت، ونظام لورينتز؛ إمبراطورية الأرقام. كان يعيش في سحابة من المعادلات والتبغ، غارقاً في عالم وهمي، بعيداً عن الناس، في عزلة زهد، يجهل أسرته تقريباً. كان عبداً للنيكوتين

والألغوريتمات، والصيغ والدالات، ونظريات المجموعات  
والاحتمالات، نظريات التماثل، وحرفي «بي» و«في»؛ كان عبداً  
لكل ما يمت لذلك بصلة. عبداً لكل شيء.  
باستثناء الحياة.

- لقد زرتُ الطبيب - قال مانويل نورونيا، كما لو أنه لم يعد  
لديه ما يضيف.

ثم ران صمّت.

- نعم؟ - قال الابن مُشجعاً.

فهم الأستاذ العجوز أنهما ينتظران منه أن يتابع كلامه، فتململ  
في كرسيه.

- بدأتُ أسعل منذ مدة، منذ سنتين أو ثلاث سنوات - قال،  
وسعل مرتين، كما لو أنه يريد أن يعطي مثلاً - في البداية، ظننتُ  
أنه زكام، ثم اعتقدتُ أنها الحساسية. المشكلة أن سعالي استفحل،  
وفقدت الشهية. أصبحت نحيفاً وبدأت أشعر بالوهن. بما أن  
أوغوستو طلب مني وقتها أن أتأكد من بعض المعادلات، عزوتُ  
وهني وفقدان الوزن إلى العمل المفرط - رفع يدهُ إلى صدره - بعد  
ذلك، بدأت أشخر - ثم أخذتُ نفساً عميقاً، ليبرز شخيراً نابع من  
صدره - طلبتُ مني أمك أن أزور الطبيب، بيد أنني لم أفعل. بعد  
ذلك، ألمّت بي آلام قوية في الرأس وفي العظام. بقيت مُصرّاً على  
أن ذلك راجع للعمل، لكن أمك ألحت عليّ كثيراً حتى قبلتُ بأن  
أخذ موعداً لدى الدكتور غوفيا.

- أبوك مثل حيوان بري، كما تعرف - قالت الأم - اضطرتت  
تقريباً لأجرّه جراً إلى العيادة.

ظل طوماس صامتاً. لم يكن مرتاحاً لمنحى الحديث، وتنبأ  
بالنتيجة المنطقية ليفهم أن والده كان يعاني من مشكلة صحية.

- أمرني الدكتور غوفيا بإجراء بعض الفحوصات - استطرد مانويل نورونيا قائلاً - فحسوا دمي وأجروا لي كشوفات بالأشعة. عاين الطبيب النتائج وأمرني باتباع علاج مضاد للسرطان. بعد ذلك، استقبلنا في عيادته، أنا وأمك، وأخبرنا أنه اكتشف بعض البقع في رثتي وانتفاخاً في العقد اللمفاوية. كما أعلن أنه يجب عليّ أن أقوم بفحص النسيج من أجل تحليل عينة تحت المجهر والتأكد من طبيعتها. أخذتُ موعداً لإجراء عملية فحص القصبة الهوائية، من أجل أخذ قطعة نسيج من الرئتين.

- أوف! - صاحت الأم وهو تدير عينيها - كانت تلك العملية مجزرة حقيقية.

- وكيف كان لها ألا تكون كذلك؟ - سألتها الأب وهو يحدجها بنظرة مغتظة - وددت لو كنت مكاني. ربما كان أمراً مثيراً - قال ثم نظر إلى ابنه كأنه يبحث عن نصير - أدخلوا أنبوباً صغيراً في أنفي ثم أنزلوه عبر حنجرتي حتى الرئتين - وأشار بإصبعه إلى مسار المسبار بكامله - بالكاد كنتُ أستطيع أن أتففس، كان شيئاً فظيماً.

- وماذا كانت نتيجة الفحص؟ - سألت طوماس وقد بدأ صبره ينفد.

- حسناً. لقد فحصوا عينة أخذوها من البقعة على رثتي وأخرى من العقد اللمفاوية. بعد مرور بضعة أيام، استدعانا الدكتور غوفيا لاجتماع آخر. وبعد خطاب طويل، قال في النهاية... إيه... - نظر إلى زوجته - غراسا، أنت تذكرين جيداً مثل هذه الأمور، كيف قال ذلك؟

- لن أنسى ذلك أبداً - لاحظت غراسا نورونيا - لقد أطلق على ذلك اسم «تكاثر متسارع لخلايا أغشية نسيج القصبة وحوصلات الرئة».

حذق طوماس في أمه، ثم في أبيه، ومرة أخرى في أمه.

- وماذا يعني هذا، بالضبط؟

تنهّد مانويل نورونيا، ليظهر بكل وضوح ذلك الشخير الذي يصعد من صدره.

- لدي سرطان، يا طوماس.

سمعه الابن وحاول أن يستوعب تلك المعلومة في ذهنه، لكنه ظل جامداً، من دون أي ردة فعل.

- سرطان؟ كيف ذلك، سرطان؟

- سرطان الرئة - قال ثم أخذ نفساً عميقاً مرة أخرى - في البداية، لم أصدق ذلك. ظننتُ أنهم غيروا العينات المفحوصة، فوضعوا اسمي على ورقة فحص شخص آخر. غادرتُ العيادة وتوجهت لأستشير طبيباً آخر، الدكتور أسيس، الذي أجرى لي فحوصات أخرى، قبل أن يوجه لي خطاباً مطولاً يشرح فيه أنني أعاني من مشكلة مزعجة تتطلب العلاج، دون أن يفصح عن طبيعتها. انحنيت الزوجة فوق الكرسي.

- بعد ذلك اتصل بي الدكتور أسيس كي أذهب لمقابلته - قالت غراسا - عندما وصلتُ إلى هناك أخبرني بما كان الدكتور غوفيا قد كشفه لنا. أعلن أن والدك كان يعاني من . . . أي، هذا المرض، لكنه لم يكن يعرف إن كان عليه أن يخبره بذلك أم لا.

أوماً عالم الرياضيات بحركة استسلام.

- هكذا اقتنعتُ بالأمر وعدت إلى الدكتور غوفيا، الذي شرح لي أن مشكلتي تسمى . . . اسم غريب، «سرطان لست أدري أي شيء». يتعلق الأمر بسرطان يصيب الرئة، وخاصة الخلايا الصغيرة من هذا العضو.

- وهذا بسبب التبغ - دمدمت الزوجة - قال الدكتور غوفيا إن

تسعين في المئة من سرطانات الرئة سببها هو التدخين . والحال أن والدك كان يدخن مثل مدخنة! - قالت ورفعت إصبعاً توبيخياً - كم مرة قلت له: مانويل، عليك أن تكف عن . . .

- مهلك قليلاً، يا أمي - قاطعها طوماس، وقد هزّه الخبر، ثم نظر إلى والده - هذا المرض يُعالج، أليس كذلك؟ وكأنه يقدم جواباً، سعل مانويل نورونيا .

- يؤكد الدكتور غوفيا أن هناك عدة طرق لعلاج هذا الداء . هناك الجراحة، لاستئصال الغدد السرطانية، كما أن هناك العلاج الكيماوي والعلاج بالأشعة .

- أي علاج سوف تخضع له؟  
ران صمّتُ قصير .

- بالنسبة لحالتي - قال الأب في النهاية - وحسب الدكتور غوفيا، هناك نوعان من التعقيدات الشائعة في مثل هذا النوع من السرطانات .

- وما هما؟

- لقد تم الكشف عن السرطان الذي أصابني في وقت متأخر نوعاً ما . ويبدو أنه، فيما يتعلق بسرطان الرئة، يحدث هذا في خمسة وستين في المئة من الحالات . تشخيص متأخر - قال وهو يسعلُ - أما التعقيد الثاني فهو ناتج عن الأول . بما أنه لم يتم الكشف عن المرض في الوقت المناسب، فإنه انتشر في أجزاء أخرى من الجسد . تشكلت بعض الأورام في العظام والدماغ . ويقول الدكتور غوفيا إنه من الطبيعي أن تغزو الكبد بدوره .

شعر طوماس أنه مشلول، وعيناه تحدقان في والده .

- يا إلهي! - صاح - وما هو العلاج، إذن؟

- الجراحة أمر مُستبعد . لقد انتشرت الأورام، مما يعني أن

حالتني غير قابلة للجراحة. أما العلاج الكيماوي، فغير ممكن، لأنه لا يكون فعالاً إلا إذا كان السرطان يصيب خلايا صغيرة. وأنا، على ما يبدو، أعاني من النوع الآخر من السرطان الذي يصيب خلايا غير صغيرة، وهذا النوع هو سرطان الرئة الأكثر انتشاراً.

- إذا كنت لا تستطيع أن تخضع لعملية جراحية ولا أن تتبع علاجاً كيماوياً، فما الذي ستقوم به؟  
- علاج بالأشعة.

- وهل ستشفى بهذا العلاج؟  
- يقول الدكتور غوفيا إن لديّ إمكانيات كبيرة لأنجح في ذلك، لأن تطور المرض، في سني، ليس سريعاً، وإنه يتحتم عليّ أن أتعاش معه كما لو كان مرضاً مزمناً.  
- آه.

- لكنني قرأت أشياء كثيرة بخصوص هذا الموضوع، وأشك في أنه كان صريحاً معي تماماً.

تململت الزوجة فوق الكرسي، وقد أزعجتها هذه الملاحظة.  
- يا للحماقة! - قالت محتجة - لقد كان صريحاً، بالطبع.  
نظر عالم الرياضيات إلى زوجته.

- غراسا، لن نبدأ في الشجار مرة أخرى، اتفقنا؟  
التفتت غراسا نحو ابنها، وكانت هي من تبحث عن نصير لها الآن.

- أرايت هذا؟ ها هو مهووس تماماً بأنه سيموت!  
- ليس هذا - احتج الزوج - قرأتُ بعض الأمور، وأدركت أن الهدف من العلاج بالأشعة ليس هو الشفاء، بل فقط تأخير تطور المرض.

- تأخير؟ - سأله الابن - كيف ذلك؟

- تأخير المرض . أي إبطاء تطوره .

- لكم من الوقت؟

- لا أعرف شيئاً! في حالتي، قد يكون شهراً، سنة، ليست لدي

أي فكرة . - قال وقد اغرورقت عيناه - أتمنى أن تكون عشرين .

لكن، ربما يكون شهراً واحداً، لست أدري .

شعر طوماس أن الأرض تنفلت من تحت قدميه .

- شهر؟

- يا إلهي، يا له من هوس! - قالت غراساً محتجة . ها قد بدأ

والدك يُهَوِّل كل شيء مرة أخرى . . .

دخل أستاذ الرياضيات العجوز في نوبة سُعال . تجاوزها

بصعوبة، أخذ نفساً عميقاً ثم حدق بعينه المغرورقتين في عيني ابنه

الخضراوين .

- طوماس، إنني أموت شيئاً فشيئاً .



# 3

بلغت الإجراءات الأمنية عند مدخل سفارة الولايات المتحدة الأمريكية، وهي بناية واقعة في ركن مخضر من سيطي ريوش، أبعاداً مثيرة للضحك. اضطر طوماس نورونيا ليجتاز حاجزين من حواجز الشرطة وتم تفتيشه مرتين قبل أن يجتاز نظاماً للكشف عن المعادن ويضع عينه داخل جهاز بيومتري صغير للكشف عن المشتبهين من خلال القزحية؛ ناهيك عن المرأة التي دسها حراس الأمن تحت سيارته الزرقاء للكشف عن أي متفجر قد يوضع تحتها. كان يعرف أنه منذ الحادي عشر من سبتمبر عرفت الإجراءات الأمنية تعزيزاً كبيراً، لكنه لم يكن ينتظر كل هذا؛ فهو لم يضع قدميه في هذا المكان منذ مدة طويلة وما كان أبداً ليتصور أن الولوج إلى المحيط الدبلوماسي قد تحول إلى اختبار حقيقي لاجتياز حواجز متعددة.

استقبله غريغ سوليفان بابتسامة عريضة عند مدخل السفارة. كان الملحق الثقافي رجلاً في الثلاثين من عمره، بشعر أشقر وعينين زرقاوين، أنيق الملبس جميل المظهر، بحركاته الهادئة وهيئته التي تشبه هيئة شخص من أتباع الحركة المورمونية. أخذته الأمريكي عبر ردهات السفارة وأدخله غرفة مضيئة تطل نافذتها الواسعة على حديقة جميلة. كان هناك شاب يرتدي قميصاً أبيض وربطة عنق حمراء

يجلس بدوره أمام طاولة طويلة من الأكاجو. نهض عندما دخل سوليفان رفقة ضيفه.

- دون - قال - أقدم لك الأستاذ طوماس نورونيا.

- تشرفت بمعرفتك.

وتبادل الرجلان التحية.

- أقدم لك دون سنايدر - قال متحدثاً دائماً بالإنجليزية وهو

يقدم الرجل الشاب الذي يتناقض وجهه الشاحب جداً مع شعره الأسود الناعم.

جلس ثلاثتهم، واستمر الملحق الثقافي يدير العمليات كما لو أنه رئيس تشريفات محنك. كان سوليفان يتحدث بصوت عال، دون أن تبرح عيناه طوماس، ليبرز أن كلامه كان موجهاً للبرتغالي على وجه الخصوص.

- هذا الحديث سري للغاية. كل ما يقال هنا يجب أن يبقى

بيننا. هل هذا واضح؟

- نعم.

فرك سوليفان يديه.

- حسناً! - صاح، ثم استدار - دون، ربما نستطيع أن نبدأ؟

- أوكي - قال دون موافقاً وهو يشمر كمّي قميصه - سيد

«نورونا»، كما ...

- نورونيا - قال له طوماس مُصححاً.

- نورونا؟

- أنس الأمر - قال المؤرخ مبتسماً وهو يدرك أن الأمريكي لن

يستطيع أبداً نطق اسمه بشكل صحيح - نادني طوم.

- آه، طوم! - كرر الرجل الشاب ذو الشعر الأسود، سعيداً

بنطق اسم مألوف - حسناً، طوم. كما أخبرك غريغ، اسمي دون

سنايدر. ما لم يكشفه لك أنني أشتغل لصالح وكالة المخابرات الأمريكية في لانغلي، حيث أشتغل محللاً لمكافحة الإرهاب، في مكتب تابع لمصلحة «Directorate of Operations»، وهي واحدة من المديریات الأربعة التابعة للوكالة.

- عمليات، قلت؟ شيئاً ما مثل... جيمس بوند؟  
أخذ سنايدر وسوليفان يضحكان.

- نعم، إنه في Directorate of Operations حيث كان يشتغل العملاء 007 الأمريكيون - أكّد دون - رغم أنني لست، في حقيقة الأمر، واحداً منهم. إن عملي، كما أخشى ذلك، ليس مثيراً مثل مغامرات زميلي التخيلي في الـ MI6 (المخابرات البريطانية). قلّما أجد نفسي محاطاً بفتيات جميلات، وتنحصر مهامني غالباً في القيام بتحقيقات روتينية، خالية من أي تشويق. إن الهدف الأساسي من إدارة العمليات هو جمع معلومات سرية، غالباً بالاعتماد على «human intelligence»، أي على الموارد البشرية باستعمال تقنيات التخفي.

- جواسيس، تريد أن تقول؟

- هذه الكلمة نوعاً ما كيف أعبر عن ذلك؟... يستعملها الهواة. نفضل أن نسميهم «human intelligence»، أو مصادر بشرية تجمع معلومات سرية - رفع يده نحو صدره - على أي، أنا لست واحداً من هذه المصادر. تنحصر مهمتي في تحليل المعلومات المتعلقة بالأنشطة الإرهابية - ثم قوّس حاجبه - وهذا ما جاء بي إلى لشبونة.

ابتسم طوماس.

- الإرهاب؟ في لشبونة؟ هاتان كلمتان غير متناسبتين. ليس هناك من إرهاب في لشبونة.

تدخل سوليفان .

- ليس هذا بالضبط، يا طوماس - قال ضاحكاً - هل سبق لك أن قدت سيارة في شوارع هذه المدينة؟

- آه، طبعاً - قال البرتغالي موافقاً - هناك أشخاص خلف المقود أكثر خطورة من بن لادن، هذا صحيح .

مرتبكاً بضحكات الآخرين، رسمَ دونٌ سنايدر ابتسامة مهذبة على محياه .

- دعني فقط أكملُ ما كنت بصدد قوله - قال .

- عفواً - ردّ طوماس - تفضل .

لمس الأمريكي مفاتيح حاسوبه الشخصي .

- استدعوني الأسبوع الماضي إلى لشبونة بسبب حادث تافه

على ما يبدو - أدار شاشة حاسوبه نحو طوماس، حيث كان يظهر

وجه باسم لرجل سبعيني له شارب ولحية صغيرة شيياء، يضع نظارتين

خضراوين سميكتين فوق عينين سوداوين - أتعرف هذا الرجل؟

- لا .

- اسمه أوغوستو سيزا وهو من أشهر الأساتذة البرتغاليين . أبرز

أستاذ جامعي لمادة الفيزياء في البلد .

فغرَ طوماس فمه وهو يتعرّف الاسم .

- آه - قال متعجباً - إنه زميل والدي .

- زميل والدك؟ - قال دونٌ مندهشاً .

- نعم . أليس هو الشخص الذي اختفى؟

- بالفعل . منذ ثلاثة أسابيع .

- حسناً . لقد حدثني عنه والدي اليوم بالضبط .

- هل يعرفه والدك؟

- نعم، إنهما زميلان في جامعة كويمبرا . أبي يدرّس

الرياضيات، والأستاذ سيزا يشغل كرسي تدريس مادة الفيزياء في نفس الكلية.

. I see -

- لكن، مالذي حدث له؟

- لقد اختفى الأستاذ سيزا دون أن يترك أثراً. ذات يوم، وبينما كان الطلبة ينتظرونه لمتابعة درس في الكلية، لم تطأ قدماه ذلك الفضاء. في اليوم التالي، كانوا ينتظرونه للمشاركة في اللجنة العلمية حيث لم يحضر كذلك. اتصلوا به مرات عديدة على هاتفه المحمول ولم يجبههم أحد قط. رغم سنه المتقدمة، كان سيزا يُعتبر شخصاً نشيطاً متيقظ الذهن، مما سمح له بمزاولة التدريس بعد السن المحددة لمزاولة مهنته. بما أنه كان أرملَ يعيش وحده، وابنته متزوجة، ظن زملاؤه أنه تغيب لسبب من الأسباب. في الأخير، ذهب أحد المتعاونين مع الأستاذ ليزوره في بيته بسبب اجتماع تم تأجيله لعدة مرات. دخل إلى الشقة فلم يجد هناك أحداً، لكنه اكتشف المكتب في حالة فوضى كبيرة، حيث أوراق وملفات مفتوحة متناثرة على الأرض، فاستغرب الأمر وطلب الشرطة. وإلى هناك انتقلت شرطتكم الخاصة بالتحقيق، أعني الشرطة القضاة . . . .

القضائية، و . . .

- نعم، الشرطة القضائية.

- تماماً! - صاح دون، وهو يتعرف الاسم - أخذت هذه الشرطة بعض العينات، بما في ذلك الشعر، وأرسلتها إلى مختبر التحليلات. بعدما وصلت نتائج التحليل، قام مفتشو الشرطة بإدخال المعطيات في حاسوب البحث المرتبط بالإنترنت.

ثم لمس لمساً خفيفاً بعض ملامس لوحة الحاسوب.

- وكانت النتيجة مذهشة.

ثم ظهر وجه آخر على شاشة الحاسوب، رجل أسمر السحنة، بوجه مدور ولحية سوداء.

- هل تعرف هذا الوجه؟

فحص طوماس ملامح الرجل التي كانت تبدو عربية.  
- لا.

- اسمه عزيز المتقي ويشغل لحساب وحدة تحمل اسم «المقاومة الإسلامية». هل سبق لك أن سمعت عنها؟  
- إيه... لا.

- إنه الجناح العسكري لحزب الله. هل تعرف حزب الله؟

- لا - اعترف طوماس وهو يشعر أنه جاهل تماماً.

- إنه اسم الحزب باللغة العربية. هل يعني لك شيئاً؟

انكمش البرتغالي في الكرسي وحرك رأسه مرة أخرى، حزيناً تقريباً لأنه لا يعرف شيئاً.  
- لا.

- «حزب الله». طبعاً، اللبنانيون لهم لكنة خاصة. ينطقون

الاسم بطريقتهم وليس كما نسمعه على لسان صحفيي قناة سي إن إن.

- آه! حزب الله! - صاح طوماس - مرتاحاً. لقد سمعت عنه،  
طبعاً!

- في نشرات الأخبار، أظن.

- نعم، في نشرات الأخبار.

- وهل تعرف ما هو حزب الله؟

- أليسوا أولئك الناس في لبنان الذي خاضوا حرباً ضد

إسرائيل؟

ابتسم دون سنايدر .

- باختصار كبير، هذا هو حزب الله - قال موافقاً - إنه تنظيم إسلامي شيعي ظهر في لبنان سنة ١٩٨٢، ويضم عدة جماعات تشكلت لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي في جنوب البلاد. له ارتباطات بحماس والجهاد الإسلامي، وهناك شكوك في ارتباطه بالقاعدة - حرك رأسه وخفض نبرة صوته، كأنما يتحدث على انفراد - أعترف أنني لا أعتقد ذلك. فالقاعدة منظمة سنية ذات إيديولوجية وهابية تقصي بشكل معلن الشيعة. وأتباع بن لادن يكادون يُعتبرون الشيعة كفاراً. وهذا ما يدحض فرضية أي تحالف بين الطرفين، ألا تظن ذلك؟ - ومن جديد، لمس بشكل خفيف بعض ملامس لوحة حاسوبه، ليُظهر بعض صور الدمار على الشاشة - على أي، حزب الله متورط في عدة عمليات اختطاف رعايا غربيين وفي عمليات إرهابية في الغرب، وهي أفعال أكثر من كافية لتدفع الولايات المتحدة وأوروبا لتعلننا هذا التنظيم منظمة إرهابية. بل إن مجلس الأمن بدوره قد أصدر قراراً، يحمل رقم ١٥٥٩، يطالب بحلّ الجناح المسلح لحزب الله.

داعب طوماس ذقنه.

- لكن، ما علاقة حزب الله بالأستاذ سيزا؟

أوما الأمريكي بحركة تأكيد من رأسه.

- هذا السؤال بالضبط هو ما طرحه مفتشو الشرطة القضا . . .

القضا . . . شرطتكم - قال دون - ما الذي كان يفعله شعراً رجل مبحوث عنه من لدن الإنتربول لعلاقته بحزب الله في مكتب الأستاذ سيزا، في مدينة كويمبرا؟

وظل السؤال معلقاً داخل تلك الغرفة.

- وما هو الجواب؟

هزّ الأمريكي كتفيه .

- لا أعرف . كل ما أعرف هو أن شرطتكم اتصلت مباشرة بمديرية المخابرات البرتغالية، واتصلت هذه الأخيرة بغريغ، الذي اتصل هاتفياً بوكالة المخابرات الأمريكية في لانغلي .

نظر طوماس إلى غريغ سوليفان، وكأنه استنار بشكل مفاجئ، بدت له الحقيقة واضحة . صديقه غريغ، ذلك الأمريكي الهادئ الذي طالما كان يتصل به ليحدثه عن المتحف العبراني ويساعده في مفاوضاته مع «مركز غيتي» أو «مركز لنكولن»، كان بدوره مهتماً بالثقافة قدر اهتمام طوماس بالبيسبول أو أفلام أرنولد شوارزنيغر . بعبارة أخرى، لم يكن غريغ تماماً رجل ثقافة، بل عميلاً من عملاء وكالة المخابرات الأمريكية يشتغل في لشبونة تحت غطاء ملحق ثقافي . دفعه هذا الإدراك إلى النظر إلى الأمريكي بعين مختلفة، وجعله خصوصاً يفهم كم كانت المظاهر خادعة، وكم كان من السهل خداع إنسان ساذج له نوايا حسنة مثله .

وحين أدرك أنه يحدق في الملحق الثقافي بنظرة محرجة، ارتعش البرتغالي كأنه استيقظ للتو، ثم التفت صوب دون .

- هل تحدث معك غريغ؟

- كلا - أنكر دون - غريغ تحدث مع نائب مدير *Directorate of Operations* . وتحدث نائب المدير هذا مع رئيسي، المسؤول عن تحليل مكافحة الإرهاب، ورئيسي هو الذي أرسلني إلى لشبونة .  
بدا طوماس حائراً .

- حسناً - قال وهو يحرك رأسه مثل أستاذ يوافق على عمل تلميذ مجتهد - لكن، الآن، أريد أن أعرف شيئاً، ما الذي أفعله أنا هنا؟

ابتسم الأمريكي ذو الشعر الأسود .



- ليست لدي أدنى فكرة. لقد كلفوني بأن أشرح لك معايير مهمتي وهو ما قمت به للتو.
- التفت البرتغالي نحو غريغ.
- ما علاقتي أنا بكل هذا؟
- نظر سوليفان إلى ساعته.
- أظن أنه ليس من واجبي أنا أن أجيئك - قال.
- ومن يجب عليه أن يجييني؟
- تردد المضيف ثم ألقى نظرة على الباب.
- لا بد أنه لن يتأخر كثيراً في الوصول.

# 4

## مكتبة

t.me/t\_pdf

برز الظلُّ من عتمة باب جانبي ثم اقترب ببطء من طاولة الأكاجو. طوماس والأمريكيان انفزعوا تقريباً وهم يرونه يبرز من الفراغ، مثل شبح، كأنه شكل طيفي تجسد فجأة في الغرفة. كان رجلاً طويل القامة قوي البنية، بنظرة زرقاء باردة، وشعر أشيب بتسريحة عسكرية. يرتدي بدلة رمادية داكنة، يناهزُ عمره الستين عاماً، لكنه ما زال صلباً وقوياً رغم تلك التجاعيد التي تبرز من جنبات عيني وجهه القاسي المستغلق. تأخر الغريب في العتمة، وظل جامداً، يقطب عينيه، كأنه يسبر الوضع، كأنه يشرّح طوماس. وبعد لحظة طويلة، سحب كرسيّاً واتخذ لنفسه مكاناً عند الطاولة، مُرکزاً عينيه الباردتين اللامعتين على البرتغالي.

*Good afternoon, mister* - بيلامي - حيّاه سوليفان بنبرة احترام لم تفلت من طوماس.

*Hello* - غريغ - قال الرجل بصوت خفيض أجش، دون أن يرفع نظره عن طوماس. كان جسده بكامله يعطي الانطباع بالسلطة. لكنها سلطة مع التهديد، والعدوانية الكامنة.

- ألا تقدمني لصديقك؟

استجاب سوليفان لأمره بسرعة.

- طوماس، أقدم لك بيلامي.

- كيف الحال؟

- أهلاً طوماس - حياهُ الوافد الجديد وهو ينطق اسم «طوماس»  
بلكنة صحيحة بطريقة غير منتظرة - شكراً على مجيئك .  
- إنه السيد بيلامي الذي وصل إلى لشبونة هذا الصباح ، قادماً  
إليها خصيصاً من وكالة المخابرات الأمريكية في لانغلي لأجل  
- شكراً غريغ - قاطعه بيلامي - جاء دوري الآن .  
- نعم ، سيد بيلامي .

ظل الأمريكي ذو النظرة المشؤومة لفترة طويلة متوارياً فوق  
الكرسي ، وسط عتمة الغرفة ، مركزاً دائماً اهتمامه على طوماس . كان  
يُسمع تنفُّسه العميق وسط الصمت المخيم ؛ حضوره القوي يثيرُ  
الانزعاج ، بل الخوف . شعر المؤرخ بقطرات عرق ترشح من جبينه  
فتكلف الابتسامة لكن الوافد الجديد ظل مستغلق الوجه ، واستمر  
يتفحص البرتغالي ، يحاول تقييم الرجل المائل أمامه .

بعد بضع دقائق ، بدتْ أبديةً لمن كانوا داخل تلك الغرفة ، دفع  
الرجلُ الغريب ذو العينين الزرقاوين الكرسي إلى الأمام ، خرج من  
العتمة إلى الضوء ، وضع مرفقيه على الطاولة وحرك شفثيه الدقيقتين .

- اسمي فرانك بيلامي ، وأنا المسؤول عن المديرية الأربعة  
التابعة لووكالة المخابرات الأمريكية . أما دون فهو مُحلل لدى  
*Directorate of Operations* . أنا هو رئيس *Directory of Science*  
*and Technology* . عملنا في هذه المديرية يتمثل في بحث ، تطوير ،  
ووضع تكنولوجيات متجددة لدعم عملية جمع المعلومات . لدينا  
أقمار اصطناعية قادرة على رؤية لوحة معدنية لسيارة في أفغانستان  
كما لو أنها على بعد نصف متر . لدينا أنظمة تجسّس على الرسائل  
تسمح لنا بقراءة الإيميلات التي بعثتها هذا الصباح إلى المتحف  
المصري في القاهرة أو الاطلاع على المواقع الإباحية التي تصفحها

دوّن مساء أمس في غرفته بالفندق - فاحمّر الوجه الشاحب لدوّن سنايدر حتى أن المحلل الأمريكي طأطأ رأسه من الخجل - وخلاصة الأمر، إنه لا يوجد ضفدع واحد يضرب فوق البسيطة دون علمنا، إن كنت نرغب في ذلك - قال وهو يسحر طوماس بعينه المغناطيسيتين - فهل تُقدّر مدى قوتنا؟

حرك البرتغالي رأسه منبهراً بهذا العرض .  
- نعم .

ثم استند فرانك بيلامي إلى الكرسي .

*Good* - قال وهو ينظر إلى العشب المبلل الذي يلمع في الحديقة - عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، كنتُ طالباً واعداً في شعبة الفيزياء بجامعة كولومبيا، في نيويورك. عند نهاية الحرب، كنتُ أشتغل في لوس ألأموس، مكان قصي فوق تلال نيو مكسيكو القاحلة .

كان بيلامي يتحدث بصوت رخيم، ينطق الكلمات بعناية ويحترم فترات صمت طويلة .

- هل يعني لك اسم «مشروع مانهاتن» شيئاً؟

- أليس هو المكان الذي صُنعت فيه أول قنبلة نووية؟

انكمشت شفتا الأمريكي الدقيقتان فيما يشبه ابتسامة يستطيع أن يرسمها .

- أنت عبقرى فريدا! - صاح بشيء من السخرية - لقد صنعنا ثلاث قنابل سنة ١٩٤٥ . كانت الأولى نموذجاً تجريبياً انفجر في ألاموغوردو . تلتها قنبلة «*Little Boy*» التي انفجرت فوق هيروشيما و «*Fat Man*» فوق ناكازاكي . بوم، وانتهت الحرب - ظل جامداً للحظة، كما لو أنه يسترجع أحداث الماضي - سنة بعد ذلك، تم حلّ مشروع مانهاتن . استمر كثير من العلماء في الاشتغال على

مشاريع سرية، أما أنا فلم أفعل. وجدت نفسي من دون عمل. إلى أن حدثني أحد أصدقائي عن «National Security Act» الذي وقّعه الرئيس ترومان سنة ١٩٤٧ بغرض إنشاء وكالة للاستخبارات. كانت الوكالة السابقة، أي «مكتب الخدمات الاستراتيجية»، قد أُلغيت مع نهاية الحرب. بيد أن المخاوف المتزايدة من انتشار الشيوعية وأنشطة المخابرات الروسية دفعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إدراك أنها لا يمكن أن تبقى مكتوفة اليدين. سميت وكالة الاستخبارات الجديدة «وكالة المخابرات الأمريكية» (CIA)، وتم توظيفي في القسم العلمي - ثم قوَّس من جديد شفتيه فيما يشبه ابتسامة - أمامك واحد من مؤسسي هذه الوكالة.

ثم استعاد وجهه تلك الهالة الباردة.

- قد يظن المرء أن قطاع العلوم كان يشكل اهتماماً ثانوياً في تلك الفترة بالنسبة للوكالة، لكن الأمر كان عكس ذلك تماماً. كانت الولايات المتحدة تخشى أن يطور الاتحاد السوفياتي أسلحة نووية، وقد واجهت وكالة المخابرات الأمريكية هذه المشكلة بثلاث طرق مختلفة. أولاً، بالتجسس على السوفيات. ثانياً، باستقطاب أدمغة أجنبية، بمن فيهم بعض النازيين. وثالثاً، بمراقبة علمائنا أيضاً. لكن، رغم مجهوداتنا، استطاع الاتحاد السوفياتي تفجير أول قنبلة نووية سنة ١٩٤٩، ليخلق أجواء من البارانونيا بيننا. كانت تلك بداية مطاردة الساحرات، لأننا كنا نشك في أن علماءنا قد سرّبوا سرّ القنبلة لموسكو.

ولأول مرة رفع بيلامي عينيه عن طوماس ونظر إلى سوليفان.

- غريغ، هل يمكن أن تحضر لي قهوة؟

نهض الملحوظ الثقافي بقفزة واحدة، كأنه جندي ينفذ أمر

جنرال.

- حالياً، سيد بيلامي - قال وهو يغادر الغرفة.

وعادت نظرات بيلامي الزرقاء لتتنزل على طوماس.

- في ربيع سنة ١٩٥١، حل رئيس الوزراء الإسرائيلي، دافيد بن غوريون، بالولايات المتحدة ليجمع تبرعات لفائدة أمته الفتية، التي بالكاد أنشئت قبل ثلاث سنوات. كما هو الشأن في مثل هذه الحالات، درسنا برنامج الزيارة فاسترعى انتباهنا عنصر من عناصره. ضرب بن غوريون موعداً مع ألبرت أينشتاين ليلتقيا في برنستون. ارتأى رئيسي أنه ينبغي أن نراقب هذا اللقاء فبعثنا معه تقنياً مكلفاً بالتسجيلات الصوتية، لتتنصت على الحديث بين الرجلين.

نظر إلى دفتر صغير موضوع أمامه.

- تم اللقاء يوم ١٥ مايو من سنة ١٩٥١، في بيت أينشتاين، رقم ١١٢ من شارع ميرسير، في برنستون. وكما توقع ذلك رئيسي، طلب بن غوريون من عالم الفيزياء أن يصمم قبلة نووية لصالح إسرائيل. كان يريد قبلة سهلة التصميم يستطيع بلد بموارد قليلة أن يصنعها بسرعة وفي سرية تامة.

- وأينشتاين؟ - سأل طوماس وهو يتجراً لأول مرة على مقاطعة محاوره الرهيب - هل قبل هذا التكليف؟

- لم يقاوم عبقرينا كثيراً - قال ثم عاد ليراجع ملاحظاته - نعرف أنه بدأ يشتغل على مشروع بن غوريون ابتداء من الشهر الموالي للزيارة، وظل متفرغاً له حتى سنة ١٩٥٤، قبل وفاته بسنة واحدة - أجب وهو يرفع عينيه عن الدفتر - أستاذ نورونيا، هل تعرف ما هي الطاقة التي تخرج من قبلة نووية؟

- الطاقة النووية؟

- نعم. وهل تعرف أي نوع من الطاقة هذه؟

- أظن أنها ترتبط بالذرات، أليس كذلك؟

- كل شيء في الكون مرتبط بالذرات، أستاذي العزيز - قال  
بيلامي بنبرة جافة - أسألك إن كانت لديك فكرة عما تمثله هذه  
الطاقة؟

أخذ طوماس يضحك تقريباً.

- ليست لدي أدنى فكرة.

عاد غريغ سوليفان يحمل صينية ووضع أربعة فناجين فوق  
الطاولة، وصحناً مملوءاً بمظاريف السكر. أخذ رجل وكالة  
المخابرات الأمريكية فنجاناً، وعبّ منه جرعة دون أن يضيف إليه  
سكرًا.

- إن الكون يتشكل من جزيئات دقيقة - قال بعد أن وضع  
فنجانه - في البداية، كان العلماء يظنون أن هذه الجزيئات هي  
الذرات حتى أنهم أطلقوا عليها هذا اسم «الذرة». وهي، في اللغة  
الإنجليزية، «atom»، كلمة ذات أصل يوناني وتعني «غير قابل  
للقسمة». بيد أنه، مع مرور الوقت، انتبه علماء الفيزياء إلى أنه يمكن  
تقسيم ما هو «غير قابل للقسمة». اكتشفوا أن هناك جزيئات أصغر،  
وهي البروتونات والنيوترونات، التي تتحد في نواة الذرة،  
والإلكترون، الذي يدور في فلكها مثل قمر تابع، لكن بسرعة مذهلة  
- قال ثم قام بتقليد حركة الإلكترون وهو يُدير سبابته حول فنجان  
القهوة فوق الطاولة - تخيّل مدينة لشبونة مختزلة في أبعاد ذرة  
واحدة. في هذه الحالة، سيكون حجم نواتها بحجم كرة من كرات  
القدم لديكم، لنفترض، وُضعت في وسط المدينة. سيكون الإلكترون  
عبارة عن كرية رخام ينتشر على شعاع ثلاثين كيلومتراً حول الكرة،  
يستطيع أن يدور حولها أربعين ألف مرة في الثانية.

- يا إلهي!

- قلتُ هذا لأعطيك فكرة عن الذرة وكم هي فارغة وصغيرة .

ضرب طوماس ثلاث نقرات خفيفة على الطاولة .

- لكن، إن كانت الذرات مُشكّلة من الفراغ - قال البرتغالي -

لماذا حين أضرب هذه الطاولة تصطدم بها يدي ولا تخرقها؟

- يجد هذا الأمر تفسيره في القوى المتنافرة بين الإلكترونات،

وفي عنصر آخر يسمى «مبدأ استبعاد باولي» الذي يقول إنه يستحيل

أن يكون لذرتين اثنتين نفس الحالة .

- آه .

- وهذا يقودنا إلى مسألة القوى المتواجدة في الكون - ثم رفع

بيلامي أصابعه من جديد، وكانت أربعة أصابع هذه المرة - كل

الجزئيات تتفاعل فيما بينها من خلال أربع قوى . أربع . قوة

الجاذبية، القوة الكهرومغناطيسية، القوة النووية الكبرى والقوة النووية

الصغرى . فقوة الجاذبية، مثلاً، هي أضعف هذه القوى كلها، لكن

شعاع تأثيرها لا متناهٍ - ثم قام بحركة مدارية حول الفنجان - هنا، في

الأرض، نشعر بقوة جاذبية الشمس بل وحتى بجاذبية مركز المجرة،

التي ندور حولها . بعد ذلك، هناك القوة الكهرومغناطيسية، التي

تجمع بين القوة الكهربائية والقوة المغناطيسية . وتتمثل خاصية القوة

الكهربائية في أن الشحنات المتناقضة تتجاذب فيما بينها بينما

الشحنات المتشابهة تتباعد - ونقر بإصبعه على الطاولة - وهنا تكمن

المشكلة . انتبه علماء الفيزياء إلى أن البروتونات لها شحنات

إيجابية . لكن القوة الكهربائية تحدد أي شحنات متشابهة تتباعد فيما

بينها، أليس كذلك؟ إذن، ما دامت البروتونات لها شحنات إيجابية

متشابهة، لأنها إيجابية كلها، فلا بدّ أن تتباعد بالضرورة . في

الأخير، اكتُشف أنه لو تمّ تكبير البروتونات حتى تبلغ حجم كرة من

كرات القدم، حتى لو سُدّت بحزام معدني مهما كانت قوته، فإن



القوة الكهربائية المُنفّرة ستكون من القوة بحيث قد يتمزق ذلك الحزام المعدني مثل ورقة من حرير - قال ثم قوس حاجبیه - هذا حتى أعطيك فكرة عن القوة الكهربائية التي تبعد البروتونات بعضها عن بعض - ثم شد قبضة يده - ومع ذلك، ورغم كل هذه القوة المُنفّرة، تظل البروتونات متحدة داخل النواة. لماذا؟ أي قوة خارقة يمكنها أن تتجاوز القوة الكهربائية العظيمة؟ - لزم صمتاً مسرحياً - انكبّ علماء الفيزياء على دراسة المسألة واكتشفوا وجود قوة مجهولة. أسموها القوة النووية الأقوى. قوة كبيرة لدرجة أنها قادرة على أن تحافظ على وحدة البروتونات داخل النواة - وضم قبضة يده، كما لو أن يده هي الطاقة التي تحافظ على تماسك النواة - فالقوة العظمى، في الحقيقة، تفوق مئة مرة قوة القوة الكهرومغناطيسية. إن كانت البروتونات، مثلاً، قطارين يبتعد الواحد منهما عن الآخر بسرعة كبيرة، فإن القوة العظمى قد تكون كافية للحفاظ عليهما الواحد قرب الآخر، وتمنعهما من التباعد. هذه هي القوة العظمى. لكن، رغم قوتها الهائلة، فإن القوة العظمى ذات شعاع تأثير محدود، أقل من حجم نواة ذرية. إن نجح أحد البروتونات في الانفلات من النواة، فإنه يكف عن الوقوع تحت تأثير القوة العظمى ولا يتأثر سوى بالقوى الأخرى. هل فهمت؟

- نعم.

*Good boy* - قال بيلامي وظل يفكر لبضع لحظات في الطريقة التي سيشرح بها ما تبقى. التفت نحو النافذة ولاحظ الشمس التي كانت على وشك أن تختفي خلف العمارات التي تبرز في الأفق.

- انظر إلى الشمس، لأي سبب تلمع وتبعث الحرارة؟

- لأن هناك انفجارات نووية، أليس كذلك؟

- يمكن أن نظن ذلك، طبعاً. ولكنها، في الحقيقة، ليست

انفجارات، بل هي حركات بلاسما مصدرها الأول هو التفاعلات النووية التي تحدث في النواة. أتعرف ما هي التفاعلات النووية؟ هزّ طوماس كتفيه.

- إيه . . . صراحة، أجهل ذلك.

- تابع علماء الفيزياء بحثهم واكتشفوا أنه، في ظروف معينة، يمكن تحرير القوة العظمى التي توجد داخل نواة الذرة. ويتم الحصول على ذلك بطريقتين هما انشطار النواة وانصهارها. بتكسير نواة أو بصهر نواتين، تتحرر القوة العظمى العجيبة التي توحد النواة. تحت تأثير النيوترونات، تتكسر النويات الأخرى القريبة بدورها، وتُخرج مزيداً من القوة العظمى محدثة بذلك سلسلة من التفاعلات. حسناً، هل رأيت كم هو شديد عنف هذه القوة العظمى؟ والآن، تخيل ما الذي يحدث عندما تتحرر طاقتها بكميات كبيرة.

- يحدث انفجار؟

- هناك تحرر لطاقة نويات الذرات، حيث تكمن القوة العظمى. ولهذا السبب نسميها تفاعل نووي.

فتح طوماس فمه.

- آه! - صاح متعجباً - فهمتُ.

عاد الأمريكي ليتأمل الكرة البرتقالية التي كانت تغيب فوق السطوح القرميدية لمدينة لشبونة.

- هذا ما يحدث في الشمس. الانصهار النووي. إن نويات الذرات لا تتوقف عن الانصهار، محررة بذلك طاقة القوة العظمى. لوقت طويل، ساد الظن أن ذلك لا يمكن أن يحدث سوى في الطبيعة. لكن، في سنة ١٩٣٤، قام عالم إيطالي اشتغلُ معه في لوس آلأموس، واسمه إنريكو فيرمي، بقصف اليورانيوم بواسطة النيوترونات. كشفت تحاليلُ هذه التجربة أن القصف ولّد عناصر أخفّ

من اليورانيوم. لكن، هل كان ذلك ممكناً؟ كان الاستنتاج أن القصف كسّر نواة اليورانيوم، أو، بعبارة أخرى، تسبب في انشطاره، مما سمح بتكوّن عناصر أخرى. أدركنا حينئذ أنه يمكن تحرير طاقة القوة العظمى بطريقة اصطناعية، ليس بواسطة انصهار النويات، كما هو الشأن بالنسبة للشمس، بل بواسطة الانشطار.

- وهذا هو القنبلة النووية.

- تماماً. إن القنبلة النووية، في الحقيقة، هي تحرير متسلسل لطاقة القوة العظمى بواسطة انشطار نويات الذرات. في هيروشيما، تم استعمال اليورانيوم للحصول على هذه النتيجة، وفي نكازاكي، تم اللجوء إلى البلوتونيوم. فقط لاحقاً، مع القنبلة الهيدروجينية، تمّ التخلي عن طريقة انشطار النويات واعتماد طريقة الانصهار، كما يحدث داخل الشمس.

صمّت فرانك بيلامي، استند إلى الكرسي وابتلع ما تبقى من قهوة في الفنجان. ثم شبك يديه واسترخى. بدا أنه قد أنهى عرضه، مما ترك طوماس حائراً بعض الشيء. استمر الصمت حوالي ثلاثين ثانية، مزعجاً في البداية، ثم أصبح لا يطاق تماماً بعد ذلك.

- وقد جئتُ إلى لشبونة لتحكي لي هذا الأمر؟ - سأل المؤرخ محبطاً.

- نعم - أكد الأمريكي البارد، بصوته الأجش المتناقل - لكن هذا مجرد تمهيد. بصفتي رئيساً لمصلحة *Directory of Science and Technology*، التابعة لووكالة المخابرات الأمريكية، فإن واحدة من انشغالاتي هي الحد من انتشار التكنولوجيا النووية. هناك العديد من دول العالم الثالث التي تحاول تطوير هذه التكنولوجيا، وهذا الأمر يقلقنا فعلاً في بعض الحالات. العراق مع صدام حسين، مثلاً، حاول القيام بذلك، لكن الإسرائيليين دمروا منشآته. في هذه الأثناء،

ينصبّ اهتمامنا على بلد آخر - ثم أخرج خريطة صغيرة من دفتري وأشار إلى نقطة معينة - هذا البلد.

انحنى طوماس على الطاولة ولاحظ النقطة المشار إليها.

- إيران؟

فأكد عميل وكالة المخابرات الأمريكية ذلك بحركة من رأسه.

- يرجع المشروع النووي الإيراني إلى فترة حكم الشاه، عندما أرادت إيران أن تنشئ مفاعلاً نووياً في بوشهر، بمساعدة من علماء ألمانيا. لكن الثورة الإسلامية، سنة ١٩٧٩، دفعت الألمان إلى توقيف المشروع، وبعد فترة من معارضة أي شكل من أشكال تحديث البلاد، قرر الآيات الله اللجوء إلى مساعدة الروس لإتمام بناء المفاعل. لكن، أثناء ذلك حصل تقارب بين روسيا والولايات المتحدة، وكان من الممكن إقناع الروس بالألا يزودوا إيران بالأشعة التي تدخل في تخصيب اليورانيوم في شكله الطبيعي من أجل استعماله لأغراض عسكرية. كما تم إقناع الصين بتعليق تعاونها في هذا المجال، حتى أن الوضعية باتت تبدو تحت السيطرة. لكن، مع نهاية ٢٠٠٢، تبدد هذا الوهم. تبين أن الوضعية كانت خارج السيطرة. تم اكتشاف أمرين مقلقين - قال وهو يشير بإصبعه إلى مدينة على الخريطة جنوب طهران - الأول، أن الإيرانيين قد شيدوا سراً في نطنز منشآت لتخصيب اليورانيوم بواسطة طاردات مركزية ذات سرعة عالية. لو كُتب لهذه المنشآت أن تتطور، فإنها ربما تكون قادرة على إنتاج اليورانيوم بكمية كافية لصنع قنبلة كتلك التي أُلقيت على هيروشيما - ثم انزلق إصبعه فوق الخريطة نحو نقطة أخرى أقصى الغرب - أما الاكتشاف الثاني، فكان هو بناء منشآت هنا في أراك لإنتاج الماء الثقيل، وهو ماء مُحمل بالديوتيريوم الخاص بالمفاعلات المصممة لإنتاج البلوتونيوم، المادة التي تدخل في صنع القنبلة التي أُلقيت على مدينة ناكازاكي. حسناً،

إن الماء الثقيل ليس ضرورياً في المنشآت النووية التي يشيدها الروس لصالح الإيرانيين في بوشهر. إن لم تكن نافعة هنا، فأبي فائدة منها؟ إن منشآت أراك تدفع للشك في وجود منشآت أخرى غير معلنة، وهو ما نعتبره أمراً مقلقاً للغاية.

- لكن، ألا يمكن أن يكون قلقكم مجرد زوبعة في فئجان؟ -  
سأله طوماس - كأس ماء ثقيل، بطبيعة الحال - قال وهو يتسم من هذا اللعب بالكلمات - إن هذه المنشآت، في نهاية الأمر، يمكن أن تكون موجهة لإنتاج الطاقة النووية المستعملة لأغراض سلمية...  
نظر إليه فرانك بيلامي منزعجاً كمن ينظر إلى شخص أبله، والشرر يتطاير من عينيه الزرقاوين، كأنه شفرات باردة.

- أغراض سلمية؟ إن الاستعمال لأغراض سلمية، يا أستاذ، ينحصر في بناء محطات نووية لإنتاج الطاقة الكهربائية. والحال أن إيران تملك ثاني أكبر احتياطي عالمي من الغاز الطبيعي وثالث أكبر احتياطي عالمي من البترول. فما حاجة الإيرانيين إلى إنتاج الطاقة الكهربائية النووية إن كانوا يستطيعون إنتاج الكهرباء بطريقة اقتصادية أكثر من ذلك بشكل كبير وبطريقة أسرع باللجوء إلى ما يملكونه من احتياطي هائل من المحروقات الأحفورية؟ ثم لماذا سيشتدون محطات نووية بشكل سري؟ ما حاجتهم إلى إنتاج الماء الثقيل، وهي مادة لا تصلح سوى لإنتاج البلوتونيوم؟ - ثم صمت لحظة تاركاً أسئلته معلقة في الهواء - أستاذي العزيز، علينا ألا نكون سذجاً؟ إن البرنامج النووي الإيراني ليس سوى واجهة، غطاء يخفي بناء منشآت موجهة لخدمة الهدف الحقيقي من كل هذا النشاط: البرنامج الإيراني لامتلاك السلاح النووي. هل فهمت؟

كان طوماس يبدو مثل تلميذ مطيع، شبه مرعوب أمام أستاذ صعب المزاج.

- نعم، فهمتُ.

- المسألة هو أن نكتشف أين وجدت إيران التكنولوجيا التي سمحت لها بقطع كل هذه الأشواط - ثم رفع إصبعين - هناك فرضيتان. الأولى هي كوريا الشمالية، التي استطاعت أن تحصل من باكستان على معلومات حول طرق تخصيب اليورانيوم بواسطة أجهزة الطرد المركزية. نعرف أن كوريا الشمالية باعت رؤوساً نووية من نوع «نودونغ» لإيران، ومن الممكن أن يكونوا قد سلموها التكنولوجيا النووية ذات الأصل الباكستاني، في نفس الصفقة. أما الفرضية الثانية، فهو أن باكستان قد قامت بإجراء هذه الصفقة مباشرة مع إيران. رغم أن الأمر يتعلق ببلد حليف مبدئياً لأمريكا، فإن عدداً كبيراً من السياسيين والعسكريين الباكستانيين يشاطرون الإيرانيين نظرة أصولية للعالم، ليس من الصعب أن نتصور أنهم قد اجتهدوا سرّاً في مدهم بيد العون.

نظر طوماس جلسة إلى ساعته. كانت تشير إلى السادسة وعشر دقائق مساءً. لقد كان هناك منذ أكثر من ساعتين وبدأ يشعر بالتعب.

- أستسمح، ولكن الوقت صار متأخراً - قال محرراً بعض الشيء - هل يمكن أن تشرح لي لأي شيء تحتاج إليّ؟

نقر عميل وكالة المخابرات الأمريكية بأصابعه على خشب أكاجو الطاولة.

- طبعاً، أستطيع ذلك - قال بصوت خفيض.

نظر إلى دون سنيدر. طوال مدة العرض، ظل المحلل صامتاً، لا يُرى تقريباً.

- دون، هل حدثت صديقنا الحاضر هنا عن عزيز المتقي؟

- نعم، سيد بيلامي - أجابه، دائماً بنفس النبيرة من الاحترام والتقدير.

- وهل شرحت له أن عزيز يشتغل لحساب المقاومة الإسلامية،  
الجناح المسلح لحزب الله؟

- نعم، سيد بيلامي .

- وهل أخبرته من هو أكبر ممول لحزب الله؟

- لا، سيد بيلامي .

لمعت شرارة في عيني بيلامي الباردتين، فركز من جديد نظره  
محددًا في طوماس .

- إذن، أنت لا تعرف من يمول حزب الله؟

- أنا؟ - قال البرتغالي - لا أعرف .

- أخبره، يا دون .

- إيران، سيد بيلامي .

للحظة، فكر طوماس في هذه المعلومة وما تنطوي عليه من

نتائج .

- إيران، قلت؟ - كرّر البرتغالي - وماذا يعني ذلك؟

ثم توجه بيلامي مرة أخرى إلى سنايدر، دون أن يرفع بصره عن

المؤرخ .

- دون، هل حدثتُه عن الأستاذ سيزا؟

- نعم، سيد بيلامي .

- هل قلت له أين تابع الأستاذ سيزا دراسته خلال مرحلة شبابه؟

- لا، سيد بيلامي .

- لقد قضى فترة تداريب في *Institute for Advanced Study*،

سيد بيلامي .

حينئذ، توجه بيلامي إلى طوماس .

- هل فهمت؟

- إيه ... لا .

- دون، أين يوجد المعهد الذي قضى فيه الأستاذ سيزا تداريبه؟  
- برنستون، سيد بيلامي .

- ومن هو أكبر عالم كان يشتغل هناك؟

- ألبرت أينشتاين، سيد بيلامي .

رفع رجل وكالة المخابرات الأمريكية حاجيه نحو طوماس .

- هل فهمت الآن؟

داعب البرتغالي ذقنه، وهو يقدر نتائج كل تلك المعطيات

الجديدة .

- لقد فهمتُ . لكن، ماذا يعني كل هذا؟

- هذا يعني أن هناك عدة أسئلة لعينة ووجيهة ينبغي طرحها -

رفع إبهام يده اليسرى - السؤال الأول: ما الذي يفعله شَعْرُ عزيز

المتقي في مكتب أكبر عالم فيزياء في البرتغال؟ - ثم رفع إبهامه -

السؤال الثاني: أين هو الأستاذ سيزا الذي قضى دورة تدريبية في

برنستون في نفس المعهد الذي كان يشتغل فيه أينشتاين؟ - ثم رفع

إصبعه الأوسط - السؤال الثالث: لأي سبب قامت منظمة مثل حزب

الله باختطاف هذا الفيزيائي بالضبط؟ - ثم رفع الإصبع التالي -

السؤال الرابع: ما الذي يعرفه الأستاذ سيزا عن الطلب الذي تقدم به

بن غوريون لأينشتاين من أجل تصميم سلاح نووي سهل الصنع وغير

مكلف؟ السؤال الخامس: هل تستعمل إيران حزب الله وسيلةً جديدة

لتطوير أسلحة نووية؟

تململ طوماس في كرسيه .

- أتصور أن لديكم أجوبة مسبقة لكل هذه الأسئلة .

- إنك عبقرى فريد من نوعك - ردّ عليه بيلامي، دون أن تتحرك

ولو عضلة واحدة في وجهه .

انتظر البرتغالي ما سيأتي، لكن لم يأت أي شيء . ظل فرانك



بيلامي مركزاً عليه بعينه، دون أن ينبس ببنت شفة، لا تُسمع سوى أنفاسه المخنوقة. كانت نظرات غريغ سوليفان مسمرة على الطاولة الخشبية، ووجهه شارد كما لو أن شيئاً مهماً يحدث فوقها؛ بينما دون سنايدر ينتظر الأوامر، وحاسوبه الشخصي مفتوح على الدوام.

- حسناً . . . إن كانت لديكم أجوبة مسبقة - تتم طوماس - مهما كانت طبيعتها، فما الذي تنتظرونه مني؟

تأخر الرجل ذو النظرات الجامدة في الجواب.

- أره الفتاة، يا دون - همهم، أخيراً.

نقر سنايدر على لوحة الحاسوب.

- ها هي، سيد بيلامي - قال وهو يدير الشاشة نحو الجهة الأخرى من الطاولة.

- هل تعرف هذه السيدة؟ - قال بيلامي لطوماس.

نظر المؤرخ إلى الشاشة فرأى امرأة جميلة بشعر أسود وعينين كستنائيتين ذهبيتين.

- أريانا! - قال متعجباً، ثم نظر إلى بيلامي - لا تقل لي إنها متورطة في كل هذا

التفت الرجل ذو النظرة الزرقاء نحو الشاب الذي يستعمل الحاسوب الشخصي.

- اشرح لصديقنا من تكون هذه السيدة.

نظر سنايدر إلى الورقة المصاحبة للصورة على الشاشة.

- أريانا باكرافان، من مواليد سنة ١٩٦٦ في أصفهان، إيران، بنت سانجار باكرافان، واحد من العلماء الإيرانيين المنخرطين منذ البداية في مشروع بوشهر النووي. كانت أريانا تتابع دراستها في إحدى ثانويات باريس عندما اندلعت الثورة الإسلامية. بعد الحصول على دكتوراه في الفيزياء النووية من جامعة السربون، تزوجت عالم

كيمياء فرنسياً، جان مارك دوكاس، الذي تطلقت منه سنة ١٩٩٢. لم تنجب أطفالاً. عادت إلى بلادها سنة ١٩٩٥، قبل أن تلتحق بوزارة العلوم، تحت الأوامر المباشرة للوزير شافاق.

- هذا تماماً ما قالته لي - سارع طوماس ليؤكد، وهو سعيد لأنه لم يكن ضحية خداع.

رمشت عينا فرانك بيلامي.

- هل حكيت لك كل هذا؟

طفق المؤرخ يضحك.

- لا، طبعاً لا. ولكن القليل مما حكيت لي ينسجم مع ...

على أي ... مع هذه السيرة الذاتية.

- هل أخبرتك بأنها كانت تشتغل في وزارة العلوم؟

- نعم، أخبرتني بذلك.

- وهل قالت لك إنها إلهة في الفراش؟

وجاء الدور على طوماس كي ترمش عيناه.

- عفواً؟

- هل قالت لك إنها إلهة في الفراش؟

- حسناً ... أخشى أن يكون حديثنا قد وصل إلى هذا الحد -

تأتاً قائلاً في حرج وتردد. هل وصل فعلاً؟

ظل وجه بيلامي جامداً لبضع ثوان، إلى أن ظهر تشنج على

زوايا شفثيه، ليشي بما يشبه الابتسامة.

- زوجها السابق أخبرنا أن ذلك صحيح؟

أخذ طوماس يضحك.

- في الحقيقة، أخفت عني بعض الأمور.

لم يرد رجل وكالة المخابرات الأمريكية على ضحكته. زمّ شفثيه

وانكمشت عيناه الباردتان.

- ماذا كانت تريد منك؟

- أوه، لا شيء مميزاً. تعاقدت معي لمساعدتها في فكّ شفرة وثيقة قديمة.

- وثيقة قديمة؟ أي وثيقة قديمة؟

- وثيقة لم يسبق نشرها لأينشتاين.

ثانية واحدة بعد أن نطق باسم العالم الشهير، فتح طوماس عينين جاحظتين. يا لها من مصادفة، فكّر. وثيقة لأينشتاين. لكن، هل يتعلق الأمر، فعلاً، بمصادفة؟ ما علاقة هذا مع بقية الأمور الأخرى؟

- وهل قبلت ذلك؟

- نعم. يدفعون أجراً جيداً.

- كم؟

- مئة ألف أورو شهرياً.

- أجر زهيد.

- هذا أكثر مما أتقاضاه من عملي في الكلية لسنة كاملة.

- ندفع لك هذا المبلغ وتشتغل لصالحنا.

نظر إليه طوماس، مرتبكاً.

- أشتغل لصالح من؟

- لصالحنا. لصالح وكالة المخابرات الأمريكية.

- ولماذا؟

- لتذهب إلى طهران وتفحص هذه الوثيقة.

- هذا كل ما في الأمر؟

- وهناك بعض الأشياء الأخرى البسيطة سوف نشرحها لك بعد ذلك.

ابتسم البرتغالي وحرك رأسه.

- لا، أنا لا أشتغل بهذه الطريقة - قال - أنا لست جيمس

بوند، أنا مؤرخ خبير في علم التشفير واللغات القديمة. لن أقوم بمهام لصالح وكالة المخابرات الأمريكية.

- نعم، سوف تقوم بذلك.

- كلا، لن أقوم بذلك.

انحنى فرانك بيلامي على الطاولة، عيناه تنغرسان في طوماس مثل خنجرين، شفاته متوترتان من الغضب، وصوته أجش مُهدّد.

- أستاذي العزيز، سيد طوماس نورونيا، ينبغي أن تكون الأمور واضحة جداً بيننا - دمدّم قائلاً - إن رفضت اقتراحي، فسوف تصبح حياتك معقدة، على أقل تقدير. في الحقيقة، إنك تجازف بالأمر لك أي حياة، إن كنت تدرك ما أقصد - انكلمت زوايا فمه فيما يشبه تلك الابتسامة المعتادة - وعلى العكس من ذلك، إن قبلت هذا الاقتراح، فسوف تحدث لك أربعة أشياء. الشيء الأول، أنك سوف تكسب مئتي ألف أورو البئيسة هاته، مئة ألف ندفعها نحن ومئة ألف أخرى يدفعها الإيرانيون. الشيء الثاني، أنك سوف تساعد في العثور على الأستاذ سيزا المسكين، الذي انزعجت ابنته المسكينة لأنها لا تعرف أين هو والدها العزيز. الشيء الثالث، أنك ربما ستسهم في إنقاذ العالم من كابوس الأسلحة النووية التي يملكها الإرهابيون. أما الشيء الرابع، وهو الأهم من دون شك بالنسبة إليك، هو أن حياتك سيكون لها مستقبل - ثم استند إلى ظهر الكرسي - هل فهمت؟

ردّ المؤرخ على نظرات مُحاوره. كان غاضباً لأنه تلقى تهديداً كهذا، وأكثر غضباً لأنه لم يكن لديه من مفرّ. فهذا الرجل يملك سلطة هائلة وما يتطلبه ذلك من إرادة لممارسة تلك السلطة كما يحلو له.

- هل فهمت؟ - سأله بيلامي مرة أخرى.

حرك طوماس رأسه بتثاقل موافقاً.

- نعم .

- يا لك من عبقرى لعين .

- سحقاُ لك - ردّ عليه البرتغالى .

أخذ الأمريكى يضحك لأول مرة . بدأ صدره يهتز ، ولم يهدأ إلا بعد مرور دقيقة كاملة ، حين تحول ضحكه إلى سعال ملح . تحكّم فى نفسه ، وبعد فترة صمت استعاد خلالها أنفاسه ، استرجع وجهه ، وهو ما يزال مختنقاً ، وهيئته الخالية من أى تعبير كعاداته ، ثم نظر إلى طوماس .

- أنت شجاع ، يا أستاذ . هذا أمر يعجبني - وأشار بحركة من يده لكل من سوليفان وسنايدر ، اللذين كانا يرقبان المشهد فى صمت جنائزى - قليلون من يخاطبوننى ليقولوا لى «سحقاُ لك» . حتى الرئيس لا يجرؤ على ذلك - ثم أشار بإصبعه إلى طوماس وزار ، فجأة ، بصوت مهدد - لا تجرؤ على تكرار ذلك مرة أخرى ، أفهمت؟

...

- أفهمت؟

- حسناً . فهمتُ .

ثم حك الأمريكى جبينه .

- حسناً - تنهّد ، وهو دائماً متحكّم فى نفسه - لقد بدأت أحكى لك ، قبل قليل ، عن ذلك الطلب الذى تقدم به بن غوريون لأينشتاين . هل تريد أن تسمع بقية الحكاية؟

- نعم ، إن كنت مصراً على ذلك ...

- بدأ أينشتاين يفكر فى القبلة الجديدة شهراً بعد لقائه مع بن غوريون . أذكرك بأن الفكرة تتمثل فى تصميم قبلة نووية يمكن لإسرائيل أن تصنعها بسرعة ، وبوسائل محدودة ، بشكل سرى . إننا نعرف اليوم أن أينشتاين اشتغل على هذا المشروع لمدة ثلاث سنوات

على الأقل، إلى غاية سنة ١٩٥٤، ومن الممكن أنه كان ما يزال يشتغل عليه سنة ١٩٥٥، سنة وفاته. لكننا نجهل كل شيء عما أنجزه عالمنا العبقري. حسب أحد العلماء الذين تعاون معهم، كان يزودنا بمعلومات منتظمة، فإن أينشتاين أخبره أنه يملك بين يديه وصفاً أكبر انفجار لم تسبق رؤيته، شيء عظيم جداً حتى أن أينشتاين، وفق مُخبرنا، كان يبدو مندهلاً أمام اكتشافه - بدا كأنه يقوم بمجهود ليتذكر، كما لو أن شكاً داهمه - نعم، هذا ما قاله. مندهلاً. هذه هي العبارة التي استعملها مُخبرنا. مندهلاً.

- ولا تعرفون أين انتهت تلك الوثيقة؟

- اختفت الوثيقة وحمل أينشتاين معه سرّه إلى القبر. لكن، من المحتمل أن يكون قد استودعه شخصاً ما. يُحكى أن أينشتاين أصبح صديقاً لعالم فيزياء شاب أمضى فترة تدريب في *Institute for Advanced Study* وأن هذا الفيزيائي الشاب . . .

- هو الأستاذ سيزا!

- إنك لعبقري لعين، لا شك في ذلك - أكد بيلامي - الأستاذ سيزا، ومن يكون غيره. هو نفسه الذي اختفى قبل ثلاثة أسابيع. هو نفسه الذي وجدنا في بيته شِعْر عزيز المتقي، العميل الخطير لحزب الله. حزب الله هذا الذي تموله إيران. وإيران هذه التي تحاول بكل الوسائل أن تطور في السر سلاحاً نووياً.

- يا إلهي!

- هل فهمت الآن لماذا كنا نحرض كل الحرص على أن نتحدث معك؟

- نعم.

- بقي لي أن أقول لك شيئاً كشفه لنا مُخبرنا.

- أي مُخبر؟

- زميل أينشتاين ، ذلك الرجل الذي حدّثه العالم العبقرى الكبير  
عن مشروعه لفائدة بن غوريون .
- آه ، نعم .
- هذا المُخبر قال لنا إن أينشتاين وضع اسماً رمزياً لهذا  
المشروع .
- أحسن طوماس بقلبه يخفق .
- أي اسم؟
- أخذ بيلامي نفساً عميقاً .
- *Die Gottesformel* ، المعادلة الإلهية .

# 5

البيت الجميل، ذو الجدران البيضاء والسطح المغطى بالقرميد، كان يمتد على الجهة الأخرى من نهر مونديغو. بنايات الجامعة الكبيرة والرائعة تطل على المدينة، وبرج الكنيسة الجميل يعلو فوق كل شيء، يرتفع مثل منارة فوق قمة بارزة، نقطة مرجعية تتوجه إليها كل الأنظار.

كانت الشمس تُدلل مدينة كويمبرا.

مرت السيارة على طول حديقة شوبالينيو، وسطح النهر يعكس القلعة القديمة على الضفة اليسرى. خلف المقود، تأمل طوماس المدينة من الضفة الأخرى ولم يمنع نفسه من أن يفكر أنه، إن كان ثمة مكان يشعر فيه بالراحة، فهو هنا، في كويمبرا. بشوارعها التي يمتزج فيها القديم بالجديد، التقاليد والتجديد، الفادو والرّوك، الرومنسية والتكعيبية، الإيمان والعلم. بشوارعها الفسيحة ومنازلها المغمورة بالنور، حيث تنتشر جالية مهمة من الطلبة، شباب يتأبطون كتباً ويحملون أحلامَ مستقبل زاهر في عيونهم، وهم زبناء أهم نشاط اقتصادي في المدينة، الجامعة.

قطع طوماس نهر مونديغو عبر قنطرة سانطا كلارا ووصل إلى ساحة بورتاجين، قبل أن يعرج يسارا. ركن السيارة في مريض على حافة النهر، قرب محطة القطار، وقطع مشياً المتاهة الملتوية في حي



باشينيا حتى بلغ شارع فيريرا بورجيس، الشريان الحي الذي يعج بعدة محلات تجارية، ومقاهٍ، ومخابز، ودكاكين، قبل أن يصل إلى ساحة «التجارة» البديعة.

توغل في زقاق جانبي ضيق وولج بناية من ثلاث طوابق، مجهزة بمصعد قديم تفوح منه رائحة الأماكن المغلقة. ضغط على الزر، وبعد صعود متمايل، خرج عند قرص الدرج في الطابق الثاني.

- طوماس - قالت أمه وهي تستقبله بذراعين مفتوحتين - ها أنت هنا، أخيراً. يا إلهي، كان القلق قد بدأ يتأبني.  
ثم تعانقا.

- آه، صحيح؟ لماذا؟

- كيف لماذا؟ لكن، بسبب الطريق، طبعاً.

- وما بها الطريق؟

- إنها مليئة بالمجانين، يا بني. ألا تسمع الأخبار؟ بالأمس فقط، وقعت حادثة سير فظيعة على الطريق السيار، قرب سانطارين. اصطدم مجنون كان يقود بسرعة فائقة سيارة تسير بكل هدوء. وكانت على متنها أسرة فمات الرضيع المسكين.

- أتعرفين يا أمي، لو كنت أخاف من كل شيء، لن أغادر البيت أبداً.

- آه، البقاء في البيت أمر خطير، أتعرف ذلك؟

ضحك طوماس.

- البقاء في البيت أمر خطير؟ منذ متى؟

- هذا ما سمعته في نشرة الأخبار. فالإحصائيات تشير إلى أنه في البيت يقع أكبر عدد من الحوادث.

- لا عجب! يقضي الناس معظم أوقاتهم في البيت ...

- آه، إنني أقول لك هذا، يا ابني العزيز - تنهّدت الأم وهي

تضم يديها كما لو أنها تصلي - الحياة تعرضنا لخطر الموت . نعم ،  
خطر الموت !

خلع طوماس معطفه وعلقه على المشجب .

- حسناً ، عدا هذا - قال كي يغير موضوع الحديث - أين هو  
بابا؟

- إنه يرتاح ، المسكين . هذا الصباح شعر بألم في رأسه ، فتناول  
دواء قوياً جداً . لا بد أنه سيستيقظ بعد ساعة أو ساعتين . كنت أعد  
وجبة الغداء .

جلس طوماس فوق كرسي ، متعباً من السفر .

- كيف حاله؟

- والدك؟ - حرّكت رأسها - ليس بخير بتاتاً ، مع الأسف . به  
آلام ، يشعر أنه واهن ، ويصيبه الاكتئاب . . .

- لكن العلاج بالأشعة سوف يشفيه ، أليس كذلك؟  
حدقت فيه غراسا وتنهدت .

- رغم الاكتئاب ، فإنه يعول كثيراً على هذا العلاج ، أتعلم هذا؟  
لكن الدكتور غوفيا أخبرني أن العلاج بالأشعة لا يقوم سوى بتأخير  
تطور المرض ، ليس إلا .

خفض طوماس عينيه .

- أتظنين أنه سيموت قريباً؟

شدت الأم نفسها وهي تفكر فيما ينبغي لها أو تستطيع أن تجيب

به .

- نعم - قالت أخيراً فيما يشبه التمتمة - طبعاً ، قلتُ لوالدك إنه  
يجب عليه أن يصارع ، لأن هناك دائماً حلاً . لكن الدكتور غوفيا قال  
لي ألا نستسلم للأوهام وأن نستمتع إلى أقصى حد بما تبقى من  
وقت .

- وهو، هل يعرف هذا؟

- لنقل إن والدك ليس مجنوناً. يعرف جيداً أنه مصاب بمرض خطير، وهو يعرف مآله. لكننا نحاول دائماً أن نحفظ بالأمل.

- وكيف هي ردود فعله؟

- حسب الأحوال. في البداية، كان يظن أن كل هذا مجرد سوء فهم كبير، وأنهم أخطأوا في التحليل، وأن...

- نعم، لقد حدثني عن هذا.

- حسناً، بعد ذلك تقبل الأمر، في النهاية. لكن ردود فعله تختلف من يوم لآخر، بل وأحياناً من ساعة إلى أخرى. يمر بلحظات اكتئاب عصبية، فيقول إنه سيموت وإنه لا يريد أن يموت. حينئذ أواسيه كثيراً. بعد ذلك، يتحدث كما لو أنه مصاب بزكام بسيط، في تناقض تام مع ما كان يقوله ساعة قبل ذلك. فينبري، لحظتها، لوضع مشاريع سفر، للذهاب إلى البرازيل، ويمتع نفسه برحلة سفاري إلى الموزمبيق، أشياء من هذا القبيل. يقول الدكتور غوفيا إنه ينبغي تركه يحلم أحلام اليقظة، لأن ذلك مفيد له، ويساعده على الخروج من الاكتئاب. والحقيقة أنني أظن نفس الشيء.

تقطع طوماس لسانه منزعجاً.

- يا له من نحس، كل هذا!

تنهدت غراسا مرة أخرى.

- شيء فظيع - قالت وهي ترج رأسها كأنها تريد أن تتخلص من الأفكار السيئة، لكن، لنكف عن الكلام عن أشياء حزينة - قررت أن تغير الموضوع والتفتت تبحث عن حقيبة ابنها، لكنها لم تر شيئاً - قل لي، ألن تنام هنا؟

- لا، يا أمي. عليّ أن أعود هذا المساء إلى لشبونة.

- بهذه السرعة؟ لكن، لماذا؟
- لدي رحلة جوية غداً صباحاً.
- غطت الأم وجهها بكلتا يديها.
- آه، يا إلهي! رحلة جوية! سوف تتركب الطائرة مرة أخرى؟
- طبعاً. إنه عملي.
- أيتها العذارى القديسة! مجرد التفكير في الأمر يصيبني بالقلق.
- كلما سافرت أشعر بتوتر كبير، مثل دجاجة سيدبحونها.
- لا ينبغي لك أن تشعرى بذلك، لأنه ليس هناك من سبب.
- وأين ستذهب، يا طوماس؟
- لدي رحلة إلى فرانكفورت، ثم أتابع الرحلة في طائرة أخرى إلى طهران.
- طهران؟ أليست في شبه الجزيرة العربية؟
- إنها في إيران.
- في إيران؟ لكن، يا إلهي، ما الذي ستذهب للقيام به في بلد هؤلاء المجانين؟ ألا تعرف أنهم متعصبون يكرهون الأجانب؟
- إنك تبالغين!
- أنا أتحدث بجد! قبل أيام كانوا يتحدثون عنهم في الأخبار.
- هؤلاء العرب يقضون وقتهم في حرق الأعلام الأمريكية و...
- إنهم ليسوا عرباً، بل إيرانيون.
- وماذا؟ إنهم عرب، مثل العراقيين والجزائريين.
- كلا. هناك فرق. إنهم مسلمون، لكنهم ليسوا عرباً. العرب ساميون، والإيرانيون آريون.
- إذن أنا على ألف حق! إن كانوا من الآريين فهم نازيون!
- بدت ملامح اليأس على مُحيا طوماس.

- إنك تخلطين كل شيء! - صاح متعجباً - نعني بالآريين الشعوب الهندو-أوروبية، مثل الهندوس، والأتراك، والإيرانيين والأوروبيين. أما العرب، فهم ساميون، مثلهم مثل اليهود.

- لا يهم. عرب أو نازيون. إنهم نفس القوم. يقضون سحابة يومهم جاثمين على ركبهم متوجهين نحو مكة أو يفجرون القنابل في أي مكان.

- إنك تبالغين!

- كلا، إنني لا أبالغ. أعرف ما أقول.

- هل سبق لك أن ذهبت إلى هناك مرة واحدة حتى تتكلمي بكل هذا الجزم؟

- لست بحاجة إلى ذلك بتاتا. أعرف جيداً ما يجري في تلك البلدان.

- آه، نعم؟ وكيف تعرفين ذلك؟

وقفت أمه أمام المطبخ، حدقت فيه ووضعت يديها على وركيها.

- حسناً، إنني أشاهد نشرات الأخبار.

كان طوماس ينتهي من أكل رُزّ بالحليب عندما سمع والده يسعل. بعد بضع لحظات، فُتح بابُ الغرفة وظهر مانويل نورونيا في المطبخ، يرتدي عباءة نوم وشعره مشعث.

- صباح الخير، طوماس. هل أنت بخير؟

نهض الابن.

- صباح الخير، أبي. كيف حالك؟

عبس أستاذ الرياضيات العجوز عبوساً متردداً.

- لا بأس.

جلس إلى المائدة. كانت زوجته ترتب الأواني، فنظرت إليه بحنان.

- هل تريد أن تأكل شيئاً، يا حبيبي؟

- أريد حساء بسيطاً، لا غير.

قدمت غراسا صحن حساء ووضعت أمام زوجها.

- هل تريد شيئاً آخر؟

- لا. هذا يكفي - قال مانويل وهو يفتح جارور طقم المائدة

ليخرج منه ملعقة - لا أشعر بكثير من الجوع.

- حسناً، إن شئت هناك شريحة لحم في الثلاجة. يكفي أن

أقلبها.

ثم غادرت المطبخ وارتدت معطفاً.

- أترككما، ما يكفي من الوقت لأمرّ إلى كنيسة ساو

بارتولوميو. أرجو أن تظلا هادئين!

- إلى اللقاء، أمي.

غادرت غراسا نورونيا الشقة، تاركة الأب والابن وجهاً لوجه.

لم يكن طوماس يحبذ الفكرة، لكنه، في النهاية، كان دائماً يشعر أنه

أقرب من أمه الثرثارة والعطوفة منه إلى أبيه، رجل صموت،

محترس، يعيش منعزلاً في مكتبه، في عالمه الخاص من الأرقام

والمعادلات.

ران الصمت في الشقة.

كان صمماً مُخرجاً، لا يكسره سوى رنين الملعقة على الصحن.

طرح عليه طوماس أسئلة حول اختفاء زميله أوغوستو سيزا، لكن كل

ما كان يعرفه أبوه كان في علم عامة الناس. لكن ما أخبره به أن

القضية أربكت الجميع في الكلية، لدرجة أن أحد المتعاونين مع

الأستاذ سيزا لم يغادر بيته لبعض الوقت، فقط ليطلب بعض الخدمات البسيطة، ويشتري شيئاً من المؤونة في محل البقالة.

ثم سرعان ما استنزفا الحديث عن الأستاذ سيزا، فلم ير طوماس أي موضوع آخر يتناوله مع والده. في الحقيقة، لم يكن يذكر أي حديث حقيقي مع والده. لكنه كان بحاجة إلى كسر الجليد. فأخذ يتحدث عن رحلته إلى القاهرة وعن تفاصيل مسألة النُصب الذي تفحصه في المتحف المصري. كان والده يصغي إليه دون أن يقول شيئاً، بالكاد يهمس موافقاً من حين لآخر، مظهراً بكل وضوح أنه لا يتابع الكلام بكل انتباه، وأن فكره شارد منشغل بشيء آخر، ربما بما يخبئه له المرض من قدر، ربما بأفق التجريد الذي عادة ما يتيه فيه. ثم ران الصمت مرة أخرى.

لم يعد طوماس يجد ما يقوله. ظل هناك يرقب والده، بوجهه الشاحب المتجدد، بوجنتيه الغائرتين، وجسده الواهن المتعب. كان والده يمشي بخطى حثيثة نحو الموت، وكانت الحقيقة المرة أنه رغم ذلك، لم يكن طوماس قادراً على الدخول في حديث معه.

- كيف تشعر يا أبي؟

تجمدت حركة مانويل نورونيا وهو يرفع ملعقة في الهواء ونظر إلى ابنه.

- أنا خائف - قال بكل بساطة.

فتح طوماس فمه، وهو يستعد ليسأله عن سبب خوفه، لكنه صمت قبل ذلك. كان الجواب واضحاً جداً. ولحظتها، في تلك اللحظة بالذات عندما أحرَس السؤال الذي كان على طرف شفثيه، أدرك أن شيئاً ما حدث للتو. لأول مرة، فتح له والده قلبه. كما لو أنه، في تلك اللحظة الدقيقة، حدث تحوُّل، كما لو أن شيئاً اخترق السور الذي يفصلهما، كما لو أن جسراً امتد بين ضفتين لا تلتقيان،

كما لو أن هوة بين الأب والابن قد رُدمت في النهاية. الرجل العظيم، عبقرى الرياضيات الذى يعيش وسط المعادلات، الألفوريتيمات، والصيغ والمبرهنات، نزل إلى الأرض ولمس ابنه.

- أفهم - اكتفى طوماس بالقول.

حرك أبوه رأسه.

- كلا، يا ابني، إنك لا تفهم. إننا نعيش حياتنا كما لو أن العمر خالد، كما لو أن الموت لا يصيب سوى الآخرين، كما لو كان تهديداً بعيداً لا يستحق حتى أن ن فكر فيه. الموت، بالنسبة لنا، شيء مجرد. وفي انتظار ذلك، أكرس وقتي لدروسي وأبحاثي، بينما أمك تكرس وقتها للكنيسة وللناس الذين تراهم يعانون في نشرات الأخبار أو المسلسلات التلفزيونية. وأنت تكرس وقتك لكسب راتبك، ولزوجتك، ولدراسة أوراق البردي والنصب التاريخية وغيرها من من الدخائر التافهة. إن حياتنا تسلية مستمرة لا تترك لنا حتى الوقت لنستوعب أنها تلهينا - ثم نظر عبر نافذة المطبخ وتأمل الزبناء الجالسين على رصيف مقهى، هناك في الأسفل، في ساحة «التجارة» - في الحقيقة، يعبر الناس هذه الحياة، كمن يمشي مُسرنماً، ويسعون وراء الأمور التافهة، يريدون المال والتميز، يحسدون الآخرين ويتحمسون لأشياء لا تستحق العناء. يعيشون حيوات خالية من أي معنى. يكتفون بالنوم، والأكل وافتعال مشكلات تشغلهم. يعطون قيمة للأمور الثانوية وينسون الأمور الجوهرية - قال وهو يحرك رأسه - لكن المشكلة أن الموت ليس شيئاً مجرداً. إنه، في الحقيقة، قريب جداً، قاب قوسين أو أدنى. وذات يوم، يظهر طبيب يقول لنا: «إنك ستموت». وهنا يصبح الكابوس أمراً لا يطاق، ونستيقظ في النهاية.

- وهل استيقظت، يا أبي؟



نهض مانويل عن الطاولة، وضع الصحن في المجلى وفتح الصنبور.

- نعم، لقد استيقظتُ - ثم أغلق الصنبور قبل أن يعود ليجلس إلى الطاولة - استيقظتُ لأعيش، ربما، آخر لحظات حياتي - قال وهو ينظر إلى المجلى - استيقظتُ لأرى الحياة تناسب كما ينساب الماء عبر هذا الثقب. أحياناً، ينتابني غضب عارم تجاه ما يصيني، أتساءل، لماذا أنا؟ ثمة كثير من الناس يجرون في الشارع، كثير من الناس لا يفعلون شيئاً يُذكر، لأي سبب يجب أن تصيني المصائب أنا بالتحديد؟ مثلاً، قبل أيام، ذهبت إلى المستشفى، فالتقيتُ صدفة «شيكو القطرة». هل تذكره؟

- من يكون؟

- «شيكو القطرة».

- لا. لا أرى من هو ...

- ولكنك تعرف من هو. إنه ذلك العجوز الذي يقضي سحابة يومه يقرع الخمرة ونراه أحياناً يترنح في الشارع، سكران تماماً، يرتدي دائماً أسماًلاً.

- آه، عرفتُ من هو. أتذكرُ أنني صادفته عندما كنتُ طفلاً صغيراً. أما زال حياً؟

- حياً؟ إنه يتمتع بصحة جيدة! ما زال مدوراً مثل برميل، ولم يغم بأي شيء في حياته. رائحته كريهة، يبصق على الأرض ويضرب زوجته ... باختصار، إنه حثالة، ... عالة! حسناً، صادفته فقلت في نفسي: يا إلهي، لِمَ لا يكون هو المريض؟ من هو هذا الرب الذي يبلو بالمرض شخصاً مثلي ويترك في سلام شخصاً خاملاً من هذا النوع، يتمتع بصحة من حديد؟ - فتح عينيه على وسعهما - عندما أفكر في هذا الأمر، ينتابني الغضب!

- لا يمكنك أن تنظر إلى الأمور بهذا الشكل، يا أبي . . .

- لكن، هذا ليس عدلاً! أعرف أنه لا ينبغي أن نحكم على الأمور بهذا الشكل، وأنه أمر يتنافى مع الأخلاق أن نتمنى أن يصيب غيرنا ما يصيبنا من أمور، ولكن، في النهاية، عندما أفكر في حالي وأرى تلك الصحة التي ينعم بها شخص مثل «شيكو القطرة»، سامخني ولكني لا أستطيع أن أمنع نفسي من أكون غاضباً!  
- أتفهمك.

- من جهة، أنا واع بأنه لا ينبغي أن أترك هذا الإحساس يسيطر عليّ - ثم سأل - وأشعر أن وقتي أصبح ثميناً، هل تفهم؟ عليّ أن أغتنمه لأراجع طريقة تصرفي وأولوياتي في الحياة، وأن أهتم بما هو مهم، فعلاً، أبتعد مما هو تافه، وأحقق السلم مع ذاتي ومع العالم - ثم قام بحركة غير محددة - لقد قضيت وقتاً طويلاً منغلقاً على ذاتي، أتجاهل أمك، أتجاهلك أنت، أتجاهل زوجتك وابنتك، أدير ظهري لكل شيء، باستثناء الرياضيات التي كنت شغوفاً بها. الآن، بعد أن أصبحت أعرف أنني يمكن أن أموت، أشعر أنني قطعت الحياة كما لو أنني كنت مخدراً، كما لو أنني نمت، كما لو أنني، في الحقيقة، لم أعش هذه الحياة. وهذا الأمر، بدوره، يثير غضبي. كيف كنت بليداً إلى هذا الحد؟ - طأطأ رأسه، وهو يكاد يهمس - لذلك أريد تعويض ما ضاع من وقت - طأطأ رأسه ونظر إلى صدره - لكني، لا أعرف إن كان هذا الشيء بداخلي سيترك لي وقتاً لذلك.

ظل طوماس صامتاً، لا يجد ما يقوله. لم يسبق له قط أن سمع والده يتساءل عن الحياة وكيف عاشها، وعن الأخطاء التي ارتكبها، والأشخاص الذين كان بوّده أن يحبهم لكنه تنصل منهم. في الحقيقة، كان والده يحدثه عن علاقتهما الخاصة، عن الألعاب التي لم يمارسها معاً، عن القصص التي لم يقرأها عليه والده في السرير،

عن ضربات الكرة التي لم يتبادلاها، وعن كل الأشياء التي لم يتقاسماها معاً. لقد كان الأب يشكك في موقفه من ابنه. ظل طوماس صامتاً، لا يعرف بماذا يجيب. كان فقط يشعر برغبة قوية وحادة في الحصول على فرصة ثانية، على أن يكون في حياة مستقبلية ابناً لهذا الأب وأن يكون هذا الأب أباً حقيقياً لابنه. نعم، كم سيكون جميلاً لو حصل على فرصة ثانية.

- ربما بقي أمامك من الوقت أكثر مما تظن - سمع طوماس نفسه يقول - ربما يموت جسدنا، ولكن روحنا تبقى، وتستطيع، بعد ذلك، أن تنبعث من جديد، فتستطيع تصحيح أخطاء حياتك، يا أبي.

- ماذا؟ انبعث الروح؟

- نعم. ألا تؤمن بذلك؟

ورسم مانويل نورونيا ابتسامة حزينة على محياه.

- بوذي أن أومن، طبعاً. من ذا الذي، في مثل وضعي، لا يود أن يؤمن بشيء كهذا؟ بقاء الروح. إمكانية أن تتجسد لاحقاً في جسد آخر فنعيش مرة أخرى. يا لها من فكرة جميلة - حرّك رأسه - لكنني رجلٌ علّم ومن واجبي أن أحارب هذا الوهم.

- ماذا تقصد بهذا؟ أتظن أن الروح لا تقوى على البقاء؟

- ولكن، ما هي الروح بالضبط؟

- إنها... لست أدري... قوة حيوية، الأمل الذي يحركنا.

نظر عالم الرياضيات العجوز إلى ابنه لحظة.

- اسمع، يا طوماس. انظر إليّ. ماذا ترى؟

- أرى والدي؟

- إنك ترى جسداً.

- نعم.

- إنه جسدي. وأنا أتحدث عنه كما لو أنني أقول: هذا

تلفازي، هذه سيارتي، هذا قلمي. في هذه الحالة، يتعلق الأمر بجسدي. إنه شيء لي أنا، في ملكي - وضع كف يده على صدره - لكن، حين أقول هذا الجسد جسدي، فإنني من هنا أقرّ بأنني مختلف عنه. إنه في ملكي، لكنه ليس هو أنا. إذن، من أكون أنا؟ - لمس جبينه بإصبعه - أنا أفكاري، تجربتي، وأحاسيسي. هذا هو ما يُشكّلني. إذن، هل يكون هذا الوعي، هذا «الأنا» الذي هو أنا، هو ما نسميه الروح؟

- إيه . . . نعم، أفترض أن الأمر كذلك.

- المشكلة أن هذا «الأنا» الذي يُشكّلني هو نتيجة لمواد كيماوية تجري في جسدي، لانتقال الكهرباء بين خلاياي العصبية، لإرث جيني مدون في حمضي النووي، بالإضافة إلى عوامل عديدة، خارجية وداخلية، تُحدّد من أكون. إن دماغي عبارة عن آلة إلكترونية معقدة تشتغل مثل حاسوب، أما وعيي، هذا المفهوم الذي أملكه عن وجودي، فهو عبارة عن برنامج. هل تفهم؟ بطريقة ما، حرفياً، الدماغ هو الهاردوير، والوعي هو السوفتوير. مما يطرح، بالطبع، بعض الأسئلة المهمة. هل يمكن لحاسوب أن تكون له روح؟ وإذا كان الإنسان حاسوباً معقداً، هل يمكن له بدوره أن تكون له روح؟ وعندما تموت كل الدوائر، هل تبقى الروح حية؟ وأين تبقى؟

- حسناً . . . إنها تغادر الجسد وترتفع نحو . . . كيف أعبر عن

ذلك . . . نحو . . .

- نحو السماء؟

- لا، تذهب نحو . . . نحو بُعد آخر.

- لكن، ممّ تتشكل هذه الروح التي تغادر الجسد؟ من الذرات؟

- لا، لا أظن ذلك. لا بد أنه مادة غير حسيّة.

- من دون ذرات؟

- أتصور أنها كذلك. إنها... نفس.

- حسناً، يقودني هذا لطرح سؤال آخر - لاحظ عالم الرياضيات - هل يمكن لروحي في مستقبل بعيد، أن تتذكر حياتي الآنية؟

- نعم، يقولون إن ذلك ممكن.

- لكن، هذا لا معنى له، ألا تعتقد ذلك؟

- لماذا؟

- فكّر، يا طوماس. ما هو أساس وعينا؟ كيف أعرف أنني أنا، أنني أستاذ الرياضيات، وأني أبوك وزوج أمك؟ أنني ولدت في كاشتيلو برانكو وأني شبه أصلع؟ ما الذي يجعلني أعرف كل شيء عن ذاتي؟

- إنك تعرف نفسك انطلاقاً مما عشتُه، مما فعلتُه ومما قلتُه، مما سمعتُه، ومما رأيتُه وتعلّمتُه.

- تماماً. أعرف من أكون لأنني أملك ذاكرة ذاتي، كل ما حدث لي إلى حدود هذه الثانية الأخيرة. إنني لست سوى ذاكرة ذاتي. لكن، أين تقع هذه الذاكرة؟

- في الدماغ، بطبيعة الحال.

- تماماً. ذاكرتي تقع في دماغي، وهي مُخزّنة في الخلايا. تُشكّل هذه الخلايا جزءاً من جسدي. وهذا هو السؤال. عندما يموت جسدي، فإن خلايا ذاكرتي هذه تكف عن التزود بالأوكسيجين وتموت بدورها. هكذا، تنطفئ ذاكرتي بكاملها، وذكرى ما كنتُه. إذا كان الأمر كذلك، فكيف للروح أن تتذكر حياتي؟ إذا كانت الروح لا تتوفر على أية ذرة، فلن يكون بمقدورها أن تحتفظ بأي خلية من خلايا ذاكرتي، أليس كذلك؟ من جهة أخرى، إن الخلايا التي كانت ذاكرتي محفوظةً فيها قد صارت ميتة بدورها. في ظل هذه الشروط،

كيف للروح أن تتذكر أي شيء؟ ألا يبدو لك كل هذا سخيفاً بعض الشيء؟

- لكن، يا أبي، إنك تتحدث كما لو كنا مجرد آلات وحواسيب  
- ثم فتح يديه كمن يعرض بدهاة - لديّ خبرٌ سار أبشرك به. إننا لسنا  
حواسيب، نحن أفراد، كائنات حية.  
- آه، نعم؟ وما الفرق بين الاثنين؟  
- حسناً، نحن نفكر، نحس، نعيش. الحواسيب لا تقوم  
بذلك.

- وهل أنت متأكد من أننا نختلف فعلاً عن الحواسيب؟  
- ولكن، طبعاً، يا أبي! الكائنات الحية بيولوجية، والحواسيب  
مجرد دوائر إلكترونية.

رفع مانويل نورونيا بصره نحو السقف، كأنه يتوجه إلى أحد ما.  
- مع أن هذا الشاب حصل على شهادة دكتوراه من الجامعة  
تردد طوماس.

- لماذا تقول هذا؟ هل نطقت بحماقة ما؟  
- كن مطمئناً، يا بُنيّ. لقد قلت ما قد يقوله أي عالم أحياء.  
لكن، إن سألت عالم أحياء عن معنى الحياة، قد يجيبك نوعاً ما بما  
يلي: الحياة مجموعة من العمليات المعقدة المبنية على «ذرة  
الكربون». لكن، حذار! حتى أكثر علماء الأحياء غنائية يعترف بأن  
العبرة المفتاح في هذا التعريف ليست هي «ذرة الكربون»، بل  
«عمليات معقدة». صحيح أن الكائنات الحية التي نعرفها تتشكل من  
ذرات الكربون، لكن ليس هذا حقاً ما يشكل أساس تعريف الحياة.  
هناك من علماء الكيمياء الحيوية من يعترفون بأن أشكال الحياة  
الأولى فوق الأرض لم تكن تعتمد على ذرات الكربون، بل على

البلورات. فالذرات ليست سوى المادة التي تجعل الحياة ممكنة. لا يهم إن كان الأمر يتعلق بالذرة «ألف» أو بالذرة «باء»، تصور أن هناك ذرة «ألف» في رأسي، ولسبب من الأسباب تم تعويضها بالذرة «باء». فهل أكف عن كوني أنا، مع ذلك؟ لا أظن ذلك - قال وهو يحرك رأسه - ما يجعلني أكون أنا هو النموذج الأعلى، بنية من المعلومات. بعبارة أخرى، إنها ليست الذرات، بل الطريقة التي نُظمت بها - سَعَلَ قبل أن يستأنف كلامه - هل تعرف من أين تأتي الحياة؟

- من أين؟

- إنها تأتي من المادة.

- يا له من خبر عظيم!

- إنك لا تفهم قصدي - قال، ثم نقر بإصبعه على الطاولة - إن الذرات التي يتشكل منها جسدي هي نفسها التي تتشكل منها هذه الطاولة. أو أي مجرّة بعيدة. إنها نفس الذرات. والفرق يكمن في طريقة تنظيمها. في رأيك، ما الذي يُنظّم الذرات حتى تُشكل خلايا حية؟

- لا أعرف.

- هل تكون قوة حيوية؟ هل تكون روحاً؟ هل يكون الله؟

- ربما

- لا، يا بُنَيَّ - قال وهو يحرك رأسه - إن ما يُنظّم الذرات لتُشكّل خلايا حية هي قوانين الفيزياء. هذا هو جوهر المسألة. ففكر، كيف يمكن لمجموعة من الذرات الجامدة أن تشكل نظاماً حياً؟ والجواب يكمن في وجود قوانين التعقيد. لقد أظهرت كل الدراسات أن الأنظمة تنتظم بطريقة عفوية، بحيث تخلق بنيات دائماً أكثر تعقيداً، وتخضع لقوانين فيزيائية يتم التعبير عنها من خلال معادلات

رياضية. بل إن أحد علماء الفيزياء حصل على جائزة نوبل لأنه برهن على أن المعادلات الرياضية التي تنظم التفاعلات الكيمائية غير العضوية تشبه المعادلات التي تضع قواعد التصرفات البسيطة الخاصة بالأنظمة البيولوجية الأكثر تطوراً. بعبارة أخرى، إن الكائنات الحية، في الحقيقة، نتاج مسلسل تعقيد مذهل للأنظمة غير العضوية. ولا ينتج مسلسل التعقيد هذا عن أي قوة حيوية، بل عن تنظيم عفوي للمادة. إن جزيئة، مثلاً، يمكن أن تتشكل من ملايين الذرات المرتبطة فيما بينها بطريقة خاصة جداً، وتتحكم في نشاطها بنيات كيمائية تضاهي في تعقيدها بنيات مدينة. فهل تدرك قصدي؟

- آه . . . نعم .

- إن سر الحياة لا يكمن في الذرات التي تشكل الجزيئة، بل في بنيتها، في نظامها المعقد. وتوجد هذه البنية لأنها تخضع لقانون التنظيم العفوي للمادة، وكما أن الحياة هي نتاج مسلسل تعقيد للمادة الجامدة، فإن الوعي هو نتاج مسلسل تعقيد الحياة. تعقيد التنظيم، هذا هو السؤال الجوهرى، وليس المادة - ثم أخرج من أحد الجوارير كتاب طبخ وفتحته ليعرض ما بداخله - هل ترى هذه الحروف؟ بأي لون طبعت؟

- أسود .

- تصور أنه، بدل المداد الأسود، استعمل عامل المطبعة مداداً أحمر - ثم أغلق الكتاب ولوّح به - فهل كان سيتغير مضمون هذا الكتاب؟

- طبعاً، لا .

- لن يتغير، بطبيعة الحال. إن ما يشكل هوية هذا الكتاب ليس لون الحروف، بل بنية من المعلومات. لا يهم كثيراً إن كان المداد أسود أو أحمر، ما يهم هو محتوى معلومات الكتاب، بنيته. يمكن



أن أقرأ طبعة من رواية «الحرب والسلام» مرقونة بحروف «Times New Roman» وطبعة أخرى من نفس الرواية مرقونة بحروف «Arial» عند ناشر آخر، لكن الكتاب سيكون دائماً هو نفسه. مهما كانت الظروف، فإن الأمر يتعلق برواية «الحرب والسلام» للكاتب ليون تولستوي. وعكس ذلك، إن كانت لدي نسخة من رواية «الحرب والسلام» ونسخة من رواية «أنا كارينينا» رُقتا بنفس النوع من الحروف، Times New Roman، مثلاً، فإن ذلك لا يكفي لا يجعل منهما نفس الكتاب، أليس كذلك؟ إن ما يشكل المكون الأساسي، إذن، ليس هو نوع الحروف ولا لونها، بل بنية النص، دلالاته، تنظيمه. ونفس الشيء يحدث مع الحياة. لا يهم إن كانت الحياة تعتمد على ذرة الكربون أو البلورات أو على أي شيء آخر. إن ما يشكل الحياة هو بنية من المعلومات، دلالة، تنظيم معقد. اسمي مانويل، وأنا أستاذ لمادة الرياضيات. ليأخذوا من ذاتي ذرة «ألف» وليضعوا مكانها ذرة «باء»، إن بقيت هذه المعلومة محفوظة، وظلت البنية سليمة، فإنني سوف أستمّر أنا نفسي. حتى ولو استبدلوا كل ذراتي بذرات أخرى، سأظل أنا نفسي. بل، إنه قد ثبت اليوم أن كل ذراتنا تقريباً تتغير على امتداد حياتنا. ومع ذلك، ما زلت أنا هو أنا. لنأخذ، مثلاً، فريق بينفيكا لكرة القدم، ولنغير كل اللاعبين. لن يمنع ذلك فريق بينفيكا من أن يوجد، ويظل دائماً هو بينفيكا، بغض النظر عن اللاعبين الذين تم اختيارهم. إن ما يشكل بينفيكا ليس هو اللاعب «ألف» أو «باء»، بل إنه مفهوم، دلالة. ويحدث الأمر نفسه مع الحياة. لا تهتم كثيراً الذرة التي ملأت البنية في لحظة ما، المهم هو البنية في حد ذاتها. ما دامت ذرات معينة تشغل بنية المعلومات التي تحدد هويتي ووظائف أعضائي، فإن الحياة ممكنة. هل فهمت؟

- نعم.

- إن الحياة عبارة عن بنية من المعلومات المعقدة جداً وكل أنشطتها تضم معالجة المعلومات - قال قبل أن يسعل - إن هذا التعريف، مع ذلك، تترتب عنه نتيجة عميقة. إذا كانت الحياة تتشكل من نموذج، دلالة، بنية من المعلومات تتطور وتتفاعل مع العالم الخارجي، فإننا، في نهاية المطاف، لسنا سوى نوع من البرامج المعلوماتية. فالمادة هي الهاردوير، والوعي هو السوفتوير.

- وما هو برنامج . . . هذا . . . الحاسوب؟

- بقاء الجينات. بعض علماء الأحياء عرفوا الكائن البشري بأنه آلة بقاء، نوع من الروبوتات المبرمجة عشوائياً من أجل الحفاظ على الجينات. أعرف أن هذه الأشياء، وتقديماً بهذه الطريقة، يبدو أمراً صادمًا، لكن هذا هو ما يشكل هويتنا. نحن حواسيب مبرمجة للحفاظ على الجينات.

- حسب هذا التعريف، فالحاسوب كائن حي.

- من دون شك. إنه كائن حي لا يتشكل من ذرات الكربون.

- لكن هذا غير ممكن!

- ولماذا لا يكون ممكناً؟

- لأن الحاسوب لا يتفاعل سوى مع برنامج محدد مسبقاً.

- وأي شيء غير هذا تفعله كل الكائنات الحية المشكلة من ذرات الكربون؟ - ردّ الأب - ما يطرح لك مشكلة هو أن يكون الحاسوب آلة تشتغل على أساس الإثارة-الاستجابة المبرمجة، أليس كذلك؟

- آه . . . نعم.

- وكلبٌ بافلوف؟ ألا يشتغل وفق مبدأ الإثارة-الاستجابة المبرمجة؟ والنملة؟ والنبته؟ والجرادة؟

- حسناً . . . نعم، ولكن الأمر مختلف.

- إنه ليس مختلفاً. إذا كنا نعرف برنامج الجراد، ونعرف ما يجذبها وما ينقّرُها، ما يُثيرها وما يُفزعها، يمكن أن نتوقع كل تصرفاتها. فالجراد له برنامج بسيط نسبياً. إذا وقع الحادث «سين» فإن رد فعل الجراد يكون بطريقة «ألف». لو حدث «ياء» فإن رد الفعل يكون بطريقة «باء». تماماً، مثل آلة من تصميم الإنسان.

- لكن الجراد آلات طبيعية، والحواسيب آلات اصطناعية.

جال مانويل ببصره عبر المطبخ، يبحث عن فكرة. استقر نظره على نافذة، وقد لفتت انتباهه شجرة في الرصيف المقابل، جاءت بعض الطيور لتحط فوقها.

- انظر إلى تلك الطيور، هناك؟ هل الأعشاش التي تبنيها فوق

الأشجار طبيعية أم اصطناعية؟

- إنها طبيعية، بطبيعة الحال.

- إذن كل ما يقوم به الإنسان طبيعي كذلك. لكن بما أن لدينا

نظرة تضع الإنسان في مركز الطبيعة، فإننا نقسم الأشياء إلى أشياء طبيعية وأخرى اصطناعية، مفترضين أن الاصطناعية من صنع الإنسان والطبيعية من عمل الطبيعة، مثل النباتات والحيوانات. لكن هذا مجرد ابتكار بشري. في الحقيقة، إذا كان الإنسان حيواناً، تماماً مثل الطائر، فإنه من المخلوقات الطبيعية، أليس كذلك؟

- نعم.

- لكن، إن كان مخلوقاً طبيعياً، فإن كل ما يقوم به طبيعي.

ويرتب على ذلك أن كل ما يخلقه طبيعي، تماماً كما أن العش الذي يبنيه الطائر شيء طبيعي. ما أريد قوله هو أن كل شيء في الطبيعة طبيعي. بما أن الإنسان منتج من منتجات الطبيعة، فإن كل ما يفعله طبيعي أيضاً. فقط بسبب عرف لغوي محض تم اعتبار الأشياء التي خلقها الإنسان أشياء اصطناعية، بينما هي، في الواقع، طبيعية مثلها

مثل الأشياء التي تخلقها الطيور. إذن، ما دامت الحواسيب مخلوقات من خلق حيوان طبيعي، فإنها، مثل الأعشاش، طبيعية. - لكنها، لا تملك ذكاء.

- كما لا تملكه الطيور، ولا يملكه الجراد - قال وقد علت وجهه تكشيرة - أو بالأحرى، إن الطيور، والجراد والحواسيب تملك ذكاء؛ لكنها لا تملك ذكاءنا. لكن، في حالة الحواسيب، مثلاً، لا شيء يشير إلى أنه، بعد مئة عام، لن تتمتع بذكاء يضاهي ذكاءنا أو يفوقه. وإن هي وصلت إلى درجة ذكائنا، كن على يقين أنها سوف تطور شعوراً وأحاسيس وستصبح واعية. - إنني لا أعتقد ذلك.

- أنه يمكن أن تكون لها أحاسيس وتصير واعية؟  
- نعم. لا أعتقد ذلك.

انتابت مانويل نورونيا نوبة سعال حادة، سعال قوي يعطي الانطباع بأنه سوف ينفث رثيته. ساعده ابنه على أن يتغلب على السعال، وهو يقدم له الماء ليهدئه. عندما انتهت النوبة، نظر طوماس إلى والده نظرة قلق.

- هل تشعر أنك بخير، يا أبي؟  
- نعم.

- ماذا لو ذهبت لتمتدّد بعض الشيء؟ ربما  
- أشعر أنني بخير، لا تقلق - أجابه عالم الرياضيات العجوز وهو يستعيد أنفاسه.

- هل أنت متأكد من ذلك؟  
- أشعر أنني بخير، أشعر أنني بخير - قال ملحاً وهو يستعيد نفسه - عن أي شيء كنا نتحدث؟  
- أوه، لا يهم.

- كلا ، كلا . أريد أن أكمل شرحي . هذا مهم .

تردد طوماس ، ثم قام بمجهود ليتذكر .

- كنت أقول لك إنني لا أعتقد أن الحواسيب يمكن أن تملك وعياً وأحاسيس .

- آه ، نعم ! - صاح مانويل ، وهو يسترجع خيط أفكاره - وتظن

أن الحواسيب لا يمكن أن تكون لها أحاسيس ، أليس كذلك ؟

- نعم . لا أحاسيس لها ولا وعي .

- إنك مخطئ - قال ثم أخذ نفساً عميقاً واسترجع نفسه العادي

- أتعرف ، إن الأحاسيس والوعي ينتجان عن بلوغ درجة معينة من الذكاء . لكن ، ما هو الذكاء ؟

- الذكاء هو القدرة على القيام بتفكير معقد ، أظن .

- تماماً . بتعبير آخر ، الذكاء شكل أسمي من أشكال التعقيد .

وليس من الضرورة بلوغ درجة الذكاء البشري كي يكون ثمة وعي .

مثلاً ، الكلاب أقل ذكاء بكثير من البشر ، لكنك لو سألت سيداً إن

كان لكلبه إحساس ووعي بالأشياء ، سيقول لك نعم دون تردد .

الكلب يملك إحساساً ووعياً . وعليه ، فإن الإحساس والوعي آليتان

تبرزان ابتداء من درجة معينة من تعقيد الذكاء .

- إذن ، في رأيك ، يا أبي ، يوم تبلغ الحواسيب هذه الدرجة من

التعقيد ، سوف تتمتع بالإحساس والوعي .

# مكتبة

t.me/t\_pdf

- من دون أدنى شك .

- أجد صعوبة في تصديق ذلك .

- إنك تجد صعوبة في تصديق هذا الأمر ، مثل معظم الناس

الذين لا تهمهم هذه المشكلة . أن تكون الآلات قادرة على امتلاك

الوعي مسألة تصدم الناس العاديين . لكن معظم العلماء الذين يتأملون

المسألة يُقَرَّون بأنه من الممكن أن نجعل من ذكاء مصطنع ذكاءً واعياً.

- لكن، هل تظن حقاً، يا أبي، أنه من الممكن أن نجعل حاسوباً ما ذكياً؟ وأنه يستطيع أن يفكر وحده؟

- بطبيعة الحال. فالحواسيب ذكية أصلاً. إنها ليست ذكية مثل البشر، لكنها أكثر ذكاء من دود الأرض، مثلاً. لكن، ما الذي يميز ذكاء الإنسان عن ذكاء دود الأرض؟ التعقيد. دماغنا أكثر تعقيداً من دماغ دود الأرض. كلا الدماغين لهما نفس المبادئ، كلاهما له اشتباكات عصبية وروابط، إلا أن دماغ الإنسان أكثر تعقيداً بشكل لا محدود من دماغ دود الأرض... هل تعرف ما هو الدماغ؟

- إنه ما يوجد داخل جمجمتنا؟

- الدماغ كتلة حيوية تشتغل تماماً مثل دائرة كهربائية. بدل الخيوط، به خلايا عصبية، وبدل الرقاقات، به مادة رمادية، ولكنه نفس الشيء تماماً. يشتغل بطريقة حتمية. تُحدِثُ الخلايا العصبية اندفاعاً كهربائياً نحو الذراع وفق أمر معين، عبر دوائر من التيارات المحددة سلفاً. كل دائرة مختلفة تنتج اندفاعاً مختلفاً. تماماً مثل الحاسوب. أعني بهذا أنه لو تمكنا من أن نجعل دماغ الحاسوب أكثر تعقيداً مما هو عليه حالياً، يمكن أن نجعله يشتغل في مستوى الإنسان.

- ولكن، هل من الممكن أن نجعله ذكياً مثل دماغ البشر؟

- نظرياً، لا شيء يمنع ذلك. وفضلاً عن هذا، فإن الحواسيب تفوق البشر في سرعة إنجاز العمليات الحسابية. بيد أن أكبر نواقصها تتجلى في الإبداع. لقد أثبت أحد الآباء المؤسسين لعلم الحاسوب، وهو إنجليزي يدعى آلان تورنغ، أنه يوم نتوصل إلى إجراء حديث مع حاسوب يشبه تماماً الحديث الذي نجريه مع كائن بشري، سيكون

ذلك إشارة على أن الحواسيب تفكر، ودليلاً على أن ذكاءها في مستوى ذكائنا .

بدا طوماس متشككاً .

- لكن، هل هذا ممكن حقاً؟

- حسناً . . . صحيح أن العلماء كانوا يظنون عكس ذلك لوقت طويل، بسبب مسألة رياضية معقدة - قال ثم سَعَلَ - تعرف، نحن علماء الرياضيات جميعاً نظراً دائماً أن الله عالمُ رياضيات وأن الكون منظم وفق معادلات رياضية . وهذه المعادلات، مهما كانت صعوبتها، يمكن حلها . إن لم نتمكن من حل واحدة من هذه المعادلات، فإن ذلك لا يعود لاستحالة حلها، بل لعدم قدرة الذكاء البشري على ذلك .

- إنني لا أرى ما تقصده بكلامك . . .

- سوف تفهم ذلك - وعده الأب - إن مسألة معرفة إن كانت الحواسيب قادرة أم لا على اكتساب وعي ترتبط بمسألة رياضية هي مفارقات المرجعيات الذاتية . مثلاً، إن قلت لك هذا: إنني لا أقول غير الأكاذيب . ألا ترى في الأمر شيئاً مُفارقاً؟

- أين ذلك؟

- في هذه الجملة التي تلفظت بها للتو: إنني لا أقول غير الأكاذيب .

أخذ طوماس يضحك .

- إنها حقيقة كبرى .

نظر إليه والده نظرة متسامحة .

- في هذه الحالة، إن كان صحيحاً أنني لا أقول غير الأكاذيب، وقلتُ حقيقة معينة، فإنني لا أقول سوى الأكاذيب . إن كان التأكيد صحيحاً فإنه ينطوي على تناقض - قال مبتسماً وهو راض عن نفسه -

لمدة طويلة، كنا نظن أن الأمر يتعلق هنا بمجرد مشكلة دلالية، ناتجة عن محدودية اللغة البشرية. لكن، عندما تم تحويل هذا المنطوق إلى صيغة رياضية، ظل التناقض قائماً. حاول علماء الرياضيات لوقت طويل حل هذه المسألة، مقتنعين دائماً بأنه يستحيل حلها. لكن هذا الوهم تبدد سنة ١٩٣١ عندما قام عالم رياضيات يدعى كورت غودل بصياغة مُبرهنَتَيْن تسميان مُبرهنَتَا عدم الاكتمال. وتُعدُّ مُبرهنَتَا عدم الاكتمال من أهم الإنجازات الفكرية في القرن العشرين. تركتا علماء الرياضيات في حالة صدمة - تردّد - إنه لأمر معقد بعض الشيء أن أشرح لك بماذا تتعلق هاتان المُبرهنَتان، لكن من المهم أن تعرف أنه ...

- حاول ذلك.

- أحاول ماذا؟ أن أشرح مُبرهنَتَي عدم الاكتمال؟

- نعم.

- هذا ليس أمراً بسيطاً - قال وهو يحرك رأسه، ثم ملأ صدره بالهواء، كأنه يحاول أن يستجمع شجاعته - المهم في الأمر أن غودل برهن على أنه لا يوجد أساس عام يُبرهنُ على انسجام الرياضيات. هناك مقولات حقيقية، لكنه لا يمكن إثباتها داخل النظام. وقد كان لهذا الاكتشاف نتائج عميقة، لأنه عرّى على محدودية الرياضيات، وأدخل فكرة دقيقة مجهولة في هندسة الكون.

- لكن، ما علاقة هذا بالحواسيب؟

- الأمر بسيط للغاية. إن مُبرهنَتَي غودل تقترحان أن الحواسيب، مهما كانت متطورة، سوف تواجه دائماً بعض الأشكال من المحدودية. رغم أنه عاجز على أن يبرهن على انسجام نظام الرياضيات، فإن الكائن البشري يستطيع أن يفهم أن عدداً كبيراً من المقولات صحيحة داخل هذا النظام. لكن الحاسوب، إن وُضِعَ أمام



مثل هذا التناقض الذي لا يقبل الحل، فسيفشل. وبناء عليه، فإن الحواسيب لن تستطيع أبداً أن تضاهي الكائنات البشرية.

- آه، فهمتُ - صاح طوماس وهو يبدو مرتاحاً - في النهاية، أنت توافقني الرأي، يا أبي . . .

- ليس بالضرورة - قال عالم الرياضيات العجوز - المسألة الكبرى أنه يمكن أن نقدم للحاسوب صيغة نعرف أنها حقيقية، ولكن الحاسوب لا يمكنه أن يثبت أنها كذلك. هذا صحيح. وصحيح أيضاً أن الحاسوب، بدوره، يمكن أن يقوم بالشيء نفسه. فالصيغة يستحيل البرهنة عليها فقط بالنسبة لمن يشتغل داخل النظام، هل فهمت؟ وحده من يوجد خارج النظام يستطيع أن يثبت الصيغة. وهذا يسري على الحاسوب كما يسري على كائن بشري. النتيجة: يمكن لحاسوب أن يكون ذكياً مثل الإنسان، أو أكثر ذكاء.

تنهّد طوماس.

- كل هذا لتبرهن أي شيء؟

- كل هذا لأبرهن لك أننا حواسيب متطورة للغاية. فهل تظن أن الحواسيب يمكن أن تكون لها روح؟

- لا، حسب علمي.

- إذن، لو كنا حواسيب متطورة للغاية فإننا، بدورنا، لا يمكن أن تكون لنا روح. إن وعينا، وإحساسنا، وكل ما نشعر به هو نتاج لهذا التطور في بنيتنا. عندما نموت فإن رقاقت ذاكرتنا تختفي وتنطفئ - قال ثم أخذ نفساً عميقاً واستند إلى ظهر الكرسي - إن الروح، يا ابني العزيز، مجرد ابتكار، وهمٌ رائعٌ خُلِقَ من رغبتنا القوية في الخلاص من حتمية الموت.

# 6

كانت عينا أريانا باكرافان الدافئتان تنتظران طوماس في بهو وصول الركاب، في محطة المطار الدولي القديم في مهرآباد. لبعض لحظات، مع ذلك، شعر الوافد الجديد أنه تائه، وراح يبحث وسط حشود من الشادورات السوداء والملونة عن الوجه المألوف الذي أصر على ألا يظهر. ولم يطمئن المؤرخ إلا عندما اقتربت منه أريانا ولمست ذراعه. وجد صعوبة في تعرّف مضيفته تحت الخمار الإسلامي الذي يلفها ولم يجد بدأً من الشعور بالقلق من الفرق بين هذه المرأة التي تضع على رأسها حجاباً أخضر وتلك الإيرانية المتأنقة التي تناول معها الغداء في القاهرة قبل أسبوع.

- سلام، أستاذ - حياه الصوت الرقيق وهو يرحب به - خوش اومدين!

- صباح الخير، أريانا. كيف أحوالك؟

تردد البرتغالي، لا يعرف إن كان عليه أن ينحني ليقبلها على الخدين أو إن كانت هناك طريقة للتحية أنسب في هذا البلد ذي العادات الأصولية. حلت الإيرانية المشكلة وهي تمدّ له يدها.

- كيف كانت الرحلة؟

- جيدة - قال طوماس وهو يدير عينيه - كنت على وشك أن

يغنى عليّ مع كل مطبّة هوائية. عدا هذا، مرّ كل شيء على أحسن ما يرام.

ضحكت أريانا.

- أنت تشعر بالخوف على متن الطائرة، أليس كذلك؟

- ليس الخوف حقاً، لنقل إنني أشعر ب... التوجس. أقضي الوقت أتهكم من أمي التي تخشى ركوب الطائرة، ولكنني في الحقيقة مثلها، أرايت ذلك؟ ورثتُ عنها الجينات.

تفحصتهُ الإيرانية وهي تنظر إلى الحقيبة الصغيرة التي كان يحملها على كتفه وتأكدت من أنه لا يتبعه أي حمّال بمزيد من الحقائق.

- أليست لديك أمتعة أخرى؟

- لا. دائماً أسافر خفيف المتاع.

- جيد. إذن، هيا بنا.

أخذته المرأة نحو صف انتظار عند مخرج المطار، على طول الرصيف. نظر الوافد الجديد أمامه ورأى سيارات برتقالية تأخذ المسافرين.

- هل سنأخذ سيارة أجرة؟

- نعم.

- أليس لديك سيارة؟

- أستاذ، نحن في إيران - قالت بنبرة دائماً مرحة - هنا الناس لا ينظرون نظرة إيجابية إلى النساء اللواتي يقدن السيارة.  
- يا إلهي!

جلسا في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، سيارة متهالكة من نوع بايكان، ثم انحنى أريانا نحو السائق:  
- لطفاً من رو ببرين به هوتل سيمُرغ.

- بله .

لم يفهم طوماس سوى كلمة «هو طيل» .

- ما هو اسم الفندق؟

- سيمُرخ - أجابت أريانا - أحسن فندق .

التفت السائق برأسه نحو الخلف .

- دريست مي خاهين؟

- بله - ردت عليه المرأة .

بدا طوماس فضولياً .

- ماذا قال؟

- سألني إن كنا نريد سيارة الأجرة وحدنا فقط .

- سيارة الأجرة وحدنا فقط؟ لا أفهم . . .

- هذه من العادات الإيرانية . سيارات الأجرة، رغم أنها ثقلاً

ركاباً، تتوقف في الطريق لتقلّ آخرين . إذا كنا نريد أن نحتفظ بسيارة

الأجرة وحدنا فقط، يجب أن ندفع الفرق بين ثمن الرحلة وما قد

يدفعه ركاب آخرون لو أن السائق أخذهم .

- آه، وماذا كان جوابك؟

- قلت له نعم - أكدت الإيرانية - إننا نريد السيارة وحدنا فقط .

أزالت الإيرانية حجابها، وكأنها منارة تضيء الليل، فأبهر كمال

ملامح وجهها عيني البرتغالي . لقد نسي طوماس كم كانت تلك

المرأة جميلة، بشفتيها اللحيمتين، بعينيها العسليتين، ببشرتها

المشرقة، وبسحرها غير المألوف . أجهد الأستاذ نفسه كي يشيح

بنظره نحو النافذة، حتى لا يظل هناك، فارغ الفاه، أمام جمال ذلك

المحيا .

كانت طهران تمر أمام ناظريه، بشوارعها المكتظة بالسيارات،

وعماراتها الممتدة في الأفق . كانت المدينة غابة إسمنتية، قبيحة،

غير منظمة، رمادية، يغطيها ضباب لزج يطفو في الهواء مثل طيف شاحب. كان شكلُ ناصع البياض كأنه ندف من السحب الثابتة التي تضيئها الشمس يطفو فوق الضباب الدهني، وجلب نظرات الوافد الجديد المتسائلة.

- إنها النجمة القطبية ل طهران - شرحت له أريانا .

- النجمة القطبية؟

ابتسمت الإيرانية، مداعبة .

- نعم، هذا هو الاسم الذي نطلقه على جبال ألبرز - أجابته وهي تنظر هناك بعيداً إلى السلسلة - إنها تمتد على طول شمال المدينة، دائماً مغطاة بالثلوج، حتى في فصل الصيف. عندما نتيه نبحت عنها فوق السطوح، وحين نرى القمم المكسوة بالثلوج نعرف أننا قد وجدنا الشمال .

- لكنها لا تظهر بشكل واضح .

- السبب في ذلك هو الضباب الدخاني . التلوث فظيع في هذه المدينة، هل تعلم ذلك؟ أفضع من القاهرة. أحياناً لا نرى الجبال تقريباً، رغم أنها عالية وقرية جداً .

- صحيح، إنها تبدو عالية جداً .

- أعلى قمة هي جبل داماوند هناك نحو اليمين . يبلغ ارتفاعه

أكثر من خمسة آلاف متر فوق سطح البحر، وكلما

- حذار!

جاءت سيارة بسرعة من جهة اليمين وكادت تصطدم بسيارة الأجرة. وبينما كان الاصطدام يبدو أمراً حتمياً انحرفت سيارة الأجرة يساراً، وكادت تصطدم بشاحنة صغيرة فرملت وأطلقت نفيراً قوياً، ثم انحرفت قليلاً لتفادي الصدمة .

- ماذا هناك؟ - سألت أريانا .

تنهّد البرتغالي مرتاحاً .

- لقد نجونا .

ضحكت الإيرانية .

- لا تكثرث لذلك . هذا أمر عادي .

- عادي؟

- نعم . لكن، كل الأجنب، حتى أكثرهم اعتياداً على حركة السير الفوضوية في مدن الشرق الأوسط، يصابون بالرعب عندما يصلون إلى هنا . إننا نسوق بسرعة مفرطة نوعاً ما، هذا صحيح، فيصاب الزوار مرة أو مرتين بهلع شديد . لكن لا يحدث أي شيء أبداً، إذ في آخر لحظة يكون كل شيء على ما يرام، سوف ترى .  
لاحظ طوماس حركة السير المزدحمة والسريعة، وشرارة قلق في عينيه .

- أتظنين ذلك؟ - سألها بصوت تعلوه نبرة شك .

- كلا، إنني لا أظن ذلك، أنا متأكدة . استرخ، وسيكون كل شيء على أحسن ما يرام .

لم يتمكن البرتغالي من الاسترخاء وقضى بقية الطريق يرقب بعين قلقة حركة السير الجهنمية . في أقل من عشرين دقيقة، لاحظ أنه لا أحد يشغل الضوء الوامض كي يعرج يميناً أو يساراً، وقليلون هم من ينظرون إلى المرآة العاكسة قبل تغيير الاتجاه، وأقل من هؤلاء بكثير من يضعون حزام السلامة . كلهم يقودون بسرعة مفرطة، أما الأبواق وصرير الفرامل فكانت أصواتاً طبيعية ومستمرة، جوقة حقيقية فوق الزفت . وكان أقصى ما شاهده على الطريق السيار «فضل الله نوري»، عندما قدمت سيارة في الاتجاه المقابل في الممر المعاكس وتقدمت مئات الأمتار في الاتجاه الممنوع، قبل أن تتجه نحو طريق ترابي .

لكن، وكما أخبرته بذلك أريانا، وصلا سالمين إلى الفندق. كان سيمُرغ فندقاً من خمس نجوم، به باحة استقبال باذخة. ساعدته الإيرانية في ملء سجل الدخول وودعته أمام باب المصعد.

- ارتح قليلاً - نصحته قائلة - سوف آتي لأبحث عنك على الساعة السادسة مساء كي آخذك للعشاء.

كانت الغرفة مزينة بدقة كبيرة. بعد أن وضع حقيبته، دنا طوماس من النافذة وتأمل طهران. كانت تهيمن على المدينة عمارات عديمة الذوق وماذن أنيقة ترتفع فوق بنايات من دون ألوان. وفي الخلف، مثل عملاق نائم، كانت تمتد جبال ألبرز الواقية، وفوق قممها تلمع الثلوج مثل قلادة خلف زجاج واجهة ضخمة.

جلس فوق السرير ونظر إلى المنشور المغلف لفندق سيمُرغ، الذي يشير إلى مختلف الخدمات الباذخة المعروضة على الزبناء، وخاصة حمام الجاكوزي، وقاعة الرياضة والمسبح، حسب مواعيد تختلف بين النساء والرجال. انحنى وفتح باب الحانة الصغيرة. كانت الثلجة تحتوي على قنان من المياه المعدنية والغازية، بما فيها كوكا كولا، لكن أكثر ما أعجبه حقاً هو أنه اكتشف بينها جعة من نوع «ديسلير» باردة جداً. من دون انتظار، فتح الزجاجاة وعبّ الجعة.

- بواه!

كاد يبصق السائل الذي لم يكن له مذاق الجعة، بل مذاق نبيذ تفاح من النوع الرديء. من دون كحول، على الأرجح.

رنّ الهاتف.

- آلو - رد طوماس.

- آلو - أجابه صوت ذكوري في الجهة الأخرى من الخط -  
أستاذ طوماس نورونيا؟

- نعم؟

- هل أنت مرتاح لتواجدك في إيران؟

- ماذا؟

- هل أنت مرتاح لتواجدك في إيران؟

- آه - فهم طوماس - أوه . . . جئتُ لاقتناء عدة أشياء .

- حسناً - ردّ الصوت مرتاحاً لسماع تلك الجملة - هل نلتقي

غداً؟

- إن استطعت، نعم .

- عندي سجادات جميلة أحتفظ بها لك .

- نعم، نعم .

- بئس جيد .

- جيد جداً .

- أنا في انتظارك .

كُليك .

بقي طوماس لحظة طويلة، الهاتف في يده، ينظر إلى السماعه، يستعيد الحديث، يتذكر كل كلمة، يؤوّل نبرة كل جملة. في الجهة الأخرى من الخط، تحدث الرجل بالإنجليزية بلكنة محلية قوية. لا شك أنه إيراني. طبعاً، قال المؤرخ في نفسه، وهو يحرك رأسه بحركة خفيفة. طبعاً، من المنطقي أن يكون عميل وكالة المخابرات الأمريكية في طهران شخصاً إيرانياً.

عندما انفتح باب المصعد وتقدم طوماس نحو بهو الفندق، كانت أريانا تنتظره جالسة على أريكة، قرب مزهرية كبيرة، أمام فنجان شاي أخضر وضع على مائدة. كانت الإيرانية تضع حجاباً مختلفاً، وترتدي



سروالاً فضفاضاً يطفو حول ساقها الطويلتين، تضع غطاء ملوناً فوق رأسها ووشاحاً حريرياً يلف جسدها الرشيقي.

- هل نذهب؟

هذه المرة، قطعاً طهران على متن سيارة مع سائق خاص. رجل صموت يرتدي قبعة. شرحت أريانا لطوماس أن الشارع الذي يوجد به الفندق، فاليسار، يمتد على مسافة عشرين كيلومتراً من الجنوب حتى سفوح جبال ألبرز، مخترقاً الجزء الشمالي من المدينة. ويشكل شارع فاليسار محور مدينة طهران العصرية، بمقاهيه الحديثة، ومطاعمه الفخمة وبنائاته الدبلوماسية.

استغرقا وقتاً طويلاً في عبور العاصمة قبل بلوغ سفح الجبال. تسلقت السيارة المنحدر الصخري وتوغلت في حديقة طبيعية، تحميها أشجار سامقة. في الخلف، كان يرتفع سور جبال ألبرز العظيمة؛ في الأسفل، تمتد خلية النمل الإسمنتية، مدينة طهران؛ وعلى اليمين، كانت الشمس تتخذ لون الغروب البرتقالي.

توقفت السيارة في حديقة وأخذت أريانا طوماس نحو بناية ذات نوافذ واسعة تحيط بها شرفات. كان مطعماً تركياً. كانت البناية تتمتع بمنظر رائع على المدينة استمتعا به لحظة. لكن، بما أن الغسق كان ينزل على الوادي، فقد بدأ يهب نسيم بارد ولم يتأخرا كثيراً في الخارج.

بعد أن دخلا إلى المطعم، جلسا قرب النافذة وطهران عند قدميهما. طلبت الإيرانية ميرزا غاسيمي نباتي نصحت ضيفها بطلب بروت، وهو مقترح سرعان ما قبله. كان طوماس يريد أن يتذوق هذا الطبق من اللحم المزيّن بالبطاطس والخضر.

- ألا يُزعجك ذلك الحجاب فوق رأسك؟ - سألهما البرتغالي وهو ينتظر أن يقدم لهما الأكل.

- الحجاب؟

- نعم. ألا يزعجك؟

- لا. إنها مسألة تعود.

- لكن، بالنسبة لشخص درس في باريس واتخذ عادات غريبة، لا بدّ أنه ليس أمراً هيناً

علت نظرة استفهام وجه أريانا.

- وكيف عرفت أنني تابعت دراستي في باريس؟

فتح طوماس عينين جاحظتين، منفزعاً. لقد ارتكب خطأ فظيماً. تذكر أن هذه المعلومة قد زوده بها دون سنايدر، وهو ما لم يكن يستطيع أن يكشفه، بطبيعة الحال.

- أوه... لا أعرف - قال متمتماً - أظن... أظن أنهم

أخبروني بذلك في السفارة... سفارتكم في لشبونة.

- آه، حقاً؟ - قالت الإيرانية متعجبة - إن دبلوماسيينا يتحدثون كثيراً.

رسم البرتغالي ابتسامة متكلفة على وجهه.

- إنهم... ظرفاء. حدثهم عنك، فأخبروني بهذا الأمر.

تنهدت أريانا.

- حسناً، لقد تابعتُ دراستي في باريس.

- ولماذا رجعت إلى هنا؟

- لأن الأمور ساءت هناك في باريس. فشل زواجي، وبعد

طلاقي الأول شعرت أنني وحيدة. ثم إن أسرتي بكاملها كانت هنا.

لن تتصور كم كان هذا القرار صعباً. كنت قد اندمجت تماماً في

الثقافة الأوروبية، لكن خوفي من الوحدة والحنين إلى الأسرة غلباني

في نهاية الأمر فقررتُ العودة. كان ذلك في فترة بدأ الإصلاحيون

خلالها يفرضون أنفسهم، صارت البلاد تتحرر ويبدأ كأن الأمور أخذت تتحسن بالنسبة للنساء. نحن، النساء والشباب، من أوصل خاتمي إلى الرئاسة، هل تعرف هذا؟ كان ذلك، دعنا نرى . . . سنة ١٩٩٧، قبل عودتي بستين. في البداية، كانت الأمور تتطور بشكل جيد. سُمعت أول الأصوات المنادية بحقوق المرأة، بل إن بعضهن دخلن إلى المجلس.

- معج ماذا؟

- المجلس، مؤسستنا البرلمانية.

- آه، دخلت النساء إلى البرلمان؟

- نعم. ليس هذا فحسب، أتعرف؟ بفضل الإصلاحيين،

حصلت النساء العازبات على الحق في السفر إلى الخارج من أجل متابعة الدراسة وانتقل السن القانوني للزواج من تسع سنوات إلى ثلاث عشرة سنة. في هذه الفترة، التحقُ بالعمل في مدينة أصفهان، مسقط رأسي - تجمَّعت - المشكلة أن المحافظين استعادوا السيطرة على المجلس بعد انتخابات سنة ٢٠٠٤ و . . . لست أدري، نحن ننتظر ما سيسفر عنه ذلك. ولقد نقلوني من أصفهان إلى وزارة العلوم في طهران.

- ما الذي كنت تقومين به في أصفهان؟

- كنت أشتغل في محطة؟

- أي محطة؟

- محطة تجريبية. لا يهم . . .

- وقد نقلوك مؤخراً إلى طهران؟

- في السنة الماضية.

- لماذا؟

- طفقت أريانا تضحك.

- أظن أن بعض الرجال مغرَقون في نزعتهم التقليدية، يشعرون بالتوتر وهو يشتغلون رفقة امرأة.
- لا بد أن زوجك شعر بالخيبة من قرار نقلك؟
- لم أتزوج مرة أخرى.
- إذن، خليلك.
- ليس لي أي خليل - قالت وهي تقطب حاجبها - لكن، ماذا يعني هذا؟ إنك تجس النبض، أليس كذلك؟
- ثم أطلق البرتغالي قهقهة عالية.
- لا، طبعاً لا - تردّد - حسناً، ... نعم.
- نعم، ماذا؟
- نعم، إنني أجس النبض. نعم أريد أن أعرف إن كنت حرة - ثم انحنى إلى الأمام بعينين لامعتين - هل أنت حرة؟
- أستاذ، نحن في إيران. هناك بعض التصرفات ...
- لا تناديني أستاذ، هذا يجعلني أبدو كبير السن. ناديني طوماس.
- لا أستطيع. يجب أن أحافظ على المظاهر.
- إلى هذا الحد؟
- لا يمكنني أن أظهر أي إشارة حميمية معك. في الحقيقة، ينبغي أن أناديك أغا، يا أستاذ.
- وماذا تعني؟
- السيد الأستاذ.
- إذن، ناديني طوماس حين نكون على انفراد، وأغا في حضور طرف ثالث. اتفقنا؟
- حركت أريانا رأسها.
- هذا مستحيل. عليّ أن أحترم قواعد اللياقة.

فتح المؤرخ يديه، في حركة استسلام.

- كما تشائين - قال متنهداً - لكن، أخبريني، كيف ينظر الإيرانيون إلى امرأة مثلك، بكل هذا الجمال، غريبة الطباع، مطلقة، وتعيش وحدها؟

- في الحقيقة، بدأت أعيش وحدي فقط منذ أن انتقلتُ إلى طهران. في أصفهان، كنت أعيش مع عائلتي. كما تعرف، هنا يعيش أفراد العائلة مجتمعين. إخوة، أجداد، أحفاد، الجميع يعيشون تحت نفس السقف. حتى الأبناء، بعد أن يتزوجوا، يبقون لبعض الوقت في بيوت آبائهم.

- هممم - همهم طوماس - إنك لم تجيبي عن سؤالي. كيف ينظر مواطنوك إلى أسلوب حياتك؟  
أخذت الإيرانية نفساً عميقاً.

- ليس بشكل جيد، كما هو منتظر. أعرف، النساء لا يتمتعن بحقوق كثيرة. عندما اندلعت الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩، تغيرت أمور كثيرة. أصبح وضع الحجاب إجبارياً، حُدِّد سنُّ الزواج للفتيات بتسع سنوات، ومُنعت المرأة من الظهور أمام العموم رفقة رجل ليس من أسرتها أو السفر من دون موافقة زوجها أو والدها. أما المرأة الزانية فتُعاقب بالرجم حتى الموت، حتى في حالة تعرضها لاغتصاب، بل حتى وضع الحجاب بشكل غير صحيح يُعاقب عليه بالضرب بالعصا.

- عجباً! - صاح طوماس. أصبحت حياة النساء صعبة...  
- يمكن أن تصدق ذلك. أنا، في تلك الفترة، كنت في باريس، ونجوت من كل هذه الإهانات. لكنني كنت أتابعها عن بعد. كانت أخواتي وبنات عمي يخبرنني بآخر المستجدات. وأستطيع أن أؤكد لك أنني ما كنت لأعود سنة ١٩٩٥ لو لم يبدُ لي أن الأمور كانت

تتحسن. وقتها، كانت هناك بعض إشارات الانفتاح وأنا . . . على أي، خاطرتُ وعدتُ.

- أنت مسلمة؟

- طبعاً.

- ألا تصدمك الطريقة التي يتعامل بها الإسلام مع النساء؟  
بدت أريانا كأنها محبطة.

- قال الرسول محمد إن الرجال والنساء لهم حقوق وواجبات مختلفة - قالت وهي ترفع إصبعاً - حذار، إنه لم يقل إن هؤلاء لهم حقوق أكثر من الأخريات، بل قال فقط مختلفة. طريقة تأويل هذه الجملة هي مصدر كل هذه المشكلات.

- وهل تعتقدين أن الله يكثر لمعرفة إن كانت النساء يضعن الحجاب أم لا، إن كن يتزوجن في سن التاسعة، في الثالثة عشرة أو في الثامنة عشرة، إن كانت لهن علاقات خارج الزواج؟ هل تعتقدين أن الله ينزعج من كل هذه الأمور؟

- طبعاً، لا. لكن ما أعتقده لا أهمية له. هذا المجتمع يشتغل بهذا الشكل وليس بوسعي أن أغير أي شيء.

- لكن، هل المجتمع هو الذي يشتغل بهذا الشكل أم الإسلام؟  
- لست أدري، أظن أنه المجتمع والطريقة التي يؤوّل بها الإسلام - لاحظت أريانا، مستغرقة في التفكير - إن الإسلام مرادف لحسن الضيافة، والكرم، واحترام كبار السن، ومفهوم الأسرة والجماعة. إن المرأة تحقق ذاتها هنا بوصفها زوجة وأمّاً، تلعب دوراً محدداً وواضحاً تماماً. أما من تُريد أكثر من هذا . . . ربما تشعر بالإحباط، أليس كذلك؟

ثم ران شيء من الصمت.

- هل أنت نادمة؟

- على أي شيء؟

- على عودتك. هل أنت نادمة؟

هزّت أريانا كتفيها.

- إنني أحب بلدي. هنا تعيش عائلتي. والناس رائعون، هل انتبهت لذلك؟ يظن الغربيون أننا جماعة من المتعصبين نمضي أيامنا في حرق الأعلام الأمريكية، تأنيب الغرب ورشق السماء ببنادق الكلاشنيكوف، بينما الواقع يختلف تماماً عن هذا الأمر. بل إننا نشرب الكوكاكولا أيضاً - قالت مبتسمة.

- لقد لاحظت ذلك. لكن، مرة أخرى، إنك لم تجيبي عن

سؤالي.

- أي سؤال؟

- إنك تعرفين جيداً. هل أنت نادمة على عودتك إلى إيران؟

أخذت الإيرانية نفساً عميقاً، منزعجة بعض الشيء من السؤال.

- لست أدري - قالت في النهاية - إنني أبحث عن شيء ما.

- أي شيء؟

- لست أدري. سأعرفه يوم أجده.

- هل تبحثين عن أحد ما؟

- ربما - أجابته وهي تهزّ كتفيها - لست أدري. أظن أنني

أبحث عن معنى.

- معنى؟

- نعم، عن معنى. معنى لحياتي. أشعر أنني تائهة، في منتصف الطريق بين باريس وأصفهان، في مكان ما من بلد لا جنسية له، وطن مجهول لا هو بالفرنسي ولا بالإيراني، لا بالأوروبي ولا بالآسيوي، ولكنه كل هذا في الوقت نفسه. الحقيقة أنني لم أجد مكاني بعد.

جاء النادل التركي، ذو السحنة السمراء والملامح المنغولية،

يحمل أطباق العشاء. وضع طبق ميرزا غاسيمي أمام أريانا، وطبق بَروك أمام طوماس، بالإضافة إلى كوبيّن من «آب برتغال»، عصيرُ البرتقال الذي طُلب تكريماً لبلد الضيف . . . وراء النافذة، كان بحر من الأضواء يتلأأ وسط الظلام، مدينة طهران تلمع في الليل. كانت المدينة تومض حتى خط الأفق، كأنها شجرة أعياد ميلاد ضخمة.

- طوماس - همست أريانا وهي ترشف عصير الفواكه - أحب الحديث معك.

ابتسم البرتغالي.

- شكراً، أريانا. شكراً لأنك ناديتني طوماس.



# 7

كانت البناية الواقعة في زقاق مستتر من طهران، كتلة إسمنتية بشعة يحجبها سور عال، تكليلها أسلاك شائكة وتحققها أشجار السنط. أنزل السائق زجاج السيارة وتوجه إلى الحارس باللغة الفارسية. قام الرجل المسلح بتفتيش المقعد الخلفي للسيارة، نظر بتناوب إلى أريانا وطوماس، قبل أن يعود إلى مرقبه. ارتفع الحاجز وربضت السيارة قرب بعض الشجيرات.

- هل تشتغلين هنا؟ - سألها طوماس وهو يتأمل البناية.

- نعم - قالت الإيرانية - إنها وزارة العلوم والبحث والتكنولوجيا.

كان أول إجراء هو تسجيل الزائر قصد تمكينه من بطاقة تسمح له بالتردد على الوزارة لمدة شهر. اتضح أن الإجراء الشكلي كان طويلاً لا ينتهي في الكتابة حيث الموظفون، الذين لا تفارقهم الابتسامة ويبدون اهتماماً يكاد يكون سخيماً، أجبروه على ملء عدة استمارات.

بعد أن حصل على بطاقته، أخذوا طوماس إلى الطابق الثاني وقدموه إلى مدير قسم المشاريع الخاصة، رجل قصير القامة نحيف، له عينان سودوان ولحية رمادية ناتئة.

- هذا هو أغا مظفر جليلي - قالت أريانا - إنه يشتغل معي على هذا . . . المشروع .

- صب بخير - حيا الإيراني مبتسماً .

- صباح الخير - قال طوماس وهو يرد التحية - هل أنت المكلف بالمشروع؟

قام الرجل بحركة غامضة من يده .

- من الناحية المبدئية، نعم - قال ثم حدج أريانا بنظرة - لكن، في الواقع، خانوم باكرافان هي من تدير العمليات . إنها تتوفر على . . . مؤهلات خاصة، وأكتفي أنا بأن أقدم لها كل الدعم اللوجستي . يرى السيد الوزير أن هذا المشروع له قيمة علمية كبيرة . لذا يتمنى أن تتقدم الأشغال بسرعة، تحت إشراف خانوم باكرافان .  
نظر البرتغالي إليهما معاً .

- حسناً . هيا لنباشر العمل !

- هل تريد أن تبدأ حالاً؟ - سألته أريانا - ألا تفضل أن تأخذ شيئاً أولاً؟

- لا ، لا ، - أجابها وهو يفرك يديه - لقد تناولت الفطور في الفندق . حان وقت العمل . إنني متلهف لفحص الوثيقة .  
- حسناً - قالت الإيرانية - هيا بنا .

صعد ثلاثتهم إلى الطابق الثالث وولجوا قاعة فسيحة تتوسطها طاولة طويلة وستة كراسي . كانت الجدران مغطاة بخزانات بها ملفات، نبتتان في أصيصين كانتا تمنحان المكان لمسة بالألوان . اتخذ طوماس وجيلي مكانين حول الطاولة، ودخل الإيراني في حديث يناسب المقام، بينما غابت أريانا . وبطرف العين، لاحظ البرتغالي مرورها في المكتب المجاور، حيث تأخرت بضع دقائق . ظهرت من جديد تحمل علبة في يديها، وضعتها فوق الطاولة .

- ها هي - قالت .

فحص طوماس العلبة . كانت من الورق المقوى ، معوجة وبالية ،  
يشد غطاءها شريط أحمر .

- هل يمكن أن ألقى نظرة؟

- طبعاً - قالت وهي تفك الشريط .

فتحت العلبة وأخرجت منها مخطوطاً مصفراً ، وضعته فوق  
الطاولة .

- ها هو .

اشتم المؤرخ رائحة الورق الحلوة . الصفحة الأولى ، ورقة ذات  
مربعات كان قد رأى منها نسخة في القاهرة ، كانت تحمل عنواناً رُقنَ  
بالآلة الكاتبة وقصيدة .

#### DIE GOTTESFORMEL

Terra if fin  
De terrors tight  
Sabbath löre  
Christ nite

*A. Lindheim*

وتحتة ، خربشة بخط اليد تشير إلى اسم ألبرت أينشتاين .

- هممم - همهم المؤرخ - ما هذه القصيدة؟

هزّت أريانا كتفيها .

- لا أعرف .

- ألم تبحتي؟

- نعم . قمنا باستشارة في كلية الآداب بجامعة طهران وتحدثنا

مع كثير من أساتذة الأدب الإنجليزي ، بمن فيهم بعض المختصين في

دراسة الشعر ، لكن لم يتعرف أي أحد على هذه القصيدة .

- غريب .

قلب الصفحات وتفحص الحروف المدونة بمداد أسود،  
الموضوعة أحياناً بين معادلات . وصفيحة تلو أخرى، دائماً نفس  
الخربشات الممزوجة بمعادلات أخرى . كانت هناك اثنتان وعشرون  
صفحة، كلها مرقمة في الركن العلوي على اليمين . بعد أن تصفحها  
بيطء وفي صمت، جمعها طوماس ونظر إلى أريانا .

- أهذا هو كل شيء؟

- نعم .

- وأين هو المقطع الذي ينبغي فكّ شفرته .

- إنها الصفحة الأخيرة .

أخذ البرتغالي آخر ورقة من المخطوط ودرسها بكثير من  
الفضول . كانت تضم نفس الخربشات باللغة الألمانية، لكنها تنتهي  
بكلمات ملغزة .

See sign

!ya avqo

- إنني لا أميز الخط جيداً - اشتكى طوماس - ماذا كُتب هنا؟

- حسب تحليلنا للخط، يتعلق الأمر بـ !ya و ovqo .

- هممم - هممم قائلاً - يبدو أنه كذلك . . .

- وفوقهما هناك عبارة see sign .

- ولكن هذا باللغة الإنجليزية .

- من دون شك .

بدا المؤرخ مندهشاً .

- لكن، ما الذي جعلكم تظنون أن الأمر يتعلق بشفرة كتبت

باللغة البرتغالية؟

- الخط .

- وما الذي يميز الخط؟

- إنه ليس خط أينشتاين . انظر .

وأشارت إلى سطور بالألمانية والإنجليزية، حتى يستطيع مقارنتها .

- بالفعل - قال طوماس موافقاً - يبدو أنها كتبت بيد مختلفة،

لكني لا أرى هنا ما يوحي بأنها يد شخص برتغالي .

- ولكنها، مع ذلك، يد شخص برتغالي .

- وكيف تعرفون ذلك؟

- لقد اشتغل أينشتاين على هذه الوثيقة رفقة عالم فيزياء برتغالي

كان يقضي فترة تدريب في *Institute for Advanced Study* . لقد

قارنا هذه الكلمات بخط المتدرب وكانت النتيجة إيجابية . إن من

حرر هذه الجملة الملغزة هو البرتغالي، من دون أي شك .

نظر طوماس إلى الإيرانية . بكل وضوح، كان المتدرب المشار

إليه هو الأستاذ أوغوستو سيزا . لكن، إلى أي حد ستكون مستعدة

للحديث عن العالم الذي اختفى؟

- لماذا لا تتصلون به؟ - سألها المؤرخ متظاهراً بأنه لا يعرف

الموضوع - بما أنه كان شاباً وقتئذ، فمن الأرجح أنه ما زال حياً

يرزق .

اعتري وجه أريانا احمرار ينم عن الارتباك .

- مع الأسف . . . هو ليس . . . رهن الإشارة .

آه، فكّر طوماس، إنك تخفين شيئاً .

- كيف ذلك، ليس رهن الإشارة؟

تدخل جليلي ليساعد أريانا . حرك الإيراني القصير يديه، في

حركة تدل على نفاذ صبره .

- لا يهم، يا أستاذ. الحقيقة أننا لا نستطيع الوصول إلى مواطنك ونحن بحاجة إلى فهم ما تعنيه هذه السطور. ثم ألقى نظرة خاطفة على الورقة.

- هل تعتقد أن بإمكانك أن تحل شفرة هذا الكلام المبهم؟  
تأمل طوماس اللغز مرة أخرى، مستغرقاً في التفكير.

- يجب أن تزودني بالترجمة الكاملة للنص الألماني - طلب المؤرخ.

- الترجمة الكاملة للمخطوط؟

- نعم، كل المخطوط.

- هذا ليس ممكناً - قال جليبي.

- عفواً؟

- لا يمكنني أن أزودك بترجمة النص الألماني. هذا غير وارد تماماً.

- لماذا؟

- لأن كل هذا سري! - صاح الإيراني، وهو يمسك المخطوط ليعيده إلى العلبة - لقد عرضناه عليك فقط لتأخذ فكرة عن الأصلي. سأسجل اللغز على ورق وستُنجز كل عملك اعتماداً على هذه الورقة.  
- لكن، لماذا؟

- لأن هذه الوثيقة سرية - كما قلت لك.

- لكن، كيف لي أن أفك اللغز إن كنت لا أعرف النص الذي يسبقه؟ من المحتمل جداً أن ينطوي النص الألماني على مفتاح اللغز، أليس كذلك؟

- آسف، لكن هذه هي أوامرنا - أكد جليبي ثم نظر إلى الصفحة الأخيرة ودوّن اللغز على ورقة ملساء من حجم A4. من الآن فصاعداً، ستكون هذه الورقة هي عدّة عملك.

- في هذه الظروف، لا أعرف إن كنت سأنجح في إنجاز عملي .

- سوف تنجح . ثم إنه ليس لدينا خيار آخر . بأمر من السيد الوزير، لن تحصل على إذن بمغادرة إيران إلا بعد الانتهاء من فك التشفير .

- ماذا تقول؟

- آسف، لكن هذه هي أوامرنا . إن الجمهورية الإسلامية تدفع لك أجراً سخياً كي تفك شفرة هذا اللغز ومكنتك من الاطلاع على وثيقة سرية ذات قيمة عالية . أنت تدرك، بالطبع، أن هذه السرية لها ثمن . إن غادرت إيران من دون إتمام العمل، فقد يخلق ذلك مشكلة أمن قومي، لأن المقطع المعني يمكن أن يفكُّوا شفرته في الخارج، بينما نحن، من نملك الوثيقة الأصلية، سنبقى من دون فهم هذا النص المحوري .

استرخت ملامح وجهه المنقبض شيئاً ما وابتسم جليبي، وهو يجهد نفسه ليكون لطيفاً ويبدد ذلك التوتر المفاجئ .

- ومهما يكن، ليس هناك من سبب يحول دون إتمام عملك بنجاح . سوف نحتفظ بالترجمة الكاملة، وستعود أنت، يا سيدي، إلى بيتك شيئاً ما أكثر غنى .

تبادل البرتغالي نظرة مع أريانا . أبدت المرأة حركة عجز، إذ لا شيء من ذلك كله كان متوقفاً عليها هي . أدرك طوماس أن ليس لديه من بديل، فالتفت نحو جليبي وتنهَّد، مستسلماً .

- حسناً - قال - بما أنني سأقوم بهذا، فمن الأحسن أن أنجز العمل بكامله، أليس كذلك؟

تردّد الإيراني، دون أن يفهم هذه الملاحظة .

- ماذا تقصد؟

أشار طوماس إلى المخطوط، الذي كان قد رُتب داخل العلبة الورقية.

- أريد الاطلاع على تلك الصفحة الأولى. هل يمكنك أن تنسخها لي، أيضاً، من فضلك؟

- أنسخ لك الصفحة الأولى؟

- نعم. هل تنطوي على أي سر فظيع؟

- كلا. تضم فقط عنوان المخطوط، القصيدة وتوقيع أينشتاين.

- إذن، انسخها لي.

- لكن، لماذا؟

- بسبب القصيدة، طبعاً.

- ولكن، ماذا في القصيدة؟

- هيا! ألا يبدو ذلك جلياً؟

- لا. ماذا فيها؟

- القصيدة، يا عزيزي، تشكل لغزاً آخر.

قضى طوماس بقية الصباح يحاول فك شفرة اللغزين، من دون جدوى. انطلق دائماً من مبدأ أن اللغز الثاني يخفي رسالة باللغة البرتغالية وتصور أن إشارة، *see sign*، التي تسبق اللغز المشفر، كانت إشارة ما لكن لم يدرك ما هي. أما القصيدة، فتُحيل على رسالة باللغة الإنجليزية، رغم أن مجهوداته هنا مرة أخرى كانت تصطدم بحاجز معتم من الإبهام.

عند وقت الغداء، توجه طوماس وأريانا إلى مطعم قريب ليتناولوا طبق مخصوص كباب، المكون من لحم الخروف المفروم.



- أستسمحك على الطريقة التي تحدث معك بها أغا جليلي -  
قالت بعد أن أحضر لهما النادل الطبق - عموماً، الإيرانيون مهذبون،  
لكن الأمر يتعلق بملف في غاية الحساسية. يحظى مخطوط أينشتاين  
بأولية كبيرة وسرية مطلقة، لذلك لا يمكننا أن نخاطر بأي شيء.  
وإقامتك في إيران لفكّ شفرته تعد مسألة أمن قومي.

- إنه لا يزعجني أن أبقى هنا لبعض الوقت - أجبها طوماس  
بينما كان يأكل قطعة كباب - شريطة أن تظلي دائماً إلى جانبي،  
طبعاً.

خفضت أريانا عينيها ورسمت ابتسامة عابرة على شفيتها.

- أرجو أن هذا يعني أنك فقط بحاجة إلى مساعدتي العلمية.  
- تماماً! - صاح البرتغالي بنبرة حازمة - هذا كل ما أنتظره  
منك - ثم اتخذ تعبيراً بريئاً - مساعدتك العلمية، ولا شيء غير هذا.  
أحنت الإيرانية رأسها.

- لماذا تظن أنني لا أصدقك؟

- ليست لدي أي فكرة - قال مبتسماً.

- سوف تتصرف بشكل لائق، أليس كذلك؟

- نعم، نعم.

- من فضلك، طوماس - قالت راجية - لا تنس أننا لسنا في  
الغرب. هذا بلد استثنائي، والناس هنا لا يمكن أن يسمحوا لأنفسهم  
ببعض الحريات. إنك لن تضعني في مواقف حرجة، أليس كذلك؟  
بدا البرتغالي مستسلماً للأمر.

- حسناً، لقد فهمت - قال - لن أقوم بأي شيء يزعجك، كوني  
مطمئنة.

- شكراً.

ثم نظر طوماس إلى ما تبقي من الكباب في يده. وقد منحه  
مجري الحديث ذريعة كان بحاجة إليها ليقوم بما يريد القيام به.

- بعد الغداء، سوف أخرج في جولة - قال.

- آه، نعم؟ أين تريد أن آخذك؟

- لا، سأذهب من دونك. إن رأونا دائماً معاً، قد يشير ذلك  
بعض الأقاويل المزعجة لك. في نهاية المطاف، وكما تقولين، هذا  
بلد استثنائي بعض الشيء، أليس كذلك؟

- نعم، أنت على حق - اعترفت أريانا - سوف أبحث لك  
حالاً عن مُرشد.

- لست بحاجة إلى مرشد.

- طبعاً، تحتاج إليه. كيف ستجد طريقك في . . .

- لست بحاجة إلى مرشد - كرر طوماس، بمزيد من التأكيد.

- حسناً . . . ولكن هناك مشكلة أمنية، أيضاً، أتفهم هذا؟  
وسلامتك تقع على مسؤوليتنا. لذا فإنه من الضروري أن يرافقك أحد  
ما ليسهر على سلامتك.

- هذا أمر سخيف! أنا قادر على السهر على سلامتي.

نظرت إليه أريانا، حائرة.

- اسمع، سوف أجد لك مرشداً، مع ذلك.

- إنني لا أريده، كما قلتُ لك.

ظلت صامته لحظة، تبدو كأنها تفكر. ثم طأطأت رأسها  
وانحنت نحو ضيفها.

- لا أستطيع أن أتركك وحدك، هل تفهم؟ - همست بسرعة -

يمكن أن أنال عقوبة على ذلك - قالت، ثم اتخذ صوتها نبرة  
استعطاف غاوية - دعني أجد لك مرشداً، من فضلك. بعد ذلك،  
يمكنك أن تُصلِّه، فيكون ذلك مشكلة المرشد، وليس مشكلتي أنا،

هل فهمت؟ - ثم فتحت واسعاً عينيها العسليتين، تبحث عن موافقة -  
اتفقنا؟

حذق فيها طوماس لحظة، ثما أدلى في النهاية برأيه.  
- حسناً - قال - أرسلني إليّ هذا الحارس المرافق.

كان الحارس المرافق رجلاً قصيراً وعريضاً، بلحية متناثرة قوية  
وحاجبين كثين سوداوين، يرتدي ملابس سوداء بالكامل، مثل رجل  
أمن.

- سلام - حياه المرشد الذي قدمته له أريانا - حالتون جتوره؟

- إنه يسألك إن كنت بخير.

- بخير، قولي له إنني بخير.

- خوبم - قالت هي للمرشد.

وأشار المرشد بالإصبع إلى صدره.

- إسم من رحيمه - قال وعيناه لا تفارقان المؤرخ. رحيم.

فهم طوماس ما يعنيه.

- رحيم؟ - وجاء دور البرتغالي ليشير بالإصبع إلى صدره - أنا

طوماس. طوماس.

- آه، طوماس - قال المرشد مبتسماً - أز آشنايتون خوشبختم.

ضحك المؤرخ ضحكة صفراء ونظر إلى الإيرانية بطرف عينه.

- هذا أمر يعد بالشيء الكثير - دمدم مكشراً - أشعر بنفسي مثل

طرزان يتحدث مع جين.

ضحكت أريانا.

- سوف تتفاهمان جيداً، ستري.

- إن قبلت أنت أن تكوني جين.

ألقت الإيرانية نظرة من حولها، كي تتأكد من أنه لا أحد سمع كلامه.

- هيا، من فضلك، لا تبدأ من جديد - طلبت منه مرتبة - أين تريد أن يأخذك؟

- إلى السوق. أريد أن أتمشى وأتبع بعض الشيء.  
تلقي رحيم الأوامر وصعد كلاهما في تويوتا سوداء، سيارة وزارية وضعت رهن إشارة البرتغالي للقيام بجولاته الخاصة. توغلت السيارة في زحمة حركة السير الفوضوية في طهران وتوجهت نحو جنوب المدينة. وكلما كانا يتقدمان، كانت جودة المباني تتدهور، وكل شيء يبدو أكثر فأكثر ازدحاماً، وأكثر فوضى وخراباً من بقية فضاء المدينة الكبيرة ذات الأربعة عشر مليون نسمة.

لم يتوقف السائق عن الكلام باللغة الفارسية، بينما طوماس يوافق الرأي ساهياً، دون أن يفهم شيئاً، تائهاً بنظره في متهات الأزقة الملوثة، فكره منشغل بالبحث عن طريقة يتخلص بها من هذا المرشد السائق الحارس الثرثار. وفي لحظة ما، في أحد الشوارع، أشار رحيم بإصبعه إلى بعض المحلات التجارية، مضيفاً تعليقاً باللغة الفارسية، تخللته عبارة «بزاريس». انتبه طوماس إلى هذه الكلمة، كأنها إشعار يرن في أذنيه، فأخذ يبحث بعنون عن إشارات تدله على المكان، حتى رأى لوحة تعلن أنهما كانا يقتربان من شارع خرداد. كان يعرف الشارع تمام المعرفة انطلاقاً من الخريطة التي درسها بعناية ليلة البارحة، فلم يتردد. بحركة مفاجئة، فتح باب السيارة وقفز وسط الشارع، محدثاً جلبة من أصوات الفرامل وأبواق العربات.

- Bye Bye! - قال وهو يستأنف الفرار وسط الشارع أمام دهشة رحيم الذي ظل متمسكاً بالمقود، فاغر الفاه، وهو يرى البرتغالي يتبخر من أمام عينيه.

استيقظ السائق من ذهوله العابر بسبب الدهشة وأوقف السيارة  
وسط شارع خرداد، ثم قفز بدوره وراح يصيح، لكن زبونه كان قد  
توغل وسط الحشد واختفى في متاهة الأزقة التي تعلن عن مدخل  
السوق الكبير في طهران.

# 8

متاهة من الأزقة الضيقة، والطرق المسدودة، والمحلات من كل الأصناف، كانت تشكل القلب التجاري النابض للعاصمة الإيرانية. اتضح أن السوق مدينة داخل المدينة، الأزقة تفضي أحياناً إلى ساحات أو ساحات صغيرة، محلات تجارية صغيرة متراسة بين المساجد، مقاعد، نُزل، بل حتى ثكنة رجال المطافئ. سقفٌ شبه شفاف يغطي الممرات، ناشراً ظلّاً واقياً على السوق العتيق. أمواج بشرية كانت تتراكم في تلك الشبكة من المتاهات، لكن، رغم الازدحام كانوا جميعاً يمشون بخطى متناقلة وحازمة في استمتاع بساعات النهار، وسط انتعاش جميل يملأ الممرات التي كان كل ركن من أركانها يفوح برائحة مختلفة.

في زقاق خاص بدكاكين التوابل، حيث تعرض التوابل والمساحيق الملونة في الهواء الطلق، دسّ طوماس يده في جيبه وأخرج ورقة كُتب فيها اسم الشخص الذي يبحث عنه.

- سلام - قال، متوجهاً إلى أحد الباعة - زمياد شيرازي؟
- شيرازي.
- بله.

كلام مبهم باللغة الفارسية خرج من فم الرجل فأجهد البرتغالي نفسه مركزاً على حركات اليد التي كان يشير له بها أن يواصل إلى

الأمام ثم يعرج بعد ذلك يساراً، عند طرف الزقاق. شكره على تلك الإشارات، وتقدم داخل زقاق العطارين حتى بلغ الزقاق الأول على اليسار. ولج إلى زقاق النحاسين واستعلم مرة أخرى، بما أنه لم يكن متيقناً من الطريق.

وصل، في الأخير، إلى زقاق بائع الزرابي. حين سأل مرة أخرى عن زمياد شيرازي، أرشده أحد التجار بكثير من الإشارات واللغة الفارسية، إلى دكان على بعد عشرة أمتار. تقدم بضع خطوات ثم توقف عند وجهته. ومثل كل دكاكين الزقاق، كان باب هذا الدكان يعج بالزرابي الفارسية، وكومة منها عند المدخل. بعد أن تأكد من أنه لا أحد كان يتعقبه، تقدم طوماس خطوة وتوغل في ظل الدكان.

كان الدكان مظلماً في الداخل، تضيئه مصابيح صفراء، والهواء مفعم برائحة جافة وقوية، تبدو مثل النفطالين. شعر بحكة في أنفه فعطس بصوت مرتفع. ضرابي فارسية، من مختلف الألوان والأنواع، بما فيها ضرابي ميان فرش، كيليجي وكناره المعروفة، كانت تشغل الفضاء بكامله.

- خوش آمدين! خوش آمدين! - حياه رجلٌ بدين، كان يقترب بخطى واسعة، يفتح ذراعيه، وعلى شفثيه ابتسامة ترحيب. مرحباً بك في دكاني المتواضع. هل تريد شايًا؟  
- لا، شكرًا.

- أوه، من فضلك، لدي شاي رائع، سوف ترى.  
- شكرًا لك، لكنني لا أريد شايًا. تناولت الغداء قبل قليل.  
- آه! إن كنت قد تناولت الغداء للتو فهذا أحسن، لأن الشاي مفيد للهضم. رائع - ثم قام بحركة كبيرة من ذارعيه، شملت الدكان

بكامله - تشربه وتتأمل زرابي جميلة - ثم لمس بيده أقربها منه -  
انظر، لدي هنا زرابي جميلة جداً من نوع گل و بلبل، من قُم،  
برسومها الجميلة التي تمثل طيوراً وأزهاراً. رائع! رائع! - ثم التفت  
يميناً - ولديّ هنا سجادات كردية، قادمة مباشرة من بيجار. قطع  
فريدة! - انحنى نحو زبونه، كمن يحفظ داخل دكانه كنزاً ثميناً - وإن  
كنت تحب قصيدة شاهنامه، فستبهر لهذا . . .

- زمياد شيرازي؟ - قاطعه طوماس - هل أنت زمياد شيرازي؟  
انحنى الرجل قليلاً محيياً.

- في خدمة، حضرتك - أجاب وهو يفتح عينين جاحظتين - إن  
كنت تبحث عن سجاد إيراني، فتعال إلى محل شيرازي! - قال راضياً  
عن القافية التي ابتكرها للترويج لدكانه - فيمَ يمكن أن أساعدك؟  
تفحصه طوماس بعناية، محاولاً قياس وقع كلامه على التاجر.  
- إنه لمن دواعي السرور أن أكون في إيران.  
اختفت الابتسامة ونظر إليه الرجل بشيء من الخوف.  
- كيف؟

- إنه لمن دواعي السرور أن أكون في إيران.  
- هل جئت لتشتري أشياء كثيرة؟

كانت تلك هي كلمة السر. فابتسم طوماس ومدّ له يده.  
- اسمي طوماس. وقد أوصوني أن آتي إلى هنا.

بنظرة قلقة، حياه زمياد شيرازي وأطل على الخارج ليتأكد من  
أنه لا توجد حركة مشبوهة في الزقاق. بعد أن اطمأن قليلاً، أغلق  
باب الدكان، وبحركات خاطفة، أشار إلى الزائر أن يتبعه. دخلا إلى  
عمق المحل، حيث ولجا مستودعاً يعج بالزرابي. صعدا سُلماً  
حلزونياً ثم أدخله التاجر إلى غرفة ضيقة.  
- انتظر هنا! من فضلك - قال.



جلس طوماس على أريكة وانتظر. سمع شيرازي يبتعد، وبعد صمت قصير سمع صوت هاتف قديم يُرَّجَّبون عليه رقماً هاتفياً. وسرعان ما سمع من بعيد صوت مضيفه يتحدث مع أحدهم باللغة الفارسية، يتوقف من حين لآخر ليسمع ما يقوله الآخر في الجهة الأخرى من الخط. استمر الحديث لبضع لحظات فقط. بعد تبادل كلمات سريعة، وضع التاجر السماعة، فسمع طوماس خطوات تقترب إلى أن رأى وجه شيرازي المنتفخ يظهر عند الباب.

- ها قد جاء - قال التاجر.

ثم ابتعد الرجل السمين، عائداً عبر نفس الطريق التي سلكهاها معاً. ظل طوماس جالساً على الأريكة، يشبك رجله، ينتظر المستجدات.

كان الإيراني يشبه ملاكماً. كان شخصاً طويل القامة، بحاجبين مقوسين ناتئين، وشارب كث أسود، وشعر كثير يبرز من عنق قميصه المفتوح، وأذنين صغيرتين. دخل إلى الغرفة الضيقة، وهو يبدو مسرعاً كمن ليس لديه وقت يضيعه.

- أستاذ نورونيا؟ - سأل وهو يمد ساعده المُشعرّ القوي العضلات.

- نعم، هو أنا.

تصافحا.

- سعيد بمعرفتك. اسمي غولبهار باغيري. أنا نقطة اتصالك هنا في طهران.

- كيف حالك؟

- هل تأكدت من أنه لا أحد يتعقبك؟

- نعم. أظن أنني ضللتُ مرشدي وتركته خارج السوق.

- رائع، رائع - قال الرجل الضخم وهو يفرك يديه - طلبوا مني في لانغلي أن أرفع إليهم تقريراً اليوم بالضبط. ما هي المستجدات؟ هل رأيت الوثيقة؟

- نعم. رأيتها هذا الصباح.

- وهل هي وثيقة حقيقية؟

هزّ طوماس كتفيه.

- هذا الأمر لا أعرفه. الأكيد أنها تبدو قديمة، وصفحاتها مصفرة. الغلاف مرقون بالآلة الكاتبة والبقية مكتوب بخط اليد. هناك خربشة في الصفحة الأولى تبدو أنها توقيع أينشتاين. كما يبدو أن كل أسطر الوثيقة قد كتبت بخط يده، باستثناء رسالة مشفرة في الصفحة الأخيرة. يظن الإيرانيون أن هذه الرسالة قد كتبها الأستاذ سيزا بخط يده.

أخرج باغيري دفترًا صغيراً من جيبه وراح يكتب بحماس.

- كل شيء مكتوب بخط اليد، أليس كذلك؟

- نعم. باستثناء الصفحة الأولى، طبعاً.

- هممم... - ثم كتب شيئاً ما في الدفتر - وهل تحمل توقيع

أينشتاين؟

- هذا ما يبدو. ويقول الإيرانيون إنه تم تأكيد ذلك بواسطة

الخبرة التي أجريت على الخط.

- هل كشفوا لك أين كان يوجد المخطوط خلال كل هذه

المدّة؟

- لا.

- وماذا عن محتواه؟

- كل الوثيقة تقريباً باللغة الألمانية. فوق صفحة الغلاف هناك

العنوان، *Die Gottesformel*، ثم قصيدة لم يتمكن الإيرانيون من

تحديد أصلها ولا الكشف عن معناها، وتحتها يظهر ما يبدو أنه توقيع أينشتاين.

- هممم - هممم باغيري مرة أخرى، ولسانه عالق عند طرف شفّيه - وماذا عن الباقي؟

- البقية عبارة عن حوالي عشرين صفحة ونيف محررة باللغة الألمانية كتبت بحبر لا يَمّحي. يتعلق الأمر بنص كثيف، يعج بالمعادلات الغريبة، كتلك التي نراها على سبورة أثناء درس من دروس الرياضيات في الجامعة.

- وماذا يقول النص؟

- لست أدري. أنا لا أعرف اللغة الألمانية، ثم إنه مكتوب بخط اليد، مما يجعل قراءته صعبة. على أي، لم يتركوا لي وقتاً للقراءة، كما أنهم أبوا أن يكشفوا لي عن موضوع الوثيقة، متذرعين بأن الأمر يتعلق بمسألة أمن قومي.

توقف باغيري عن الخربشة في الدفتر وحدث في طوماس لبضع لحظات.

- أمن قومي، إيه؟

- نعم، هذا ما قالوه.

ثم استأنف الإيراني تسجيل الملاحظات، دائماً بيد محمومة كما في السابق.

- هل كان لديك الوقت لفهم بعض التفاصيل الخاصة بالقنبلة النووية الذي تصفها الوثيقة؟

- لا.

- ولو إشارة واحدة إلى اليورانيوم أو البلوتونيوم؟

- لا شيء من هذا.

- عندما تعود، هل يمكنك أن تتأكد من هذه المعلومة؟

- اسمع، إنهم لن يسمحوا مرة أخرى بالنظر إلى الوثيقة. لقد عرضوها عليّ فقط لأخذ فكرة عامة عن النص، لكنهم أخبروني أنه لأسباب تتعلق بالأمن القومي، لن أستطيع الاطلاع عليها مرة أخرى.

- ولو مرة أخرى واحدة؟

- ولو مرة أخرى واحدة فقط.

مكتبة

t.me/t\_pdf

- إذن، كيف يريدونك أن تنجز عملك؟

- لقد نسخوا لي المقطع المشفر على ورقة. وعليّ أن أشتغل انطلاقاً من هذه النسخة.

- نسخوا لك المقطع المشفر؟

- نعم. إنه مقطع كتب بخط اليد في الصفحة الأخيرة. ولدي

أيضاً القصيدة التي تظهر في الصفحة الأولى. هل تريد أن تراهما؟

- نعم. أريني ذلك.

أخرج طوماس من جيبه ورقة طويت على أربع. بسطها وأراه

السطور التي نسخها جليلي بالقلم انطلاقاً من الأصل الذي كتبه أينشتاين.

- ها هي ذي.

Terra if fin  
De terrors tight  
Sabbath fore  
Christ nite

See sign  
! ya ovqo

- ما هذا؟

- الجزء الأول هو القصيدة، والجزء الثاني هو الرسالة المشفرة.

أخذ الإيراني الورقة ونسخ النص على الدفتر.

- هذا كل ما هناك؟

- لا شيء غير هذا.

- وماذا عن الأستاذ سيزا؟ هل حدثوك عنه؟

- لم يحدثوني عنه حقاً. فقط لمحوا لي أنه يصعب الاتصال به.

- وماذا يعني هذا؟

- لست أدري. بدوا متحفظين بهذا الخصوص ورفضوا التعاون

معني. هل تريد أن أسألكم مرة أخرى؟

حرك باغيري رأسه وهو يكتب.

- لا. من الأحسن ألا تفعل. يمكن لذلك أن يثير بعض

الشكوك غير المفيدة. إن كانوا يمتنعون عن الحديث في الموضوع،

فلن يقولوا لك شيئاً، أليس كذلك؟

- هذا ما أظنه أيضاً.

انتهى الإيراني الضخم من تسجيل الملاحظات، جمع الدفتر

وحدق في الزائر.

- حسناً. سوف أبعث كل هذا إلى وكالة المخابرات الأمريكية

في لانغلي. هناك، في هذه اللحظة، يبزغ الفجر - قال وهو ينظر إلى

ساعته - لن يطلعوا على التقرير إلا عند الصباح، عندما يحل الليل

هنا، ثم عليهم أن يحللوه بعد ذلك. أعتقد أنني لن أتوصل بجواب

يحمل تعليمات إلا غداً صباحاً. سوف نتصرف بهذه الطريقة: غداً،

على الساعة الثالثة زواياً، توجه نحو خادم الفندق وقل له إنك تنتظر

سيارة أجرة باباك. هل فهمت؟ سيارة أجرة باباك؟

وجاء الدور على طوماس ليسجل .

- باباك، هكذا؟ على الساعة الثالثة زوالاً؟

- نعم - قال باغيري ثم نهض، لأن اللقاء وصل إلى نهايته -  
وكن حذراً.

- من أي شيء؟

- من الشرطة السرية. إن كشفوا أمرك، فستكون في ورطة.

ضحك طوماس ضحكة صفراء.

- نعم، يمكن أن أقضي بقية أيامي وراء القضبان، أليس كذلك؟

أطلق باغيري قهقهة عالية.

- وراء القضبان، هل تمزح؟ إن كشفوا أمرك فسوف يعذبونك

إلى أن تعترف بكل شيء. ماذا تظن؟ سوف تصبح أكثر ثرثرة من

بيغاء! وهل تعرف ماذا سيحدث بعد ذلك؟

- لا .

ثم وضع الإيراني، عميل وكالة المخابرات الأمريكية، السبابة

على جبينه .

- بانغ! سوف تصيبك رصاصة في الرأس .

# 9

برز طيفُ أريانا باكرافان الأهيف في مطعم فندق سيمُرخ لحظة كان طوماس يقضم خبزاً محمصاً ساخناً. مدت الإيرانية الجميلة عنقها وأدارت رأسها، تجول في المطعم بعينها مثل غزالة أنيقة، إلى أن جلبت انتباهها إشاراتُ يد المؤرخ في خلفية القاعة. اقتربت أريانا من المائدة وابتسمت.

- أهلاً، طوماس.

- أهلاً، أريانا - قال ثم أشار إلى وسط المطعم، مشيراً إلى

مائدة كبيرة بها مأكولات الفطور - هل تريدن شيئاً؟

- لا، شكراً. لقد أكلت - ثم أشارت إلى الباب بحركة من

رأسها - هل نذهب؟

- إلى أين؟

- حسناً... إلى الوزارة.

- لنقوم بأي شيء؟

بدت الإيرانية حائرة من أمرها.

- لنشتغل، أظن.

- لكنكم لا تسمحون لي بالاطلاع على الوثيقة - قال طوماس

متحججاً - إن كنا سنذهب فقط لدراسة الورقة التي قدمتموها لي مع

الألغاز، فلننا بحاجة لأن نذهب إلى هناك، أليس كذلك؟

- بالفعل، أنت على حق - اعترفت وهي تأخذ كرسيًا لتجلس أمام مُحاورها - من أجل فك شفرات هذا النص، لسنا بحاجة حقاً لأن نذهب إلى الوزارة.

- دون أن ننسى أنه لو ذهبْتُ إلى الوزارة قد أصادف ذلك الحارس الخاص الذي أرسلته معي.

- آه، نعم، رحيم. بالله عليك، ما الذي فعلت معه؟ - سألتُهُ وهي متلهفة لمعرفة ذلك.

أطلق طوماس قهقهة عالية.

- لا شيء! صاح - فقط ودعته وسط الطريق.

- أتعرف، كان غاضباً جداً. في الحقيقة، كان غاضباً منك، وكان الرئيس غاضباً عليه.

- أتصور ذلك.

- ولماذا هربت منه؟

- كنت أود أن أتجول وحدي في السوق. لن تقولي لي إن ذلك ممنوع؟

- إنه ليس ممنوعاً، حسب علمي.

- هذا جيد - قال - على أي حال، من الأحسن أن نبقى في الفندق. لو فكرنا جيداً، أظن أننا نستمتع بشروط راحة أكبر هنا، أليس كذلك؟

رفعت أريانا حاجبها الأيسر، وبدت محترزة.

- يتوقف هذا على زاوية النظر - أجابته بحذر - في النهاية، أين تريد أن تشتغل على الألغاز؟

- طبعاً، هنا في الفندق. أين تريد أن يكون ذلك؟

- حسناً، لكنني أنبهك أننا لن نذهب إلى غرفتك، هل سمعت؟

- ولم لا؟



رسمت المرأة ابتسامة متكلفة على شفيتها.

- إنك تمزح! صاحت - شيء ذكي للغاية، برافو! - ثم نهضت وهي تدير رأسها نحو المطعم - هيا، بكل جدية، أين سنشتغل؟
- لم لا فوق تلك الأرائك، هناك قرب الحانة؟ - اقترح وهو يشير بشكل عام إلى المكان - إنها تبدو مريحة جداً.
- حسناً. ريثما تنتهي من تناول فطورك، سوف أتصل بالوزارة لأخبرهم أنك تفضل أن تشتغل في الفندق. هل ستحتاج إليّ؟
- ابتسم لها طوماس ابتسامة عريضة.
- وكيف لا أحتاج إليك؟ أنا بحاجة إلى ملهمة توحى لي بالأفكار.

أدارت أريانا عينيها وحركت رأسها.

- هيا، أخبرني، هل أنت بحاجة إليّ أم لا؟

- هل تعرفين اللغة الألمانية؟

- نعم.

- إذن، أنا بحاجة إليك، طبعاً. معرفتي باللغة الألمانية محدودة، وأنا بحاجة إلى بعض المساعدة.

- وهل تظن فعلاً أنك بحاجة إلى اللغة الألمانية لحل الألغاز؟

هزّ طوماس كتفيه.

- بكل صراحة، لا أعرف. لكن كل الوثيقة تقريباً كتبت باللغة

الألمانية، وعليه ينبغي لنا أن نعترف بإمكانية أن تكون الرسائل

المشفرة قد صيغت بهذه اللغة، أليس كذلك؟

- حسناً - قالت وهي تستدير مستعدة لتبتعد - إذن، سوف

أخبرهم بأنني سأبقى هنا لأشتغل معك.

- أنت فتاة ظريفة.

لم تكن الأجواء في الحانة توحى بأنها حانة. كان غيابُ المشروبات الكحولية من الرفوف وضوءُ الصباح يمنحان المكان لمسة تليق بمقهى عادي، بل إنهما معاً طلبا من النادل شيئاً بالأعشاب. جلسا على أريكة طويلة، جنباً إلى جنب، ووضع طوماس على الطاولة الصغيرة أوراقاً من حجم A4، مستعداً لتجريب مختلف الفرضيات. أخرج الورقة المطوية من جيبه وتأمل اللُّغزِين.

Terra if fin  
De terrors tight  
Sabbath fore  
Christ nite

See sign  
! ya ovqo

- لنرَ - بدأ طوماس وهو يحاول أن يكتسب زخماً لمواجهة العمل الذهني العسير الذي ينتظره - هناك شيء ما يبدو لي بديهياً - أدار الورقة نحو أريانا - انظري إن كنت تستطيعين اكتشافه. فحصت الإيرانية اللُّغزِين.

- إنني لا أرى أي شيء إطلاقاً - قالت، في الأخير.  
- يتعلق الأمر بالشيء التالي - قال المؤرخ مستأنفاً كلامه - لنبدأ باللغز الثاني. لأول وهلة، لا شك أننا أمام رسالة مشفرة - وأشار إلى مجموع الحروف - لاحظي هذا. أترين؟ هذا ليس سَنَنًا، إنه شَفْرَة.

- وما هو الفرق؟

- السَّنُنُ يستوجب تعويض كلمات أو جمل. أما الشفرة فتعوض

الحروف. مثلاً، إذا اتفقنا معاً أن يكون اسمك «ثعلبة»، فهذا سنن. لقد عوضت اسم «أريانا» باسم سنن هو «ثعلبة»، هل فهمت؟  
- نعم.

- لكن إذا اتفقنا معاً على تحويل مكان الحرفين «أ» و «ي»، بأن نكتب «أرائني» عوض «أريانا»، فإنني أذكر اسمك. وهذه شفرة.  
- فهمتُ.

- إذا نظرنا إلى هذين اللغزين، فإن اللغز الثاني هو رسالة مشفرة، بكل وضوح. سوف يكون من الصعب فك شفرته. من الأحسن أن نتركه جانباً، لما بعد.

- إذن، أنت تفضل أن تركز على اللغز الأول؟

- نعم. ربما تكون القصيدة أكثر سهولة.

- هل تظن أنه سنن؟

- أظن ذلك - قال وهو يفرك ذقنه - أولاً، لاحظي النبرة العامة للقصيدة. ما رأيك؟ أي إحساس يتولد منها؟  
ركزت أريانا مرة أخرى على الأبيات الأربعة.

*Terra if fin, de terrors tight, Sabbath fore, Christ nite* -

- قرأت بصوت عال. - لستُ أدري... شيء ما معتم، مظلم، فظيع.

- كارثي؟

- نعم، شيئاً ما.

- إنها نبرة كارثية، طبعاً. هل قرأت جيداً البيت الأول؟

- لا أفهم جيداً. ما معنى *Terra*؟

- إنها كلمة لاتينية، تستعمل أيضاً في اللغة البرتغالية، وتعني الأرض، كوكبنا. أما «*fin*» فهي الكلمة الفرنسية التي تقابل كلمة

«fim» في اللغة البرتغالية أو «end» في اللغة الإنجليزية. هذا البيت الأول يوحي بفكرة القيامة، نهاية العالم، وخراب الأرض . . . ثم نظر إلى الإيرانية.

- ما هو موضوع مخطوط أينشتاين؟

- لا أستطيع أن أقول لك ذلك.

- إن موضوع المخطوط يمكن أن يكون حاسماً في تأويل هذه القصيدة. هل ثمة في نص المخطوط ما يوحي بحدوث كارثة عظمى، تهديد خطير يترصد بالحياة فوق كوكب الأرض؟

- لقد أخبرتك أنني لا أستطيع أن أقول لك أي شيء. الموضوع سري.

- لكن، ألا ترين أنني بحاجة إلى هذا حتى أتمكن من تأويل القصيدة؟

- أفهم ذلك، لكنك لن تحصل مني على أي شيء. كل ما أستطيع القيام به هو أن أرفع الموضوع إلى رؤسائي، وخاصة السيد الوزير. إن اقتنع بضرورة إخبارك بمحتوى المخطوط، فهذا جيد. تنهّد طوماس، مستسلماً.

- حسناً، تحدثي معه واشرحي له المشكلة - ثم ركز من جديد على القصيدة - لاحظي الآن هذا البيت الثاني. *de terrors tight*. فرع شديد. مرة أخرى، النبوة الكارثية، المنذرة، المظلمة. كما هو الشأن في البيت الأول، تأويل البيت الثاني يمكن أن يكون مرتبطاً ارتباطاً مباشراً أيضاً بموضوع مخطوط أينشتاين.

- من دون شك. كل هذا يشير الشعريرة . . . شيئاً ما.

- أياً كان محتوى هذا المخطوط، فإننا يمكن أن نكون واثقين بأن الأمر يتعلق بشيء ترك أثراً عميقاً في نفس أينشتاين، لدرجة أنه

لجأ إلى الدين في البيتين الثالث والرابع. أترين؟ *Sabbath fore*,  
*Christ nite* - زَمَّ شفّتيه، حالماً - إن الرّب قد بارك يوم السبت،  
بعد ستة أيام من الخلق. لهذا فإنه يوم راحة إجباري عند اليهود. كان  
أينشتاين يهودياً ولجأ هنا إلى يوم السبت المقدس، كأنه يتوجه إلى  
الرّب بحثاً عن الخلاص. فنيران جهنم سوف تبرّد يوم السبت  
المقدس، ويوم يصبح كل اليهود قادرين على احترام هذ اليوم احتراماً  
تاماً، يومئذ سيأتي المسيح المُخلّص - انزلقت عيناه نحو السطر  
الأخير - إن البيت الرابع من القصيدة يعزز هذ اللجوء إلى مبدأ  
الاتحاد بالخالق حللاً لمواجهة هذا الرعب الفظيع، ونيران جهنم التي  
تهدد كوكب الأرض، في النهاية. إن كلمة «*Nite*» هي شكل ناقص  
لكلمة «*Night*». وهكذا تعني عبارة «*Christ nite*» «ليلُ المسيح» -  
ثم نظرَ إلى أريانا - إنها إشارة أخرى إلى عالم الظلمات.

- هل تعتقد أن هذه النبوة المظلمة هي التي تشكل الرسالة؟

تناول طوماس كأس الشاي المتصاعد بخارُه، واحتسى منه

رشفة.

- ربما لا تشكل كل الرسالة، لكنها تمثل جزءاً كبيراً منها، بكل  
تأكيد - ثم وضع من جديد فنجانَه - واضحٌ أن أينشتاين كان مرتعباً  
مما اكتشفه أو اخترعه وارتأى أنه من الأنسب أن يضع هذا التحذير  
ليتصدر المخطوط. مهما يكن، يا عزيزتي، فإن المعادلة الإلهية، لها  
علاقة بقوى أساسية في الطبيعة، قوى تتجاوزنا. لذلك قلتُ لك إنه  
من المهم أن تكشفوا لي عن محتوى الوثيقة. من دون معرفة ذلك،  
فإن قدرتي على فكّ شفرة هذه القصيدة تبقى محدودة جداً.

- لقد أخبرتك أنني سأعرض القضية على السيد الوزير - كررت  
الإيرانية قبل أن تنظر من جديد إلى القصيدة - لكن، هل تعتقد أن  
هذه القصيدة يمكن أن تخفي رسائل أخرى؟

حرك طوماس رأسه من أسفل إلى أعلى في حركة تنم عن الموافقة.

- أعتقد ذلك. لدي الانطباع بأن هناك شيئاً آخر.

- لماذا تقول هذا؟

- لست أدري... كيف أعبر عن ذلك، إنه... انطباع، حدس أشعر به.

- حدس؟

- نعم. أتعرفين، بالأمس، في الوزارة، عندما قرأت القصيدة بتمعن، أثارني بنية القصيدة الغريبة. هل انتبهت لذلك؟ - قال وهو يضع سبابته على القصيدة المخربشة على الورقة - لقد كُتبت بلغة إنجليزية غريبة نوعاً ما، ألا تظنين ذلك؟ إن قرأناها حرفياً، ثمة شيء ما مختل. فالمعنى العام واضح، بيد أن المعنى الخاص يغيب عنا. حسناً، لنحاول أن ندرك المعنى الحرفي للأبيات. «إن بلغت الأرض النهاية، الرعب الفظيع، يبتعد السبت المقدس، ليل المسيح». لكن، يا إلهي، ما الذي يعنيه كل هذا؟

- حسناً، لا بد أنه يبحث، قبل كل شيء، عن سجع.

- صحيح - قال طوماس موافقاً - فكلمة «tight» تتوافق مع كلمة «nite». لكنها قد توافق كلمة «Night» أيضاً. إذن، في هذه الحالة، لماذا فضل استعمال كلمة «nite» بدل كلمة «night»؟

- حتى يكون ذلك أكثر ترميقاً؟

علت تكشيرةٌ خفيفةٌ وجه المؤرخ، وهو يقيم هذه الإمكانية.

- ربما - قال مسلماً - ربما لا تعدو كل المسألة أن تكون مجرد وقع أسلوبية. لكن، في نظري، تظل هذه الأبيات غريبة جداً. ولماذا يقول «Terra» وليس «Earth» في البيت الأول؟ لماذا استعمل

الكلمة اللاتينية؟ ولماذا «*fin*» وليس «*end*»؟ كان بإمكانه أن يكتب «*earth if end*». لكنه لم يفعل، بل كتب «*terra if fin*». لماذا؟

- ألا يكون ذلك لأنه ربما يريد أن يعطي القصيدة هالة ملغزة؟

- ربما. لكنني كلما نظرت إلى هذه الأبيات اقتنعت بشيء ما. لست أدري كيف أشرحه. إنه إحساس يأتيني من الداخل، يشبه الحاسة السادسة. إنها، إن شئت، تجربتي في فكّ التشفير، هي التي تتحدث. لكنني واثق من هذا الشيء الذي حدثتكَ عنه.

- أي شيء؟

أخذ طوماس نفساً عميقاً.

- ثمة رسالة أخرى داخل الرسالة.

أمضيا الصبيحة بكاملها يفحصان القصيدة، يحاولان فهم الشفرة التي قد تكشف عن سرّها. أدرك طوماس أنه، ما دام الأمر يتعلق بقصيدة ذات رسالة مشفرة، فإن حل المسألة سيكون معقداً جداً خصوصاً أنه بحاجة للوصول إلى المفاتيح، إلى نوع من المعجم الذي يسمح له بالقبض على معنى كل كلمة من كلمات القصيدة. إن معجماً كهذا لم يكن متوفراً هناك، لذلك فإن خبير التشفير بدأ يفكر في المكان الذي يمكن لشخص مثل أينشتاين أن يخبئه فيه. هل يكون في بيته؟ في معهد برنستون حيث كان يجري أبحاثه؟ هل سلمه إلى شخص ما؟ على أي، عندما نستعمل شفرة سرية فإننا نقوم بذلك حتى لا يفهم معظم الناس الرسالة، لكن، أيضاً، حتى يفهمها أشخاص بعينهم. وإلا، بدل أن يشفر الرسالة، لم يكن لأينشتاين أن يكتبها، بكل بساطة. ما دام قد كتبها، فلأنه كان هناك مُرسل إليه، بكل تأكيد، شخص يملك مفاتيح فكّ شفرة القصيدة. لكن، من يكون هذا الشخص؟

كان الأستاذ سيزا، في هذه الحالة، مشتبهاً فيه واضحاً. فهل كان يملك المعجم؟ هل كان هو المرسل إليه؟ شعر طوماس، فجأة، برغبة عارمة في أن يسأل أريانا عما حدث لعالم الفيزياء البرتغالي؟ وصل السؤال إلى شفتيه، مثل قيء يفيض من الحنجرة دون أن نتحكم فيه، لكنه كتمه في الوقت المناسب، وأعادته إلى أحشائه، من حيث جاء. أن يعترف بأنه يعرف الصلة بين الأستاذ، وحزب الله وإيران، فكر طوماس، قد يكون أمراً كارثياً. إذ سرعان ما سيفهم الإيرانيون أنه توصل بمعلومات من لدن شخص في الميدان وقد يشكون في نواياه الحقيقية. وهذا ما كان ينبغي أن يتحاشاه بأي ثمن.

كان هناك مشتبه فيه ثان، بطبيعة الحال، وهو دافيد بن غوريون شخصياً. في نهاية الأمر، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق هو من طلب من أينشتاين وصفة قنبلة نووية يسهل تصميمها. إذا كان أينشتاين قد أدرج رسالة سرية داخل قصيدة، فلا شك أنه فعل ذلك وهو يعرف أن بن غوريون يملك مفاتيح فك شفرتها. في هذه الحالة، لا بد أن الموساد الإسرائيلي كان على معرفة بهذا المعجم. كانت تلك هي الفرضية الأكثر أهمية، لأنها تفترض أن المعجم يوجد بين أيادي الغرب. وبما أن طوماس قد سلم يوم أمس القصيدة إلى عميل وكالة المخابرات الأمريكية في طهران، فقد خمن أنه ربما يكون سلمها بدوره إلى مقر الوكالة في لانغلي. بل ربما تكون وكالة المخابرات الأمريكية، في هذه الساعة، قد فكّت شفرات الرسالة المدرجة في القصيدة.

واستمر تحليل اللغز حتى اللحظة التي نهض فيها والتحقا بمطعم الفندق. كانت وجبة الغداء بكاملها تتشكل من أطباق إيرانية. جرب طوماس طبق زرشك پلو با مرغ، أو دجاج بالرز، أما أريانا،



فاستمتعت بطبق قورمه سبزي، لحم مفروم مزين بالفصوليا. تحدثنا عن عدة إمكانيات لفك شفرات القصيدة بين شوكة أكل وأخرى، واستمر حديثهما بعد أن قدموا لهما الفالودج، عصير فواكه بالطحين والرّز طلبه البرتغالي، وبطيخ للإيرانية.

أظن أنني سأذهب لأنام لآخذ قيلولة - أعلن طوماس بعد شرب فنجان قهوة إيرانية سوداء.

- ألا تريد أن تشتغل أكثر من هذا؟

- آه، لا. - قال وهو يرفع يديه، كأنه يعلن عن استسلامه -

إنني أشعر بتعب كبير.

أشارت أريانا بحركة إلى فنجان القهوة.

- لست أدري كيف سوف تستطيع أن تنام - قالت الإيرانية

ضاحكة - قهوئنا قوية جداً.

- يا عزيزتي، القيلولة من التقاليد الإيبيرية العريقة، وليس ثمة

من قهوة تستطيع أن تهزمها.

# 10

كانت الساعة تشير إلى الثالثة إلا خمس دقائق زوالاً عندما غادر طوماس المصعد وتقدم عبر ردهة الفندق. نظر من حوله بأكبر قدر من العفوية، حتى يتأكد من أن لا أحد يراقبه. لم ير أي أثر لأريانا التي فارقتها قبل نصف ساعة، ولم يكن هناك من أحد يبدو أنه يوليه اهتماماً خاصاً. اقترب من مكتب الاستقبال، نظر بتستّر إلى الاسم الذي خربشه على الورقة ونادى خادماً الفندق.

- إنني أنتظر سيارة أجرة - قال.

- سيارة أجرة، يا سيدي؟

- نعم. سيارة أجرة السيد باباك.

خرج الشاب إلى الشارع وأشار إلى سيارة برتقالية كانت رابضة جهة اليمين. تقدمت السيارة ثم توقفت أمام باب الفندق.

- تفضل، يا سيدي، - قال الخادم وهو يفتح الباب الخلفي

للسيارة.

توقف طوماس قرب السيارة، وقبل أن يصعد نظر إلى السائق،

شاب نحيف يبدو مثل هيكل عظمي.

- هل أنت هو باباك؟

- آه؟

- باباك؟

قال الرجل نعم بحركة من رأسه .

- بله .

دسّ طوماس قطعة نقدية من فئة مئة ريال في يد خادم الفندق وجلس في المقعد الخلفي . انطلقت سيارة الأجرة وتوغلت في حركة السير المجنونة لمدينة طهران، تتلوى في متاهات أزقتها وشوارعها . حاول الراكب أن يدخل في حديث مع السائق فسأله عن الوجهة التي يقصدونها، فاكتفى باباؤك بتحريك رأسه .

- من إنكليسي بلد نيستم - قال .

كان واضحاً أن السائق لا يتحدث اللغة الإنجليزية . أدرك طوماس أنه لن يحصل منه على أي شيء، فاستند إلى المقعد وترك له أمر قيادته . كان يعرف أن شيئاً ما سيحدث، في نهاية الأمر، لأن عميل وكالة المخابرات الأمريكية طلب منه فقط أن يأخذ سيارة أجرة ليتجول في المدينة . كانت مسألة صبر وانتظار .

جالت سيارة الأجرة عبر شوارع طهران لمدة عشرين دقيقة، لم يتوقف خلالها باباؤك عن النظر عبر المرآة العاكسة . أحياناً، كان يعرج فجأة عبر زقاق متقاطع فيحرق أكثر في المرآة العاكسة . كرر العملية عدة مرات إلى أن بدا مرتاحاً وتوغل عبر شارع «تاليقاني» . وقف غير بعيد من جامعة «أميركبير» فصعد رجل بدين إلى السيارة ثم جلس إلى جانب طوماس .

- كيف حالك، يا أستاذ؟

كان هو عميل وكالة المخابرات الأمريكية الذي التقى به يوم البارحة .

- أهلاً . . . - أجابه البرتغالي، متردداً - عفواً، إنني لا أذكر اسمك .

ابتسم الرجل، كاشفاً عن أسنان متهالكة .

- هذا أفضل! - صاح - اسمي غلبهار باغيري، لكن ربما من الأفضل ألا تحفظ اسمي في ذاكرتك.  
- إذن، كيف يمكنني أن أناديك؟  
- حسناً، نادني مُصّر.  
- مُصّر؟ من موصاد؟  
ضحك باغيري.

- لا، مُصّر، من مُصدّق. هل تعرف من كان مُصدّق؟  
- ليست لدي أي فكرة.

- سوف أخبرك - ثم وجه بضع كلمات بالفارسية إلى باباك، فانطلقت السيارة وتقدمت عبر نفس الشارع - كان محمد مُصدّق محامياً انتُخب بطريقة ديمقراطية وعُيّن رئيساً للوزراء في إيران. وقتها، كانت آبار البترول ملكية خاصة في يد «الشركة الإنجليزية الإيرانية للمحروقات». حاول مُصدّق تحسين شروط الاتفاقية التجارية بين الطرفين. رفض البريطانيون ذلك فقرر أن يؤمم الشركة. كان لهذا القرار تداعيات كبيرة، لدرجة أن مجلة «Time» الأمريكية اختارت مُصدّق رجل السنة لعام ١٩٥١، لأنه شجع الدول النامية على التحرر من المستعمرين. بيد أن البريطانيين لم يتقبلوا الوضع قط واستطاع ونستون تشرشل أن يقنع دوايت أيزنهاور بقلب نظام مُصدّق. هل ترى هذه البناية؟ - قال وهو يشير بإصبعه جهة اليسار.

أدار طوماس رأسه. كانت بناية واسعة، تخفيها تقريباً أسوار كتبت عليها عبارات بصيغة الأمر، كانت أكثرها حضوراً عبارة «Down with the USA».

- نعم، إنني أراها.

- إنها المقر السابق لسفارة الولايات المتحدة الأمريكية في طهران. انطلاقاً من مخبأ داخل هذه السفارة قامت وكالة المخابرات

الأمريكية بوضع خطة لقلب نظام مُصدّق. أطلقوا عليها اسم «عملية أجاكس». مقابل عدة عمليات رشوة ونشر أخبار مضادة، تمكنت وكالة المخابرات الأمريكية من الحصول على دعم الشاه وشخصيات أخرى مؤثرة في البلاد، بمن فيهم بعض الزعماء الدينيين، وقادة الجيش، ومدراء الجرائد، ثم قلبوا نظام مُصدّق سنة ١٩٥٣ - نظر باغيري نحو البناية حيث كان يقف بعض رجال الحرس المسلحين - بسبب هذا الحادث، عندما اندلعت الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩، قام الطلبة باجتياح السفارة والاحتفاظ بخمسين دبلوماسياً رهائن لأكثر من سنة كاملة. كان الطلبة يخشون أن تكون السفارة مشاركة في مؤامرة ضد آية الله الخميني، كما شاركت من قبل في مؤامرة ضد مُصدّق.

- آه - صاح طوماس - ومارأيك في مُصدّق؟

- كان رجلاً عظيماً.

- لكن وكالة المخابرات الأمريكية أطاحت به.

- نعم.

- إذن ... اسمح لي، ولكني لا أفهم. أنت تشتغل مع وكالة

المخابرات الأمريكية.

- نعم، أنا الآن أشتغل مع وكالة المخابرات الأمريكية، ولكن

الأمر لم يكن كذلك سنة ١٩٥٣. ثم إنه، وقتئذ، لم تكن هذه الوكالة

قد وُجدت بعد.

- لكن كيف يمكنك أن تشتغل مع وكالة المخابرات الأمريكية

إن كانت قد أطاحت بهذا الرجل العظيم؟

قام باغيري بحركة استسلام.

- لقد تغيرت الأمور. إن من يشغلون السلطة حالياً ليسوا رجالاً

متنورين، مثل مُصدّق، بل شرذمة من المتطرفين الدينيين الذين يريدون

العودة بالبلاد إلى العصور الوسطى. إنهم أعدائي - قال وهو يشير

بإصبعه إلى رجال الحرس الذين يسرون في دوريات أمام السفارة. وهم أيضاً أعداء وكالة المخابرات الأمريكية. لست أدري إن كنت تعرف هذا المثل العربي الذي يقول «عدوُّ عدوي صديقي». إذن، وكالة المخابرات الأمريكية صديقتي.

انعرجت سيارة الأجرة ومضت عبر شارع «مُفْتَح» باتجاه الجنوب. كان يبدو أن السيارة تسير من دون وجهة محددة عبر شوارع طهران، وهو ما ظهر واضحاً عندما أخذت شارع «انقلاب» ودارت حول ساحة «فردوسي»، قبل أن تأخذ من جديد نفس الشارع في الاتجاه المعاكس. كان مساراً من دون وجهة، حيث كل ما يهم هو التنقل، وخصوصاً أن هذا التسكع لم يكن سوى ذريعة لعقد اجتماع بعيداً عن العيون الفضولية.

بعد الابتعاد عن منطقة السفارة، لزم الإيراني الضخم لحظة صمت، عيناه تحديقان في آلاف السيارات التي تملأ الشوارع، حيوانات ضارية بين أيادي متوترة لسائقين في المدينة.

- لقد تلقيت تعليمات من وكالة المخابرات الأمريكية في لانغلي -  
قال باغيري، أخيراً، دون أن يرفع نظره عن حركة السير.  
- آه، نعم؟ وماذا يقولون؟

- لقد أصيبوا بالخيبة عندما علموا أنك لا تستطيع أن تقترب من المخطوط مرة أخرى. ويودون أن يعرفوا إن لم تكن هناك من وسيلة أخرى للقيام بذلك.

- حسب ما فهمت، ليس هناك من وسيلة أخرى. كان الرجل في الوزارة جازماً، وتذرع دائماً بمسألة الأمن القومي. إن ألححت في الأمر، أخشى أن أوقف بعض الشكوك.

أشاح باغيري بنظره عن حركة السير وهدق في طوماس، عاقداً حاجبيه.

- في هذه الحالة، سيكون علينا أن نواجه مشكلة كبيرة.

- مشكلة كبيرة؟ لماذا؟

- لأن الأمريكيين لا يرضون بأن يبقى هذا المخطوط في حوزة

الإيرانيين.

- ولكن ما الذي يمكن للولايات المتحدة أن تقوم به؟

- هناك فرضيتان في هذه الوضعية التي تهدد الأمن القومي

الأمريكي. الأولى، أن يقصفوا البناية التي يُحتفظ فيها بالمخطوط.

- ماذا؟ قصف طهران بسبب... بسبب هذا؟

- نعم، أستاذي العزيز، وهذا ليس بسبب شيء لا قيمة له.

يتعلق الأمر بتصاميم قنبلة نووية رخيصة الصنع سهلة الإنتاج. إنه

تهديد للأمن الدولي. إذا تمكن نظام، مثل النظام الإيراني، الذي

تربطه علاقات بمنظمات إرهابية، من تطوير أسلحة نووية سهلة

الصنع، فكن على يقين أن مجانين مثل أسامة بن لادن وآخرين لن

يكتفوا بمهاجمة نيويورك بواسطة طائرات بسيطة. سوف يتفرون على

وسائل أكبر... متفجرات وقنابل مدمرة، إن كنت تفهم قصدي.

- نعم، إنني أفهم.

- في مثل هذه الظروف، قصفُ بناية في طهران هو أهون

الشرور، ألا تظن ذلك؟

- نعم. أظن ذلك.

ومن جديد، راح الإيراني يشاهد المنظر خلف زجاج سيارة

الأجرة.

- إنَّ تمكُّنك يوم أمس من معاينة المخطوط في وزارة العلوم أمرٌ

يؤكد أننا بحاجة إلى تحديد موضعه. لكن هذا الاختيار يطرح أمرين

سلبيين. الأول، أن عملاً عسكرياً من هذا القبيل له تداعيات سيئة،

خصوصاً على العالم الإسلامي. وقد يظهر النظام الإيراني في دور

الضحية. لكن، هذا العائق يمكن تخطيه لو لم يكن هناك عائق آخر، يستحيل تجاوزه. ذلك أن القصف، من دون شك، قد لا يحقق هدفه الاستراتيجي النهائي، ألا وهو تدمير وثيقة أينشتاين ووصفة صناعة الأسلحة النووية. قد يتم تدمير الوثيقة، طبعاً، لكن من المحتمل جداً أن تكون هناك نسخ منها في خزائن حديدية إيرانية. لا شيء يمنع النظام الإيراني من صنع القنبلة انطلاقاً من المعادلة التي تظهر في النص. بعبارة أخرى، قد يدمر القصف المخطوط الأصلي، لكن المعادلة ستكون قد نسخت.

- تماماً.

- لذلك تلقيت من وكالة المخابرات الأمريكية، في لانغلي، تعليمات في حالة تعذر عليك الاقتراب من المخطوط. وهذه التعليمات ينبغي تنفيذها في الاختيار الثاني.

صمت الإيراني، وبدا منشغلاً.

- وما هو هذا الاختيار الثاني؟ - سأل طوماس.

أخذ باغيري نفساً عميقاً.

- أن تسرق المخطوط.

- كيف ذلك؟

- تذهب إلى الوزارة وتأخذ المخطوط، بكل بساطة.

بعد دهشة البداية، أطلق المؤرخ قهقهة عالية.

- عجباً! إنكم تذهبون للغرض من دون مواربة! - صاح - سرقة

المخطوط! وكيف ستستطيعون القيام بهذا؟

- الأمر بسيط. نتدبر أمرنا لتتخلص من الحرس، نلج إلى داخل

البنية، نحدد مكان الوثيقة ونستولي عليها.

- ولماذا لا نكتفي بتصويرها في ميكروفيلم؟ إن كانت هناك أمام

العينين، ألا يستحسن أن يكون المرء أكثر تكتماً؟ في نهاية المطاف،



سرقة المخطوط لن تحل المشكل ما داموا يملكون منه نسخاً في أماكن أخرى، كما قلت.

- كلا، لا يمكن أن يكون الأمر هكذا. إن الولايات المتحدة تريد أن تقدم الوثيقة أمام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، لكن للقيام بذلك يجب التحقق من صحة الوثيقة، أولاً. والحال أنهم لا يستطيعون التحقق من صحتها إلا إذا كانت الوثيقة الأصلية بين أيديهم. لذلك يجب أن نذهب للبحث عن المخطوط.

فكر طوماس في عواقب هذا الفعل.

- لكن، أخبرني، ألا ينطوي هذا على فعل خطير؟

- كل شيء في الحياة ينطوي على خطر. الخروج إلى الشارع خطير.

- لا تغير الموضوع. كأنني أسمع أمي تتكلم. إن ما يشغلني هو ما سيؤول إليه مصيري عندما ينتبه الإيرانيون إلى غياب الوثيقة. إنهم ليسوا أغبياء، وسيربطون بين الأمرين، أليس كذلك؟ ذات صباح، يعرضون عليّ الوثيقة، وبعد بضعة أيام، تختفي. سيكون ذلك... كيف أعبر عن ذلك؟... أمراً مريباً.

- نعم، ولن تكون في مأمن.

- إذن، قل لي. كيف سنحل هذه المشكلة؟

- سيكون عليك أن تغادر البلاد.

- لكن، كيف ذلك؟ لقد أخبروني أنهم لن يرخصوا لي بمغادرة البلاد إلا بعد فك اللغز المدرجين في الوثيقة.

- سنجعلك تغادر إيران في الليلة نفسها التي سنذهب فيها لسرقة المخطوط.

- ومتى سيكون ذلك؟

- إنني لا أعرف بعد. أود أن يكون في أقرب وقت ممكن،

لكن، حتى هذه اللحظة، لا يمكنني أن أعطيك تاريخاً محدداً، ثمة عدة تفاصيل ينبغي معالجتها. أتمنى أن أعرف ذلك غداً. بمجرد حصولي على المعلومة، سأمر إلى الفندق لأخبرك بالتفاصيل. لا تغادر الفندق، هل فهمت؟ قم بما يمكن أن تقوم به عادة، واصل عملك في فك شفرة اللُّغزَيْن، وانتظر أن أتصل بك.

- هممم، حسناً - قال طوماس موافقاً - دعني أخصص ما قُلْتُهُ: فكرتُك تتلخص في اقتحام بناية الوزارة، سرقة الوثيقة، وبعد ذلك تأتون لتأخذوني لإخراجي من إيران. أليس كذلك؟

أخذ باغيري نفساً عميقاً، لكنه احتفظ بالهواء في داخله.

- حسناً، هكذا تقريباً - قال بشيء من التردد - لكن، هناك جزئية صغيرة . . . مختلفة بعض الشيء.

- آه، نعم؟

- نعم.

لزم الإيراني الصمت، مما أجاج فضول المؤرخ.

- وما هي هذه الجزئية؟

- أنت سوف تأتي معنا.

- آه، لقد فهمتُ ذلك. سوف تخرجونني من إيران.

- لا، ليس هذا ما أقصد. أنت أيضاً سوف تأتي معنا إلى

الوزارة.

- كيف ذلك؟

- لأنك تنتمي إلى الفريق المكلف بتنفيذ السرقة.

# 11

كانت مدرجات الميدان تعج بالناس، وخاصة النساء اللواتي يغطين رؤوسهن بالشادورات السوداء، لكنهم جميعاً كانوا يتصرفون كما لو أن اليوم كان يوم فرجة. دفع أحدهم طوماس وأجبره على أن يجثو في الوسط، رأسه يميل إلى الأمام، بينما رقبته وعنقه عاريان. بطرف عينه، لاحظ المؤرخ حضور رجال يرتدون جلابيب إسلامية بيضاء طويلة، تقدموا نحوه وتحلقوا في دائرة من حوله، كما لو أنهم يحاصرونه، يجردونه من أي أمل في الهروب من مكان الموت ذاك. ووسطهم ظهرت أريانا، بنظرتها الحزينة، دون أن تجرؤ على الاقتراب من المحكوم عليه، مكتفية بأن ترسل إليه قبلة وداع محتشمة. وسرعان ما اختفت الإيرانية، وظهر مكانها رحيم، الغضب يتطايرُ شرراً من عينيه، وفي حزامه يلمع سيف ضخم معقوف. بحركة مفاجئة، استلَّ رحيم سيفه من حزامه، رفعه إلى السماء بكلتا يديه، حيث ظل معلقاً لحظة، فقط لحظة طويلة من الرعب، قبل أن تشق شفرته الهواء وتقطع رأس طوماس.

استيقظ.

كان العرق ينزل بارداً على جبينه، ويتصبب على منامته، صدره وظهره. كان يلهث. حاول أن يفهم ما إذا كان ذلك هو الموت، لكنه أدرك، بارتياح، أنه كان ما يزال على قيد الحياة. صمتُ الغرفة

المظلّمة أَعاد إليه الطمأنينة؛ لم يكن ذلك سوى كابوس، لكن هذا الصمت أكد له أيضاً أن الكابوس الآخر، ذلك الذي ورطه فيه الإيراني في السوق، كان حقيقياً، ملموساً ووشيكاً.

أزاح الأغطية من فوقه، جلس على السرير وفرك عينيه.

- أي ورطة هذه التي حشرتُ فيها نفسي؟ - همهم قائلاً.

ذهب مترنحاً إلى الحمام لينظف نفسه. في المرأة، رأى رجلاً بهالتين كبيرتين حول عينيه، نتيجة منطقية لأرق مقلق لم ينته إلا في ساعات متأخرة من الفجر. كان يشعر بنفسه كأنه فوق أفعوانية متموجة، تارة كئيب لأنه سيقوم بفعل فظيع في بلد معروف بعقوبته الصارمة، وتارة متحمس بأمل حدوث تحول مفاجئ، حدث غير متوقع قد يحل المشكلة بعضاً سحرية ويحرره من هذا الحمل الثقيل الذي وضعوه على كاهله.

في تلك اللحظات من الأمل، كان يتعلق بكل ما أوتي من قوة بذلك الحديث الذي أجراه بالأمس مع أريانا. إن وزير العلوم قد يتفهم، من دون شك، وجهة طلبه، فكّر أمام المرأة، وهو ينشر الرغبة على وجهه، قبل أن يحلق لحيته. إن حجة وجود مفتاح الرسالة مشفراً ومختبئاً في مكان ما من نص المخطوط لم يكن هو الحس السليم، بل شيئاً بديهياً لا يمكن أن يخفى عن الوزير بكل تأكيد. نعم، قال في نفسه، وهو يغسل أسنانه الآن. سوف يسمحون له، لا محالة، بالاطلاع على النص. وحين يطلع عليه، سوف يجد كل الأجوبة التي تحتاج إليها وكالة المخابرات الأمريكية، وربما يعثر على عناصر قد تجعل سرقة المخطوط أمراً من دون جدوى، ويتخلص، بذلك، من وضعية كان يشعر أنه لم يكن في مستواها.

أغمض عينيه وهمس وعداً في نفسه.

- إن نجوتُ من هذه، أعد نفسي أنني سوف أصلي كل يوم من

أيام هذه السنة - ثم فتح عيناً وفكر في حجم الوعد - حسناً، كل يوم من أيام السنة، ربما يكون هذا مبالغاً فيه. سوف أصلي كل يوم من أيام الشهر القادم.

مفعماً بثقة غير متوقعة، أوحى له بها هذا الوعد، فتح صنوبر الدّش، تحسس الحرارة قبل أن يندسّ تحت الماء المنهمر.

ظهرت أريانا بقدها الجميل في ردهة الفندق قليلاً بعد الموعد المحدد. كان طوماس قد تناول فطوره وظل ينتظرها بفارغ الصبر، جالساً على أريكة في الحانة. تبادلوا التحية وجلست في نفس المكان الذي جلست فيه يوم البارحة، ثم طلبت عصير برتقال من النادل. لم يكن المؤرخ يتحكم في قلقه، فدخل مباشرة في صلب الموضوع.

- إذن؟ ماذا عن الوزير؟

- ما به الوزير؟

- هل أعطى الترخيص؟

وتظاهرت أريانا أنها لم تفهم السؤال إلا عند تلك اللحظة.

- آه، نعم! - قالت متعجبة - الترخيص.

- هل أعطاني ترخيصاً؟

- آه، حسناً... لا.

ظل طوماس جامداً، يستمع وهو لا يصدق ما سمع.

- لا؟ - تتمم.

- لا، إنه يرفض منح الترخيص - أكدت أريانا - شرحتُ له أن

القصييدة، في رأيك، رسالة مشفرة ومفتاحها يوجد في النص. قال

لي إنه آسف، لكن، لأسباب تتعلق بالأمن القومي، لا يمكنك أن

تطلع على محتوى الوثيقة، ولا يهم إن كان سيترتب على ذلك تأخير

في فكّ شفرة القصيدة.

- لكن هذا قد يترتب عليه استحالة فكّ شفرة القصيدة بكاملها -  
ألح البرتغالي قائلاً - هل شرحِ له ذلك؟  
- طبعاً، لكنه لا يريد سماع أي شيء. يقول إن الأمن القومي  
فوق أي اعتبار وإنه فيما يخص مسألة فكّ الشفرة، فالمسألة ليست  
مشكلة إيران وحدها. إنها مشكلتك أنت أيضاً - قالت وهي تشير إلى  
مخاطبها.

- مشكلتي أنا؟

- نعم، مشكلتك. ألا تذكر أن أغا جليلي قال إنه لن يُسمح لك  
بمغادرة إيران إلا بعد فكّ اللُّغزَيْن؟ وقد أكد لي الوزير هذا الأمر. بل  
يبدو أن القضية قد وصلت إلى الرئيس أيضاً - قامت أريانا بحركة  
استسلام - إنني آسفة للغاية، يا طوماس، ولكنك مجبر على كشف  
شفرات هذه الرسائل السرية.

أخذ المؤرخ نفساً عميقاً ثم حدق في المرمر الذي يلمع على  
الأرض. شعر بنفسه محبطاً ومحاصراً.  
- إنني في ورطة - قال كأنه يبوح.  
لمست أريانا ذارعه.

- هديء من روعك، ولا تترك نفسك فريسة للإحباط. لقد  
عابنتُ براعتك في فكّ التشفير. سوف تتمكن من سبر أسرار تلك  
الألغاز، أنا متأكدة من ذلك.

بدا البرتغالي منكسراً من الإحباط، تعلو وجهه مسحة حزن. في  
الحقيقة، لم يكن يشك في قدرته على اكتشاف الرسائل الخفية في  
اللُّغزَيْن، لكن طلبه للاطلاع على نص المخطوط كان يعود لرغبته في  
معرفة أحسن للوثيقة أكثر من اقتناعه بأنها تنطوي على مفتاح السنن.  
المشكلة الحقيقية هي أن قرار الوزير بعدم الترخيص له بالاطلاع على

الوثيقة كان يعني نهاية أمله في حل المشكلة من دون الاضطرار إلى ارتكاب السرقة التي أخبره بها رجل السوق يوم أمس.

- إنني في ورطة - كرر في نفسه، بنظرة سوداء.

- اسمع - قالت أريانا وهي تحاول دائماً أن تواسيه - ليس هناك من سبب لتكون محبطاً، سوف تحلُّ المشكلة. وفوق هذا، ستكون مناسبة لنا كي نشتغل معاً لبعض الوقت. هذا الأمر... ألا يسعدك؟

بدا طوماس كأنه ينهض من سبات.

- إيه؟

- ألا يسعدك أن تشتغل معي لبعض الوقت؟

تأمل المؤرخ وجه الإيرانية الرائع.

- هذا هو الشيء الوحيد الذي يمنعني من الانتحار في هذه اللحظة بالذات - قال بطريقة شبه آية.

ضحكت أريانا.

- أنت مُضحك، لا شك في ذلك - أحنت رأسها - وماذا

تنتظر؟ هيا!

- هيا، لماذا؟

- للعمل.

أخرج طوماس الورقة التي كتبت فيها الرسائل، بسطها ووضعها على الطاولة.

- نعم، إنك على حق! - صاح وهو يُخرج قلماً من جيبه - لنباشر العمل.

قضايا معاً ثلاث ساعات يحللان المعاني الرمزية المتعددة لمختلف الكلمات المفتاحية في القصيدة، وخاصة *Terra*، *terrors*،

*Christ* و *Sabbath*، لكنهما لم يجدا شيئاً آخر مختلفاً عما توصلنا إليه يوم أمس. كان عملاً محبباً، مع كل الفرضيات التي خربشها ثم شطبها، بعد أن تبينت سخافتها وضعفها.

قبل موعد الغداء، اعتذر طوماس وتوجه إلى المرحاض. وخلافاً لكل المراحيض الإيرانية التي لا تتوفر سوى على ثقب قذر فوق الأرضية، كان هذا المرحاض يتوفر على أحواض ومباول تفوح منها رائح عطرة. لقد كان، من دون شك، في واحد من أحسن الفنادق في البلاد.

وبينما كان أمام المبلولة، مركزاً على ما يقوم به، شعر المؤرخ بيد تنزل على كتفه فقفز من الخوف.

- ماذا يا أستاذ؟

كان باغيري.

- مُصّ! - قال متنهّداً - لقد أفرغتني!

- إنك متوتر أَيْما توتر!

- أليس لدي من الأسباب ما يجعلني كذلك؟ هل تعرف حجم

هذه الورطة التي أقحمتني فيها؟

- أكمل ما كنتَ بصدده - قال باغيري وهو يتعد منه ويقرب من

المغسلة.

بقي طوماس لحظة أخرى أمام المبلولة، ثم أغلق السحاب

وذهب ليغسل يديه.

- اسمع - قال وهو ينظر إلى باغيري في المرأة - إنني لستُ

مؤهلاً لمثل هذه الأمور. فكرتُ في الأمر ملياً وقررتُ ألا

أذهب.

- إنها أوامر صادرة عن وكالة المخابرات الأمريكية في لانغلي.



- لا تهمني! إنهم لم يخبروني قط أنه يجب عليّ أن أشارك في عملية سرقة.

- لقد تغيرت الظروف. بما أنك لم تستطع قراءة المخطوط فقد اضطررنا لتغيير الخطة. ثم إن هناك قرارات جديدة تتجاوز وكالة المخابرات الأمريكية.

- قرارات جديدة؟

- نعم. قرارٌ أتخذت في واشنطن. لا تنس، يا أستاذ، أن الأمر يتعلق بمسألة تهدد أمن الغرب. أن يتمكن بلد مثل إيران من الحصول على وصفة لصنع سلاح نووي وفق تصميم بسيط، كن على يقين أن هذا أمر يخيف الناس جميعاً، وخصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر - ثم قام بحركة تنم عن الاستسلام - لذلك، وبالنظر لأهمية كل ما هو في خطر، اعلم أن آخر ما يشغل بال المسؤولين في واشنطن هو معرفة إن كنا نحب أو لا نحب المهمة التي تعاقدوا معنا عليها.

- ولكني لا أمثل أي فريق تدخّل سري، كما ترى؟ بل إنني لم أقض حتى فترة الخدمة العسكرية الإجبارية. سأكون عائقاً بالنسبة لكم.

- أستاذ - قال باغيري وهو يرفع إبهامه - لقد قلت لك بالأمس إن مشاركتك حاسمة في نجاح العملية. أنت الوحيد الذي رأى المخطوط - ثم رفع السبابة - وأنت الوحيد الذي رأى في أي قاعة هو محفوظ - وأشار بإصبعه إلى طوماس - لهذا فإنه من المنطقي أن نلجأ إليك من أجل تحديد طبيعة الوثيقة ومكانها. من دون مساعدتك، ما الذي نستطيع القيام به؟ قد نقضي الليل بكامله نجوب بناية الوزارة مثل فتران تائهة، نبش في كل مكان من دون العثور على أي شيء - ثم حرّك رأسه - هذا غير ممكن.

- لكن، أي شخص آخر يستطيع أن ...

- كفى - قاطعه باغيري وهو يرفع قليلاً نبرة صوته - لقد اتُخذَ  
القرارُ ولا تستطيع أنت ولا أنا معك أن نفعل شيئاً. هناك أشياء كثيرة  
في خطر، وهو ما لا يسمح لك أن تكون في حالة شك - ألقى نظرة  
خاطفة على الباب - وعلاوة على ذلك، أريد أن أعرف شيئاً ما.  
- أي شيء؟

- هل تعتقد حقاً، يا أستاذ، أن هؤلاء الناس سوف يتركونك  
تذهب هكذا إلى بلدك بعد أن تنتهي من عملك؟  
- هذا ما قالوه لي.

- وتصدق ذلك؟ ففكر جيداً. لقد اطلعت على مخطوط أينشتاين  
وستقوم، مبدئياً، بفك شفرات الرسائل التي أدرجها في وصفته  
النووية. وبما أن النظام يريد أن يحتفظ بكل هذا في السر، ألا  
تستغرب أن يتركوك تعود هكذا هائلاً إلى بلدك، وأنت تعرف كل ما  
تعرف؟ ألا تعتقد أن هذا الأمر يشكل خطراً على سرية المشروع  
النووي الإيراني؟ أتظن أن النظام، بعد نهاية العمل، وبعد امتلاكك  
لجزء من السر، لن يعتبرك خطراً على الأمن القومي الإيراني؟  
فتح طوماس عينين جاحظتين، وهو يهضم جسامة عواقب  
الأسئلة التي طرحها الإيراني.

- أوه ... نعم، بالطبع ... - تتمم قائلاً - هل تظن ...  
تظن فعلاً أنهم يمكن أن يحتجزوني هنا ... إلى الأبد؟  
- واحدٌ من أمرين. إما أنهم سيقتلونك ما إن تنتفي حاجتهم  
إليك، أو أنهم سيحتفظون بك سجيناً في قفص ذهبي - ثم نظر  
باغيري مرة أخرى نحو الباب، كأنه يتأكد أنهما وحدهما بالفعل -  
في رأيي، من الأرجح أنهم سيحتجزونك في إيران إلى الأبد. إن  
النظام يتشكل من شرذمة من المتطرفين المتعصبين، وهم ما يمثل،

مع ذلك، جانباً إيجابياً. فرغم أنهم يطبقون الشريعة بلا هوادة، إلا أنهم يؤمنون إيماناً عميقاً بالتصرفات الأخلاقية. ثم إنه ما داموا لا يتوفرون على سبب وجيه لقتلك، فمن الأرجح أنهم سيحتفظون بك سجيناً. لكن، من جهة أخرى، يجب ألا ننسى أن النظام يرى أن هناك أسراراً أساسية من أسراره في خطر. ولذلك يمكن أن يفتعل أسباباً أخلاقية، بكل سهولة. وليس من المستبعد أن يختار النظام طريقة أكثر جذرية وأماناً ليُسكتك. هل فهمت؟ - قال، أخيراً، وهو يمرر إصبعه على عنقه.

أغمض المؤرخ عينيه، مسد صدغيه وتنهّد.

- إنني في ورطة من أمري.

راقب باغيري باب المراحيض مرة أخرى.

- اسمع، ليس لدينا كثير من الوقت - قال - لقد جئتُ إلى هنا

فقط لأخبرك أن كل شيء جاهز.

- أي شيء جاهز؟

- إن الاستعدادات للمهمة قد انتهت كلها تقريباً. بعد عملية

السرقة، سوف نأخذك إلى مكان بعيد في بحر قزوين، يدعى بندر

تركمان، يقع بالقرب من أنقاض أسوار الإسكندر الأكبر.

- بندر ماذا؟

- بندر تركمان. قرية مينائية تركية، غير بعيدة عن حدود

تركمانستان. في ميناء بندر تركمان، سيكون في انتظارك قارب صيد

يحمل اسم باكو، مثل عاصمة أذربيجان. إنه قارب اكريناه خصيصاً

لينقلك إلى باكو بالضبط. هل فهمت؟

- تقريباً - وبدا طوماس متحيراً في أمره - هل ستأتي

معي؟

حرك باغيري رأسه.

- لا . يجب أن أبقى في طهران كي أطمس الآثار . لكن باباك سوف يأخذك إلى هناك ، كن مطمئناً . بيد أنه ينبغي أن تتذكر عن ظهر قلب شيئاً مهماً .

أخرج طوماس من جيبه ورقة وقلماً .

- إنني أستمع إليك .

- كلا ، لا ينبغي أن تكتب هذا في أي مكان ، عليك أن تحفظه عن ظهر قلب . هل فهمتَ ؟

بدا المؤرخ منزعجاً .

- أحفظه عن ظهر قلب ؟

- نعم ، يجب أن يكون كذلك . لدواع أمنية .

- حسناً ، كلي آذان مُصغية .

- عندما تصل إلى قارب باكو ، الذي سوف يكون راسياً في ميناء بندر تركمان ، اطلب مقابلة محمد . تذكر جيداً ، محمد .

- مثل اسم النبي .

- تماماً . اسأله إن كان ينوي الذهاب إلى مكة هذه السنة .

سيجيبك بعبارة «إن شاء الله» . هذه هي كلمة السر .

- هل تنوي الذهاب إلى مكة هذه السنة؟ - كرر طوماس ليحفظ

السؤال - أليس كذلك؟

- نعم ، تماماً .

- إن هو أجابني بعبارة «إن شاء الله» ، فمعنى ذلك أن كل شيء

على ما يرام .

- تماماً .

- يبدو هذا بسيطاً .

- إنه بسيط . حسناً ، يجب أن أذهب - قال باغيري ، بعد أن

ألقي نظرة على ساعته - سوف آتي لآخذك عند منتصف الليل .

- منتصف الليل؟ إلى أين؟
- حدّق فيه الإيراني مندهشاً.
- ألم أخبرك بعد بالأمر؟
- أي أمر؟
- العملية، يا أستاذ.
- وما أمر العملية؟
- سوف تُنقذُ هذه الليلة.

# 12 مكتبة

t.me/t\_pdf

عندما التحق بأريانا، كان طوماس يشعر بارتباك كبير لدرجة أنه واجه صعوبة في أن يركز من جديد. كلما حدّق في القصيدة، فكّر في المغامرة المجنونة التي تنتظره ليلاً. كانت عيناه تجوبان الحروف المخربشة على الورق، بينما ذهنه يفكر في العواقب القادمة لما سيأتي من أحداث، بدءاً بالاستعداد لمغادرة الفندق إلى اللحظة التي سيلتقي فيها بالمدعو محمد في القارب. هل كان عليه أن يأخذ أمتعته؟ ألن يثير الشكوك إن رأوه يغادر الفندق بحقيبة السفر الكبيرة؟ لا، من الأحسن أن يتخلى عن الحقيبة ويأخذ كيساً صغيراً يضع فيه أهم أغراضه. وكيف يغادر الفندق دون أن يراه أحد؟ ألن يرتاب المستخدمون في أمره وهم يرونه يغادر عند منتصف الليل؟ هل سينذرون بمغادرته؟ وماذا سيحدث عندما يصل إلى الوزارة؟ هل ...

- طوماس؟ طوماس؟

حرك البرتغالي رأسه، وهو يعود إلى الحاضر.

- آه؟

- هل أنت بخير؟

كانت أريانا تنظر إليه حائرة، كما لو أنها تحاول أن ترى علامات حمى في اللون الشاحب لوجه المؤرخ.

- ماذا؟ أنا؟ - تتمم قائلاً، وهو يستقيم - نعم، أنا بخير، لا تشغلي بالك.

- لا يبدو كذلك، هل تعرف؟ تبدو شاردأً، غير منتبه لما قلت لك - ثم أحنّت رأسها في حركة عادية من حركاتها - هل أنت متعب؟

- نعم، بعض الشيء.

- هل تريد أن ترتاح؟

- لا، لا. سوف ننهي هذا، أولاً. سأذهب لأرتاح لاحقاً. اتفقنا؟

- حسناً. كما تريد.

تنهّد طوماس، ثم نظر من جديد إلى القصيدة.

- لأكون صادقاً معك، لا أرى كيف أستطيع أن أفك شفرات كل هذا دون أن تكون لدي أدنى فكرة عن موضوع مخطوط أينشتاين - قال معلقاً، مع أمل أخير بأن يقنع الإيرانية - هيا، ألا يمكنك أن تحدثيني عنه، ولو قليلاً؟

نظرت أريانا من حولها، مهلوعة.

- طوماس، إنني لا أستطيع...

- ولو فكرة بسيطة.

- لا.

- اسمعي، إن لم تقولي لي أي شيء، لن نستطيع أن نتقدم. أنا بحاجة إلى أن تزوديني بشيء يوجهني.

نظرت إليه الإيرانية لحظة، مترددة بخصوص ما ينبغي أن تقوم به. هل يمكن أن تكشف له عن شيء ما؟ إن كان كذلك، أي شيء تكشف عنه؟ ما هي عواقب ذلك؟

فكرت في الأمر لبضع ثوان ثم اتخذت قراراً، في النهاية.

- لن أكشف لك عن محتوى المخطوط لأن ذلك لن يعرض للخطر الأمن القومي الإيراني فحسب، بل سلامتك أنت، وسلامتي أنا أيضاً - قالت بصوت خفيض - الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقول لك أن الوثيقة تحيرنا نحن أيضاً ونعتقد أن فكّ اللُّغزِين فقط قد يسمح لنا بفهم كل شيء .

- أنتم حائرون، أليس كذلك؟

- نعم .

- لماذا؟

بدت حركة نفاذ صبر على أريانا .

- لا أستطيع أن أقول لك ذلك، بل ربما أكون قد قلت لك أكثر من اللازم .

- لكن، أي شيء محير في المخطوط؟

- أكرر إنني لا أستطيع أن أقول لك ذلك . كل ما أستطيع القيام به هو أن أتحدث لك عن الظروف التي كتب فيها أينشتاين هذا المخطوط . هل يهملك أن تعرف ذلك؟

تردّد طوماس .

- حسناً . . . نعم، لِمَ لا؟ هل تظنين أن ذلك يمكن أن يساعدني؟

- لا أعرف . ربما .

- أو ربما نعم، من يدري؟ - اتخذ المؤرخ قراراً في النهاية - حسناً، كُلِّي آذان مُصغية .

اتكأت أريانا على الأريكة، تحاول استجماع أفكارها .

- قل لي، يا طوماس، هل لديك معرفة بالفيزياء؟

ضحك البرتغالي .

- شيئاً ما - قال - كما تعرفين أنا مؤرخ وخبير تشفير، ومجال



أبحاثي ليس هو الفيزياء في الحقيقة. والدي عالم رياضيات ويهتم بهذه المجالات، بل إنه قد كرس حياته للمعادلات والمُبرهنات. أنا لست مثله، أفضل من بعيد الحروف الهيروغليفية والكتابة العبرية والآرامية. أحب رائحة غبار المكتبات والنتانة التي تفوح من المخطوطات العتيقة وأوراق البردي القديمة. هذا هو عالمي.

- أعرف هذا كله. لكن ما أود معرفته هو إن كنت مطلعاً على ما ينجز من أبحاث أساسية في مجال الفيزياء حالياً.

- ليست لدي أدنى فكرة عن ذلك.

- ألم تسمع قط عن «نظرية كل شيء»؟

- لا.

مررت الإيرانية يديها على شعرها الأسود الجميل، وهي تفكر في أحسن طريقة تشرح له بها هذا الأمر.

- لئراً، هل تعرف على الأقل ما هي نظرية النسبية؟

- طبعاً. هذه من المعارف الأولية.

- لنقل إن البحوث حول نظرية كل شيء قد بدأت مع نظرية النسبية. حتى ظهور أينشتاين كانت الفيزياء تعتمد على أعمال نيوتن، التي كانت تصف وصفاً دقيقاً الاشتغال المكيانيكي للكون كما تراه الكائنات البشرية. لكن، كانت هناك مسألتان مرتبطتان بالضوء لم يستطع أحد حلّهما. الأولى تتعلق بمعرفة لأي سبب يقوم شيء ما يتعرض للحرارة بإرسال الضوء، والثانية بفهم القيمة الثابتة لسرعة الضوء.

- أعتقد أن أينشتاين هو الذي سلّط الضوء على مشكلة الضوء -

قال طوماس مازحاً.

- تماماً. عرض أينشتاين سنة ١٩٠٥ نظرية النسبية المحدودة،

التي يضع بموجبها علاقة بين المكان والزمن، قائلاً إنهما نسيان

معاً. مثلاً، الزمن يتغير لأن هناك حركة في المكان. الشيء الوحيد الذي ليس نسبياً، بل مطلقاً، هو سرعة الضوء. اكتشف أينشتاين أنه عندما تكون هناك سرعة قريبة من سرعة الضوء، يتباطأ الزمن وتنكمش المسافات.

- هذا أعرفه.

- هذا جيد، لأننا سنربح بعض الوقت. المسألة هي أنه، إن كان كل شيء نسبياً، باستثناء سرعة الضوء، فحتى الكتلة والطاقة نسبيتان. بل أكثر من أنهما نسبيتان، فإن الكتلة والطاقة وجهان لعملة واحدة.

- أليست هذه هي المعادلة المشهورة؟  
خربشت أريانا المعادلة على ورقة.

$$E = mc^2$$

- نعم. الطاقة تساوي مضروب الكتلة بمربع سرعة الضوء.

- إن لم تخني ذاكرتي، يتعلق الأمر بالمعادلة التي كانت وراء اختراع القنبلة النووية.

- تماماً. كما تعرف، سرعة الضوء هائلة. مربع سرعة الضوء رقم كبير جداً لدرجة أن جزءاً بسيطاً من الكتلة يمكن أن يحوي كمّاً هائلاً من الطاقة. مثلاً، أنت تزن حوالي ثمانين كيلوغراماً، أليس كذلك؟

- تقريباً.

- هذا يعني أن جسدك يحوي ما يكفي من المادة المشحونة بالطاقة التي يمكن أن تزود بالكهرباء مدينة صغيرة لمدة أسبوع بكامله. الصعوبة الوحيدة تتمثل في تحويل هذه المادة إلى طاقة.

- أليس ذلك مرتبطاً بالقوة العظيمة التي تحافظ على وحدة نواة الذرات؟

أحنت الإيرانية رأسها وقطبت حاجبها.

- في نهاية الأمر، أنت تعرف أشياء كثيرة في مجال الفيزياء

- لا بد أنني قرأتُ هذا في مكان ما.

- حسناً. تذكر فكرة أن الطاقة والكتلة وجهان لعملة واحدة.

وهذا يعني أن أي شيء منهما يمكن أن يتحول إلى الشيء الآخر، أي أنه يمكن أن تتحول الطاقة إلى مادة وأن تتحول المادة إلى طاقة.

- تقصدين أنه يمكن، مثلاً، أن نصنع حجراً انطلاقاً من الطاقة؟

- نظرياً، نعم، هذا ممكن، حتى إن كان تحويل الطاقة إلى كتلة

شيئاً لا نستطيع معاينته بشكل طبيعي. لكنه أمر وارد. مثلاً، إن كان هناك شيء يقترب بسرعة الضوء، فإن الزمن ينكمش والكتلة تتمدد.

في هذه الحالة، طاقة الحركة تتحول إلى كتلة.

- هل تمت معاينة ذلك؟

- نعم. تم ذلك داخل مُسرِّع الجزيئات بالمركز الأوروبي

للأبحاث النووية في سويسرا. أُخضعت الإلكترونات لدرجة عالية من التسريع حتى أن كتلتها تضاعفت أربعين ألف مرة. بل هناك صور

للآثار التي خلفتها الصدمات على البروتونات. وهذا يعطيك فكرة.

- عجباً!

- لذلك، لا يمكن لأي شيء أن يبلغ سرعة الضوء. لو فعل

ذلك، قد تتزايد كتلته بشكل لا محدود، وهو ما قد يتطلب طاقة لا محدودة لتحريك هذا الشيء. وهذا مستحيل. لذلك يُقال إن سرعة

الضوء هي السرعة القصوى للكون. لا شيء يمكن أن يضاهيها،

لأنه، لو استطاع جسم ما أن يضاهاها فإن كتلته قد تتضاعف إلى ما لانهاية.

- ولكن، ممّ يتكون الضوء؟

- من جزيئات تسمى فوتونات.

- وهذه الجزيئات، ألا تزداد كتلتها وهي تتحرك بسرعة الضوء؟

- بالضبط. إن الفوتونات جزيئات لا كتلة لها. توجد في حالة

طاقة خالصة ولا تتأثر بمرور الزمن. بما أنها تتحرك بسرعة الضوء

فإن الكون لازمانيّ بالنسبة لها. من وجهة نظر الفوتونات، الكون

ينشأ، يكبر ويموت في نفس اللحظة.

- مذهل.

شربتُ أريانا جرعةً من عصير البرتقال.

- ما لا تعرفه ربما هو أنه ليس هناك نظرية نسبية واحدة، بل

نظريتان.

- نظريتان؟

- نعم. لقد قدم أينشتاين نظريته الخاصة بالنسبية المحدودة سنة

١٩٠٥، وفيها يشرح مجموعة من الظواهر الفيزيائية، لكنه لا يتحدث

عن الجاذبية. المشكلة أن نظرية النسبية المحدودة كانت تشكك في

الوصف الكلاسيكي للجاذبية. كان نيوتن يعتقد أن تغييراً مفاجئاً في

القوة ينجم عنه تغيير مفاجئ أيضاً في قوة الجاذبية. لكن هذا غير

ممکن لأنه يشترط وجود شيء ما أسرع من سرعة الضوء. لتتصور أن

الشمس تنفجر في هذه اللحظة بالذات. النسبية المحدودة ترى أن

حدثاً كهذا لن يتم الشعور به على كوكب الأرض إلا بعد ثمانين

دقائق، أي الوقت الذي يستغرقه الضوء لقطع المسافة بين الشمس

والأرض. أما نيوتن، فكان يعتقد أن الشعور بأثر الانفجار يكون

على الفور. ففي اللحظة بالذات التي تنفجر فيها الشمس، قد تتأثر

الأرض بذلك فوراً. وهذا مستحيل، لأنه لا شيء يتحرك بسرعة أكبر من سرعة الضوء. لتقديم حل لهذه المسألة ومسائل أخرى، عرض أينشتاين سنة ١٩١٥ نظرية النسبية العامة، التي حلت مشكلة الجاذبية بعد أن أثبتت أن الفضاء منحني. كلما ازدادت كتلة شيء معين، كان الفضاء المحيط به منحنياً، وازدادت قوة الجاذبية التي يمارسها، نتيجة لذلك. مثلاً، تمارس الشمس قوة جاذبية أكبر على شيء ما أكثر مما تفعله الأرض، لأن الشمس تتوفر على كتلة أكبر، هل فهمت؟

- همم . . . لم أفهم جيداً. هل ينحني الفضاء؟ ماذا يعني هذا؟ فتحت أريانا ذراعيها.

- طوماس، لنفترض أن الفضاء هو غطاء سرير مبسوط في الهواء بيننا نحن الاثنيين. تصور أننا نضع كرة قدم في وسطه. ما الذي يحدث؟ ينحني الغطاء حول الكرة، أليس كذلك؟ وإن ألقيتُ بلياً فوق الغطاء، ستجلبه الكرة نحوها. يحدث الشيء نفسه في الكون. الشمس كبيرة جداً لدرجة أنها تجعل الفضاء ينحني نحوها. إن اقترب ببطء جسم خارجي، فإنه يصطدم بالشمس. إن دنا جسم ما بسرعة معينة، مثل الأرض، سيأخذ في الدوران حول الشمس، دون أن يصطدم بها ودون أن يبتعد عنها. وإذا ما تحرك جسم ما بسرعة كبيرة، مثل فوتون ضوئي، فإن مساره ينحني قليلاً عند اقترابه من الشمس لكنه ينجح في الابتعاد ومواصلة طريقه. في الحقيقة، هذا كل ما تقوله نظرية النسبية العامة. كل الأجسام تُحرّف الفضاء من حولها. كلما زادت كتلة جسم ما، حرّف الفضاء من حوله. وبما أن الفضاء والزمن وجهان لعملة واحدة، تماماً مثل الطاقة والمادة، فإن ذلك يعني أن الأجسام تُحرّف الزمن أيضاً. كلما زادت كتلة الجسم، كان الزمن بطيئاً من حوله.

- كل هذا غريب جداً - لاحظ طوماس - . لكن، ما علاقته  
بمخطوط أينشتاين؟

- لا شيء ربما، لست أدري. لكن، من المهم جداً أن تعرف  
أن أينشتاين هو من كتب المخطوط في الوقت الذي كان يحاول فيه  
أن يضع نظرية كل شيء.

- آه، نعم. وهذه نظرية أخرى من نظريات أينشتاين؟  
- نعم.

- ألم تكن نظريتا النسبية كافيتين؟  
- في البداية، ظن أينشتاين أنهما كافيتان، لكنه سرعان ما عثر  
على نظرية الكم. هل تعرف ما هي نظرية الكم؟ - سألته أريانا وهي  
تميل برأسها كما تفعل عادة.

- حسناً... سمعت بها لكني لا أعرف التفاصيل.  
ضحكت أريانا.

- لا تكن خجلاً! - صاحت - حتى بعض العلماء ممن طوّروا  
نظرية الكم لم يفلحوا قط في فهمها بشكل جيد.  
- آه، حسناً، هذا يطمئني.

- المسألة هي كما يلي. فيزياء نيوتن تناسب شرح عالمانا  
اليومي. عند بناء قنطرة أو وضع قمر صناعي في مداره حول  
الأرض، يلجأ المهندسون لفيزياء نيوتن وماكسويل. ولا تظهر  
مشكلات هذه الفيزياء الكلاسيكية إلا عندما نتناول جوانب لا تشكل  
جزءاً من التجربة اليومية، مثل السرعة القصوى أو عالم الجزيئات.  
لمعالجة مسألة الكتل الكبرى والسرعة القصوى، نلجأ إلى نظريتي  
النسبية اللتين وضعهما أينشتاين. ولدراسة عالم الجزيئات، هناك  
نظرية الكم.

- إذن، نظرية النسبية خاصة بالأجسام الكبيرة ونظرية الكم بالأجسام الصغيرة.

- تماماً. لكن ينبغي التشديد على أن عالم الجزيئات له تجليات عيانية، أي أنه يمكن رؤيتها بالعين المجردة، بالطبع.

- طبعاً. لكن، من طور نظرية الكم؟

- ظهرت نظرية الكم سنة ١٩٠٠، أثناء عمل كان ينجزه ماكس بلانك حول الضوء المنبعث من الأجسام الساخنة. بعد ذلك، طورها نيلز بور الذي تصور نموذج نظرية الذرات المعروف، ذلك الذي يتحدث عن الإلكترونات التي تدور حول النواة بنفس الطريقة التي تدور بها الكواكب حول الشمس.

- كل هذا معروف.

- صحيح. لكن، ما ليس معروفاً بشكل جيد هو التصرفات الغريبة للجزيئات. مثلاً، بعض علماء الفيزياء توصلوا إلى نتيجة تقول إن الجزيئات تحت الذرية يمكن أن تنتقل من حالة طاقة «ألف» إلى حالة طاقة «باء»، من دون المرور بمرحلة انتقالية بين الحالتين.

- من دون المرور بمرحلة انتقالية بين الحالتين؟ كيف ذلك؟

- شيء غريب جداً ومثير للجدل. يسمى هذا القفزة الكمية. تماماً كما يحدث عندما نصعد أدراج السلالم. ننتقل من درج إلى آخر من دون المرور بدرج وسط. نقفز من درج إلى درج. هناك من يرى أنه في العالم الكمي، تحدث الأمور بهذه الطريقة على مستوى الطاقة. يتم الانتقال من حالة إلى أخرى من دون المرور بحالة وسطى.

- لكن هذا أمر... غريب.

- غريب جداً. نعرف أن الجزيئات الدقيقة تقوم بقفزات. هناك

إجماع حول هذا الأمر. لكن هناك من يظن أنه في العالم تحت الذري، يتوقف الفضاء عن كونه مستمراً ويصبح عبارة عن حُبيبات. فتحدث قفزات من دون المرور بمرحلة وسطى . . . - اتخذ وجه أريانا تعبيراً آخر - يجب أن أقرّ بأنني لم أومن بهذا قط وأنني لم أجد قط دليلاً أو مؤشراً يشبهه.

- في الحقيقة، هذه الفكرة . . . غريبة.

رفعت أريانا سبابتها.

- هناك ما هو أكثر من هذا. اكتُشف أن المادة تتجلى في الجزيئات والأمواج في الوقت ذاته. تماماً مثل الفضاء والزمن. وكما أن الطاقة والكتلة وجهان لعملة واحدة، فكذلك الأمواج والجزيئات وجهان للمادة. لكن المشكلة طُرحت عندما توجّب تحويل كل هذا إلى ميكانيكا.

- ميكانيكا؟

- نعم، الفيزياء لها ميكانيكا خاصة، تفيد في توقع تصرفات المادة. في حالة الفيزياء الكلاسيكية ونظرية النسبية، تكون الميكانيكا حتمية. مثلاً، إن كنا نعرف موقع القمر، ونعلم في أي اتجاه يسير وبأي سرعة، سنكون قادرين على استنتاج تطوره في الماضي والمستقبل. إن كان القمر يتحرك يساراً بسرعة ألف كيلومتر في الساعة، سيكون بعد ساعة ألف كيلومتر جهة اليسار. هذه هي الميكانيكا. يمكن أن نتوقع تطور الأجسام، ما دمنا نعرف موقعها وسرعة حركتها. شيء بسيط للغاية. لكن، في عالم الكم، اكتُشف أن الأشياء تشتغل بطريقة أخرى. عندما نعرف بدقة موقع جزيئة ما، لا نستطيع قياس سرعتها بالضبط. وعندما نعرف سرعتها بالضبط، لا نستطيع تحديد موقعها بدقة. وهذا ما يسمى مبدأ عدم التأكد، فكرة صاغها فيرنر هايزنبرغ سنة ١٩٢٧. وينص مبدأ عدم التأكد على أنه



يمكن أن نحدد بدقة سرعة أو موقع جزيئة ما، لكن لا يمكن أبداً القيام بالأمرين معاً في الوقت ذاته.

- إذن، كيف يمكن توقُّع تطور جزيئة ما؟

- هذا هو كل المشكلة. لا نعرف. يمكنني أن أعرف موقع القمر وسرعته، ومن ثم أستطيع أن أخمن كل حركاته في الماضي والمستقبل. لكنني لا أتوفر على أي وسيلة كي أحدد بدقة موقع الإلكترون وسرعته في الوقت ذاته، وعليه فإنني لا أستطيع أن أخمن حركاته في الماضي والمستقبل. هذا هو عدم التأكد. لحل هذه المشكلة، لجأت الميكانيكا الكمية إلى حساب الاحتمالات. إذا كان يجب على إلكترون معين أن يختار بين ثُقْبَيْنِ ليمرَّ عبر واحد منهما، هناك نسبة خمسين في المئة من الاحتمال بأن يمر الإلكترون عبر الثقب الكائن على اليسار، ونسبة خمسين في المئة من الاحتمال بأن يمر عبر الثقب الموجود على اليمين.

- تبدو طريقة جيدة لحل المشكلة.

- بالفعل. لكن نيلز بور عقّد المسألة عندما قال إن الإلكترون يمر عبر الثُقْبَيْنِ معاً في الوقت ذاته. يمر عبر الثقب على اليسار وعبر الثقب على اليمين.

- كيف ذلك؟

- كما أقول لك. وهو يختار بين طريقتين، يمر الإلكترون بتزامن عبر الاثنين، عبر ثقب اليسار وعبر ثقب اليمين. بعبارة أخرى، يوجد في مكانين في الوقت ذاته.

- لكن هذا غير ممكن.

- ومع ذلك هذا ما تنص عليه نظرية الكم. مثلاً، لو وضعنا إلكترونات في علبة تنقسم إلى قسمين، فإن الإلكترون سيكون بينهما في الوقت ذاته، على شكل موجة. وعندما نلاحظ العلبة، سوف تتلاشى

الموجة على الفور وتتحول إلى جزيئة داخل أحد القسمين . لكن ، إذا لم نلاحظه فإن الإلكترون سيبقى في كلا القسمين على شكل موجة . وحتى لو كان القسمان مفترقين ووُضعا على بعد آلاف من السنوات الضوئية ، فسيبقى الإلكترون في القسمين معاً في الوقت ذاته . إن الإلكترون لا يقرر في أي قسم سيبقى إلا عندما نلاحظه .

- لا يقرر إلا عندما نلاحظه؟ - سألها طوماس وهو يبدو غير مصدق - أي كلام هذا؟

- تم تحديد دور الملاحظ ، أصلاً ، وفق مبدأ عدم التأكد . لقد توصل هايزنبرغ إلى استنتاج مفاده أنه لا يمكن أبداً أن نعرف بدقة وفي الوقت ذاته موقع جزيئة ما وسرعتها بسبب حضور الملاحظ . ثم تطورت النظرية لدرجة أن البعض رأوا أن الإلكترون لا يقرر المكان الذي يوجد فيه إلا في حضور ملاحظ ما .  
- لكن هذا ليس منطقياً

- وهذا ما يقوله العلماء أيضاً ، بمن فيهم أينشتاين . بما أن الحساب صار يعتمد على الاحتمالات ، قال أينشتاين إن الله لا يلعب النرد ، بتعبير آخر ، إن موقع جزيئة ما لا يمكن أن يتوقف على حضور مُلاحظين ، ولا يتوقف خصوصاً على حساب الاحتمالات . فالجزيئة يمكن أن تكون إما في مكان أو في آخر ، لكنها لا يمكن أن تكون فيهما معاً في الوقت ذاته . وبلغ عدم التصديق مدى كبيراً إلى درجة أن عالم فيزياء يدعى شرودينغير ، تصور وضعية مفارقة ليفضح هذا العبث . تخيّل وضع قفّ داخل علبة مع قارورة سيانيد مغلقة . حسب فرضية نظرية الكم ، كانت هناك نسبة خمسين في المئة من الاحتمالات كي تكسر المطرقة القارورة أو لا تكسرها . حسب هذه النظرية ، كانت كلتا الحالتين ممكنتين بنفس الدرجة ، ويمكن أن تحدثا في الوقت نفسه داخل العلبة المغلقة دائماً ، بحيث يكون القط

حياً وميتاً بشكل متزامن، تماماً كما يكون إلكترون ما متواجداً بشكل متزامن في قسمين من العلبة ما دام أنه ليس تحت الملاحظة. وهذا عبث، أليس كذلك؟

- طبعاً. هذا ليس منطقياً. كيف يمكن الدفاع عن نظرية كهذه؟  
- وهذا، بالضبط، ما كان يظنه أينشتاين. المشكلة أن هذه النظرية، مهما بدت غريبة، تنسجم مع كل المعطيات التجريبية. يعرف كل عالم تمام المعرفة أن الرياضيات حين تدخل في تناقض مع الحدس دائماً ما تكسب المعركة. هذا ما حدث، مثلاً، حين قال كوبرنيكوس إن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس. كان الحدس يدفع إلى الظن أن الأرض هي المركز، لأن كل شيء كان يبدو أنه يدور حولها. وأمام تشكك الجميع، لم يجد كوبرنيكوس من مناصرين له سوى في أوساط علماء الرياضيات الذين، بواسطة معادلاتهم، لاحظوا أن الفرضية الوحيدة التي تنسجم مع الرياضيات هي أن الأرض تدور حول الشمس. نعرف اليوم أن الرياضيات كانت على حق. تماماً كما كانت على حق نظريات النسبية. ففي كل واحدة من نظريات النسبية هناك عدة عناصر تُناقض الحدس، مثل فكرة الزمن الذي يتمدد وأشياء غريبة أخرى من هذا القبيل، لكن العلماء يقبلون بهذه المفاهيم لأنها تنسجم مع الرياضيات وملاحظة الواقع. وهذا هو ما لدينا هنا. يبدو من غير المنطقي القول إن إلكترونات ما يوجد في مكانين مختلفين في الوقت ذاته ما دام لا يلاحظه أحد، لأن هذا الأمر يتنافى مع الحدس. لكن هذا ينسجم مع الرياضيات ومع كل التجارب التي أجريت.

- آه، حقاً؟

- لكن أينشتاين رفض هذه الفكرة، لسبب بسيط. ذلك أن نظرية الكم لم تكن تنسجم مع نظرية النسبية. بعبارة أخرى، كانت الأولى

صالحة لفهم عالم الأجسام الكبيرة والثانية لشرح عالم الذرات. لكن أينشتاين كان يعتقد أن الكون لا يمكن أن تتحكم فيه قوانين مختلفة، بعضها حتمية بالنسبة للأجسام الكبيرة والأخرى احتمالية بالنسبة للأجسام الدقيقة. في نظره، يجب ألا يكون هناك سوى مجموعة واحدة من القوانين. لذا أخذ يبحث عن نظرية تجمع في قوة واحدة كل تجليات القوى الطبيعية الأساسية. فلخصت نظرياته النسبية في وصفاً واحدة كل القوانين التي تتحكم في الفضاء، والزمن، والجاذبية. بواسطة نظريته الجديدة، كان يسعى إلى أن يجمع في معادلة واحدة كل ظواهر الجاذبية والظواهر الكهرومغناطيسية. كان يعتقد أن القوة التي تجعل إلكترونات ما يدور حول النواة هي نفس نوع القوة التي تحرك الأرض حول الشمس.

- نظرية جديدة، أليس كذلك؟

- نعم. أطلق عليها اسم «نظرية الحقل الموحد». وكانت هي صيغته الخاصة لنظرية كل شيء.

- آه.

- هذا ما كان أينشتاين بصدده تطويره عندما كتب هذا المخطوط.

- هل تظنين أن مخطوط المعادلة الإلهية له ارتباط بهذا البحث.

- لست أدري - قالت أريانا - ربما نعم، ربما لا.

- لكن، لو كان الأمر كذلك، فما سبب السرية والتكتم؟

- اسمع، لا أدري إن كان الأمر كذلك. قرأت المخطوط، فوجدته غريباً، أتعرف ذلك؟ في الحقيقة، أينشتاين نفسه هو من قرر أن يحتفظ به سراً. إن كان قد فعل، فلا بد أن ذلك كان لأسباب وجيهة، ألا تظن ذلك؟

حديق طوماس في الإيرانية، متنبهاً إلى ما سيخلفه عليها من وقع ذلك السؤال الذي كان يستعد لطره .

- إن لم يكن لمخطوط المعادلة الإلهية أي علاقة بنظرية كل شيء، فبأي شيء يرتبط؟ - سأله وهو يتخذ مظهراً استقصائياً - هل يرتبط بالأسلحة النووية؟  
حدجته أريانا بنظرة .

- سأظاهر بأني لم أسمع سؤالك - قالت وهي تنطق كل مقطع بتناقل وحدة رهيبية - ولا تتحدث ثانية عن هذا الأمر، هل فهمت؟ سلامتك تتوقف على ذكائك .

ارتجف المؤرخ .

- سلامتي؟

- من فضلك، طوماس - قالت - لا تتحدث عن هذا الأمر ثانية . لا تنطق بهذه الكلمات أمام أي أحد . قم بعملك فقط، هل فهمت؟ لا شيء غير عملك .

لزم طوماس الصمت لحظة، شاردأ وخائفاً . أدار رأسه فلمح مجموعة من الباكستانيين يدخلون إلى مطعم الفندق . كان ذلك ذريعة مثالية لوضع حد لهذا الحديث الخطير .  
- ألا تشعرين بالجوع؟ - سأله .

# 13

أكلا شيلو كباب، ربما هو العاشر الذي تناوله طوماس منذ وصوله إلى إيران. كان قد مل هذا النظام الغذائي، وكان بطريقة ما مرتاحاً لمعرفة أنهم سيخرجونه خلسة من البلد هذه الليلة. طبعاً، كانت مشكلة اقتحام الوزارة ما تزال قائمة، لكن، ما دام لا يتوقف عليه أي شيء، فقد رمى بهذا الهم في ركن من ذهنه، مواسياً نفسه بفكرة أن رجال وكالة المخابرات الأمريكية كانوا يعرفون ما يفعلون بكل تأكيد.

أدرك أنه ربما يكون ذلك آخر غداء له مع أريانا فتأملها بحزن. كانت فعلاً امرأة جميلة ومثيرة، بعينيها العسليتين اللتين تشعان حناناً وذكاء. كادت تتنابه رغبة في أن يحكي لها كل شيء، ويطلب منها أن ترافقه في فراره، لكنه أدرك أن ذلك لا يعدو أن يكون وهماً، لأنهما كانا يختلفان اختلافاً كبيراً، ويؤديان مهمتين متضاربتين.

- هل تظن أنك تستطيع فك شفرة الرسالة؟ - سألته لتتخاشى نظرتة الغريبة المتفحصة.

- أنا بحاجة إلى مفتاح السنن - قال طوماس وهو يرفع شوكتة الممتلئة بالرّز. صراحة، من دون هذا المفتاح، نحن أمام مهمة مستحيلة.

- لو كان الأمر يتعلق بشفرة، فهل يكون ذلك سهلاً؟

- نعم، بالطبع. لكنها ليست شفرة.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- تماماً - ثم بسط الورقة فوق ركن من الطاولة - انظري، هذه القصيدة تحتوي كلمات وجمالاً. والشفرة، كما نعرف، لا تتعلق سوى بالحروف. لو كان الأمر يتعلق بشفرة، لكننا سنجد تشكيلات عبثية، من قبيل «hwxy» أو شيء من هذا القبيل، شيئاً ما مثل اللغز الثاني - وأشار إلى الكلمات المخربشة على الورق - هل ترين الفرق؟

Terra if fin  
De terrors tight  
Sabbath fore  
Christ nite

See sign  
! ya ovqo

- نعم، هذا *ya!* و *ovqo* هما شفرتان بكل تأكيد - لاحظت الإيرانية - ثم نظرت من جديد إلى القصيدة - لكن، ألا توجد شفرات يمكن أن تشبه الكلمات؟

- طبعاً، لا - قال، ثم تردّد لحظة - إلا إذا... تعلق الأمر بشفرات مكونة بطريقة النقل أي بتغيير مواقع الحروف.  
- وما هو ذلك؟

- هناك ثلاثة أنواع من الشفرات. هناك شفرات بالإخفاء، حيث تكون الرسالة السرية مخبأة وراء نظام بسيط. أقدم مثال معروف على هذا النوع هو تلك الرسالة التي تكتب على رأس حليق لأحد العبيد.

كانوا ينتظرون أن ينمو شعر العبد من جديد ثم يعثونه لتسليم الرسالة .  
كان نص الرسالة مكتوباً على فروة الرأس ، يغطيها الشعر .  
- فكرة ذكية .

- بعد ذلك ، ظهر التشفير الإبدالي حيث يتم تعويض الحروف  
بحروف أخرى ، وفق مفتاح محدد سلفاً . هذا النوع من الشفرة ،  
الذي يستعمل عادة في أنظمة التشفير الحديثة ، هو الذي يخلق  
متواليات من قبيل *ya* و *ovqo* .

- هل هي الأكثر شيوعاً؟

- نعم ، حتى اليوم . لكن ، هناك الشفرة عن طريق تغيير  
المواضع ، حيث يتم تغيير حروف رسالة سرية من مواقعها الأصلية  
ويُعاد توزيعها وفق معيار مختلف .

- لا أفهم . . .

- حسناً ، إن شفرة عن طريق تغيير المواضع يمكن أن تكون  
جناساً تصحيفياً ، مثلاً . هل تعرفين ما هو الجناس التصحيفي؟  
- لقد سبق لي أن سمعت بذلك ، لكنني أقر بأنه . . .

- الجناس التصحيفي كلمة جديدة نحصل عليها بواسطة تغيير  
مواقع الحروف . مثلاً ، كلمة *Elvis* هي جناس تصحيفي لكلمة  
*Lives* . إن لاحظت جيداً فستجدين أن الكلمتين كتبنا بنفس  
الحروف . وهذا ما نجده في هذا المثال كذلك ، *elegant man* هي  
جناس تصحيفي لكلمة *gentleman* .

- آه ، لقد فهمتُ .

- إذن ، كل هذا كي أشرح لك أن النوع الوحيد من الشفرات  
الذي يمكن أن يخلق كلمات جديدة هو الشفرة بتغيير المواضع .  
نظرت أريانا إلى القصيدة .

- وتظن أن هذه الأبيات يمكن أن تخفي شفرة من هذا النوع؟



نظر المؤرخ بإمعان إلى النص، وهو يلوي فمه وشفثيه مفكراً.  
- جناس تصحيفي، إذن؟ - فكر في الفرضية - همم ...  
ربما. ولم لا؟

- كيف بإمكاننا أن نجرب هذا الاحتمال؟  
- هناك طريقة واحدة - قال طوماس وهو يتناول القلم -  
لنحاول أن نكتب كلمات مختلفة انطلاقاً من حروف هذه الكلمات  
التي أمامنا. لقد جربنا الأمر مع كلمات برتغالية ولم يسفر ذلك عن  
أي شيء. ربما ينفع ذلك مع كلمات إنجليزية. لنرَ - وانحنى على  
الورقة - لنأخذ البيت الأول من القصيدة.

### Terra if fin

- ما هي الكلمات الأخرى التي يمكننا أن نكتبها انطلاقاً من  
هذه الحروف؟ - قالت أريانا.  
- سنرى ذلك - قال طوماس - لنجمع حرفي t و a. لنجمع  
حرفي f معاً. ما الذي نحصل عليه؟

- Taff؟

- هذا يساوي لا شيء. ماذا لو وضعنا حرف i في النهاية؟

- Taffi؟

لنحاول بوضع حرف i قبل حرفي f.

- Taiff؟ إنه اسم مدينة ما في العربية السعودية. لكن، حسب

ما أعرف هذا الاسم يكتب بحرف f واحد.

- أرايت؟ لقد حصلنا على شيء ما. وماذا لو وضعنا حرف r

بين a و i، نجد أنفسنا أمام tariff. كلمة أخرى! بقي أن نعرف ما

الذي يمكن أن نفعل بالحروف الأخرى. لنرى، بقي لدينا حرف e،

وحرف r، وحرف n.

- Erin؟

- همم ... erin؟ أو nire، أو rine . . . ولم لا rien؟ هذا إذن . ثم خربش .

## Tariff rien

- tariff rien؟ ماذا يعني هذا؟

هزّ طوماس كتفيه .

- لا شيء إطلاقاً . كانت مجرد محاولة . سوف ندرس خيارات أخرى .

خلال الساعة الموالية، جربا عدة خيارات . بواسطة حروف البيت الأول تمكنا كذلك من كتابة finer rift ، retrain fit و faint frier، لكن لم يكشف أي واحد من هذه الجناسات التصحيفية عن أي شيء يذكر . ولم يستطيعا أن يستخرجا من البيت الثاني De terrors tight إلا جناساً تصحيفياً واحداً retorted rigths، دون أن يحصلا منه، مع ذلك، عن معنى متناسق .

كان شعراً طوماس الكستنائي مشعناً من كثرة التفكير والمحاولات، عندما خطرت له فكرة .

- الإنجليزية لم تنفع - قال - فهل يكون أينشتاين قد كتب رسالته باللغة الألمانية؟

- باللغة الألمانية؟

- نعم . هذا يبدو منطقياً، أليس كذلك؟ إذا كان قد حرر كل المخطوط باللغة الألمانية، فلا شيء يمنعه من إخفاء رسالته بهذه اللغة . ما رأيك؟ رسالة باللغة الألمانية أخفيت داخل قصيدة باللغة الإنجليزية . فكرة ذكية، أليس كذلك؟

- أتظن ذلك؟

- هذا أمر يستحق عناء المحاولة - فرك وجهه - لنرَ . . . ماذا لو أنه وضع عنوان الوثيقة في الرسالة؟  
- أي عنوان؟ المعادلة الإلهية؟

- نعم، باللغة الألمانية، *Die Gottesformel*. هل ثمة بيت من أبيات هذه القصيدة يحوي حرف g واحداً، حرف o واحداً وحرفين اثنين من حرف t؟

- *Gott*؟

- نعم، كلمة «إله» باللغة الألمانية.  
فحصت أريانا كل سطر من أسطر القصيدة.  
- البيت الثاني! - صاحت - سوف أسطر على الحروف.

### De terrors tight

- بالفعل . *Togt*. بتغيير مواقع الحروف نحصل على *Gott*.  
- تنقص كلمة *formel*.

فحص المؤرخ ما بقي من الحروف.  
- فعلاً، إنها غير موجودة.  
تردّدت أريانا.

- لكن . . . هذا غريب - لاحظت - هناك *Gott*، «إله» وهناك أيضاً *Herr*. هل رأيت؟ وبجمعهما نحصل على *Herrgott*.

- *Herrgott*؟ وماذا تعني؟  
- الرّب. أحد أسماء الإله.

- آه! - صاح المؤرخ - *Herrgott*. ومع بقية الحروف الأخرى، هل يمكن أن نقول شيئاً ما باللغة الألمانية؟

أخذت الإيرانية القلم وكتبت ما بقي من الحروف .

## *De terrors tight Hergott dersit*

- هممم - همهمت قائلة - *Herrgott dersit* .

- وهل يعني هذا شيئاً؟

- *Dersit* ؟ لا . لكن، يمكن أن نفرق هذه الكلمة . هكذا،

نحصل على *Der sit* . و *sit* يمكن أن تعطينا . . . *ist* . وهنا، فعلاً،  
تعني شيئاً .

- كيف هي *Herrgott der sit* ؟

- لا . عكس ذلك .

ثم كتبت أريانا السطر مرة أخرى .

## *Ist der Herrgot*

- *Ist der Herrgott* -

- وماذا يعني هذا؟

- «إنه الرب» .

استأنف المؤرخ فحص القصيدة، وشرارة اندهاش تلمع في  
عينيه . لقد فتح أول ثغرة في سور اللغز .

- عجباً! - صاح - إن الأمر يتعلق فعلاً بجناس تصحيفي - نظر

إلى الإيرانية - هل تظنين أنك قادرة على استخراج كلمات ألمانية  
أخرى من السطور المتبقية؟

أمسكت أريانا الورقة وفحصت الأبيات الثلاثة المتبقية .

- لست أدري . لم يسبق لي أن قمت بهذا من قبل .

- ما هي الكلمات الألمانية الأكثر تداولاً؟

- عفواً؟

- ما هي الكلمات الألمانية الأكثر تداولاً؟

- لست أدري . . . *und*، مثلاً، أو *ist*.

- لدينا كلمة *ist* واحدة. فهل يمكن أن تكون هناك كلمة *und*؟

مسحت الإيرانية بعينها كل كلمات القصيدة.

- لا يمكن أن تكون هناك أي كلمة *und* لأن القصيدة لا تضم

أي حرف «u».

- اللعنة! - صاح طوماس محبطاً بعض الشيء - *ist*؟ هل

تكون هناك كلمة *ist* أخرى؟

أشارت أريانا إلى البيت الرابع والأخير من القصيدة.

- نعم، هنا! - صاحت.

ثم أخذت قلماً ووضعت سطرًا تحت الحروف الثلاثة.

## Christ nite

- هذا رائع - قال طوماس - لنر الآن الحرفين الأولين من كل

كلمة. *Chni*. هل تعني شيئاً؟

- لا. - قالت - لكن، انتظر، لو قلبنا مقاطع الكلمة، نحصل

على *nich*. المشكلة أنه يلزمنا حرف *t* آخر، لأننا استعملنا واحداً في

كلمة *ist*.

- لدينا هنا حرف *t* آخر.

- تماماً. وهو ما يعطينا كلمة *nicht*.

- رائع! - صاح المؤرخ - لدينا إذن *ist* و *nicht* في هذا

البيت. ماذا بقي؟

- بقي حرف r وحرف e .

- Re ؟

- لا . انتظر - صاحت أريانا متحمسة . Er . هذا يعطينا er .

- Er ؟ وماذا تعني ؟

- Ist er nicht . رأيت .

- إنني أرى . إنني أرى . لكن ، ماذا تعني هذ العبارة ؟

- تعني «إنه ليس» .

أخذ طوماس ورقة نسخ وسجل الجملتين تحت البيتين الثاني

والرابع .

Terra if fin

De terrors tight

Jst der Hergott

Sabbath fore

Christ nite

Jst er nicht

- وماذا عن البقية، الآن؟ - سألها - سنرى البيتين الأول

والثالث .

تبين أن البيتين المتبقيين كانا يصعب فكّ شفرتهما . جربا عدة

تركيبات . اضطرت أريانا لطلب قاموس لغة ألمانية من مكتب

الاستقبال في الفندق، حتى تجرب احتمالات أخرى، دائماً بتوجيه

من طوماس . غادرا المطعم والتحقا بالحانة، يقترح كل واحد منهما

كلمات، يقلب المقاطع، يحرك مواقع الحروف، ويجرب معاني

بعد ساعتين من العمل المضني ، كشفت الشفرة عن سرها .  
بدأت نهاية المقاومة باكتشاف كلمة *aber* ، في البيت الثالث ، مما  
سمح لهما بالتوصل إلى صيغة نهائية . بابتسامة نصر ، كتبت الإيرانية  
على ورقة مسودة السطور الأربعة المخفية داخل القصيدة المشفرة .

*Raffiniert  
Ist der Herrgott,  
Aber boshaft  
Ist er nicht.*

- ما هذا؟ - سألتها طوماس الذي كانت اللغة الألمانية تحوي  
الغازا كثيرة بالنسبة إليه .

*. Raffiniert ist der Herrgott, aber boshaft ist er nicht -*

- نعم . لقد فهمت ذلك - قال بقلق - لكن ، ماذا يعني هذا؟

اتكأت أريانا على الأريكة ، متعبة ومنتعشة في الوقت ذاته ،  
أنهكها المجهود وحمسها الاكتشاف ، مستسلمة لنشوة مَنْ تسلق جبلاً  
وبلغ القمة ثم وقف هناك في الأعلى يتأمل العالم بفرح عارم . مرت  
لسانها على شفيتها الشهيتين تكاد تبتم ، مستلذة بالجملة العجيبة  
لأينشتاين التي تنطوي عليها تلك القصيدية الملغزة .

- «الرَّبُّ ماكرٌ» - قالت وهي تترجم في همس من الاندهاش -  
«لكنه ليس شريراً» .

# 14

في صمت الليل، كانت سيارة سوداء تسير ببطء عبر الشوارع المقفرة للمدينة، المستسملة لريح باردة تنزل من الجبال. كانت المصابيح تلقي على الأرصفة ضوءاً شاحباً، شبحياً، بينما بريق النجوم المتناثر في السماء الصافية يلف كتلة جبال ألبرز بصفاء خافت. كان ضوءاً هادئاً وخافتاً، لكنه يكفي ليسمح برؤية بقعة عاجية بيضاء تغطي الجبال البعيدة بحجاب حريري أبيض.

منتصف الليل في طهران.

جلس طوماس في المقعد الخلفي للسيارة، عقد أزرار معطفه ليحتمي من البرد وظل يتأمل المحلات، والعمارات، والمنازل والمساجد التي كانت تمر خلف زجاج النافذة، عيناه مشدودتان إلى الواجهات والأرصفة المقفرة، ذهنه شارد يفكر في أحداث مغامرة مجنونة رُجَّ به فيها من دون إذنه. منكمشاً في ركنه، لم يكن يرى كيف يمكن أن يوقف مجرى الأحداث، ف شعر أنه عاجز تماماً، كأنه غريق في دوامة مياه بحر هائج، يجرفه تيارٌ لا يعرف كيف يواجهه.

لا بُدَّ أنني قد جننتُ.

كانت هذه الفكرة تعود من دون توقف، هاجساً يكاد يكون مرضياً، بينما السيارة تتوغل في أحياء العاصمة، تتقدم حتماً نحو



وجهتها، تقترب أكثر فأكثر من اللحظة المرعبة التي لن يستطيع بعدها أن يتراجع إلى الوراء. نقطة اللاعودة.  
لا بُدّ أنني قد جننتُ جنوناً كاملاً.

كان باباكُ يجلسُ صامتاً خلف المقود، يفحص بنظراته الأركان المعتمة في الأزقة والانعكاس اللامع في المرآة العاكسة، يراقب أدنى حركة مشبوهة قد تجبرهم على إلغاء العملية. كان حجم باغيري الممتلئ يرتسم قرب طوماس، عيناه تحدقان في تصميم بناية وزارة العلوم، يدرس للمرة الألف ما دونه من ملاحظات في الأيام الأخيرة، يراجع آخر التفاصيل. كان عميل وكالة المخابرات الأمريكية يرتدي ملابس سوداء وقدم لطوماس في الفندق عمامة إيرانية ذات لون رمادي قاتم، طلب منه أن يضعها حتى لا يجلب إليه الانتباه. كما نصحه بأن يرتدي أكثر الملابس قتامة مما توفر لديه، بحجة أن مجنوناً فقط قد يذهب لارتكاب سرقة وهو يرتدي ملابس ذات ألوان فاتحة. بيد أن طوماس كان يشعر بأنه قد جنّ فعلاً، لأنه لا جُنون يفوق جنون من يُقبَلُ، من دون تجربة ولا تدريب، أن يقتحم بناية حكومية رفيعة شخصين مجهولين، في بلاد تطبّق عقوبات صارمة، من أجل اختلاس وثيقة سرية تنطوي على تداعيات عسكرية خطيرة.

- هل أنت متوتر؟ - سأله باغيري كي يكسر الصمت.

حرك طوماس رأسه.

- أمر عادي - قال الإيراني مبتسماً - لكن، كن مطمئناً، سيمر كل شيء على أحسن ما يرام.

- كيف يمكنك أن تكون واثقاً تماماً من هذا الأمر؟

أخرج باغيري من محفظته ورقة خضراء من فئة مئة دولار وعرضها أمام المؤرخ.

- هذه القطعة من الورق لها سلطة كبيرة.

انعطفت السيارة يساراً، وبعد منعرجين، بدأت تخفف السرعة. راقب باباك مرة أخرى المرآة العاكسة، انحرف نحو الرصيف وركن السيارة بين شاحنتين. سكت المحرك وانطفأت الأضواء.

- وصلنا؟

- نعم.

نظر طوماس من حوله، محاولاً التعرف على المكان.

- لكن، هذا ليس هو مكان الوزارة.

- بلى، إنه هنا - قال باغيري وهو يشير إلى زاوية الشارع الموالي - علينا أن نذهب إلى هناك مشياً، حتى الشارع القادم على اليمين.

ترجلوا من السيارة فشعروا بنسيم بارد يخترق ملابسهم. عدّل طوماس معطفه، وضع العمامة الرمادية، ومشى الرجال الثلاثة على طول الرصيف حتى ملتقى الطرق. حين وصلوا إلى هناك، تعرف المؤرخ، في الأخير، على الشارع والبنية المقابلة، التي كانت، بالفعل، هي مقر وزارة العلوم. أشار باغيري لطوماس أن ينتظر رففته، بينما ابتعد باباك وهو يعبر في هدوء الشارع ليتوجه نحو الوزارة. انغمس السائق في العتمة، قرب مخفر الحراسة، وظل غير مرئي لبضع دقائق. في الأخير، خرج مرة أخرى من العتمة بقامته النحيفة الهيفاء وأشار بحركة للآخرين كي يلتحقا به.

- هيا بنا - أمر باغيري بصوت خفيض، وبالخصوص، لا تتكلم، أفهمت؟ يجب ألا يلاحظوا أنك أجنبي.

عبروا الشارع واقتربوا من قضبان بوابة المدخل. كان طوماس يشعر برجليه واهنتين وانقباض في معدته، قلبه يخفق بسرعة عالية، يدها ترتعشان وعرق بارد يتصبب من جبينه، لكنه ردد في نفسه إن

الرجلين اللذين يرافقانه محترفان، ويعرفان ما يقومان به، وتشبث بهذه الفكرة التي كانت تمنحه شيئاً من العزاء.

ظلت البوابة مغلقة، لكن باغيري ذهب عبر باب جانبي، قريب جداً من مخفر الحراسة، ودخل إلى محيط الوزارة. هذا المؤرخ حذوه. ظل باباك ينتظرهما قرب جندي إيراني، كان هو الحارس من دون شك، قدم لباغيري تحية عسكرية. رد عليه عميل وكالة المخابرات الأمريكية التحية، تبادل بصوت خفيض بعض الكلمات مع باباك ثم خرج السائق من جديد إلى الشارع.

بقي طوماس وباغيري رفقة الجندي الذي قادهما نحو باب خفي، ربما كان مدخل مصلحة من المصالح. فتح الجندي الباب، ثم أدى تحية أخرى، ترك الغريبين يدخلان إلى البناية وأغلق الباب ثانية. لاحظتها بالضبط، أدرك طوماس أنه اجتاز للتو الحدود المرعبة التي لا تُرى.

نقطة اللاعودة.

- والآن؟ - همس بصوت مرتعش تردّد صداه وسط الظلام.  
- الآن سوف نصعد إلى الطابق الثالث - قال باغيري - ألا يحتفظون بالمخطوط هناك؟

- نعم. هذا ما رأيته، على الأقل.

- إذن، هيا بنا.

أضاء الإيراني مصباحاً يدوياً، لكن المؤرخ تردّد.

- والسائق؟

- بقي باباك في الشارع ليقوم بالمراقبة.

- آه، نعم؟ وماذا سيقع لو ظهر أحدهم؟

- إذا كانت هناك حركة مشبوهة، فسيضغط على زر جهاز

إرسال. أحملُ معي جهاز استقبال سيصدر اهتزازاً على الفور - ووجهَ ضوء المصباح اليدوي نحو وركه وأشار إلى جهاز معدني دسه تحت حزامه - هل رأيت؟

- آه. هل هو جهاز إنذار؟

- نعم.

- وماذا لو أطلقه هو؟

ضحك باغيري.

- سنكون مضطرين لنهرب، بطبيعة الحال.

استكشف الرجلان الأماكن بتناقل حذر. باغيري دائماً بمصباحه اليدوي مُوجّهاً أمامه ومنه تنبعث دائرة ضوء تخترق ظلام البناية وتُلقي على الجدران وعلى الأرضية المصقولة ظللاً مخيفة. دخلا عبر ممر ووصلا إلى بهو مركزي تعلوه سلالم كبيرة. كانت بجانبها مصاعد، بيد أن باغيري فضل أن يصعد الأدراج، لأنه لم يكن يرغب في إثارة ضجيج أو إشعال أضواء لا يستطيع التحكم فيها.

وصلا إلى الطابق الثالث فأشار الإيراني إلى الممر على اليمين.

- هل من هنا؟ - سأل.

- نعم.

أشار باغيري إلى طوماس أن يسبقه فاستجاب المؤرخ لأمره. وتحت جناح الظلام كانت الأشياء مختلفة عما هي عليه في ضوء النهار، لكن، رغم غرابة الظروف، تمكن البرتغالي من التعرف على المكان. على اليسار، كانت هناك قاعة الاجتماعات، حيث أروهُ المخطوط. فُتح الباب وتأكد من ذلك، إذ لمح الطاولة الطويلة، والكراسي، وأصص النباتات والجدران التي تغطيها الخزانات، ساكنة، صامتة تشغل هذه القاعة الهادئة والمظلمة. نظر يميناً فرأى

الغرفة التي خرجت منها أريانا تحمل بين يديها العلبة القديمة التي تحوي الوثيقة.

- هناك - قال وهو يشير بإصبعه إلى باب تلك الغرفة.

اقترب باغيري من الغرفة وراح ينقر بأصابعه فوقها.

- هنا؟

- نعم.

أدار الإيراني المقبض، لكن الباب لم يفتح. وكما كان متوقفاً، كان الباب مغلقاً بالمزلاج. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن الباب من الخشب، مثل باقي الأبواب، بل معدنياً، مما يدل على توفره على نظام أمان خاص.

- والآن؟ - سأله طوماس.

- لم يجبه باغيري على الفور، بل انحنى وفحص القفل عن قرب، تحت ضوء مصباحه اليدوي. ثم قعد القرفصاء وفتح الكيس الأسود الذي يحتفظ فيه بالأدوات.

- ليس هناك أي مشكلة - اكتفى بالقول.

أخذ آلة معدنية وحادة أدخلها ببطء في القفل. ثم وضع في أذنيه ما يشبه سماعة كانت خيوطها ترتبط بجهاز استقبال فائق الحساسية. ألصق الجهاز على القفل وراح يُنصت لقطقات صدرها الجهاز الحاد، لسأته يتدلى عند طرفي شفثيه وعيناه نصف مغمضتين في تعبير عن تركيز كبير. استمرت العملية لدقائق طويلة لا تنتهي. بعد لحظة، أخرج باغيري الجهاز من القفل وبحث عن جهاز آخر في الكيس. أخرج ما يشبه خيطاً معدنياً جد مرناً، أدخله في ثقب القفل، ثم أعاد العملية السابقة.

- ماذا، إذن؟ - همس طوماس، مستعجلاً مغادرة المكان. ألا

تستطيع ذلك؟

- لحظة .

ألصق الإيراني مرة أخرى جهاز الاستقبال على القفل، وهو يتابع بانتباه كبير مسار الخيط المعدني. سُمعت طقطقات أخرى، ربما ثلاث طقطقات، وبعدها طقطقة أخيرة.

انفتح الباب المعدني.

- افتح، يا سمس - قال المؤرخ مازحاً.

رماه باغيري بغمزة.

- وأنا علي بابا.

دخلا إلى الغرفة وسلط الإيراني على جنباتها ضوء مصباحه اليدوي. كانت مكتباً صغيراً، زُيّنت جدرانه وسقفه بأخشاب غريبة. كانت هناك كوة في الحائط الخلفي، فوق نبتة خضراء، وبدخلها خزانة رمادية مغلقة بقفل يحميه نظام أمان ذو تركيبة سرية.

- لا بد أن المخطوط يوجد هنا - لاحظ طوماس - هل تظن

أنك تستطيع فتح الخزانة؟

اقرب باغيري وفحص القفل بعناية.

- ليس هناك أي مشكلة - أجابه.

ومن جديد، وضع السماعة في أذنيه وراح ينصت لقفل الخزانة، لكنه استعمل هذه المرة آلات جد صغيرة ومعقدة، بتكنولوجيا عالية. كانت واحدة منها مجهزة بحاسوب مدمج، والأخرى تتوفر على عداد يظهر على شاشة بلازما تلمع فيها بعض الأرقام.

وضع باغيري بريمة مثقاب كهربائي على تركيبة الخزانة، شغلها وفتح ثقباً دقيقاً؛ أدخل فيه أسلاكاً مرتبطة بالآلة المجهزة بشاشة ثم ربطها بالحاسوب. أدخل حروفاً وأرقاماً في لوحة صغيرة وجرب عدة حلول، وبعد بضعة دقائق انطفأ ضوء أحمر على الشاشة وعوضه ضوء أخضر. فتحركت تركيبة الخزانة كما لو أن الحياة سرت بداخلها،

ينبعث منها صوتٌ مدبّب لمعدن يدور حول نفسه . تلاءُ اصطكاك جاف .

انفتح باب الخزنة .

دون أن ينبس ببنت شفة ، فتح باغيري الباب ووجه مصباحه اليدوي ليضيء داخل الخزنة . نظر طوماس خلسة من فوق كتف الإيراني وتعرّف العلبة بشكلها المهلهل ، البالية بفعل الزمن ، التي كانت موضوعة وسط الخزنة .

- هي هذه - قال .

- هذه العلبة؟

- نعم .

مدّ باغيري يده إلى داخل الخزنة وأخرج منها العلبة . أمسكها كما لو أنها تضم بقايا ربّانية ، كنزاً يمكن أن يتفتت مع أدنى حركة مفاجئة ، ثم وضعها بلطف على الأرض .

- والآن؟ - سأل الإيراني ، متردّداً ، وهو يضع يديه على

الوركين .

- يجب أن نتأكد - قال طوماس وهو ينحني على العلبة .

سحب الغطاء بحذر وأشار إلى باغيري أن يقرب المصباح . غمرت هالة الضوء داخل العلبة لتكشف أوراق المخطوط المصفرة . انحنى طوماس وجال بنظره على العنوان والقصيدة اللذين يظهران على الورقة ذات المربعات في الصفحة الأولى . بدت له الكلمات المتلاشية مألوفة بشكل غريب ، لكنها ، أيضاً ، فريدة وملغزة . هذا ، قال في نفسه بتأثر مكتوم ، هو النص الأصلي ، الصفحات التي رقنها أينشتاين بنفسه ، شهادة ضائعة عن حقبة منسية . مغطاة بطبقة غبار رقيقة ، كانت الأوراق التي نخرتها السنين تفوح برائحة من زمن قديم ، يعطر سري لفترة ولت وانتهت .

## DIE GOTTESFORMEL

Terra if fin  
De terrors tight  
Sabbath fore  
Christ nite

*A. Einstein*

- هو هذا؟ - سأله باغيري.

- نعم، هو هذا.

- هل أنت متأكد؟

- تماماً - أجابه طوماس. هذا هو، بالضبط . . .

ززرززرززرززرززرز

بقيا معاً جامدين، يشدان الأنفاس، بعيون جاحظة، وانتباه حذر. كان أول رد فعلهم هو الدهشة، فحاولا جاهدين أن يفهما ما يجري، ومن أين يأتي الصوت.

ززرززرززرززرززرز

كان الحزام.

كان الأزيز يصدر من حزام باغيري، ويأتي، بالتحديد، من جهاز الاستقبال المعلق بحزامه. نفس الجهاز الذي كان مرتبطاً بالإشارة الصادرة عن جهاز إرسال باباك. الجهاز الذي يجلب لهما أخبار العالم الخارجي. نفس الجهاز الذي لا ينبغي أن يطنّ إلا في حالة خطر كبير جداً.

فتحا عيونهما أكثر فأكثر، لكنهما لم يفعلا ذلك من الدهشة، هذه المرة، بل بسبب شيء آخر أكثر خوفاً وأشدّ روعاً، شيء في منتهى الرعب. هذه المرة، فهما كل شيء.

- إنها إشارة الإنذار.



# 15

كانت أضواء متراقصة مذهلة تملأ فناء الوزارة، كما لو أن الأمر يتعلق بمهرجان مفعم بالحياة. وانضافت الأضواء البرتقالية الساطعة المنبعثة من سيارات الشرطة إلى الهالات البيضاء الصادرة عن مصابيح السيارات والأضواء الكاشفة. كان هناك أشخاص يجرون في كل الاتجاهات، ويصيحون بالأوامر. وصل هؤلاء الرجال على عجل واتخذوا مواقعهم، بعضهم مسلحون بمسدسات، بعضهم ببنادق، والبعض الآخر برشاشات. في نفس اللحظة، اقتربت من الشارع شاحنتان تلتقيان أغطية ذات لون كاكي وترجل منهما جنود يرتدون ملابس للتخفي، خرجوا حتى قبل أن تتوقف الشاحنتان توقفاً تاماً.

جامدين أمام نافذة قاعة الاجتماعات، حيث أسرعاً مهرولين بعد أن سمعا الإنذار الذي أطلقه باباك، كان طوماس وباغيري يراقبان المشهد مندهشين، غير مصدقين في البداية، شبه مُنومين، ثم مرعوبين، لأن أسوأ السيناريوهات كان يجري أمام عيونهما.

لقد تم الكشف عن حضورهما في البناية.

- والآن؟ - تتم طوماس، وهو يشعر بالرعب يكبر في أحشائه.

- علينا أن نهرب - قال باغيري.

من دون هدر مزيد من الوقت، استدار الإيراني الضخم وغادر

القاعة، يجر وراءه المؤرخ. تقدما وسط الظلام دون أن يجرؤا على تشغيل المصباح اليدوي، يتلمّسان الجدران، يتعثران بالأثاث، يصطدمان بالعوائق. كان طوماس يمسك بعلبة المخطوط بين يديه، وباغيري يتوشح بكيس المعدات.

- مُصّ. ناداه البرتغالي - من أين سنهرب؟

- هناك باب خلفي في الطابق السفلي يؤدي إلى الشارع. هيا بنا إلى هناك.

- كيف تعرف ذلك؟

- رأيت ذلك في التصميم.

وصلا إلى السلم الرئيسي وبدأ ينزلان بسرعة، فيما يشبه الجلبة. لم يكن ثمة من وقت يضيعانه، وكان لا بدّ من بلوغ مخرج الطوارئ، والوصول إلى هناك في أقرب وقت، قبل أن يكتمل تطويق البناية. لكن، عند قرص درج الطابق الأول، سمعا ضجيجا فتوقفا. كان الضجيج يأتي من الطابق السفلي.

كانت أصواتاً.

كان الإيرانيون قد اقتحموا البناية وراحوا يفتشونها. أدركا معاً في حينه معنى هذا التطور المفاجئ، فتملكهما رعب لا يوصف. فحضور رجال الشرطة والجنود في الطابق الأول يعني أن طريق الهروب قد قُطع.

قُطع.

لم يكن هناك من مفرّ. كان الحصار يشتد بسرعة أكبر مما يظنان. كان الإيرانيون يقتربون بسرعة أكبر وأصبح من الواضح أنه سيتم القبض على الدخيلين في أي لحظة.

أضواء.

لحظتها، أشعلت كل أضواء البناية فتحول خوفهما إلى رعب

مطلق. ظلّا جامدين عند قرص الدرج، نظرا مضطربين من حولهما، يبحثان عن مخرج، عن باب، عن ثقب، عن أي شيء. سمعا الضجيج والأصوات القادمة من الطابق السفلي. كان الإيرانيون يشددون الحصار وبدأوا يصعدون السلالم بخطى سريعة.

عازماً ألا يتركهم يقضون عليهما، أمسك باغيري طوماس من ذراعه وصعدا معاً إلى الطابق الثاني، الذي أصبح مضاءً بالكامل الآن. توغلا عبر ممر، يحاولان يائسين أن يجدا سلالم الإغاثة، الحل الأخير أمامهما.

- استت!

الصيحة التي أمرتهما بالتوقف دوت في الخلف، هناك في عمق الممر، صادرة عن صوت أجش، حلقي، لكنه واضح بما يكفي ليدركا في تلك اللحظة بالضبط أن الأمر المحتوم قد حدث للتو.

لقد تم تحديد مكان تواجدهما.

- ايببيبيست!

جريا حتى نهاية الممر ثم فتحا باباً معدنياً. كان، بالفعل، هو مخرج الإغاثة، بنية معدنية ذات شكل حلزوني. أمسك باغيري بالدرابزين ونزل بسرعة عبر الأدراج الأولى، يتعقبه طوماس ورجلاه ترتجفان خوفاً، لكنهما توقفا حين سمعا أصواتاً تصعد من الأسفل وصيحات جديدة. كان رجال يصعدون بسرعة عبر نفس السلالم. هذا المخرج قُطع بدوره.

استدارا وصعدا إلى الطابق الثاني، لكن دون أن يعودا إلى نفس الممر، وهما يظنان أنه قد أصبح يشغله الآن أولئك الرجال الذين رأوهُما. فقررا، بدل ذلك، أن يستمرا في الصعود حتى الطابق الثالث. دخلا عبر ممر الغرف حيث كان المخطوط ورأيا حراساً يبرزون من هناك.

- اسْتُ! - صاح الرجال المسلحون وهم يأمرُونهما بالتوقف مرة أخرى.

بلغ باغيري باب قاعة الاجتماعات واندفع إلى داخلها، يتبعه طوماس. لاهثاً من التعب، ألقى المؤرخ العلبة التي تضم المخطوط فوق الطاولة الطويلة وترك نفسه يسقط فوق كرسي، منهكاً من التعب واليأس.

- لا جدوى من هذا - قال بين نفسين من الهواء - سوف يقبضون علينا.

- هذا ما سوف نراه - أجابه باغيري.

فتح الإيراني الضخم كيسه بسرعة وأخرج منه ما كان يبدو في الأول آلة أخرى. لكن، مع الأضواء المشتعلة في كل مكان، تعرّف طوماس مرعوباً، على ذلك الشيء في يده.

مسدس.

- هل جُننتَ؟

نظر باغيري إلى المدخل، وضع ذراعه خارج الباب، سدد نحو نهاية الممر، على اليمين، وأطلق النار.

كْرَاك.

كْرَاك.

انفجرت طلقتان من المسدس.

- تخلصنا من واحد - قال الإيراني بابتسامة احتقار، بعد أن تأكد من نتيجة الطلقتين.

لم يصدق طوماس ما كان يحدث.

- مُصَّ! - صاح - هل جُننتَ؟

شعر باغيري بحركة على يساره فاستدار حول نفسه بسرعة،

مسدداً نحو الطرف الآخر من الممر، صوب سلالم الإغاثة حيث كان يتقدم الإيرانيون الذين يلاحقونهما.

كُراكَ.

كُراكَ.

كُراكَ.

أنيقٌ وصوتٌ سقطه مدوية أكداً لطوماس أن الطلقات الثلاث الجديدة التي سددها رفيقه أسقطت إيرانياً آخر على الأقل.

- اثنان آخران - صاح باغيري بعد أن تأكد من نتيجة الطلقات الأخيرة - ها قد صاروا ثلاثة.

- مُصّ، اسمع - توسل إليه طوماس - إنهم سيتهمونا الآن بالقتل أيضاً. إنك تجعل وضعنا أسوأ مما هو عليه.

حدجُه باغيري بنظرة خاطفة.

- إنك لا تعرف هذا البلد - ردّ عليه بحدة - لا شيء أخطر من السرقة التي ارتكبتها للتو، وقتل الناس لا يساوي شيئاً أمام ذلك.

- لا يهم - رد المؤرخ - قتلُ بعض الرجال لن يساعدنا في أي شيء.

تطلع الإيراني مرة أخرى إلى الممر، ولمّا لاحظ أن ملاحقيهما قد تراجعوا إلى الخلف، التقط كيسه. كان يمسك المسدس بيده اليمنى بينما كان يفتش الكيس بيده اليسرى.

- لن يقبضوا علينا - قال مؤكداً وهو يصرّ بأسنانه.

تجمدت يده داخل الكيس بعد أن وجدت، على ما يبدو، ما كانت تبحث عنه. بعد وقت قصير، خرجت ذراعُه وفي يده شيئان أبيضان. انحنى طوماس ليرى ما كان ذلك.

إبرُ حقن.

- ما هذا؟ - سأله طوماس بنظرة حذرة في عينيه.

- كلوريد البوتاسيوم .

- ماذا؟

- إنه محلول البوتاسيوم .

- ولماذا تريده؟

- كي تحقن به نفسك .

بدا طوماس مندهشاً وحمل يده إلى صدره .

- كي أحقن به نفسي؟ لكن، ولماذا؟

- كي لا يقبضوا علينا حين .

- هل جنت؟

- كل الجنون هو أن يقبضوا علينا ونحن على قيد الحياة .

- إنك قد جنت حقاً .

- سوف يعذبوننا إلى حد الموت - شرح له باغيري - سوف

يعذبوننا إلى أن نعترف لهم بكل شيء، وبعد ذلك سيقتلوننا رغم ذلك . من الأحسن أن نستبق الأمور .

- ربما لن يقتلونا .

- إنني لا أشك في أنهم سوف يقتلوننا، لكن هذا لا يهم - رد

الإيراني وهو يرفع الحقن - إنها أوامر صادرة عن وكالة المخابرات الأمريكية في لانغلي .

- كيف ذلك؟

- أعطوني تعليمات بالأمر لنتركهم يقبضون علينا حين إن كشفوا

أمرنا، لأن عواقب هذا الأمر على الأمن قد لا تعد ولا تحصى .

- هذا لا يعنيني .

- سواء كان يعينك أم لا، هذا لا يهمني . العميل الجيد عليه أن

يقبل بأن يضحي أحياناً من أجل المصلحة العامة .

- أنا لست عميلاً لدى أي أحد. أنا

- إنك الآن عميل لدى وكالة المخابرات الأمريكية - قاطعه باغيري، محاولاً ألا يرفع صوته - شئت ذلك أم أبيت، أنت متورط في مهمة في غاية الأهمية وتملك معلومات إن وقعت بين يدي الإيرانيين يمكن أن تلحق ضرراً كبيراً بالولايات المتحدة وتزيد من تدهور الأمن الدولي. لا يمكن أن نسمح بحدوث ذلك - قال ثم أشار بحركة نحو الممر - يجب ألا يقبضوا علينا ونحن على قيد الحياة.

حدق المؤرخ في الحقن وحرك رأسه.

- لن أحقن نفسي.

أدار باغيري المسدس. وهو يمد دائماً يده نحو الحقن، تقدم نحو طوماس.

- نعم، سوف تحقن نفسك. حالاً.

- كلا. أنا لا أستطيع ذلك.

ثم وجّه الإيراني مسدسه نحو رأس طوماس.

- اسمع جيداً، لدينا خياران - قال ثم رفع الحقن مرة أخرى - الخيار الأول، أن تحقن نفسك بهذه المادة، وأعدك بموت من دون ألم. إن كلوريد البوتاسيوم، عندما يسري في العروق، يسبب توقفاً آنياً لعضلة القلب. إنه الحل الذي يلجأ إليه الأطباء لوضع حد لحياة المرضى في حالة متقدمة، كما تستعمله بعض الولايات الأمريكية لتنفيذ عقوبة الإعدام. كما ترى، لن تعاني كثيراً - رفع الآن مسدسه - الخيار الثاني، أن تتلقى رصاصتين في الرأس. لن تعاني كثيراً كذلك، ولكن الطريقة عنيفة نوعاً ما. وعلاوة على هذا، أفضل أن أحتفظ بالرصاصتين لأصفي هؤلاء الأوغاد الذين يحاصروننا - ثم صمت لحظة - هل فهمت؟

تردّدت نظرات طوماس بين الخيارين . الحقنة أو المسدس .  
المسدس أو الحقنة . الحقنة أو المسدس .

- إنني ... دعني أفكر ...

كان يحاول أن يريح بعض الوقت ، لأنه لم يكن يناسبه أي حلّ  
من الحلّين . ثم إنه لم يكن يعتبرهما حلّين . لم يكن سوى أستاذ  
لمادة التاريخ ، وليس عميلاً لدى وكالة المخابرات الأمريكية . كان  
يحتفظ بالأمل ، بما يشبه اليقين ، بأن الإيرانيين سوف يفهمون هذا  
الأمر البديهي إن هو شرح لهم جيداً .

- إذن؟

- إنني ... لا ... لست أدري ...

مدّ الإيراني ذراعه ، وفوهة المسدس مسددة بحزم نحو عيني  
المؤرخ .

- إذن ، سوف أكون مضطراً لحلّ هذا الأمر .

- لا ، لا ، انتظر - توسل إليه طوماس - أعطني الحقنة .

ألقي باغييري حقنة بالقرب من طوماس واحتفظ لنفسه بحقنة  
أخرى وضعها في جيبه .

- اخقن نفسك - قال - سوف ترى كم هو سهل هذا الأمر .

بأصابع ترتعش ، أخذ طوماس الكيس البلاستيكي الذي يغطي  
الحقنة وسحبه قليلاً ، دون أن يمزقه .

- هذا ... هذا صعب .

- بسرعة .

حاولت اليدان المرتعشتان أن تمزقا مرة أخرى الكيس  
البلاستيكي ، لكن دائماً من دون اقتناع ولا رغبة ، فبقي الكيس  
سليماً .

- إنني لا أستطيع .



قام باغيري بحركة تنم عن نفاذ صبره من يده اليسرى .

- أعطني هذا .

أعاد إليه طوماس الحقنة . نزع باغيري البلاستيك بأسنانه ، أخرج الحقنة من الكيس ، بصق البلاستيك في الأرض ، وضع الإبرة ، رفع المحقن ودفع نفثة صغيرة نحو الهواء .

- ها قد أصبحت جاهزة - قال - هل تريد أن أحقنك؟

- لا ، لا . أنا . . . سوف أفعل ذلك .

رمى باغيري الحقنة مرة أخرى نحو طوماس .

- هيا ، بسرعة .

دائماً بتثاقل كبير ، أخذ طوماس الحقنة بكلتا يديه اللتين كانتا تهتان في تشنج متوتر ، وضعها بالقرب منه ، شمّر كمّ معطفه ليكشف عن ذراعه ، غطاها من جديد ، ثم كرر نفس الحركة على ذراعه الأخرى وحرك رأسه .

- لا أعرف كيف أقوم بهذا - قال .

اقرب منه باغيري .

- سأقوم بذلك .

- لا ، لا . سأفعل ، اتركني .

أمسك الإيراني الضخم الحقنة الملقاة على الأرض .

- أرى أنك لن تقوم بأي شيء - غمغم باغيري - أنا من . . .

جعله صوتٌ مفاجئٌ في الممر يلتفتُ نحو الباب ، والمسدس في مقبضه . ظهر ظلالان عند المدخل ، تلتهما ظلالٌ أخرى ارتمت على باغيري ، الذي كان سلاحه جاهزاً .

مكتبة  
t.me/t\_pdf

كُراكَ .

كُراكَ .

كُراكَ .

كان الإيرانيون يتراكمون بعضهم فوق بعض، وكلهم فوق باغيري، يصيحون، بينما كان طوماس يزحف على الأرض نحو نهاية القاعة، محاولاً الهروب من تلك المعركة المرعبة. ثم اقتحم رجال آخرون القاعة، كلهم مسلحون ببنادق من نوع AK 47، يصيحون بأوامر، ويوجهون أسلحتهم نحو المؤرخ.

بتثاقل، وكثير من التردد، ونظرة اخترقتها مشاعر الرعب والارتياح، رفع طوماس ذراعيه.

- إنني أسلم نفسي.

# 16

كانت العصابة التي وضعوها على عينيه تمنع طوماس من رؤية أي شيء يذكر، باستثناء حاشية من الضوء تحتها. سمع أصواتاً جديدة في فضاء مغلق فأدرك أنهم يقتادونه إلى بناية. سحبته أذرع قوية عبر أبواب، وسلالم، وممرات، يداه دائماً مغلولتان إلى ظهره. في الأخير، وبعد أن تعثر في الظلام، لعبةً بين الأيدي المجهولة، دفعوه نحو غرفة وأرغموه على الجلوس على كرسي خشبي. رجال لا يراهم كانوا يتحدثون بلغة فارسية مضطربة، إلى أن سأله صوت باللغة الإنجليزية.

- *Passeport* ؟

دون أن يتمكن من تحريك يديه، أخفض طوماس رأسه ولمس بذقنه الجهة اليسرى من صدره.

- إنه هنا.

اندست يدٌ في الجيب الداخلي لمعطفه وأخذت الوثيقة. استمر الضجيج من حوله، لكن قطعة معدنية، لم يسمع مثلها منذ مدة طويلة، أخبرته أن أحدهم كان يرقن استمارة بواسطة آلة كاتبة.

- في أي فندق تقيم؟ - سأله نفس الصوت.

ران الصمت في الغرفة، وبدا فجأة أنهم جميعاً يتطلعون بفضول لمعرفة شيء ما عن الرجل الذي ألقى عليه القبض للتو.

اندهش طوماس لهذا السؤال. إن كانوا ما زالوا يسألونه عن اسم الفندق، فلأنهم لم يتحققوا ولم يفهموا بعد ما كان هو وباغيري يقومان به فعلاً في الوزارة. ربما تكون ثمة طريقة لإقناعهم بأن كل هذا لم يكن سوى سوء فهم كبير.

- أنا أقيم في فندق سيمُرخ.

سمعَ طقطقة آلة كاتبة، ربما دونت هذا الجواب.

- وماذا تفعل في إيران؟

- أشتغل على مشروع.

- أي مشروع؟

- مشروع سري.

- أي مشروع سري؟

- مشروع مع الحكومة الإيرانية.

لزم الصوتُ صمتاً، متأملاً الجواب.

- مع الحكومة الإيرانية، أليس كذلك؟ ومع من في الحكومة

الإيرانية؟

- مع وزارة العلوم.

- ما الذي كنت تفعله في القاعة «ك»؟

- كنت أشتغل.

- كنت تشتغل؟ في الساعة الواحدة ليلاً؟ ودخلت إلى القاعة

«ك» من دون ترخيص؟

- كنت بحاجة إلى التأكد من بعض الأمور.

- لماذا لم تفتح الباب بالمفتاح؟ إن كان لديك ترخيص، لماذا

لم تُعطل جهاز الإنذار؟

- وهل كان ثمة جهاز إنذار؟

- طبعاً. إن باب القاعة «ك» محمي بجهاز إنذار مرتبط بقوات

الأمن. كيف علمنا، في نظرك، بأن غرباء قد اقتحموا ذلك المكان؟ لو أنك استعملت مفتاحك الخاص، لتعطل جهاز الإنذار بشكل تلقائي.

- كنت على عجل للتأكد من بعض الأمور. لم يكن لدي المفتاح.

- في هذه الحالة، لماذا أطلقتنا علينا النار؟

- لست أنا من أطلق النار. إنه الآخر. حسبكم لصوصاً.

- حسناً، سوف نرى ذلك.

سُمتعت أوامر باللغة الفارسية. أخذ أحدهم طوماس من فوق الكرسي واقتاده إلى غرفة أخرى. أزالوا العصابة عن عينيه والأصفاة عن يديه فلاحظ المؤرخ أنه كان فيما يشبه شقة صغيرة يملأها ضوء قوي. كانت أمامه آلة تصوير وضعت فوق حامل ثلاثي وفوقها جهاز ضوء كاشف يشتغلان. وراء الآلة رجلٌ أشار إليه أن ينظر إلى العدسة وأخذ له صورة. بعد ذلك، تكررت العملية من الجانبين، من الجانب الأيسر أولاً ثم من الجانب الأيمن بعد ذلك. أعلن المصور عن نهاية الحصة وأخذوا طوماس نحو طاولة وأجبروه على وضع بصمات أصابعه بالمداد في استمارة.

بعد ذلك، أدخلوه غرفة حمام محاذية للشقة الصغيرة.

- اخلع ملابسك - أمره أحد الرجال.

خلع طوماس ملابسه فوجد نفسه عارياً، يرتعش، شعر جلده بارز، يحاول أن يستدفئ وهو يلف نفسه بذراعيه. جمع الإيراني الملابس، وضعها في صندوق صغير وأخذ ما يبدو أنها منامة بالية، بها خطوط، صنعت من ثوب رديء.

- البس هذا - أمره نفس الرجل.

متلهفاً ليحتمي من البرد، استجاب البرتغالي للأمر فوراً. بعد أن

ارتدى لباس السجناء، وتجرّد من شخصيته الخاصة، نظر إلى نفسه، ورغم الشعور بالإهانة واليأس الذي كان يدفع الدموع دفعاً إلى عينيه، لم يمنعه ذلك من التفكير في أنه يشبه واحداً من الإخوة دالتون.

قضى الأربع وعشرين ساعة الأولى في زنزانة قدرة، رطبة، بها مبنولة جماعية واحدة، يزدحم فيها أربعة سجناء آخرين، كلهم إيرانيون. ثلاثة منهم لا يتحدثون سوى الفارسية، أما الرابع، رجل مسن يضع نظارتين مدورتين، وشكله نحيف، فيتقن اللغة الإنجليزية. ترك طوماس يبكي وحيداً في زاويته لمدة ساعة، وبعد ذلك، عندما هدأ المؤرخ، اقترب منه ووضع يده على كتفه.

- المرة الأولى دائماً تكون هي الأصعب - قال بصوت عذب محاولاً مواساته - هل هذه هي مرتك الأولى؟  
مرر طوماس يده على وجهه ووافق بحركة من رأسه.

- نعم.

- آه، هذا فظيع - أكد العجوز - أنا، في المرة الأولى، بكيْتُ لمدة يومين كاملين. كنت أشعر بخجل كبير جداً، أحس كأنني مجرد لص تافه. أنا، أستاذ الأدب في جامعة طهران.

- هل أنت أستاذ جامعي؟

- نعم. اسمي بارسا خاني، وأدرّسُ الأدب الإنجليزي.

- وماذا تفعل هنا؟

- آه، شيء عادي. اتهموني بالتعاون مع جرائد مقربة من التيار الإصلاحية، والحديث بالسوء عن ذلك الأبله خامينئي، ومساندة الرئيس السابق خاتمي.

- وهل هذا جريمة؟

هزّ العجوز كتفيه.

- المتطرفون يعتبرونه كذلك. قال وعدّل نظارتيه - لكن، في المرة الأولى، لم أجد نفسي في هذا المكان، أتعرف؟
- هنا، أين؟
- في هذا السجن. في المرة الأولى، لم يكن ذلك في إفين.
- إرين؟
- إفين - صحّح بارسا - إنه سجن إفين، ألم تكن تعرف ذلك؟
- لا. هل اسم هذه المدينة إفين؟
- ضحك الإيراني.

- لا، لا. هذا هو سجن إفين، شمال طهران. إنه سجن مخيف. بناه الشاه في السبعينيات وكان تحت إشراف الشرطة السرية، سافاك. عندما حدثت الثورة الإسلامية، سنة ١٩٧٩، وُضع السجن رسمياً تحت سلطة المكتب الوطني للسجون. اليوم، تحول كل هذا إلى ما يشبه منظمة الأمم المتحدة الخاصة بمختلف أنواع السلط في إيران. تراقب السلطة القضائية الجناح ٢٤٠ من السجن، ويراقب الحرس الثوري الجناح ٣٢٥، بينما تُسير وزارة الاستعلامات والأمن الجناح ٢٠٩. وعلاوة على ذلك، هناك منافسة بينهم جميعاً، بل إن بعض مسؤولي هذه الأجنحة يستنطقون سجناء أجنحة أخرى فيما بينهم. فوضى كبيرة لا يفهمها أحد.

- وفي أي جناح نحن الآن؟
- نحن في جناح مختلط. ألقى عليّ القبض أولئك الأوغاد من أفراد الحرس الثوري وهم الذين يحتفظون بي هنا. وأنت، من ألقى عليك القبض؟
- لا أعرف.
- لأي سبب أودعوك في السجن؟

- ألقى عليّ القبض داخل وزارة العلوم أثناء الليل . إنه سوء فهم كبير . أتمنى أن يفرجوا عني قريباً .

- داخل وزارة العلوم؟ ألم يكن ذلك تجسساً؟

- طبعاً، لا .

لوى بارسا شفيته .

- هممم، يبدو هذا جريمة عادية - قال - في هذه الحالة، أنت

هنا تحت إشراف السلطة القضائية .

تدثر طوماس بقميصه السجني، بحثاً عن الدفء .

- هل تظن أنهم سيسمحون لي بالاتصال بإحدى سفارات

الاتحاد الأوروبي؟

ضحك العجوز مرة أخرى، لكن من دون مرح .

- نعم، إن كنت محظوظاً! - صاح متعجباً - لكن فقط بعد أن

يعصروك عصراً .

- يعصروني عصراً، كيف ذلك؟

- اسمع، سيد . . .

- طوماس .

- اسمع، سيد طوماس . إنك الآن في سجن إفين، أسوأ مكان

في إيران . هل لديك فكرة عما يقع هنا؟

- . . . لا .

- حتى أعطيك فكرة، يمكن أن أقول إن أول مرور لي بهذا

المكان، هنا في إفين، تم تدشينه بحصة من الصفعات . أدركتُ

بسرعة أن الأمر لا يتعلق سوى بعلاج أولي، لأنه سرعان ما قدموا

لي وجبة من «شيكين كباب» . هل تعرف ما هو شيكين كباب؟

- لا .



- ألم يسبق لك أن أكلت شيكين كباب في مطعم إيراني، سيد طوماس؟
- آه، نعم - اعترف المؤرخ - ذلك النوع من الساندويش. لقد مللت أكله . . .
- هنا أيضاً يقدمون شيكين كباب.
- آه، نعم؟
- نعم. إلا أن شيكين كباب هنا ليس طبقاً من فن المطبخ. إنه الاسم الذي يطلقونه على طريقة من طرق الاستنطاق.
- آه.
- أولاً، يقيدون يدي المرء وقدميه، يربطون المعصمين بالكاحلين، ثم يضعون قضيباً حديدياً سميكاً بين الكتفين والركبتين، حتى أنه يجد نفسه في وضعية شبه جنينية. بعد ذلك، يرفعون القضيب في الهواء، يعلقونه على خطاف فيظل هناك متديلاً، ملتويًا، كأنه دجاجة فوق إسفين. بعد ذلك، ينهالون عليه ضرباً.
- بدا طوماس مرعوباً.
- هل فعلوا معك هذا؟
- نعم، فعلوا ذلك.
- لأنك انتقدت الرئيس؟
- لا، لا. لأنني دافعتُ عنه.
- لأنك دافعت عن الرئيس؟
- نعم. كان خاتمي في تلك الفترة هو الرئيس الذي يريد أن يقوم ببعض الإصلاحات التي تضع حداً لتجاوزات أولئك المتطرفين الدينيين، أولئك المجانين الذي يجعلون حياتنا جحيماً كل يوم ويمجدون الجهل.
- ولا يستطيع الرئيس الآن أن يحررك من السجن؟

حرّك بارسا رأسه .

- لم يعد هو الرئيس . حالياً، هناك واحد من الراديكاليين في الرئاسة . لكن، هذا لا يهم . في الحقيقة، عندما كان رئيساً، لم يكن خاتمي يمارس أي سلطة على أولئك الأوغاد . أعرف أن هذا يبدو ضرباً من الجنون، لكن كل الأمور تشتغل هكذا في هذه البلاد . ليس كما كان الأمر في العراق حيث صدام حسين هو من يحكم، والجميع ينكمشون سماعاً وطاعة . الأمر هنا مختلف . مثلاً، سنة ٢٠٠٣، أمر الرئيس خاتمي بتفتيش هذا السجن . جاء رجاله المقربون إلى هنا وأرادوا زيارة الجناح ٢٠٩ . هل تعرف ما حدث؟

- لا .

- منعهم رجال وزارة الاستعلامات والأمن من الدخول .

- منعوهم من الدخول؟

- نعم .

- وماذا فعل رجال الرئيس؟

- حسناً . عادوا يجرون أذبالهم بين سيقانهم، بطبيعة الحال -

قام بحركة تنم عن الاستسلام - حتى تعرف من يحكم في هذه البلاد .

- أمر لا يُصدق!

- هنا، في سجن إفين، تحدث أفضع الأمور، لكن لا أحد

يستطيع القيام بأي شيء .

- مثل ذلك التعذيب الذي خضعت له . . .

- نعم، شيكين كباب . لكن، هناك ما هو أفضع . مرة، وضعوني

في دوّارة الخيل . هل تعرف ما هي دوّارة الخيل؟

- لا

- ربطوني من ظهري إلى سرير على شكل حرف «Y» . ثم

جعلوني أدور بسرعة كبيرة، وهم يغنون ويضربونني في أي مكان -  
أخذ نفساً عميقاً - تقيأت كل ما أكلته في العشاء.

- يا إلهي!

ثم أشار العجوز إلى أحد رفقائه في الزنزانة، شاب هزيل تظهر  
عظام تحت جلده وهالات تحت عينيه.

- لقد مر فارامارز بحالة مزعجة فعلاً - قال - علقوه من رجليه  
في سقف غرفة، علقوا شيئاً ثقيلاً في خصيتيه، وتركوه متدلياً لمدة  
ثلاث ساعات، رأسه دائماً نحو الأسفل.

تفحص طوماس بنظرة مرعوبة شكل فارامارز المريض.

- هل تظن ... أنه يمكن أن يفعلوا نفس الشيء معي؟  
عدّل بارسا جلسته على الأرض.

- يتوقف كل شيء على رأيهم في وجودك داخل وزارة العلوم -  
قال وهو يمرر لسانه على شفثيه الرقيقتين - إن اعتبروا أنك كنت تقوم  
بسرقه، ربما يكسرون يديك بمطرقة ثم يحكمون عليك، بعد ذلك،  
ببضع سنوات من السجن. إن اعتبروا أنك كنت تمارس التجسس  
... هنا، لا أريد حتى أن أتصور.

شعر المؤرخ بقشعريرة تسري في عموده الفقري فبدأ يتساءل إن  
لم يكن من الأحسن لو أنه استعمل الحقنة التي مدها إليه باغيري.

- حتى لو كنتُ أجنبيّاً، تظن أن ...

- خصوصاً إن كان الشخص أجنبيّاً - قاطعه بارسا - أنا متأكد  
من شيء واحد - ثم أشار بإصبعه إلى مخاطبه - لن تفلت من أبشع  
طريقة من طرق التعذيب.

شعر طوماس بقلبه ينقبض.

- ... أتظن ذلك؟

- لا يفلت منها أحد. إنها أنجع طريقة.

- وما . . . هي؟

- التابوت.

- كيف؟

- هناك من يسميه التابوت، وهناك من يسميه التعذيب الأبيض. مهما كان الرجل، فإنه يعترف في النهاية. كلهم يعترفون. بعضهم يقاومون لبضعة أيام، وآخرون يصبرون لمدة ثلاثة أشهر، لكنهم جميعاً يعترفون في النهاية. إن لم يعترفوا هنا في إفين، يتم نقلهم إلى السجن ٥٩، وهو أفظع. هناك، كل السجناء يعترفون في نهاية الأمر. يعترفون بما فعلوا، يعترفون بما كان بوذهم أن يفعلوا ويعترفون بما لم يفعلوا. يعترفون بكل ما يُطلب منهم.

- ثم . . . ماذا يصنعون بهم؟

- أين؟

- في التابوت.

- في التابوت؟ لا شيء.

- عفواً؟

- لا شيء!

- لا يصنعون بهم أي شيء؟ لا أفهم.

- التابوت زنزانة منفردة. تبدو مثل تابوت. تصور كيف يمكن

أن يكون العيش ليل نهار داخل حجرة ضيقة جداً بحجم تابوت تقريباً، من دون الحديث مع أي أحد ومن دون سماع أدنى صوت. بهذا الوصف، لا يبدو مخيفاً، خصوصاً بالمقارنة مع دوارة الخيل أو شيكين كباب. لكن، إن مر المرء بهذا - قال ثم حرّك يده - أوف!

- هل هو صعب لهذا الحد؟

- إنه يصيب المرء بالجنون. هناك توابيت في كل الأجنحة،

لكن، كما قلت لك، أفضع التوابيت ليست هنا في إفين. أفضعها  
توجد في مراكز الاعتقال.

- مراكز الاعتقال؟

- الجرائد تطلق عليها اسم «نهاده موفازي» أو المؤسسات  
الموازية. وهي سرية لدرجة أنها لا تظهر في القوانين، حتى وإن جاء  
ذكرها في الصحافة. هي في ملكية مليشيات بيسيبي أو أنصار حزب  
الله أو في ملكية عدة مصالح مخبرات سرية. ليست مصنفة ضمن  
لائحة السجون، لا يسجلون أسماء السجناء ولا تملك السلطات  
الحكومية حق الاطلاع على المعلومات المتعلقة بميزانياتها  
وتنظيمها. حاول النواب البرلمانين والرئيس خاتمي أن يضعوا حداً  
لهذه النهاده موفازي، لكن من دون جدوى.

- وكيف يكون هذا ممكناً؟

رفع بارسا عينيه إلى السماء، كأنه يتوجه إلى كيان إلهي.

- فقط في إيران، يا صديقي، فقط في إيران - قال متنهّداً.

- هل سبق لك أن كنت في واحد من هذه الأماكن؟

- طبعاً. في الحقيقة، حصل ذلك في المرة الأولى التي ألقى

عليّ القبض. لم يأتوا بي إلى هنا في إفين، بل أرسلوني إلى مباشرة  
إلى السجن ٥٩.

- إذن، هو سجن، في نهاية الأمر.

- يسمونه سجن ٥٩ أو «إشرات آباد»، لكنه ليس مصنفاً ضمن

السجون. إنه أشهر سجن من سجون «نهاده موفازي».

- هل هو هنا في طهران؟

- نعم. يوجد سجن ٥٩ في مركب يقع بشارع فاليسار وتراقبه

«سيباه» أو مصالح مخبرات الحرس الجمهوري. توابيت مركز

الاعتقال هذه هي أفضع التوابيت جميعاً. بالمقارنة معها، تعتبر هذه

التواييت هنا أضرحة باذخة. لن تتخيل كم هي فظيعة. يجن داخلها المرء في ليلة واحدة.

بالرغم منه تقريباً، كان طوماس يتخيل كل لحظة من كل تلك الحالات التي كان يتابع وصفها.

- هل ... هل عادة ما يرسلون الأجانب إلى هناك؟ - قال بشيء من الخوف.

- يرسلون إليها كل من يحلو لهم. وحين يدخل المرء إلى سجن ٥٩، ينتفي من الوجود. هنا، في إفين، هناك سجل بأسماء السجناء على الأقل، أما هناك، فلا وجود لأي سجل. يمكن لفرد ما أن يدخل ثم يظهر ويختفي بعد ذلك إلى الأبد، دون أن ينتبه أحد للأمر. - لقد فهمت.

- لدي نصيحة واحدة أريد أن أقدمها لك.

ثم لزم الصمت.

- ما هي؟

- إن كان لديك ما تعترف به، فافعل ذلك الآن - قال العجوز بصوت متعب - هل سمعت؟

- نعم.

- ستوفر على نفسك كثيراً من المعاناة.

مغلقاً على نفسه في تلك الزنزانة القذرة، يتنفس هواء مرفقاً عبارة عن مزيج من العفن، والبول والغائط، قضى طوماس الليل بكامله والصبح التالي يقرر ما سيقوله أو ما لن يقوله عندما يستنطقونه. من البديهي أنه لن يستطيع أن يعترف بأنه يشتغل لصالح وكالة المخابرات الأمريكية، لأن اعترافاً كهذا يعني توقيع شهادة وفاته.

وبما أنه لم يكن قادراً على عرض الحقيقة، بقي أمام مشكلة شرح ما لا يقبل الشرح: تبرير تكسير الخزنة ووجود باغيري إلى جانبه. عندما ألقوا عليه القبض، كان يبدو للمؤرخ أن زميله الإيراني قد قُتل، لكنه لم يستطع التأكد من ذلك وكان احتمال بقاء باغيري دائماً على قيد الحياة أمراً وارداً وأنه يمكن أن يقدم رواية أخرى قد تعرضه للخطر. علاوة على ذلك، حتى لو كان باغيري ما يزال حياً يرزق، فقد يكون حضوره دائماً أمراً مزعجاً، لأنه لن يستطيع أبداً أن يقدم تبريراً مقنعاً لسبب القبض عليه رفقته داخل بناية الوزارة. من جهة أخرى، حتى لو مات العميل الإيراني لوكالة المخابرات الأمريكية، فقد تستطيع الشرطة دائماً أن تحدد هويته وتستقصي علاقاته. بإمكان الإيرانيين أن يسألوا أقاربه وأصدقاءه، ويفتشوا بيته. لم تكن هناك من وسيلة لمعرفة ما سيكتشفونه، لكنه كان من المحتمل جداً أن يربطوا بين باغيري والوكالة السرية الأمريكية. لو فعلوا ذلك، فإن السؤال التالي سيكون بديهياً: لماذا كان طوماس رفقة عميل من عملاء وكالة المخابرات الأمريكية، في منتصف الليل، داخل وزارة العلوم، بعد أن كسرت خزانة تضم مخطوطاً في غاية السرية؟ وباباك، السائق، هل تم القبض عليه أيضاً؟ إن كان كذلك، فما الذي قد يكشف عنه؟ إن لم يقبضوا عليه، فهل يمكن أن يلتقي به مرة أخرى؟

- ما الذي يشغل بالك؟ - سأله بارسا.

- كل شيء! - صاح طوماس.

- تبدو كأنك تحدث نفسك ...

- إنه الاستنطاق. أركز على ما سأقوله.

- قل الحقيقة - نصحه العجوز مرة أخرى - سوف توفر على

نفسك كثيراً من المعاناة التي لا داعي لها

لم يكن قادراً أن يخبر ذلك الغريب بأنه يستحيل عليه أن يقول

الحقيقة. بدا أن بارسا كان يفهمه، لأنه سرعان ما أدار وجهه وحدث في ضوء النهار المتدفق عبر النافذة ذات القضبان.

- لكن، إن لم تكن تستطيع قول الحقيقة - أضاف على الفور - فإني أقدم لك هذه النصيحة.

- ما هي؟

- لا تصدق شيئاً مما سيقولون لك. هل سمعتني؟ لا تصدق أي شيء - ثم حدث في طوماس بعينين لامعتين - في المرة الأولى التي وجدت نفسي داخل سجن ٥٩، أخبروني أن الرئيس خاتمي فرّ من البلاد، وأن بناتي، بعد القبض عليهن واستنطاقهن، كسفن أشياء خطيرة جداً عني. قالوا ذلك بأفضل طريقة جديرة بالثقة والتصديق ثم طلبوا مني أن أوقع اعترافاً، مؤكداً أن ذلك هو أحسن حل بالنسبة لي، والطريقة الوحيدة للحصول على عفو. عندما أُطلق سراحى، لاحقاً، أدركت أنه لا شيء مما أخبروني به كان حقيقياً. كان الرئيس ما يزال يزاول مهامه، ولم يتم سجن بناتي قط.

أمضى طوماس ساعات طوال يفكر في مشكلة الاستنطاق، مهووساً بهاجس الثغرات، والتناقضات، والأمور العبثية في روايته المتخيلة. اجترّ المسألة خلال وجبة الغداء، بينما كان يتلع حساء دجاج سيئاً. وظلّت المشكلة تؤرقه عندما غلبه التعب فنام عند بداية الظهر، ممدداً فوق حصيرة مبسوطة فوق الأرضية الباردة والرطوبة داخل الزنزانة، في الجناح المشترك من سجن إفين.



# 17

أيقظت رجّة قوية طوماس من ذلك النوم المضطرب الذي انغمس فيه خلال عدة ساعات. فتح عينيه فرأى أمامه رجلاً بلامح غليظة، لحية سوداء وشعر متناثر فوق رأسه. رجّة الرجل بيديه السميكتين رجّاً قوياً. نظر طوماس من حوله، شبه دائخ، فلاحظ أن الظلام ما يزال مخيماً، لأن الليل قد حل والزنزانة مضاءة بنفس الضوء الأصفر المرتعش ليوم البارحة.

- انهض - قال الرجل بلغة إنجليزية مترددة مع لكنة إيرانية قوية.

- إيه؟

- الكولونيل في انتظارك. بسرعة!

سحب الرجل نحو الأعلى وأجبره على الوقوف. أخرج من جيبه منديلاً وعصب عيني السجين، سحب يديه إلى الخلف نحو الظهر ووضع الأصفاد ثم سحبه خارج الزنزانة. بعد أن أرغمه على قطع الممرات، مع صعود السلالم ونزولها، أدخل الرجل السجين، دائماً معصوب العينين، إلى غرفة دافئة وأجبره على الجلوس على كرسي خشبي وذراعاة مشدودتان بالأصفاد إلى ظهره.

صمت.

شعر طوماس بحضور في المكان. سمع تنفساً خفيفاً وأصواتاً حادة تنبعث من طقطقة مفاصل جسدية. من الواضح جداً، أن أحداً

كان يوجد هناك، لكن لا أحد يتكلم. مرت خمس دقائق من الصمت، لا يسمع فيها غير النَّفس وطققات خفيفة. تململ السجين في كرسيه ولمس شيئاً ما على يمينه. أدرك أنه لوح مثبت على مسند الكرسي مثل منضدة تلميذ. بعد بضع لحظات، شعر أن جسداً يجلس أمام اللوح فانكمش، خائفاً.

مرت عشر دقائق من الصمت.

- أستاذ نورونيا - قال الصوت في الأخير بنبرة مكبوحة تريد أن تكون لطيفة - مرحباً بك في قصرنا المتواضع. هل أنت مرتاح في إقامتك؟

- أريد أن أتحدث إلى دبلوماسي من الاتحاد الأوروبي.

ترك الغريب بعض الثواني تنقضي.

- اسمي سلمان كاظمي، وأنا كولونيل في وزارة الاستخبارات والأمن الوطني - قال وهو يتجاهل الطلب بشكل واضح - لدي بعض الأسئلة أريد أن أطرحها عليك، إن لم يكن لديك أي مانع.

- أريد أن أتحدث إلى دبلوماسي من الاتحاد الأوروبي.

- السؤال الأول بديهي. ماذا كنت تفعل داخل بناية وزارة العلوم والتكنولوجيا في الساعة الواحدة ليلاً؟

- لن أتكلم إلا بعد مقابلة دبلوماسي من الاتحاد الأوروبي.

- لأي سبب كسّرت خزانة القاعة «ك» وأخذت وثيقة في غاية الأهمية بالنسبة للدفاع الجمهورية الإسلامية وأمنها؟

- أريد أن أتحدث إلى دبلوماسي من الاتحاد الأوروبي.

- ما الذي كنت تنوي فعله بالوثيقة التي أخذتها من الخزانة؟

- لدي الحق في أن أتحدث إلى ...

- اسكّ! - صاح الكولونيل في أذنه اليمنى، وقد استشاط

غضباً - أنت، يا سيدي، لا وجود لك الآن! أنت، يا سيدي، ليست لديك حقوق! لقد أسأت استعمال ضيافتنا وحشرت نفسك في أنشطة يمكن أن تشكل خطراً على أمن الجمهورية الإسلامية. اقترفت فعلاً تسبب في جروح بالرصاص لأربعة من رجال الأمن الإيراني، يرقد واحد منهم الآن في المستشفى في حالة خطيرة. إن توفي، فسوف تصبح مجرمًا. هل فهمت؟

لزم طوماس الصمت.

- هل فهمت؟ صاح الآخر بصوت أعلى، وفمه ملتصق بأذن طوماس اليمنى.

- نعم - رد السجين بصوت خفيض جداً.

- حسناً! - صاح الكولونيل كاظمي - إذن، تفضل وأجب عن أسئلتني الآن - لزم صمتاً ليسترد أنفاسه ويتابع استنطاقه بنبرة أكثر هدوءاً - ماذا كنت تفعل داخل بناية وزارة العلوم والتكنولوجيا في الساعة الواحدة ليلاً؟

- لن أجيب إلا بعد أن أتكلم مع ...

ضربة عنيفة على القفا كادت تُسقط طوماس على الأرض.

- جواب خاطئ! - زعق ضابط وزارة الاستخبارات والأمن الوطني. أعيد سؤالي. ماذا كنت تفعل داخل بناية وزارة العلوم والتكنولوجيا في الساعة الواحدة ليلاً؟ مكتبة ظل السجين صامتاً.

ضربة أخرى، على الجهة اليمنى من الرأس هذه المرة، لكمة قوية جعلت طوماس يسقط يساراً وهو يطلق أنيناً مكتوماً ثم تمدد على الأرض، وذراعه دائماً خلف ظهره.

- أنا ... أنتم ... - تتمم مرتبكاً، وهو يشعر أن نصف وجهه يتلوى ألماً من وقع الضربة، والنصف الآخر يلتصق بالأرضية الباردة

- ليس من حقكم أن تفعلوا بي هذا. سوف أحتج. سوف أرفع شكوى. هل سمعت؟

أطلق الكولونيل قهقهة عالية.

- سوف ترفع شكوى؟ - سأله وهو يتسلى على ما يبدو - إلى من سترفع شكواك؟ إيه؟ إلى أمك؟

- ليس من حقك أن تفعل بي هذا. لدي الحق في أن أتصل بدبلوماسي أوروبي.

أمسكت يدان قويتان بطوماس ورمته من جديد فوق المقعد المدرسي.

- ليس لك أي حق، كما قلت لك - صاح الكولونيل - حقك الوحيد هنا هو أن تقول الحقيقة، هل فهمت؟ الحقيقة! الحقيقة التي سوف تحررك! الخلاص من خلال الحقيقة. أخبرنا بالحقيقة وسؤخذ ذلك بعين الاعتبار ساعة القرار. ساعدنا في العثور على أعداء الجمهورية الإسلامية وستنال الجزاء. بل أكثر من هذا، سوف تنقذ نفسك. الخلاص من خلال الحقيقة. لكن، لو تماديت في صمتك، فستندم على ذلك بمرارة - خفض نبرة صوته، اتخذ نبرة شبه لطيفة، مجاملة - اسمعني. لقد ارتكبت خطأ، هذا أكيد. لكن، ما زال أمامك وقت لتكفر عن خطئك. أوكد لك ذلك. في نهاية المطاف، كلنا نخطئ، أليس كذلك. الخطير في الأمر هو أن نتمادى في الخطأ. هذا هو الخطير في الأمر هل فهمت؟ - ثم زاد من تلطيف صوته، الذي صار شبه حميمي - اسمع، لنبرم اتفاقاً. أنت تحكي لي كل شيء وأنا أعد تقريراً إيجابياً عنك. أتعرف، ليس لدينا أي شيء ضدك. لماذا سنلحق بك ضرراً؟ فقط نريد أن تساعدنا في الكشف عن أعدائنا. أرايت كم هي المسألة بسيطة. إيه؟ ما رأيك؟

- سوف أساعدكم، بكل فرح - قال طوماس، مستعداً لضربة

أخرى قد تنزل عليه في أي لحظة - لكن، عليكم أن تفهموا أنني أريد، أولاً، أن أتحدث إلى دبلوماسي من الاتحاد الأوروبي. أنا بحاجة إلى معرفة حقوقي، وطبيعة التهمة الموجهة إليّ. كما أود أن أوجه رسالة إلى أسرتي. بالإضافة إلى هذا، أحتاج إلى محام. كما ترى، أنا لا أطلب شيئاً كثيراً.

لزم الكولونيل صمتاً كما لو أنه يفكر في الطلب.

- دعني أرى إن كنت قد فهمت - قال ضابط وزارة الاستخبارات والأمن الوطني - إن نحن سمحنا لك بالاتصال بدبلوماسي أوروبي، فستقول لنا كل شيء، أليس كذلك؟  
تردد طوماس.

- نعم، بطبيعة الحال... سوف أقول لكم كل شيء حسب... نصائح الدبلوماسي وما سيقوله المحامي، طبعاً.

لزم الكولونيل كاظمي الصمت. سمع السجين صوت عود ثقاب يُشعل وشعر، بعد لحظة، برائحة لاذعة تنبعث من دخان سيجارة.  
- لا بد أنك تعتبرنا بلهياً - قال كاظمي بين نفثتين من الدخان - لماذا سنخبر الاتحاد الأوروبي بوضعك من دون ضمانة للحصول على شيء ما مقابل ذلك؟ لا أحد في العالم يعلم أين أنت، وليست لدينا أي مصلحة في إخبار أي أحد بذلك. إلا إذا قدمت لنا سبباً وجيهاً، بطبيعة الحال.

- أي سبب؟

- مثلاً، أن تحكي لي كل شيء. مثلاً، يمكن أن تبدأ بتبديد شك يراودني بخصوص ذلك الفرد الذي كان يرافقك. من كان بالضبط؟

هذا السؤال جعل طوماس يستنجد، لحظتها، أن باغيري قد توفي على الأرجح. من جهة، لو أن الكولونيل كان يجهل هوية باغيري،

فلأن عميل وكالة المخابرات الأمريكية ربما قد لاذ بالصمت إلى الأبد؛ ومن جهة أخرى، استعمل الكولونيل صيغة الماضي وهو يتحدث عن باغيري، وهو ما بدا له أمراً ذا دلالة.

قرر المؤرخ أن يجرب الرجل الذي يستنطقه.

- ولماذا لا تسألونه مباشرة؟

بدا للحظة أن السؤال قد أربك كاظمي، وهو ما يشكل، في حد ذاته، شكلاً من الإجابة عن السؤال.

- أوه... لأن... - قال كاظمي متلعثماً قبل أن يتمالك

نفسه - اسمع، أنا من يطرح الأسئلة هنا، هل فهمت؟

صمت.

- هل سمعت؟

- نعم.

ثم سحب الكولونيل نفثة دخان أخرى.

- أنت عميل لدى وكالة المخابرات الأمريكية.

أدرك طوماس أن الضابط قد غيّر من تكتيكه، كي يفاجئه، وأنه

لا يمكن أن يتردّد بخصوص هذه النقطة الحاسمة.

- هل هذا تأكيد أم سؤال؟

- إنه تأكيد. أنت عميل لدى وكالة المخابرات الأمريكية.

- هذا عبث!

- لدينا أدلة.

- إيه، نعم؟ كيف يمكن الحصول على أدلة بخصوص أشياء من

صنع الخيال؟

- لقد تحدث صديقك...

- تحدث، قلت؟ وقال إنني عميل لدى وكالة المخابرات

الأمريكية؟

- نعم. حكي لنا كل شيء عنك.

أجبر طوماس نفسه على أن يتسم.

- إن كان قد حكي لكم كل شيء عني، فهذا يطمئني. لا علاقة

لي بالسياسة، وأنا مجرد أستاذ جامعي كما تعرفون جيداً.

- أنت جاسوس! أنت جاسوس جاء إلى إيران من أجل سرقة

سرّ القنبلة النووية.

نصب كاظمي هنا فحاً جديداً، لكنه لم يكن ماهراً في إنجازهِ.

- سرّ القنبلة النووية؟ - سأله طوماس مبدياً اندهاشه بأقصى ما

يستطيع - ما هذا الهذيان! لم يحدثني أحد قط عن أي قنبلة نووية! لا

بد أن في الأمر خطأ ما. أنا لم آت إلى هنا لسرقة أي شيء. جئت

بدعوة موجهة لي، هل فهمت؟ جئت لأساعد إيران في فك شفرة

وثيقة علمية، لا شيء غير هذا. من أين أتيت بحكاية القنبلة النووية

هاته؟

- لا تتظاهر بجهل الأمور - رد عليه الكولونيل - إنك تعرف

جيداً عن أي شيء أتحدث.

- لا، إنني لا أعرف. لم أسمع قط بشيء كهذا. يقتصر عملي

على فك شفرة وثيقة علمية، لا أقل ولا أكثر. وقد تعاقدوا معي لهذا

الغرض. لم يحدثني أي أحد عن قنابل نووية. وعلاوة على هذا، لو

حدثوني عن ذلك، ما كنت لأقبل هذا العمل!

- أنت هنا من أجل فك شفرة وثيقة علمية، أليس كذلك؟ إذن،

لأي سبب ذهبت خلصة إلى الوزارة لتأخذ هذه الوثيقة من الخزانة،

إيه؟ لأي سبب؟

- إنها ليست وثيقة عسكرية، كما قلت لك. إنها وثيقة علمية.

اسأل وزارة العلوم، سيؤكدون لك ذلك. إنك تتخيل أشياء، يا

سيدي، وترى مؤامرات حيث لا وجود لها.

- أخبرنا السيد الوزير أنه، نظراً لطبيعة الوثيقة المذكورة، أنت لا يمكن أن تكون إلا جاسوساً.

- أنا؟ جاسوس؟ هذا سخيف! أعترف أنني كنت متلهفاً لأطلع على هذه الوثيقة العلمية، هذا صحيح. لكن ذلك كان فضولاً علمياً، لا غير. أنا رجل علم، ومن الطبيعي أن أرغب في الاطلاع على قطعة أثرية علمية نفيسة، ألا تظن ذلك؟

- لم يتحدث عنها السيد الوزير باعتبارها قطعة أثرية علمية نفيسة.

- وكيف تحدث عنها؟

- قال إنها وثيقة في غاية الأهمية بالنسبة لأمن إيران - ثم اقترب من السجين وهمس في أذنه - قال إنها سر من أسرار الدولة.

- هذا أمر سخيف تماماً - قال طوماس محتجاً - إنها وثيقة علمية. على الأقل، هذا ما أكدوه لي دائماً ولم أجد قط سبباً لأشك في ذلك - واتخذ نبرة صوت مختلفة، محاولاً أن يبدو أكثر حكمة - اسمع، لو كان الأمر يتعلق بسر من أسرار الدولة، فهل تظن أنهم كانوا سيتعاقدون معي؟ إيه؟ هل تظن ذلك؟ كما لو أنهم غير قادرين على أن يجدوا هنا أشخاصاً يستطيعون القيام بذلك! لأي سبب سيطلبون من عالم غربي أن يفك شفرات وثيقة على هذه الدرجة من الحساسية؟

- كانت لهم اعتبارات خاصة.

- طبعاً، كانت لهم اعتبارات خاصة! - صاح السجين متعجباً. اعتبارات علمية.

- اعتبارات المصلحة العليا للدولة.

- اسمح لي، ولكن ما تقوله يخلو من أي معنى. فكر جيداً، أليست إيران هي من تقول كل يوم إنها ترغب في الحصول على



الطاقة النووية لأغراض سلمية؟ أليست إيران هي من تؤكد أنها لا تريد تطوير أسلحة نووية؟ إذن، كيف لي أن أسرق من إيران ما لا تملكه وما لا تنوي أن تملكه؟

- أنت ذكي جداً

- إنها ليست مسألة ذكاء، بل مسألة حس سليم. أذكرك بأني لست أنا من طلب القدوم إلى إيران. أنتم من وجهتم لي الدعوة. كنت هائناً في زاويتي، منشغلاً بأموري البسيطة، حتى اتصلتم بي وطلبتم مني أن آتي إلى هنا. أنا، أبدأ

- كفى - قاطعه كاظمي - كنت ضيفنا، لكنك لم تتصرف مثل ضيف. ضبطوك في وزارة العلوم، في منتصف الليل، وأنت تكسر خزنة تحوي سرّاً من أسرار الدولة. عندما اقتحمنا المكان، أطلقت علينا النار وأصبت بجروح ...

- لم أكن أنا، كان الآخر.

- كنت أنت.

- لا، لقد قلت لك إن الآخر هو من أطلق النار.

- ومن كان الآخر؟

تردّد طوماس. لقد جاء إلى هنا عازماً على ألا يقول شيئاً وأدرك أنه، مع تواصل الحديث، كان قد روى كل قصة حياته تقريباً.

- أطلب، قبل كل شيء، أن أتحدث إلى دبلوماسي من الاتحاد

الأوروبي.

- ماذا؟

- أطلب، قبل كل شيء، أن أتحدث ...

ألم قويّ، مثل قرص شرس، أحرق نقطة معينة من عنقه بل إنه رأى نجوماً تتلألأ في عينيه. صرخ من الألم واستغرق لحظة قبل أن يدرك ما حدث له.

لقد أطفأ الكولونيل سيجارة وهو يسحقها على عنقه .

- بما أن الطريقة الناعمة لا تفيد معك، دعنا نجرب الطريقة الخشنة - قال الضابط بنبرة صوت محايدة.

أصدر كاظمي بعض الأوامر باللغة الفارسية، وسرعان ما شعر طوماس بحركات من حوله . استعد لما هو أسوأ وانكمش فوق المقعد، في انتظار أن تنهال عليه الضربات . أمسكته عدة أيادٍ من ذراعيه ومن ملابسه السجّنية ثم أجبرته على الوقوف على قدميه .

- ما هذا . . . ما الذي تريدون فعله؟ - سأل في قلق لأن العصابة على عينيه لم تكن تسمح له برؤية ما يجري من حوله .

- سوف نجعلك تتكلم - كان هو جواب كاظمي الجاف .

- هل ستعذبونني؟

- لا، سوف نقوم بأفزع من ذلك .

- ما الذي سوف تفعلونه؟

- سوف نرسلك إلى الجناح ٢٠٩ .

تابوت .

عندما خلّصوا طوماس من الأصفاد، زجّوا به في الزنزانة وتمكّن، بعد أن أزال العصابة عن عينيه، من معاينة المكان الذي يوجد فيه . كان ذلك هو انطباعه : تابوت .

لقد وضعوني في تابوت .

كانت الزنزانة ضيقة جداً، بالكاد تبلغ متراً من العرض، لا تسمح حتى بتمديد الذراعين . وطول يبلغ مترين لا يسمح بالمشي أكثر من ثلاث خطوات أو، بالأحرى، خطوة ونصف الخطوة، لأن ما تبقى من الفضاء كان يشغله مرحاض ومغسل . رفع رأسه وقاس العلو . أربعة أمتار، تقريباً . في السقف، مصباح صغير يضيء

الزنزانة. حَمَّن طوماس أنه بقوة حوالي أربعين واط. كانت الأرضية تبدو مطلية بالجير والجدران بيضاء، متقاربة، خانقة، تعطي الانطباع بأنها تسحقه من كل الجوانب. تابوتٌ حقيقي.

لم يسبق لطوماس طوال حياته أن كان مضغوطاً هكذا بين جدران لدرجة أن انتابه إحساس بأنه قد دفن حياً. بدأ يتنفس بصعوبة واضطر ليغمض عينيه ويمدد خياشيم أنفه حتى يتحكم في الرعب الذي كان يداهمه شيئاً فشيئاً. وبدل الجلوس على تلك الأرضية من الجير، فضّل أن يبقى واقفاً. حاول أن يمشي خطوة، خطوة واحدة لأن ذلك كان هو أقصى ما يستطيع نظراً لضيق الزنزانة وضغط الفضاء.

انقضت ساعة.

توالت نوبات الاختناق والقلق مصحوبة بالدوار. شعر برُهاب الأماكن المغلقة، كأنهم أغلقوا عليه داخل قبر ورموه داخل مثنوى صبغت جنباته بالجير وأضيء بمصباح صغير من قوة أربعين واط. متعباً، أسند ظهره إلى الجدار. انقضت ساعتان.

كان الصمت مطبقاً، خانقاً، قريباً. بدا له من المستحيل أن يكون ثمة صمّت بهذا العمق، حتى أنه يسمع تنفسه كما لو كان عاصفة ويسمع صرير المصباح كما لو أنه ذبابة ضخمة تطنّ في أذنه. شعر بساقيه ترتخيان فجلس على الجير. انقضت عدة ساعات.

فقد مفهوم الزمن. كانت تنقضي الثواني، والدقائق، والساعات متتالية دون أن يستطيع الشعور بمرورها. كان كأنه معلق في الزمن، تائه في بعد خفيّ، يطفو في النسيان. لم يكن يرى غير الجدران،

والمصباح، والمرحاض، وجسده، والباب والأرضية. لا يسمع سوى الصمت، وتنفسه وصرير المصباح. تذكر العجوز في الزنزانة المشتركة وهو يقول له إن هناك زنازين أفظع بكثير، وإنه في السجن ٥٩ يصبح المرء مجنوناً في ليلة واحدة، لكنه لم يتخيل شيئاً أفظع من المكان الذي كان فيه. حاول أن يغني، لكنه لم يكن يعرف كلمات معظم الأغاني فاكتفى بدندنة بعض أغاني الأطفال. همهم أيضاً عدة أنغام، نغمات تلو الآخر، عازماً على أن يكون جهاز أسطوانات لنفسه. أخذ يتكلم وحده، لسمع صوتاً أكثر مما يريد أن يقول أي شيء، لكن، بعد مرور بعض الوقت، صمت، حين وجد أنه بدأ يبدو مجنوناً.

الله أكبر! الله أكبر! . . .

علا صوت زاعق وكهربائي لشخص إيراني يصبح فملاً الزنزانة فجأة. قفز طوماس ونظر من حوله، مرتبكاً. كان مكبر صوت يردد أذان الصلاة. استمر الأذان ثلاث أو أربع دقائق، بحجم صوت في أقصى درجاته، يكاد يصم الأذان، ثم توقف.

وران الصمت مرة أخرى.

صمت مشؤوم، صمت عميق حتى أن خفقان الهواء يبدو كأنه يطن في أذنيه. منغلقاً في ذلك الفضاء الضيق، عاجزاً عن تمديد ذراعيه نحو الجانبين أو المشي خطوتين متتاليتين في نفس الاتجاه، بدأ ذهن طوماس يهذي مفكراً في ظروفه، في وضعيته اليائسة، وفي عدم جدوى المقاومة. ما جدوى المقاومة إن كان مصيره قد حُسم؟ ألم يكن من الأجدي استباق تلك النهاية المحتومة؟ لماذا يخشى الموت ما دام ميتاً أصلاً في ذلك المكان الذي يوجد فيه؟ نعم، كان ميتاً من دون أن يكون كذلك، لأنهم وضعوه في تابوت وهو لم يعد سوى ما يشبه حياً ميتاً.

كانوا يقدمون له الأكل في صمت . يأتي السّجان ويفتح شباكاً حديدياً صغيراً في الباب، يقدم له صحناً معدنياً مع الطعام، ملعقة بلاستيكية وكأس ماء، ثم يعود نصف ساعة بعد ذلك ليجمع الأواني . كانت تلك الفواصل ساعة الأكل أو عند الأذان عبر مكبر الصوت تُشكّل اللحظات الوحيدة التي يتسلل فيها العالم الخارجي إلى التابوت . كل ما تبقى كان غير محدد .

ما يشبه لُطخة في الزمن .

كان طوماس يأكل عندما يُفتحُ الشباك الحديدي الصغير ويظهر الصحن، يقضي حاجاته في حوض المرحاض، وحين يغلبه النوم، يستلقي على الأرض، منكمشاً في وضعية جنينية . كان المصباح مشتعلاً على الدوام . ومنغلقاً في ذلك التابوت من الآجرّ والإسمنت، كان السجينُ لا يملك أي وسيلة لمعرفة الزمن الذي انقضى، إن كان الوقت ليلاً أو نهاراً، إن كان سيغادر قريباً أم أنهم قد دفنوه في ذلك التابوت حتى النسيان .

كان يكتفي بالوجود .

# 18

أخرجَ رنينٌ قويٌّ لمفتاح يدور في القفل طوماس من سباته العميق. أطلق القفلُ عدة طقطقات متتالية قبل أن يتوارب الباب ويظهر رجل بلحية بارزة إلى الأمام في الجهة الأخرى ويلقي نظرة على السجين.

- البسُ هذا - قال الإيراني وهو يلقي كيساً بلاستيكياً أزرق على أرضية الزنزانة الضيقة.

انحنى المؤرخ وفتح الكيس. كانت بداخله ملابس، كلها مجمعة ومكدسة. وعبر الباب الموارب، لمح لأول مرة منذ مدة طويلة ضوء النهار الذي ينير إحدى الزوايا. شعر برغبة في أن يجري ويعانق الشمس، يملأ رئتيه بالهواء ويعيش ذلك اليوم بكامله.

- بسرعة! - دمّم الرجل الذي فاجأ طوماس وهو يبدو حالماً يتأمل الضوء الطبيعي المتسلل من الممر - هيا، أسرع.

- نعم، نعم، سأتي حالاً.

ارتدى المؤرخ ملابسه وانتعل حذاءه في دقيقتين، متلهفاً للقبض على تلك الفرصة غير المنتظرة لمغادرة تابوته واستنشاق شيء من الهواء العليل. حتى لو كان سيخضع لاستنطاق عصيب، حتى لو كان سيخضع لعقوبة «شيكين كباب» التي حدثه عنها ذلك السجين العجوز الذي تعرف عليه يوم دخل إلى سجن إفين. كان كل شيء أحسن من

البقاء ساعة أخرى في هذا المكان الفظيع . أي نوع آخر من أنواع التعذيب كان أفضل من أن يستمر مدفوناً حياً .

انتهى طوماس من ارتداء الملابس ونهض ، يكاد يقفز من الحماس لفكرة مغادرة الزنزانة . أخرج الإيراني من جيبه حجاباً وأشار بحركة دوران سريعة من يده .

- استدر .

- إيه؟

- استدر .

استدار طوماس نحو الباب ووضع الإيراني العصاة على عينيه . وبسرعة سحبَ ذراعيه نحو الخلف ووضع له الأصفاد .

- هيا بنا - قال وهو يجره من ذراعيه .

تعثر السجين وكاد يسقط ، لكنه اصطدم بالجدار فاستعاد توازنه وترك السّجان ليقوده .

- أين تأخذني؟

- اصمّت .

أخذ السّجان عبر ممر طويل ، وعند نهايته بدأ يصعدان سلالم . في طريقه نحو الزنزانة المنفردة ، كان طوماس قد شعر بأن الجناح ٢٠٩ كان يوجد تحت الأرض ، وهو انطباع تأكد الآن وهو يغادر المكان . ثم قطعاً ممرات أخرى قبل أن يلجأ غرفة حيث أجبروه على أن يجلس على مقعد . تملل طوماس فوق المقعد ولمس الطاولة الصغيرة ذات الغطاء ، وكانت هي نفس المنضدة المدرسية خلال الاستنطاق الأول ، وربما يكون أيضاً نفس المقعد ونفس الغرفة .

- إذن؟ - سأله صوت مألوف لديه - هل تسليت جيداً في

الانفرادي؟

كان الكولونيل سلمان كاظمي ، مرة أخرى .

- أين؟

- في الانفرادي. في الزنزانة المنفردة.

- أطالب بأن تتركوني أتحدث مع دبلوماسي من الاتحاد

الأوروبي.

أخذ الضابط يضحك.

- مرة أخرى؟ صاح - ألم تتخل بعد عن هذه الأسطوانة؟

- لدي الحق في أن أتحدث مع دبلوماسي.

- لديك الحق فقط في أن تعترف بكل شيء. بعد ثلاثة أيام في

الانفرادي، هل أنت مستعد لتكلم؟

- ثلاثة أيام؟ بقيت محبوساً هناك لمدة ثلاثة أيام؟

- نعم. البعض يظنون أن البقاء في التابوت لمدة ثلاثة أيام

كاف. هل كان كافياً لك؟

- أريد أن أتحدث مع دبلوماسي أوروبي.

ران صمت. تنهّد الكولونيل غاضباً وقد بلغ صبره أقصى حده.

- أرى أن ذلك لم يكن كافياً - قال بنبرة غالباً ما تُخصص

للأطفال الذي لا يتصرفون جيداً - أتعرف، أظن أننا هنا في إفين

طيبون أكثر من اللازم. هذا عيبنا. نحن عاطفيون ونحترم حقوق

الأوغاد مثلك، ممن لا يستحقون سوى أن نبصق عليهم - تنهّد مرة

أخرى - على أي - سُمع أنه كان يخربش شيئاً - لقد وقَّعتُ للتو أمر

خروجك - قال الكولونيل - هيا، اخرج من هنا.

لم يصدق طوماس ما سمعه.

- هل ... هل ستطلقُ سراحني؟

أطلق كاظمي فقهة عالية.

- طبعاً. لقد فعلتُ ذلك.

- يمكنني أن أخرج الآن؟



- يمكنك ويجب أن تفعل ذلك . ابتداء من هذه اللحظة ، أنت لم تعد تنتمي لسجن إفين . اخرج إلى الشارع .
- وقف المؤرخ على رجليه ، غير مصدق لكنه كان مفعماً بالأمل .
- ومتى ستزعمون هذه العصابة عن عينيّ؟
- لا ، هذه لا ننزعها .
- لا تنزعونها؟ لكن ، لماذا؟
- الأمر بسيط . لقد وقَّعتُ للتو أمر خروجك ، ولم تعد تحت مسؤولية سجن إفين . سوف تغادر هذه المؤسسة ، وبعد أن تتجاوز ذلك الباب ، كل ما قد يقع لك لن يكون من مسؤوليتنا .
- ماذا تعني بكلامك هذا؟
- أمسكت بعض الأيدي طوماس بعنف ، ودفعته خارج الغرفة ، وهو ما يزال معصوب العينين مصفد الذراعين وراء ظهره . وهم يسحبونه بعنف عبر الممر ، تمكن المؤرخ من أن يسمع كاظمي يرد بتهكم على سؤاله الأخير .
- استمتع جيداً في السجن ٥٩ .

دفعت يدُ رأس طوماس وهو معصوب العينين ، فوجد المؤرخ نفسه قد ألقى به داخل سيارة ، بينما كانت الأصفاد ما تزال تشد ذراعيه إلى ظهره . من طريقة تنظيم فضاء العربة الداخلي خَمَّن أنه في المقعد الخلفي ، لكن سرعان ما أمسكه الغرباء وزجُّوا به عند أسفل المقعد قبل أن يجلسوا ويضعوا أحذيتهم فوقه في وضعية مهينة ، كأنهم قناصون في رحلة سافاري يأخذون صورة مع طريدتهم أو مزارعون يدوسون كيس بطاطس عادياً .

أقلعت السيارة وتوغلت في شوارع طهران . شعر طوماس بأشعة الشمس تضرب رقبتَه وسمع سمفونية أبواق السيارات ومحركاتها في



العصاة عن عينيه وتركت ضوء النهار يغمر كل حواسه .

- بسرعة! - أمر صوتٌ إيراني باللغة الإنجليزية - ليس لدينا كثير من الوقت .

- إيه؟ ماذا . . . ماذا يحدث؟

أخذ أحدهم يلمس أصفاد طوماس . ظن في البداية أنه يعبث بالسلسلة ، لكنه سرعان ما أدرك أنه كان يُدخل مفتاحاً في القفل ، ثم شعر بيديه محررتين .

- تعال - أمره نفس الصوت - هيا ، بسرعة!

رفع طوماس رأسه فرأى شخصاً ملثماً ، تظهر عيناه من خلال ثقبين ، يسحبه من داخل السيارة . كان الشخص يحمل مسدساً واقتاد المؤرخ نحو سيارة صغيرة بيضاء كانت مركونة بالقرب من هناك . كانت حركة السير متوقفة تماماً ، وأبواق السيارات تتصاعد من كل مكان . كان المارة ينظرون في ذهول ، بينما رجال آخرون مسلحون وملثمون يراقبون محيط الأمان حول السيارة . بعد أن جلس طوماس في المقعد الخلفي ، أغلق الباب بصوت عال وانطلقت السيارة البيضاء ، وسرعان ما اختفت في شارع جانبي .  
لم تدم العملية بكاملها سوى حوالي مئة ثانية .

كان السائق رجلاً بفكين بارزين ، شارب كث عريض ، ويدين مشعرتين تمسكان المقود بقوة . ما إن شعر بقلبه يهدأ والأمور تعود تدريجياً إلى طبيعتها حتى انحنى طوماس إلى الأمام ولمس كتفه .  
- أين نذهب؟ - سأل .

نظر إليه الرجل بدوره ، شبه مندهش لسؤال من يركب معه .

- إيه؟

- أين نذهب؟

- إنكليسي بلد نيستم .

- أنت لا تتحدث الإنجليزية، إنكليسي؟ نه إنكليسي؟

- نه - أكد له الرجل شبه مرتاح لأنه استطاع أن يبلغ ما يريد

قوله . إنكليسي بلد نيستم - ثم ضرب على صدره - إسم من صباره

- ماذا؟

ضرب الرجل بقوة على صدره .

- صبار - كرر - إسم ان صباره .

- آه . اسمك صبار؟ صبار؟

ورسم السائق ابتسامة بلا أسنان على وجهه .

- بله ، صبار .

توغلت السيارة في شوارع متتالية، تعرّج تارة يميناً وتارة شمالاً .

كان صبار يبدو متيقظاً على الدوام لما يجري من حوله، عيناه تنتقلان

في كل لحظة وحين بين المرآة العاكسة ومسار السيارة، والرصيف،

والشارع، والساحات، ومفترقات الطرق، ليتأكد من أنه لا أحد

يلاحقهم ولا أحد يرقبهم .

وصلا بالقرب من مكان يشبه مريضاً مليئاً بالسيارات لكنه من

دون ميكانيكيين، فتوغل السائق بالسيارة إلى داخله . ترّجل صبار من

السيارة وأغلق الباب ليقطع أي اتصال بالخارج ويبقى بعيداً عن

الأنظار . أشار لطوماس كي يترّجل بدوره ثم أخذه نحو سيارة

مرسيدس قديمة كانت مركونة بالقرب من هناك . فتح الحقيبة الكبيرة

للسيارة وأخرج منها ثوباً أسود واسعاً، مده للمؤرخ كأنه يقدم له

هدية .

- هل هذا لي أنا؟

- بله - ردّ صبار وهو يشير له أن يرتدي اللباس .

بسط طوماس الثوب وابتسم حين أدرك طبيعته . كان شادوراً .  
كان الحجاب أسود بالكامل ، ربما واحداً من أكثر الشادورات  
النسائية قبحاً وأكثرها حفاظاً في السوق ، تتخلله تخاريم عند الوجه  
تسمح بالرؤية والتنفس .

- أنتم ماكرون - قال - تريدونني أن أتكرر في زي امرأة ، أليس  
كذلك؟

- بيل - قال السائق مؤكداً .

وضع طوماس الشادور ، تركه يغطيه حتى القدمين ، ثم استدار  
نحو صبار ، يده فوق وركيه تحت الخمار .

- ماذا إذا؟ هل يناسبني؟

تفحصه الإيراني ملياً ثم ضحك .

- خنده داره .

لم يفهم المؤرخ الجواب ، لكنه خمن ، من خلال ما بدا على  
السائق من تسلية ، أن كل شيء على ما يرام . انكمش واتخذ لنفسه  
موضعاً في المقعد الخلفي من سيارة مرسيدس السوداء . وضع صبار  
قبعة سائق على رأسه ، فتح الباب من جديد ، دخل إلى السيارة ،  
أخرجها من المربرض ، أغلق البوابة مرة أخرى وأقلع بسيارة مرسيدس  
عبر شوارع طهران . كان يبدو ، الآن ، سائقاً يشتغل لدى سيدة إيرانية  
غنية ، مهمة ومحافضة .

وبينما كانت السيارة تسير ، أنزل طوماس زجاج النافذة الخلفية  
وترك الهواء الملوث المنبعث من العوادم أن يتسلل إلى داخل العربة .  
ورغم ذلك الثوب السميك الذي يدثر جسده ولا يتركه يلحم سوى من  
خلال التخاريم الضيقة التي تغطي وجهه ، تنفس بعمق ، شبه منتش ،  
رائحة الحرية . هذا الخمار الظلامي كان سيزعجه في ظروف أخرى ،  
كان سيشعر داخله بالاختناق ، لكن ليس في هذه اللحظة بالضبط ،

بعد أن أمضى ثلاثة أيام داخل تابوت إسمتي وقضى الساعة الأخيرة بعينين معصوبتين، دون أن يعرف إن كان سيرى نور النهار في يوم من الأيام، والسحب البيضاء الإسفنجية، ونبض المدينة الهائجة التي تفيض بالحياة.

كم كانت الحرية رائعة.

شعر بكتفيه يتخفان من ثقل كبير، وضغط يتلاشى داخل صدره، فاستمتع، نشوان متحمساً، بلذة تلك اللحظة السامية من التحرر. كان حراً. بدا له الآن كأنه استيقظ للتو من كابوس، بل وجد صعوبة في تصديق أن ما وقع له قد وقع بالفعل، وتساءل أيضاً إن لم يكن كل ذلك، في نهاية الأمر، حلمًا مزعجاً، لا يصدق، وأن تلك المغامرة التي عاشها شيء خيالي. لكن، إن كان ذلك كابوساً فقد استيقظ منه، وإن كان حقيقة، فإنه قد تحرر منه الآن. في الحقيقة، كان هواء الشارع يزكم أنفه برائحة الوقود المقرفة التي كان وقعها عليه مثل وقع البلسم المعطر.

جالت سيارة مرسيدس عبر شوارع طهران لأكثر من عشرين دقيقة. عبرت منطقة السوق ومرت بمحاذاة قصر غلستان بواجهاته الفخمة، بأبراجه وقببه الرائعة، وهياكل منحوتة تبرز وسط خضرة حديقة حظيت بعناية فائقة.

بعد أن تجاوزت القصر، التفت السيارة حول ساحة الأمام خميني ثم توغلت عبر شارع طويل، مواز لحديقة مشجرة. عندما بلغت نهاية الحديقة، انعرجت السيارة يمينا وتوقفت على مهل أمام عمارة جديدة. وهو يؤدي دور سائق عربة باذخة، ترجل صبار من السيارة وذهب ليفتح الباب الخلفي، منحنيًا عندما ترجل ظل السيدة ذات الملابس السوداء.

بعد ذلك، أخذ السائق الظلّ الذي يرتدي الشادور حتى بلغ باب العمارة وضغط على زرّ جهاز الاتصال الداخلي في لوحة معدنية. سُمع صوتٌ كهربائي وقدم صَبَّار نفسه. طقطع طنينٌ جعل قفلَ الباب ينفتحُ. نظر الإيراني إلى طوماس ورسم حركة برأسه يطلب من المؤرخ أن يتبعه. دخلا إلى ردهة العمارة، طلبا المصعد وصعدا إلى الطابق الثاني.

امرأة إيرانية بدينة نوعاً ما، ترتدي شلوار كميز خفيفاً ذهبي اللون، كانت تنتظرهما عند قرص الدرج.

- مرحباً أستاذ - قالت محيية - أنا سعيدة لرؤيتك حراً طليقاً.

- لن تكوني أسعد مني لذلك، كوني متأكدة.

ابتسمت المرأة.

- أخمن ذلك.

دخلا إلى شقة، فاختمى صَبَّار في الممر. أشارت الإيرانية البدينة نوعاً ما إلى طوماس كي يدخل إلى الصالون ويجلس على الأريكة.

- يمكن أن تخلع الشادور إن كنت ترغبُ في ذلك - قالت.

- بكل تأكيد، هذا ما أرغب فيه!

أحنى جسده ورفع الثوب الطويل حتى ظهر رأسه، وبدا شعره مشعثاً لكنه تحرر من ذلك الضيق.

- هل تشعر أنك أحسن؟

- أحسن بكثير - قال المؤرخ متنهداً.

ترك جسده يسقط على الأريكة وحاول أن يسترخي.

- أين نحن؟

- في قلب مدينة طهران. قرب منتزه شاهر.

نظر من النافذة. كانت الأشجار مصطفة على بعد مئة متر تقريباً،  
خضرة قممها الياضنة تتناقض مع اللون الرمادي البارد للمدينة.  
- هل يمكنك، سيدتي، أن تشرحي لي ما يجري؟ ومن تكونين؟  
ابتسمت الإيرانية بطيبة.  
- اسمي حميدة، لكنني أخشى أنني لست حرة لأشرح لك أي  
شيء. بعد قليل، سيأتي من سيجيب عن كل أسئلتك.  
- من؟

- كن صبوراً - قالت وهي تخفض عينيها - هل تريد أن تأكل  
شيئاً؟  
- هل تمزحين؟ طبعاً، أريد أن أكل شيئاً - صاح - إنني أتضور  
جوعاً، ماذا لديك من طعام؟  
- حسناً... دعني أرى - قالت مترددة وهي تفكر - لدينا  
بادمجون ولدينا أيضاً قورمه سبزي.  
- كل شيء! أريد كل ما تقترحينه عليّ.

نهضت حميدة واختفت في الممر، تاركة طوماس وحده في  
الصالون. شعر المؤرخ أنه منهك فأغمض عينيه، محاولاً أن يرتاح  
قليلاً.

ررريين

صوت مفاجئ جعله يستيقظ على الفور. قرع أحدهم الجرس.

ررريين

كان رنة جرس أخرى.

سمع طوماس خطوات ثقيلة تقترب عبر الممر ورأى ظل حميدة  
الممتلئة يتوجه نحو بهو الشقة، أمام الصالون بالضبط. أخذت  
الإيرانية جهاز الاتصال الداخلي وتبادلت بضع كلمات بالفارسية.  
بعد ذلك، وضعت الجهاز واستدارت برأسها نحو طوماس.



- ها قد وصل الشخص الذي سوف يشرح لك كل شيء.

سحبت حميدة سلسلة الأمان، فتحت الباب وعادت إلى الممر نحو المطبخ لتحضّر ما طلبه الضيف من أطباق.

ظلّ طوماس جالساً على الأريكة، مترقباً، عيناه ملتصقتان بذلك الباب الموارب. سمع صوت المصعد ينزل، يتوقف ثم يصعد. رأى مصباح المصعد يشتعل لحظة توقفت المقصورة في رجة وانفتح الباب بعد طقطقة خفيفة. ذلك الذي كان سيشرح كل شيء كان في البداية طيفاً، ظلّاً، ثم اتخذ شكلاً وحجماً ليصبح شخصاً من لحم ودم. نظر كلٌّ منهما إلى الآخر.

عندما خرج ذلك الشخص من المصعد كان أكثر ما أدهش طوماس أنه لم يشعر بأي اندهاش. كأنه كان يعرف دائماً أن الأمور سوف تنتهي بهذا الشكل، كأن الكابوس تحول إلى حلم، وأن هذا الحلم لم يكن، في الأخير، سوى النهاية الطبيعية لكل ما عاشه بحدة خلال هذا الأسبوع الأخير.

بعينين خضراوين مغرورقتين، رأى طوماس ذلك الظل الأهيف يتوقف عند عتبة الباب، متردّداً. ظلّاً هناك واقفين، لا يتحركان، ينظران إلى بعضهما. كانت هناك بشفتين لحيمتين تفرقان قليلاً، شعر أسود ينسدل على جبينها العاجي، عينيّ عسليتين تحدقان فيه بقلق، وخوف وارتياح.

وحنين.

- أريانا.

مكتبة  
t.me/t\_pdf

# 19

بينما كان يلتهم اللحم المفروم، الفاصوليا وسلطة قورمه سبزي الذي قدمته حميدة، حكى طوماس لأريانا كل ما وقع له خلال الأيام الأربعة الأخيرة. استمعت له الإيرانية في صمت، منتبهة بالخصوص للتفاصيل الخاصة بسجن إفين، تُحرّك رأسها بحزن وهي تسمعه يتحدث عما لقيه من سوء معاملة أثناء الاستنطاق أو تفاصيل سجنه في الزنزانة المنفردة.

- مع الأسف، هناك العديد من الناس يمرون من هذا السجن - قالت - وإفين ليست هي أفزع سجن.
- نعم، هناك السجن ٥٩، حيث كانوا سينقلونني.
- أوه، هناك عدة سجون. سجن ٥٩، في فالياسر هو أشهرها، من دون شك، لكن هناك سجون أخرى. مثلاً، السجن ٦٠، إيدراي أماكن، التوحيد. أحياناً، ترتفع الاحتجاجات ضد مراكز الاعتقال هذه فيغلقونها لكنهم سرعان ما يفتحون مراكز أخرى - قالت وحركت رأسها - لا أحد يراقب ذلك.
- وكيف عرفتم مكان تواجدي؟

- لدي علاقات في المكتب الوطني للسجون، أشخاص يدينون لي ببعض الخدمات. رسمياً، يدير المكتبُ سجنَ إفين؛ بشكل غير

رسمي، لا شيء من هذا. في الحقيقة، هناك هيئات أخرى تتحكم في ذلك. لكن المكتب، مع ذلك، يعرف ما يجري في تلك السجون. انشغلت انشغالاً كبيراً وأنا أتلقى خبر اعتقالك، فاستعملتُ شبكة علاقاتي. كنت أعرف أنك ستقضي لحظات عصيبة في إفين، لكنك كنت في سجن شرعي، على الأقل، وعليه فإنهم لا يستطيعون القيام بأي شيء ضدك لا يمكن تسجيله. لكن، كل ما كنتُ أخشاه أن يرسلوك إلى سجن غير شرعي. في هذه الحالة، كنت سأفقد أثرك، وأسوأ من هذا كله أنه لم تكن لدي أي ضمانات بظهورك مرة من جديد في يوم من الأيام. لذلك تحدثت مع بعض الأصدقاء المقربين من الحركات الإصلاحية لأطلب مساعدتهم.

- هل كنتم تريدون أن تأتوا للبحث عني في إفين؟

- لا، لا. ما دمت في إفين، لم يكن بإمكاننا القيام بأي شيء.

إفين سجن شرعي، وكانوا سيعدموننا لو ضبطونا ونحن نحاول تحريرك. كان نقلك إلى مراكز سجن أخرى نقطة حاسمة، لسببين. أولاً، كانت تلك هي اللحظة التي تخرج فيها، مما يسمح لنا بالاقتراب منك بطريقة أسهل. ثانياً، لأن مسألة الشرعية لم تكن مطروحة. بما أن مراكز الاعتقال غير قانونية، فإنك لدى خروجك من إفين لم تعد سجيناً بالمعنى التقني للكلمة. لو قبضوا علينا، أي تهمة قد يوجهون لنا؟ عرقلة حركة السير؟ منع اعتقال شخص بطريقة غير قانونية؟ لحظتها، كُنْتُ، من الناحية الإدارية، شخصاً حراً وربما كان ذلك هو حجتنا الكبرى.

- فهمتُ.

- كان الأهم هو أن نحصل على معلومات تتعلق بنقلك، وهو ما لم يكن أمراً صعب المنال نظراً لعلاقتي في المكتب الوطني للسجون. وفعلاً، علمت البارحة أنه ربما سيتم نقلك إلى السجن ٥٩

لو رفضت أن تتعاون مع الشرطة، وعليه لم تبق أمامنا سوى أربع وعشرين ساعة لتنظيم العملية.

وضع طوماس الصحن ومدّ ذراعه، ثم ضغط بلطف على يد أريانا.

- لقد كُنْتُ رائعة - قال - أنا مدين لك بحياتي ولا أعرف كيف أشكر.

ارتعشت الإيرانية، حدقت فيه بعينيها الواسعتين، ثم ضغطت بدورها على يده، لكن صوتاً قادمًا من الممر جعلها تنظر بقلق نحو باب الصالون.

- أوه ... أنا - تمتت قائلة - لم أقم سوى بواجبي. لم يكن بإمكانني أن أتركهم يقتلونك.

- لقد قمت بما يفوق واجبك - قال طوماس وهو يداعب يدها - أكثر من ذلك.

نظرت أريانا من جديد نحو باب الصالون وسحبت يدها، في قلق.

- سامحني - قالت - عليّ أن أكون محترسة، هل تفهم؟  
سُعتي ...

ابتسم المؤرخ من دون رغبة.

- نعم، أفهم ذلك. أنا لا أريد أن أخرجك.

- نحن في إيران، وأنت تعرف كيف هي الأمور ...

- وكيف لا أعرف؟

نظرت إلى السجاد الإيراني عند قدميها، مرتبكة بكل وضوح، في صراع مع ذاتها. ران صمتٌ مُحرج، لأن تلك اللمسة الحنون أيقظت سحراً غير منتظر. كسرت مجرى الحديث، هذا أكيد، لكنها أيضاً أججت شيئاً ما أو ربما لم تفعل، ربما أظهرت فقط ما كان

موجوداً، وأيقظت تلك النار الفاترة التي كانت تحتدم بالداخل، نار هادئة، لكنها تحترق من دون توقف، وكان الوعي بتلك النار الخفية التي لا تنتهي هو ما يربكها.

- طوماس - قالت لتنتهي كلامها - لدي سؤال حسّاس أريد أن أطرحه عليك.

- لك أن تطرحي ما تشائين من الأسئلة.

تردّدت أريانا، وهي تبحث بكل وضوح عن الكلمات المناسبة لطرح سؤالها.

- ماذا كنت تفعل داخل وزارة العلوم على الساعة الواحدة ليلاً؟ نظر إليها طوماس بحدة، لكن بحرج أيضاً. كان مستعداً للجواب عن كل الأسئلة، كل الأسئلة على الإطلاق، باستثناء ذلك السؤال. كان ذلك هو السؤال الوحيد الذي يريد أن يتحاشاه، فشرع لحظتها أنه أمام اختيار فظيع. إلى أي حد يمكنه أن يقول الحقيقة للمرأة التي خاطرت بكل شيء من أجل إنقاذ حياته؟

- كنت أريد أن أطلع على المخطوط.

- لقد فهمت هذا - قالت - لكن في الواحدة ليلاً؟ بعد تكسير أبواب القاعة «ك» والخزنة؟

كانت أسئلتها مشروعة تماماً. شعر طوماس برغبة قوية في أن يفتح لها قلبه ويعترف بكل شيء، لكنه كان يعرف أن ذلك مستحيل؛ فالحقيقة كانت خطيرة جداً، فظيعة للغاية. بطريقة ما، كان قد خان ثقة أريانا وصدقتها. وعلاوة على ذلك، كان ذهنه مبرمجاً على أن ينفي نفيًا قاطعاً كل ما يمت لعلاقته بوكالة المخابرات الأمريكية وأن يحكي لها حكاية ابتكرها أثناء احتجازه في الزنزانة المنفردة. لم يكن يشعر، لحظتها، أنه قادر على إبطال ذلك البرنامج الذي يتحكم فيه.

- أنا... شعرتُ برغبة جامحة في قراءة المخطوط. كان يجب

أن أطلع عليه حتى أتأكد . . . أنني لا أستغل من أجل مشروع عسكري .

- مشروع عسكري؟

- نعم . رفضك السماح لي بقراءة المخطوط أو إخباري بمحتواه بدا لي أمراً مثيراً للشكوك . مع كل هذا الجدل الدولي حول المشروع النووي الإيراني ، انزعاج الأمم المتحدة والتهديدات المتكررة للولايات المتحدة ، مع اعتبار ما فهمت من أمور من كلامك ، أعترف أنني كنت قلقاً جداً .

- لقد فهمتُ .

- بدأتُ أطرح على نفسي بعض الأسئلة ، هل فهمت؟ وبدأت أقول أي ورطة هذه التي حشرت فيها نفسي . كنتُ أريد أن أتأكد مما يجري .

- والرجل الذي كان رفقتك؟ من يكون؟

- مُصَّ؟ شخص تعرفت عليه في السوق .

- مُصَّ تقول؟ مثل مُصدِّق؟

- تماماً - قال طوماس - هل تعرفين ما حدث له؟

- نعم . أصيب بجرح تلك الليلة وتوفي في المستشفى ساعات بعد ذلك .

- المسكين .

- هل التقيت به في السوق؟

- نعم . قال لي إن له تجربة في عمليات السطو . عندما لمست تحفظك في إطلاعي على المخطوط ومحتواه ، بالإضافة إلى الشكوك الأمريكية بخصوص البرنامج النووي الإيراني ، بدأتُ أقلق بخصوص المشروع الذي حشرتُ فيه نفسي . فقط البُله لا يقلقون لشيء كهذا ،

ألا تظنين؟ فقررتُ أن أتعاقد معه - وقام بحركة غامضة - أنت تعرفين بقية ما جرى.

- هممم - همهمت أريانا - أقل ما يمكن أن يقال إنك كنت متهوراً، يا طوماس.

- أنت على حق - قال موافقاً - ثم انحنى على الأريكة كما لو أن فكرة جديدة قد خطرت على باله - جاء دوري لأطرح عليك سؤالاً محرّجاً.

- تفضّل.

- عمّ يتحدث بالضبط مخطوط أينشتاين؟

- سامحني، ولكني لا أستطيع أن أقول لك أي شيء. أن أنقذك شيء، لكن أن أخون بلدي فذاك شيء آخر.

- معك حق. انسي هذا الموضوع. - قال، ثم قام بحركة من يده كمن يبعد الموضوع - لكن، ربما تستطيعين أن تجيبيني عن سؤال آخر.

- ما هو؟

- ما الذي حدث للأستاذ سيزا؟

رفعت الإيرانية أحد حاجبيها.

- كيف عرفت أن هناك صلة بين الأستاذ سيزا وبيننا؟

- ربما أكون شارّد الذهن، لكنني لست أبله.

بدت أريانا محرّجة.

- ولا أستطيع أن أتحدث بهذا الخصوص أيضاً، آسفة.

- لماذا؟ هذا لا يعني خيانة لبلدك، أظن.

- ليس هذا - أجابته - المسألة أنه لو انتبه رؤسائي إلى أنك

تعرف كثيراً من الأمور لا ينبغي لك أن تعرفها، فسوف تطالني شكوكهم أنا أيضاً لا محالة.

- معك حق، معك حق. انسي هذا الموضوع.

- لكن، هناك أمر أستطيع أن أكشف لك عنه.

- وما هو؟

- فندق أورشارد.

- ماذا؟

هناك صلة بين الأستاذ سيزا وفندق أورشارد.

- فندق أورشارد؟ وأين يوجد؟

- ليست لدي أدنى فكرة - ردت عليه أريانا - لكن اسم هذا

الفندق كان مكتوباً بقلم الرصاص بخط يد الأستاذ سيزا على ظهر صفحة مخطوط أينشتاين.

- آه، نعم؟ - صاح طوماس متعجباً - غريب . . .

أشاحت أريانا عنه بوجهها نحو النافذة وتنهّدت. كانت الشمس

تغيب وراء قمم العمارات، تصبغ زرقة السماء بعُروق أرجوانية وبنفسجية وترسم ظلالاً غريبة فوق السحب التي تطفو فوق أفق المدينة.

- يجب أن نخرجك من هنا - قالت وهي ما تزال تحديق في

النافذة، ونبرة قلق تلفّ صوتها.

- من هذه الشقة؟

- من إيران - قالت وهي تنظر إلى طوماس - حضورك يشكل

الآن خطراً كبيراً عليك، عليّ أنا وعلى كل أصدقائي الذين ساعدوني على تحريرك.

- فهمتُ.

- المشكلة أن إخراجك من البلاد لن يكون أمراً سهلاً.

قطب المؤرّخ جيبينه.

- أعرف وسيلة للقيام بذلك.



- ماذا تقول؟

- أعرف وسيلة للقيام بذلك .

- وما هي؟

- كان مُصَّ قد رتب كل الأمور وشرح لي كل التفاصيل . هناك قارب صيد ينتظرنى في مدينة مينائية إيرانية .

- آه، نعم؟ أين؟

- . . . نسيت اسمها .

- هل توجد على الخليج الفارسي؟

- لا، لا . توجد في الشمال .

- على شاطئ بحر قزوين؟

- نعم . لكنى لا أذكر اسم المكان - بذل جهداً ليتذكر - اللعنة! كان عليّ أن أسجله في مكان ما .

- أليست مدينة نور؟

- لا، ليست نور . اذكر أنه كان اسماً طويلاً .

- محمود آباد؟

- لا أعرف . . . ربما، لست متأكداً . - قال وهو يبذل جهداً آخر ليتذكر - أذكر أنه كانت له علاقة بشارلمان أو الإسكندر الأعظم

- سور الإسكندر الأعظم؟

- نعم، يمكن أن يكون ذلك . هل يعني لك شيئاً؟

- طبعاً . إن سور الإسكندر الأعظم يمثل تخوم الحضارة ويقع على الحدود مع تركمانستان . يربط منطقة جبال غولستان ببحر قزوين .

- بناه الإسكندر الأعظم، أليس كذلك؟

- هذا ما تقوله الأسطورة، لكن ذلك ليس صحيحاً. بني السور حوالي القرن السادس الميلادي، لكني لا أعرف من قام ببنائه.

- وهل ثمة مدينة ميناية بالقرب من هناك؟

نهضت أريانا من فوق الأريكة وتوجهت نحو الخزانة. أخذت كتاب خرائط من أحد الرفوف، عادت إلى مكانها وفتحت الكتاب الضخم عند صفحة إيران. تفحصت خطّ ساحل بحر قزوين وتوقفت عند أقرب ميناء من السور.

- بندر تركمان؟

- ... نعم، أظن أنه كذلك! - ذهب طوماس ليجلس إلى جانبها وانحنى على الخريطة - أريني ذلك؟  
وضعت الإيرانية إصبعها على نقطة في الخريطة تشير إلى المدينة.

- إنها هنا.

- تماماً - كرر طوماس بقناعة أكبر - بندر تركمان.

- وماذا يحدث في بندر تركمان؟

- هناك قارب في انتظاري ... أظن.

- أي قارب؟

- أظن أنه قارب صيد، لكني لست متأكداً.

- هناك كثير من قوارب الصيد في بحر قزوين. هل تستطيع أن تتعرفه إن رأيته؟

ثم قام بمجهود آخر ليتذكر.

- له اسم قصير جداً، يشبه اسم عاصمة ... أذربيجان أو ...

شيء من هذا القبيل

- باكو؟

- تماماً! باكو! هذا هو اسم القارب.

فحصت أريانا الخريطة مرة أخرى .

- ليس لدينا ما نضيع من الوقت - قالت - يجب أن نأخذك إلى هناك في أقرب وقت ممكن .

- هل تظنين أنه يمكن أن نطلق غداً؟

فتحت أريانا عينين واسعتين وحدقت فيه بحدة .

- غداً؟

- نعم .

- لا ، يا طوماس ، لا يمكن أن يكون غداً .

- ومتى ، إذن؟ قبل نهاية الأسبوع؟

حركت أريانا رأسها ، ورقصت في عينيها فجأة تعابير كآبة ،

حزينة بعض الشيء ، تكاد تكون حيناً .

- بعد عشر دقائق .

لحظة الوداع ، تعانقا بقوة وحنان ، تحت مراقبة عيني حميدة المحدقتين . كان بود طوماس أن يدفع الغالي والنفيس من أجل لحظة حميمية واحدة؛ كان يود أن ينزوي في مكان ما مع أريانا ويقول لها وداعاً من دون مضايقة ولا حرج . لكن المؤرخ كان يعرف أنه في إيران وأن مثل تلك النزوات ، في مثل تلك الظروف ، كانت مجرد أضغاث أحلام محفوفة بالمخاطر . وكان آخر ما يتمناه هو أن يخرج أريانا . فاكتفى بطبع قبلتين حنونتين على وجهها ثم كابد وأجهد نفسه كي يفارقها .

- هل سترأسلني؟ سألته بصوت خفيض وهي تعض على شفرتها

السفلى .

- نعم .

- تعدني بذلك؟

- أعدك .

- هل تقسمُ بالله على ذلك؟

- أقسمُ بك أنت .

- بي أنا؟

- نعم . أنت أكثر من أي إله . أكثر بكثير .

لحظة الخروج ، حرص على ألا يلتفت إلى الورا . تبع صبار حتى بلغ المصعد ثم سمع باب الشقة يُصفق خلفه .

لاذ بالصمت ، شاردأً ، حزيناً ، ثم ولج المصعد دون أن ينبس ببنت شفة . . كان يمسك بين يديه ثوب الشادور الأسود المجعد الذي مدّته إليه حميدة قبل لحظات ، من أجل السفر .

- أريانا قشنگ - قال الإيراني عندما اهتز المصعد وبدأ ينزل .

- إيه؟

- أريانا قشنگ - كرّر ثم قبل أطراف أصابعه - قشنگ .

- نعم - ابتسم طوماس بحزن - إنها جميلة .

أشار صبار إلى الشادور الذي كان البرتغالي يحمله مطوياً بين يديه وأوماً إليه أن عليه أن يرتديه الآن . وبينما كان المصعد يتابع نزوله ، أدخل طوماس رأسه في الثوب واستعاد تنكّره السابق .

# 20

قطعت سيارة مرسيدس المدينة ببطء يشد الأعصاب، حبيسة حركة السير البطيئة، الكثيفة والفوضوية في طهران. توغلا في الشوارع الصاخبة والتقا مرة أخرى حول ساحة الإمام خميني قبل أن يتوها في متاهة الأزقة الممتدة نحو الشرق. كان طوماس يراقب كل شيء بتوجس وقلق، لا تتوقف عيناه عن الانتقال من مكان إلى آخر، ترقبان أهم التفاصيل. كان كل وجه وكل سيارة ينطويان على تهديد، كل صوت أو منبه سيارة يبعث تحذيراً، وكل توقف وكل حركة يندران بخطر وشيك.

كان الخطر يحدق به من كل حذب وصوب، فاضطر ليردد في نفسه أن كل شيء على ما يرام وأن خياله هو الذي يجعله يرى ما لا وجود له. لقد وضعها، في الحقيقة، خطة وكان كل شيء يسير كما توقعا. قبل الانطلاقة، كانا قد خمننا أن السفر بالسيارة حتى بندر تركمان محفوف بشيء من المخاطر، وخاصة بسبب الحواجز التي وضعتها السلطات لتحديد مكان تواجد الهارب. لذا اختارا النقل العمومي. تقمص طوماس دور امرأة تقية ترتدي شادوراً اختارت أن تلزم الصمت، واتفقا على أن أي اتصال مع أشخاص آخرين لن يتم إلى عبر صبار، المرشد.

وفقاً للخطة التي اتفقا عليها، ركنا السيارة بعد نصف ساعة، بعد

أن تجاوزا حركة السير الفوضوية لفترة نهاية النهار وبلغا وجهتهما الأولى .

- محطة «الشرق» الطرقية - قال صبار .

كانت المحطة الشرقية الخاصة بالحافلات . وقفا أمام المحطة . ومن الشارع ، تأملها طوماس من طرف إلى طرف فلم يكن بوسعه سوى أن وجدها ، في نهاية الأمر ، ضيقة بالنسبة لمحطة تقدم خدمات لكل محافظة خراسان ومنطقة بحر قزوين .

قطعا الشارع ، ودخلا إلى بهو المحطة ليشقا طريقهما وسط المسافرين ، والأمتعة وهدير محركات الحافلات التي تنفث بنزينا محروقا . وصلا إلى شباك التذاكر ، فاشتري الإيراني تذكرتين وأوما لطوماس أن يسرع لأن حافلتها كانت على وشك أن تغادر . عندما بلغا مكان المغادرة وجدا حافلة مهترئة ومنتسخة ، مكتظة بالقرويين ، والصيادين من ذوي الوجوه السمراء والنساء اللواتي يرتدين الشادورات .

صعدا إلى الحافلة ، فوجد الأوروبي صعوبة في قمع تكشيرة تقزز ، رغم أنه كان يستطيع أن يقوم بها بكل حرية لأن لا أحد يرى وجهه ، في نهاية الأمر . بقايا طعام فوق الكراسي وطيور في الأقفاص تمتزج بالركاب ، من دجاج ، وبط ، و فراخ . كان الهواء مشبعاً برائحة البراز الدافئ وطعام الطيور ، يمتزج برائحة لاذعة من البول ، و عرق الركاب وروائح البنزين المحروق التي تغزو كل جنبات المحطة .

انطلقت الحافلة بعد خمس دقائق ، على الساعة السادسة مساء بالضبط . توغلت في الطريق وهي تهتز ، أنبوبها العادم ينفث دخاناً أسود كثيفاً ومحركها يهدر بقوة . كانت حركة السير في طهران ما تزال خانقة كعادتها ، بمناورات سياقة مجنونة ، أصوات منبهات لا تنقطع وفرملات مفاجئة . استغرقت الحافلة ساعتين تقريباً كي تخرج

من المدينة، لكنها، بعد عدة توقفات وعمليات إقلاع تصحبها سحب من الدخان، استطاعت أن تتجاوز المنطقة الحضرية وتنساب بهدوء قرب سفوح الجبال.

كانت رحلة من دون أحداث، تمت ليلاً في منطقة جبلية، مسار يعج بالمنعرجات، بالعقبات والمنحدرات، حيث الأضواء الأمامية بالكاد تنير طبقة ثلج تغطي جنبات الطريق. ولمواجهة الدوار الناتج عن المنعرجات، وروائح البنزين وارتداء الشادور، فتح طوماس زجاج النافذة وقضى جزءاً كبيراً من الرحلة يستنشق الهواء البارد والجاف القادم من جبال ألبرز، وهو ما لم يرق بعض الركاب الذين يفضلون الروائح الدافئة والمقرقة على تيارات الهواء النقي والجليدي.

وصل طوماس وصبّار إلى ساري حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً ونزلا بفندق صغير يقع وسط المدينة اسمه «مسافرخوني». طلب صبّار أن يقدم لهما الطعام في الغرفتين وانسحب كلاهما إلى غرفته. جلس طوماس على السرير، من دون شادور، وراح يأكل الكباب وهو يتأمل المدينة النائمة من النافذة، وخاصة برجاً أبيض به ساعة، كان ينتصب وسط الساحة، أمامه بالضبط.

في الصباح، أخذ حافلة باتجاه جرجان، ولأول مرة استطاع طوماس أن يتأمل، تحت ضوء الشمس، مناظر تلك المنطقة الساحلية. كانت تختلف اختلافاً تاماً عمّ رآه في منطقة طهران. هناك، قرب العاصمة، ترتفع جبال شديدة الانحدار وقمم مكسوة بالثلوج تطل على سهول قاحلة، أما هنا، فتمتد غابة مخضرة، كثيفة، شبه مدارية، أدغال حقيقية عالقة بين الجبال العظيمة وغطاء البحر الهادئ. بعد ثلاث ساعات، وصلا إلى محطة جرجان الطرقية، حيث اضطررا أن ينتظرا وقتاً طويلاً حافلة الربط. كان طوماس يشعر بتعب

شديد وقد ضاق ذرعاً بذلك الشادور المزعج. وفوق هذا، صَبَّار لا يتكلم اللغة الإنجليزية، مما يحول دون أي تواصل بينهما. فلم يكن أمام المؤرخ من خيار سوى أن يمضي الوقت صامتاً. لكن هذا في حد ذاته لم يكن أمراً مزعجاً، بل ربما امتيازاً، على اعتبار أن التكتّم جزء لا يتجزأ من التنكر، بيد أن غياب الحديث كان يحرمه من منفذ يخفف من التوتر المتراكم.

كان القipzig يخيم على ساحة «انقلاب» حيث محطة جرجان. كان النهار يعلن عن بوادٍ يوم حار وارتداء الشادور يزيد كثيراً من تفاقم الأمر. دون أن يتمكن من فهم كيف يمكن للمرء أن يعيش داخل تلك الملابس الثقيلة، اضطر طوماس أن يلجأ إلى كل قواه كي يضبط نفسه، وكانت تغمره أحياناً رغبات جامحة في أن يخلع ذلك الثوب الخانق، ويتخلص من ذلك اللباس الظلامي الذي يعيقه، وأن يمنح جسده شيئاً من الهواء المنعش. لكنه قاوم كل تلك الرغبات التي تداهمه واحتفظ بتنكره.

مع بداية الظهيرة أخذوا آخر حافلة من حافلات الربط. حافلة مهترئة مضت تقفز فوق ثقب الطرقات المفتوحة على السماء مرت عبر منطقة نباتات مخضرة على الشاطئ. تسكّعا عبر دروب وطرق مختصرة، يهتزان لمدة ساعتين، قبل أن يلمحا أولى بنايات وجهتهما النهائية. كانت منازل صغيرة تتقاطع مع زرقة بحر قزوين في الأفق. بندر تركمان.

كانت البلدة تتشكل أساساً من بيوت واطئة، شبه رتيبة، من دون أي سحر ولا جاذبية؛ بيد أن هذا القبح الحضري كانت تعوضه مظاهر الناس المدهشة. ما إن ترّجل الغربيان من الحافلة حتى أخذتا يتأملان رجالاً ونساء يتنزهون في الشوارع بملابس عثمانية أصيلة في نوع من



التراخي واللامبالاة. كان السوق مفتوحاً، لكن السلع المعروضة قليلة؛ وتقتصر التجارة على بعض الأسماك، والملابس التركية وبعض الأحذية الرخيصة.

سأل صَبَّار امرأة تنسج تحت أشعة الشمس جالسة عند عتبة بيتها. عدّلت المرأة الغطاء فوق رأسها وأشارت إلى جهة اليسار بإصبعها الخشن المتسخ.

- إسكله.

مشياً على طول خط سكة حديدية قديمة، تأكلت روافدها الخشبية بين القضيبين، واتجهت نحو مستودعات لتخزين المحروقات. كان صَبَّار يسبق طوماس الذي يجرجر رجليه في الخلف تحت شادور أصبح خانقاً أكثر من أي وقت مضى. مرّاً أمام المستودعين اللذين كانت تفوح منهما رائحة قوية من الزيت والبنزين، ثم توقفاً لَمَّا رأيا أوتاداً خشبية بدائية غُرست هنا وهناك قرب البحر.

ميناء بندر تركمان.

كانت ثلاثة قوارب صيد تتأرجح بلطف فوق مياه بحر قزوين الهادئة، وخليج جرجان يمتد في الخلف مثل لوحة انطباعية من الحجم الكبير. على طول الشاطئ، كانت تطفو رائحة ملح بحري، وفوق سطح البحر الهادئ تعلو أصوات النوارس. وكان تلاحمُ الأصوات والروائح يجعل من ذلك الموقع مكاناً أليفاً لم يسبق لطوماس أن زاره لكنه شعر كما لو أنه يعرفه منذ الأزل. كان يكفيه أن يشتم رائحة بحر كتلك الرائحة ويسمع النوارس تغني بتلك الطريقة ليشعر أنه في موطنه.

دنا المؤرخ من الماء تحت ذلك الشادور الثقيل، عبر التخاريم الخانقة التي تغطي وجهه وحاول أن يقرأ ما كُتِبَ على هيكل كل قارب من القوارب. كان القارب الأول يحمل كتابة بحروف عربية

زادت من حنقه وبأسه . هل تكون هي الاسم الذي يبحث عنه بحروف  
عربية؟ التحق به صَبَّار وقرأ الاسم المنقوس على الخشب .  
- أنهايتا .

لم يكن ذلك هو القارب .

مشى طوماس مئة متر أخرى واقترب من قارب صيد آخر، قارب  
صغير أحمر وأبيض، يرسو قريباً من الشاطئ، بشبাকে المنشورة في  
الشمس ونوارس تحوم فوقه . بحث عن الحروف العربية، لكنه لم  
يكن، هذه المرة، بحاجة إلى مساعدة صَبَّار لأن الاسم كان مكتوباً  
بحروف لاتينية .

*Bakou* -

كان هو القارب .

غير قادر على تحمُّل الشادور أكثر من ذلك، خلع طوماس  
ملابسه بتوتر ثم تخلص منه بعد أن ألقاه على الأرض . ف شعر،  
حينئذ، بنسيم البحر يداعب وجهه الذي يتصبب عرقاً وشعره  
المشعث . أغمض عينيه وولَّى وجهه إلى السماء، كما لو أنه ينتظر من  
النسيم أن يحمل له قبلة . شعر براحة كبيرة، وأنفه يستنشق رائحة  
الخلاص المالحة، رثاه تمتلئان برائحة هواء البحر المنعشة، وقدماه  
تغوصان فيما تركته الأمواج من زيد . كانت هبات الريح تبدو له من  
نفس إلهي، همس خفيف من طبيعة تستقبله بين أحضانها، حركة  
حنان لأُمّ تدلل رضيعها، فعلم أن الحرية كانت تعانقه في النهاية .

بعد هذه اللحظة من النشوة، فتح عينيه من جديد، حدَّق في  
قارب الصيد ووضع يديه بوقاً أمام فمه .

- أوهيبي! هييلا!

تردّد صدى الصوت فوق سطح الماء وأفزح طيور النورس التي  
طارَت في حركة متزامنة، كأنها سحابة سوداء واطئة . رسمت نصف

دائرة رائعة في السماء، فيما يشبه رقصة فنية، وظلت تحوم في دوامة محمومة تجيب على الصوت الإنساني بصيحات عصبية، تكاد تكون هستيرية. فعلت نبرة حزن صوته.

- أوهيبيي! - صاح طوماس ملحاً.

برز رأسٌ على ظهر باكو.

- شكار نمي كُنيد؟ - سأل الصياد من بعيد.

- محمد؟

تردد الصياد.

- به لحظه صبر كُنيد - قال الصياد في الأخير، وهو يشير برأسه

للبرتغالي أن ينتظره.

اختفى رأس الرجل من سطح القارب. ظل طوماس هناك يحدق

في قارب الصيد في صمت، متوتراً، يصلي تقريباً كي تمرّ الأمور كما

كان متوقِعاً. كان قارب الصيد يتمايل على وقع أمواج البحر الهادئ،

كأنه فوق أرجوحة، يبدو مثل قشرة في رقصة حزينة، باليه بطيء على

إيقاع صيحات الحنين التي تطلقها النوارس وهمسات المياه التي

تلامس الرمال في حركة ذهاب وإياب لا تنتهي.

ظهر الصياد من جديد بعد ثلاثين ثانية، يتبعه شخص آخر. هذه

المرّة، كان الشخص الآخر هو من تحدث، لكن بالإنجليزية.

- أنا محمد. هل يمكن أن أساعدك؟

كاد طوماس يقفز من الفرح.

- نعم، يمكنك أن تساعدني - صاح، ضاحكاً من الارتاح -

هل تنوي الذهاب إلى مكة هذه السنة؟

رغم المسافة، رأى طوماس محمد يتسّم.

- إن شاء الله.

# 21

أخذ ظلُّ صَبَّار النحيف يتلاشى في الأفق حتى صار نقطة صغيرة على الشاطئ، تختفي كلما تقدم في مياه بحر قزوين الداكنة نحو البحر المفتوح. كانت طيور النورس تحلق خفيفة، تحرس القارب على أمل التقاط شيء من السمك، لكن البحارة ظلوا مركزين على الإبحار، بعد أن انقضت ساعات الراحة التي يقضونها في اللعب مع الطيور.

اقترب أحدهم من طوماس. شَعَرَ البرتغالي بهذا الحضور فالتفت. كان محمد. التزم قائد القارب لحظة صمت، وراح يرقب بدوره ظلَّ صَبَّار الذي كان يتلاشى على الشاطئ. كان محمد أذرياً ذا لحية شيباء، لكن شكله الأنيق، سحته البيضاء وأظافره المقلمة بعناية كانت تشي بأنه لم يكن صياداً بل رجلاً من المدينة.

- كُنَّا على وشك أن نقلع - قال محمد - لو تأخرت يوماً آخر كنا سنبحر. أنت محظوظ لأنك وجدتنا.  
- أعرف ذلك.

قام بحركة نحو الشاطئ الخالي الذي تركه صَبَّار.

- هل هو أيضاً معنا؟

- صَبَّار؟

- نعم. هل هو أيضاً من رجالنا؟

- لا .

- ومن يكون، إذن؟

- إنه سائق .

- سائق؟ - قال وهو يرفع حاجبه - كيف ذلك؟ هل خضعتما

للمراقبة؟

تنهّد طوماس، متعباً .

- إنها حكاية طويلة - قال - لكن صَبَّار شخص أنقذ حياتي .

من دونه ما كنت لأكون هنا .

لم يضيف محمد أي تعليق آخر، رغم أنه بدا واضحاً أنه لا يحب الكلام المرتجل مع الغرباء، وَيَعْتَبِرُ ذلك عملاً غير احترافي . بيد أنه لم يضيف أي ملاحظة، وهو يعلم أن راكبه، محترفاً كان أم لا، قد مرّ بعدة محن كي يصل إليه، وهذا يفرض الاحترام والتقدير .

بقيا معاً جامدين في مؤخرة القارب، يتنفسان ملء رئتيهما ويستمتعان بالشاطئ الإيراني تحت ضوء الغروب . كانت رائحة البحر قوية . نسيمٌ قوي كان يهبّ الآن، يخنقُ صيحات النوارس وهدير المحرك الذي لا يتوقف . كانت السماء تتخذ ألواناً دافئة فوق الزرقة البنزينية، لكن ضوءاً بارداً كان يغمر خط الشاطئ، وسلسلة جبال ألبرز تمتد طويلة في الأفق على اليمين وقد غطت الثلوج قممها، بينما، بعيداً، كانت الشمس تجري لتُقبّل بحر قزوين .

كان الليل يحلّ .

شعر قائد القارب ببرد ريح الشمال ففرك ذارعيه بقوة، دون أن يفلح في الاستدفاء، ثم استعد للعودة .

- سأعود نحو الداخل - أعلن - على أي حال، حان وقت

الاتصال بالقاعدة .

- هل ستتصل بمدينة باكو؟

- لا ، لا .

- وبأي مدينة سوف تتصل؟

- لانغلي .

نزل الليل على بحر قزوين مثل غطاء خانق، يلف القارب الذي يهدر بظلام كثيف، يكاد يكون مخيفاً، حتى أنه كان يمتزج بالأعماق. وحدها بعض نقط الضوء اللامعة في الأفق كانت تشير إلى قوارب صيد تشتغل أو بواخر نقل أو ركاب ينتقلون من ضفة إلى أخرى.

غير مبال بالبرد، تأخر طوماس فوق مقدمة القارب. لقد عاش ثلاثة أيام مغلقاً داخل تابوت من الإسمنت وليست ريحٌ قارسة ولا ليلٌ بهيم هما ما قد يمنعانه من الاستمتاع بحريته المستعادة، ومن الغوص في شساعة السماء وملء رئتيه بهواء عليل تصفع به الريح وجهه.

فُتح باب دفة القيادة وجاء أحد البحارة ممن يتحدثون الإنجليزية وأشار إلى طوماس.

- سيدي، تعال - قال - القائد يطلبك.

كانت دفة القيادة دافئة ومضاءة جيداً، لكن سحابة الدخان ورائحة السجائر كانت لا تطاق. أشار البحار إلى سلم ضيق فنزل طوماس نحو الطابق الأسفل، دخل إلى مقصورة صغيرة حيث كان محمد. كان القائد يضع سماعة على أذنيه وميكروفوناً أمام فمه، ويقوم بالاتصال عبر جهاز مخبأ داخل مشكاة في الحائط.

- هل استدعيتني؟

لمحه محمد وأوماً إليه أن يأتي ليجلس بالقرب منه.

- معي لانغلي على الخط.

جلس المؤرخ على الكرسي بينما كان القائد يكمل مكالمته، التي كانت بكاملها عبارة عن مجموعة اللوغاريتمات وكلمات من قبيل «fox trots» و«papa kilos». في الأخير، أزال محمد السماعه ومدّها لطوماس .

- إنهم يريدون التحدث معك - قال .

- من هم؟

- وكالة المخابرات الأمريكية، في لانغلي .

- من بالضبط؟

- بيرتي سيسمونديني .

- من يكون هذا؟

- إنه منسق *Directorate of Operations*، المكلف بإيران .

وضع طوماس السماعه على أذنيه وعدّل الميكروفون أمامه .

تنحنح متردداً بعض الشيء، ثم انحنى نحو الأمام حتى يتأكد من أن الميكروفون يلتقط صوته .

- أهلاً .

- أستاذ نورونا؟

كان صوتاً أغنّ، أمريكياً جداً، ينطق اسمه بشكل سيّء، مثل

معظم الأنجلوسكسونيين .

- نعم، أنا .

- أنا بيرتي سيسمونديني، المسؤول عن عمليات إيران . أوكي،

قبل البداية، دعني أتأكد إن كان هذا الخط مؤمناً .

- حسناً - قال طوماس غير مبال بمشكل أمان الخط الذي يبدو

أنه يقض مضجع كل موظفي وكالة المخابرات الأمريكية - كيف حالك؟

- ليس بخير، يا أستاذ، ليس بخير .

- ماذا إذن؟

- أستاذ، منذ عدة أيام اختفى عميلنا في طهران. كان من المفترض أن ينجز رفقتك عملية في غاية التعقيد قبل أن يُخرجك من البلاد بوسائل أنت تستعملها الآن، على أي حال. المشكلة أن صاحبنا لم يعد يزودنا بأخباره. كما أننا فقدنا الاتصال بعميل آخر، وكما لو أن كل هذا لم يكن كافياً، كنا نجهل هنا أين اختفيت كل هذا الوقت. وهناك الكثير من الناس في حالة استنفار، يطرحون عليّ كمّاً هائلاً من الأسئلة لا أملك لها أي جواب. هلاً تفضلت، يا سيدي، وشرحت لي ما حدث؟

- من هما هذان العميلان اللذان تتحدث عنهما؟

- أخشى، لأسباب أمنية، أن أكون غير قادر على أن أزودك باسميهما.

- هل هما مُصّر وباباك؟

- باباك، نعم، أما مُصّر، فلا أعرفه.

- آه، طبعاً - تذكّر طوماس - مُصّر ليس هو اسمه الحقيقي -

- فكّر - أخبرني، هل يتعلق الأمر بشخص طويل قوي البنية؟  
- تماماً.

- ألم تتوصلوا بأي شيء من أخباره؟

- لا شيء.

- اسمع، أنا آسف، لكن يبدو أن رجلنا الضخم قد مات.

ثم ران صمت قصير في الجهة الأخرى من الخط.

- باغ . . . إيه . . . مات؟ هل أنت متأكد؟

- لا، لست متأكداً تماماً. رأيته فقط يطلق النار داخل الوزارة

قبل أن يهاجمه الإيرانيون بعد ذلك. أخبروني أنه قد جرح ونُقل إلى



المستشفى حيث لفظ أنفاسه بعد بضع ساعات. أما باباك، فلا أعلم عنه شيئاً، في الواقع.

- لكن، ماذا حدث بالضبط؟

قدّم طوماس شرحاً مفصلاً، يحكي كل ما حدث في الوزارة ثم في سجن إفين. تحدث عن هروبه وحكى ما أخبرته به أريانا، وكل ما قامت به من أجل مساعدته على مغادرة البلاد.

- هذه امرأة استثنائية - قال سيسموندني معلقاً في النهاية - هل تعتقد أنها تقبل أن تكون عميلتنا في طهران؟

- ماذا تقول؟ - قاطعه طوماس وهو يرفع صوته - لا تُعَوّل على ذلك!

- أوكي، أوكي - ردّ الأمريكي في الجهة الأخرى من الخط، وقد أدهشته نبرة طوماس الحازمة - لم يكن ذلك سوى اقتراح، هدى من روعك.

- اقتراح سيئ - أكد المؤرخ بصوت أكثر قوة - دعوها وشأنها، هل فهمت؟

- أوكي، لا تقلق - طمأنه من جديد.

فجأة، شعر البرتغالي بغضب شديد من الطريقة التي يتصرف بها مسؤولو الوكالة الأمريكية في حياة الآخرين وفق مصالحهم، من دون أدنى شعور بالذنب. اغتنم طوماس الفرصة ليثير مسألة كانت تقف شوكة في حلقه منذ عدة أيام.

- اسمع - قال - لدي سؤال أريد أن أطرحه عليك.

- نعم؟

- هل أعطيتكم أوامر... لرجلكم الضخم بأن يقتلني إن ألقى علينا القبض؟

- ماذا؟

- قُبيل إلقاء القبض علينا داخل الوزارة، طلب مني مُص أن أحقن نفسي بسُم. هل أنتم من أعطيتموه الأمر بذلك؟
- حسناً . . . نحن . . . من أعطيناه تعليمات أمنية، أفنهم؟
- لكن، هل أعطيتموه هذا الأمر؟
- اسمع، هذا أمر يُعطى في كل العمليات السياسية المعقدة، بحيث إنه . . .
- إذن، أنتم من أعطيتموه هذا الأمر - استنتج طوماس - أود الآن أن أعرف سبب ذلك. لماذا لم يتم إخباري بهذا الاحتمال في حالة القبض عليّ؟
- لسبب بسيط. لأنه لو كنت على علم بهذا الإجراء لما كنت قبلت أن تشارك في العملية.
- هذا أكيد.
- مع الأسف، هذا هو الإجراء الذي يجب اتباعه في الحالات القصوى. حياتك، شئت ذلك أم أبيت، أقل أهمية من أمن الولايات المتحدة الأمريكية.
- اسمع، الأمر ليس كذلك، بالنسبة لي، كما يجب أن تعلم.
- كل شيء يتعلق بوجهة النظر - قال سيسمونديني - لكن، عموماً، عميلنا في طهران طبق التعليمات كما يجب لأنه لم يتركهم يقبضون عليه حياً.
- كان حياً عندما قبضوا عليه. لم يمت إلا لاحقاً.
- في هذه الحالة، الأمر سيان. لو تمكن الإيرانيون من استنطاقه، كان ذلك سيكون كارثة. كانوا سيتوصلون إلى الطريقة التي تجعله يتحدث وهذا ما كان سيُعرض عمليتنا في طهران لخطر كبير.
- من هنا كان قلقنا من عدم التوصل بأخباره. وكن على يقين أنهم كانوا سيجبرونك أنت بدورك على الاعتراف.

- لكنهم لم يفعلوا .

- بفضل صديقتك، حمداً للرب - استنتج الأمريكي - اسمح لي لحظة - ثم غير نبرة صوته، وبدا متردداً، كما لو أن أحدهم يهمس في أذنه - اسمع، شكراً على المعلومات، إنها تساعدنا كثيراً . . . والآن معي شخص يريد أن يتحدث إليك، أوكي؟ - حسناً .

- لحظة من فضلك .

سمع المؤرخ أصواتاً غريبة على الخط ثم موسيقى، لأن المكالمة، على ما يبدو، نُقلت إلى جهاز آخر . وبعد بضع لحظات، أعلن مُخاطبٌ آخر عن نفسه . - أهلاً، طوماس .

تعرف البرتغالي ذلك الصوت الأجنس والفاتر، بنبرته الهادئة المهددة التي تخفي عدوانية مبطنة . - مستر بيلامي؟

*You're a fucking genius* -

كان، فعلاً، هو فرانك بيلامي، المسؤول عن *Directory of Science and Technology* .

- كيف حالك، مستر بيلامي؟

- لست راضياً . لست راضياً بالمرة .

- لماذا؟

- لأنك فشلت .

- انتظر . . .

- هل المخطوط في حوزتك؟

- لا .

- هل قرأت المخطوط؟

مكتبة  
t.me/t\_pdf

- إيه . . . لا ، لكن . . .

- إذن ، لقد فشلت - ردّ بيلامي بصوته المشحون ببرودته المعتادة - لم تتحقق أهداف مهمتك . لقد فشلت .  
- الأمر ليس كذلك .

- وكيف هو؟

- أولاً ، عملية سرقة المخطوط لم تكن مسؤوليتي . لا أدري إن كنت تعرف ذلك ، ولكنني لست فرداً من أفراد قواتكم الخاصة التابعة لوكالتكم اللعينة ولم أتلق أي تدريب لأقوم بدور اللص . إن كانت العملية قد فشلت فلأن عميلكم لم يكن يتمتع بما يكفي من الكفاءة لتنفيذها على أحسن وجه .

- حسناً - اعترف مسؤول وكالة المخابرات الأمريكية . سوف أقرّع زميلي في *Directorate of Operations* .

- ثانياً ، لدي معلومة بخصوص اختطاف الأستاذ سيزا .  
- صحيح؟

- نعم . إنه اسم أحد الفنادق .

- أي فندق؟

- فندق أورشارد .

لزم بيلامي صمتاً ، كما لو أنه يدون شيئاً ما .

- أور . . . شارد - نطق الكلمة بثاقل - وأين يوجد؟

- لا أعرف . لدي الاسم فقط .

- حسناً ، سوف نتأكد من ذلك .

- تأكدوا من ذلك - ألحّ طوماس .. ثالثاً ، رغم أنني لم أحصل

على ترخيص بقراءة مخطوط أينشتاين ، أعرف أن الإيرانيين غير قادرين على فك شفرته .

- هل أنت متأكد؟

- نعم، هذا ما أخبروني به .

- نعم؟

- كيف؟

- من هو الإيراني الذي قال لك ذلك؟

- أريانا باكرافان .

- آه، جميلة أصفهان - ثم لزم صمتاً - هل هي، فعلاً، إلهة في

الفراش؟

- عفواً؟

- لقد سمعتني جيداً .

- لن أنحط لأجيبك عن هذا السؤال .

- أطلق بيلامي قهقهة عالية .

- حساسيتك عالية، أليس كذلك؟ أرى أنك مغرم . . .

- أطلق طوماس طقطقة لسان تنم عن الانزعاج .

- اسمع - قال محتجاً - هل تريد أن تستمع لما سأقوله أم لا؟

- غيّر الأمريكي نبرة صوته .

- هيا، تابع كلامك .

- آه . . . أين توقفت؟

- كنت تقول إن الإيرانيين كانوا عاجزين عن فكّ شفرة الوثيقة .

- آه، نعم! - صاح طوماس وهو يستعيد خيط أفكاره - إنهم

يقفون حائرين أمام نص الوثيقة، ولا يعرفون، على ما يبدو، كيف

يؤوّلونها . حسب ما فهمت، يعتقد الإيرانيون أن مفتاح فكّ شفرة

الوثيقة مخبأ في رسالتين مشفرتين تركهما أينشتاين .

- نعم . . .

- ما حدث أنني اطلعت على هاتين الرسالتين . وهما معي .

- حسناً، حسناً .

- فككتُ شفرة واحدة منهما .

ثم ران صمت قصير .

- ماذا قلتُ لك؟ - صاح بيلامي - *You're a fucking genius* .

ضحك طوماس .

- أعرف ذلك .

- وماذا تقول الرسالة المشفرة؟

- حسناً . . . في الحقيقة، لم أفهم جيداً .

- ماذا تقصد بكلامك؟ هل فككت شفرة الرسالة أم لا؟

- نعم، لقد فككتُها - قال مؤكداً .

في الحقيقة، لم يقم طوماس وحده بفك شفرة القصيدة، لأن أريانا أسهمت بدورها في ذلك العمل، بيد أن عالم فكّ التشفير فضل عدم ذكر هذه التفاصيل . كان ثمة شيء ما يخبره بأن بيلامي قد يفقد أعصابه إن علم بأن المسؤولة الإيرانية عن مشروع *Die Gottesformel* كانت على علم بكل شيء .

- إذن؟ - أراد الأمريكي أن يعرف - ماذا عن هذا الموضوع؟

- في الحقيقة، لدي انطباع بأن الرسالة لغز، في حد ذاتها - شرح عالم فكّ التشفير - إنها مثل صورة تجسيمية، هل فهمت؟ أي أن كل رسالة مشفرة تخبيء رسالة مشفرة أخرى مشفرة بدورها . ومهما فككتنا من شفرات، دائماً تظهر شفرات أخرى خلفها .

- وماذا كنت تنتظر؟ أن ينزل عليك الوحي؟

- عفواً؟

- أسألك ما الذي كنت تنتظره . أن يقدموا لك الحل على طبق؟ لا تنس أن مؤلف هذه الوثيقة هو أذكى رجل عاش فوق كوكبنا . فلا غرو أن تكون ألغازه على درجة عالية من التعقيد، أليس كذلك؟

- نعم، ربما تكون على حق.

- طبعاً، أنا على حق - قال بعصية - لكن، أخبرني بما تقوله تلك الرسالة اللعينة التي فككت شفرتها.  
- انتظر لحظة.

تحسّس طوماس جيب معطفه، قلقاً على حين غرة، لكن، بارتياح كبير، شعر بالورقة مطوية تماماً في المكان الذي وضعها فيه. قد يكون حراس سجن إفين ساديون من الدرجة الأولى، لكنهم لم يلمسوا أغراضه الشخصية. أو ربما لم يكونوا يتوقعون أنه سيهرب قبل أن يفتشوا كل شيء تفتيشاً تاماً، من يدري؟ على أي حال، تلك الورقة التي تضم اللغزین نجت من السجن.

- سوف تجعلني أنتظر، أليس كذلك؟ - سأله بيلامي، وقد ازداد نفاد صبره.

- لا، لا، ها هي - قال طوماس وهو يبسط الورقة - إن النص أمام عينيّ.

- اقرأه عليّ، إذن.

مرّر المؤرخ عينيه على السطور المخربشة.

- إن النص الذي فككت شفرته عبارة عن قصيدة وضعت في الصفحة الأولى من المخطوط، تحت العنوان بالتحديد.

- ما يشبه اقتباساً يتصدر كتاباً؟

- نعم. هو كذلك.

- وماذا تقول القصيدة؟

- إنها شيء قائم نوعاً ما - لاحظ طوماس - سأقرأه عليك - ثم

تنحني قبل أن يقرأ: *Terra if fin, de terrors tight, Sabbath fore,*

*Christ nite*

- يا إلهي! - صاح بيلامي - هل تعرف أنني قرأتُ هذا في

مكان ما؟ عميلنا في طهران بعث لنا بهذه النص قبل أسبوع أو أسبوعين .

- بالفعل، لأنني أنا من زوّدته بهذا النص .

- إنها أبيات شعرية قاتمة، ألا ترى ذلك؟ تبدو كأنها نذير بيوم القيامة . . .

- تماماً .

- لا أعرف ما الذي اخترعه أينشتاين، لكن لا بد أنه سيتج عنه انفجار جهنمي! - قال - اللعنة! يجب علينا، فعلاً، أن نتدخل عسكرياً .

- لكنني فككت شفرة الرسالة المضمرة في هذه الأبيات .

- هيا، قل لي .

وقعت عينا طوماس على الحروف المكتوبة باللغة الألمانية .

- اكتشفت أن الأمر يتعلق بجناس تصحيفي . فورا القصيدة المكتوبة باللغة الإنجليزية هناك رسالة باللغة الألمانية .

- آه، نعم؟ هذا مثير للغاية .

- تقول الرسالة ما يلي - ثم توقف لحظة ليعدل نبرة صوته -

*Raffiniert ist der Herrgott, aber boshaft ist er nicht*

ثم ران الصمت مرة أخرى في الجهة الأخرى من الخط :

- هل يمكن أن تكرر؟ - طلب بيلامي، بصوت مضطرب .

- *Raffiniert ist der Herrgott, aber boshaft ist er nicht* -

قرأ طوماس مرة أخرى . وهذا هو معنى هذا الكلام - ثم بحث عن ترجمة تلك الجملة - «الرّبُّ ماکرٌ، لكنه ليس شريراً» .

- هذا أمر لا يصدق! - صاح بيلامي .

اندهش طوماس لحماس مخاطبه .

- نعم، إنه مدهش بالفعل . . .



- مدهش؟ بل قل إنه غريب تماماً! لا أستطيع أن أصدق ذلك.
- إنها جملة ملغزة، بالفعل. لكن، كما تعرف، ربما نكون . . .
- إنك لا تفهم - قاطعه رجل وكالة المخابرات الأمريكية - لقد سمعت هذه الجملة على لسان أينشتاين نفسه.

- كيف ذلك؟

- سنة ١٩٥١، في برنستون، خلال لقائه برئيس الوزراء الإسرائيلي، نطق أينشتاين بهذه الجملة بالضبط. كنتُ هناك وسمعتُ كل شيء - لزم صمتاً - دعني أبحث . . . لا بد أنني أتوفر على ذلك في مكان ما هنا - سُمعت بعض الأصوات عبر الخط، ولحظة بعد ذلك سمع صوت بيلامي الأجرس مرة أخرى - ها هو هنا.

- ماذا؟

- تدوين الحديث الذي دار بين أينشتاين وبن غوريون. في لحظة معينة، بدأ يتحدثان باللغة الألمانية. دعني أحدد مكان المقطع . . .
- صوتُ أوراق تُقلب - لا بد أنه هنا . . . ها قد وجدته! هل تريد أن تسمع؟

- نعم، نعم.

- قال أينشتاين . . . - *تنحج بيلامي* - : *Raffiniert ist der Herrgott, aber boshaft ist er nicht* - ثم غيّر نبرة صوته - حين سمع بن غوريون هذا الكلام، سأله - ثم لزم صمت آخر - : *Was wollen Sie damit sagen*، وهو ما ردّ عليه أينشتاين قائلاً: *Die Natur verbirgt ihr Geheimnis durch die Erhabenheit ihres Wesens aber icht durch List*

- وماذا يعني هذا؟

- لدي الترجمة هنا.

ثم تابع بيلامي كلامه مقلداً صوت العالم.

- «الرَّبُّ مَكْرٌ، لكنّه ليس شريراً».

- هذا أعرفه .

ثم استأنف عميل وكالة المخابرات الأمريكية كلامه مقلداً، هذه المرة، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق .

- على رسلك! حين سمع بن غوريون هذه الجملة سأل أينشتاين: «ما الذي تقصده بهذا الكلام؟» وهو ما رد عليه العالم قائلاً - غير لكتته - *Die Natur verbirgt ihr Geheimnis durch die*

*. Erhabenheit ihres Wesens aber icht durch List*

شعر طوماس أنه ينفجر تلهفاً .

- نعم، لقد فهمت . لكن، ماذا يعني هذا؟

ابتسم فرانك بيلامي، وهو يتسلى بترك البرتغالي ينتظر وإثارة فضوله . وضع عينيه من جديد على الترجمة وقرأ أخيراً تلك الجملة التي نطق بها أينشتاين قبل خمس وخمسين سنة:

«إن الطبيعة تخفي سرّها بسبب ماهيتها العظيمة، ولا تفعل ذلك من باب المكر» .

# 22

وهو يرى مدينة كويمبرا تبرز على يسار الطريق، مثل حصن يرتفع شامخاً فوق جبل من الجير، كاد طوماس نورونيا يطلق صرخة انشراح. كانت المدينة العتيقة تلمع على ضفاف موندیغو، تحت أشعة شمس مشرقة ونسيم عليل يهب على النهر. كانت الواجهات البيضاء والأسطح بلون القرميد تمنح الفضاء شكلاً أليفاً وحميمياً يعطي طوماس الإحساس بأن المدينة بيته. في الحقيقة، أدرك أنه لن يشعر في أي مكان آخر بما يشعر بها هنا حيث كانت حياته في هذه المدينة، بمنزلها التي تفتح له أذرعها كي تحتضنه بعدوبة الأم وحنان حضنها.

كان الوافد الجديد قد أمضى الأيام الأخيرة مسافراً. أولاً، عبر بحر قزوين نحو الشمال حتى بلغ ميناء باكو. وفي عاصمة أذربيجان، تكلف محمد بأن يجد له تذكرة على متن أول طائرة من نوع «توبوليف» إلى موسكو حيث توجه إليها على الفور. بعد أن قضى ليلة في فندق جميل وسط المدينة، قرب الكرملين، غادر العاصمة الروسية في الصباح التالي. قطع أوروبا بكاملها قبل أن تحط الطائرة في لشبونة، عند بداية الزوال. في ظروف عادية، كان سيذهب مباشرة إلى بيته، لأنه نال ما يكفي من الإرهاق وأعصابه متعبة، لكن حالة والده الصحية كانت تشغل باله وكان من غير الوارد تماماً ألا يذهب ليزوره على الفور.

وبينما هو ما يزال في مطار لشبونة، اشترى بطاقة بريدية وبعثها إلى أريانا مع كلمة بسيطة. أخبرها أنه قد وصل بخير، وأنه يُقبلها ثم وقع باسم «ساموط»، اسمه الشخصي مكتوباً بطريقة معكوسة. وهي حيلة من حيل التشفير في حالة ما إذا اعترضت رسالته وزارة الاستخبارات والأمن الوطني أو أي مصلحة استخباراتية أخرى في إيران.

بكل جدية، كان يعرف أنه يجب أن يتخذ قراراً بخصوص أريانا. فالإيرانية ما فتئت تشغل باله، خصوصاً بعد ما قامت به من أجل تحريره، وهو فعلٌ، كما أدرك طوماس، لا يمكن أن يكون له سوى معنى واحد. كان دليل حب. منذ أن فارقها، كانت ملامحها الرقيقة تشغل أحلامه، وتداهمُ عيناها العسلتان وشفثاها الشهيان ذاكرته. كانت عذوبة وجهها تغزو أحاسيسه، وخطوط جسدها الأهيف توحى له برغبة شهوانية، لكن أكثر ما كان ينقصه هو سماع نبرة صوتها المخملي. والحقيقة، كما لاحظ، أنه اشتاق لأريانا، لحضورها المهدئ، لعطرها. مع امرأة كهذه يمكنه أن يتحدث حتى ينسى مفهوم الزمن وتتحول الكلمات إلى قُبَل.

لكن الوقت كان سابقاً لأوانه حتى يفكر في أحاسيسه نحو أريانا. كانت الأولوية، في الوقت الحالي، هي أن يزور والده. بعد ذلك، ينبغي له أن يحل مشكلة أخرى، مشكلة وكالة المخابرات الأمريكية. كان طوماس يعرف أن عليه أن يجد وسيلة لقطع أي صلة مع الوكالة الأمريكية، لأنه ضاق ذرعاً بالأعيبهم الدنيئة وهو يرى نفسه مجرد وسيلة بين أيادي أشخاص لا ضمير لهم.

حان الوقت ليصبح سيد نفسه من جديد.

أطلقت غراسا نورونيا صرخة لما فتحت الباب ورأت ابنها يتسم لها .

- طوماس - صاحت وهي تفتح له ذراعَيْها - لقد عُدتْ!  
تعانقا .

- هل كل شيء على ما يرام، يا أمي؟

- يمكن أن نقول ذلك، ادخل يا ابني، ادخل - قالت .  
دخل طوماس إلى القاعة .

- أين أبي؟

- ذهب أبوك إلى المستشفى من أجل العلاج . سوف يعيدونه إلى البيت بعد قليل .

ثم جلسا على الأريكة .

- كيف حاله؟

- أقل غضباً، المسكين . لبعض الوقت، كان لا يطاق فعلاً .

يظل صامتاً في ركنه، وحين يفتح فمه، لا يقوم سوى بالاحتجاج على كل شيء وعلى الجميع . كان يقول إن الدكتور غوفيا لا يفيد في شيء، وإن الممرضين أفظاظ، وإن «شيكو القطرة» هو من كان عليه أن يصاب بالمرض . . . على أي، عذاب حقيقي .

- وهل تحسنت حاله؟

- نعم، لحسن الحظ . يبدو أكثر تقبلاً لما ألمَّ به، أظن أنه بدأ

يتقبل الأمور بشكل أحسن .

- والعلاج؟ هل هو فعّال؟

هزّت غراسا كتفيها .

- أوه، لست أدري! - صاحت - أفضل ألا أقول شيئاً .

- كيف ذلك؟

- ماذا تريدني أن أقول لك، يا عزيزي؟ العلاج بالأشعة مرهق، هل فهمت؟ وأسوأ ما في الأمر أنه لن يشفيه.
- وهل يعلم ذلك؟
- نعم.
- وكيف هو ردّ فعله؟
- يتشبث بالأمل. كما قد يفعل أي مريض في نفس الظروف

- أي أمل؟ الأمل في الشفاء؟
- نعم. الأمل في أن يتم اكتشاف وسيلة جديدة لحل المشكلة. تاريخ الطب يعج بمثل هذه الحالات.
- صحيح - وافقها طوماس وهو يشعر أنه لا يقل عنها عجزاً - سوف ننتظر أن يحدث شيء ما.
- أمسكته الأم من يديه.
- وأنت؟ هل أنت بخير؟
- نعم، بخير.
- لم تزودنا بأي خبر من أخبارك! كنا جميعاً هنا في قلق شديد وأنت لا تقول شيئاً...
- أنت تعرفين، أخذني العمل...
- تراجعت السيدة نورونيا خطوة إلى الوراء وتفحصت ابنها.
- وفوق هذا، أنت نحيف جداً، يا ولدي. أي طعام رديء كنت تتناوله في الصحراء؟
- في إيران، يا أمي.
- الأمر سيان! أليست هناك في الصحراء حيث توجد الجمال؟
- كلا يا أمي - قال لها وهو يستجمع صبره أمام الخلط الجغرافي لأمه - إيران لا تقع بعيداً، لكنها ليست في الصحراء.

- لا يهم - قالت - كل ما أراه هو أنك نحيف مثل مسمار! ألم يقدم لك البدو أي شيء لائق لتأكله؟
- نعم . . . لقد أكلت جيداً.
- نظرت إليه أمه غير مصدقة .
- إذن كيف عدت نحيفاً جداً على هذا النحو؟ يا إلهي، كأنك جئت من إقليم يُبأفرا؟
- حسناً، لم آكل جيداً في بعض الأيام . . .
- رفعت غراسا يدها اليمنى .
- كنت متأكدة من ذلك! أنت مهووس بأن تغلق على نفسك في المكتبات والمتاحف لأيام وأيام، فتنسى أن تتناول وجبة الغداء . . .
- وبعد ذلك . . .
- ثم قامت بحركة باتجاه طوماس، كما لو أنها تعرض دليلاً أمام المحكمة .
- وبعد ذلك، ها هي النتيجة!
- نعم، ربما تكونين على حق - قال وقد شعر برغبة في الضحك - لا بدّ أنني نسيت وجبة الغداء .
- بعد ذلك، نهضت السيدة نورونيا عازمة .
- انتظر قليلاً! سوف أُسمّنك كما يُسمّن ديكٌ حبشيّ عشية أعياد الميلاد، وإلا فإن اسمي ليس هو ماريا دي غراسا روسيندو نورونيا!
- صاحت وهي تنهض - لدي هنا حساء خروف لذيذ، هل سمعت؟ شيء رائع، سوف ترى - وطلبت منه أن يتبعها - هيا، تعال معي إلى المطبخ .
- كان حساء الخروف عند النصف، مسقياً بنبيذ «دُورُو» أحمر، عندما رنّ هاتف طوماس .

- سيد نورونا؟

أدار المؤرخ عينيه. كانت اللكنة أمريكية بكل تأكيد، وهذا يعني أن وكالة المخابرات الأمريكية لا تتركه وحاله.

- نعم، هذا أنا.

- معك مكتب *Directory of Science and Technology* التابع

لوكالة المخابرات الأمريكية في لانغلي. لحظة، من فضلك. هذا الخط مُؤمّن والسيد المدير يريد أن يتحدث معك.

- حسناً.

واستمرت الموسيقى تملأ الهاتف بينما كان تحويل المكالمات جارياً.

- أهلاً، طوماس. معك فرانك بيلامي.

بصوته الفريد، لم يكن بيلامي بحاجة إلى أي تقديم.

- أهلاً، سيد بيلامي.

- هل اعتنى بك جيداً رجال الوكالة؟

- فقط انطلاقاً من بحر قزوين، سيد بيلامي، فقط انطلاقاً من

بحر قزوين.

- آه، نعم؟ هل تشكو من شيء قبل وصولك إلى بحر قزوين؟

- لا شيء يستحق الذكر - قال البرتغالي متهكماً - فقط

حارسكم المرافق لي أراد أن يحقنني بالسّم داخل بناية الوزارة.

ضحك بيلامي.

- نظراً لما حدث بعد ذلك، لحسن الحظ أنك لم تتركه يقوم

بحقنك. هل تدرك ذلك؟ لو أنه تمكن من القضاء عليك ما كنا

لنحصل على المعلومات التي قدمتها لنا ولظلت أبحاثنا في مأزق.

- شكراً على حرصك على سلامتي - رد طوماس بمرارة - أنا

متأثر للغاية.



- نعم، أنا إنسان عاطفي. لا أفكر إلا في صحتك.

- هذا ما لاحظته.

تنحج الأمريكي.

- اسمع، يا طوماس، إن اتصالي بك يتعلق بتلك المعلومة التي قدمتها لنا.

- أية معلومة؟

- معلومة عن فندق أورشارد.

- آه، نعم.

- قمنا بتحريات واكتشفنا أن هناك مئات الفنادق عبر العالم

تحمل هذا الاسم. في سنغافورة، وسان فرانسيسكو، ولندن . . . في

كل مكان، في الحقيقة. في هذه الحالة، سنكون كمن يبحث عن إبرة

في كومة قش.

- فهمتُ.

- ألن يكون لديك عنصر إضافي يمكن أن يساعدنا؟

- لا - قال طوماس - كل ما أعرف أن ثمة صلة بين فندق

أورشارد والأستاذ سيزا. لا أعرف شيئاً آخر غير هذا.

- كل هذا غامض جداً - قال الأمريكي - سوف نتابع البحث،

بطبيعة الحال. المشكلة أن ذلك قد يتطلب منا سنوات. هل فهمت؟

- فهمت، لكنني لا أستطيع القيام بأي شيء آخر.

- من زودك بهذه المعلومة؟

- أريانا باكرافان.

- هممم - همهم بيلامي، وهو يفكر في الأمر - وهل يمكن

أن نثق بها؟

- بأي معنى من المعاني؟

- بمعنى أنها قالت لك الحقيقة.

- هي من أنقذتني، أليس كذلك؟ من دونها، ما كنت هنا  
لأتحدث معك. أعتقد أنها قالت لي الحقيقة . . .
- *I see*. وهل تظن أنه يمكننا أن نتصل بها؟
- من؟ أريانا؟
- نعم.
- لا تفكر في هذا الأمر!
- لماذا؟ لقد أنقذتك، إذن هي ليست بالضرورة إلى جانبهم.
- ساعدتني لأنها رغبت فعلاً في ذلك. لم يكن ذلك فعلاً  
سياسياً، كان تصرفاً . . . شخصياً.
- صمت بيلامي لمدة جزء من الثانية.
- أرى أنك قد ذهبت معها إلى الفراش، في نهاية الأمر.
- لا تثر هذا الموضوع مرة أخرى.
- ضحك الأمريكي.
- هل هي رائحة في الفراش، فعلاً، كما يُقال؟
- اسمع، هل اتصلت بي لتسألني عن هذه الأمور؟
- اتصلت بك لأنني أريد معلومات أخرى إضافية عن تلك التي  
زوّدتني بها.
- ليست لدي معلومات إضافية.
- لكن هي، لديها معلومات.
- أريانا إيرانية ومخلصة لبلدها. إن اتصلتم بها فستخبر رؤساءها  
بكل شيء.
- هل تظن ذلك؟
- أنا متأكد.
- وما الذي يجعلك تقول هذا؟

- لأنها رفضت أن تزودني بتفاصيل عن البرنامج النووي الإيراني كما رفضت أن تكشف لي عن محتوى مخطوط أينشتاين

تردد بيلامي وشدّ طوماس أنفاسه تقريباً، ينتظر القرار في الجهة الأخرى من الخط. لقد دفع المؤرخ للتو بالحجة الوحيدة التي يمكن أن تردع الأمريكيين. إما أن يقنعهم بأن أريانا مخلصة لنظام طهران، أو أن وكالة المخابرات الأمريكية ستذهب لتضايقها وتضع حياتها في خطر.

- حسناً - قال بيلامي موافقاً - في هذه الحالة، لم يبق أمامنا سوى أن نفتش كل الفنادق، إيه؟  
- نعم، هذا أفضل.

- وأنت؟ هل تقدمت في فكّ شفرة الرسالة الثانية؟  
- ... تحديداً، كنتُ ... أودّ أن أفك أي ارتباط لي بهذا الموضوع. تعرف، لقد عانيتُ كثيراً ولا أريد أن ...  
- هذا ما كان ينقصنا!

- عفواً؟  
- لن يتخلى أحد عن هذه المشكلة ما دامت من دون حل، هل فهمت؟ - صاح بيلامي بنبرة لا تقبل أي نقاش - سوف تنجز هذه المهمة حتى نهايتها.

- ولكن، اسمع، أنا لا  
- ليس هناك من «ولكن»! أنت منخرط في مهمة في غاية الأهمية وعليك أن تنجزها مهما كان الثمن. هل أنا واضح بما يكفي؟

- اسمح لي، ولكن أنا

- هل أنا واضح بما يكفي؟

- نعم ... إلا أنه ...

- اسمعني، اسمعني جيداً - زارَ الأمريكي بصوت فظ، متهجياً كل كلمة. سوف تلعب دورك حتى النهاية. لن أقول لك ما قد يلحق بك لو ترددت لحظة واحدة في ذلك. أطلب منك أن تشتغل على هذه القضية مئة في المئة، هل فهمت؟

- آه، حسناً

- هل فهمت؟

شعر طوماس بالهزيمة، لأن نبرة رجل وكالة المخابرات الأمريكية لم تترك له هامشاً للمناورة.  
- نعم.

- هناك شيء آخر - أضاف بيلامي، دائماً بنفس الشراسة - إننا في سباق مع الزمن. نحن بحاجة إلى معرفة محتوى المخطوط كي نستطيع أن نتصرف. إن تأخرت كثيراً في العثور على مفتاح الوثيقة، لن يكون لدينا من خيار سوى أن نتصل بصديقتك. والحقيقة أنها تعرف أشياء نحن في حاجة إلى معرفتها. إن أمن بلادي في خطر وأنا مستعد لاستعمال كل الوسائل من أجل الحفاظ عليه، هل فهمت؟ سوف أستعمل كل الطرق الضرورية كي أنتزع منها المعلومة التي أحتاج إليها. وعندما أقول كل الطرق، فإنني أتحدث فعلاً عن كل الطرق، بما فيها تلك التي تفكر فيها أنت - ثم لزم ما يشبه الصمت، كما لو أنه لم يعد لديه ما يضيف - أنصحك بأن تسرع.

ثم وضع السماعه دون أن يضيف شيئاً آخر.

ظل طوماس لحظة طويلة ينظر إلى الهاتف المحمول في يده، يتذكر الحديث، ويُقيّم الخيارات. وسرعان ما استنتج أنه لم تكن

أمامه من خيارات ولم تعد تتردد في ذهنه غير عبارة واحدة لوصف فرانك بيلامي .  
- ابن العاهرة .

أعاد أحد الممرضين مانويل نورونيا إلى بيته . كان والد طوماس متعباً بعد حصة العلاج بالأشعة فذهب لينام . حملت له الزوجة حساء إلى غرفته ، وبينما كان يتناوله رأى ابنه يقترب من السرير . حتى يكسر الصمت ، الذي لا يتخلله سوى صوت مانويل وهو يبتلع الحساء ، حكى طوماس جزءاً مما عاشه في طهران متحاشياً ، بطبيعة الحال ، الحديث عن مهمته الحقيقية في العاصمة الإيرانية وعن أحداث الأيام الأخيرة . ما إن انتهى من كلامه حتى انعطفت الحديثُ حتماً نحو المرض . انتهى عالم الرياضيات من تناول الحساء ، وبعد أن غادرت زوجته الغرفة ، طلب من ابنه أن يقترب ليقول له سراً .  
- لقد عقدتُ اتفاقاً - همس قائلاً وهو يبدو كأنه يتأمل .

- اتفاقاً؟ أي اتفاق؟

نظر مانويل إلى الباب ووضع سبابته على شفثيه .

- صه - همس قائلاً - أمك لا تعرف شيئاً . لا هي ، ولا أي أحد آخر .

- حسناً ، لن أقول شيئاً .

- عقدت اتفاقاً مع الله .

- مع الله؟ ولكنك لم تؤمن قط بالله . . .

- وما زلت لا أؤمن به - أكد عالم الرياضيات - ولكن ، مع ذلك ، أبرمت معه اتفاقاً ، في حالة ما إذا كان موجوداً ، لست أدري ، أليس كذلك؟

ابتسم طوماس .

- فكرة جيدة.

- هذا هو الاتفاق. وعدتُ الله أن أقوم بكل ما يطلبه مني الأطباء. كل شيء. ومقابل ذلك، أطلب منه أن يتركني لأعيش حتى أرى حفيداً من أحفادي.

- أوه، أبي.

- هل سمعتَ؟ إذن، ابحث لنفسك عن امرأة جميلة وأنجبا طفلاً. إنني لا أريد أن أموت قبل أرى حفيدي.

تحكم طوماس في تكيشرة سأم كادت تعلو محياه، لكن والده كان مريضاً وهو لا يريد أن يعاكسه.

- حسناً، اتفقنا، سوف أهتم بالأمر.

- هل تعدني بذلك؟

- أعدك.

أخذ مانويل نفساً عميقاً وترك رأسه يرجع إلى الوراء، كأنه تخلص من حمل ثقيل.

- إذن، هذا جيد.

ران صمت.

- كيف حالك الآن؟

- كيف تريد لحالي أن تكون؟ - همهم والده ورأسه مدفون في الوسادة - هناك مرض ينخر أحشائي ولا أعرف إن كنت سأعيش

أسبوعاً، شهراً، سنة، أو عشر سنوات. شيء فظيع!

- أنت محقّ، شيء فظيع.

- أحياناً، أستيقظ على أمل أن يكون كل ذلك مجرد كابوس وأن كل شيء سيكون على أحسن ما يرام، في نهاية الأمر. لكن،

بعد بضع ثوان، أدرك أنه لم يكن كابوساً، بل واقعاً - ثم حرك رأسه - لن تتصور كم هو مؤلم أن يستيقظ المرء على أمل وأن يفقده

مباشرة بعد ذلك، كأن أحدهم يلعب معي، كما لو أن الحياة لعبة وأنا طفل صغير. في بعض الصباحات، أجدني أبكي . . .

- لا ينبغي أن تكون حزيناً

- كيف تريد ألا أكون حزيناً؟ إنني على وشك أن أفقد كل شيء، أن أفارق الناس الذين أحبهم، وتريدني ألا أكون حزيناً؟

- هل تفكر في ذلك طوال الوقت؟

- لا، أحياناً فقط. في بعض الصباحات، أفكر في الموت، لكن ذلك لا يحدث إلا لماماً. في الحقيقة، في معظم الأوقات، أحاول أن أركز على الحياة. ما دمتُ على قيد الحياة، لدي أمل في أن أعيش، هل تفهم؟

- يجب أن تبقى إيجابياً، أليس كذلك؟

- تماماً. فكما أننا لا نستطيع أن ننظر إلى الشمس دائماً، كذلك لا يمكن أن نفكر في الموت طوال الوقت.

- خصوصاً أنه يمكن أن يظهر أي حل - قال طوماس.

حدجه والده بنظرة فيها بريق خاص.

- نعم، يمكن دائماً أن يحدث شيء ما! - قال متعجباً - في هذه اللحظات من اليأس الكبير، أتشبث بهذه الفكرة - ثم لزم صمتاً

- هل تدري ما هو حلمي؟

- لا.

- أراني في مستشفى كويمبرا. يأتي الدكتور غوفيا، يجلس إلى جانبي ويقول لي: «أستاذ نورونيا، لدي هنا دواء جديد جاء من الولايات المتحدة ويبدو أنه يعطي هناك نتائج مذهلة. هل تريد أن تجربه؟» - صمّت، شارد البصر، كأنه يعيش حلمه في تلك اللحظة - يمد لي الدواء، وبعد بضعة أيام يخضعونني لعلاج مضاد للسرطان ثم

يظهر أمامي الطيب وهو يصيح «لقد اختفى! اختفى مرضك! اختفت الأورام!» - ثم ابتسم - هذا هو حلمي .  
- يمكن أن يتحقق .

- صحيح . يمكن أن يتحقق . بالمناسبة، لقد أخبرني الدكتور غوفيا أن هناك عدة حكايات بخصوص الأمراض العضال . أشخاص على حافة الموت يجربون دواءً جديداً فيتعافون في رمشة عين - ثم تئاب - لقد حدث هذا .

ثم ساد الصمت .

- كنت تحدثني عن الله قبل قليل .

- نعم .

- لكنك، يا أبي، رجل علم، عالم رياضيات ولم تؤمن قط بوجود الله . وها أنت اليوم تعقد معه اتفاقاً

- حسناً، بكل صراحة، قد أقول إنني ربما لست متأكداً من أن الله موجود أو غير موجود . لنقل إنني من مذهب اللاأدرية، لا أملك يقيناً عن وجود الله ولا عن عدم وجوده .

- لماذا؟

- لأنني لا أعرف دلائل على وجود الله، لكن، مع معرفة ما أعرف عن الكون، فأنا لست متأكداً من أنه غير موجود - سَعَلَ - كما ترى، هناك جزء من ذاتي ملحد . لطالما بدا لي أن الله من خلق البشر، اختراع عجيب يطمئننا ويملاً بسهولة ثغرات معرفتنا . مثلاً، يمر شخص فوق قنطرة فتنهار . بما أنه لا أحد يعرف لماذا انهارت القنطرة، فإن الجميع يعزي هذه الظاهر للمشيئة الإلهية - ثم هزّ كتفيه بطريقة مستسلمة - الله هو من أراد ذلك . ولكن، اليوم، بفضل معارفنا العلمية، نعرف أن القنطرة انهارت ليس بسبب الإرادة الإلهية، بل نتيجة تآكل مواد بنائها، أو بسبب انزلاق في التربة، أو



بسبب وزن مفرط يفوق تحمُّل تلك المنشأة. على أي، هناك تفسير حقيقي أصله ليس إلهياً. هل فهمت؟ هذا ما نسميه «إله الثغرات». كلما جهلنا أمراً، نستحضر الله فيبدو الأمر قابلاً للتفسير، بينما هناك تفسيرات أخرى أكثر واقعية، حتى وإن كنا نجهلها.

- هل تظن أنه يستحيل أن يكون هناك تدخُّل لما فوق الطبيعة؟  
- ما فوق الطبيعة هو ما نستحضره عندما نجهل الطبيعة. قديماً، عندما كان يمرض شخص ما، كان الناس يقولون إن الأرواح الشريرة تسكنه. أما اليوم، فيمرض الشخص ونقول إن ما يسكنه هو البكتيريا، والفيروسات أو أي شيء آخر. المرض هو نفس المرض، لم يتغير، لكن ما تغير هو معارفنا حول أسبابه. هل فهمت؟ عندما نجهل الأسباب، نستحضر ما فوق الطبيعة. الآن، وقد بتنا نعرف الأسباب، فإننا نستحضر الطبيعة. إن ما فوق الطبيعة ليس سوى وهم يغذيه جهلنا بالطبيعة.

- إذن، ليس هناك من شيء يسمى ما فوق الطبيعة.  
- لا، كل ما هناك هو الطبيعة التي لا نعرفها معرفة جيدة. إن الملحد الذي يسكنني يعتبر أنه ليس الله من خلق الإنسان، بل الإنسان هو من خلق الله - وبحركة من يده أشار إلى الغرفة بكاملها - إن كل ما يحيط بنا له تفسير. أعتقد أن الأشياء تسير وفق قوانين كونية، مطلقة وخالدة؛ وهي أيضاً قوانين ذات قدرة شاملة، وجودها كلي ومعرفتها مطلقة.

- تقريباً مثل الله...  
ضحك والده بصوت خفيض.  
- نعم، إن شئت. صحيح أن قوانين الكون لها نفس الصفات التي غالباً ما ننسبها إلى الله، لكن ذلك يكون لأسباب طبيعية، وليس لأسباب فوق طبيعية.

- كيف ذلك؟

- القوانين الطبيعية تملك هذه الصفات لأن ذلك من طبيعتها .  
مثلاً، هي مطلقة، لأنها لا تتوقف على أي شيء آخر، تؤثر في  
الحالات المادية لكنها لا تتأثر بها . وهي خالدة لأنها لا تتغير بفعل  
الزمن، فهي كانت كذلك في الماضي وستستمر كذلك في المستقبل .  
وهي ذات قدرة شاملة لأنه لا شيء يغيب عنها وتمارس قوتها على  
كل ما يوجد . وهي ذات وجود كلي لأننا نجدها في كل مكان من  
الكون، إذ لا وجود لقوانين تطبق هنا وقوانين أخرى تطبق هناك .  
ومعرفتها مطلقة لأنها تمارس قوتها بشكل آلي، من دون حاجة إلى  
أنظمة تخبرها بوجودها .

- ومن أين تأتي هذه القوانين؟

رسم عالم الرياضيات ابتسامه طفولية ماهرة على محياه .

- ها قد طرحت عليّ سؤالاً عويصاً .

- بمعنى؟

- إن أصل قوانين الكون يشكل لغزاً كبيراً . صحيح أن هذه  
القوانين لها نفس الصفات التي ننسبها عادة إلى الله - سَعَل - لكن،  
حذار، إن جهلنا بأصلها لا يعني بالضرورة أنها تنتمي إلى ما فوق  
الطبيعة . تذكر أننا نلجأ إلى ما فوق الطبيعة لتفسير ما لا نعرفه بعد،  
لكنه يتوفر على تفسير طبيعي . إذا استحضرننا ما فوق الطبيعة كلما  
جهلنا شيئاً، فإننا نلجأ إلى «إله الثغرات» . وبعد مرور بعض الوقت  
نكتشف السبب الحقيقي، فنبدو كالبُله . الكنيسة، مثلاً، لم تفتأ  
تستعمل «إله الثغرات» لتفسير أشياء لم يكن لها من تفسير في  
الماضي، لكنها اضطرت لتتناقض عندما كانت الاكتشافات تفند  
وجود الله . فكوبرنيكوس، وغاليلي، ونيوتن، وداروين حالات جد  
معروفة - سَعَل - مهما يكن، يا طوماس، تبقى مسألة أصل قوانين

الكون أمراً لا نستطيع تفسيره. ثم إن الكون يتميز بعدد من الخصائص تمنعني من الجزم جزماً تاماً بأن الله غير موجود. وما قضية أصل القوانين الأساسية إلا واحدة من تلك الخصائص. وجودها يذكرنا بأن ثمة لغزاً عظيماً وراء الكون.

مرر طوماس أصابعه على ذقنه، مفكراً. ثم قام بحركة نحو جيب معطفه.

- قل لي يا أبي - قال وهو يتحسس جيبه - لدي هنا جملتان ملغزتان أود أن تشرحهما لي إن استطعت.

- هيا، أنا أستمع لك.

دسّ طوماس يده في جيبه وأخرج ورقة بسطها. مرّر عينيه على النص ثم التفت نحو والده.

- هل أستطيع؟

- هيا.

- «الرّبُّ ماكرٌ، لكنه ليس شريراً». - قرأ الجملة الأولى، ثم مرّ إلى الجملة الثانية: «إن الطبيعة تخفي سرّها بسبب ماهيتها العظيمة، ولا تفعل ذلك من باب المكر».

ورأسه غارق في الوسادة الكبيرة، ابتسم مانويل نورونيا.

- من قال هذا؟

- أينشتاين.

حرك عالم الرياضيات رأسه.

- كلام صائب.

- ولكن ماذا يعني كل هذا؟

تثاءب الأب مرة أخرى.

- أنا متعب الآن - قال بكل بساطة - سأشرح لك غداً.

# 23

عندما استيقظ طوماس، سمع أطقماً وأواني ترتطم ويعلو رنينها في البيت. نهض من سريره، ذهب إلى الحمام حيث استحجم في خمس دقائق ثم توجه مرتدياً برنساً نحو المطبخ. وجد أمه جالسة إلى المائدة، كأس حليب ساخن في يدها وقطعتي خبز محمص في الصحن.

- صباح الخير طوماس - قالت أمه وهي تلوح بقطعة خبز محمص - هل تريد شيئاً؟

- نعم. هل هناك عصير برتقال؟

نهضت المرأة وذهبت لتري ما في الثلاجة. أخرجت علبة برتقالية اللون وتأكدت من تاريخ الصلاحية.

- آسفة، ابني، فات تاريخ صلاحيته. عليّ أن أشتري منه.

- والفواكه؟ هل هناك فواكه؟

أشارت غراسا إلى السلة الموضوععة فوق الرف، قرب الثلاجة.

- هناك موز، وتفاح وحبّات برتقال - ثم نظرت مرة أخرى إلى

الثلاجة - هناك أيضاً ليتشي بالعصير. ماذا تفضل؟

أدخل طوماس قطعتي خبز أبيض في محمصة الخبز وأخذ برتقالة

سرعان ما راح يقشرها.

- سأخذ برتقالة.

- هذا أحسن. لأنها حلوة ومن منطقة «الغرب»، جنوب البلاد.  
بعد أن قشر البرتقالة، جلس طوماس على كرسي وقضم منها  
جزءاً يفيض بالعصير.

- أين هو أبي؟

- ما زال نائماً. أخذ أقرصاً كي لا يسعل أثناء الليل، لكن  
المشكلة أنه، في النهاية، ينام أكثر مما ينبغي.

- فعلاً، لقد ذهب إلى الفراش باكراً. وفي هذه الساعة، ينبغي  
أن يكون قد استيقظ.

- لا تقلق، لن يتأخر كثيراً - خلعت أمه مريبتها وألقت نظرة من  
حولها، تحاول أن تنظم نفسها - اسمع، هذا ما سنقوم به. كل شيء  
جاهز من أجل فطوره، جيد؟ عليّ أن أذهب إلى السوق من أجل  
شراء ما يلزم لوجبة الغداء، وبما أنك ستبقى هنا فإنه ليس هناك من  
مشكلة، أليس كذلك؟  
- لا، طبعاً.

- أبوك سينهض جائعاً جداً. لم يتناول أمس غير شيء من  
الحساء، وكما أعرفه سوف يحاول أن يستدرك ما فاتته هذا الصباح.  
- هذا جيد.

- إذن، عندما يستيقظ أبوك، ما عليك سوى أن تسخن له  
الحليب. لا تنس ذلك.

أخذت غراسا علبة مذهبة، رُسمت صورة طائر على غطائها.  
- رقائق الشوفان. تسخن الحليب، تصبه في صحن مقعر  
وتضيف دقيق الرقائق. هل فهمت؟

أخذ منها طوماس العلبة ووضعها على المائدة.

- يمكنك أن تذهبي. كوني مطمئنة.

لم يظهر أبوه في المطبخ إلا بعد مرور نصف ساعة. وكما توقعت الأم، كان جائعاً، وكما اتفقا حضر طوماس رقائق الشوفان بالحليب. ثم جلسا معاً لتناول الفطور.

- إذن، أريني جملتي أينشتاين - سأله مانويل، بينما كان يحمل ملعقة إلى فمه.

ذهب طوماس إلى غرفته يبحث عن الورقة حيث كُتبت الجملتان ثم عاد إلى المطبخ.

- ها هما - قال وهو يجلس في مكانه ويفتح الورقة في يده - «الرّب ماكّر، لكنه ليس شريراً». «إن الطبيعة تخفي سرّها بسبب ماهيتها العظيمة، ولا تفعل ذلك من باب المكر» - نظرَ إلى والده - ما الذي يمكن أن تعنيه، في نظرك، هاتان الجملتان على لسان عالم.

ابتلع عالم الرياضيات بعض رقائق الشوفان التي كانت في الملعقة.

- إن أينشتاين يشير إلى خاصية متأصلة في الكون وهي الطريقة التي تظل بها أكبر الألغاز مخفية بمهارة. ومهما حاولنا سبر أغوار اللغز، نصطدم دائماً بحاجز خفي يمنعنا من حله حلاً نهائياً.

- أظن أنني لم أفهم . . .

أدار الأب الملعقة في الهواء.

- سوف أعطيك مثلاً - قال - لنأخذ مسألة الحتمية وحرية الاختيار. هذه إشكالية تناولتها الفلسفة منذ وقت طويل، وأعدت الفيزياء والرياضيات طرحها مرة أخرى.

- هل تريد أن نتحدث عن معرفة ما إذا كانت قراراتنا حرة أم

لا؟

- نعم - قال موافقاً - ما رأيك؟

- أظن أننا أحرار، أليس كذلك؟ - قام طوماس بحركة نحو النافذة - مثلاً، أتيتُ إلى كويمبرا لأنني قررت ذلك بكل حرية - ثم أشار بإصبعه إلى الصحن فوق المائدة - إن كنتَ أكلت هذه الرقائق فلأنك أردت ذلك.

- هذا هو رأيك؟ هل تظن حقاً أننا نتخذ هذه القرارات بكل حرية؟

- نعم . . . نعم . . . أظن ذلك.

- ألم تأت إلى كويمبرا لأنك مشروط نفسياً بكوني مريضاً؟ ألم أتناول هذه الرقائق لأنني مشروط نفسياً أو تحت تأثير أي إشهار من دون وعي مني؟ - ثم قطب حاجبيه كأنه يريد أن يؤكد على ما قاله للتو - إلى أي حد نحن أحرار فعلاً؟ إن حللنا أصولها العميقة، أليست القرارات التي نظن أننا نتخذها بكل حرية مشروطة بعدد لا يحصى من العوامل التي لا ندرك وجودها في أغلب الأحيان؟ ألا تكون حرية الاختيار مجرد وهم؟ وماذا لو كان كل شيء مقدرًا دون أن نكون على وعي بذلك؟

تململ طوماس في كرسيه.

- أظن أن هذه أسئلة ملغومة - لاحظ بحذر - ما هو جواب العلم؟ هل نحن أحرار أم لا؟

- هذا هو الشك العظيم - قال والده وهو يتسم بشيء من المكر - إن لم أكن مخطئاً، كان أول من دافع عن مبدأ الحتمية فيلسوف يوناني يدعى ليوكيبوس. كان يؤكد أنه لا شيء يحدث بمحض الصدفة وأن لكل شيء سبباً. أفلاطون وأرسطو، عكس ذلك، كان لهما رأي آخر وكانا يعطيان مكانة لحرية الاختيار، وهي وجهة نظر اعتمدها الكنيسة. لأنها كانت تخدم مصالحها، أليس كذلك؟ ما دام

الإنسان مخيراً، فإن الله ليس مسؤولاً عن كل ما يلحق العالم من شرو. لقرون طويلة، سادت فكرة أن البشر يملكون حرية الاختيار. فقط مع نيوتن وتقدم العلوم تم استرجاع فكرة الحتمية، لدرجة أن واحداً من أهم علماء الفيزياء في القرن الثامن عشر، الماركيز ببيير دي لابلاس، طور منها نظرية هامة. لاحظ أن الكون يخضع لقوانين أساسية واستنتج من ذلك أنه لو عرفنا تلك القوانين وعلمنا وضعية كل جزيئة في الكون، سنكون قادرين على معرفة كل الماضي وكل المستقبل، لأن كل شيء محدد سلفاً. وتسمى هذه الفرضية «شيطان لابلاس». كل شيء محدد سلفاً.

- همم - همهم طوماس - وماذا يقول العلم الحديث؟

- كان أينشتاين يتفق مع هذا الرأي، وقد بنى نظريات النسبية وفق مبدأ حتمية الكون. لكن الأمور تعقدت مع ظهور نظرية الكم، التي جاءت بنظرية الاحتمية في عالم الذرة. تعود صياغة نظرية الاحتمية لهايزنبرغ الذي لاحظ، سنة ١٩٢٧، أنه يستحيل أن نحدد في الوقت ذاته، وبكل دقة، موقع جُزئية دقيقة وسرعتها. من هنا نشأ مذهب اللايقين، الذي جاء ...

- لقد سمعتُ عن ذلك من قبل - قاطعه طوماس وهو يتذكر الشرح الذي قدمته له أريانا في طهران - تصرفُ الأشياء الكبيرة حتمي، وتصرف الأشياء الصغيرة لاحتمي.

نظر مانويل لحظة إلى ابنه.

- عجباً! - صاح - ما كنتُ أتصور أنك على علم بهذه الأمور.  
- نعم، لقد حدثوني عنها مؤخراً. أليس هذا هو المشكلة التي وَّجَّهت البحث نحو نظرية الكل، التي تستطيع التوفيق بين هذه التناقضات؟

- تماماً - أكد عالم الرياضيات - وهذا ما يمثل اليوم الحلم



الكبير لعلم الفيزياء. إن العلماء يبحثون عن نظرية تستطيع، من بين أمور أخرى، أن تجمع بين نظرية النسبية ونظرية الكم تحل مسألة حتمية أو لاحتمية الكون - سَعَلَ - لكن، من المهم ملاحظة أمر معين. إن مبدأ اللايقين يؤكد أنه يستحيل أن نحدد بدقة تصرف جزيئة ما بسبب حضور من يلاحظها. على امتداد عدة سنوات كان هذا موضوع أحاديثي مع الأستاذ سيزا الذي اختفى، أتعرف هذا؟ - نعم.

- ما حدث هو أن مبدأ اللايقين، الذي هو مبدأ حقيقي، أثار ما كنا دائماً أنا وسيزا نسمّيه «دققاً من السخافات» التي جعلت بعض علماء الفيزياء يقولون إن جزيئة ما لا تقرر في أي مكان تكون حين يظهر من يُلاحظها.

- سمعتُ عن هذا الأمر أيضاً - قال طوماس - إنها حكاية الإلكترون الذي عندما يوضع في علبة من قسمين، يجد نفسه في هذين القسمين في الوقت ذاته، و فقط حين يُرفع الغطاء يقرر الإلكترون البقاء في هذا القسم أو ذلك . . .

- تماماً - قال الأب مندهشاً من معارف طوماس في مجال فيزياء الكم - تعرضت هذه الفرضية لسخرية أينشتاين وعلماء فيزياء آخرين، بطبيعة الحال. تخيلوا عدة أمثلة لبيبنوا عبثية هذه الفكرة، وكان أشهر مثال هو قَطُّ شُرودنغر. برهن شُرودنغر على أنه إذا كان بإمكان جزيئة أن تكون في مكانين مختلفين في الوقت ذاته، فإن قَطّاً يمكن أن يكون حياً وميتاً في الوقت نفسه، وهو أمر عبثي.

- نعم - قال طوماس موافقاً - لكن، هل ميكانيكا الكم هذه، رغم غرابتها وتناقضها مع الحدس، تنسجم مع الرياضيات ومع الواقع، أليس كذلك؟

- طبعاً، تنسجم! - صاح مانويل - لكن، المسألة ليست إن

كانت تنسجم أم لا ، لأنها فعلاً تنسجم ، بل المسألة أن نعرف إن كان التأويل صحيحاً .

- كيف ذلك؟ إن كانت تنسجم فلأنها صحيحة .

ابتسم عالم الرياضيات العجوز .

- هنا تتدخل الدقة الملازمة للكون - قال - لقد أثبت هايزنبرغ أنه يستحيل أن نحدد بكل دقة ، وفي الوقت ذاته ، وضعية جزيئة ما وسرعتها بسبب ما يمارسه من يُلاحظها من تأثير . وهذه الملاحظة هي التي أدت إلى التأكيد أن عالم الجزيئات الدقيقة لاحتمي . بعبارة أخرى ، لا يمكن أن نحدد تصرفاتها . لكن هذا لا يعني أن تصرفها لاحتمي ، هل فهمت؟

حرك طوماس رأسه مرتبكاً .

- يا لها من فوضى ! لا أفهم شيئاً .

- اسمع ، يا طوماس ، وانتبه إلى الدقة . في البداية ، أثبت هايزنبرغ أنه يستحيل تحديد سرعة ووضعية جزيئة ما بكل دقة بسبب حضور المُلاحظ . أكرر ، بسبب حضور الملاحظ . إن مبدأ اللايقين لم يثبت قط أن تصرف الجزيئات الدقيقة كان لاحتمياً . فقط يؤكد أن هذا التصرف لا يمكن تحديده بسبب حضور المُلاحظ وما يمارسه من تأثير على الجزيئات التي يُلاحظها . بعبارة أخرى ، الجزيئات الدقيقة لها تصرف حتمي ، لكن يستحيل تحديده . هل فهمت؟

- هممم ...

- هنا تكمن الدقة - قال وهو يرفع يده - مع دقة أخرى إضافية . إن مبدأ اللايقين يعني أيضاً أنه لا يمكن أبداً أن نثبت أن تصرف المادة حتمي ، لأنه ، حين نحاول ذلك ، فإن التأثير الذي يمارسه المُلاحظ يحول دون الحصول على هذا الدليل .

- فهمت - هممم طوماس - لكن ، لماذا كل هذا الجدل؟

ضحك والده .

- هذا هو السؤال الذي طالما طرحته على نفسي أيضاً - قال -  
كنا أنا وسيزا دائماً حائرين لأنه لا أحد أدرك أن الأمر يتعلق بمسألة  
دلالة لفظية ناتجة عن الخلط بين كلمة «لاحتمي» وعبارة «غير قابل  
للتحديد» - ثم رفع يده - لكن هذا ليس هو الأهم . الأهم أن مبدأ  
اللايقين، حين ينفي إمكانية أن نستطيع يوماً معرفة كل الماضي وكل  
المستقبل، يكشف عن دقة أساسية في الكون . كما لو أن الكون يقول  
لنا ما يلي: التاريخ محدد منذ فجر الأزمنة، ولكنكم لا تستطيعون  
إثباته أو معرفته بكل دقة . هذه هي الدقة . إن مبدأ اللايقين يكشف لنا  
أنه، حتى لو كان كل شيء محدد سلفاً، تبقى الحقيقة النهائية غير  
قابلة للتحديد . إن الكون يخفي لغزه وراء هذه الدقة .

قرأ طوماس جملة أينشتاين مرة أخرى .

«الرّبُّ مكرٌّ، لكنه ليس شريراً» . «إن الطبيعة تخفي سرّها  
بسبب ماهيتها العظيمة، ولا تفعل ذلك من باب المكر» - ثم رفع  
رأسه - ولماذا هذه الفكرة التي تقول إن الرّب ليس شريراً ولا  
يستعمل أي مكر؟

- هذا ما قلته لك منذ البداية - أجابه والده - إن الكون يخفي  
سره، لكنه يفعل ذلك بسبب عظمة تعقده .

- فهمتُ - أكد طوماس - لكن صفة استحالة تحديد تصرف  
المادة لا ينطبق سوى على عالم الذرة، أليس كذلك؟  
علت تكشيرة محيا عالم الرياضيات .

- في الواقع، هذه الدقة توجد في كل المستويات .  
- كنت أظن أنك لا تتحدث إلا عن استحالة التحديد الخاصة  
بالكم - قال طوماس متعجباً .

- فعلاً، هذا هو الظن الذي كان سائداً من قبل. لكن اكتشافات أخرى أُنجزت منذ ذلك.

- أي اكتشافات؟

تأمل مانويل نورونيا المدينة خلف النافذة، بعين حالمة، مثل طائر سجين يرقب السماء من وراء قضبان قفصه.

- انظر، ماذا لو ذهبنا لنشرب قهوة هناك في الساحة؟

مكتبة

[t.me/t\\_pdf](https://t.me/t_pdf)

# 24

كانت ساحة «التجارة» تمتطى كسلانة في هدوء الصباح. الشمس تُبرز بريق الواجهات والشرفات الحديدية للبنائيات العتيقة التي تحف الساحة. وحدها الواجهة الصفراء الداكنة لكنيسة ساو تياغو، ذات الأسلوب الهندسي الروماني، كانت متميزة من بين تلك الواجهات. دكاكين عديدة كانت تُدخل البهجة على الساحة. رصيف المقهى كان يبدو جذاباً، فجلس الأب وابنه إلى مائدة، مددا أرجلهم ووليا وجهيهما نحو الشمس، ليستقبلا بمتعة أشعتها التي تدفئ الجسد.

جاء النادل يحمل دفترأ صغيراً في يده، فطلب الزبونان فنجانين قهوة. عندما ابتعد النادل، نظر طوماس بعفوية إلى والده.

- قبل قليل، كنت تقول إن استحالة التحديد ليست خاصة  
حصرية على العالم الكمي . . .

- نعم.

- لكن، إما أنني مخطئ تماماً أو أن هذا يتناقض مع كل  
الفرضيات السابقة. ألم تكن نظرية النسبية والفيزياء الكلاسيكية  
لنيوتن نظريتين حتميتين؟

- كانتا كذلك وما تزالان.

- كلاهما تفران بأن تصرف المادة يمكن توقعه.

- ليس كذلك تماماً.

- لا أفهم. لأنه، حسب ما قالوا قبل بضعة أيام، إن كنت أعرف وضعية القمر، سرعته واتجاهه، يمكنني أن أحسب بكل دقة حركاته السابقة والآتية. أليست هذه هي إمكانية التنبؤ؟  
- إن الأمر ليس بهذه البساطة. لقد حصلت، بعد ذلك، اكتشافات غيرت كل شيء.

- أي اكتشافات؟

عاد النادل ووضع فنجانني قهوة على الطاولة. عدل مانويل نورونيا جلسته، ارتشف جرعة خجولة وجال بنظره في السماء، يلاحظ الغيوم التي تنزلق بهدوء فوق الزرقة الصافية.  
- قل لي شيئاً ما، يا طوماس، لأي سبب من الأسباب لا يمكننا أن نتوقع حالة الطقس بكل دقة؟  
- عفواً؟

أشار عالم الرياضيات إلى السماء بإصبعه.

- لأي سبب أعلنت النشرة الجوية عن سماء صافية في كويمبرا، بينما أرى تلك السحب تمر، مكذبة كل التوقعات؟  
- لست أدري - قال طوماس ضاحكاً - ربما لأن علماء الأرصاد ليسوا أكفاء في بلدنا، أظن.  
ثم مدد أبوه ساقه مرة أخرى، مولياً وجهه إلى المساء.  
- جواب خاطئ - قال - المشكلة تكمن في المعادلة.  
- كيف ذلك؟

- سنة ١٩٦١، جلس عالم أرصاد جوية يدعى إدوارد لورينز أمام حاسوبه ليحسب توقعات جوية على المدى الطويل بناء على ثلاثة متغيرات: الحرارة، الضغط الجوي وسرعة الرياح. ما كان للتجربة أن تكشف عن أي شيء لو أنها لم تحاول أن تحلل متوالية خاصة بطريقة مفصلة. كانت متوالية عادية، شبه تافهة. بدل إدخال معطى معين في

البرنامج منذ البداية، ذهب لينظر إلى نسخة من التجربة الأولى ونسخ الرقم الذي رآه هناك.

أخرج مانويل قلماً من جيب معطفه وأخذ منديلاً ورقياً بسطه فوق طاولة رصيف المقهى.

- كان، إن لم تخني الذاكرة، شيئاً يشبه . . .  
ثم خربش أربعة أرقام.

0,506

- كان رقم ٠,٥٠٦ .

- يا لها من ذاكرة! - قال الابن معلقاً.

- نحن هكذا معشر علماء الرياضيات - ابتسم وأشار إلى فنجاني القهوة المتصاعد دخانها فوق الطاولة - حسناً، تماماً كما نفعل نحن الآن معاً، ذهب لورنز ليشرب قهوة وترك الحاسوب يعالج المعطيات. عند عودته، ذهب ليرى النتائج فلم يصدق ما رآه عيناه. اكتشف أن توقع أحوال الطقس الجديد كان مختلفاً تماماً عن التوقع السابق. كان اختلافاً كاملاً. حائراً، حاول أن يفهم ما حدث - نقر الأب على الأرقام الأربعة التي دوّنها على المنديل الورقي - بعد تحليل كل شيء، لاحظ أنه، بإدخال هذا المعطى، لم يحصل سوى على أربعة أرقام من متوالية أطول بكثير.  
ثم كتب المتوالية كاملة.

0,506127

- وكانت تلك هي المتوالية الأصلية كاملة. أمام هذه النتيجة، أدرك أن تغييراً ضئيلاً جداً في المعطيات، كمية صغيرة جداً، ربما لا

قيمة لها، يمكن أن تغير التوقعات تغييراً كاملاً. كما لو أن هبة ربح بسيطة وغير متوقعة تملك القدرة على تغيير حالة الطقس فوق كوكب الأرض بكامله - ثم لزم صمماً مسرحياً - لقد اكتشف لورنز الفوضى. - عفواً؟

- تُعدُّ نظرية الفوضى من أكثر النماذج الرياضية الموجودة إبهاراً وتساعد على تفسير عدة ظواهر كونية. إن الفكرة الأساسية للأنظمة الفوضوية بسيطة في صياغتها. تغيرات بسيطة في الشروط الأولية تسبب تغيرات عميقة في النتيجة النهائية. بعبارة أخرى، أسباب بسيطة ونتائج كبيرة. - أعطني مثلاً.

أشار والده من جديد إلى السماء وإلى السحب العابرة التي كانت تلقي، من حين لآخر، ظلالاً كبيرة على ساحة «التجارة». - حالة الطقس - قال - أشهر مثال هو ما يسمى «أثر الفراشة». إن خفقات جناحي فراشة هنا في كويمبرا قد يغير بطريقة غير ملحوظة الضغط الجوي من حولها. ويُحدث هذا التغيير الدقيق جداً تأثيراً متسلسلاً يشبه تأثير الدومينو على جزيئات الهواء، ثم يأخذ في التوسع إلى أن يُحدث بعد وقت معين، عاصفة في القارة الأمريكية. هذا هو أثر الفراشة. والآن، أضف إلى تأثير هذه الفراشة الصغيرة تأثير كل الفراشات، وكل الحيوانات، وكل ما يتحرك ويتنفس فوق الأرض. فماذا ستكون النتيجة؟ - فتح يديه كمن يعرض بداهة - عدم إمكانية التنبؤ.

- وهو ما يحيلنا على الاحتمية. - لا! - صاح عالم الرياضيات - عدم إمكانية التنبؤ لا يحيلنا على الاحتمية بل على استحالة التحديد. إن تصرف المادة يستمر حتمياً. ما يقع هو أن المادة تنظم نفسها بطريقة يستحيل معها توقع



تصرفاتها على المدى الطويل، رغم أنها محددة سلفاً. إن شئت، يمكن أن نقول إن تصرف الأنظمة الفوضوية سببي، لكنه يبدو عرضياً.

- همم - همهم طوماس - وهل تظن أن ما هو صحيح بالنسبة لعلم الأرصاد الجوية يمكن أن ينطبق أيضاً على مجالات أخرى؟  
- طوماس، إن نظرية الفوضى حاضرة في كل مكان. في كل مكان. إذا كنا غير قادرين على توقع تصرفات الجزيئات الدقيقة في العالم الكمي بكل دقة، فربما لأنه عالم فوضوي. تصرفها محدد، لكن تقلبات شروطها الأولية متناهية جداً لدرجة أنه يستحيل التكهّن بتطورها. لهذا، لأسباب عملية، يبدو لنا عالم الكم لا حتمياً. في الواقع، الجزيئات الدقيقة لها تصرفات حتمية، لكننا لا نستطيع تحديد ذلك. أعتقد أن هذا يعود من جهة إلى تأثير الملاحظة، كما أثبت ذلك مبدأ اللايقين، ومن جهة أخرى إلى تلك المنطقة التي يستحيل تحديدها والخاصة بالأنظمة الفوضوية.

- حسناً، ولكن هذا لا ينطبق سوى على الأشياء الدقيقة، مثل الذرات أو الجزيئات.

- أنت مخطئ - أكد الأب - الفوضى حاضرة في كل شيء، بما فيها الأشياء الكبيرة. حتى النظام الشمسي، الذي يبدو أنه يتصرف بطريقة يمكن توقعها، هو نظام فوضوي، في الحقيقة. إلا أننا لا ننتبه لذلك لأن الأمر يتعلق بحركات بطيئة جداً. لكن النظام الشمسي فوضوي. من خلال توقع أنجز على الحاسوب تبين، مثلاً، أنه لو أخذت الأرض تدور حول الشمس على بعد مئة متر من النقطة التي بدأت تقوم فيها بذلك، فإنه بعد مئة مليون سنة قد تبتعد بأربعين مليون كيلومتر عن مسارها الأولي. أسباب صغيرة، نتائج كبيرة.

- هممم.

- إن الفوضى تتحكم حتى في حياتنا. تصور، مثلاً، أنك تأخذ سيارتك وقبل أن تقلع، تنتبه إلى أن ذيل معطفك ظلّ عالقاً بالباب الجانبي. ماذا ستفعل؟ تفتح الباب، تعدّل ذيل المعطف، تغلق الباب وتُقلع. هذه العملية أخذت خمس ثوانٍ من وقتك. عندما تصل إلى تقاطع الطرق تبرز شاحنة تصدمك. والنتيجة أنك تظل مشلولاً لما تبقى من أيام حياتك. والآن، تصور أن ذيل معطفك لم يعلق في الباب الجانبي. ماذا يحدث؟ تقلع مباشرة سيارتك وتصل قبل خمس ثوانٍ إلى تقاطع الطرق. تنظر يمينا، ترى الشاحنة تقترب، تتركها تمر وتتابع طريقك. هذه هي نظرية الفوضى. فبسبب ذيل معطفك الذي علق بباب السيارة، أضعت خمس ثوانٍ سوف تغير بقية حياتك - ثم قام بحركة تنم عن الخنوع - أسباب صغيرة، نتائج كبيرة.

- كل هذا بسبب شيء في غاية الصغر؟

- نعم. لكن، حذار. لقد كان محدداً سلفاً أنك ستترك ذيل معطفك يعلق بباب السيارة. لأنك لم تلبس معطفك بشكل صحيح في الصباح. وقد لبسته بشكل غير صحيح لأنك استيقظت بمزاج سيئ. واستيقظت بمزاج سيئ لأنك لم تنم بشكل كاف، ولم تنم بشكل كاف لأنك ذهبت للنوم في وقت متأخر. وذهبت للنوم في وقت متأخر لأنه كان لديك عمل يجب أن تنجزه للكلية. وهذا العمل كان عليك أن تنجزه لهذا السبب أو ذاك. كل شيء سبب لكل شيء ويؤدي إلى نتائج تصبح بدورها أسباباً لنتائج أخرى، فيما يشبه دومينو أدياً، حيث كل شيء محدد لكنه يظل غير قابل للتحديد. حتى سائق الشاحنة كان بإمكانه أن يفرمل في الوقت المناسب، ولكنه لم يفعل لأنه لمح فتاة جميلة صرفت انتباهه. وكانت الفتاة تمر من هناك لحظتها لأنها كانت متأخرة. وكانت متأخرة بسبب مكالمة من صديقها. وصديقها اتصل بها لهذا السبب أو ذاك. كل شيء سبب ونتيجة.

مرّر طوماس يديه على شعره، محاولاً ترتيب أفكاره.

- انتظر قليلاً - قال - لتتصور أنه يمكن إدخال كل معطيات الكون في حاسوب خارق. في هذه الحالة، هل يمكن أن نتنبأ بكل الماضي وبكل المستقبل؟

- نعم، وفي هذه الحالة يمكن تطبيق «شيطان لابلاس». كل الماضي وكل المستقبل يوجدان أصلاً ولو عرفنا كل القوانين وتمكنا من أن نحدد بكل دقة، وبشكل متزامن، سرعة، واتجاه، ووضعية كل مادة، قد يكون بإمكاننا أن نرى كل الماضي وكل المستقبل.

- إذن، هذا ممكن نظرياً.

- لا، هذا يستحيل، نظرياً.

- اسمح لي - قال طوماس مصححاً - نظرياً، ممكن. عملياً،

غير ممكن.

حرك الأب رأسه.

- وهذه دقة أخرى من دقائق الكون - قال - لو تمكنا من معرفة كل شيء عن الحالة الراهنة للكون، سننجح في تحديد الماضي والمستقبل، بعد تحديد كل شيء. لكن، حتى من وجهة نظر نظرية، يستحيل أن نعرف كل شيء عن الحالة الراهنة للكون.

- آه، نعم؟ ولماذا إذن؟

- بسبب دقة أخرى خاصة بالكون - أجابه عالم الرياضيات -

اللانهاية.

علت تكشيرة وجه طوماس.

- اللانهاية؟

- نعم. ألم يسبق لك أن سمعت بمفارقة زينون؟

- نعم، بالطبع.

- اشرح لي، من فضلك.

- هل هذا امتحان؟

- هيا! إنني أستمع إليك!

ضغط الابن على عينيه وقام بمجهود ليتذكر.

- إن كانت ذاكرتي تسعفني، يتعلق الأمر بحكاية ذلك السباق بين سلحفاة وأرنب، أليس كذلك؟ تنطلق السلحفاة أولاً، لكن الأرنب، الأسرع منها بكثير، يلحق بها ويتجاوزها. المشكلة أنه، حسب زينون، لن يتمكن الأرنب أبداً من اللحاق بالسلحفاة لأن الفضاء الذي يفصلهما يمكن تقسيمه إلى ما لانهاية. أليس كذلك؟

- نعم - أكد الأب - إن مفارقة زينون توضح مسألة اللانهاية في الرياضيات. كي يتقدم متراً واحداً، ينبغي على الأرنب أن يقطع نصف هذه المسافة. وهذا النصف بدوره قابل للقسمة على نصف آخر، وهذا النصف الآخر بدوره قابل للقسمة على نصف آخر، وهكذا دواليك إلى ما لانهاية.

- ولكن، ما الذي تريد أن تثبته بهذا؟

- أريد أن أثبت لك أن اللانهاية مسألة لا يمكن تجاوزها فيما يخص إشكالية إمكانية التوقع - ثم أشار إلى السماء بإصبعه - لنعد إلى المثال الخاص بحالة الطقس. إن التوقع على المدى الطويل يصبح مستحيلًا بسبب نوعين من العوامل. النوع الأول من العوامل عملي، بالدرجة الأولى. حتى لو كنتُ أعرف ما هي العوامل التي تؤثر في حالة الجو، عليّ أن آخذ كل العوامل بعين الاعتبار. تنفس كل حيوان، حركة كل كائن حي، نشاط الشمس، ثورة بركانية، الدخان المنبعث من كل سيارة، وكل معمل، كل شيء. لكنني أواجه الاستحالة العملية لآخذ بعين الاعتبار كل هذه العوامل، أليس كذلك؟

- طبعاً، هذا مستحيل.

- النوع الثاني من العوامل يرتبط بمسألة اللانهاية. مثلاً،  
لنتصور أنه يجب عليّ أن أقيس درجة حرارة العالم في لحظة معينة  
حتى أتمكن من إنجاز تقديرات استقرائية. ولنفترض أنني أضع هنا،  
في مدينة كويمبرا، محراراً وأسجل عند منتصف النهار حرارة قدرها  
لا أعرف، أعطني رقماً.

- عشرون درجة؟

أخرج والده مجدداً من جيب معطفه نفس المنديل الذي خرّش  
عليه ذلك الرقم الذي سمح للورنز باكتشاف الأنظمة الفوضوية.

20°

- حسناً، ٢٠ درجة - قال عالم الرياضيات - لكن، في الواقع،  
يبقى هذا القياس ناقصاً، هل ترى ذلك؟ لأنه لا يأخذ بعين الاعتبار  
غير الوحدات. ونحن نعرف أن تغيرات بسيطة في الظروف الأولية  
تؤدي إلى تغيرات كبيرة في الظروف النهائية. وعليه، لا بد من معرفة  
الكسور العشرية لهذا القياس، ألا تظن ذلك؟  
- حسناً، لنضفها.

ثم أضاف مانويل ثلاثة أرقام.

20,793°

- لكن . . . ماذا عن الكسور العشرية المولية؟ أليست مهمة  
بدورها؟ لأن نظرية الفوضى تؤكد ذلك. إذن، علينا أن نضيف  
الكسور العشرية المولية مهما كانت صغيرة جداً، لأن أقل تغيير  
يمكن أن يؤدي إلى نتائج ضخمة.

- هممم.

ثم أضاف عالم الرياضيات أرقاماً أخرى .

20,79367927402793428822°

- لكن هذا ليس كافياً بعد - قال - لأن الرقم الذي يلي يمكن أن يكون حاسماً بدوره - ابتسم - ما أقصد هو أن القياس ينبغي أن يتضمن عدداً لامتناهياً من الأرقام . وهذا مستحيل . لذا ، مهما أضفنا من أرقام ، لن نتمكن أبداً من أن نعرف بدقة درجة الحرارة في مكان معين ووقت محدد ، لأن ذلك يستوجب حساباً يتضمن عدداً لامتناهياً من المعطيات الدقيقة جداً .  
- آه ، فهمتُ .

- ولكن المسألة أكثر تعقيداً من هذا - نَقَرَ على الطاولة - لأن الحرارة التي يمكن أن نعاينها فوق هذه الطاولة يمكن أن تختلف قليلاً عن تلك التي يمكن أن نسجلها على بعد متر واحد فقط - وأشار بإصبعه إلى جانبهما - ينبغي ، في هذه الحالة ، أن نقيس كل فضاءات كويمبرا ، وهذا غير ممكن ، أليس كذلك؟ تماماً كما في مفارقة زينون ، من السهل أن نلاحظ أن كل متر يمكن تقسيمه إلى ما لانهاية . يجب عليّ أن أقيس حرارة كل النقط في الفضاء حتى أتمكن من معرفة الظروف الأولية . لكن ، بما أن المسافة بين كل نقطة ، مهما كان صغرها ، يمكن دائماً تقسيمها إلى النصف ، فلن أتمكن أبداً من قياس كل الفضاء . الفرق بين ثانية وتلك التي تليها قابل للتقسمة إلى ما لانهاية . والحال أنه بين الثانيةين ، يمكن أن تحدث تغيرات دقيقة في الحرارة ينبغي قياسها . لكن ، بما أن قياس الزمن لانهاية بدوره ، وفق منطوق زينون ، يستحيل أن أحصل على هذا القياس . تذكرُ جيداً أن المنطق الذي تنبني عليه مفارقة زينون يبين لنا أنه يوجد من الفضاء في متر واحد ما يوجد من فضاء في الكون بكامله ، ويوجد من الزمن

في ثانية واحدة ما يوجد في الخلود برمته، وهذه خاصية ملغزة من خصائص الكون.

- فهمتُ . . .

أخذ مانويل الفنجان وعبّ ما تبقى من قهوة. أخذ نفساً عميقاً، تمطط فوق الكرسي وأغمض عينيه، منتشياً بحرارة الشمس الممتعة.

- هل تتذكر، في المرة الأخيرة، عندما حدثتك عن مُبرهنتي عدم الاكتمال لغودل؟

- نعم.

- لنرَ إن كنت قد احتفظت في ذاكرتك بذلك - قال - عمّ

تحدث هاتان المُبرهنتان؟

حرك طوماس رأسه وتنهد.

- أوه! لست أدري . . .

- ألا تذكر ذلك؟

- لا.

- حسناً، لقد قلت لك إن مُبرهنتي عدم الاكتمال تُبينان أن نظام

الرياضيات لا يمكنه أن يبرهن على كل مقولاته . . .

- آه، نعم.

- هذا البرهان الرياضي كان ذا أهمية بالغة. هل تفهم؟

- لكن، لماذا؟ لماذا كان مدهشاً لهذه الدرجة؟

- الأمر بسيط - قال مانويل - لقد أماطت مُبرهنتا عدم الاكتمال

اللثام عن خاصية جديدة من خصائص الكون. فمن خلال هاتين

المُبرهنتين يقول لنا الكون ما يلي: أنتم، معشر البشر، تعرفون أن

بعض الأمور حقيقية، ولكنكم لن تستطيعوا أبداً إثباتها بسبب الطريقة

العظيمة التي استعملتها، أنا الكون، في إخفاء بقية الحقيقة. بوسعكم

أن تعرفوا جزءاً كبيراً من هذه الحقيقة، لكن الأمور وُضعت بطريقة

معينة بحيث لن تتمكنوا أبداً من الإلمام بالحقيقة كاملة. هل فهمت الآن؟

- نعم.

فتح عالم الرياضيات يديه، في حركة اعتاد القيام بها كلما انتهى من البرهنة على شيء ما.

- هذا إذن! - صاح - إن مبدأ اللايقين، والأنظمة الفوضوية ومُبرهنات عدم الاكتمال لها معنى عميق، لأنها تكشف لنا عن دقائق عجيبة في طريقة اشتغال الكون - ثم أشار إلى السماء كاملة بحركة من يده - الكون بكامله يركز على الرياضيات. يتم التعبير عن قوانين الكون من خلال معادلات وصيغ رياضية، وقوانين الفيزياء تُعدّ لوغاريتمات ضرورية لمعالجة المعلومات كما أن سر الكون يوجد مُشفراً في لغة الرياضيات. كل شيء مرتبط، حتى ما لا يبدو كذلك. لكن، حتى لغة الرياضيات نفسها لا تستطيع فكّ شفرة هذا السنن بشكل كامل. وهذه هي الخاصية الأكثر إلغازاً من كل خصائص الكون: الطريقة التي يخفي بها الحقيقة النهائية. كل شيء محدد سلفاً، لكن كل شيء غير قابل للتحديد. الرياضيات هي لغة الكون، لكننا لا نملك أي وسيلة لإثبات ذلك دون أن يبقى هناك أي شك. عندما نغوص في أعماق الأمور، نكتشف دائماً غشاءً عجيباً يحجب وجوه اللغز النهائية. لقد أخفى الخالق هناك توقيعه. إن الأشياء قد وضعت بطريقة دقيقة جداً لدرجة أنه يستحيل الكشفُ كشفاً كاملاً عن سرها الدفين.

- هممم.

- سيكون دائماً ثمة سرّ في أعماق الكون.



# 25

كان المدرج يعج بالطلاب . بعضهم يبحثون عن مقاعد، بعضهم يخرجون الكتب، وبعضهم يتبادلون النظرات . كان كل ذلك الطابق السفلي من قسم الفيزياء يفيض نشاطاً وحركة محمومين . كان الدرس يَعِدُّ بأنه سيكون استثنائياً وجلب هذا المستجد طلاباً من كل جامعة كويمبرا . لكن ما كان يملأ بالحياة تلك القاعة الفسيحة خصوصاً هو جلبة الحشد المستمرة، كأنها دوامة أمواج ترتطم على شاطئ مقفر . وكان يتخلل الضجيج سعالٌ متقطع كأنه همسٌ بخرٍ موقعٌ بنعيق النوارس .

امتزج طوماس نورونيا بتلك الخلية من الطلاب، بحث لنفسه عن مكان في أقصى المدرج وجلس في الصف الأخير . منذ مدة لم ير قاعة درس من تلك الزاوية، يرى أفقية الطلبة ولا يلمح وجوههم . كان يريد أن يبقى متوارياً فكانت خلفية المدرج مكاناً مناسباً لذلك . أولاً، شعر بالخرج من فارق السن مع الطلاب الآخرين، الذين كان معظمهم في العشرين بينما كان هو يناهز الاثني وأربعين، فتساءل إن كان قد أحسن فعلاً بمجيئه . لكنه سرعان ما خلص إلى أنه كان مصيباً، لأن تلك كانت أول حصة ضمن حصص كرسي الأستاذ سيزا التي لن يقدمه الأستاذ بنفسه، ومثل طلبة كل الشعب الأخرى الذين تقاطروا على المدرج، لم يكن يريد أن يفوته الحدث .

منذ اختفاء الأستاذ سيزا، علقت الجامعة دروس الفيزياء الفلكية، لكن ذلك لا يمكن أن يستمر إلى ما لانهاية، نظراً لأهمية هذه المادة في المناهج الدراسية لتكوين الفيزياء. وفي انتظار أخبار عن الأستاذ أوغوستو سيزا، تقرر أن يقوم مساعده، الأستاذ لويس روشا بإعطاء دورس هذه المادة، إلى غاية إشعار آخر.

كان طوماس يريد أن يتعرف على الأستاذ روشا. أخبره والده أنه كان قلقاً جداً بعد اختفاء مرشده. لكن كل أساتذة الرياضيات والفيزياء هؤلاء لهم أحياناً تصرفات غريبة، باستعمال عبارة لطيفة، وحسب ما يُقال، لم يكن لويس روشا استثناء عن هذه القاعدة. أخبره والده أن الأستاذ المساعد أصبح مصاباً بجنون الارتياب والذعر منذ اختفاء الأستاذ سيزا. تخندق في بيته لعدة أيام طويلة واضطر زملاؤه أن يتناوبوا فيما بينهم من أجل تزويده بالطعام وحاجيات أخرى.

لكن هذه التصرفات الناتجة عن جنون الارتياب والذعر خفت، بما أن لويس روشا قد قبل أن يعوض الأستاذ سيزا. كان الأمر ينطوي على شيء من التطهير النفسي، طبعاً. بإعطاء الدروس، كان الأستاذ المساعد يتحمل وضعيته وريثاً طبيعياً لمُعلمه، ويقوم، في الوقت ذاته، بطرد تلك الشياطين التي داهمته بعد ذلك الاختفاء الغامض.

بالنسبة لطوماس، كان الدرس مناسبة ليقدم نفسه للرجل الذي كان يرغب في معرفته. كان يأمل الكثير من هذا اللقاء؛ ليس لأن روشا يمكن أن يفيد في شيء ما يتعلق باختفاء مُعلمه، بل لأنه يعرف تفاصيل تخص فكره، وأبحاثه ومشاريعه، وكلها مؤشرات يمكن أن تقدم خيوطاً محتملة. حرك طوماس رأسه. حسناً فعل وهو يأتي لمتابعة هذه الدرس الافتتاحي.

نظر إلى ساعته. كانت الحادية عشرة وأربع عشرة دقيقة، وهو التوقيت المفترض لبداية الدرس. على ما يبدو، كانوا يطبقون هناك المصطلح الشائع «ربع الساعة الأكاديمي». تأمل المنصة المقفلة، حيث السبورة البيضاء ومكتب الأستاذ الفارغ، ثم حرك رأسه مرة أخرى. نعم، ردد في نفسه. حسناً فعلتُ عندما جئتُ. وينبغي أن يظهر الأستاذ أيضاً.

ما إن دخل الأستاذ حتى سكت الجميع. وحدها خطواته الخجلى كان يترددُ صداها في القاعة. لم يدم الصمت إلا ثواني معدودة قبل أن تعود الجلبة. هذه المرة، كان الطلبة يوشوشون مثل عجائز تعلقن على قدوم جارة جديدة، ويحدقن في وجهه بحثاً عن نقطة ضعف يستغلنّها.

كان لويس روشا طويل القامة ويعطي الانطباع بأنه كان فيما مضى نحيفاً، لكن بطنه ربما استسلم لسطوة الجعة ووجبات الغداء في مطاعم المدينة. شعره المتناثر كان قد شاب. كان يبدو هادئاً، بل ومتراحياً، لكن طوماس خمن أن وراء هذا الهدوء الظاهر يغلي مزاج غير مستقر.

ظل الأستاذ جالساً خلف مكتبه لبضع لحظات. بعد ذلك، ألقى نظرة على ملاحظاته ثم نهض وواجه الحضور. نظر إلى جهة ثم إلى جهة أخرى، بوجه مشدود من تشنج عصبي.

- أهلاً - قال محيياً.

فردّ الحضور بتحية غير متناغمة.

- كما تعرفون ... أنا هنا لأعوض الأستاذ سيزا ... الذي تعذر عليه الحضور - تتمم قائلاً - وبما أن درس الفيزياء الفلكية هو أول درس في هذا الفصل من السنة الدراسية، فكرت أنه من الأحسن

أن أقدم لكم نظرة عامة عن نقطتين حاسمتين في هذه المادة . . .  
أريد أن أتحدث . . . عن ألفا وأوميغا . وستتطرق لاحقاً للمعادلات  
والحسابات . هل يبدو لكم هذا جيداً؟

كان جواب الطلبة صمتاً بالإجماع . فقط طالبتان في الصف  
الأول، شعرتا بالحرج من ترك الأستاذ من دون جواب، فحركتا  
رأسيهما، وشجعتاه على مواصلة ما كان يقوله .

- حسناً . . . من يستطيع أن يقول لي ما هما النقطتان ألفا  
وأوميغا؟

كان لويس روشا، بالإضافة إلى قلة خبرته في إلقاء  
المحاضرات، عنيداً، كما لاحظ طوماس . كان الحضور يبدو  
جامداً، ربما احتراماً لوجه الأستاذ سيزا الغائب، أو ربما لأنهم  
شعروا بقلّة خبرة لويس روشا وأرادوا اختبار حدوده، لكن الأستاذ  
أصرّ على سؤال الطلبة . موقف بيداغوجي سليم، بكل تأكيد، لكن  
الاستراتيجية كانت تُعرضه لا محالة لخطر غير ضروري .

على أي حال، لم يجد سؤاله من جواب غير صمت عام .  
لقد بدأ الدرسُ بشكل سيئٍ فخيم حرج خفيف، لكن الأستاذ  
روشا لم يستسلم وأشار إلى طالب له لحية .

- ما هي النقطة ألفا؟

قفز الطالب في مكانه، لأنه إلى غاية تلك اللحظة كان يتأمل  
المشهد في هدوء ولم يكن ينتظر السؤال .

- أظن أنها . . . أول حرف من حروف اللغة اليونانية! - صاح  
وابتسامة رضى تعلقو شفّيته .

- ما اسمك؟

- نلسون كارنيرو .

- نلسون، يجب أن تعلم أن هذا ليس درساً في اللغة أو التاريخ. بعد جواب كهذا، يمكن أن أقول إنك راسب - احمرّ وجه نلسون، لكن الأستاذ تجاهله وتوجه نحو كل الطلبة - بالنسبة لي، من الضروري أن يشارك كل الطلبة في الدرس ويتدخلوا في النقاش. أريد رؤوساً تفكر، عقولاً حية متطلعة للمعرفة، لا أريد إسفنجاً سالباً، هل فهمتم؟ - أشار بإصبعه إلى طالب في الجهة الأخرى، وهو شاب بدين بعض الشيء - في الفيزياء الفلكية، ما هي النقطة ألفا؟

- إنها بداية الكون، يا أستاذ - أجاب بسرعة ذلك البدين القصير، متيقظاً بعدما رأى ما حدث لنلسون.  
- والنقطة أوميغا؟  
- إنها نهاية الكون، يا أستاذ.

فرك لويس روشا يديه، ونظر إليه طوماس من عمق المدرج، فلم يكن منه سوى أن راجع حكمه؛ هذا الأستاذ لا تعوزه أية تجربة. فقط بواسطة بعض الجمل، وبعد تهديد طالب واحد بالرسوب وتشجيع الآخرين على التفاعل، تمكن من إثارة انتباه كل الفصل.

- ألفا وأوميغا، البداية والنهاية، نشأة الكون وموته - قال - هذه هي مواضيع نقاشنا لهذا اليوم - ثم خطا خطوتين جانباً - هذا هو السؤال الذي أطرحه عليكم: لأي سبب يجب أن تكون للكون بداية ونهاية؟ ما الذي يمنع الكون من أن يكون خالداً؟ هل يمكن أن يكون خالداً؟ - ظل الطلبة في المدرج صامتين، يحاولون استيعاب هذه الطرق الجديدة - أنت، هناك، ما هو جوابك؟

أشار إلى طالبة تضع نظارتين، سرعان ما اعترت وجهها حمرة.  
- حسناً، أستاذ... لا أعرف.

- أنت لا تعرفين ولا أحد يعرف ذلك - كرر الأستاذ - لكنها

فرضية جديرة بالتفكير، أليس كذلك؟ كَوْنُ ذو مدة تنتهي، من دون بداية ولا نهاية، كَوْنُ دائماً كان وسيكون على الدوام. والآن، أجيئوني عن هذا السؤال: كيف تظنون أنه سيكون ردُّ فعل الكنيسة أمام هذا المفهوم؟

بدا الطلبة غير مصدقين، بل إن بعضهم كان يشك في أنه سمع الأستاذ يطرح هذا السؤال.

- الكنيسة؟ - قال أحدهم مندهشاً. - وما علاقة الكنيسة بكل هذا، يا أستاذ؟

- كل شيء ولا شيء - ردّ عليه روشا - إن مسألة بداية الكون ونهايته ليست حكراً على العلم، بل هي مسألة لاهوتية أيضاً. سؤال جوهري، يتجاوز حدود الفيزياء، ويتعلق بالميتافيزيقا أو الدين. هل كان هناك خلق أم لا؟ - ترك السؤال معلقاً لحظة في المدرج - بالاعتماد على ما جاء في الكتاب المقدس، دافعت الكنيسة دائماً عن فكرة البداية والنهاية، عن التكوين والقيامة، عن ألفا وأوميغا. لكن العلم، في لحظ ما، اقترح جواباً آخر. بعد اكتشافات كوبرنيكوس، وغاليلي ونيوتن، اعتبر العلماء أن فرضية كَوْنِ خالد هي الأرجح. فمن جهة، مشكلة الخلق تثير مسألة الخالق، وهذا يعني أن نفي الخلق يعني نفي الحاجة إلى خالق. ومن جهة أخرى، يبدو أن ملاحظة الكون تشير إلى آليّة ثابتة ومنتظمة، أكثر انسجاماً مع فكرة أن هذه الآلية كانت دائماً قائمة وستظل موجودة على الدوام. وعليه، فإن المسألة قد وجدت حلاً، ما رأيكم؟ - ثم صمت لحظة ينتظر جواباً، لكن بما أنه لم يبادر أحد بالجواب عاد الأستاذ إلى مكتبه، جمع أغراضه وتوجه نحو باب الخروج - حسناً، بما أنكم تظنون أن المسألة قد انتهت، فليس هناك من داع كي نستمر في هذا الدرس، أليس كذلك؟ إن كان الكون خالداً فلا وجود لمشكلتين اسمهما ألفا

وأوميغا. وبما أن هاتين المشكلتين قد تم حلّهما الآن، لم يبق لي سوى أن أذهب - حرّك يده - إلى الأسبوع القادم، إذن. نظر إليه الطلبة مندهشين.

- إلى اللقاء - كرر الأستاذ.

- ولكن، هل أنت ذاهب حقاً، يا أستاذ؟ - سألته حائرة إحدى الطالبات.

- نعم - ردّ عليها وهو أمام الباب - بما أنكم تبدوون راضين عن الجواب القائل بأن الكون خالد . . .

- ولكن، هل يمكن البرهنة على عكس ذلك؟

- آه - صاح الأستاذ روشاً كأنه يسمع، أخيراً، حجة وجيهة لمواصلة الدرس. هذا سؤال مهم - ثم عاد أدراجه والتحق بالمكتب حيث نشر من جديد ملاحظاته - إذن، الدرس لم ينته بعد. بقيت نقطة بسيطة ينبغي حلّها. هل يمكن البرهنة على أن الكون ليس خالداً؟ في الحقيقة، هذا السؤال يحيل على مشكلة جوهرية: أن الملاحظات تُناقض النظرية - فرك يديه - هل يعرف أحدكم ما هي هذه التناقضات.

لم يكن أحد في المدرج يعرف الجواب.

- حسناً. يظهر أول تناقض في الكتاب المقدس، رغم أن هذا لم تكن له أية قيمة في نظر الفيزياء، طبعاً. لكنها تبقى من الطرائف التي تستحق أن نستكشفها. حسب ما جاء في العهد القديم، خلق الله الكون انطلافاً من انفجار ضوئي أولي. ويبقى هذا التفسير نموذجاً مرجعياً بالنسبة للديانات اليهودية، والمسيحية والإسلام، رغم أن العلم شكك فيها بشكل قوي. في نهاية الأمر، الكتاب المقدس ليس نصاً علمياً، أليس كذلك؟ أطروحة الكون الأبدي صارت هي التفسير الأكثر احتمالاً للأسباب التي ذكرتها - ثم قام

بحركة مسرحية - لكن، في القرن التاسع عشر، حدث اكتشاف في غاية الأهمية، من أكبر الإنجازات التي حققها العلم، اكتشاف جاء ليضع حداً لفكرة أن الكون له مدة لا متناهية - وجال بعينه في المدرج - هل يعرف أحدكم ما هو هذا الاكتشاف؟  
ظلوا جميعاً صامتين.

أخذ الأستاذ قلم حبر أسود وكتب هذه المعادلة على السبورة.

$$\Delta S \text{ كُون} < 0$$

- من يستطيع أن يقول لي ما هذا؟

حذق الطلبة في السبورة.

- أليس هذا هو القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية؟ -

سأله أحدهم، وهو شاب نحيف يضع نظارتين وشعره مشعث، كان من ألمع الطلبة.

- تماماً - صاح لويس روشا - القانون الثاني من قوانين

الديناميكا الحرارية - أشار إلى كل عنصر من عناصر المعادلة

المكتوبة على السبورة - إن المثلث  $\Delta$  يعني تغيّر، «S» تعني

إنتروپيا، «<» تمثل، كما تعرفون، مفهوم أكبر من، و«0» هو صفر.

بتعبير آخر، هذه المعادلة تعني أن تغيّر إنتروپيا الكون دائماً أكبر من

صفر - نقرَ السبورة بقلم الحبر - القانون الثاني من قوانين الديناميكا

الحرارية - ثم توجه إلى الطالب الذي طرح السؤال - ومن صاغ هذا

القانون؟

- كلاوزيوس، يا أستاذ. سنة ١٨٦١، أظن.

- رودولف يوليوس إمانويل كلاوزيوس - قال الأستاذ مفخماً

كلامه، وهو يدخل بقوة في صلب الموضوع. كان كلاوزيوس قد



صاغ قبل ذلك قانون حفظ الطاقة الذي يؤكد أن طاقة الكون من الثوابت الخالدة، لا يمكن خلقها ولا تدميرها، بل فقط تحويلها. بعد ذلك، قرر أن يقترح مفهوم الإنتروبيّا، الذي يشمل كل أشكال الطاقة والحرارة، معتقداً أنه أيضاً من الثوابت الخالدة. بما أن الكون خالد، فالطاقة ينبغي أن تكون خالدة والإنتروبيّا أيضاً. لكنه، بعد أن أخذ عدة قياسات، اكتشف، مندهشاً، أن تسرب الحرارة من آلة معينة كان يفوق دائماً ما يتحول من الحرارة إلى طاقة، مما يؤدي إلى عدم الفعالية. رفض الاقتناع بهذه النتيجة، فأخذ يقيس الطبيعة أيضاً، بما فيها الإنسان، واستنتج أن الظاهرة تحدث في كل المجالات. بعد عدة تجارب، واجه هذه الحقيقة. لم تكن الإنتروبيّا ثابتاً من الثوابت الفيزيائية، أو إنها بالأحرى كانت تكبر فقط. من دون توقف. هكذا ظهر القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية. كان كلاوزيوس هو من اكتشف وجود هذا القانون في تصرف الحرارة، لكن مفهوم الإنتروبيّا سرعان ما اتسع ليشمل كل الظواهر الطبيعية. وتم إدراك أن الإنتروبيّا توجد في الكون بكامله - ثم حذق بعينه في الطلبة - فما هي نتيجة هذا الاكتشاف؟

- أن الأشياء تشيخ - أجابه الطالب ذو النظارتين.

- الأشياء تشيخ - أكد الأستاذ - جاء القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية ليؤكد ثلاثة أشياء - ورفع ثلاثة أصابع - أولاً، إن كانت الأشياء تشيخ، فإن هناك نقطة في الزمن ستموت فيها. وهذا سيحدث عندما تبلغ الإنتروبيّا أوجها، في اللحظة التي تنتشر فيها الحرارة في الكون بشكل متساو - ثم رفع إصبعاً ثانياً - ثانياً، أن هناك سهماً زمنياً. بعبارة أخرى، إن الكون وتاريخه يمكن تحديدهما منذ الأزل، لكن تطورهما يتم بشكل ثابت من الماضي نحو المستقبل. ويترتب على هذا القانون أن كل شيء تطور مع الزمن

- ثم رفع إصبعاً ثالثاً - ثالثاً، إن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية جاء ليبرهن على أن كل شيء يشيخ، وهذا يعني أن كل شيء كان صغيراً في لحظة ما. بل إنه، في لحظة ما، كانت الإنتروبيا في أدنى مستوياتها. لحظة نشوئها - لزم صمتاً مسرحياً - لقد برهن كلاوزيوس أنه كانت هناك نشأة الكون.

- هل تقصد، يا أستاذ، أنه في القرن التاسع عشر كانوا يعرفون أن الكون لم يكن خالداً؟

- تماماً. عندما تمت صياغة وبرهنة القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، أدرك العلماء أن فكرة كون خالد كانت تتنافى مع وجود مسلسلات فيزيائية لا رجعة فيها. إن الكون يتطور نحو حالة من التوازن في الديناميكا الحرارية، حيث المناطق الساخنة والباردة تنحو نحو الاختفاء فاسحة المجال لحرارة ثابتة في كل مكان، مما يترتب عنه إنتروبيا شاملة، أو أقصى درجات الفوضى. باختصار، إن الكون يتطور من نظام كامل نحو فوضى شاملة. وقد أدى هذا الاكتشاف إلى ظهور مؤشرات جديدة. هل يعرف أحدكم مفارقة أولبرز؟

لم يكن أحد يعرف ذلك.

- ترتبط مفارقة أولبرز بسواد لون السماء. إذا كان الكون لانهائياً وخالداً، فإنه لا يمكن أن يكون هناك الظلام ليلاً، بما أن السماء يجب أن تكون مغمورة بالأضواء القادمة من عدد لا محدود من النجوم. لكن الظلام موجود، مما يشكل مفارقة. هذه المفارقة لا يمكن أن تُحلّ إلا إذا أعطينا للكون عمراً محدداً، بما أنه يمكن أن نفترض أن الأرض لا تتلقى سوى الضوء الذي كان له الوقت ليسافر حتى يصل إليها منذ نشأة الكون، وهذا هو التفسير الوحيد لتبرير وجود الظلام ليلاً.

- إذن، كانت هناك نقطة ألفا، فعلاً؟ - سأله أحد الطلبة.

- تماماً. لكن كانت هناك مسألة أخرى ينبغي حلُّها، مرتبطة بالجاذبية. كان العلماء يظنون أن الكون، بما أنه خالد، فإنه أيضاً ثابت لا يتحرك، وعلى هذه الفرضية تركز كل فيزياء نيوتن. بما أن نيوتن نفسه أدرك أن قانون الجاذبية، الذي ينص على أن أي مادة تجذب مادة أخرى، كانت نتيجته النهائية أن الكون اندمج في كتلة كبيرة. المادة تجذب المادة. ومع ذلك، عندما ننظر إلى السماء، ندرك أن الأمور لا تحدث بهذا الشكل. المادة موزعة. فكيف نفسر هذه الظاهرة؟

- ألم يكن نيوتن هو من لجأ إلى مفهوم اللامحدود؟

- نعم. يرى نيوتن أن الطابع اللامحدود للكون هو ما يمنع المادة من الاندماج تماماً. لكن الجواب الحقيقي هو الذي قدمه هابل.

- التلسكوب أم عالم الفلك؟

- عالم الفلك، بالطبع. في عشرينيات القرن العشرين، أكد إدوين هابل وجود عدة مجرات بعيداً عن مجرة درب التبانة، وبعد قياس طيف الضوء الذي ينبعث منها، لاحظ أنها جميعاً تبتعد عنا. أكثر من هذا، تأكد من أنه كلما كانت مجرة ما بعيدة، ابتعدت بسرعة أكبر. هكذا تم إدراك السبب الحقيقي الذي يُفسر، انسجاماً مع قانون الجاذبية، لماذا لا تندمج كل مادة الكون في كتلة واحدة ووحيدة. لأن الكون يتسع - توقف الأستاذ وسط المنصة ونظر إلى الحضور - والآن، أطرح عليكم هذا السؤال: ما نتيجة هذا الاكتشاف على مسألة نقطة ألفا؟

- هذا بسيط - أجاب الطالب ذو النظارتين وهو يتحرك في

مقعد - إذا كانت أي مادة في الكون تتشتت فلأنها كانت متجمعة فيما مضى .

- تماماً . إن اكتشاف تمدد الكون يعني أنه كانت هناك لحظة بداية حين كان كل شيء مركزاً قبل أن يتم القذف به في كل الاتجاهات . كما أن العلماء اعتبروا أن هذا الأمر ينسجم مع نظرية النسبية العلمية، التي تسمح بتصور كون دينامي . حسناً، بالاستناد إلى كل هذه الاكتشافات، قام كاهن بلجيكي، يدعى جورج لوميتر، بتقديم نظرية جديدة في عشرينيات القرن العشرين .  
عاد إلى السبورة وخرش كلمتين باللغة الإنجليزية .

## Big Bang

- البيغ بانغ . الانفجار العظيم - قال ثم نظر مرة أخرى إلى الطلبة - اقترح لوميتر فكرة أن الكون نشأ عن انفجار أولي قوي . كانت فكرة رائعة وحلت دفعة واحدة كل المشكلات المرتبطة بمفهوم كون أبدي وثابت . كانت نظرية البيغ بانغ تنسجم مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، تحل مفارقة أولبرز، وتشرح الشكل الحالي للكون الخاضع لشروط قانون الجاذبية لنيوتن في انسجام مع نظريات النسبية لأينشتاين . لقد بدأ الكون بانفجار قوي مفاجئ . . .  
رغم أن التعبير الأصح ربما ليس هو انفجار، بل تمدد .

- وقبل هذا . . . التمدد، ماذا كان هناك؟ - سألت طالبة مستنيرة - لا شيء غير الفراغ؟

- لم يكن ثمة شيء اسمه «من قبل» . بدأ الكون مع البيغ بانغ .  
بدت طالبة مضطربة .

- نعم، ولكن . . . ماذا كان قبل التمدد؟ كان لا بد من وجود

شيء ما ، أليس كذلك؟

- هذا ما قلته لك للتو - ألحّ لويس روشا قائلاً - لم يكن ثمة شيء اسمه «من قبل». إننا لا نتحدث هنا عن فضاء فارغ بدأ يمتلئ. البيغ بانغ يعني أنه لم يكن هناك من فضاء سابق. لقد نشأ الفضاء التمدد الكبير المفاجئ، هل فهمت؟ وتُثبتُ نظريات النسبية أن الفضاء والزمن وجهان لعملة واحدة. هكذا، يكون الاستنتاج منطقياً. إذا كان الفضاء قد نشأ مع البيغ بانغ، فإن الزمن بدوره قد نتج عن هذا الحدث الأولي. لم يكن ثمة شيء اسمه «من قبل» لأن الزمن لم يكن له وجود. فالزمن بدأ مع الفضاء، الذي بدأ مع البيغ بانغ. أن نتساءل ما الذي كان قبل الزمن، كأن نتساءل ما الذي يوجد شمال القطب الشمالي. سؤال لا معنى له، هل فهمت؟

فتحت الطالبة عينين واسعتين وحركت رأسها موافقة، لكنه كان واضحاً أن الفكرة تبدو لها غريبة.

- إن مسألة هذه اللحظة الأولية تُعتبر، كذلك، أعقد نقطة في النظرية برمتها - تابع الأستاذ وهو واع بغرابة ما كان يحاول أن يشرحه - هذا ما يسمونه «التفرّد». كان يُعتقد أن الكون بكامله كان مضغوطاً في نقطة واحدة دقيقة جداً من الطاقة، وفجأة وقع انفجار تولدت خلاله المادة، والفضاء، والزمن وكل قوانين الكون.

- ولكن من تسبب في حدوث هذا الانفجار - سأل الطالب ذو النظارتين، وهو ينتبه بدقة إلى التفاصيل.

انكمش وجه لويس روشا مرة أخرى نتيجة تشنج عصبي. كانت تلك أدق نقطة في النظرية بكاملها، وأصعبها للشرح؛ ليس فقط لأن الشروحات كانت تتنافى مع الحدس، بل لأن العلماء بدورهم ظلوا حائرين أمام هذه المسألة.

- لنقل إن آلية السببية لا تنطبق على هذه النقطة - قال.

- لا تنطبق؟ كيف ذلك؟ - أَلح الطالبُ - هل توحى لنا يا أستاذ بأنه لم يكن ثمة من سبب؟

- تقريباً. انتبهوا، أعرف أن كل هذا يبدو غريباً، ولكنه من المهم جداً أن تتابعوا استدلالى. كل الأحداث لها أسباب ونتائجها تصبح أسباباً لأحداث أخرى مستقبلية. اتفقنا؟ - تحركت بعض الرؤوس موافقة، لأن ذلك كان من بديهيات الفيزياء - إلا أن مسلسل سبب-نتيجة-سبب يستوجبُ تسلسلاً زمنياً - ثم رفع يده كأنه يشدد على ما سيأتى - والآن انتبهوا جيداً: ما دام الزمن لم يكن موجوداً بعد في هذه النقطة الدقيقة جداً، كيف يمكن لحدث ما أن ينتج عنه حدث آخر؟ لم يكن هناك من شيء اسمه «من قبل» أو «من بعد». وعليه لم تكن هناك من أسباب ولا من نتائج، لأنه لا حدث كان بإمكانه أن يسبق الآخر.

- ألا ترى، يا أستاذ، أن هذا التفسير غير مقنع إلى حد ما؟ - سأله الطالب ذو النظارتين.

- ليس لدي رأي أقوله لك. فقط أحاول أن أشرح لكم نظرية البيغ بانغ انطلاقاً من المعطيات المتوفرة لدينا اليوم. والحقيقة أنه، باستثناء ذلك التفرُّد الأولي، فإن هذه النظرية تحلُّ كل المفارقات التي طرحتها فرضية الكون الخالد. لكن، كان هناك بعض العلماء الذين لم يقتنعوا مثلكم بنظرية البيغ بانغ فبحثوا عن تفسير بديل. وأهم فرضية تم اقتراحها هي نظرية الكون في حالة دائمة، التي تستند إلى فكرة أن المادة ذات الإنتروپيا الضعيفة هي دائماً في نشأة مستمرة. فبدل أن تظهر المادة كاملة انطلاقاً من تمدد أولي، قد تظهر تدريجياً عبر انفجارات صغيرة تحدث على مر الزمن، فتعوض ذلك القسط من المادة الذي يموت عندما يبلغ أقصى حد من الإنتروپيا. إذا كان الأمر كذلك، يمكن أن يكون الكون خالداً. وقد نظر العلم

بجدية إلى هذا الاحتمال، لدرجة أنه، لمدة طويلة، كانت نظرية الكون في حالة دائمة تُقدّم على قدم المساواة مع نظرية البيغ بانغ.

- ولماذا ليست النظريتان معاً على قدم المساواة؟

- بسبب توقُّع في نظرية البيغ بانغ. باعتبار ذلك التمديد الأولي، فكر العلماء في أنه لا بدّ من وجود إشعاع كوني أساسي، ما يشبه صدى هذا الانفجار الأصلي للكون. تمّ توقع وجود هذا الصدى سنة ١٩٤٨ وتم التكهّن بأن درجة حرارته قد تراوح خمس درجات كلفن، أو خمس درجات فوق الصفر المطلق. ولكن، أين كان يوجد هذا الصدى، يا إلهي؟ - جحظّ عينيه وفتح ذراعيه واسعتين في تعبير عن التساؤل - مهما بحثوا، لم يجدوا شيئاً. إلى غاية سنة ١٩٦٥، وبينما كان عالمان فلكيان يُنهيان عملاً تجريبياً بواسطة صحن هوائي في ولاية نيوجيرسي، التقطتا، فجأة، صوتاً مزعجاً في الخلف، يشبه صفير طنجرة طبخ. كان ذلك الصوت المزعج يبدو كأنه قادم من كل جهات السماء. حاول الباحثان تغيير اتجاه الصحن من جهة إلى أخرى، ومن مجرة إلى مجرة، نحو فضاء فارغ أو نحو سديم قصبيّ، لكن الصوت ظل مستمراً. لمدة سنة كاملة، حاولا أن يتخلصا منه، ففتشا الخيوط الكهربائية، وفحصا أدق احتمالات الأعطاب، وجربا كل شيء، لكنه كان من المستحيل تحديد مصدر ذلك الصوت المزعج. يئسا من المحاولات، فاتصلا بعلماء من جامعة برنستون يسألان عن تفسير لذلك الصوت. وجاء التفسير. كان الصوت هو صدى البيغ بانغ.

- كيف ذلك؟ - قال الطالب ذو النظارتين مندهشاً - حسب

علمي، ليس هناك من صدى في الفضاء

- إن الصدى شكل من أشكال التعبير، بطبيعة الحال. ما التقطه الباحثان كان أقدم ضوء وصل إلينا، ضوء حوّل الزمن إلى موجات

دقيقة. تسمى إشعاعات كونية أساسية وتشير القياسات إلى أن درجة حرارتها تناهز ثلاث درجات كلفن، وهي نسبة قريبة من التوقع الذي أنجز سنة ١٩٤٨ - ثم قام بحركة سريعة من يده - ألم يسبق لكم أن شغلتم جهاز التلفاز على قناة لا تبث شيئاً؟ ماذا ترون؟  
- تشويش في الشاشة.

- مع صوت معين. نرى عدة نقط صغيرة تتقافز ونسمع صريراً مزعجاً. يجب أن تعلموا أن واحد في المئة من هذا الأثر يأتي من هذا الصدى - ابتسم - لذا، إن كنتم تشاهدون يوماً التلفزة ولم تجدوا فيها ما يشير اهتمامكم، أقترح عليكم أن تختاروا قناة لا تبث شيئاً وستشاهدون نشأة الكون. إنه أحسن برنامج من برامج تلفزيون الواقع.

- أستاذ، هل يمكن البرهنة رياضياً على هذا الانفجار الأول؟  
- نعم. لقد أثبت كل من بانروز وهوكينغ سلسلة من المبرهنات التي تؤكد أن البيغ بانغ حتمي، ما دامت الجاذبية تستطيع أن تكون قوة جذب في الظروف القصوى التي نشأ فيها الكون - وأشار بحركة إلى السبورة - سوف نتطرق إلى هذه المبرهنات في درس لاحق.

- ولكن، هل تستطيع، من فضلك يا أستاذ، أن تشرح لنا بشكل أوسع ما حدث بعد البيغ بانغ؟ هل تكونت النجوم؟  
- حدث كل شيء قبل حوالي عشرة إلى عشرين مليار سنة، ربما خمسة عشر مليار سنة. كانت الطاقة مركزة في نقطة واحدة ثم تمددت في انفجار هائل.

عاد إلى السبورة وكتب معادلة أينشتاين الشهيرة.

$$E = mc^2$$



- بما أنه، حسب هذه المعادلة، الطاقة تساوي الكتلة، فإن ما حدث هو أن المادة ظهرت من تحوّل الطاقة. في الوهلة الأولى، ظهر الفضاء ثم سرعان ما تمّدّد، بعد ذلك. وبما أن الفضاء مرتبط بالزمن، فإن ظهور الفضاء أدى إلى ظهور الزمن، الذي تمّدّد بدوره. في تلك المرحلة الأولى، نشأت قوة كبرى كما ظهرت كل القوانين. وكانت الحرارة مرتفعة إلى أقصى حد، حوالي عشرات المليارات من الدرجات. وبدأت هذه القوة الكبرى تنقسم إلى عدة قوى متفرقة. كان ذلك هو بداية التفاعلات النووية الأولى التي نشأت عنها أنوية العناصر الأكثر خفة، مثل الهيدروجين والهيليوم، بل وحتى الليثيوم . . . في مدة ثلاث دقائق، ظهرت ثمانية وتسعون في المئة من المادة الموجودة والتي ستوجد في المستقبل.

- هل تعود الذرات التي تشكل جسم الإنسان إلى تلك اللحظة؟  
- نعم. ثمانية وتسعون في المئة من المادة الموجودة اليوم تشكلت انطلاقاً من انفجار طاقة البيغ بانغ. وهذا يعني أن كل الذرات الموجودة في جسمنا قد مرت من عدة نجوم وشغلت آلاف الكائنات المختلفة قبل أن تصل إلينا. ولدينا عدد هائل من الذرات لدرجة أنه يُقدّر أن كل واحد منا يملك منها على الأقل مليون ذرة سبق أن كانت لدى أشخاص آخرين عاشوا قبل مدة طويلة جداً - قُطب حاجبه - وهذا يعني، يا أعزائي، أن لدى كل واحد منا عدة ذرات كانت فيما ما مضى حاضرة في أجساد إبراهيم، وموسى، ويسوع، وبوذا أو محمد.

سرت همهمة داخل المدرج.

- لنعد إلى البيغ بانغ - قال لويس روشا وهو يغطي بصوته على الهمهمات التي انتشرت وسط الحضور - بعد الانفجار الأول، بدأ الكون ينتظم آلياً في بنيات، ويخضع لقوانين منذ اللحظات الأولى.

مع مرور الوقت، انخفضت درجات الحرارة حتى بلغت مستويات مقلقة وانشطرت القوة الأساسية إلى أربع قوى أخرى. أولاً، قوة الجاذبية، ثم القوة النووية القوية، وأخيراً القوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية الضعيفة. قامت قوة الجاذبية بتنظيم المادة في مجموعات محددة في المكان. بعد مئتي مليون سنة، ظهرت النجوم، ثم نشأت الأنظمة الكوكبية، والمجرات ومجموعات المجرات. كانت الكواكب في البداية أجساماً صغيرة مستعرة، تشبه النجوم الصغيرة، التي تدور حول النجوم. بردت هذه الأجسام حتى صارت صلبة، كما حدث مع الأرض - ثم فتح ذراعيه وابتسم - وها نحن اليوم هنا.

- لقد قلت قبل قليل، يا أستاذ، إن الكواكب كانت تشبه نجومًا صغيرة أصبحت صلبة في نهاية الأمر. هل يعني هذا أن الشمس بدورها ستصبح صلبة في النهاية؟  
رسم روشا تكشيرة على محياه.

- هيا! لا تنغص علينا هذا الصباح بمثل هذه الأفكار!  
ضحك الحضور.

- لكن، هل سيحدث هذا الأمر؟ - سألتها الطالبة بإلحاح.

- إن الحديث عن الولادة دائماً شيء جميل، ألم تلاحظوا هذا؟ من لا يحب أن يرى أطفالاً يولدون؟ - حرّك يده - بينما الحديث عن الموت... أمر مختلف. وللإجابة عن سؤالك، نعم، الشمس سوف تموت. لكن، ستموت الأرض أولاً، ثم المجرة، وأخيراً، الكون. وهذه نتيجة حتمية للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية. إن الكون يتطور نحو الإنتروبيا الشاملة - ثم قام بحركة مسرحية - كل ما يولد يموت. وهو ما يُرسلنا مباشرة من النقطة ألفا إلى النقطة أوميغا.

- نهاية الكون .

- نعم ، نهاية الكون . كل شيء يشير إلى أنه ليس هناك أمامنا سوى إمكانيتين .

اقرب مرة أخرى من السبورة وخرش جملة باللغة الإنجليزية .

## 1 Big Freeze

- تسمى الإمكانية الأولى «بيغ فريز» ، أو التجمد الكبير . يتعلق الأمر بالنتيجة الثانية للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية والتمدد الخالد للكون . مع تنامي الإنتروبيًا ، يضعف الضوء تدريجياً إلى أن تخلق حرارة متجانسة في كل أنحاء الفضاء ، فتحوّل الكون إلى مقبرة مجرية واسعة ومتجمدة .

- لن يحدث هذا الأمر غداً؟ أتمنى ذلك - قال أحد الطلبة مازحاً .

تعالت الضحكات في صفوف المدرج .

- يُقدر أن هذا سيحدث بعد حوالي مئة مليار سنة على الأقل - ثم حرك تشنج عصبي وجهه مرة أخرى - أعرف أن رقماً كهذا لا يعني لكم شيئاً ، لذلك أقترح عليكم مقارنة . تصوروا أن الكون إنسان سيموت في سن العشرين بعد المئة . إذن ، يمكن أن نقول إن الشمس ظهرت عندما كان عمر الكون عشر سنوات وهو الآن في سن الخامسة عشرة . يعني هذا أنه قد بقيت أمامه مئة وخمس سنوات ليعيشها . عمر لا بأس به ، أليس كذلك؟

أبدى الحضور موافقته ثم التفت لويس روشا إلى السبورة مرة أخرى .

- حسناً ، لنرَ الآن الإمكانية الثانية لنقطة أوميغا .

كتب جملة جديدة بقلم الحبر الأسود على صفحة السبورة.

## 2 - Big Crunch

- تسمى الإمكانية الثانية «بيغ كراش»، أو الانسحاق الكبير - قال وهو ينظر من جديد إلى الطلبة. تخف وتيرة تمدد الكون حتى يصل إلى نقطة يتوقف فيها، ليبدأ في الانكماش، بعد ذلك - فتح ذراعيه واسعتين كأنه يمسك بالوناً ينتفخ، يتوقف عن الانتفاخ ثم ينكمش - تحت تأثير الجاذبية، سيبدأ الفضاء، والزمن والمادة في التقارب إلى أن ينسحقوا في نقطة لانهائية من الطاقة - التقت كفاً يديه - إن البيغ كراش، إن شئتم، هو البيغ بانغ معكوساً.

- مثل بالون ينتفخ ثم يزول انتفاخه؟

- تماماً. إلا أن الانكماش لا يرجع إلى زوال الانتفاخ، بل إلى قوة الجاذبية - قال لويس روشا ثم دسّ يده في جيبه وأخرج منه قطعة نقدية - مثل هذه القطعة - ألقى بها في الهواء، فارتفعت متراً واحداً ثم سقطت في يده من جديد - أرايتم؟ لقد صعدت القطعة، توقّف صعودها قبل أن تنزل من جديد، لتعود إلى نقطة انطلاقها. أولاً، تغلبت على الجاذبية، وبعد ذلك هزمتها الجاذبية.

رفع طالب آخر إصبعه فأشار إليه الأستاذ برأسه أن يتكلم.

- أستاذ، أي هاتين الإمكانيتين المتعلقةتين بنهاية الكون هي الأكثر ترجيحاً؟

ضرب لويس روشا السبورة بالقلم.

- لنرّ الملاحظات الفلكية. أولاً، يتطلب البيغ كراش من المادة أكثر مما يتوفر في الكون. إن المادة المرئية غير كافية لتحدث انكماش الكون تحت تأثير الجاذبية. ولحل هذه المشكلة، تم تقديم

فرضية تقول بوجود المادة السوداء، وهي عبارة عن مادة تظل غير مرئية بالعين المجردة، بسبب ضعف تفاعلها. قد تشكل هذه المادة السوداء ثمانية وتسعين في المئة أو أكثر من المادة الموجودة في الكون. المشكلة أنه من الصعب العثور على هذه المادة السوداء. ومن جهة أخرى، لو وُجدت، فهل ستكون بكمية كافية لوقف التمدد؟ ثانياً، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار آخر الملاحظات التي أجريت على تمدد الكون. في سنة ١٩٨٨، اكتُشف أن سرعة تباعد المجرات تتزايد. إنها تتزايد، أكرّر. وربما يعود ذلك إلى قوة كانت غير معروفة إلى الحد الآن، وهي ما يطلق عليها اسم القوة المظلمة، التي تنبأ بها أينشتاين وهي التي تقاوم قوة الجاذبية. ومعلوم أن البيغ كْرانْش يشترط أن يتقلص التمدد حتى يتوقف نهائياً قبل أن يبدأ الانكماش. لكن، بما أن سرعة التمدد تكبر، فإن الاستنتاج الذي نخلص إليه واحد لا غير - وجمال بنظره في المدرج - هل هناك منكم من يستطيع أن يقول لي ما هو هذا الاستنتاج؟

رفع الطالب ذو النظارتين إصبعه.

- الكون يسير نحو البيغ فُريز أو التجمّد الكبير.

بسط الأستاذ يديه وابتسم.

- لقد أصبَتْ.

مكتبة

t.me/t\_pdf

# 26

توجه الطلبة نحو الباب وغادروا المدرج شلالات متعاقبة، مضغوطين في سيل جارف يمر عبر واد ضيق، بينما ظلّ طوماس في خلفية القاعة، كأنه حارس مكلف بالمراقبة. كان لويس روشا يجمع ملاحظاته وهو يجيب عن أسئلة ثلاثة طلبة لمدة بضع دقائق، ثم غادر المدرج وانطلق يمشي في الممر وأحد الطلبة دائماً بجانبه. تبعه طوماس، وما إن ابتعد آخر طالب حتى أسرع الخطى ونادى زميله.

- أستاذ روشا؟

التفت لويس ونظر إليه كما لو أنه كان طالباً من طلبته.

- نعم؟

مدّ طوماس يده.

- أهلاً. أنا طوماس نورونيا، أستاذ مادة التاريخ في جامعة لشبونة الجديدة وابن الأستاذ مانويل نورونيا، الذي يُدرّس الرياضيات هنا في كويمبرا.

رفع لويس روشا حاجبيه، كما لو أنه قد تعرّفه.

- آه؟ الأستاذ مانويل نورونيا! أعرفه جيداً - وصافح طوماس -

كيف حال والدك؟

- إنه ليس بخير، للأسف. إنه يعاني من مشكلة صحية مُعضلة.

سنرى كيف ستتطور الأمور.

حرك أستاذ الفيزياء الفلكية رأسه موافقاً، وهو يبدو متأسفاً.  
- نعم، إنه أمر مزعج حقاً - قال - كأنّ أحدهم ألقى تعويذة  
على جامعة كويمبرا، هل لاحظت ذلك؟ أولاً، وقع اختفاء الأستاذ  
سيزا، الذي كان والدك يشتغل معه. وسرعان ما جاء خبر توقف  
والدك عن التدريس بسبب . . . المرض . . . الذي ألمّ به - وقام  
بحركة استسلام من يديه - رأيتَ كل هذا؟ فقدت الجامعة دفعة  
واحدة اثنين من أحسن أدمغتها! إنها كيف أعبر عن ذلك . . .  
كارثة.

- نعم، حقاً . . . هذه مشكلة.

- كارثة - كرر لويس.

خرجا إلى الشارع فبدا أستاذ الفيزياء تائهاً، ينظر إلى كل  
الاتجاهات. ثم استدار وتفحص البناية المستطيلة التي غادراها للتو،  
قسم الفيزياء. كانت تبدو مثل مستشفى، لكنها زينت بتمائيل حجرية  
ضخمة وغطّي جدارها الخارجي بصورة هائلة لأينشتاين يركب دراجة  
هوائية.

- اسمح لي - همهم أستاذ الفيزياء - كنتُ ساهياً.

عادا إلى البناية وصعدا السلالم المؤدية إلى قاعة الأساتذة. وهو  
يمشي إلى جانب الأستاذ روشا، بدأ طوماس يتحدث عن أحوال  
الجامعة وأوضاع التعليم في البلاد.

عندما كان داخل المكتب غير المنظم لزميله، اغتم طوماس  
صمتاً وسط تلك الأفكار المتبادلة ليخوض في الموضوع الذي جاء  
من أجله.

- اسمع، يا أستاذ، جئتُ لأتحدث معك عن موضوع في غاية  
الحساسية.

- هل له علاقة بوالدك؟

- لا ، لا - قال ثم أشار إليه بإصبعه - إنه يتعلق بمُعلِّمك .  
بدا لويس روشا مندهشاً .

- مُعلِّمي؟

- نعم . الأستاذ سيزا .

- كان أكثر من معلم بالنسبة لي ، كان . . . أباً ثانياً - ثم صار  
صوته متردداً وأخفض عينيه - ما زلتُ لا أصدق أنه اختفى ، هكذا  
من دون أثر .

- وأنا أريد أن أتحدث معك عن اختفائه ، بالضبط .

- ماذا تريد أن تعرف؟

- كل ما قد يساعدنِي في العثور عليه .

نظر إليه عالم الفيزياء باندهاش .

- هل تحاول أن تحدد مكانه؟

- نعم . اتصلوا بي كي أشارك في الأبحاث .

- هل الشرطة القضائية هي التي اتصلت بك؟

- حسناً . . . لم تكن الشرطة القضائية ، بالضبط .

- هل كانت شرطة الأمن العمومي؟

- لا .

رسم لويس روشا تكشيرة حيرة على محياه .

- من إذن؟

- حسناً . . . إنها شرطة دولية .

- الأنتربول؟

- نعم - كذب طوماس لأن فضول مُخاطبه أرغمه على تقديم

جواب . وبما أنه كان يستحيل ذكر وكالة المخابرات الأمريكية ، فقد

كانت الأنتربول تفي بالغرض - طلبوا مني أن أسهم فيما يجرونه من

أبحاث .



- ولماذا الأنتربول؟

- لأن اختفاء الأستاذ سيزا له ارتباط بمصالح دولية.

- آه، نعم؟ وأي مصالح دولية هاته؟

- أخشى ألا أكون قادراً على أن أقول لك شيئاً بخصوص هذا الموضوع. كما لا بدّ أنك تفهم، هذا قد يضر بمسار الأبحاث الجارية.

حك لويس روشا ذقنه، مفكراً.

- لكن، قلت لي إنك أستاذ التاريخ، أليس كذلك؟

- نعم، هذا صحيح.

- إذن، لأي سبب طلبت الأنتربول خدماتك؟

- اتصلوا بي لأنني خبير في فكّ التشفير، وقد وجدوا رسالة

مشفرة يمكن أن تؤدي إلى العثور على الأستاذ سيزا.

- آه، نعم؟ - بدا لويس مهتما للغاية بهذه المعلومات - أي نوع

من الشفرات هذه؟

- لا أستطيع أن أقول لك ذلك - ردّ طوماس، وبدا المؤرخ

مخرجاً لأنه كان مضطراً ليكذب فقرر أن يدخل مباشرة في الموضوع

- اسمع، هل تستطيع أن تساعدني أم لا؟

- طبعاً! - صاح عالم الفيزياء - ماذا تريد أن تعرف؟

- أود أن أعرف ما هي الأبحاث التي كان الأستاذ سيزا بصدد

القيام بها.

عدّل لويس روشا جلسته، تأمل البنائيات من النافذة، وضع

ملاحظاته داخل جارور، ثم اتكأ على مسند الكرسي ونظر إلى

طوماس.

- هل تشعر بشيء من الجوع؟

كان المطعم الجميل في فندق أسطوريا شبه فارغ، ربما لأن الوقت ما يزال باكراً. كان ضوء النهار، قوياً ودافئاً، يغمر النوافذ ويبهج الأجواء الحزينة في الصالون الذي يعود أسلوبه إلى الثلاثينيات، وأرضيته الخشبية، التي صارت بالية من كثرة الليالي الساهرة، بحاجة إلى ترميم. وخلف صف من أشجار الزيزفون، كان نهر مونديغو ينساب هادئاً، والمدينة تعيش على إيقاع محلي بطيء.

داخل الفندق، كانت تسود أجواء عتيقة؛ هندسة تعود إلى مطلع القرن العشرين تمنح المكان رونقاً خاصاً، وتعطي لطوماس الانطباع بأنه يعود ثمانين سنة إلى الوراء. وكان هذا يغمره بارتياح كبير. بصفته مؤرخاً، كان يشعر بالحاجة ليستم روائح الماضي، يلمس غبار التاريخ، وينغمس في تلك البنايات القديمة التي تنضح بعافتها.

طلباً شرائح بظ بالعسل والبرتقال. ربما لحم عجل مقلي كان أفضل، فكر طوماس، بما أنه كان في كويمبرا، لكن هذا الطبق المحلي قد يكون صعب الهضم.

- حسناً، أنا أستمع إليك! - قال المؤرخ، بعد حديث المجاملة

- ما هي الأبحاث التي كان الأستاذ سيزا بصدد القيام بها؟

أخذ لويس روشا شريحة خبز وطلاها بقشدة بظ تبدو شهية.

- عزيزي أستاذ نورونيا - قال وهو يقضم الشريحة - أنا متأكد

أنك قرأت المقدمة التي وضعها كانط للطبعة الثانية من كتابه نقد

العقل الخالص. هل قرأتها؟

- مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب نقد العقل . . .

- لا، الطبعة الثانية - قال لويس مُصْحِحاً - مقدمة الطبعة

الثانية.

- حسناً . . . لست أدري . . . - اختنق بما أكله - فعلاً،

قرأتُ نقد العقل الخالص لكنني أعترف أنني لا أذكر مقدمة هذه الطبعة.

- وهل تعرف من أين تستمد هذه المقدمة أهميتها؟  
- ليست لدي أدنى فكرة.

طلى عالم الفيزياء شريحة خبز ثانية بقشدة البط. لاحظ طوماس ذلك ولم يسعه سوى أن فكر أن زميله كان مسرفاً في الأكل، وهذا ما يفسر بطنه المنتفخ.

- لأنه في مقدمة الطبعة الثانية من نقد العقل الخالص وضع كانط حدود المعرفة العلمية - قال روشا وهو يمضغ شريحته الجديدة - واستنتج أن هناك ثلاث إشكاليات ميتافيزيقية كبرى لن يستطيع العلم أبداً أن يحلها: الله، الحرية والخلود.  
- آه، نعم؟

- يعتقد كانط أن العلماء لن يكونوا أبداً قادرين على إثبات وجود الله، على تحديد ما إذا كان الإنسان يتمتع بحرية الاختيار أم لا، وعلى معرفة ما بعد الموت معرفة يقينية. هذه الأسئلة، في نظره، لا تنتمي إلى مجال الفيزيكا، بل إلى مجال الميتافيزيكا. وهي تتجاوز أي دليل.

حرك طوماس رأسه، مفكراً.

- يبدو هذا منطقياً.

- هذا يبدو منطقياً لأي إنسان عادي - رد لويس روشا - لكنه ليس كذلك بالنسبة للأستاذ سيزا.

بدت ملامح الحيرة على وجه المؤرخ.

- لا؟ لماذا؟

- لأنه، برأي الأستاذ سيزا، يمكن الحصول على أدلة حتى بالنسبة للمسائل الميتافيزيقية.

- كيف ذلك؟

- كان الأستاذ سيزا يعتقد أنه يمكن أن نبرهن على وجود الله وحل مسألتني حرية الاختيار والخلود. بل كان يظن أن هذه القضايا مرتبطة فيما بينها.

تململ طوماس فوق الكرسي، محاولاً أن يستوعب ما اكتشفه من معلومات جديدة.

- هل تعني أن العمل العلمي للأستاذ سيزا كان مرتبطاً بمسألة وجود الله؟

- تماماً.

ران صمّت حاول طوماس خلاله أن يفكر في تداعيات هذه المعلومة.

- اعذر جهلي - قال المؤرخ - ولكن، هل يمكن إثبات وجود الله؟

- حسب كانط، لا يمكن.

- لكن هذا ممكن حسب الأستاذ سيزا، أليس كذلك؟

- نعم.

- لماذا؟

- كل شيء يتعلق بما نعيه بمفهوم الله.

- ماذا تقصد بهذا؟

- بالنسبة إليك أنت، مثلاً، ما هو الله؟

- لست أدري، إنه . . . كائن أعلى، إنه الخالق.

- هذا لا يبدو تعريفاً عظيماً، أليس كذلك؟

- نعم - وافق طوماس وهو يضحك - لكن، قل لي أنت، ما

هو الله؟

- حسناً، هذا هو أول سؤال ينبغي طرحه بالفعل. ما هو الله؟

- ثم فتح لويس روشا يديه - إن كنا ننتظر رؤية شيخ هرم ذي لحية طويلة، ينظر إلى كوكب الأرض بملامح منشغلة، منتبه إلى ما يفعله كل واحد منا، يفكر، يسأل ويتكلم بصوت صارم . . . حسناً، أظن أننا سوف ننتظر إلى الأبد إثبات وجود شخصية كهذه. لأن هذا الله لا وجود له، بكل بساطة، وما هو إلا ابتكار مُجسّم يسمح لنا بتصور شيء يفوقنا. بهذا المعنى، ابتكرنا الله مثل صورة أبوية. نحن بحاجة إلى من يحمينا ويدفع عنا الشر، يضمننا تحت كنفه، يواسينا في اللحظات الصعبة، ويساعدنا على تقبّل ما لا يمكن تقبّله، وفهم ما استعصى على الفهم، ومواجهة فظائع الأمور. وهذا الشخص هو الله - ثم أشار إلى السقف - لنتصور أنه يوجد هناك، في الأعلى، شخص ينشغل بنا أيما انشغال. شخص نُولّي إليه وجوهنا وقت الشدة بحثاً عن العزاء. هو رقيبنا وسندنا. ها هو! إنه الله!

- لكن، إن كان هذا الله غير موجود، عن أي شيء نتحدث بالضبط؟

- إنني لم أقل إن الله ليس موجوداً - قال عالم الفيزياء مصححاً.

- آه، لا؟

- قلتُ فقط إنه لا يوجد ذلك الله المُجسّم الذي عادة ما نتصوره وورثناه عن التقاليد اليهودية-المسيحية.

- هل تعني أن الله المذكور في الكتاب المقدس غير موجود؟  
- ومن يكون هذا الله المذكور في الكتاب المقدس؟ هذه الشخصية التي تأمر إبراهيم بقتل ابنه فقط لترى إن كان مخلصاً لها؟ هذه الشخصية التي تزج بالبشرية في الشقاء فقط لأن آدم أكل تفاحة؟ هل يمكن لأي شخص يتمتع بحس سليم أن يؤمن بإله لئيم متقلب المزاج كهذا؟ من البديهي أن إلهاً كهذا لا وجود له.

- لكن، أي إله يوجد، إذن؟

- حسب الأستاذ سيزا، الله موجود في كل ما يحيط بنا. ليس  
كياناً فوقنا، يرقبنا ويحمينا، كما تنص على ذلك التقاليد اليهودية-  
المسيحية، بل يتعلق الأمر بذكاء خلاق، دقيق وحاضر في كل مكان،  
لأخلاقي ربما، نجده في كل خطوة، في كل نظرة، في كل زفرة،  
حاضراً في الكون وفي الذرات، مندمجاً في كل شيء ويعطي لكل  
شيء معنى.

- فهمتُ - قال طوماس - وفي نظر الأستاذ سيزا، هل يمكن  
إثبات وجود هذا الله؟

- نعم.

- منذ متى؟

- منذ أن عرفته. أظن أن هذه القناعة ترسخت لديه منذ أن كان  
في فترة تدريب في برنستون.

- وكيف يمكن أن نثبت وجود الله؟

ابتسم لويس روشا.

- هذا، يا عزيزي، هو ما عليك أن تطرحه على الأستاذ سيزا،

ألا تظن ذلك؟

- لكن أنت، هل تظن فعلاً أنه يمكن صياغة دليل يثبت وجود

الله؟

- هذا يتوقف على ...

- يتوقف على ماذا؟

- يتوقف على ما تقصده بكلمة دليل.

- كيف ذلك؟ اشرح من فضلك.

طلى عالم الفيزياء شريحة خبز ثالثة.

- أخبرني، أستاذ نورونيا، ما هو المنهج العلمي؟

مكتبة

t.me/t\_pdf

- حسناً، أظن أنه طريقة لجمع المعلومات من الطبيعة ومعالجتها.

- هذا تعريف - وافق روشا - لكن لدي تعريف آخر.

- ما هو؟

- المنهج العلمي هو حوار بين الإنسان والطبيعة. بواسطة هذا المنهج، يطرح الإنسان أسئلة على الطبيعة ويحصل منها على أجوبة. يكمن السر في الطريقة التي يصوغ بها الأسئلة ويفهم الأجوبة. إنه ليس متاحاً لأي كان أن يسأل الطبيعة أو يفهم ما تقول. لا بد من الدربة، والحدس والحكمة، ولا بدّ من التوفر على فكر متيقظ قادر على التقاط الدقائق في معظم الأجوبة. هل فهمت؟

- نعم.

- ما أقصده هو أنه يمكن أن ندرك وجود أو عدم وجود الله حسب طريقة صياغة الأسئلة ووفق قدرتنا على فهم الأجوبة. مثلاً، القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية جاء نتيجة أسئلة طُرحت على الطبيعة من خلال تجارب على الحرارة. وأجابت الطبيعة على الأسئلة، لتوضح أن الطاقة تمر من الساخن إلى البارد وليس العكس أبداً، وأن تحول الطاقة بين الأجسام دائماً ما ينتج عنه نقصان في الحرارة - ثم قام بحركة تشير إلى المطعم بكامله - وينطبق الأمر نفسه على مسألة الله. علينا أن نعرف أي أسئلة يجب أن نطرح وكيف نصوغها، وبعد ذلك ينبغي أن نكون قادرين على تأويل ما نحصل عليه من أجوبة. لهذا، عندما نتحدث عن إقامة دليل على وجود الله، يجب توخي الحذر. إن كان أحد ينتظر أن نقدم له صوراً من نوع «دي في دي» عن الله وهو يراقب الكون، يحمل في يده «ألواح الشريعة» ويداعب بالأخرى لحيته الطويلة البيضاء، فسيصاب بخيبة. لن يتم أبداً التقاط هذه الصورة لأن هذه الله غير موجود. لكن، إن

كنا نتحدث عن أجوبة معينة من الطبيعة على أسئلة محددة . . . حينها يكون الأمر مختلفاً.

- عن أي أسئلة نتحدث؟

- لست أدري . . . أسئلة تتعلق بالاستدلال المنطقي، مثلاً.

حرك طوماس رأسه.

- إنني لا أفهم.

- خذ، مثلاً، مسألة البيغ بانغ، التي تطرقتُ إليها في درسي

اليوم.

- نعم، وما علاقتها بموضوعنا؟

- وما علاقتها بموضوعنا؟ لكن أليس الأمر واضحاً؟ إن كان

البيغ بانغ قد حدث، فهذا يعني أن الكون قد خُلِق. وهذا التصور

تترتب عليه نتائج عميقة. ألا تعتقد ذلك؟

- مثلاً؟

- مسألة الخلق تحيل على مسألة الخالق. فمن خلق الخلق؟ -

ثم غمز بعينه - إيه؟

- حسناً . . . ألا يمكن أن تكون هناك أسباب طبيعية؟

- نعم، بالطبع. نحن نتحدث عن مسألة طبيعية - وضع سبابه

على جبينه - عليك أن تستوعب هذا، أستاذ نورونيا. الله مسألة

طبيعية. إن فكرة ما فوق الطبيعة، والمعجزات، والسحر . . . كل

هذا سخيف. إن كان الله موجوداً، فهو جزء من الكون. الله هو

الكون. هل تفهم؟ إن خلق الكون لم يكن فعلاً اصطناعياً، بل فعلاً

طبيعياً، يخضع لقوانين خاصة وثوابت كونية معينة. لكن المسألة تعود

دائماً إلى نفس النقطة. مَنْ خَلَقَ قوانين الكون؟ من حدد الثوابت

الكونية؟ من نفخ الحياة في الكون؟ - ضرب على المائدة - هذه،



أستاذ نورونيا، هي أهم الأسئلة الأساسية التي يطرحها المنطق.  
الخلق يحيل على خالق ما.

- هل تقول لي إنه من خلال المنطق يمكن إثبات وجود الله؟  
علت تكشيرة وجه روشا.

- لا، ليس هذا بتاتاً. إن المنطق لا يحدد أي دليل، لكنه يزودنا  
بإشارات - ثم انحنى على المائدة - عليك أن تفهم أن الله، مع  
وجوده، لا يتركنا نرى إلا جزءاً من وجوده ويخفي الدليل النهائي  
وراء حجاب من الدقائق الأنيقة. هل تعرف مُبرهنتي عدم الاكتمال؟  
- نعم.

- إن مُبرهنتي عدم الاكتمال، وهما تثبتان أن أي نظام منطقي لن  
يستطيع أبداً إثبات كل ما يدفع به من مقولات، حتى إن كانت هذه  
المقولات التي لا تقبل الإثبات حقيقية، تشكلان رسالة ذات معنى  
روحاني. كما لو أن الله، وهو موجود، يقول لنا: إنني «أنا» أعبّر  
عن ذاتي من خلال الرياضيات. الرياضيات هي لغتي «أنا»، ولكنني  
لن أعطيكم الدليل على أن الأمر كذلك - ثم أخذ قطعة خبزة أخرى  
- لدينا، أيضاً، مذهب اللايقين. ويؤكد هذا المبدأ أنه لا يمكننا أبداً  
أن نحدد في نفس الوقت وضعية وسرعة جزيئة ما. كما لو أن الله  
يقول لنا: إن الجزيئات لها تصرف حتمي، وقد حددتُ «أنا» كل  
الماضي وكل المستقبل، لكنني «أنا» لن أمدِّكم بالدليل النهائي على  
أن الأمر كذلك.  
- فهمتُ.

- البحث عن الله مثل البحث عن الحقيقة في مقولات النظام  
المنطقي أو في التصرف الحتمي للجزيئات. لن نستطيع أبداً الحصول  
على دليل نهائي على وجود الله، تماماً كما لن نستطيع أبداً الحصول

على دليل نهائي يثبت أن مقولات النظام المنطقي، غير القابلة للبرهنة، حقيقية أو أن الجزئيات لها تصرف حتمي. ومع ذلك، نعرف أن نتائج هذه المقولات حقيقية ونعرف أن الجزئيات تتصرف بشكل حتمي. ما يُحظرُ علينا هو الدليل النهائي، وليس المؤشرات التي تدل على أن الأمر هكذا بالفعل.

- ولكن، في نهاية الأمر، ما هي المؤشرات على وجود الله؟  
- في مجال المنطق، كان أهم مؤشر هو ذلك الذي قدمه أفلاطون وأرسطو، ثم طوره القديس توما الأكويني ودققه لايبنتز. يتعلق الأمر بالحجة السببية. الفكرة الأساسية بسيطة في صياغتها. إننا نعرف من خلال الفيزياء ومن خلال تجاربنا اليومية أن لكل حدث سبباً، وأن كل نتيجة تصبح سبباً لحدث آخر، فيما يشبه تأثير الدومينو. لتتخيل الآن أننا نبحث عن أسباب كل أحداث الماضي. لكن، إن كانت للكون بداية فهذا الكرسي أيضاً كانت له بداية، أليس كذلك؟ بالرجوع إلى الوراء من سبب إلى آخر، نصل إلى لحظة خلق الكون، وهو ما نسميه اليوم البيغ بانغ. فما هو السبب الأول لكل الأسباب؟ من شغل الآلة لأول مرة؟ ما هو سبب البيغ بانغ؟  
بدا طوماس حائراً.

- أعتقد أنك قد أجبتَ عن هذا السؤال في المدرج، أليس كذلك؟ بما أن الزمن لم يكن له وجود، كما قُلْتَ، فإنه لم يكن هناك من أسباب تسبق البيغ بانغ.

- صحيح - قال عالم الفيزياء - أرى أنك قد تابعت الدرس بكل انتباه، هذا جيد - ثم ابتسم - لكن، دعني أقول لك إن هذه طريقة نستعملها، نحن العلماء، لتفادي هذا السؤال المحرج. في الحقيقة، كل شيء يشير إلى أن البيغ بانغ قد حدث. إن كان قد حدث فلا بد أن شيئاً ما جعله يحدث. ويعود السؤال دائماً إلى نفس

النقطة. ما هو السبب الأول؟ وما الذي تسبب في حدوث السبب الأول؟

- الله؟

ابتسم لويس روشا.

- هذا احتمال - قال هامساً - بالنظر ملياً، فرضية كَوْنِ خالد تستبعد الله. لقد كان الكون دائماً موجوداً، وليس له من علة ليووجد، إنه موجود، بكل بساطة. في الكون الخالد، من دون بداية ولا نهاية، تأثير دومينو الأسباب لا نهاية له، وليس هناك من سبب أول ولا من سبب أخير - ثم رفع إصبعاً - لكن الخلق يحيل على سبب أول. بل أكثر من هذا، الخلق يعني وجود خالق. ومن هنا السؤال: من شغل الآلة لأول مرة؟

- لقد رأيتُ أن الجواب هو الله.

- مرة أخرى، هذا مجرد احتمال. هذه الحجة المنطقية لا تشكل دليلاً، هي مؤشر فقط. في نهاية المطاف، قد توجد آليّة ما، ما زالت مجهولة، تحل هذه المسألة، أليس كذلك؟ علينا أن نحترز من استعمال «إله الثغرات»، حتى نتحاشى خطأ اللجوء إلى الله كلما غاب عنا جواب مسألة ما، بينما هناك تفسير آخر. ومع ذلك، لا بد من التأكيد على أن الخلق يحيل على مسألة الخالق وأنه، كيفما كانت زاوية النظر إلى الأمر، يعود السؤال دائماً إلى النقطة المحورية. من جهة أخرى، إن نحن وضعنا الله في المعادلة، قائلين إنه هو من خلق الخلق، سرعان ما تعترضنا إشكالات جديدة، أليس كذلك؟

- مثلاً؟

- حسناً... الإشكال الأول هو أين كان الله قبل حدوث البيغ بانغ، بما أنه لم يكن هناك من زمن ولا من فضاء.

- إذن، ليس هناك من سبب أول...

- أو ربما كان، من يدري؟ نحن، علماء الفيزياء، نسمي البيغ بانغ «تفرد». بهذا المعنى، يمكننا أن نقول إن الله تفرد، تماماً مثل البيغ بانغ.

مرر طوماس يده على شعره.

- تبدو هذه الحجة مهمة، لكنها ليست حاسمة.

- لا - وافق عالم الفيزياء - إنها ليست حاسمة. لكن، هناك حجة أخرى تبدو أكثر قوة. يطلق عليها الفلاسفة أسماء مختلفة، لكن الأستاذ سيزا كان يسميها ... دعني أرى ... آه! ... حجة الغائية.

- الغائية؟ من الغاية؟

- تماماً. إن مسألة الغائية ترتبط، كما تعرف، بمجال التأويل الذاتي الخالص. بعبارة أخرى، يمكن لأحدهم أن يقوم بشيء ما عمداً، لكن من يحكم على الفعل من الخارج لن يستطيع أبداً أن يكون متيقناً تماماً من نية الفاعل. يمكن أن نتكهن بنية ما، لكن صاحب الفعل وحده يعرف الحقيقة - وأشار بحركة نحو طوماس - لو قلبت هذه المائدة، يمكنني أن أعتبر هذا الفعل متعمداً أو غير متعمد. يمكن أن تقوم به عمداً ثم تتظاهر، بعد ذلك، بعكس ذلك. في الحقيقة، أنت وحدك من يمكنه أن يملك اليقين التام، أما أنا فلن يكون لي غير يقين ذاتي.

- نعم - قال طوماس - ولكن، ماذا تريد أن تقول؟

- ما هي الغاية من خلق الكون؟

حديق لويس في طوماس بنظرة متسائلة.

- هذا سؤال يساوي مالا كثيراً - قال المؤرخ معلقاً وهو يبتسم

- فما هو الجواب؟

- لو كنت أعرف الجواب لفزت بالمال - رد لويس ضاحكاً -

للحصول على جواب شاف، عليك أن تسأل الأستاذ سيزا.

- لكنه ليس هنا، مع الأسف. هل تعتقد أنه سيجيب أحدهم يوماً عن هذا السؤال؟

أخذ عالم الفيزياء نفساً عميقاً وهو يختار كلمات رده بعناية.

- أعتقد أنه من الصعب الجواب بالتأكيد عن هذا السؤال، لكن هناك بعض المؤشرات المهمة.

- وما هي؟

- هناك حجة قوية جداً قَدَّمها ويليام بيلي في القرن التاسع عشر

- قال وأشار إلى أرضية المطعم الخشبية - تخيلُ أنني، وأنا ألجُ هذا

المكان، أعثر على زهرة وضعت فوق الأرضية. أنظر إليها وأفكر: يا

إلهي، كيف وصلت هذه الزهرة إلى هنا؟ ربما سرعان ما أجيب:

حسناً، الزهرة شيء طبيعي. ولا أفكر في الموضوع بعد ذلك. تخيل

الآن أنني لا أعثر على زهرة بل على ساعة. فهل سيكون جوابي هو

نفسه؟ طبعاً، لا. بعد فحص الآلية المعقدة للساعة، قد أقول إن

الأمر يتعلق بشيء مصنوع من طرف كائن ذكي بهدف محدد.

والسؤال، الآن، هو كالتالي: أي سبب يمنعني من أن أقدم لوجود

الزهرة نفس الجواب الذي أقدمه لوجود الساعة؟

وظل السؤال معلقاً في الهواء لحظة.

- أرى ماذا تعني بكلامك - لاحظ طوماس.

- بصفتي فرداً ينتمي إلى النوع الذكي الذي خلق الساعة، أعرف

النية التي تحكمت في خلق تلك الساعة. لكنني لا أنتمي إلى النوع

الذي خلق الزهرة، ولذلك فإنني لا أملك أي يقين موضوعي

بخصوص الغاية من خلقها. لكنني أفترض أن ثمة غاية. في الحقيقة،

من لم يسبق له أبداً أن رأى ساعة، قد يستنتج بكل سهولة أنها من

صنع دماغ ذكي.

- مهلاً - قال طوماس مجادلاً - إننا نتحدث، هنا، عن شيئين

مختلفين، أليس كذلك؟

- أتعقد ذلك؟

- طبعاً. كيف لك أن تقارن بين تعقيد ساعة وتعقيد زهرة؟

حرك لويس رأسه.

- فقط بمعنى أن الزهرة أكثر تعقيداً بكثير - ثم قام عالم الفيزياء بحركة دائرية واسعة - انظر إلى كل ما يحيط بنا - وجال بنظره عبر المطعم ثم حدق في النوافذ المطلّة على السماء وأوراق أشجار الزيزفون الخضراء - هل لاحظت تعقيد الكون بكامله؟ هل فكرت في دقة التنظيم الضرورية كي يشتغل نظام شمسي؟ أو لخلق الحياة؟ - ثم أشار إلى مياه نهر مونديغو التي تنساب هادئة مثل طريق موازية للرصيف - أو لتسمح لهذا النهر ليجري بهذا الشكل؟ ألا تظن أن هذا أكثر تعقيداً وذكاء بكثير من آلية ساعة بسيطة؟

- بالفعل ...

- لكن، إن كان شيء بسيط قد صنعه كائن ذكي بغاية محددة، فما الذي نستطيع أن نقوله عن زهرة؟ وما الذي نستطيع أن نقوله عن الكون برمّته؟ إن كان أحدهم، لم يسبق له أن رأى ساعة، يدرك، وهو يكتشف ساعة لأول مرة، أن الأمر يتعلق بخلق ذكي، فلاي سبب لن نستطيع، ونحن نتأمل عظمة الكون وتعقيده الذكي، من الوصول إلى نفس الاستنتاج؟

- فهمتُ.

- هذا هو أساس حجة الغائية. إذا كان كل شيء من حولنا يشهد على إرادة وعلى ذكاء، فلماذا لا نقبل بوجود غاية من خلق الكون؟ إن كانت الأشياء تنم عن ذكاء في خلقها، فلماذا لا نقبل بأن ما أو مَنْ صنعها ذكي؟ لماذا لا نقبل بوجود ذكاء وراء تلك المخلوقات الذكية؟

- ولكن، أين يوجد هذا الذكاء؟

- وأين يوجد صانع الساعة؟ إن عثرتُ على ساعة فوق الأرض، فمن المحتمل ألا أعرف أبداً ذلك الذكاء الذي صنعها. ومع ذلك، لن أشك لحظة واحدة في أن هذه الساعة هي من خلق كائن ذكي. نفس الشيء ينطبق على الكون. من الممكن ألا أعرف أبداً الذكاء الذي خلقه، لكن يكفي أن أنظر من حولي لأدرك أن الأمر يتعلق بخلق ذكي.

- فهمتُ.

- فقط إن كان الأمر يتعلق بخلق ذكي، وكل شيء يشير إلى أنه كذلك، يُطرح إشكال معرفة إن كنا ندرسه بطريقة مناسبة.

- ماذا تعني بهذا الكلام؟

أشار لويس روشا بحركة إلى جسده.

- انظر إلى الكائنات الحية. ممّ يتكون كائن حي؟

- يتكون من بنية من المعلومات - رد طوماس وهو يستحضر ما قاله والدّه.

- تماماً، إنه بنية من المعلومات. لكن ما يشكل هذه البنية من المعلومات هي الذرات، أليس كذلك؟ وعدد كبير من الذرات مجتمعة تشكل جُزيئة. وعدد كبير من الجزيئات مجتمعة تشكل خلية. وعدد كبير من الخلايا مجتمعة تشكل عضواً. كل الأعضاء مجتمعة تشكل جسماً حياً. ومع ذلك، ليس صحيحاً أن نقول إن كائناً حياً يُختزل في مجموعة من الذرات أو الجزيئات أو الخلايا. من الأكيد أن كائناً حياً تجتمع فيه تريليونات من الذرات، مليارات من الجزيئات، وملايين من الخلايا، ولكن أي وصف يقتصر على هذه المعطيات، رغم أنها حقيقية، سيقع في الخطأ، ألا تظن ذلك؟

- طبعاً.

- يمكن وصف الحياة على مستويين. المستوى الأول،

اختزالي، ونجد فيه الذرات، والجزيئات، والخلايا، وكل ميكانيكا الحياة. والمستوى الثاني دلالي. الحياة بنية من المعلومات تتحرك نحو هدف معين، حيث الكل هو بالأحرى مجموع الأجزاء والكل لا يعي حتى حضور واشتغال كل جزء يشكله. بوصفي كائناً ذكياً، يمكن أن أكون في مستوى دلالي وأناقش معك مسألة وجود الله، بينما خلية من خلايا ذراعي، في المستوى الاختزالي، تتلقى الأوكسيجين من أحد الشرايين. أناي الدلالي لا ينتبه حتى لما يقوم به أناي الاختزالي، لأنهما معاً يقعان في مستويين مختلفين - نظر إلى طوماس - هل تتابع استدلالتي؟

- نعم.

- ما أريد أن أقوله لك هو أن هذين المستويين يمكن أن نجدهما في أي مكان. مثلاً، يمكن أن أحلل رواية الحرب والسلام على المستوى الاختزالي، أليس كذلك؟ هنا، يكفي أن أفحص المداد المستعمل في نسخة معينة، نوعية الورق، طريقة صناعة الورق والحبر، إن كانت هناك أم لا ذرات من الكربون في هذه النسخة... باختصار، هناك عدة جوانب اختزالية يمكنني أن أدرسها. لكن لن يكشف أي واحد من هذه الجوانب حقاً عن كنه رواية الحرب والسلام. لمعرفة ذلك لا يمكن لتحليلي أن يكون اختزالياً - ابتسم - يجب أن يكون تحليلاً دلالياً.

- فهمتُ.

- ونفس الشيء ينطبق على الموسيقى. يمكن أن أحلل أغنية *All you need is love* لمجموعة البيتلز، بمقاربة اختزالية، فأدرسُ صوت طبل رينغو ستار، تموجات الحبال الصوتية لجون لينون وبول مكارتني، ارتجاج جزيئات الهواء الصادر عن أصوات قيثارة جورج هاريسون، لكن لا شيء من كل هذا سيكشف لي عن حقيقة هذه



الأغنية. كي أفهمها، لا بد لي من تحليلها على المستوى الدلالي.

- بكل تأكيد.

- في الحقيقة، هذا مثل الحاسوب. هناك هارذوير وهناك سوفتوير. المستوى الاختزالي يدرّس الهارذوير، بينما المستوى الدلالي يركز على السوفتوير.

- كل هذا يبدو بديهياً.

- إذن، بما أن كل شيء يبدو لك بديهياً، دعني أطرح عليك سؤالاً.

- تفضّل.

- عندما أدرس الكون بطريقة تمكّني من معرفة مادته الأساسية، تركيبه، قواه وقوانينه، أي نوع من التحليل أقوم به؟  
- إنني لا أفهم جيداً سؤالك . . .

- في رأيك، هل يتعلق الأمر بتحليل اختزالي أم بتحليل دلالي؟  
فكر طوماس لحظة في السؤال.

- حسناً . . . يبدو لي أنه تحليل اختزالي.

اتسعت الابتسامة على محيا لويس روشا.

- وهذا ما يقودنا إلى السؤال التالي: هل يمكن تحليل الكون تحليلاً دلالياً؟

- تحليل الكون تحليلاً دلالياً؟

- نعم، تحليلاً دلالياً. بما أنني أستطيع القيام بتحليل دلالي لشيء بسيط جداً مثل رواية الحرب والسلام أو أغنية *All you need is love*، لماذا لا أستطيع القيام بتحليل دلالي لشيء أكثر غنى وأشدّ تعقيداً وأحدّ ذكاء مثل الكون؟

- إذن . . .

- إذن، إن كان تحليل الحبر أو نوع الورق لنسخة من الحرب والسلام يعتبر شكلاً ناقصاً ومختزلاً جداً لدراسة هذا الكتاب، فلماذا يمكن أن تكون دراسة الذرات والقوى الموجودة في الفضاء طريقة مقنعة لدراسة الكون؟ ألا توجد رسالة أخرى خلف الذرات؟ ما هو دور الكون؟ لماذا يوجد؟ - تنهّد - هذا هو إشكال الرياضيات والفيزياء اليوم. نحن العلماء نركز كثيراً على دراسة الحبر والورق الذي يتشكل منه الكون، لكن هل تكشف لنا هذه الدراسة حقاً عن ماهية الكون؟ ألا ينبغي دراسته أيضاً على المستوى الدلالي؟ ألا ينبغي لنا أن نصغي لموسيقاه وندرك شعره؟ حين نفكر في الكون، ألا نركز كثيراً على الهارذوير، ونتجاهل بُعداً على قدر كبير من الأهمية هو السوفتوير؟ - تنهّد - هذه هي الأسئلة التي كانت توجه عمل الأستاذ سيزا خلال السنوات الأخيرة. كان يريد أن يفهم دلالة الكون. كان يريد أن يعرف السوفتوير الذي يوجد مُبرمجاً في هارذوير الكون.

- فهمتُ - قال طوماس - ولكن، كيف يمكننا أن ندرُس سوفتوير الكون؟

- هذا السؤال ينبغي أن تطرحه على الأستاذ سيزا - أجابه لويس - لكنني أظن أن الجواب عن هذا السؤال يتعلق بالجواب على سؤال آخر، أكثر سهولة في صياغته: ما نراه من حولنا، سواء في العالم الأصغر أو في العالم الأكبر، هل هو خلقٌ أم الكائن الذكي نفسه؟ - كيف ذلك؟

عرض عالم الفيزياء راحة يده اليسرى.

- عندما تنظر إلى يدي، هل ترى خلقاً من إبداعي أم جزءاً من ذاتي؟ - ثم جال بنظره من حوله - عندما ننظر إلى الكون، هل نرى خلقاً من فعل الله أم جزءاً من الله؟

- ما رأيك؟

- ليس لي أي رأي. لكن، حسب الأستاذ سيزا، الكون جزء من الله. لو كان على حق، عندما سيتم وضع نظرية كل شيء سيكون من الممكن، مبدئياً، أن تحتوي على وصف الله.

- هل تعتقد ذلك؟

- هذا ما يحاول علماء الفيزياء القيام به حالياً. وضع نظرية كل شيء. ولو أنني أظن أنهم لن يتمكنوا من ذلك.

- لماذا؟

- بسبب مبرهنتي عدم الاكتمال. هاتان المبرهنتان، بالإضافة إلى مذهب اللايقين، تدلان على أنه لن يكون أبداً من الممكن إغلاق الدائرة. سيكون هناك دائماً حجاب ملغز في نهاية الكون.

- إذن، لماذا ما زالوا يحاولون صياغة هذه النظرية؟

- لأنهم لا يفكرون جميعاً كما أفكر أنا. بعضهم يظن أنه من الممكن وضع نظرية كل شيء. وهم مقتنعون أنه يمكن تصور معادلة أساسية.

- معادلة أساسية؟ ماذا تعني بهذا؟

- إنها بمثابة «الكأس المقدسة» في مجال الرياضيات والفيزياء. صياغة معادلة تضم بين طرفيها كل بنية الكون.

- وهل هذا ممكن؟

- ربما، لست أدري - ردّ لويس وهو يهزّ كتفيه - أتعرف، العلماء يعتقدون أكثر فأكثر أن وفرة القوانين والقوى الموجودة في الكون يعود إلى أننا في حالة تتميز بدرجات حرارة منخفضة. هناك مؤشرات عديدة تدل على أن القوى تنصهر بعضها في بعض عندما ترتفع درجات الحرارة إلى مستوى معين. لفترة طويلة، مثلاً، ساد الاعتقاد بوجود أربع قوى أساسية في الكون: قوة الجاذبية، القوة الكهرومغناطيسية، القوة النووية القوية والقوة النووية الضعيفة. لكن

اكتُشف أن هناك، في الحقيقة، ثلاث قوى، ما دامت القوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية الضعيفة تشكلان نفس القوة، التي يطلقون عليها اليوم اسم القوة الكهروضعيفة. وهناك من يعتقدون أن القوة النووية القوية تشكل وجهاً آخر للقوة الكهروضعيفة. إن كان الأمر كذلك، فلا يتبقى سوى ضم هذه القوى الثلاثة إلى قوة الجاذبية للوصول إلى قوة وحيدة. كثير من علماء الفيزياء يعتقدون أنه لحظة حدوث البيغ بانغ، وتحت تأثير درجات الحرارة العالية التي كانت سائدة آنذاك، كانت كل القوى متحدة في قوة عظمى واحدة، يمكن اختزالها في معادلة رياضية بسيطة - انحنى لويس على المائدة - وحين نبدأ في الحديث عن قوة عظمى، أي صورة سرعان ما تتبادر إلى الذهن؟

- الله.

ابتسم عالم الفيزياء.

- اكتشف العلماء أنه كلما ارتفعت الحرارة، اتحدت الطاقة وتكسرت البنيات المعقدة دون الذرية، لتكشف عن بنيات بسيطة. تحت حرارة مرتفعة جداً، تصبح القوى بسيطة وتنصهر فيما بينها، لتبرز، بذلك، القوة العظمى. في هذه الحالة، من الممكن تصور معادلة رياضية أساسية. يتعلق الأمر بمعادلة قادرة على تفسير تصرف وبنية المادة بكاملها وتستطيع وصف كل ما يحدث - ثم فتح يديه كأنه أنجز للتو خدعة سحرية - إن معادلة كهذه قد تكون هي المعادلة الأساسية في الكون.

- المعادلة الأساسية؟

- نعم - أكد لويس روشا - وبعضهم يسميها المعادلة الإلهية.

# 27

كانت الصبيحة تمضي متأخرة، وربما للمرة العشرين في أقل من ساعة واحدة، تأمل طوماس الورقة وتخيل استراتيجية جديدة لاكتشاف السر. لكن السر ظل راسخاً، بل كان لديه الانطباع بأن تلك الحروف الثلاثة عشر مع علامة التعجب كانت تسخر من مجهوداته.

See sign  
!ya ovqo

حرك رأسه، غارقاً في المسألة. بدا له جلياً أن كل سطر يحيل على تشفير مختلف، دون أن يكون متأكداً من أن السطر الأول كان له تشفير. كانت عبارة «*See sign*» باللغة الإنجليزية تعني «انظر إلى الإشارة». يتعلق الأمر، لا محالة، بإشارة تركها أينشتاين، ولها علاقة بإشارة ما وضعها في المخطوط. المشكلة أن طوماس لم يتمكن من قراءة الوثيقة، فلم تكن له أي طريقة للتأكد من ذلك. هل تكون ثمة أية إشارة ملغزة مخفية في مكان ما من النص الأصلي؟

حرك عالم فكّ التشفير رأسه.

ربما يكون من المستحيل شيء كهذا من دون الاطلاع على

المخطوط. ومهما حاول طوماس النظر إلى المسألة من كل الجوانب، كان يستنتج دائماً أنه من الضروري أن يقرأ الوثيقة، يبحث عن الخيوط الخفية، وينبش النص بحثاً عن تلك الإشارة التي يشير إليها أينشتاين. «*See sign*»، «انظر إلى الإشارة». لكن، أية إشارة؟

استند إلى ظهر كرسي المطبخ ووضع قلمه. بعد تنهيدة استسلام، تخلى طوماس حالياً عن فهم ذلك السطر الأول؛ بما أنه لا يستطيع الاطلاع على المخطوط فإن أي محاولة لتأويل هاتين الكلمتين كان مآلها الفشل. نهض، منزعجاً، ذهب وأخذ عصير برتقال من الثلاجة ثم عاد إلى الكرسي. كان يشعر بقلق دقيق يحرق دواخله.

صوّب نظره من جديد على الورقة وركز على السطر الثاني. للوهلة الأولى، كانت تلك الرسالة مشفرة وفق نظام الإبدال، من دون شك. كان يبدو واضحاً أن الحروف الأصلية قد استُبدلت بحروف أخرى، وفق ترتيب محدد سلفاً بمفتاح. لو وجد المفتاح فإنه سيكتشف سر الشفرة. كانت المشكلة تكمن في فهم أي مفتاح استعمله أينشتاين لتشفير هذا السطر.

قرأ عدة مرات حروف السطر الثاني، حتى اقتنع بأن الأمر يتعلق بنظام إبدال، وأخذ يفكر في عدة فرضيات. إن كان الأمر يتعلق بإبدال يعتمد الترميز القيصري، فسيكون من السهل فك خيوطه. لكن، إذا كان الإبدال يعتمد ترميزاً بأبجديات متعددة، باستعمال أبجديتين أو عدة أبجديات مشفرة، فستكون العملية أكثر صعوبة بشكل واضح. ويمكن أن يكون إبدالا متعدد المراكز، طريقة يتم بموجبها تعويض مجموعات من الحروف كاملة بمجموعات حروف أخرى. أو يمكن أن يكون إبدالا تجزيئياً، تكون فيه الحروف مشفرة بدورها، وهذا هو أكبر كابوس.

كان يستشعر الصعوبات القادمة. لكن، الخيار الأقرب للمنطق يبقى هو الإبدال بنظام الترميز القيصري، فقرر أن يبدأ بهذه الفرضية. أمام نظام كهذا، كان واعياً تمام الوعي بأن اختيار مفتاح الإبدال لم يكن بمحض الصدفة. يمكن أن يكون، مثلاً، أبجدية القيصر، وهي من أقدم الأبجديات المشفرة عبر التاريخ، واستعمله يوليوس قيصر في تدبير دسائس بلاطه وتسيير حملاته العسكرية. إن كان الأمر كذلك، يكفي أن يغير نقطة بداية الأبجدية العادية ليجد الحل.

لحظتها رنّ جرسُ الباب.

خرجت السيدة نورونيا من القاعة، حيث كانت ترتب الأشياء، وتوجهت بسرعة نحو الباب.

- من يكون في هذا الوقت؟ - همهمت ثم أخذت الجهاز - من؟ نعم؟ لحظة من فضلك - نظرت إلى ابنها - إنه الأستاذ روشا. ينتظرك في الأسفل.

- آه! - صاح طوماس - أخبريه أنني سأنزل حالاً.

كاد يشعر بالارتياح لوضع حدّ لذلك العمل المرهق الذي شغله طوال الصباح من دون جدوى. طوى الورقة حيث اللغز وتوجه إلى الغرفة بحثاً عن معطفه.

ركنا السيارة تحت ظل شجرة بلوط. وهما يترجّلان، تأمل طوماس المنزل الصغير المختبئ وراء سور وبعض شجيرات، وسط شارع دياش دا سيلفا الهادئ، حيث يقطن معظم أساتذة الجامعة. كان البيت يبعث على الدفء، رغم أنه كان جلياً أنه يحتاج إلى بستاني، فالخضرة كانت تغزو ممرات المشي، بل وحتى الفناء أمام الباب.

- إذن، هنا كان يسكن الأستاذ سيزا؟ - سأل طوماس وهو يجول بنظره عبر واجهة البيت.

- نعم، هنا.

نظر المؤرخ إلى زميله.

- لا بد أنه يصعب عليك أن تعود إلى هنا؟

نظر لويس روشا إلى البيت وتنهد بعمق.

- طبعاً.

- أنا آسف لأنني طلبت منك هذه الخدمة - قال طوماس - لكن

يبدو لي من المهم معاينة المكان حيث جرى كل شيء.

تجاوزا البوابة وتوجها نحو الباب. أخرج عالم الفيزياء مفتاحاً

من جيبه وأدخله في القفل، حتى انفتح الباب محدثاً طقطقة خفيفة.

أشار إلى طوماس أن يدخل ثم تبعه.

استقبلهما صمت شبه مطبق داخل البيت. كان البهو مبلطاً، به

باب على اليمين يؤدي إلى الصالون وآخر على اليسار إلى المطبخ،

الذي ينبعث منه هدير محرك ثلاجة كانت ما تزال موصولة بالتيار.

- لكن كل شيء هنا يبدو مرتباً بعناية.

- لأنك لم تر المكتب بعد - قال لويس روشا وهو يسبقه كي

ينطلق عبر الممر الضيق أمامه - هل تريد أن ترى؟ تفضل.

عند طرف الممر كانت هناك ثلاثة أبواب. فتح عالم الفيزياء

الباب على اليسار، وهو يدلّه على المدخل المحمي بشريط وضعته

الشرطة، وطلب من طوماس أن ينظر إلى ذلك.

- يا إلهي! - صاح المؤرخ.

كانت أكوام من الكتب، والأوراق والقمصان تغطي الأرضية في

فوضى تفوق الوصف، بينما الرفوف في الجدران كانت شبه فارغة،

لا يشغلها غير مجلد أو مجلدين صمدا أمام العاصفة.



- رأيتَ هذا؟ - قال عالم الفيزياء .

لم يستطع طوماس أن يشيخ بنظره عن ذلك الركاب من الكتب والوثائق .

- هل أنت من اكتشف هذه الفوضى؟

- نعم - أكد لويس - كنتُ قد اتفقت مع الأستاذ سيزا كي آتي إلى هنا ونتأكد معاً من حسابات قام بها حول نتائج فرضية تغيّر كتلة الإلكترونات . لم يكن الأستاذ قد التحق بدرس من دروسه قبل بضعة أيام، بيد أن ذلك لم يشغلني لأنني كنت أعرف أنه يسهو بعض الشيء . لكنني حين وصلت أمام البوابة، رأيت أن باب البيت كان مفتوحاً . استغربتُ الأمر فدخلت . ناديتُ الأستاذ سيزا فلم يجبني أحد . ذهبتُ لأرى مكتبه فاكتشفتُ . . . هذا - قال وهو يشير إلى الأرضية - وسرعان ما فكرتُ الآن الأمر يتعلق بعملية سرقة فطلبتُ الشرطة .

- هممم - همهم طوماس - وماذا فعل رجال الشرطة؟

- في البداية، لم يفعلوا شيئاً محدداً . ختم بعض رجال الشرطة المكان بالشمع الأحمر ثم أخذوا بعض العينات . بعد ذلك، جاءت الشرطة القضائية عدة مرات وطرحت كثيراً من الأسئلة، معظمها حول ما كان الأستاذ يحتفظ به هنا . كانوا يريدون معرفة إن كان يملك أشياء نفيسة . لكن الأسئلة تطورت وصار بعضها غريباً، أعترفُ بذلك .

- مثلاً؟

- كانت الشرطة تريد أن تعرف إن كان الأستاذ يسافر كثيراً وإن كان يعرف أشخاصاً من الشرق الأوسط .

- وأنت؟ ماذا كان جوابك؟

- حسناً . . . قلتُ إنه من البديهي أن يسافر الأستاذ، لأنه كان يشارك في ندوات وحلقات دراسية، وكانت له اتصالات بعلماء آخرين . . . ، باختصار، شيء عادي بالنسبة لمن يكرس حياته للبحث، أظن.

- وهل كان يعرف أشخاصاً من الشرق الأوسط؟

علت تكشيرةً وجه لويس روشا.

- لا بدّ أنه كان يعرف بعضهم، لست أدري. كان يتحدث مع كثير من الناس، أنت تعرف.

أشاح طوماس بوجهه ونظر مرة أخرى إلى الكتب المتناثرة. كان واضحاً أن أحدهم قد رمى كل شيء على الأرض بحثاً عن شيء ما. أو بالأحرى كان طوماس يعرف ذلك. كان طوماس نورونيا يعرف ذلك، فرانك بيلامي كان يعرف ذلك وقليل من الأشخاص أيضاً. كان اللصوص رجالاً تابعين لحزب الله يبحثون عن *Die Gottesformel*، ذلك المخطوط القديم الذي وجدوه، أخيراً، في هذا المكتب.

كان لويس يحرك شيئاً ما خلف طوماس، ثم ضغط على مقبض الباب الوسط وفتحه.

- سأذهب إلى الحمام - قال وهو يلج غرفة ضيقة مزينة ببلاطات خزفية بيضاء وزرقاء - خذ راحتك.

ثم أغلق الباب.

ظل طوماس مؤقتاً وحده، فألقى نظرة أخيرة على المكتب الذي تعرض للتخريب ثم عاد أدراجه. جلب انتباهه بابٌ ثالث عند نهاية الممر؛ مدّ ذراعه وفتحه. سرير واسع كان يشير إلى أن المكان هو غرفة نوم الأستاذ سيزا.

بدافع الفضول، توغل طوماس داخل العتمة ولاحظ الغرفة بانتباه

كبير. كانت رائحة عفن عالقة في الجو، لأن الغرفة لم تفتح منذ عدة أسابيع طويلة، بكل تأكيد، كأنها قد علقت في الزمن، في انتظار أن تدب فيها الحياة من جديد. كانت الستائر مسدلة، تخلق جواً هادئاً وسط صمت مريح، فضاء ساكن في أضواء مخففة. وخلافاً للفوضى السائدة في المكتب، كان كل شيء هنا مرتباً بعناية، كل شيء في مكانه بالضبط، وكل مكان يؤدي وظيفة معينة.

كانت طبقة غبار رقيقة تغطي قطع الأثاث، تعطي الانطباع بأنه يمكن قياس الزمن المنصرم من الغبار المتراكم. فتح المؤرخ جاروراً فوجد حزمة من الرسائل والبطاقات البريدية. أخذ منها ما كان في أعلى الحزمة وفحص تاريخها. كانت تعود إلى الشهور الأخيرة. خمن أن تلك التي توجد في أسفل الحزمة ربما تكون أقدم. نظر إلى الرسائل وحاول التعرف عليها. كان معظمها يبدو من الجامعة، مع أخبار عن ندوات، مستجدات النشر، طلبات معلومات بيولوجرافية، ومراجع أخرى ذات طابع أكاديمي محض. لمح وسط الأظرفة ثلاث بطاقات بريدية وفحصها من دون تركيز. اثنتان تحملان توقيع اثنين من أبناء العم، لكن البطاقة الثالثة أثارت انتباهه. نظر إليها من كل جانب فشعر بفضوله يتضاعف.

تراكاتاكتاك.

صوت معدني لمفتاح يدور في القفل جعله يلتفت نحو الممر. كان لويس يغادر الحمام.

بحركة سريعة وخفية، دسّ طوماس تلك البطاقة البريدية الثالثة في جيب معطفه وتظاهر بوجه بريء.

كان أول شيء قام به طوماس وهو يصل إلى البيت أن بحث على رقم في ذاكرة الهاتف وقام بإجراء مكالمة.

Greg Sullivan here - قال الصوتُ الأغرّ في الجهة الأخرى

من الخط.

- أهلاً غريغ. معك طوماس نورونيا. هل أنت بخير؟

- آه! طوماس. كيف حالك؟

- بخير، شكراً.

- سمعتُ أن حياتك لم تكن سهلة في طهران.

- نعم، كانت معقدة.

- ولكنك تجاوزت ذلك باحترافية!

- لا تبالغ كثيراً

- بكل جدية! يوماً ما سوف تقترب مني وتقول لي بلكنة بريطانية

خالصة: اسمي نورونيا. طوماس نورونيا! - قال ضاحكاً - جيمس

بوند حقيقي!

- لا تهزأ مني، كُفّ عن هذا!

- إنني لا أهزأ منك. أنا معتر بك، هل تعرف؟ أحسنت يا فتى!

- هيا كفى إطرأء - تنحنح طوماس، قبل أن يخوض مباشرة في

موضوع المكالمة - غريغ، أحتاج منك إلى خدمة.

- بكل فرح.

- أود أن تتصل بأصدقائك في لانغلي حتى يطلبوا من فرانك

بيلامي أن يتصل بي على وجه السرعة.

- عفواً؟

- أن يتصل بي فرانك بيلامي على وجه السرعة.

ساد صمّت قصير في الجهة الأخرى من الخط.

- اسمع، يا طوماس، السيد فرانك بيلامي ليس أي شخص

عادي - قال غريغ بنبرة صارت محترمة بشكل مفاجئ - إنه واحد من

المدرء الأربعة لوكالة المخابرات الأمريكية، ويمكنه الولوج مباشرة إلى المكتب الرئاسي في البيت الأبيض. ليس الناس هم من يقررون الحديث معه، هو من يقرر أن يتحدث معهم، هل فهمت؟  
- نعم، لقد فهمت - أجاب طوماس - لكنني أيضاً فهمت أنه إن كان شخص مهم مثله قد جاء إلى لشبونة ليتحدث معي واتصل بي مرتين بعد ذلك، فلأنه يعتبر أنني أشتغل على قضية في غاية الأهمية بالنسبة للوكالة. إن كان الأمر كذلك، فسيكون لا محالة مستعداً للاتصال بي إن علم أن لدي ما أقول له.

- وهل لديك ما تقول له؟

- طبعاً.

تنهّد غريغ.

- أوكي، طوماس. أتمنى أن تكون على بينة مما تقوم به. السيد بيلامي ليس من الأشخاص الذين يمكنك أن تمزح معهم - ثم تردّد، كأنه يعطي لمحكوم آخر فرصة كي يتوب عما اقترفه من أفعال - هل تريدني فعلاً أن أتصل بلانغلي؟

- نعم، اتصل بهم.

- أوكي.

أخرج من جيب معطفه تلك البطاقة البريدية التي اختلسها من غرفة الأستاذ سيزا وفحصها بدقة. كان مكان المُرسِل فارغاً، كما لو أن هذه المعلومة كانت غير ضرورية للمُرسِل إليه. كانت البطاقة بالكاد تحتوي على رسالة قصيرة كُتبت بخط أنيق، بخطوط مستقيمة كما يجب، كما لو أن جمالية الشكل لا تقل قيمة عن المضمون.

صديقي العزيز.

سعدت بتلقي أخبارك.

فضولي يغلبني

لمعرفة اكتشافك.

فهل يكون اليوم الموعود قد حل. أخيراً؟

التحق بي في المعبد.

مع مولدي

تينزينغ ثوبتين

قرأ عدة مرات هذه السطور القصيرة المكتوبة على البطاقة. لم يكن بحاجة إلى كثير من الحدس كي يدرك أن هذه الرسالة كانت تميط جزءاً من اللثام، مع الإبقاء على الأهم مقنعاً تحت السطور بشكل دقيق. من يكون تينزينغ ثوبتين؟ إن كان يقول للأستاذ سيزا «صديقي العزيز» فلأنه يعرفه حق المعرفة من دون شك. لكن من أين؟ إذا كان ثوبتين يقول «سعدت بتلقي أخبارك»، فلأن الأستاذ سيزا أخذ المبادرة واتصل به. إذا كان المُرسِلُ يقول «فضولي يغلبني لمعرفة اكتشافك» فلأن الأستاذ قد أطلعه على ذلك. وإذا كان ثوبتين يتساءل «فهل يكون اليوم الموعود قد حل، أخيراً؟» فلأن هذا الاكتشاف، مهما كانت طبيعته، كان سيؤدي إلى حدث ينتظره الطرفان منذ مدة طويلة. لكن، أي لغز لعين هذا؟ - تساءل طوماس كلما قرأ الرسالة المكتوبة على البطاقة.

رَنّ هاتفه.

- أهلاً طوماس - قال الصوت الأجنس المتميز - أخبروني أنك تريد أن تتحدث معي .

- أهلاً، سيد بيلامي . كيف هو الجو هناك في لانغلي .

- أنا لستُ في لانغلي - أجب الصوت - إنني على متن طائرة تحلق فوق منطقة لا أستطيع أن أعطيك إحدائياتها . أتحدث معك عبر خط غير مؤمن، مما يعني أنه يجب أن تكون محترزاً فيما تقول . هل فهمت؟

- نعم .

- إذن، أخبرني لماذا كنت مصراً على أن تتحدث معي .

دون أن ينتبه لذلك تقريباً، قفز طوماس فوق الكرسي، كأنه حارس يقف استعداداً أمام ضابط .

- سيد بيلامي، أعتقد أنني قد فهمتُ أخيراً موضوع الوثيقة التي شغلتنا ودفعتنني للقيام بذلك السفر .

ساد صمتٌ قصير تخللته بعض الخشخشات على الخط .

- صحيح؟

- حسب ما اكتشفته، أظن أنني أستطيع أن أؤكد أن محتوى الوثيقة لا يمثل أي خطر . بل يتعلق الأمر بموضوع يختلف تماماً عما كنا نظن .

- وهل أنت متأكد؟

- لنقل إن لدي يقيناً نسبياً، يرتكز على ما اكتشفته، لا شيء أكثر من هذا . حتى يكون لدي يقين مطلق يجب أن أتمكن من قراءة المخطوط، وهو ما يبدو لي الآن مستحيلاً نظراً للأسباب التي تعرفها .

- لكن، هل تظن أن محتوى الوثيقة ليس هو الموضوع الذي

يشغلنا؟

- نعم، أظن ذلك .

- إذن، كيف تفسر أن عبقرينا الكبير اعترف في مكان خاص بأن اكتشافه سوف يؤدي إلى انفجار ذي قوة مذهلة .  
تردد طوماس .

- صحيح . . . لكن، هل قال هذا الكلام فعلاً؟

- طبعاً قاله . قاله لعالم فيزياء كان يشتغل مُخبراً لنا . لقد حكيت لك هذه القصة عندما جئتُ إلى لشبونة، هل تذكرُ ذلك؟  
- نعم .

- إذن، ما هو قرارنا؟

أخذ المؤرخ نفساً عميقاً .

- ليس هناك سوى وسيلة وحيدة كي أستجلي هذا الأمر - قال .

- ما هي؟

- يجب أن أقوم برحلة أخرى .

- إلى أين؟

- إننا نتحدث عبر خط غير مؤمن . هل تريدني فعلاً أن أكشف

لك على الوجهة؟

تردد فرانك بيلامي، وهو يفكر في المخاطر .

- معك حق - وافقه على الفور - اسمع، سوف أتصل بسفارتنا

في لشبونة وسأعطي تعليمات بأن يوفرُوا لك كل الوسائل التي تحتاج

إليها، هل هذا جيد؟

- جيد جداً .

- إلى اللقاء، طوماس . أنت عبقري فريد من نوعك!

وضع فرانك بيلامي السماعاة وظلّ طوماس لحظة ينظر إلى

هاتفه . هذا الرجل اللعين موهوب في إثارة أعصاب الغير . وبالتفكير

ملياً في الأمر، كان يبدو أن بيلامي يحدث هذا التأثير في الجميع،



ويكفي معاينة التصرفات الخنوعة التي أبدتها كل من غريغ سوليفان ودون سنايدر أثناء ذلك اللقاء المشهود في لشبونة. تخيل طوماس رجل وكالة المخابرات الأمريكية في اجتماع داخل المكتب الرئاسي في البيت الأبيض فارتسمت ابتسامة على شفتيه. هل يشعر رئيس الولايات المتحدة أيضاً بنوبة إسهال وهو يتحدث مع هذا الوجه المشؤوم؟

ربّما لينسى ما يسببه له بيلامي من ارتجاف، شعر طوماس لحظتها بحنين قوي إلى أريانا. لم تمض سوى أيام قليلة على فراقها وقد بدأ الحنين يعصر قلبه. كان يحلم بها كل ليلة، لكن أريانا كانت دائماً تبتعد، تسحبها قوة مجهولة، كأن أحدهم يمتصها نحو الأفق. فيستيقظ طوماس قلقاً، منقبض القلب، وفي حلقه غصة. تنهّد.

وهو يحاول أن يبتعد من الحضور الأنثوي الذي يلاحقه، خفض عينيه وفحص مجدداً البطاقة التي كانت ما تزال في يده. كان المكان المخصص للمُرْسِل فارغاً، لكن طوماس لم يكن بحاجة إلى معلومات أكثر من تلك المتوفرة لديه. كان لديه اسم المُرْسِل، ذلك المدعو تينزينغ ثوبتين، ورغم أن عنوانه غير مذكور، فإن البطاقة البريدية تشير إليه بكل وضوح.

قلّب البطاقة وتأمل ذلك المعبد الجميل الأبيض والبنّي الذي يرتفع وسط الضباب، فوق قمة تل يطل على المدينة. ابتسم. طبعاً، فكر. ليس هناك من لا يعرف ذلك القصر التّبيّتي. قصر بوتالا.

# 28

تدفق ضوء الجبل البلوري الصافي عبر نافذة الغرفة وأيقظ طوماس. ظلّ المؤرّخ لحظة منكمشاً تحت الأغطية مُمدّداً وقت النوم الوديع، ثم نهض على مضض وذهب إلى النافذة ليتأمل طلوع النهار. طلع النهار صافياً وبارداً وأشعة الشمس تلمع فوق القمم البيضاء المجاورة، كأنها لآلئ ترصع ملاءة حليبية بسطها أحدهم فوق الصخور الكستنائية؛ كانت هي الثلج الذي يلمع فوق الجبال الوعرة التي تحيط بالمدينة، وتشق عمق السماء بألوان زرقاء وببيضاء. شروق الشمس في لاسا.

كان ذلك ثالث شروق يعاينه طوماس في عاصمة التّبت. ملأ رثتيه بالهواء وعدل جسده، وتأكد من أن آلام الأيام الأخيرة قد اختفت، وأنه يشعر بتحسّن أكبر و طاقة أكثر. بُعيد نزوله في مطار غونغار بدأ يشعر بآلام في الرأس وغثيان، بالإضافة إلى صعوبة في التنفس لا تفارقه. في الليلة الأولى، وجد صعوبة في النوم، فقط بعد أن تقيأ قرّر أن يتصل بمكتب الاستقبال ليطلب طبيباً. لم يكن ثمة طبيب، لكن موظف الاستقبال، الذي اعتاد كثيراً على مشاهدة تلك الأعراض على الوافدين الجدد، قام بتشخيص سريع.

*Acute Mountain Sickness* - قال عندما زاره في غرفته.

- ماذا؟

- إنها أعراض المرتفعات - قال وهو يرى الحقيبة فوق السجاد. هل جئت على متن الطائرة؟  
- نعم.

- كل الأجناب الذين يأتون على متن الطائرة يعانون من هذه الأعراض. يعود ذلك إلى الانتقال السريع من مستوى البحر إلى الأعلي، من دون المرور بمراحل وسطى.

- وهل يمكن أن يؤدي هذا إلى تعقيدات؟

- طبعاً. أتعرف، الضغط الجوي هنا أقل بكثير من الضغط الجوي عند مستوى البحر. مما يعني أن الضغط غير كاف لتزويد الدم بالأوكسيجين، ولهذا السبب يشعر الناس بالمرض.

أخذ طوماس نفساً عميقاً كي يشعر بالفرق. وبالفعل، كان الهواء يبدو أكثر خفة، يكاد يكون ضعيفاً.

- والآن؟ ماذا أفعل؟

- لا شيء.

- لا شيء؟ لكن هذا ليس حلاً

- على العكس من ذلك، إنه أحسن حل. يجب ألا تفعل أي شيء. ابق هنا في الغرفة، ارتح ريثما تتأقلم مع الأعلي. لا تبذل أي مجهود. حاول أن تتنفس بطريقة أسرع حتى تعوض نقص الأوكسيجين في الدم. ربما يخفق قلبك بشكل أسرع، ولهذا ينبغي أن تخذل للراحة. بعد أيام قليلة، ستبدأ تشعر أنك تتحسن، سترى. حينئذ فقط يمكنك أن تخرج - وكان قد رفع إصبعاً على سبيل التحذير - لكن، حذار، إن تدهورت حالتك، فسيكون ذلك إشارة سيئة. قد يعني ذلك أنك تُطوّر شكلاً خبيثاً من أشكال الأعراض،

يؤدي إلى تعقيدات في الرئتين أو في الدماغ. في هذه الحالة، يجب أن تغادر التبت على الفور.

- لكن، ماذا لو بقيت هنا؟

جَحَظَ موظف الاستقبال عينيه الضيقتين.

- ستموت.

في اليوم الثالث، شعر بالفعل أنه أحسن حالاً وأكثر حماساً فقرر أن يخرج ليشتم هواء. طلب بعض الإرشادات من مكتب الاستقبال في الفندق وانطلق يمشي ببطء عبر شارع «بي جين غيلام» باتجاه قصر بوتالا الفخم. عَبَرَ السُّوْلُ، الواقع عند قدم قصر الدالاي لاما، فشعر بالصدمة وهو يرى كل هذه المنطقة قد تحولت إلى مدينة صينية ضخمة، بها شارع كبير يختنق بحركة السير.

أمام قصر بوتالا كانت تمتد ساحةٌ فسيحةٌ يزينها نحت يتراكم أمامه سياح صينيون يأخذون صوراً مع القصر في الخلفية. بعد هذه الساحة، كان الشارع الطويل عبارة عن مجموعة من المحلات التجارية العصرية، محلات بيع المعدات الرياضية، ملابس الأطفال، ملابس الماركات العالمية، محلات بيع الأحذية، مطاعم، محلات بيع الثلجات، مخابز، محلات بيع التبغ، والورود، والصيدليات، والنظارات. كان كل الفضاء يعج بالناس، تضيئه مصابيح ذات ألوان مختلفة، لدرجة أن قصر بوتالا يبدو جسماً غريباً، عملاقاً دخيلاً على التبت زرع وسط بحر صيني شاسع.

على بعد بضعة شوارع من هناك، استدار الزائر يميناً وولج، أخيراً، حياً هادئاً من أحياء التبت. توغل في متاهة من الأزقة الملتوية التي تحقها بنايات عتيقة بيضاء ذات نوافذ سوداء، تتخل طريقها أحياناً بركٌ من الوحل أو روائح البراز الكريهة.

*Hello* ! - حياه صوت نسائي جاء من عل - كان صوت فتاة

تبتية تطل من النافذة - تاشي ديليه ! ! *Hello* !

- تاشي ديليه ! - قال طوماس وهو يرد التحية بابتسامة .

كان الجميع يسارعون لتحية الأجنبي بابتسامة عريضة، وإشارة ود يدوية، انحناءة خفيفة، وعبارة «*hello*» باللغة لإنجليزية أو عبارة «تاشي ديليه!» بلغة التبت، يخرجون لسانهم أحياناً، كأنهم يتهمون من المرء. في هذا الركن من المدينة، بعيداً عن التأثير الصيني، كان يختبئ التبت الذي طالما تخيله المؤرخ .

أفضت به المتاهة الضيقة إلى ساحة فسيحة تعج بالحياة. كان حشد كبير يتحرك في كل جنباتها. رُحِّل مع قطيعهم من الماعز، حجاج من أمدو، مسافرون من خام، كهنة يركعون أو يرددون المانترا، بهلوانيون يقومون بشقليات، أكشاك لبيع السجاد ورسوم التانغا، قبعات، ملابس، صفائح لحمل الوقود، صور دالاي لاما، حلي من كاتماندو، شاي من دارجلينغ، لفاعات من سيشوان، تمائم من دير دريبونغ، ستائر من شيغاتسي، أعشاب علاجية من جبال الهيمالايا، قطع نقدية هندية قديمة حولت إلى حلي، خواتم فضية مزينة بحجر فيروزي. كل ما يخطر على البال كان يباع هناك بمختلف الأشكال والألوان .

*Hello* ! - قالت إحدى البائعات .

*Look ! Look !* - صاحت أخرى، بينما كانت الثالثة تقترح

تماثيل نصفية تصور شخصيات دينية صنعت من عظام حيوان الياك -  
*Cheap ! Cheap !* .

كان حشد كثيف من الناس يتزاحمون ويتدافعون في الساحة، يهتمون المانترا ويديرون آلات تُخرج أصوات صلوات، بعضها من نحاس، بعضها من اليشب أو من خشب الصندل. كان أفراد

بارْخور، أكبر حركة دينية، يقومون بدروات حول المعبد في اتجاه عقارب الساعة. كان الحجاجُ يتابعون حركات البهلوانيين، يتأملون الكهنة، ويرقبون الأكشاك أو يركزون فقط على الموكب الطقوسي الذي يدور حول المنطقة.

لم يكن طوماس بحاجة إلى أن ينظر إلى الخريطة كي يتأكد من أنه كان أمام سوق تومسخان، المقام حول المسار الديني لبارْخور. وسط المنازل التَّبْتِيَّة التقليدية ذات الواجهات البيضاء المزينة بشرفات من خشب، كان يرتفع باب المعبد. كان يحف الباب عمودان أحمران، يدعمان هيكلًا تزيينه جلود حيوان الياك، وتلمع في أعلاه صورة مقدسة، أيلان ذهبيان يديران وجههما نحو «دارماشكرا» متناسقة تمثل «عَجَلَة القانون».

معبدُ جوكانغ.

ظل بعض الحجاج راكعين على الأرضية الحجرية لبارْخور، أمام المعبد، يرددون جماعة كلمة «أوووووووووووم» وقورة. كان الأمر يتعلق بصوت «أوم» المقدس أو «أوم مانبي باذمي هوم»، المانترا الذي يتكون من ستة مقاطع صوتية، صلاة الخلق. هذه الكلمة الصوتية الحلقية، التي يعتبرها البوذيون بمثابة الصوت الأصلي، الفونيم الذي خلق الكون، كان صداها يتردد طويلاً في الساحة، لا يقطعه سوى نفسُ الزفرات الإيقاعية، كما لو أن المتعبدين تلقوا ضربة على بطونهم. كما كان موكب الحجاج بدوره يسير على النغمات الزاعقة لآلة الكُرْتَن المعدنية، وآلات عزف الصلوات الذهبية المطصّفة في صفوف قرب الباب.

شقَّ طوماس لنفسه طريقاً وسط الحشد واجتاز باب المعبد ليكتشف فناء واسعاً مفتوحاً على السماء حيث كان المتعبدون يحملون لجوكانغ قطع شحم صفراء ينثرونها حول المجمع. وحتى

يتفادى الروائح الكريهة المنبعثة منها، احتسى الزائر بأعواد البخور المتوهجة ولاحظ المشهد من حوله. هذا الفناء الداخلي كان يعج بالحجاج الذين قطعوا مئات الكيلومترات ليتجمعوا هنا، بعضهم ينطحون على بطونهم فوق الأرض، جباههم تلتصق بالحجر، آخرون يشغلون آلات عزف الصلوات، وآخرون يحرقون الشمع التتن فوق مذابح ترتب عليها تماثيل بوذا صغيرة.

جاء رجل طيب بملامح غريبة، يحمل آلة تصوير معلقة في عنقه، واقترب من طوماس.

- مشهد رائع، أليس كذلك؟

- نعم.

قدم الرجل نفسه. كان اسمه كارلوس راموس مكسيكي يعيش في إسبانيا. بعد عبارات التعارف الأولى، نظر كارلوس إلى الحشد وحرك رأسه.

- بعد قراءة عدة كتب، فهمت، في الأخير، ما هي البوذية - قال معلقاً - إنها لعبة لربح النقط.

- لعبة لربح النقط، كيف ذلك؟

- المسألة بسيطة - قال المكسيكي مبتسماً - كلما ازدادت نسبة فضلك في هذه الحياة، ارتفعت حظوظ حصولك على تناسخ روحي جيد في حياتك الأخرى. إن كانت النقط التي حصلت عليها قليلة، فإن روحك تنسخ حشرة أو عظاية، مثلاً. لكن، إن كنت تقيماً وجمعت عدداً معيناً من النقط، فإنك تنسخ كائناً بشرياً. أما إذا أُنبتَ عن طيبوبة عالية، فإنك تنسخ إنساناً غنياً، وربما تكون «لاما»، هل فهمت؟ هذا يشبه، إلى حد ما، لعب فيديو. كلما راكمت النقط، كانت حياتك الأخرى أحسن من خلال أشكال تناسخك المستقبلية.

ضحك طوماس من هذه المقاربة الساذجة للبوذية.

- وكيف يتم الحصول على هذه النقطة؟

أشار المكسيكي إلى الحشد الذي يملأ معبد جوكانغ.

- بالركوع، طبعاً! انظر إليهم! كلما ركعوا، ربحوا نقطاً.

بعضهم يركعون أكثر من ألف مرة في اليوم الواحد - علت وجهه تكشيرةً - ألف مرة هذا شيء كثير، أليس كذلك؟ ويتسبب في ألم ظهر فظيع . . . معظم المتعبدين يكتفون بمئة وثمانين ركعات، يقولون إنه رقم مبارك، ودائماً ما يوفر تعباً كثيراً، على وجه الخصوص - نظر إلى عترة جلبيها أحد المتعبدين إلى المعبد - لكن، هناك طرقٌ أخرى لكسب النقطة. مثلاً، أن تنقذ حياة حيوان، هذا أمر تنال عليه جزاءً، ما رأيك؟ أو تقديم صدقة إلى فقير، هذا أيضاً ينضاف إلى مجموع النقطة التي تضمن تناسخاً جيداً.

- وماذا بالنسبة لمن يعيش حياة مثالية؟

- هذا، في الديانة البوذية، كمن يفوز بجائزة اليانصيب الكبرى.

يحصل على أعلى قدر من النقطة التي تؤدي إلى النيرفانا. والنيرفانا تعني أنك تكسر الحلقة المفرغة للعالم. هنا، لا يحدث أي شيء، وتنتهي كل المشكلات المتعلقة بالتناسخ.

- هذا يشبه، نوعاً ما، ما تذهب إليه الديانة المسيحية، أليس

كذلك؟ - قال طوماس - كلما كنا طيبين في الحياة الدنيا، راكمنا نقطاً حسنة في الآخرة، وازدادت حظوظنا في الظفر بمكان في الجنة.

هزّ المكسيكي كتفيه.

- تماماً! - صاح - في الحقيقة، الموضوع الرئيسي لكل

الديانات يختزل في مجموع النقطة الجيدة.

بعد أن ابتسم لآخر مرة، ودع طوماس السائح المكسيكي ودخل

المعبد.



كان داخلُ البناية القديمة غارقاً في العتمة، ولا تلمع فيه إلا شموع من شحم حيوان الياك وضعت في صفوف فوق المذبح. أخرج من جيبه قطعة ورقية وحاول أن يقرأ العنوان في مكان مضيء. عبر الفضاء المعتم فوجد نفسه في فناء مشمس. رأى راهباً أصلع، يرتدي لباس تاسين برتقالياً من رهبنة غالوبكا، برز عند مدخل المصلى فناداه.

- جيئنا خادروما؟

نظر إليه الراهب بانتباه. بعد تردد خفيف، حياه بانحناءة ثم أشار إليه أن يتبعه.

صعدا معاً إلى الشرفة الأولى من معبد جوكانغ ثم عرجا يساراً عبر ممر خفي في الهواء الطلق، في منطقة هادئة. هناك، بعد زاوية، وقف الراهب جامداً أمام ستار من ستائر «كُوو». رفع قليلاً ركناً من الستار، نظر إلى داخله وهمهم شيئاً ما. أجابه صوتٌ فرغ الراهب الستار بالكامل، انحنى أمام طوماس وأشار إليه أن يدخل، ثم قوّس ظهره في تحية أخيرة واختفى.

كانت الغرفة ضيقة ومعتمة. وحدها نافذة صغيرة كانت تترك النور يمر ليضيء حصيراً كان يجلس عليه الراهب البدين. فوق الخزانة كانت صور دالاي لاما في المنفى وصور المرحوم بانشين لاما، يتسمان معاً للزائر، وكومة من الكتب فوق منضدة صغيرة، في توازن حساس. كان الراهب يمسك مجلداً صغيراً في يده، أغلقه، رفع رأسه واستقبل الرجل الأجنبي بابتسامة.

- تاشي ديليه.

- تاشي ديليه.

- أنا جيئنا خادروما - قال الراهب - هل تريد أن نتحدث معي؟

قدم طوماس نفسه وأشار إلى الورقة التي كانت في يده، والتي  
خربشها غريغ سوليفان داخل سفارة الولايات المتحدة في لشبونة.  
- بعض الأصدقاء هم من زودوني باسمك وعنوانك وأخبروني  
أنه يمكنك أن تساعدني.

- أي أصدقاء؟

- أخشى أنني لا أستطيع ذكرهم. ولكنهم أصدقاء.

عض الراهب شفّيته الغليظتين.

- هممم - غمغم وهو يفكر - وفيما أستطيع مساعدتك؟

- إنني أبحث عن شخص هنا في الثبّت.

أخرج طوماس من جيبه البطاقة البريدية وسلمها لجينبا. نظر  
الراهب إلى صورة قصر بوتالا وفحص الرسالة في الظهر.

- ما هذا؟

- إنها بطاقة بريدية أرسلها شخص من الثبّت إلى أحد أصدقاء  
والدي الذي اختفى. لديّ أسباب تجعلني أظن أن هذا الشخص  
يمكن أن يساعدني في فهم ما حدث لصديق والدي. اسم هذا  
الشخص هو ... - انحنى طوماس ونظر إلى التوقيع في أسفل  
البطاقة التي كان يمسكها جينبا - تينزينغ ثوبتين.

حدّق الراهب في عيني طوماس، دون أن يكشف عن أي شيء  
من مشاعره، ثم وضع البطاقة قريباً جداً من بعض صور دالاي لاما.

- ليس من السهل مقابلة تينزينغ ثوبتين هكذا، لأي كان - قال  
جينبا - ينبغي لنا أولاً أن نتأكد من بعض الأمور ونتحدث مع بعض  
الأشخاص.

- طبعاً.

- غداً يأتيك الجواب. إن لاحظنا شيئاً مشبوهاً بخصوصك، لن  
ترى أبداً هذا الشخص الذي تبحث عنه. لكن، إن كان كل شيء على

ما يرام، فستصل إلى وجهتك - ثم قام بحركة سريعة من يده، كأنه يودعه - غداً، على الساعة العاشرة صباحاً بالضبط، ينبغي أن تكون أمام مُصلّى آيرا لوكيشفارا.

دوّن طوماس الاسم.

- آيرا لوكيشارا؟

- لوكيشفارا.

ثم صحح ما كتبه.

- وأين يوجد هذا المُصلّى؟

استدار جيئاً برأسه وأشار بذقنه إلى البطاقة الموضوعة بجانبه.

# 29

## مكتبة

t.me/t\_pdf

كان مطر خفيف ومتواصل ينزل على لاسا، عندما بدأ طوماس صعوده البطيء نحو التل الذي يرتفع فوق المدينة. وهو يمشي بخطى متثاقلة، دون أن يكف عن مراقبة تنفّسه ودقات قلبه، صعد السلالم الملتوية حتى بلغ مستوى سطح شُول. فتوقف، رفع رأسه، وتأمل القصر الذي ينتظره.

كان قصره بوتالا يمكث شامخاً فوق الصخرة الشديدة الانحدار، بواجهته البيضاء الطويلة التي تعانق الصخرة الداكنة، وسطه المُحمَرّ الذي يرتفع مثل برج قلعة، ونوافذه الضيقة المُطلّة على المدينة التي تستيقظ هناك عند قدمه. كان القصر بكامله يبدو مثل منارة عظيمة، قلعة ضخمة ترتفع في سماء لاسا، تراقب وتحمي، تنتصب بقوة صامته وسط الضباب لتقود روح التّبت. ألوية مزينة بصلوات كانت تتموّج مع الريح وثوبها يرفرف بقوة. لاهثاً، وقلبه يقفز من التعب والحماس، استند طوماس إلى السور وتأمل المدينة الممتدة في الوادي بين الجبال، كما لو أنها مُتعبّد يركع أمام إله يرقبه من قصر بوتالا.

الصفاء.

كان كل شيء هنا يبدو هادئاً، شفافاً، راقياً. لم يسبق لطوماس، كما حدث له في ذلك المكان، أن شعر بأنه بين السماء والأرض،

يسبح فوق الضباب بفكر حر، يبرز من بين كتلة الناس ليلمس الإله، يشعر أن الخلود قد تجمد في ثانية واحدة، أن العابر يتمدد إلى ما لا نهاية، بداية أوميغا ونهاية ألفا، النور والظلام، الكون في نفس واحد، الإحساس بأن الحياة لها معنى روحي، بأن ثمة سرّاً يختبئ وراء ما يمكن رؤيته، لغز نُقش بحروف قديمة وسنن غامض، صوت عتيق يُستشعر ولا يُسمع.

سرُّ العالم.

لكن ريحاً قارسة كانت تهب على تلك المرتفعات القاسية، سرعان ما أذكت شعلة ذلك الشعور الغامض الذي يعتمل في صدره وأجبرته على تسريع خطواته نحو الأحشاء المعتمة للقصر الناعس. وصل إلى ديانغ شار، الساحة الخارجية الكبرى لقصر بوتالا، ثم صعد السلالم حتى ولج «القصر الأبيض»، مكان إقامة دالاي لاما سابقاً. انغمس في حرارة الطوابق وشعر أن هالة من الغموض تلتف المكان.

كانت الغرف المعتمة، المضاءة بمصابيح ضعيفة معلقة في السقف، تبدو كأنها تخفي كنزاً مفقوداً، يظهر جزء ضئيل منه عبر الترانيم التي يتردد صداها في الممرات. كان الرهبان يرتلون النصوص المقدسة. وحدها الأجراس التي تدق بعيداً كانت تقطع الهمس المتموج للإنشاد الناعم للمانترا، صوت أووووووووم الأصلي الذي يتردد في كل أرجاء القصر، كأنه طنين الآلهة. كان الهواء مشبعاً برائحة زبدة حيوان الياك القوية، رائحة عتيقة عفنة تمتزج برائحة البخور المدوّخة. في الخارج، لا بد أن الريح قد فتحت ثغرة في السحب التي تحجب السماء، لأن أشعة الشمس الدافئة اخترقت فجأة الستائر وغزت داخل القصر، بينما ارتفع خيط من دخان البخور البنفسجي والأبيض ليصعد مثل أرواح تتبخر في الهواء.

راهب شاب، أصلع يلتحف إزاراً أحمر، ظهر في الممر  
وسرعان ما ناداه طوماس .

- تاشي ديليه - قال الأجنبي .

- تاشي ديليه - ردّ الراهب وهو ينحني قليلاً .

بدا طوماس متسائلاً .

- آيرا لوكيشفاراً؟

أشار التّبيّتي إلى طوماس أن يتبعه . صعدا حتى بلغا «القصر  
الأحمر» ومشيا عبر الممرات المصبوغة باللون البرتقالي . مرّاً تحت  
الأقواس العليا، التي تدعمها أعمدة مغطاة بأثواب حمراء وتطل  
شرفاتها على الأسطح المذهبة . أشار الراهب إلى مُصلى صغير في  
ركن من القصر، قرب سلالم يضيئها شعاع شمس غريب ينزل من  
السقف .

- كيل شو - قال الراهب الشاب مودّعاً، قبل أن يختفي .

كان مُصلى آيرا لوكيشفاراً، رغم ضيق مساحته، عاليّاً جداً ويعج  
بالتماثيل . سحابةٌ من البخور تطفو فوق الشموع ووحده راهب كان  
هنالك، جالساً يتأمل، مولياً وجهه صوب التماثيل المرتبة داخل  
واجهة زجاجية، قبالة سلالم المدخل الشديدة الانحدار . ألقى  
طوماس نظرة من حوله، يبحث عن شخص في انتظاره، بل راوده  
الأمّل في أن يناديه شخص يختبئ في العتمة قد يقدم نفسه على أنه  
هو تينزينغ ثوبتين . لكن لم يظهر أي أحد . ظل هناك جامداً لعدة  
دقائق، ينظر إلى ضوء الشموع المرتعش، يشتم رائحة الزبدة  
والبخور، يسمع المانترا التي ترتلها بعض الأصوات البعيدة .

بعد عشرين دقيقة، بدأ يشعر بالقلق، وقد داهمته الشكوك . هل  
يكون الرهبان قد اعتبروا بحثه أمراً مثيراً للشكوك؟ هل ارتكب فعلاً

أحرق جعل الطريدة تهرب؟ ماذا يفعل لو أُغلقَت كل الأبواب في وجهه؟ كيف يمكنه استئناف بحته؟

- كيرانغ كوسو ديبو يينبي؟

ارتعش طوماس ونظر نحو المكان الذي يأتي منه الصوت.

- عفواً؟

- سألتك إن كان جسدك بخير. إنها طريقتنا في تحية الأصدقاء.

بخطى مترددة، صعد طوماس السلالم الصغيرة، دخل إلى المصلى، اقترب من التَّيبي وتعرّف الراهب الذي كان قد تحدث معه البارحة في معبد جوكانغ.

- جينبا خادروما؟

التفت الراهب البدين برأسه، نظر إليه وابتسم بطيوبة، فبدا كأنه بوذا حي.

- هل اندهشت لرؤيتي؟

- حسناً لا - تتمم طوماس - أعني، نعم. ألم يكن

من المفترض أن أقابل تينزينغ ثوبتين.

حرك جينبا رأسه.

- تينزينغ لا يستطيع أن يأتي إلى هنا. لقد فحصنا أوراق

اعتمادك، ولا شيء يمنع من إمكانية اللقاء. لكن عليك أنت أن تذهب إليه.

- حسناً - وافق المؤرخ - أخبرني أين؟

استدار الراهب برأسه، أغمض عينيه، وتنفس بعمق.

- هل أنت إنسان متدين، أستاذ نورونيا؟

نظر إليه طوماس بنوع من الإحباط، لأن جينبا لم يخبره في

الحين أين يمكن أن يلاقي الرجل الذي يبحث عنه. لكنه كان على

وعني بأن إيقاع الأمور هنا يسير بسرعة مختلفة فترك نفسه ينساق وراء سؤال الراهب .

- لستُ كذلك، حقاً .

- ألا تؤمن بوجود شيء ما يتجاوزنا؟

- حسناً . . . ربما، لست أدري . لنقل إنني أبحث .

- عمّ تبحث؟

- عن الحقيقة، أظن .

- كنت أظن أنك تبحث عن تينزينغ .

ضحك طوماس .

- أيضاً - قال - ربما يعرف الحقيقة .

ومرة أخرى، أخذ جينبا نفساً عميقاً .

- هذا المصلى هو أكثر المصليات قداسة في بوتالا . يعود إلى

القرن السابع، وهو جزء من بقايا قصر قديم شيد على أنقاضه قصر

بوتالا - وسكت - ألا تشعر هنا بتجلي الدارماكايا؟

- من؟

بعينه المغمضتين، كان الراهب يبدو غارقاً في التأمل .

- ماذا تعرف عن البوذية؟

- لا شيء .

ران صمتٌ آخر، لا تتخلله سوى الترانيم المقدسة البعيدة .

- قبل ألفين وخمسمئة سنة ولد في النيبال شخص يدعى

سيدهارتا غوتاما، أمير ينتمي إلى طبقة نبيلة ويعيش في القصر . لكنه

لاحظ أن الحياة خارج أسوار القصر كانت كلها عذاباً وآلاماً، فقرر

أن يترك كل شيء ويذهب ليعيش في الهند، في غابة، مثل زاهد،

يؤرقه هذا السؤال: ما الغاية من الحياة إن كان كل شيء عذاباً؟ لمدة

سبع سنوات، ظل متمسكاً في الغابة يبحث عن جواب لسؤاله . أقنعه



خمسة زُهَّاد أن يمارس الصوم، لأنهم يعتقدون أن التخلي عن حاجات الجسد يخلق طاقة روحية تؤدي إلى الاستنارة. فصام سيدهارتا حتى صار نحيفاً، لدرجة أن سرّته كانت تلمس عموده الفقري. في الأخير، لاحظ أن مجهوده لا ينفع شيئاً وأدرك أن الجسد يحتاج إلى طاقة تغذي الذهن وتسعفه في البحث. فقرر، إثر ذلك، أن يتخلى عن الطرق المتطرفة. بالنسبة له، لم تكن الطريقة الحقيقية هي بذخ القصور ولا تقشف الزُهَّاد، حيث يلتقي أقصى الطرفين. لكنه اختار طريق الوسط، طريق الاعتدال. ذات يوم، بعد أن استحم في النهر وأكل رزاً محلياً، جلس يتأمل تحت شجرة تين، «شجرة الاستنارة» التي نسميها «بودي»، وأقسم ألا يبرح المكان قبل أن يدرك الاستنارة. بعد تسعة وأربعين يوماً من التأمل، جاء ليل تبددت خلاله نهائياً كل شكوكه. استيقظ بشكل كامل. وصار سيدهارتا هو بودا، المتيقظ.

- لكنه ممّ استيقظ؟

- استيقظ من حلم الحياة - قال جينبا وفتح عينيه، كما لو أنه يستيقظ بدوره - بعد أن أدرك الاستنارة، بيّن بودا طريق التيقظ من خلال الحقائق النبيلة الأربع. تتمثل الأولى في ملاحظة أن الشرط البشري معاناة. وهذه المعاناة ناتجة عن الحقيقة النبيلة الثانية، ما نجده من صعوبة في استيعاب أمر هام من أمور الحياة، وهو أن كل شيء عابر. كل الأشياء تولد وتموت، كما قال بودا. نحن نعاني لأننا نتشبث بحلم الحياة، بأوهام الحواس، بوهم أن إمكانية الحفاظ على أي شيء كما هو، ولا نقبل بأن الدنيا نهر عابر. هذا هو ما يمثل الكارماً التي تميزنا. نعيش مقتنعين بأننا كائنات فردية، بينما نحن جزء من كل لا يتجزأ.

- وهل يمكن تكسير هذه الوهم؟

- نعم. إن الحقيقة النبيلة الثالثة تقرر بالضبط أنه يمكننا أن نكسر حلقة الألم، وأن نتحرر من الكارماً وإدراك حالة من التحرر التام، من الاستنارة، والتيقظ. النيرفانا. لحظتها يتلاشى الوهم وينشأ الوعي بأن الكل هو الواحد وأنا نشكل جزءاً من الواحد - قال متنهّداً - أما الحقيقة النبيلة الرابعة فهي الطريق النبيل الثماني الذي يؤدي إلى وقف الألم، إلى الانصهار في الواحد وإلى السمو نحو النيرفانا. إنه الطريق الذي يسمح لنا بأن نصير بوذا.

- وما هو هذا الطريق؟ - أراد طوماس أن يعرف.

أغمض جينبا عينيه، كأنه يعود إلى التأمل.

- إنه طريق شيغائس - قال باختصار.

- كيف ذلك؟

- إنه طريق شيغائس.

- شيغائس؟

- في شيغائس هناك فندق صغير. اذهب إلى هناك وقل إنك تريد بوذيشاتفا تينزينغ ليُريك الطريق.

ظل طوماس جامداً لحظة، مندهشاً للطريقة المفاجئة وغير المنتظرة التي غيّر بها الراهب مسار الحديث ليعود به إلى نقطة البداية. لكنه تصرف بسرعة وأخرج الدفتر ليدون التعليمات.

- أن يريني ... تينزينغ ... الطريق - كرر قائلاً وهو يدون كل شيء بعناية، ولسانه يتدلى عند طرف فمه.

- لا تكتب - لمس جينبا جيبته بإصبعه - احفظ في ذاكرتك.  
ومرة أخرى، ظل الزائر حائراً أمام هذه الأوامر، لكنه انصاع لها فانترع الورقة من الدفتر ورماها في سلة المهملات.

- هممم ... - همهم وهو يقوم بمجهود ليحفظ التعليمات - شيغائس، أليس كذلك؟

- نعم .

- ما الذي يجب عليّ أن أقوم به هناك؟

- اذهب إلى الفندق .

- أي فندق؟

- غانغ غيال أوّسي .

- ماذا؟ غانغ ماذا؟

- غانغ غيال أوّسي . لكن الغربيين يطلقون عليه اسماً آخر .

- اسماً آخر؟

- فندق أورشارد .

نزل عبر سلالم شديدة الانحدار لا تنتهي ، بها إضاءة سيئة كأنها  
آبار مظلمة ، مرّ عبر القاعة التي تضم عرش دالاي لاما السادس ثم  
تجاهل التماثيل والمصليات التي تزين المكان وغادر قصر بوتالا على  
عجل .

كان طوماس رجلاً مكلفاً بمهمة . يحفظ عن ظهر قلب المكان  
الذي سيلتقي فيه ويتحدث مع التّبتّي الذي كان يعتقد أنه ربما سيوضح  
له لغز اختفاء الأستاذ سيزا والسر الذي يحيط بمخطوط أينشتاين .  
كان يشعر أنه على وشك أن يكشف اللغز وبالكاد كان يكتم الهيجان  
الذي يغلي داخل جسده وينعش روحه . نزل من دون احتراز عبر  
درب مُتْرَب حتى بلغ بيبي جين غوليان ، رأسه مائل إلى الأمام ، عيناهُ  
لا تفارقان الأرض ، وذهنه شارد فيما كان يفتح أمامه من آفاق ، هو  
الغريب تماماً عن ذلك العالم الذي كان يخفق من حوله .

لذلك لم ينتبه إلى أن شاحنة سوداء صغيرة توقفت على جانب  
الرصيف ، ولم ير كذلك أن رجلين نزلا منها متوجهين نحوه .

لكن حركة عنيفة سرعان ما أعادته إلى الحقيقة .

- لكن، ما

لوى رجلٌ ذراعَهُ بعنف، وأرغمه على أن ينحني وهو يطلق صيحة ألم.

- ادخل هنا - أمره الصوت المجهول بلغة إنجليزية ركيكة.

دائخاً، دون أن يفهم ما يجري، كأنه في حلم، رأى باب الشاحنة الصغيرة يُفتح ثم أحس بأحدهم يقذف به إلى داخلها.

- اتركوني! اتركوني!

تلقى ضربة على قفاه فأصبح كل شيء ظلاماً. عندما استعاد وعيه، أنفه مضغوط على الكرسي الخلفي للسيارة، أكدت له رجات المحرك، وما يصدر عنه من أصوات مع تغيير السرعة، أنه كان داخل الشاحنة الصغيرة وأن مجهولين كانوا يختطفونه.

- ماذا؟ - سأله أحد الأصوات - هل هدأت الآن؟

وهو منبطح فوق المقعد الخلفي، مصقّد الذراعين خلف ظهره، أدار طوماس رأسه فرأى رجلاً بشارب أسود وسحنة سمراء يتسم له.

- ما الذي يحدث؟ أين تأخذونني؟

احتفظ الرجل بابتسامته.

- هديء من روعك. سوف تعرف ذلك.

- من أنتم؟

انحنى الرجل على طوماس.

- ألا تذكرني؟

حاول المؤرخ أن يتعرف الملامح الأليفة لذلك الوجه، لكنه لم يتذكر شيئاً يسعفه.

- لا.

أطلق الرجل قهقهة عالية.

- هذا طبيعي! - صاح - لأننا عندما تحدثنا معاً، كانت عينك معصوبتين. لكن، ألا تتعرّف صوتي؟  
فتح طوماس عينين جاحظتين. كان ذلك المجهول من إيران، ومن أقبح من صادفهم في ذلك البلد.  
- اسمي سلمان كاظمي وأنا كولونيل في وزارة الاستخبارات والأمن الوطني للجمهورية الإسلامية الإيرانية. إن كُنْتَ تَدُكِّر جيداً، فقد كان لنا حديث مثير جداً في سجن إفين. أتذكر ذلك؟  
كان طوماس يذكر ذلك. كان هو مستجوبُ الشرطة السرية الذي صفعه وسحق سيجارة على عنقه.

- ماذا تفعل هنا؟

- جئتُ أبحث عنك.

- لكن، ماذا تريد مني؟

فتح كاظمي يديه الغليظتين.

- دائماً نفس الشيء.

- ماذا؟ لا تقل لي إنك هنا لتعرف ما كنتُ أقوم به داخل بناية وزارة العلوم في عزّ الليل.

أطلق الكولونيل قهقهة عالية.

- هذا الأمر فهمناه منذ مدة، أستاذي العزيز. هل تظن أننا بُلّه

أم ماذا؟

- إذن، ماذا تريدون أن تعرفوا؟

- دائماً نفس الشيء، كما قلت لك.

- ماذا؟

- نريد معرفة سرّ مخطوط أينشتاين.

تغلّب طوماس على الخوف واستطاع أن يرسم ابتسامة ازدراء

على شفّتيه.

- إنكم لا تملكون القدرات الفكرية للكشف عن هذا السر. لأن ما تكشف عنه تلك الوثيقة يتجاوز إدراككم.

ضحك كاظمي مرة أخرى.

- ربما تكون على حق - قال معترفاً - لكن هناك من بيننا من يستطيع فهم كل شيء.

- من بينكم؟ أشك في ذلك.

رأى طوماس الكولونيل يقوم بإشارة نحو الأمام، ولأول مرة انتبه إلى أن شخصاً آخر كان يجلس إلى جانب السائق. ركّز انتباهه على الشخص فتعرّف، مندهشاً، على الشعر الأسود، وملامح الوجه الدقيقة، والشفيتين الشهيتين، والعينين العسليتين اللتين كانتا تحقدان فيه بتعبير حزين قوي يصعب إخفاؤه.

- أريانا.

# 30

كانت الغرفة مظلمة وباردة، بالكاد تتوفر على نافذة ضيقة في الأعلى، تغطيها قضبان حديدية وزجاج سميك كامد. كانت هي نقطة الضوء الوحيدة التي تنير المكان الضيق. في السقف، كان هناك مصباح معلق، كأنه دمعة في طرف خيط، لكن طوماس لم يره مشتعلًا بعد فظن أنه لن يشتعل شعاعه الأصفر إلا مع حلول الليل.

كانت تسمية ذلك الفضاء «غرفة» مبالغاً تنطوي على كثير من التسامح. كان قبواً من دون شك، وربما كانت العبارة المناسبة لوصف المكان، في هذه الظروف، هي «زنزانة». وجد طوماس نفسه مسجوناً داخل زنزانة مرتجلة. كانت ثمة ملاءةٌ تَبْتِيَّةٌ ملونة فوق الأرضية الحجرية الباردة، سطلٌ لقضاء الحاجة وجرة ماء. لا شيء غير هذا.

لكن، في هذه اللحظة بالذات، كانت الراحة آخر شيء يشغل بال طوماس. كانت المسألة الرئيسية تتلخص في أنه أصبح سجيناً من جديد. جلس القرفصاء فوق الملاءة واستعرض وضعيته. المختطفون إيرانيون ويسعون إلى الكشف عن سر مخطوط أينشتاين، وفوق هذا كله، كانت أريانا إلى جانبهم.

كان يصعب عليه تصديق الأمر، لكنه رأى ما رأى. رأى أريانا والكولونيل الإيراني، رآها في الشاحنة الصغيرة حيث اختطفوه،

ورآها تشارك في كل ذلك . لكن كيف يمكن ذلك؟ أريانا ضده؟ كان الشك يعذبه بلا هوادة . هل كانت دائماً ضده؟ هل خدعته منذ البداية؟ يا له من أبله، أبله، أبله! لكن، تساءل، ما الهدف من كل ذلك؟ لماذا مثلت عليه كل تلك المسرحية في طهران؟ لا، فكر وهو يحرك رأسه . لا يمكن . أريانا لا يمكن أن تكون منافقة إلى هذا الحد . لا . لا بدّ أن هناك تفسيراً آخر . بحث عن بدائل، بحث عن مبررات، جرب طريقاً آخر . هل يمكن، تساءل، أن يكون أحدهم قد أجبرها على ذلك؟ هل ضبطوها تساعده فأصبحت حياتها هي أيضاً في خطر الآن؟ لكن، لو كانت في خطر تحت تهديد النظام، لماذا تركوها تأتي إلى التّبتّ؟

ظل هناك حبيساً، وحده، مستسلماً لتساؤلاته، يحاول تفسير ما لا يُفسّر، وتبرير ما لا يُطاق، يبحث عن مخرج من أمر غير مقبول . لكن مرارة الخيانة لم تكن تفارقه، كانت مثل شبح يكدر كل فكرة من أفكاره، لطخة تدنس أحاسيسه، شك يقلقه أكثر مما يطاق .

خطوات .

قطع صوتُ الخطى التي تقترب خيطَ أفكاره السوداء . حبس أنفاسه وركز انتباهه . سمع أصواتاً تصاحب تلك الخطوات، ثم توقفت الخطى فسمع الصوت المعدني لمفتاح يدخله أحدهم في قفل باب الغرفة .

كُليك، كُليك .

كُلاك .

فُتح الباب فغزى الحجمُ البدين للكولونيل كاظمي الغرفة الضيقة . كان يحمل كرسيّاً صغيراً في يده ويتبعه أشخاص آخرون . مدّ طوماس رأسه وتعرّف أريانا .



- إذن، كيف حال أستاذنا؟ - سأله ضابط الاستخبارات الإيرانية بنبرة مرحة - هل أنت مستعد للكلام؟  
ترك كاظمي أريانا لتدخل وأغلق الباب. ثم وضع الكرسي القصير على الأرضية وجلس ينظر إلى طوماس. وقف السجين فوق السجادة النسيّية، عيناه ترقصان توجساً من الإيرانيين.

- ماذا تريدون مني؟

- إنك تعرف ذلك - قال كاظمي وهو يتسم باستعلاء.

تجاهله طوماس ورمى أريانا بنظرة غضب ولوم.

- كيف تستطيعين أن تفعلي هذا بي؟

أشاحت عنه الإيرانية بعينها وحدقت في الأرضية.

- إن الدكتورة باكرافان ليس لها من مبررات تقدمها إليك -

دمدم كاظمي - ولتحدث عمّا يهمنا.

- هيا، تكلمي - ألحّ طوماس وهو يحدق في أريانا - ما الذي

يجري؟

رفع الكولونيل إصبعه.

- أحذرك، أستاذ نورونيا - زمجر بصوت مهدد - إن الدكتورة

باكرافان ليس لديها من تفسير تقدمه إليك. أنت من يجب أن تقدم لنا

تفسيراً.

لم يُبدِ طوماس إشارة على أنه سمع كلام ضابط الاستخبارات

الإيرانية وظل مركزاً انتباهه على أريانا.

- قل لي إن كل هذا لم يكن كذباً. قل لي أي شيء.

فجأة، نهض كاظمي من كرسيه الصغير، أمسك طوماس من ياقة

قميصه ورفع يده اليمنى ليصفعه.

- اسكت، أيها الأبله - صاح.

صاحت أريانا وقالت شيئاً بالفارسية فأوقف الكولونيل يده في

الهواء. دفع طوماس باحتقار ثم عاد إلى كرسيه الصغير، وتعبيراً  
ازدراء مرسوم على وجهه.

- إذن - ألحّ السجين، دائماً بنبرة تحدّد - كيف تفسرين كل هذا؟  
لزمتم أريانا لحظة صمت، ثم نظرت إلى الكولونيل وتحدثت  
مرة أخرى بالفارسية. بعد تبادل كلام غير مفهوم، قام كاظمي بحركة  
امتعاض والتفت نحو طوماس.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- أريد أن أعرف أي دور تلعبه الدكتورة باكرافان في هذه  
القصة.

ابتسم ضابط الاستخبارات الإيرانية ببرودة.

- أيها المسكين - قال - هل تظن أنه يمكن الفرار من سجن  
إفين بكل تلك السهولة؟

- ماذا تعني بكلامك هذا؟

- أقصد إنك لم تنجح أنت في الفرار من السجن، بل نحن من  
تركناك تهرب، هل فهمت؟

- كيف ذلك؟

- نقلك من سجن إفين إلى السجن ٥٩ لم يكن إلا ذريعة لتسهيل  
فرارك؟

نظر طوماس إلى أريانا، مُصدّقاً وغير مصدق.

- هل هذا صحيح؟

كان صمتُ الإيرانية بليغاً ومُعبراً.

- الدكتورة باكرافان هي من رتبت كل شيء - قال الكولونيل،  
كأنه يتحدث نيابة عنها - رتبت نقلك، وسهرت على تنفيذ تلك  
التمثيلية وسط الشارع لنوهمك أن الأمر يتعلق باختطاف.

ظل السجين محمداً في أريانا، شاردأً.

- إذن، كل شيء كان مجرد تمثيلية . . .

- كل شيء - كرر كاظمي - أم أنك تظن أن سجيناً يمكن أن يفلت من أيدينا بكل تلك السهولة، إيه؟ - ابتسم بتعبير ساخر - إن كنت قد هربت فلأننا كنا نريد ذلك، هل فهمت؟

ظل طوماس حائراً، نظراته مترددة بين الإيرانيين .

- ولكن، . . . ماذا كان الهدف من ذلك؟ لماذا كل هذا؟  
تنهّد الكولونيل .

- لماذا؟ - سأله باحتقار - لأننا كنا على عجلة من أمرنا، طبعاً. لأننا كنا نريدك أن تقودنا نحو السر دون أن نضيع مزيداً من الوقت - ثم عدّل جلسته فوق الكرسي الصغير - كُنّا على يقين أنك كنت ستعترف بكل شيء لو أخذناك إلى السجن ٥٩ .

- ولماذا لم تحتفظوا بي هناك؟

- لأننا لسنا أغبياء. إن كان قد تم ضبطك في عز الليل داخل وزارة العلوم وأنت تسرق مخطوطاً له علاقة ببرنامجنا النووي، فإنه من الواضح أنك لم تفعل ذلك بدافع مصلحتك الشخصية. كنت في مهمة كلفتك بها وكالة المخابرات الأمريكية أو أي هيئة أمريكية أخرى. لكن، بما أنك كنت في خدمة وكالة المخابرات الأمريكية، فقد كان من الواضح أنك لن تعرف بهذه الواقعة - هزّ كتفيه - أو بالأحرى، كنت ستعترف في نهاية الأمر، هذا أكيد. لكن ذلك قد يستغرق شهوراً طويلة. ونحن كنا على عجلة من أمرنا .

- وماذا؟

- وماذا؟ اقترحت علينا الدكتورة باكرافان حلاً لتسوية المشكلة .

نتركك تهرب من السجن، وبعد ذلك نتعقب خطواتك. هل فهمت؟  
نظر طوماس مرة أخرى إلى أريانا .

- إذن، كان كل شيء مجرد تمثيلية؟

- تمثيلية هوليوودية - قال كاظمي - ومن النوع الجيد. كُنْتُ  
تحت مراقبتنا وكان يكفي أن نتعقبك حتى نرى أين تأخذنا.  
- ولكن، ما الذي جعلكم تعتقدون أنني سأستمر في البحث؟  
لأن المخطوط كان في طهران، في نهاية المطاف.  
ضحك الكولونيل.

- أستاذي العزيز، إنك لم تفهمني جيداً. طبعاً، أنت لن تذهب  
للبحث عن الوثيقة. ما كنت ستبحث عنه، من دون شك، هو تفاصيل  
حول أبحاث الأستاذ سيزا.

- آه! - صاح طوماس - الأستاذ سيزا، ماذا فعلتم به؟  
سعل كاظمي.

- حسناً . . . وقع حادث بسيط.

- حادث بسيط، كيف ذلك؟

- تم استدعاء الأستاذ سيزا إلى طهران.

- تم استدعاؤه؟ هل من عادتكم أن تقتحموا بيوت ضيوفكم  
وتفتشوا مكاتبهم؟  
ابتسم الضابط.

- لنقل إنه كان من الضروري . . . أن نقتنع الأستاذ سيزا بأن  
يأتي ويزورنا.

- وماذا حدث له؟

- ربما يستحسن أن نبدأ من البداية - قال كاظمي - في السنة  
الماضية، شارك أحد علمائنا، ممن يشتغلون في محطة نظنر النووية،  
في مؤتمر حول الفيزياء في باريس، وعاد من هناك بمعلومة في غاية  
الأهمية. سمع حديثاً بين فيزيائيين آخرين، ادعى أحدهم أنه يملك  
مخطوطاً مجهولاً يحتوي على وصفة لتوليد أكبر انفجار في التاريخ

وأنه كان على وشك الانتهاء من الأبحاث التي ستكمل تلك الاكتشافات التي كانت في الوثيقة. سجّل صاحبنا اسم العالم الذي يحتفظ بهذه الأسرار. وكان الأمر يتعلق بالأستاذ سيزا، من جامعة كويمبرا.

- إذن، هكذا علمتم بوجود المعادلة الإلهية.

- نعم. حين توفرنا على هذه المعلومات، وبعد شيء من التردد، قررنا تنظيم عملية من أجل الاستيلاء على هذا السر. كما تعلم، هناك منذ سنة ضغطٌ دولي كبير على برنامجنا النووي، مع تهديدات بفرض عقوبات، وقصف مواقع، وكل ما يمكن أن تتصوره. أمام هذه التهديدات، قررت الحكومة تسريع وتيرة الأبحاث حتى تجعل موقفنا... منيعاً.

- تريدون تطوير أسلحة نووية، أليس كذلك؟

- طبعاً. عندما سنحصل عليها، لن يجرؤ أحد على مهاجمتنا. انظر إلى كوريا الشمالية، مثلاً - ثم قوس حاجبيّه حتى يؤكد على قوة حجته - لذلك قررنا المضي قدماً. بمساعدة بعض أصدقائنا من لبنان، ذهبنا إلى كويمبرا، وأقنعنا الأستاذ سيزا ليرينا أين يوجد المخطوط، ثم استدعينا، بطبيعة الحال، إلى طهران. بعد حوار ودي، اقتنع أخيراً بعد أن استنشق كمية مُقنعة من الكلوروفورم - ثم ابتسم، راضياً تماماً عن طريقته في عرض الأمور - بعد وصوله إلى طهران، جعلناه يشتغل على مخطوط أينشتاين، لكن بعض الأمور لم تكن تبدو... لنقل واضحة جداً. لذلك طرحنا بعض الأسئلة على الأستاذ. في البداية، كنا لطفاء جداً، ومهذبين إلى حد كبير، لكنه قرر ألا يقول شيئاً. كان عنيداً مثل بغل. فاضطررنا لاستعمال الوسائل القوية.

- ماذا فعلتم به؟

- أرسلناه إلى السجن ٥٩ .

- أرسلتموه إلى السجن ٥٩؟ بأي تهمة؟

ضحك كاظمي .

- لسنا بحاجة إلى أية تهمة حتى نرسل أحداً إلى سجن ٥٩ . لا تنس أن هذا السجن لا وجود له رسمياً، ثم إنه، من الناحية الشكلية، لم يكن الأستاذ سيزا متواجداً بإيران .  
- آه، طبعاً .

- لذلك سجنه هناك في غرفة من فئة خمس نجوم .

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- أخضعناه لاستنطاق . استعملنا معه طرقاً ناعمة في البداية لكنه امتنع عن التعاون معنا . كان يقدم لنا أجوبة غير منسجمة، وضعها على ما يبدو ليخدعنا . فاضطررنا لاستعمال الوسائل القوية .

- الوسائل القوية؟

- نعم . المشكلة أن الأمور لم تمر كما ينبغي . كان الأستاذ يعاني من مشكلة في القلب ولم نكن على علم بذلك في الوقت المناسب .

- ماذا حدث؟

- مات .

- كيف؟

- مات أثناء استنطاقه . علقناه ورأسه إلى الأسفل، ثم أخذنا نجلده بالعصا عندما تجمد جسده فجأة . ظننا أنه قد أغمي عليه، فحاولنا أن ننعشه، لكنه لم يعد إلى وعيه . فحصناه فلاحظنا أنه كان ميتاً .

- الأوغاد!

- كان أمراً مزعجاً - قال كاظمي - لأن العجوز مات دون أن يكشف عن أي شيء يذكر. وقد عقّد هذا الأمر مهمتنا بعض الشيء، كما قد تتصور.

- أية أشياء كنتم تنتظرون منه أن يكشف عنها؟

- تأويل مخطوط أينشتاين، بطبيعة الحال. بما أن المخطوط كان يضم بعض الألغاز وصاحبه في عداد الموتى، كيف كان لنا أن نفهم الوثيقة؟ وجدنا أنفسنا أمام مشكلة عويصة وكادت تسقط بعض الرؤوس - ومرر يده حول عنقه، كما لو أن رأسه كانت من بين تلك الرؤوس - لحسن الحظ، كانت أجهزة استخباراتنا قد حددت دائرة الأشخاص المقربين من الأستاذ سيزا. هكذا اكتشفنا أنه كان صديقاً لعالم رياضيات يدعى . . . آه . . . نورونيا، أو شيء من هذا القبيل. - إنه والدي.

- رجلٌ كان الأستاذ سيزا يتحدث معه كثيراً، على ما يبدو - انحنى كاظمي إلى الأمام ونظرةً تشبه التأمّر في عينيه - كان علينا أن نعرف إن كان عالم الفيزياء الميت قد أسرَّ إلى عالم الرياضيات المرموق بسر مخطوط أينشتاين أثناء أحاديثهما الودية الكثيرة. هل فهمت؟ لذا، كان يكفي أن نطرح بعض الأسئلة على عالم الرياضيات - ثم هزّ كتفيه - المشكلة، كما علمنا، هي أن عالم الرياضيات كان يعاني من مرض خطير. ولم يكن وراداً بتاتاً أن نكرر نفس الإجراءات التي استعملناها مع الأستاذ سيزا. كانت ستنتهي بشكل سيئ مرة أخرى، وهو ما قد يجلب لنا بعض المتاعب. لكن، كان لا بدّ من أن نجد حلاً لمشكلتنا. فما العمل؟ حينها اكتشفنا أن لعالم الرياضيات ابناً خبيراً في فكّ التشفير. كانت صدفة جميلة. نأتي بالابن وهو سيساعدنا في فكّ ألغاز المخطوط. إن لم يتمكن من ذلك، كان من المحتمل، بعد أن يكتشف القرابة بين الأستاذ سيزا

ووالده، أن يطرح عليه بعض الأسئلة. كان كل شيء يبدو على أحسن وجه.

- فهتت الآن.

- في البداية، جرت الأمور على ما يرام. ذهبت إلى طهران، اطلعت على الألباز المُشفرة، وشرعت في العمل. رفعت إلينا الدكتورة باكرافان تقارير تشني على مهاراتك وقدراتك، خصوصاً فيما يتعلق باللغز الأول، لغز القصيدة. كنا جميعاً راضين تماماً على ذلك. بدأت المشكلة مع محاولتك سرقة المخطوط من وزارة العلوم. هنا زاغت الأمور عن السكة. عندما أخبرنا بظروف القبض عليك، أدركنا سريعاً أن وكالة المخابرات الأمريكية كانت متورطة في العملية. وهو، كما قد تتصور، ما كان يعقد المسألة بشكل كبير.

- لا أشك في ذلك - قال طوماس متهكماً - لا بدّ أن الأمر قد أفسد عليكم ليلتكم.

- إنه لا يمكنك أن تتصور ذلك - أكد كاظمي - مشكلة حقيقية. في البداية، فكرنا أن ننتزع منك المعلومات بالقوة، لكننا سرعان ما أدركنا أنك لم تكن تعرف شيئاً. بطريقة حكيمة، أثارَت الدكتورة باكرافان انتباهنا إلا أنه لم تتح لك الفرصة بعد لتسأل والدك. كان لا بدّ أن نتركك لتتحدث مع والدك ثم نتعقب تحركاتك بعد ذلك، ونرى إلى أين ستقودنا.

- وهل تظنون فعلاً أن والدي يعرف شيئاً ما؟

هزّ الكولونيل كتفيه.

- إنها إمكانية.

- وماذا يمكن أن يعرف؟

- يمكن أن يعرف، مثلاً، أين يوجد المخطوط الثاني.

- أي مخطوط ثانٍ؟



- طبعاً، الجزء الثاني من المعادلة الإلهية .

- أي جزء ثانٍ؟ عن أي شيء تتحدث؟

تنهّد كاظمي، وكأنه يتوجه إلى طفل صغير .

- هناك جزء ثانٍ من المخطوط . الوثيقة التي نتوفر عليها في

طهران غير كاملة . أين هذ الجزء الثاني؟ هذا هو السؤال الذي

طرحناه على الأستاذ سيزا . أين هذا الجزء الثاني؟ لم يجبنا .

- وكيف تعرفون أن هناك جزءاً ثانياً؟

- بسبب الشفرة؟

- أي شفرة؟

- تلك التي توجد في نهاية المخطوط - جلس فوق الكرسي

الصغير - أعرف أنك لم تتمكن من قراءة المعادلة الإلهية، لكنني

سأشرح لك . في مكان معين من النص، يكتب أينشتاين أنه اكتشف

المعادلة التي ستؤدي إلى انفجار عظيم وأن هذه المعادلة قد دونت

في مكان آخر . بعد ذلك، يضيف عبارة *see sign* والجملة المشفرة .

نعتقد أن هذا هو مفتاح اكتشاف الجزء الثاني من المخطوط .

- لكن، أين يوجد هذا الجزء الثاني؟

تنهّد كاظمي، وعلت نبرة إحباط خفيفة صوته الذي يشي بموقف

عدائي .

- لست أدري! - صاح - قل لي أنت .

- أنا؟ ماذا أقول لك؟ ليست لدي أدنى فكرة عن مكان تواجد

هذا . . . هذا الجزء الثاني . ثم إنه، إلى الآن، كنت أجهل وجود

جزء ثانٍ للمخطوط .

- لا تتظاهر بالبلادة - دمدمم الإيراني . ليس هذا ما أريد

معرفته .

- وماذا تريد أن تعرف؟

- أريد أن أعرف ما كشفه لك والدك .
- والدي؟ لم يكشف لي عن أي شيء .
- أتريد أن تقنعني بأنك لم تتحدث معه؟
- طبعاً، تحدثت معه - قال طوماس - لكن ليس بخصوص مخطوط أينشتاين .

- وهل تحدثت معه عن أبحاث الأستاذ سيزا؟
- ولا عن هذا الأمر كذلك . لم أظن قط أنه يمكن أن يعرف شيئاً مهماً عن هذه القضية .
- بدا كاظمي كأنه قد نفذ صبره .
- اسمع ، أنصحك ألا تمزح معي ، هل سمعت؟
- إنني لا أمزح معك . حسب علمي ، أنتم وحدكم من تمزحون .

- إذن ، ماذا تفعل هنا؟
- أنا؟ أنا هنا لأنكم اختطفتموني ، بالطبع . ولهذا ، فإنني أطلبكم فوراً أن . . .

- ماذا تفعل هنا في التّبت؟ - قاطعه الإيراني مصححاً السؤال .
- حسناً . . . جئتُ أبحث عن آثار الأستاذ سيزا ، بطبيعة الحال
- قال ، ثم بدا مستسلماً - لكن بما أنكم قتلتموه ، أظن أنني قد حصلت على جوابي ، أليس كذلك؟
- ولماذا جئتُ إلى التّبت بحثاً عن الأستاذ سيزا؟ لماذا التّبت؟
- تردد طوماس وهو يتساءل عمّا يمكن أن يجيب به رجل الاستخبارات الإيرانية .

- لأنني . . . لأنني اكتشفتُ أن له بعض الاتصالات في التّبت .
- أية اتصالات؟
- إيه . . . لست أدري .

- إنك تكذب. أية اتصالات؟
- أقول لك إنني لا أعرف. جئتُ هنا لأعرف ذلك.
- وما الذي ستقوم به؟
- أنا؟ لن أقوم بأي شيء. حسب علمي، الأستاذ سيزا مات.
- نعم. ولكن أين كنت ستحاول تحديد مكانه؟
- لقد حاولت فعلاً.
- أين؟
- في بوتالا، فُيِّل أن تختطفوني.
- ولماذا بوتالا؟
- لأنني... لأنني وجدت في بيته بطاقة بريدية من التَّيْتِ عبارة عن صورة لقصر بوتالا.
- أين هي هذه البطاقة البريدية؟
- تركتها... في كويمبرا.
- كذب، بالطبع. لقد حملها معه إلى التَّيْتِ، وبقيت، لحسن الحظ، في غرفة جينبا، بعد زيارته لمعبد جوكانغ، ولذلك لم تكن هناك من وسيلة كي يطلع عليها الإيرانيون.
- ومن بعث إليه بهذه البطاقة البريدية؟
- لا أعرف - كذب مرة أخرى - لم تكن البطاقة تحمل اسم المُرسِل.
- ولكن، ما الذي جعلك تعتقد أن هذه البطاقة البريدية لها علاقة بمكان تواجد الأستاذ؟
- لأنها جاءت من التَّيْتِ. وجدتُ الأمر غريباً، ليس إلا. وبما أنني لا أتوفر على أي خيط آخر، لم يكن لدي ما أخسره إن استكشفت أين يقودني هذا الخيط.
- هممم - هممم كاظمي وهو يحاول جمع قطع هذه المُربكة

المعقّدة - تفسيرك لا يقنعني . لا أحد يسافر إلى بلد بعيد وصعب البلوغ مثل التّبت اعتماداً على حدس غامض فقط ، أليس كذلك؟  
دور السجين عينيه كأنه غاضب ثم تنفس بعمق ، كأن صبره قد بلغ حدّه في نهاية المطاف .

- اسمع ، ألا تظن أنه قد حان الوقت لوضع حد لهذه التمثيلية السخيفة؟

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟

- ما أقصده هو أنه يجب عليكم أن تواجهوا الحقيقة .

نظر إليه الإيراني دون أن يفهم .

- كيف ذلك؟

- مخطوط أينشتاين . إنكم لم تدركوا بعد أنه ليس هو ما

تظنون .

- آه ، لا ؟ ماذا تقول؟

- المخطوط لا علاقة له بالأسلحة النووية .

- وأي موضوع يتناول إذن؟

تمدد طوماس فوق السجادة التّبتية ووضع رأسه على يديه

المشبكتين ، كأنه مستلق على الشاطئ تحت أشعة الشمس . أغلق

جفنيه ، كأنه يستمتع بدفء خيالي ، ولأول مرة ترك ابتسامة عريضة

تشرق في وجهه .

- إنه يتناول موضوعاً أهم من ذلك بكثير .

# 31

تلك الملاءة التي تركها الإيرانيون في الزنزانة لم تكن كافية لتحميه من البرد القارس الذي استقر فجأ أثناء الليل. انكمش طوماس بكل ما في وسعه تحت الملاءة في وضعية جنينية، لكن الحرارة المنبعثة من جسده، والتي يحتفظ بها الثوب السميك، لم تكن كافية لتقيه من البرد الذي كان يجعله يرتعش رغماً عنه.

ولما أدرك أنه لن يستطيع النوم، أخذ السجين يقوم بتحريك ذراعيه، ثم ساقيه في مجهود يائس لتوليد الحرارة لم ينفع سوى جزئياً. شعر بشيء من الدفء، فاضطجع من جديد تحت الملاءة، وحاول أن ينام. لكن، بعض مرور بضع دقائق، داهمه البرد مرة أخرى فأدرك طوماس أنه لن يغمض له جفن؛ فكلما اشتد به البرد سيكون مضطراً للقيام بحركات، وهي الطريقة الوحيدة للصمود طوال الليل. صبراً، قال في نفسه. سوف ينام مع شروق الشمس، عندما يدفئ ضوء النهار زنزانته. لكن الإيرانيين ربما يعودون في تلك اللحظة ولا يبدو له أن حصة جديدة من الاستنطاق قد تكون هي أحسن طريقة لتدارك ليلة من دون نوم.

كُليك، كُليك.

باغت صوتُ المفتاح داخل القفل طوماس. لم يسمع وقع أي

خطى، كما لو أن أحدهم اقترب خلسة. ولم يعلن عن حضوره إلا عندما أدخل المفتاح في قفل الباب.

كلاك.

انفتح الباب فرفع طوماس رأسه، محاولاً التعرف على الزائر. لكن كل شيء كان مظلماً والغريب لم يكن يحمل مصباحاً يدوياً.

- من هناك؟ - سأل وهو جالس فوق الملاءة التبيّية.

- صه!

صوتٌ صدرَ على عجل، لكنه كان ذا نبرة عذبة ومألوفة. أحنى رأسه، جحظ عينيه حتى يرى أدق التفاصيل.

- أريانا؟

- نعم - همهم الصوتُ النسوي - لا تُحدثُ أي ضجيج.

- ماذا يجري؟

- لا تُحدثُ أي ضجيج - طلبت منه راجية - تعال معي، سوف

أخرجك من هنا.

لم يحتج طوماس إلى سماع ذلك الوعد مرتين. بقفزة واحدة، نهض ونظر إلى الظل بكل انتباه.

- والآخرون؟

شعر بلمسة يد أريانا العذبة.

- صه! اتبعني في صمت.

أمسكت يدُ أريانا الدافئة يدهُ وأخذته نحو الباب. تركها السجين تقوده وسط الظلام، ومشياً معاً بخطى متثاقلة، يكادان يتحسسان المكان، محاولين تجنب الضجيج. صعدا عبر سلّم، عبرا فناء، ثم سارا عبر ممر دافئ وخرجا من أحد الأبواب.

شعر طوماس بالهواء البارد يضرب وجهه ولمح الضوء أخيراً. كان مصباح إنارة عمومية يبعث نوراً مصفراً يسمح بالتكهن بمعالم

الطريق، ما يحيط بالمكان من نباتات وسيارة جيب داكنة. كانا في الهواء الطلق. سحبته أريانا من يده مرة أخرى باتجاه سيارة جيب. فتحت الأبواب وأشارت إلى طوماس أن يصعد.

- بسرعة - همهمت - أسرع قبل أن يستيقظوا.

غادرا ذلك المكان والليل ما يزال سائداً، وراحا يتسكعان عبر طرق لاسا المغبرة. كان الرصيف مضاء بمصابيح سيارة جيب وأعمدة الإنارة المتناثرة. التفت طوماس إلى الخلف فبدا له كل شيء هادئاً، لا أحد كان يتعقبهما. استرعى انتباهه ما كان من أشياء مشحونة في خلفية السيارة: صفائح وقود، علبتان من الماء وسلّة مملوءة بالموءن على ما يبدو. كان الهروب مخططاً له بعناية على ما يظهر.

انعرجت السيارة يميناً واتجهت صوب الغرب، نحو المطار، وراحت تبتعد عن المدينة.

- أين نحن ذاهبان؟ - سألها.

- أولاً، سوف نغادر المدينة. البقاء هنا أمر خطير جداً.

- انتظري - صاح - يجب أن أمرّ إلى الفندق كي آخذ

أغراضني.

حدجته أريانا بنظرة مندهشة.

- طوماس، هل جننت؟ عندما يتبهون لاختفائنا سيكون الفندق

أول مكان يذهبون إليه، ماذا تظن؟ ثم إن أحد موظفي الاستقبال يتلقى أجراً مقابل إخبارنا بكل حركاتك وسكناتك. يستحيل أن نذهب إلى الفندق.

- وأين سنذهب، إذن؟

ضغطت أريانا بقوة على الفرامل فصرت السيارة حتى توقفت

على حافة الطريق قرب محطة وقود «بيثرو تُشائنا». تركت سائقةُ السيارة المصابيح مشعلة واستعملت فرامل اليد، قبل أن تلتفت نحو الراكب معها.

- قل لي أنت أين نذهب، يا طوماس؟

- كيف ذلك؟ أنتِ من خطَّطتِ لكل عملية الفرار هذه، وليس

أنا.

تنهَّدت الإيرانية.

- هذه العملية لن تسفر عن أي شيء إن لم نكن منطقيين مع

أنفسنا.

- ماذا تقصدين؟

- أريد أن أقول إنه لا يكفي أن نهرب. أينما ذهبنا سيجدوننا.

اليوم، غداً، الأسبوع المقبل، بعد شهر أو سنة، لا يهم. سوف

يقبضون علينا. هل فهمت؟

- إذن، ماذا تقترحين؟

- أقترح أن نثبت لهم أنه لا مبرر لديهم للاحقونا.

- وكيف لنا أن نثبت لهم ذلك؟

- بالأمس أوحيتَ لي أنت بفكرة - قالت بعينها العسليتين

اللتين تلمعان في الظلام - أتذكر أنك قلتَ إن مخطوط أينشتاين لا

علاقة له بالأسلحة النووية؟

- نعم.

- وهل هذا صحيح؟

- أنا مقتنع بذلك، ولكن أنت من قرأت المخطوط، أليس

كذلك؟ عن أي شيء يتحدث؟

حركت أريانا رأسها وعلت وجهها تكشيرة.

- إنه نص غريب جداً، أتعرف؟ لا نفهم أبداً ما يريد أن يقول.



لكن أينشتاين يشير بصراحة إلى طريقة إحداث الانفجار العظيم. كتب «See sign» وبعد ذلك معادلة مشفرة من ستة حروف، تنقسم إلى عنصرين وتسبقها علامة تعجب. الحروف قليلة جداً لدرجة أنني حفظتها عن ظهر قلب، وهي «!Ya Ovqo» - استظهرت - حسناً، لا أظن أن معادلة بهذه الأهمية يمكن أن تكون قصيرة إلى هذا الحد. لذلك نظن أنها مفتاح يتيح الوصول إلى جزء ثانٍ من المخطوط.

- هممم . . . فهمتُ.

- هكذا حقاً - أكدت أريانا - أتظن أنها ليست المعادلة الخاصة

بصنع القنبلة النووية؟

- اسمعي، أنا لست متأكداً - قال بحذر - لكنني أظن أنها

ليست كذلك.

- إذن، لم يبق أمامنا غير شيء واحد نقوم به؟

- وما هو؟

- يجب أن نقدم لهم الدليل على ذلك.

- الدليل؟

- يجب أن نقدم لهم الدليل على أن المخطوط لا يخفي سر

قنبلة نووية يسهل صنعها. هذا ما يبحثون عنه، أليس كذلك؟ إن نحن

أثبتنا لهم أن هذا البحث لا طائل منه، سوف يتركونا وشأننا.

- فهمتُ.

ران صمتٌ طويل داخل السيارة.

- إذن؟ - سألته أريانا.

تنهَّد طوماس.

- إذن، هيا بنا لنقوم بهذا الأمر.

- ولكن، هل نستطيع أن نثبت ذلك؟

- لست أدري. لكن يمكننا دائماً أن نحاول.

مكتبة

t.me/t\_pdf

- حسناً - قالت - وماذا نفعل، إذن؟

- نذهب.

- نذهب إلى أين؟

فتح طوماس علبة القفازين في السيارة ووجد خريطة التّبت. بسطها، فحصها لبضع ثوان ثم وضع إصبعه على نقطة تقع حوالي مئتي كيلومتر غرب لاسا.  
- شيغانس.

أشرقت الشمس بعيداً. كانت في البداية وهجاً أضاء السماء المتألّئة بالنجوم ثم سرعان ما انبثقت في الأفق المظلم، ضوءاً بلورياً، يبشر بالشروق.

كشف الصباح عن منظر رائع يحبس الأنفاس، لكنه منظر متوقع؛ جبال قاحلة وعرة، تكسو الثلوج قممها، تحف الطريق، وتنتفح أحياناً عبر وديان مخضرة، خلافة، يصيب هدوؤها بالعدوى. رأيا قطعان غنم ترعى، وأحد الرّحل يمر هناك أو هنالك، حيوان ياك يحمل مؤناً أو خيمة منصوبة فوق الأرض، جراراً وعربة يتقدمان ببطء عبر الحقول. كانت الطبيعة، عموماً، حرة، موحشة، تسير وفق الإيقاع القديم جداً لهذه الهضبة الواسعة المنعزلة عن العالم.

كان طوماس متعباً جداً، ولكنه كان أيضاً متوتراً ومستفزاً لدرجة لا تسمح له بالراحة. كان يراوده توجس كبير من أريانا، وبعد صمت طويل، قرر أن يبدد شكوكه.

- ومن ضمن لي أنك لا تلعبين دوراً مزدوجاً؟

كانت أريانا تحدق في الطريق إلى غاية تلك اللحظة، فقوست عينيها العسليتين.

- عفواً؟

- كيف يمكنني أن أكون واثقاً من أنك لا تخدعيني مرة أخرى؟
- بعد كل شيء، ألم تنظمي كل تلك التمثيلية الرائعة في طهران؟
- خففت الإيرانية السرعة وحدقت في عينيه.
- أتظن، حقاً، أنني أخدعك، يا طوماس؟
- حسناً . . . حسناً لن تكون هذه هي المرة الأولى! ما الذي يضمن لي أن كل هذا ليس سوى تمثيلية أخرجت بتواطؤ مع . . . مع الكولونيل دراكولا، أو لست أدري ما هو اسمه؟
- حدقت أريانا في الطريق مرة أخرى.
- أفهم أن تكون لديك شكوك - قالت - وهذا عادي جداً بالنظر لما حدث. لكن، كن على يقين أنه ليست هناك أي تمثيلية الآن.

- وكيف لي أن أكون متأكداً من ذلك؟
- الأمور مختلفة.
- مختلفة في أي شيء؟
- في طهران، عملت كل ما في وسعي كي أحميك. كانت التمثيلية جزءاً من مسلسل حمايتك.
- كيف ذلك؟ إنني لا أفهم . . .
- اسمع، طوماس - قالت وهي تعض شفتيها - ماذا كنت تظن أنه سيحدث لك بعد أن ألقى عليك القبض في وزارة العلوم عند منتصف الليل تحمل في يدك مخطوطاً سرياً صحبة مجنون يطلق النار؟
- أنني سوف أقضي وقتاً عصيباً، وقد قضيته بالفعل.
- طبعاً، ستقضي وقتاً عصيباً. السجن ٥٩ أقطع بكثير من سجن إفين، أتشك في ذلك؟
- حسناً. كنت سأقضي وقتاً عصيباً جداً.

- جيد لأنك أدركت ذلك، وكن على يقين أنك كنت ستعترف بكل شيء.

- وهل ضروري أن أعترف بكل شيء؟

- لا تتفوه بحماقات! - صاحت - طبعاً، كنت ستعترف بكل شيء. قد يستغرق ذلك بعض الوقت، أسابيع أو شهوراً، لكن في النهاية ستعترف بكل شيء. الجميع يعترفون.  
- حسناً، لا بأس.

- وبعد أن تعترف؟ ماذا سيحدث لك؟

- لا أعرف. كنت سأقضي وقتاً طويلاً في السجن، أظن.  
حركت أريانا رأسها.

- كانوا سيقتلونك، يا طوماس - نظرت إليه خلسة - هل فهمت؟ بعد أن تصبح غير نافع، كانوا سيقتلونك.  
- أتظنين ذلك؟

ثم نظرت الإيرانية إلى الطريق مرة أخرى.

- إنني لا أظن ذلك، إنني أعرف ذلك - قالت، وهي تعض شفتها السفلى - كنتُ يائسة لما علمتُ ما كان ينتظرك. وحينئذٍ خطرت لي هذه الفكرة. لماذا لا نطلق سراحك وبعد ذلك نتعقبك حتى نرى إلى أي حد قد تأخذك أبحاثك؟ في نهاية المطاف، قلتُ لهم، ربما يعرف والده شيئاً ما يسمح لنا بسبر اللغز. لماذا لا نتركه يلتحق بوالده، ثم نراقبه مراقبة لصيقة وخفية؟ ألن يكون هذا أكثر فائدة مما كنتم تخططون لعمله؟ - ثم ابتسمت من دون دعابة - ففكرت، التي استلهمتها من أملي في إنقاذ حياتك، اعتبرت مهمة جداً. صقور النظام، الذين كانوا يطالبون برأسك، بدأوا يغيرون رأيهم. في نهاية الأمر، قلتُ لهم، أولويتنا هي أن نُطوّر في السر سلاحاً نووياً سهلاً الصنع، لا تستطيع أن تحدد موقعه الوكالة الدولية

للطاقة النووية ولا الأقمار الصناعية التجسسية التابعة للولايات المتحدة. كان ذلك هو الهدف من المناورة، أليس كذلك؟ في هذه الحالة، بما أن تحريرك يخدم هذا الهدف، فلماذا لا نحرك؟ - ثم نظرت إلى طوماس بضع لحظات - هل تفهمني؟ هكذا أقنعتهم بأن يتركوك تهرب. بعد ذلك، كانت فقط مسألة تمثيلية.

- لكن، ألم يكن من الأسهل تحريري بطريقة قانونية؟ لماذا كل تلك المسرحية وسط الشارع، لإيهامي بأن هناك من جاء لإنقاذي؟ - لأن وكالة المخابرات الأمريكية سرعان ما كانت ستشك في الأمر. كيف يعقل أن نلقي عليك القبض في وزارة العلوم تحمل وثيقة كتلك في يدك، بجانبك عميل لدى وكالة المخابرات الأمريكية يطلق النار، وبعد بضعة أيام نتركك تذهب لحالك، هكذا؟ ألا تظن أن تصرفاً كهذا كان بإمكانه أن يوقظ توجسات وكالة المخابرات الأمريكية؟ - ثم حرّكت رأسها - كان بديهياً أننا لم نكن قادرين على أن نحرك هكذا بشكل مفاجئ. كان لا بد أن تكون عملية فرار. ولم يكن من الممكن أن تكون غير عملية فرار. وخصوصاً، عملية فرار قابلة للتصديق.

- فهمت - قال طوماس - ولكن، لماذا لم تخبريني بأي شيء؟ - لأنني لم أكن أستطيع ذلك! عندما كنت أتحدث معك كنت تحت المراقبة أيضاً، ماذا تظن؟ ثم إنه كان مهماً أن تتصرف أنت بطريقة عفوية. لو كشفت لك أدنى شيء، كنت أخاطر بكل شيء.

مرر المؤرخ يديه على شعره.

- أفهم ذلك - قال - ولكن، الآن، بعد أن أخرجتني من ثقب لاسا هذا، ألسيت في خطر كذلك؟ - طبعاً.

- إذن ... لماذا فعلت ذلك؟

استغرقت أريانا بعض الوقت قبل أن تجيب . لزمت صمتاً طويلاً، وعيناها مسمرتان في الطريق .  
- لأنني لم أكن أستطيع أن أتركهم يقتلونك - همهمت في الأخير .

- لكن، اسمعي . . . الآن، أنت أيضاً معرضة للقتل .

- لا، إن تمكنا معاً أن نثبت لهم أن المخطوط لا علاقة له بالأسلحة النووية .

- وماذا إن لم نستطع إثبات ذلك؟

حدقت فيه الإيرانية بعينين لامعتين وملامح حزينة .

- حينها سنموت معاً، هذا ما أخشاه كثيراً .

كانت تسود حرارة جهنمية داخل السيارة . كانت الشمس تسطع بقوة والحرارة لا تطاق حتى أنهما أنزلا زجاج النوافذ ليشعرا بشيء من الهواء المنعش . بلغت السيارة مضيقاً جبلياً وعبرت طريقاً وعراً وهي ترفع سحابة من الغبار .

أنعشت الريح وجه طوماس، الذي استمتع بمناظر الطبيعة الهادئة . طبيعة التبت، فُكّر، تتميز بالحدة العارية لقوة ألوانها الخشنة . هنا، كان الأحمر أكثر توهجاً، الأصفر أكثر ميولاً إلى اللون الذهبي، والألوان تبعث ضوءاً قوياً جداً حتى لتبدو كأنها تلمع بين الجبال، تكاد تحدث انفجاراً من الألوان يخدر الحواس .

وحينئذ رأياها . كانت بقعة زرقاء تتلألأ على اليمين . جوهرة مصقولة، مرآة نيلية فوق أرض ذهبية . كان الضوء المنبعث منها أزرق ناصعاً كأنه مضاء من الداخل، يبعث بريقاً قوياً، شبه مُنوم .

- ما هذا - سألها طوماس، دون أن يرفع عينيه عن ذلك المنظر

المغناطيسي .

كانت أريانا بدورها قد انتبهت لوجود تلك البقعة المتلائة وظلت تتأملها مسحورة.

- إنها بحيرة.

بحيرة.

أوقفا السيارة واستسلما لانتشاء ذلك الحمام من الزرقة التي تغمر حواسهما. كانت البحيرة تشبه زجاجاً مضاء من الداخل، لازورداً مصقولاً يتألف من عدة درجات من الألوان، شديد الزرقة هناك في الأعماق، أزرق كوبالتياً وهاجاً عند السطح، أخضر لَبَنِيّاً على الضفاف، هناك حيث تلامس المياه الرمل الأبيض اللامع. جزيرة مرجانية وُضعت هناك وسط جبال قرمزية وذهبية، متعة للناظرين.

- هذا لا يمكن أن يكون ماء - قال طوماس، وقد بهرته روعة المشهد - كيف يمكن أن يكون الماء بكل هذا البريق؟  
- وماذا إذن؟

كان سؤالاً بلاغياً لأنهما معاً يعرفان أن الأمر يتعلق ببحيرة، كانت ماء حقيقياً رغم لمعان لونها المدهش.  
- ألا تشعرين بالجوع؟ - سألها.

أطفأت أريانا المحرك، ترجلت من السيارة وفتحت الباب الخلفي لتأخذ السلة. كان منتصف النهار تقريباً وذلك المكان مثالي لتناول الغداء. ساعد طوماس أريانا ونزلا معاً الطريق المنحدر المؤدي إلى البحيرة.

كانت حرارة الشمس تلفح الجلد. جلسا، أولاً، قرب صخرة على شاطئ البحيرة لكن الشمس كانت قوية جداً فغيرا مكانهما وانتقلا إلى منطقة ظل، عند سفح جبل. وما إن تخطيا خط الظل حتى تجمدا من البرد القارس، فغيرا من جديد مكانهما نحو نقطة

وسطى، أعلى جسميهما في الظل وأرجلهما في الشمس. لم يصدق  
طوماس كل هذا الفرق في الحرارة، عشر درجات على الأقل.  
الأرجل تحترق بالحرارة، والجذعان يرتعشان برداً.

نظرا إلى بعضهما وراحا يضحكان.

- إنه الهواء - قالت أريانا متسلية.

- وما علاقة هذا بالهواء؟

- إن الهواء نادر هنا - شرحت له - لا يمتص حرارة الشمس  
ولا يصفى الأشعة. وهذا ما يفسر هذه الظاهرة - استنشقت نسمة  
هواء - عندما كنتُ طفلة وأذهب لأتنزه في جبال زاغروس، في  
إيران، كنتُ أشعر أحيانا بهذا الإحساس، لكن ليس بمثل هذه  
الحدة. الهواء هنا قليل لدرجة أنه لا يحتفظ بالحرارة ولا يحميننا من  
أشعة الشمس فوق البنفسجية - قالت ثم نظرت إلى المنطقة المشمسة  
وعلت وجهها تكشيرة - من الأحسن أن نبقى هنا في الظل.

وضع طوماس السلة فوق صخرة فأخذ كل واحد منهما  
سندويشاً. جلسا وأخذا يأكلان وهما يتأملان الطبيعة من حولهما.  
كان منظرأ يشد الأنفاس.

كانت السماء داكنة وعميقة، في تناقض مع المنظر العاري  
المفعم بالألوان. كأن الضوء هنا يخضع لقوانين مختلفة، كأن النور  
لا ينزل من السماء، كأن قوس قزح ظاهرة تتجلى في الأرض وليس  
في الأجواء.

- أشعرُ بالبرد - قالت أريانا شاكية.

من دون تفكير تقريباً، كأنه يستجيب لغريزة الذكّر الحامي، دنا  
منها طوماس، خلع معطفه ووضعه على كتفيها. ثم ضمها إلى جسده.  
كانت حركة لطيفة وبريئة، يقصد منها أن يبعث في جسدها شيئاً من  
الدفع، لكن ما تولّد عنها كان شيئاً غير منتظر. شعر طوماس بجعلدها



الناعم، بتنفسها المتسارع وبعطر الخزامى في شعرها. حدس أنها لا تريد أن تبتعد منه فتتج عن ذلك دوامة من الأحاسيس. نظرا إلى بعضهما.

التقت عيناهُ الخضراوان البلّوريتان بعينيها الذهبيتين، فكان ماء أمام العسل، برداً أمام الحر، فولاداً يشتهي الجلد الناعم. رأى شفيتها الغليظتين تنفتحان، مُرحبتين، فانحنى بتثاقل، يدنو من تينك البثلّتين الحمرأوين، وجسده يرتعش قبل الأوان. لمسا بعضهما.

تذوق طوماس شفّي أريانا المخمليتين المرتعشتين، وانغمس في فمها ليتذوق طعم لسانها الحارق المبتل. كأنه يستلذ بأكل حلوى، شوكولاتة، قشدة كراميل. في البداية، قبّلا بعضهما بلطف، بحنان فائق، وسرعان ما صارت القُبْل شرهة، كأنهما يريدان منها المزيد والمزيد، وصار اللمس الخفيف لحساً لاهثاً، والحنان رغبة، والحب شهوة عارمة.

شعر طوماس بنهديها ينتفخان فوق صدره، فدرسّ يده تحت ياقة قميصها ولمس تلك المساحة الرخوة الهلامية. ضغط على نهدها برغبة ولحس فمها واللعاب يسيل من فمه. شعر بيديها تبخثان بخرق عن حزامه وتفكان أزرار سرواله حتى خلصتاه من الملابس التي تشبث به. استحوذ عليهما الجوع معاً. شعر طوماس بالبرد في ساقيه فبحث عن الدفء، رفع تنورتها وانتزع ملابسها الداخلية، لكنه مزق ثوبها من التلف.

درسّ إصبعه بين ساقها فشعر بها رطبة ساخنة تغلي. تأوهت أريانا ومطت يدها تلمسه بأطراف أصابعها. داعبته لشعر بصلابته ثم أخذته، فتحت ساقها وأولجته حيث كانت تشعر بالحاجة. شعر

طوماس بذلك الجسد المرتعش اللاهث يدعو ليلجه فلم يتردد. قام بحركة خفيفة واندفع إلى الأمام. ولجها.

شعر لحظة أنه قد انغمس في قِدر لا ينضب من العسل. انتشت حواسه، وصارت الأحاسيس المنبعثة من جسد أريانا أكثر قوة، فاشتد عطر الخزامى، وصارت صفرة العينين ذهباً، والجلد أكثر نعومة، والجسد أشد حرارة، والرضاب أكثر حلاوة. وفجأة، اختفت الجبال، والبحيرة، والألوان، والبرد، والضوء؛ تلاشى كل شيء أمام قوة تلك اللحظة من العشق.

كان الكون يُختزلُ الآن في شيئين لا ثالث لهما: طوماس وأريانا. هو وهي. الأخضر والذهبي، الفولاذي والمخملي، العرق والخزامى، الشوكولاتة والعسل، الجذع والزهرة، النثر والشعر، الصوت واللحن، اليبس واليانغ، جسدان انصهرا في واحد، وذابا فوق صخرة صلبة، اتحدا في حركة موقّعة، اشتبكا في رقصة بطيئة وسريعة، لاهثة وجائعة، بحركات متناسقة، يرقصان على إيقاع الآهات، هو يعطي وهي تأخذ، دائماً بقوة أكبر، بقوة أكبر، بقوة أكبر. أطلقا صيحة.

في اللحظة التي شعر فيها بانفجار الألوان والأضواء وكل الأحاسيس تسري في جسده، وعندما امتدّ كل الخلود في لحظة عابرة لا تنتهي، وارتفع العشق فوق أعلى جبل وحصل الانصهار، في تلك اللحظة من التجلي أدرك طوماس أن بحثه قد انتهى، وأن تينك العينين العسليتين كانتا هما سبب ضياعه، وأن تينك الشفتين كانتا زهرته، وأن ذلك الجسد هو بيته.

أدرك أن تلك المرأة هي مصيره وقدره.

# 32

ظهرت شيغائس عند أحد المنعرجات، وكانت عبارة عن صف طويل من البنايات بها نوافذ وأبواب زرقاء. كان طوماس هو من يقود السيارة، وأريانا تغفو على كتفه، عندما انتبه إلى أنه يدخل المدينة فخفض السرعة. ظهرت صفوف من «البوكانغ»، المنازل التقليدية في التبت المبنية بالطوب الأبيض، بنوافذها السوداء التقليدية وستائرهما الملونة، وألويتها المغطاة بالصلوات مثبتة فوق الأسطح، أملاً في استجلاب الكارما للبيوت. دخلا شارعاً طويلاً، تحفت جنباته محطات وقود صينية وأسوار حمراء لها أبواب يرقبها حرس، وهي، بكل وضوح، ثكنات قوات الاحتلال. أشجار من نوع «غادجان»، تمدُّ ظللاً طويلة على الطريق؛ وكانت هناك أعداد قليلة من السيارات، بينما كانت تتحرك عدة دراجات هوائية فيما كانت بعض الشاحنات تفرغ سلعها فوق الأرصفة.

استيقظت أريانا وراحا معاً ينظران إلى المدينة الممتدة عبر الوادي. توقفا عند إشارة المرور، وبالنظر إلى حجم الشارع وبشاعة البنايات، ظنا أنهما في المنطقة الصينية، المُشكّلة من كتل من البنايات وتشبه مدناً أخرى. توقفا قرب مجموعة من الصينيين فأنزلت أريانا زجاج السيارة.

- فندق أورشارد؟ - سأل طوماس وهو ينحني فوق أريانا.

- أوه؟ - أجابه أحد الصينيين .

كان واضحاً أن الرجل لم يفهم السؤال . ولذلك ركز الوافد الجديد على الكلمة المفتاح :

- فندق؟

تحدث الرجل بلغة صينية غير مفهومة وأشار إلى الأمام . شكره طوماس ثم انطلقت السيارة نحو الاتجاه المذكور . وصلا في النهاية ، بالفعل ، إلى فندق ، لكنه لم يكن فندق أورشارد . خرجت أريانا وذهبت لتطلب بعض المعلومات من مكتب الاستقبال .

قطعا شوارع واسعة في المنطقة الصينية من شيغائس وهما يسيران نحو النقطة المشار إليها . بلغا مفترق الطرق وعرجا يساراً ؛ فصارت الشوارع هناك أكثر ضيقاً ، وكان واضحاً أنهما قد دخلا الحي التّبتّي . تلّ تنتصب فيه آثار تحيط بها سقالات كان يشير إلى شيغائس دزونغ ، الحصن القديم للمدينة ، بناية تجمعها عدة أوجه شبه مع قصر بوتالا الرائع ، رغم أنها صغيرة وصارت أنقاضاً بفعل رياح التدمير التي حملها القمع الصيني .

عند زاوية الشارع ، عرجا يساراً من جديد ، مرا عبر شارع مقفر وفي عمقه رأيا واجهة مزينة بأناقة ، تعلوها لافتة ضوئية تشير إلى «فندق التّبت غانغ غيان شيغائس أورشارد» . وجهتهما .

ركنا السيارة أمام الفندق ودخلا ردهة الاستقبال . في الوسط ، كانت تنتصب طاولة ضخمة تغطيها تنانين ملونة ؛ على اليسار ، واجهة لبيع الذكريات ، وعلى اليمين ، تمتد أرائك سوداء مريحة .

في مكتب الاستقبال ، كان هناك شاب تبتّي ذو سحنة سمراء بسبب الشمس . ابتسم لهما عندما دخلا .

- تاشي ديليه - حياهما .

رد طوماس التحية بانحناءة من رأسه .

- تاشي ديليه - قال وهو يقوم بمجهود كي يتذكر التعليمات التي قدمها له جينبا في قصر بوتالا - أريد أن أتحدث مع البوذيسانتفا تينزينغ ثوبتين .

بدا الشاب مندهشاً .

- تينزينغ؟

- نعم - قال طوماس موافقاً - أنا بحاجة إلى تينزينغ ليدلني على الطريق .

بدا التَّبَتِيُّ متردداً شيئاً ما . نظر من حوله ، حدق من جديد بعينه السوداوين ، حدج أريانا بنظرة خاطفة ، ثم اتخذ قراره على ما يبدو ، وأشار إليهما أن يجلسا على الأرائك في قاعة الاستقبال . بعد ذلك ، خرج على وجه السرعة من الفندق ورآه طوماس يعبر الشارع والساحة الصغيرة في الجهة الأخرى .

جاء راهب إلى باب الفندق ، يقوده موظف الاستقبال ، ثم انحنى أمام الغريبيين . تبادلوا تحيات «تاشي ديليه» المعتادة ، متمنين حسن الحظ لكل واحد منهم ، ثم أشار لهما التَّبَتِيُّ أن يتبعاه . توجهوا نحو بناية دينية ضخمة كانت تنتصب رائعة هناك قبالة الفندق ، عند قدم تلّ مخضر . كانت البناية البيضاء والحمراء تنتهي بسطح ذهبي جميل ، بجوانب منحنية على طريقة المعابد الصينية ، ونوافذ سوداء تطل على المدينة .

- غومبا؟ - قال طوماس مستعملاً كلمة «دير» التي حفظها في لاسا ، وهو يشير إلى البناية .

- لا أونغ - قال الراهب موافقاً وهو يعدل الثوب البنفسجي الذي يغطي جسده - تاشيلونبو غومبا .

- تاشيلونبو - قالت أريانا - إنه دير تاشيلونبو .

- هل تعرفينه؟

- نعم، سبق لي أن سمعتُ عن هذا الدير. أظن أن هنا يرقد جثمان دالاي لاما الأول.

- آه، نعم؟

- وهو الدير الذي يعيش فيه بانشين لاما.

- ومن يكون هذا؟

- بانشين لاما؟ إنه أهم شخصية في البوذية بعد دالاي لاما.

أظن أن كلمة «بانشين» تعني «المعلم الكبير». استعمل الصينيون بانشين لاما من أجل إضعاف سلطة دالاي لاما، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. يُقال إن بانشين لاما غالباً ما يصبح معادياً للصين في النهاية.

كانت الشمس تسطع بقوة والجو جافاً. كانت رائحةٌ مقرقةٌ منبعثة من الزبال والبول تُخَيِّم على الشوارع، لكن مع الاقتراب من الدير فسحت الرائحة العفنة المجال لعطر البخور. تجاوزا البوابة ووصلا إلى فناء داخلي واسع يطل على الدير بكامله؛ ومن هناك أصبح واضحاً أنهما أمام بناية ضخمة ومعقدة، يحفها سور طويل من كل الجوانب. وعند أسفل التل الذي يرتفع فوقه دير تاشيلونبو كانت تتجمع بنايات بيضاء، يبدو أنها مساكن خاصة بالرهبان، وفوقها أروقة حمراء ذات أسطح مذهبة جميلة.

تبع طوماس وأريانا الراهب، وصعدا عبر زقاق حجري يصعد المنحدر. صعد التّبتّي المنحدر بسرعة، لكن الزائرين سرعان ما توقفوا لاهئين، تحت ظل شجرة وارفة تدعى «يونبوه». كانت شيغاثس تقع على علو أكثر ارتفاعاً من لاسا والهواء بها قليل يحرق الرئتين.

- هل تتكلم الإنجليزية؟ - سأل طوماس وهو يتوجه إلى الراهب الذي يسبقهما بضعة أمتار، بابتسامة على شفتيه.  
اقرب التّبيّ.

- بعض الشيء.

- سوف نلتقي البوذيساتفا - لاحظ المؤرخ - ثم صمت لحظة ليستعيد أنفاسه - ما هو البوذيساتفا بالضبط؟  
- إنه نوع من البوذا.

- نوع من البوذا؟ ماذا تعني؟

- شخص أدرك الاستنارة لكنه خرج من النيرفانا ليساعد بقية البشر. إنه قديس، رجل رفض الخلاص لنفسه ما لم يتحقق خلاص الآخرين.

استدار الراهب وأخذهما إلى قمة البناية. مشيا عبر طريق تحفها أروقة حمراء ثم عرّج التّبيّ يساراً، صعد سلالم من الحجارة السوداء وتوغل في بناية قرمزية. كان الزائران دائماً لاهئين يتعقبانه؛ عبروا ردهة معتمة ووصلوا إلى فناء هادئ، حيث كان بعض الرهبان منشغلين حول برميل من الشحم الأصفر. كان فناء معبد ماثيريا.

أشار إليهما التّبيّ أن يدخلوا غرفة ضيقة مظلمة، لا تضيئها غير الشموع وخيط ضوء ينسل من نافذة ضيقة. كان كل شيء هناك يبدو متقشفاً، شبه بدائي. وكانت روائح شحم حيوان الياك والبخور تمتزج برائحة دخان يتصاعد من الفحم الذي يحترق في فرن قديم. كان اللهب الأصفر المنبعث منه يلمس غلاية قديمة مسودة، ويلقي أضواء مرتعشة على جدران الحجر الضيقة.

جلسا معاً على مقعدين تغطيهما سجادتان من نوع «تانغكا» حمراوان ورأيا الراهب يأخذ الغلاية الموضوعة فوق الفرن، يملأ كأسين ويمدهما إليهما.

- شا شي رونيانغ .

كان شاياً بشحم الياك .

- شكراً - قال طوماس وهو يخفي تكشيرة تقزز أمام إمكانية ابتلاع هذا الخليط من الشحم - ثم نظر إلى أريانا - كيف نقول «شكراً» باللغة التبتية؟

- تُشو دجيتشي .

- نعم - قال وهو ينحني أمام الراهب - تُشو دجيتشي .

ابتسم الراهب ورسم حركة بيده، يطلب منهما أن ينتظرا .

- غونغ دا - قال قبل أن يختفي .

مرت أقل من عشرين دقيقة .

ظهر الراهب الذي استقبلهما من جديد في الغرفة الضيقة . كان هذه المرة رفقة راهب آخر، قصير القامة، نحيف جداً، قوست السنين ظهره، ويمشي بصعوبة متكئاً على عكاز . ساعد الراهب الأول الراهب العجوز على الجلوس فوق وسادة كبيرة . تبادل الراهبان بضع كلمات باللغة التبتية، وبعد ذلك حياه الراهب الأول بانحناء وانسحب .

ران الصمت .

بالكاد كانت تسمع زقزقات الطيور في الفناء، هناك في الخارج، وطققة الفحم الهادئة في الفرن الحديدي . نظر طوماس وأريانا إلى الوافد الجديد الجالس فوق الوسادة . عدّل الراهب ثوب «تاسين» البنفسجي الذي يغطيه وعدّل جلسته . تشوشت عيناه وتاهتا في الفراغ، كأنه ينسحب من العالم المحيط به .

صمت .

كان يبدو أن البوذي يتجاهل حضور الأجنيين . ربما كان يتأمل،



ربما كان غارقاً في نشوة روحية. على أي، لم يكن الرجل ينطق ببنت شفة، واكتفى بالبقاء هناك. تبادل طوماس وأريانا النظرات، حائرين متسليين، لا يعرفان إن كان عليهما أن يتكلما، إن كان التَّبتي قد دخل الغرفة بالخطأ، إن كانت تلك عادة محلية أو ربما كان أعمى. وأمام الشك، لزمنا الصمت وظلا ينتظران تطور الأحداث.

استمر الصمت لمدة عشر دقائق طويلة.

ظل الراهب العجوز هادئاً، بعينين جامدتين وتنفس بطيء؛ وفجأة، دون أي مبرر ظاهر، ارتعش وعاد إلى الحياة.

- أنا البوذيساتفا تينزينغ ثوبتين - قال بصوت واهن وهو يتحدث بلغة إنجليزية صحيحة بشكل مدهش، ولكنة بريطانية واضحة - سمعتُ أنكما تبحثان عني كي أدلكما على الطريق.

تنهَّد طوماس مرتاحاً. ها هو الآن أمامه تينزينغ ثوبتين، مُرسِلٌ تلك البطاقة البريدية الملغزة التي وجدها في بيت الأستاذ سيزا. ربما يكون هو الرجل الذي يستطيع أن يجيب عن أسئلته أو يمكن أن يضيف ألباناً أخرى إلى تلك الألبان الكثيرة التي كانت تؤرقه.

- أنا طوماس نورونيا، أستاذ التاريخ بجامعة لشبونة الجديدة - قال، ثم أشار بحركة إلى أريانا - وهذه أريانا باكرافان، باحثة في مجال الفيزياء النووية بوزارة العلوم في طهران - انحنى برأسه - شكراً على استقبالننا. لقد قطعنا طريقاً طويلاً كي نصل إلى هنا.

لوى الراهب شفثيه.

- هل جئتما إلى هنا كي أنيركما؟

- حسناً... بطريقة ما، نعم.

- «سأكون طبيباً شافياً للمرضى ومن يعانون. سأعيد إلى الطريق المستقيم من زاغوا عنه. سأكون نوراً لمن يهيمون في ليل مظلم وسأعمل على أن يكتشف الفقراء والمحتاجون كنوزاً خفية»

- رتّل . - هكذا تحدث أفاتامساكا سوترا - قال ثم رفع يده - مرحباً  
بكما في شيغاتس، أيها المسافرين في الليل المظلم .  
- تشرفنا بلقائك .

أشار تينزينغ إلى طوماس .

- قلت لي إنك من لشبونة؟

- نعم .

- هل أنت برتغالي؟

- تماماً .

- هممم - هممم - كان البرتغاليون هم أول من وصلوا إلى

قلب التبت .

- عفواً؟ - قال طوماس مندهشاً .

- راهبان يسوعيان - قال تينزينغ - كان الأب أندراي والأب

ماركيش قد سمعا بوجود طائفة مسيحية في وادي بعيد في التبت .

تنكراً في هيئة حاجين هندوسيين، عبراً الهند ووصلاً إلى تسابارانغ،

قلعة بنيت وسط مملكة غوجين في وادي غارودا . شيدا كنيسة وأقاما

أول اتصال بين الغرب والتبت .

- متى حدث ذلك؟

- سنة ١٦٢٤ - انحنى محيياً - مرحباً بك أيها الحاج

البرتغالي . إن لم تأت متنكراً في هيئة هندوسي، فأني كنيسة جئتنا بها

هذه المرة؟

ابتسم طوماس .

- إنني لا أحمل لك أي كنيسة . فقط بعض الأسئلة .

- هل تبحث عن الطريق؟

- أبحث عن طريق رجل يدعى أوغوستو سيزا .

أبدى تينزينغ رد فعل لطيفاً وهو يسمع هذا الاسم .

- اليسوعي .

- لا ، لا - قال طوماس وهو يحرك رأسه - لم يكن يسوعياً ،  
ولا حتى متديناً . كان أستاذ الفيزياء بجامعة كويمبرا .

- كنتُ أناديه «اليسوعي» - قال تينزينغ دون أن يكثرث لهذا  
التصحيح ، ثم ضحك - لم يكن يحب ذلك ، بالطبع . لكنني لم أكن  
أفعل ذلك بعدوانية . كنت أناديه «اليسوعي» احتفاءً بأجداده الذين  
وصلوا إلى هنا قبل أربعة قرون ، في عهد مملكة غوجا . ولكن ذلك  
كان أيضاً من باب المزاح المرتبط بطبيعة العمل الذي كنا ننجزه معاً .  
- أي عمل؟

خفض البوذيساتفا رأسه .

- لا يمكنني أن أقول لك ذلك .

- لماذا؟

- لأننا اتفقنا معاً على أن يقوم هو بالإعلان عن ذلك .

تبادل طوماس وأريانا النظرات . تنهّد المؤرخ بعمق ثم نظر إلى  
العجوز التّبيّتي .

- لدي خبر سيّئ - قال - أخشى أن يكون الأستاذ سيزا قد  
مات .

ظل تينزينغ جامداً .

- كان صديقاً جيداً - تنهّد كما لو أن الخبر لم يصدمه - أتمنى  
له السعادة في حياته الجديدة .

- حياته الجديدة؟

- سوف يتناسخ في حيوان لاما ، من دون شك . وسوف يكون  
رجلاً طيباً وحكيماً ، يحظى باحترام كل من سيعرفه - ثم عدّل الإزار  
البنفسجي الذي يغطيه - الكثير منا تحاصرهم «الدُّكها» ، ما تحمله  
الحياة من إحباطات وآلام ، فنظّل متشبهين بأوهام «المايا» . لكن كل

هذا «أفيديا»، ذلك الجهل الذي ينبغي أن نسمو فوقه. إن تمكناً من ذلك، نتحرر من الكارما التي تكبلنا - ثم لزم صمتاً - مشينا أنا واليسوعي معاً لبعض الوقت، مثل رفيقي رحلة قرراً أن يكتشفا بعضهما. لكن، بعد ذلك، وصلنا إلى مفترق الطرق، فاخترت أنا طريقاً وسار هو في طريق آخر. تفرقت سبلنا واختلفت دروبنا، هذا صحيح، لكن مصيرنا ظل واحداً.

- وما هو هذا المصير؟

أخذ البوذيساتفا نفساً عميقاً. أغمض عينيه واتخذ وضعية تأملية. كأنه يفكر فيما سيفعل؛ كأنه يرفع وعيه لدرجة «السونياتا» أو الفراغ العظيم؛ كأنه يذيب ذاته في «الدارماكايا» الخالدة لبحث فيها عن جواب لحيرته. هل يمكن أن يكشف عن كل شيء أم يجب أن يظل صامتاً؟ هل يمكن لروح صديقه القديم، ذلك الرجل الذي كان يدعوه اليسوعي، أن تأتي لتسعه وتقود خطاه؟  
اتخذ قراره وفتح عينيه.

- ولدت سنة ١٩٣٠ في لاسا، في كنف عائلة نبيلة. كان اسمي الأول دارغي دولما، ويعني «التقدم مع الإلهة دولما ذات السبع عيون». وقد أطلق عليّ والداي هذا الاسم لأنهما كانا يظنان أن التقدم هو مستقبل التبت. وأنه ينبغي الانتباه إلى التغيير، انتباهاً بسبع عيون. لكن، لما بلغت سن الرابعة، أرسلوني إلى دير رونغبوك، عند سفح تشومولانغما، الجبل العظيم الذي نسميه «الإلهة أم الكون» - نظر إلى طوماس - وأنتم تسمونه جبل إفرست - وعاد إلى وضعيته الأولى - تعمق إحساسي الديني وأنا أحتك بالرهبان في دير رونغبوك. تنص التعاليم البوذية على أن كل الأشياء موجودة بسبب اسم أو بسبب فكرة، ولا وجود لأي شيء بسبب ذاته. وفقاً لذلك، غيرت اسمي لأصبح شخصاً آخر. في سن السادسة، سميت نفسي

تينزينغ ثوبتين، أو «حامي الدارما الذي يتبع طريق بوذا». في تلك الفترة، بدأ التَّبِت يفتح على الغرب، وهو تطور راق لأسرتي. عندما بلغت سن العاشرة، سنة ١٩٤٠، جلبني والداي إلى لاسا لأحضر مراسم تنصيب دالاي لاما الرابع عشر، تينزينغ غياتسو، على العرش، هو الذي ما زال يقودنا ومنه استلهمتُ اسمي الجديد. بعد ذلك، أرسلوني إلى مدرسة إنجليزية في دارجلين، كما جرت العادة في أوساط عائلات المجتمع الراقى في التَّبِت.

- هل تابعت دراستك في مدرسة إنجليزية؟

أجاب البوذيساتفا موافقاً بحركة من رأسه.

- لعدة سنوات، يا صديقي.

- من لغتك الإنجليزية ذات اللكنة البريطانية جداً

أظن أنك قد وجدت كل شيء مختلفاً

- مختلفاً جداً - أكد تينزينغ - كان نمط التربية مختلفاً

والطقوس أيضاً. لكن أهم اختلاف كان يكمن في المنهجية. عندما

يتعلق الأمر بتحليل مسألة ما، كان دائماً هناك كون شاسع يفرقنا.

اكتشفتُ أنكم، أنتم الغربيين، تحبون تقسيم مسألة واحدة إلى عدة

مسائل صغيرة، تحبون التقسيم والعزل من أجل تحليل أفضل. هذه

منهجية لها محاسنها، من دون شك، لكنها تنطوي على عيب فظيع.

- وما هو؟

- تخلق الانطباع بأن الواقع مجزأ. هذا ما اكتشفته في دارجلين

مع أساتذتكم. بالنسبة لكم، هناك شيء اسمه الرياضيات، وشيء

اسمه الكيمياء، وشيء اسمه اللغة الإنجليزية، وشيء اسمه الرياضة،

وشيء اسمه علم النبات. في طريقة تفكيركم، كل الأشياء متفرقة ثم

حرّك رأسه - وهذا وهمٌ، بطبيعة الحال. إن طبيعة الأشياء تكمن في

السونياتا، الفراغ العظيم، وكذلك في الدارماكايا، جسد الكائن. يوجد الدارماكايا في كل الأشياء المادية في الكون وينعكس في الفكر الإنساني على شكل بوذي، الحكمة المتيقظة. إن أفاناماساكا سوترا، النص الأساسي بالنسبة لبوذية ماهايانا، يعتمد على فكرة أن الدارماكايا يوجد في كل شيء. كل الأشياء وكل الأحداث مرتبطة، تجمعها خيوط لا تُرى. بل، أكثر من ذلك، كل الأشياء وكل الأحداث تجليات لنفس الوحدة - قال ثم صمّت - الكل هو الواحد.

- إذن، واجهتَ عالمين مختلفين تماماً.

- مختلفين تماماً - أكد البوذيساتفا - عالم يُجزئ كل شيء،

وآخر يوحد كل شيء.

- لم تكن سعيداً في دارجلين؟

- بالعكس. كان الفكر الغربي اكتشافاً. أنا الذي كنتُ أبكي

لأنني خارج التّبت، اكتشفتُ طريقة جديدة في التفكير. وفوق هذا،

كنتُ متفوقاً في مادتين هما الرياضيات والفيزياء. أصبحتُ أحسن

تلميذ في المدرسة الإنجليزية، أحسن من أي إنجليزي أو أي هندي

آخر.

- وكم من الوقت بقيت في دارجلين؟

- حتى سن السابعة عشرة.

- وهل عدت بعد ذلك إلى التّبت؟

- نعم. سنة ١٩٤٧، بالضبط عندما رحل البريطانيون عن الهند،

عدتُ إلى لاسا. كنتُ وقتها أضعُ ربطة عنق ووجدت صعوبة كبيرة

في التأقلم مع الحياة في التّبت. هذه الأرض التي كنتُ فيما مضى

أراها أكثر حميمية من بطن أمي، أصبحتُ تبدو لي الآن مكاناً

متخلفاً، ضيق الأفق، غارقاً في المحلية. الشيء الوحيد الذي كان

يسحرني هو الروحانيات، الإحساس الذهني بالتحليق في الهواء،  
الذهن البوذي وهو يبحث عن جوهر الحقيقة - ثم غير جلسته فوق  
الوسادة الضخمة - بعد عامين من عودتي إلى التبت، وقع في الصين  
حدث ستكون له تداعيات عميقة على حياتنا. استولى الشيوعيون على  
السلطة في بكين. طردت حكومة التبت كل الصينيين المقيمين في  
البلاد، لكن والديّ كانا يتمتعان ببعد النظر. كانا على بينة من الأمور  
ويعرفان مشاريع ماو تسي تونغ بخصوص التبت. كما قررا أن يبعثاني  
من جديد إلى الهند. لكن الهند لم تعد كما كانت من قبل، وبواسطة  
من بعض أساتذتي القدامى في دارجلين العارفين بمواهبني في  
الرياضيات والفيزياء، تم اختياري لأقضي فترة تكوينية في جامعة  
كولومبيا في نيويورك.

- ذهبت من لاسا إلى نيويورك؟

- تصور ذلك - قال تينزينغ مبتسماً - انتقلت من «المدينة  
المحرمة» إلى «التفاحة الكبرى»، من قصر بوتالا إلى مبنى إمباير  
ستيت - ثم ضحك - كان ذلك صدمة. كنت قبل لحظة أتجول في  
باركوز، وبعدها وجدّني أتجول وسط تايمز سكوير.

- كيف كانت جامعة كولومبيا؟

- بقيت فيها لمدة قصيرة. ستة أشهر فقط.

- مدة قصيرة جداً؟

- نعم. كان أحد أساتذتي من المشاركين في مشروع مانهاتن،  
البرنامج العسكري الذي كان يضم أحسن علماء الفيزياء في الغرب  
لصنع القنبلة النووية. وكان اسم هذا المشروع مانهاتن تحديداً لأنه  
بدأ يتطور في جامعة كولومبيا، في مانهاتن.

- لم أكن أعرف هذا.

- أستاذي، بصفته يشغلُ كرسي الفيزياء في جامعة كولومبيا، كان منخرطاً في هذا البرنامج. عندما تعرف عليّ وأعجب بقدراتي قرر أن يعهد بي إلى مُعلّمي، وهو رجل ذائع الصيت.

- من يكون؟ - سأله طوماس.

- ألبرت أينشتاين - قال تيزينغ بصوت خفيض وهو يعلم أن لا أحد يمكن ألا يكثرث لهذا الاسم - كان أينشتاين يشتغل في *Institute for Advanced Study* في برنستون، وكان معجباً ببعض مظاهر الثقافة الشرقية، مثل الكونفوشيوسية. كنا سنة ١٩٥٠، وفي تلك الفترة كان التّبت يعيش أحداثاً خطيرة. أعلنت بكين منذ يناير أن بلدنا سيتحرر، وسرعان ما غزت القوات الصينية منطقة خام بكاملها حتى بلغت نهر يانغ تسي. كانت بداية نهاية استقلالنا. تضامناً مع القضية التّبتية، استقبلني أينشتاين بالأحضان. لم أكن أتجاوز العشرين، فقرر مُعلّمي أن يجعلني أشتغل مع متدرب آخر، وهو شاب يكبرني بسنة واحدة - ثم قوس البوذيساتفا حاجبيه البيضاءوين - أظن أنك خمنت من يكون.

- الأستاذ سيزا.

- وقتذاك، لم يكن أستاذاً بعد. كان فقط أوغوستو. وسرعان ما تقربنا من بعضنا، وبما أنني كنتُ أعرف أن المستكشفين الأوائل الذين وصلوا إلى التّبت كانوا يسوعيين برتغاليين، فإنني سرعان ما أطلقت على صديقي الجديد اسم «اليسوعي» - ضحك من قلبه مثل طفل تقريباً - كان ينبغي أن ترى ردة فعله! استشاط غضباً! شن هجوماً معاكساً وأطلق عليّ اسم «الراهب الأصلع»، لكن ذلك لم يكن مشكلة بالنسبة لي، لأنني كنت بالفعل راهباً في رونغبوك.

- وماذا كنتما تفعلان معاً؟

- آه، أشياء كثيرة - قال، ثم أخذ يضحك من جديد - خصوصاً



الحماقات والنكت. ذات مرة، رسمنا شارباً مثل شارب هتلر على صورة مهاتما غاندي كان يملكها أينشتاين في الطابق الأول من بيته، في شارع ميرسيز. استشاط العجوز غضباً، وانتصب الشعر فوق رأسه! كان لا بد أن تريا ذلك . . .

- ولكن، ألم تكونا تشتغلان؟

- طبعاً، كنا نشتغل. كان أينشتاين حينذاك منخرطاً في عمل معقد جداً وطموح. كان يريد تطوير «نظرية كل شيء»، وهي نظرية قد تختزل في صيغة واحدة شرح قوة الجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية. كانت عبارة عن نظرية كبرى عن الكون.

- نعم، أعرف ذلك - قال طوماس - كرّس أينشتاين السنوات الأخيرة من عمره لهذا المشروع.

- وأشركنا في ذلك العمل. طلب منا، أنا وأوغوستو، أن نجرب مختلف الصيغ. انكببنا على ذلك لمدة سنة كاملة، إلى غاية سنة ١٩٥١. لكن، ذات يوم، استدعانا أينشتاين إلى مكتبه وطلب منا ألا نشتغل بعد على المشروع.

- آه، نعم؟ ولماذا؟

- كانت لديه مهمة أخرى يريد أن يكلفنا بها. قبل أسبوع أو أسبوعين على ذلك، لم أعد أذكر بالضبط، استقبل أينشتاين زائراً مهماً. كان رئيس الوزراء الإسرائيلي. خلال لقاءهما، عرض عليه رئيس الوزراء مسألة في غاية الأهمية. في البداية، بدا أينشتاين متردداً، لكنه، بعد بضعة أيام، قرر أن يقحمنا في ذلك البحث. طلب منا أن نتخلى عن مشروع نظرية كل شيء كي نشتغل على هذا المشروع الجديد، وهو أمر سري للغاية.

انحنى طوماس وأريانا إلى الأمام متلهفين لمعرفة الأمر.

- ماذا . . . ماذا كان ذلك المشروع؟

- أطلق عليه أينشتاين اسماً سرياً - كشف تينزينغ - وسماه «المعادلة الإلهية».

ران صمت عميق في الغرفة الضيقة.

- وبماذا كان يتعلق ذلك المشروع؟ - سألت أريانا وهي تنطق لأول مرة.

تململ البوذيساتفا فوق وسادته، وضع يده على أسفل ظهره، تلوى ثم تحاشى تكشيرة ألم. أجال نظره في الغرفة المظلمة، التي لا تضيئها سوى الشموع ولهيب مصفر ينبعث من الفرن، ثم أخذ نفساً عميقاً.

- ألم تملأ من البقاء منغلقتين في هذا المكان؟

كان الزائران على وشك انهيار عصبي. كانا متلهفين لسماع الجواب، متعطشين لسبر أغوار السر، ينتظران بقلق ما سيكشف عنه. لقد بلغا أهم مرحلة من بحثهما، وأمامهما كان الرجل الذي يملك كل الأجوبة، على ما يبدو. كان الحديث في لحظة مفتاحية، ووقت حاسم. وماذا كان يفعل تينزينغ؟ كان يشتكي من أنه كان محبوساً في تلك الغرفة الضيقة منذ مدة طويلة.

- وبماذا كان يتعلق ذلك المشروع؟ - ألحت أريانا حانقة ومتلهفة.

قام البوذيساتفا بحركة تعبر عن الهدوء.

- الجبلُ هو الجبلُ والطريق هو نفس الطريق دائماً - رتل وهو يضع يده على صدره - ما تغير حقاً هو قلبي.

ثم ران صمت مُربك.

- ماذا يعني هذا الكلام؟

- هذه الغرفة المظلمة هي نفس الغرفة المظلمة والحقيقة هي نفسها منذ الأزل. لقد ملّ قلبي من البقاء هنا - ثم أشار إلى الباب بحركة مهيبة - هيا بنا إلى الخارج.
- إلى أين؟
- إلى الضوء - قال تينزينغ - سوف أنير طريقكما في درب مضيء.

# 33

غادروا الغرفة الضيقة المظلمة عند مدخل معبد مايتريا، في أعلى دير تاشيلونبو، نزلوا عبر السلالم ذات الحجارة السوداء ثم عرجوا يساراً. كان طوماس يمنح ساعده للبوذيساتفا، يساعده على المشي، بينما كانت أريانا تتبعهما وهي تحمل ثلاث وسادات على ذراعيها. عبروا ممراً ضيقاً يحاذي المصليات واجتازوا الباب الأول المؤدي إلى فناء بعيد عن الأنظار به أشجار كثيرة، يقع عند ظل قصر بانشين لاما العظيم.

قام عدة رهبان بتحية تينزينغ فتوقف الرجل العجوز ليرد عليهم التحية. ثم استأنف سيره، وهو يشير إلى شجرة عُرست وسط مشتل، فتوجه ثلاثتهم إلى هناك.

- قال يون مين مرّة - ورتّل البوذيساتفا وهو يقترب من الشجرة، مُركزاً على خطواته المُسنّة - «حين تمشي، لا تقم بشيء آخر غير المشي. حين تجلس لا تقم بشيء آخر غير الجلوس. وخصوصاً، لا تتردد».

وضعت أريانا الوسادة الكبيرة قرب الجذع، في نقطة أشار إليها مستضيفهما، الذي ساعده طوماس ليجلس. نظرا من حولهما ولاحظا أن المكان قد تم اختياره بعناية. كانوا في الظل، لكن الأوراق كانت تترك ضوء الشمس يتسلل بينها، مما يجعل المكان لا

مفرطاً في البرودة ولا مسرفاً في الحرارة، بل وسطاً بين الأمرين.

- قال بوذا: «اجلس، استرح، اعمل.» - قال ثم تابع ترتيله -  
«وحدك مع نفسك، عند حافة الغابة، عش سعيداً، من دون رغبة».  
لبا الاثنان الدعوة وجلسا على الوسادتين فوق الأرض، قبالة  
البوذيساتفا.

ثم ران صمت طويل.

بعيداً، كان يُسمع الرهبان وهم يرتلون جماعة المانتترات،  
النصوص المقدسة، وصوت أوم الحلقي الحاضر دائماً. كانت هي  
صوت الخالق، المقطع اللفظي المقدس الذي سبق الكون، الاهتزاز  
الكوني الذي تولّد عنه كل شيء والذي يوحد كل شيء. فوق أغصان  
الأشجار، كانت طيور صغيرة تزقزق بحب، غير مبالية بالنبرة  
الأساسية التي يتردّد صداها في الدير مثل همس في الخلفية. كل  
شيء هنا كان دافئاً، هادئاً، خالداً، مكان مثالي للتأمل. كان الفناء  
الهادئ يدعو إلى التأمل والسمو بالفكر نحو بحث متواصل عن  
الحقيقة.

- كنتَ تتحدثُ قبل قليل عن مشروع المعادلة الإلهية - قال  
طوماس - هل يمكنك أن تشرح لنا بماذا كان يتعلق هذا الأمر؟

- ماذا تريدان أن أشرح لكما؟

- حسناً كل شيء.

حرك تينزينغ رأسه.

- هناك مثل صيني يقول: «الأساتذة يفتحون الباب، لكن عليك  
أن تدخل وحدك...».

مكتبة  
t.me/t\_pdf

تبادل طوماس وأريانا النظرات.

- إذن، افتح لنا الباب.

أخذ التّبيّتي العجوز نفساً عميقاً.

- عندما بدأتُ دراسة الفيزياء والرياضيات، وجدتُ ذلك مسلياً جداً لأنني كنت أعتقد أن الأمر يتعلق بلعبة كبيرة وجميلة. لكن، عندما التحقت بجامعة كولومبيا، كان لي أستاذ ذهب بي بعيداً جداً. أخذني بعيداً جداً لدرجة أن الدراسة كفت عن كونها لعبة لتتحول إلى اكتشاف كبير.

- ماذا اكتشفتُ؟

- اكتشفتُ أن علم الغرب يقترب بشكل غريب من فكر الشرق.

- ماذا تعني بهذا؟

حديق تينزينغ في طوماس ثم في أريانا.

- ماذا تعرفان عن تجارب الشرق الروحية؟

- معرفتي محدودة فيما له علاقة بالإسلام. - قالت الإيرانية.

- أعرف اليهودية والمسيحية - قال طوماس - وها أنا أتعلم

بعض الأمور عن البوذية. كان بوذي أن أعرف المزيد، لكنني لم أحظ قط بمعلم يلقني ذلك.

تنهّد البوذيساتفا.

- لدينا نحن البوذيين مثل يقول: «عندما يكون المُتعلّم مستعداً،

يظهر المُعلّم» - ترك زقزقة عصفور لتملاً الفناء بموسيقاها - كي

تفهما طبيعة آخر مشروع من مشاريع أينشتاين، عليكما أن تعرفا شيئين

أو ثلاثة أشياء عن الفكر الشرقي - وضع يده على جذع الشجرة وظل

كذلك لحظة. ثم سحب يده ليضعها فوق يده الأخرى، ثم شبكهما

معاً في وضعية تأملية - تعود أقدم أصول البوذية إلى الهندوسية، التي

ترتكز فلسفتها على كتابات قديمة مجهولة المؤلف كتبت باللغة

السنسكريتية القديمة، وهي كتب الفيذا، تلك النصوص المقدسة لدى

الآريين. والجزء الأخير من الفيذا يسمى الأوبانيشاد. الفكرة

الأساسية في الهندوسية هي أن تعدد الأشياء والأحداث التي نراها

من حولنا ليس سوى تجليات مختلفة لحقيقة واحدة. وتسمى هذه الحقيقة براهمان وتمثل في الهندوسية ما تشمله الدارماكايا في البوذية. تعني براهمان «النمو» وهي الحقيقة في حد ذاتها، الجوهر الداخلي لكل الأشياء. نحن براهمان حتى وإن كنا لا ندرك ذلك بسبب القوة السحرية الخلاقة لمايا، التي تخلق وهم التعدد. ولكن هذا التعدد، أكرر ذلك، ليس سوى وهم. ليس هنا غير الحقيقي، وهذا الحقيقي هو براهمان.

- أستسمح، ولكنني لا أفهم - قاطعه طوماس - كنت دائماً أعتقد أن الهندوسية تعج بالآلهة المختلفة.

- هذا صحيح جزئياً. الهندوس لهم عدة آلهة، لكن الكتابات المقدسة تؤكد بكل وضوح أن كل هذه الآلهة ليست سوى انعكاس للإله واحد. كما لو أن الله له ألف اسم وكل اسم إله، لكن كل الأسماء تحيل على نفس الإله، أسماء مختلفة ووجوه مختلفة لجوهر واحد ووحيد - فتح ذراعيه ثم ضمّهما - براهمان هو الواحد والكل في الوقت ذاته. هو الحقيقي والوحيد الذي هو حقيقي. فهمتُ.

- تركز الأسطورة الهندوسية على تاريخ خلق العالم من خلال رقصة شيفا، سيّد الرقص. تقول الأسطورة إن المادة كانت جامدة إلى أن بدأ شيفا، ليلة البراهمان، رقصة وسط حلقة من نار. في تلك اللحظة أيضاً بدأت المادة تخفق على إيقاع شيفا، الذي حوّل رقصه الحياة إلى مسلسل كبير من الخلق والدمار، من الولادة والموت. إن رقصة شيفا هي رمز الوحدة والوجود، ومن خلالها تتحقق الأفعال الإلهية الخمسة: خلق الكون، دوامه في الفضاء، تفككه، إخفاء طبيعة الإله، والكشف عن المعرفة الحقيقية. تقول الكتابات المقدسة إن الرقصة قد أدت، في البداية، إلى تمددٍ ظهرت خلاله المادة

والطاقة. في المرحلة الأولى، تشكّل الكون من الفضاء، الذي تمدّد فيه كل شيء بفضل طاقة شيفا. وتتوقع الكتابات المقدسة أن يستمر التمدد متسارعاً، ثم سيمتزج كل شيء، وفي النهاية سيؤدي شيفا رقصة الدمار الفظيعة - أحنى البوذيساتفا رأسه - ألا يذكر كما كل هذا بشيء ما؟

- مذهل - همهم طوماس - إنه البيغ بانغ وتمدّد الكون. تساوي الكتلة والطاقة. البيغ كرانش أو الانسحاق الكبير.

- تماماً - أكد التّبي - الكون يوجد بفضل رقصة شيفا وأيضاً بفضل التضحية الذاتية للكائن الأسمى.

- التضحية الذاتية؟ كما في المسيحية؟

- كلا - قال وهو يحرك رأسه - إن عبارة «تضحية» تُستعمل هنا بمعناها الأصلي، أي جعل الشيء مقدساً وليس بمعنى الألم. إن الحكاية الهندوسية عن خلق العالم هي حكاية الفعل الإلهي الذي يولّد المقدس، فعلٌ بإنجازه يصبحُ الله هو الكون ويصبح الكون هو الله. الكون ركح عظيم لمسرحية إلهية، يلعب فيها براهمان دور الساحر الكبير الذي يصبح هو العالم من خلال القوة الخلاقة لمايا فعل الكارما. إن الكارما هي قوة الخلق، المبدأ النشيط للمسرحية الإلهية، إنها الكون وهو يشتغل. إن جوهر الهندوسية يكمن في تحريرنا من أوهام المايا ومن قوة الكارما، وذلك بحملنا على أن نعي، بواسطة ممارسة التأمل واليوغا، بأن كل الظواهر التي ندرکها بحواسنا تشكل جزءاً من نفس الحقيقة، وأن كل شيء براهمان - وضع البوذيساتفا يده على صدره - كل شيء براهمان - كرّر قائلاً - كل شيء. بما في ذلك نحن أيضاً.

- أليس هذا هو ما تدافع عنه البوذية أيضاً؟

- تماماً - قال العجوز التّبي موافقاً - بدل براهمان بفضل



استعمال كلمة دارماكايا كي نصف هذه الحقيقة الوحيدة، هذا الجوهر الذي يوجد في كل أشياء الكون وظواهره. كل شيء دارماكايا، كل شيء مرتبط بخيوط لا تُرى، ما الأشياء سوى أوجه لنفس الحقيقة. لكن هذه الحقيقة ليست ثابتة، بل هي حقيقة موشومة بفهوم السامسارا، أي أن الأشياء عابرة وأن كل شيء يتغير باستمرار. كل شيء يتغير على الدوام، لأن الحركة والتحوّل صفتان كامتان في الطبيعة.

- إذن، ما هو الفرق بين الهندوسية والبوذية؟

- هناك اختلاف في الشكل، في الطرق وفي الأساطير. كان بوذا يقبل بالآلهة الهندوس، لكنه لم يكن يعيها اهتماماً كبيراً. هناك فروقات كبيرة بين هاتين الديانتين رغم أنهما تتفقان حول جوهر واحد. فالحقيقي واحد، وإن بدا متعدداً. الاختلافات الظاهرية ليست سوى أقنعة مختلفة لحقيقة واحدة، هي بدورها متحوّلة. هذان المذهبان الفكريان يعلماننا أن ننظر إلى ما خلف الأقنعة، يعلماننا أن الاختلاف يخفي الوحدة، يعلماننا كيف نمشي نحو الكشف عن الواحد. لكنهما يلجآن إلى طرق مختلفة للوصول إلى نفس الهدف. الهندوسيون يصلون إلى الاستنارة عن طريق الفيذانتا واليوغا، بينما يدركها البوذيون عبر الطريق النبيل الثماني المقدس لبوذا.

- إذن، أساس الفكر الشرقي يرتكز على فكرة أن الحقيقي،

مهما بدا تحت أشكال مختلفة، فإنه، في الجوهر، شيء واحد.

- نعم - قال تينزينغ - رغم أن هذه الأفكار الأساسية كانت مضمّنة في الهندوسية والبوذية، فقد جاءت الطاوية، بعد ذلك، لتركز على بعض العناصر الجوهرية الكامنة في الفكر السائد.

- وما هي؟

استنشق التّبيّتي جرعة هواء نقي كان ينزلق عبر الفناء.

- هل سبق لك أن قرأت التاو تي تشينغ؟

- لا .

- إنه النص الأساسي في التاو .

- وما هو التاو؟

- قال تشوانغ تسو: «إذا سألت أحد ما عن التاو وقدم له شخص

آخر جواباً، فلا أحد منهما يعرف ما هو التاو» .

ضحك طوماس .

- حسناً، أرى أنك لا تستطيع أن تشرح لي ما هو التاو . . .

- التاو هو اسم آخر لبراهمان ودارماكايا - قال التّبي - التاو

هو الحقيقي، جوهر الكون، الواحد الذي منه ينشأ المتعدد. لاو تسو

هو من صاغ الطريق التاوي، ولخص فكره في مفهوم أساسي .

- ما هو؟

- يبدأ كتاب التاو تي تشينغ بكلمات معبرة - قال تينزينغ -

«التاو الذي نستطيع أن نعبر عنه ليس هو التاو الحقيقي . الاسم الذي

يمكن أن نطقه ليس هو الاسم الحقيقي .»

ترك البوذي تلك الكلمات يتردد صداها في الفناء مثل أوراق في

مهب الريح .

- ماذا يعني هذا؟

- لقد ركز التاو على دور الحركة في تحديد ماهية الأشياء .

الكون يتأرجح بين الين واليانغ، وهما الوجهان اللذان يحددان إيقاع

دورات الحركة التي يتجلى من خلالها التاو . الحياة، كما قال

تشوانغ تسو، هي انسجام الين واليانغ . وكما أن اليوغا هي طريق

الهندوسية نحو الاستنارة، وكما أن الطريق النبيل الثماني هو سبيل

البوذية إلى الاستنارة حيث كل شيء يصبح دارماكايا، فإن التاو هو

طريق الطاوية نحو الاستنارة حيث كل شيء تاو . الطاوية طريقة

تستعملُ التناقض، والمفارقات والدقة لإدراك التاو. قال لاو تسو: «ما تريد أن تفهمه، عليك أولاً أن تتركه يتمدد» - ثم أحنى رأسه - من خلال العلاقة الدينامية بين اليين واليانغ، يفسر الطاويون تغيرات الطبيعة. فاليين واليانغ يشكلان قطبين متناقضين، طرفين يرتبطان ببعضهما بواسطة حبل لا يُرى، وجهين مختلفين من التاو، لقاء الأضداد. الحقيقي في تغير دائم، لكن التغيرات دورية، فمرة تنحو نحو اليين، وتارة تعود نحو اليانغ - ثم رفع يده مرة أخرى - لكن، حذار، الأطراف هي أوهام الواحد، مما دفع بوذا للحديث عن اللانائية. قال بوذا: «الظلام والضوء، القصير والطويل، الأسود والأبيض، لا يمكن معرفتها إلا في علاقة الواحد بالآخر. فالضوء ليس مستقلاً عن الظلام، ولا الأسود عن الأبيض. ليس هناك من تناقضات، هناك فقط علاقات ودرجات.»

- إنني لا أفهم - قال طوماس - ما هي، إذن، خصوصيات الطاوية؟

- إن الطاوية ليست ديانة في الحقيقة، بل نظاماً فلسفياً ظهر في الصين. لكن بعض أفكارها الأساسية تلتقي مع البوذية، كما هي الحال، مثلاً، بالنسبة للمفهوم القائل بأن التاو دينامي بعيد المنال. بعيد المنال، بأي معنى؟

- تذكّر كلمات لاو تسو: «التاو الذي نستطيع أن نعبر عنه ليس هو التاو الحقيقي.» وتذكّر ذلك القول المأثور لتشوانغ تسو: «إذا سأل أحد ما عن التاو وقدم له شخص آخر جواباً، فلا أحد منهما يعرف ما هو التاو.» فالتاو يتجاوز فهمنا. يستحيل التعبير عنه.

- غريب - قال طوماس - هذا، بالضبط ما تقوله القبالة اليهودية. يستحيل التعبير عن الله.

- إنه يستحيل التعبير عن الحقيقي - أكد تينزينغ - في كتاب

الأوبانيشاد، يحدد الهندوسيون الطابع غير الملموس للحقيقة النهائية بتعبير واضح: «هناك حيث العين لا ترى، والكلام لا يصل، والذهن لا يفكر، لا نستطيع أن نعرف ولا أن نفهم ولا أن نُعلِّم». بوذا نفسه، حين سأله أحد أتباعه وطلب منه أن يعطي تعريفاً للاستنارة، ردّ عليه بصمت واكتفى برفع زهرة. ما أراد بوذا أن يعبر عنه من خلال هذه الحركة، المذكورة في قَسَم الزهرة، أن الكلمات لا تصلح سوى للأشياء والأفكار المألوفة لدينا. قال بوذا عن الكلمة: «الاسم هو ما نظن أنه موضوع فوق شيء ما أو حالة معينة وهذا يميزه عن الأشياء أو الحالات الأخرى، لكن حين ننظر إلى ما يوجد وراء هذا الاسم، نكتشف دقة أعظم لا تقبل التجزيء» - ثم تنهّد - إن الاستنارة النهائية في الدارماكايا، توجد ما وراء الكلمات والتعاريف. وسواء سمينها براهمان، دارماكايا، تاو أو الله، تبقى هذه الحقيقة ثابتة. يمكن أن نشعر بالحققيقي خلال نشوة روحية، يمكن أن نكسر أوهام المايا ودائرة الكارما بحيث ندرك الاستنارة ونصل إلى الحققيقي - ثم قام بحركة بطيئة من يده - لكن، مهما فعلنا، مهما قلنا، لن نستطيع أبداً وصفه. يستحيل وصف الحققيقي. إنه يتجاوز الكلمات.

تململ طوماس في وسادته ونظر إلى أريانا، التي لاذت بالصمت.

- اسمح لي أيها المعلم - قال بنبرة قلق تُلوّن صوته - كل هذا رائع، لا شك في ذلك، لكنه لا يجيب عن تساؤلاتنا.  
- حقاً؟

- لا - أكد طوماس - أود أن تشرح لنا بالتفصيل ذلك المشروع الذي جعلكما أينشتاين تشتغلان عليه.  
تنهّد البوذيساتفا.

- قال فيزُ يانغ: «حين تشعر أنك تائه وتغمرك الشكوك، لن

يكفيك ألف كتاب . وحين تدرك الفهم ، تكون كلمة واحدة زائدة عن الحاجة» - ثم نظر إلى طوماس . هل فهمت؟  
- آه . . . تقريباً .

- كلماتك المترددة تشبه قطرات المطر ، مما يذكرني بقول مأثور في الزن - قال تينزينغ - «قطرات المطر تسوط أوراق الباشو ، لكنها ليست دموع حزن ، فقط قلقاً لمن يسمعها» .

- هل ترى أنني قلق؟  
- أظن أنك لا تصغي إليّ . أنت تسمعي ، صحيح ، لكنك لا تصغي إليّ . عندما ستصغي إليّ ستفهمني . وحين ستفهمني ، كلمة واحدة ستكون زائدة عن الحاجة . لكن ، ما دمت لا تفهمني ، لن يكفيك ألف كتاب .

- هل تقصد أن كل هذا له علاقة بمشروع أينشتاين؟  
- أقصد ما أقوله لك - رد التّبي بصوت هادئ ، وإصبعه يشير إلى طوماس كما لو أنه يناديه - تذكّر المثل الصيني : «الأساتذة يفتحون الباب ، لكن عليك أن تدخل وحدك» .

- حسناً - قال المؤرخ موافقاً - أعرف أنك فتحت لي الباب ، فهل حان الوقت لأدخل؟

- لا - همهم تينزينغ - حان الوقت لتصغي إليّ . قال لاو تسو : «اعمل من دون فعل ، اشتغل من دون جهد» .

- نعم ، أيها المعلم .  
أغمض البوذيساتفا جفنيه لحظة . كان يبدو غارقاً في التأمل ، لكنه سرعان ما فتح عينيه .

- كل ما قلته لكما للتو كنتُ قد حكيتُه لأينشتاين في برنستون ، وأبدى اهتماماً كبيراً بنظرة الشرق للكون . وكان السبب الرئيسي لهذا الاهتمام يرتكز على التقارب بين فكرنا والإشكالات الأساسية التي

طرحتها الاكتشافات الجديدة في مجالي الفيزياء والرياضيات، وهو ما كنتُ قد لاحظته في جامعة كولومبيا وحاولت أن أشرحه لمعلمي الجديد.

- اسمح لي، إنني لا أفهم - قاطعته أريانا التي أبدى ذهنها العلمي شيئاً من الدهشة - تقارب بين الفكر الشرقي والفيزياء؟ عن أي شيء تتحدث بالتحديد؟  
ضحك تينزينغ.

- ردّ فعلك يشبه تماماً ردّ فعل أينشتاين حين حدثته عن ذلك لأول مرة.

- اسمح لي، ولكن هذا يبدو ردّ فعل طبيعياً عند أي عالم - قالت الإيرانية - مزج العلم بالروحانيات، هذه... عملية غريبة نوعاً ما، ألا ترى ذلك؟

- لا، إن كان الاثنان يقولان الشيء نفسه - ردّ عليها التّبي - تقول الأوبانيشاد: «جسد الإنسان صورة لجسد الكون. ذهن الإنسان صورة لذهن الكون. العالم الأصغر صورة للعالم الأكبر. الذرة صورة للكون».

- وأين يوجد هذا؟

- في الأوبانيشاد، الجزء الأخير من الفيذا، النصوص الهندوسية المقدسة - قوَسَ تينزينغ حاجبه الأبيض - ولكن يمكن أن نجد هذا في أي نص علمي، ألا تظنين ذلك؟  
- حسناً... ربما، بطريقة ما.

عدّل البوذيساتفا جلسته فوق الوسادة ثم أخذ نفساً عميقاً.

- هل تذكّران ما قاله لاو تسو: «التاو الذي نستطيع أن نعبر عنه ليس هو التاو الحقيقي». هل تذكّران كيف تشير الأوبانيشاد إلى الحقيقة النهائية كشيء لا تراه العين، لا يُعبر عنه الكلام، لا يدركه

الذهن، فلا نعرفه، لا نفهمه ولا نستطيع تعليمه؟ هل تذكّر أن قسم الزهرة وكيف يشرح بوذا أن استنارة الدارما كايا شيء يستحيل التعبير عنه؟

- نعم ...

- وأنا أسألكما: ماذا يقول مذهب اللايقين؟ يقول لنا إنه لا يمكن أن نتوقع بدقة تصرف جزئية ما رغم علمنا بأن هذا التصرف محدد سلفاً. وأنا أسألكما: ماذا تقول مبرهنتي عدم الاكتمال؟ تقولان لنا إنه لا يمكننا إثبات انسجام نظام رياضي ما، حتى لو كانت مقولاته غير القابلة للبرهنة حقيقية. وأنا أسألكما: ماذا تقول نظرية الفوضى؟ تقول لنا إن تعقّد الحقيقي كبير لدرجة استحيل معها أن نتوقع مستقبل الكون، حتى لو علمنا أن هذا التطور محدد سلفاً. إن الحقيقي يتخفى وراء الوهم في المايا. مبدأ اللايقين، مُبرهننا عدم الاكتمال ونظرية الفوضى أثبتت كلّها أن جوهر الحقيقي شيء بعيد المنال. يمكن أن نحاول أن نقرب منه، نحاول أن نصفه لكننا لا نستطيع أبداً أن نعرفه حقاً. سيكون هناك دائماً لغز ما في عمق الكون. في نهاية المطاف، الكون يستحيل وصفه في اكتماله، بسبب دقة تصوره - فتح يديه - ولنعد الآن إلى السؤال الجوهرى. هل تكون المادة التي لا يمكن توقعها التي يشير إليها اللايقين شيئاً آخر غير براهمان؟ هل تكون هذه الحقيقة التي تبرهن عليها مبرهننا عدم الاكتمال شيئاً آخر غير دارما كايا؟ هل يكون هذا الحقيقي المعقّد بشكل لانهائي وصعب المنال الذي تصفه نظرية الفوضى شيئاً آخر غير التاو؟ أوليس الكون سوى لغز عظيم يستحيل التعبير عنه؟

الأسئلة التي طرحها تينزينغ بصوت هادئ تردّد صداها طويلاً في آذان الزائرين. ظل طوماس وأريانا يحدقان في التّبيّتي الجالس قبالتهما وهضما بتثاقل أوجه التشابه بين علوم الغرب وروحانيات الشرق.

- ثم هناك مسألة الشائبة - قال تينزينغ مستأنفاً كلامه - كما قلت لكما، يحدد الفكر الشرقي دينامية الكون من خلال دينامية الأشياء. براهمان الهندوسيين يعني «نمو». سامسارا البوذيين تشير إلى «الحركة المستمرة». تاو الطاويين يحيل على دينامية الأضداد المتمثلة في الين واليانغ. الأضداد التي تلتقي، الأطراف المرتبطة بخيط لا يُرى. بين ويانغ. هل تذكران أنني حدثتكما عن كل هذا؟

- نعم، بطبيعة الحال.

- حسناً، الآن، فكّرا في نظريات النسبية: الطاقة والكتلة هما شيء واحد في حالات مختلفة. فكّرا في فيزياء الكم: المادة موجة وجزيئة في الوقت ذاته. فكّرا مرة أخرى في نظريات النسبية: الفضاء والزمن مرتبطان. كل شيء بين ويانغ. الكون يتحرك بفضل دينامية الأضداد. الأطراف تلتقي، في النهاية، في نفس الوحدة. بين ويانغ. طاقة وكتلة. موجات وجزيئات. فضاء وزمن. بين ويانغ.

- الكون، إذن، تتحكم فيه دينامية الأضداد - قال طوماس معلقاً.

- الكون واحد، لكنه ليس ثابتاً، بل دينامي - قال تينزينغ - لقد حدثتكما عن خلق الكون بواسطة رقصة شيفا، الذي نفخ في المادة إيقاع رقصته، وحوّل الحياة إلى مسلسل دائري كبير. هل تذكران ذلك؟

- نعم.

- حسناً، انظّرا إلى إيقاع الإلكترونات وهي تدور حول النويات، انظّرا إلى تأرجح الذرات، انظّرا إلى إيقاع حركة الجزيئات، انظّرا إلى إيقاع سير الكواكب، استمعاً لنبض الكون. في كل شيء هناك إيقاع، في كل شيء ثمة تزامن، وفي كل شيء يوجد



تناغم. يبرز النظام من الفوضى مثل راقص يدور في الحلبة. هل سبق  
لكما أن لاحظتُما إيقاع الكون؟  
- أوه . . . إيقاع الكون؟

- كل ليلة، على طول أنهار ماليزيا، تجتمع آلاف اليراعات في  
الهواء وتبعث ضوءاً واحداً في نفس الوقت، مستجيبة لتزامن سري.  
في كل لحظة، في أعماق أجسادنا، ترقص دقات كهربائية في كل  
عضو على إيقاع سيمفونيات صامتة تضبط قياسها آلاف الخلايا التي  
لا تُرى. في كل ساعة، على طول أمعائنا، تقوم جدران قنواتنا  
المعوية بدفع بقايا الطعام عن طريق حركة انكماش متوازنة تخضع  
لإيقاع متموج غريب. كل يوم، عندما يلج رجل ما امرأة ويجري  
سائله نحو بويضتها، تحرك الحيوانات المنوية ذبولها في نفس الوقت  
وفي نفس الاتجاه، وفق تصميم رقصة غامضة. كل شهر، كلما  
قضت عدة نساء وقتاً طويلاً معاً، فإن دورتهن الشهرية تتزامن بشكل  
غامض. أيكون هذا شيئاً آخر غير الإيقاع الغامض لموسيقى الكون  
التي رقص عليها شيفا الكوني؟

- ولكن التزامن ظاهرة طبيعة في الحياة - قال طوماس مجادلا  
- هناك تزامن في تنفسنا، تزامن في نبض قلبنا، في دوران الدم  
داخل أجسادنا

- طبعاً، التزامن طبيعي - وافق تينزينغ - وهو طبيعي تحديداً  
لأن الحياة تجري على إيقاع نبضات رقصة شيفا. لكن، ليست الحياة  
وحدها، أتعرفان ذلك؟ المادة الجامدة ترقص بدورها على نفس  
الموسيقى.

- المادة الجامدة؟

- هذا ما اكتشفه كريستيان هيوجينس في القرن السابع عشر،  
عندما لاحظ بالصدفة أن بندولي ساعتين وُضعتا الواحدة قرب

الأخرى كانا يتأرجحان في الوقت نفسه بشكل متزامن دون تغيير. وقد حاول هيو جينس أن يفك تزامنهما بتغيير تأرجح البندولين، لكنه لاحظ أنه بعد نصف ساعة، كانت الساعتان تعودان لضبط دقاتهما على نفس الإيقاع، كما لو أن البندولين يخضعان لسيد خفي يتحكم فيهما. هكذا، اكتشف هيو جينس أن التزامن ليس خاصية تقتصر على الأشياء الحية، بل إن المادة الجامدة ترقص على نفس الإيقاع.

- حسناً، إنه . . . أمر غريب، من دون شك - اعترف طوماس - لكن، لا يمكننا أن نعمم انطلاقاً من ملاحظة حالة واحدة. ومهما كانت غريبة، فإنها تظل حالة معزولة.

- أنت مخطئ - ردّ التّبيّتي - إن الرقصة المتزامنة لبندولي الساعتين الموضوعتين الواحدة قرب الأخرى لم تكن سوى الاكتشاف الأول ضمن سلسلة من الاكتشافات المتشابهة. اكتُشف أن المولدات الموضوعية بشكل متوازٍ، رغم أنها تبدأ في الاشتغال بشكل غير متزامن، فإن إيقاع دورانها سرعان ما يتزامن بشكل تلقائي، وهذا النبض الغريب للطبيعة هو ما يسمح باشتغال الشبكات الكهربائية. اكتُشف أن ذرة السيزيوم تتأرجح مثل بندول بين مستويين من الطاقة وأن هذا التأرجح يخضع لإيقاع دقيق جداً لدرجة أنه يمكن من خلق ساعات نووية تشتغل بالسيزيوم، لا تخطئ سوى بثانية واحدة كل عشرين مليون سنة. اكتُشف أن القمر يدور حول محوره بنفس الإيقاع الذي تدور به الأرض حول محورها، وهذا التزامن الغريب هو الذي يسمح للقمر بأن يظهر لنا بنفس الوجه. اكتُشف أن جزيئات الماء، التي تتحرك بحرية، تتجمع في حركة متزامنة عندما تنزل درجة الحرارة إلى الصفر، وهذه الحركة هي التي تسمح بتشكّل الجليد. اكتُشف أن بعض الذرات، عندما تتعرض لدرجة حرارة تقارب الصفر المطلق، تبدأ بالتصرف كما لو كانت ذرة واحدة، بينما هي مليارات

الذرات وقد انخرطت في رقصة عظيمة متزامنة. سمح هذا الاكتشاف لمن أنجزوه بالفوز بجائزة نوبل للفيزياء سنة ٢٠٠١. أكدت لجنة نوبل أنهم قدموا الدليل على أن الذرات تغني في انسجام. وهذا هو التعبير الذي استعملته اللجنة في بلاغها. أن الذرات تغني في انسجام. على إيقاع أية موسيقى؟ هذا ما أسألكما عنه.

ظل طوماس وأريانا صامتين. بدا لهما السؤال بلاغياً، لكن صحيح أيضاً أن البوديساتفا قد فاجأهما بالكشف عن وجود هذا الإيقاع، هذا النبض الذي تخفق المادة على وقعه.

- على إيقاع أية موسيقى؟ أسألكما - كرّر تينزينغ - على إيقاع الموسيقى الكونية، نفس الموسيقى التي ألهمت شيفا رقصته، نفس الموسيقى التي تجعل بندولين يتأرجحان في تزامن، وتجعل المولدات تنسق حركات دورانها، والقمر ينظم دورته بطريقة يظهر لنا معها بنفس الوجه من الأرض، والذرات تغني في انسجام.

- ومن أين يأتي هذا الإيقاع؟ - سأل طوماس.  
قام التّبي بحركة غامضة من يده، شملت كل فناء المعبد.  
- إنه يأتي من الدارماكايا، من جوهر الكون - أجابه - هل سبق لكما أن سمعتما عن العلاقة بين الموسيقى والرياضيات؟  
أجاب الزائران مؤكدين بحركة من رأسيهما.

- حسناً، موسيقى الكون تتأرجح على إيقاع قوانين الفيزياء - أكد تينزينغ - اكتُشف سنة ١٩٩٦ أن الأنظمة الحية والمادة الجامدة يتزامنان وفق صيغة رياضية واحدة. أعني بهذا أن إيقاع الموسيقى الكونية الذي يولد حركات داخل أمعائنا هو نفسه الذي يجعل الذرات تغني في انسجام، والإيقاع الذي يدفع الحيوانات المنوية لتحرك أذيالها في تناغم هو نفسه الذي يضبط رقصة القمر العظيمة حول الأرض. والصيغة الرياضية التي تنظم هذا الإيقاع تأتي من الأنظمة

الرياضية التي يركز عليها تنظيم الكون: نظرية الفوضى. اكتُشف أن الفوضى متزامنة. تبدو الفوضى غير منظمة، لكنها تتمتع، في الحقيقة، بتصرف حتمي، لأنها تخضع لمعايير وضوابط محددة بعناية فائقة. ورغم أنها متزامنة، فإن تصرفها لا يتكرر أبداً، مما يسمح لنا بأن نقول إن الفوضى حتمية لكن يستحيل تحديدها. يمكن توقعها على المدى القريب، وفق القوانين الحتمية، ولا يمكن توقعها على المدى الطويل، بسبب تعقد الحقيقي - ثم فتح يديه - سيكون هناك دائماً لغز في عمق الكون.

تملئ طوماس فوق وسادته.

- أعترف أن كل هذا ملغز - قال - ولكن، هل تظن أن الحكماء المجهولين الذي وصفوا رقصة شيفا كانوا يعلمون بوجود هذا... الإيقاع الكوني؟

ابتسم تينزينغ.

- بخصوص كيف ينبغي لنا أن نفكر في العالم، قال بوذا: «نجمة عند حلول الليل، فقاعة في مجرى الماء، قبس نور في سحابة صيف، قنديل مرتعش، شبح وحلم».

تردد الزائران، وقد أربكهما الجواب.

- ماذا تعني بهذا الكلام؟

- أعني أنه لا يدرك إيقاع الكون من ليس مستنيراً. يجب أن يكون المرء بوذا كي يلاحظ هذا الإيقاع وهو ينبثق من الأشياء. فكيف يمكن لمن وضعوا الكتابات المقدسة أن يعلموا بوجود هذا

الإيقاع الكوني إن لم يكن سماعه ممكناً لمن ليس مستعداً للإصغاء؟

- ربما تكون مجرد صدفة - قال طوماس مجادلاً - ابتكروا حكاية رقصة شيفا، أسطورة تأسيسية جميلة، وبعد ذلك، بمحض الصدفة، اكتُشف أن هناك إيقاعاً في الكون.

ظل البوذيساتفا صامتاً لحظة، كأنه يفكر في الحجة.

- هل تذكران أنني قلتُ لكما إن الهندوسيين يؤكدون أن الحقيقة النهائية تسمى براهمان وأن تعدد الأشياء والأحداث التي نراها ونشعر بها من حولنا لا تعدو أن تكون تجليات مختلفة لنفس الحقيقة؟ وهل تذكران أنني قلتُ لكما إننا نحن البوذيين نؤكد أن الحقيقة النهائية تسمى دارماكايا وأن كل الأشياء مرتبطة بخيط لا يُرى، بما أن كل الأشياء ليست سوى أوجه متعددة لنفس الحقيقة؟ هل تذكران أنني قلتُ لكما إن الطاويين يدافعون عن فكرة أن التاو هو الحقيقي، ماهية الكون، الواحد الذي منه يأتي التعدد؟

- نعم.

- إذن، هل يكون من محض الصدفة أن يأتي العلم الغربي اليوم ليقول نفس الشيء الذي كان يردده حكماء الشرق قبل ألفي سنة؟  
- إنني لا أفهم - قال طوماس.  
أخذ البوذيساتفا نفساً عميقاً.

- كما تعرف، الفكر الشرقي يرى أن الحقيقي واحد وأن الأشياء المختلفة ليست سوى تجليات لنفس الحقيقة. كل شيء مرتبط.  
- نعم، لقد قلتُ هذا.

- جاءت نظرية الفوضى لتؤكد ذلك. خفقان أجنحة فراشة في هذا الفناء يؤثر على حالة الطقس في الجهة الأخرى من الكوكب.  
- هذا صحيح.

- لكن ارتباط الجزئيات ببعضها لا يقتصر على أثر الدومينو بين الأشياء، حيث كل شيء يؤثر على الآخر. في الحقيقة، ترتبط الجزئيات ارتباطاً عضوياً فيما بينها. كل شيء هو مجرد صورة مختلفة لنفس الشيء.

- هذا ما يدافع عنه الفكر الشرقي - أَلح طوماس.

- وهذا ما يؤكد العلم الغربي - قال تينزينغ مجادلاً .

بدا المؤرخ غير مصدق .

- العلم الغربي؟

- نعم .

- أين يقول العلم الغربي إن المادة مرتبطة ارتباطاً عضوياً؟ أين

يقول إن كل شيء هو مجرد صورة مختلفة لنفس الشيء؟ هذه أول مرة  
أسمع فيها شيئاً كهذا . . .

ابتسم البوذيساتفا .

- هل سبق لكما أن سمعتما عن تجربة أسبيكت؟

حرك طوماس رأسه معرباً عن جهله، لكن، وهو ينظر إلى

أريانا، بدت له الإشارة مألوفة .

- ما هذا؟ - سأل وهو يتوجه إلى التّبتّي وإلى الإيرانية في

الوقت ذاته .

- أرى أن الأنسة على علم بهذه التجربة - قال تينزينغ بنظرة

فاحصة .

- نعم - قالت مؤكدة - أي عالم فيزياء يعرف هذه التجربة .

كانت أريانا تبدو شاردة بعض الشيء . كان واضحاً أن فكرها

العلمي، في تلك اللحظة، كان يحاول أن يُقيّم تداعيات أقوال

العجوز البوذي، وخصوصاً العلاقات غير المنتظرة بين التجربة التي

ذكرها ومفهوم الدارماكايا الذي اكتشفته للتو .

- هل منكم من يستطيع أن يشرح لي هذا الأمر؟ - قال طوماس

ملحاً .

عدّل تينزينغ مرة أخرى الثوب الأرجواني الذي يغطيه ثم حدق

في طوماس .

- الآن أسبيكت عالم فيزياء فرنسي كان يقود فريق بحث في

جامعة باريس الجنوبية خلال تجربة مهمة أجريت سنة ١٩٨٢. صحيح أنه لم يتحدث عنها أحد في القنوات التلفزية أو في الصحف. فقط الفيزيائيون وبعض العملاء الآخرون كانوا يعرفونها، لكن لا تنسيا ما سأقوله لكما - ثم رفع إصبعاً - ربما سيأتي يوم تُذكر فيه تجربة أسبيكت كواحدة من أروع التجارب العلمية في القرن العشرين - ونظر إلى أريانا - هل تتفقين معي، يا آنسة؟

حركت أريانا رأسها موافقة.

- نعم.

ظَلَّت عينا البوذيساتفا مسمرتين على الإيرانية.

- هناك قول مأثور في الرّزّن يقول: «إذا صادفت في طريقك رجلاً يعرف، لا تقل شيئاً، ولا تبق صامتاً» - ثم لزم صمتاً - «لا تبق صامتاً» - كرر ثم نظر إلى أريانا وأشار إلى طوماس - «افتحي له الباب».

- هل تريد أن أصف له تجربة أسبيكت؟

ابتسم تينزينغ.

- وهناك في الرّزّن قول مأثور آخر: «عندما يدرك إنسان عادي العلم يصبح حكيماً، وعندما يدرك حكيم العلم يصبح إنساناً عادياً» - ثم أشار بإصبعه مرة أخرى إلى طوماس - اجعلي منه إنساناً عادياً.

نظرت أريانا إلى كل واحد منهما، وهي تحاول أن تنظم تفكيرها.

- تجربة أسبيكت . . . لئزّ - تمتت، ثم نظرت إلى التّبتّي كأنها تطلب منه بعض التوجيهات - لا يمكن أن نتناول تجربة أسبيكت من دون الحديث عن مفارقة إي بي آر، أليس كذلك؟

- قال ناغارجوننا: «الحكمة مثل بحيرة صافية وباردة، يمكن أن نلجها من أي جانب».

- حسناً، سألجها من جانب مفارقة إي بي آر - قررت أريانا -  
ثم التفتت نحو طوماس - أتذكرُ أنني قلتُ لك إن فيزياء الكم تتوقع  
كوناً لاحتيمياً، يكون فيه المُلاحِظُ جزءاً من الملاحظة، بينما نظرية  
النسبية تفترض كوناً حتمياً، لا تأثير فيه لدور المُلاحِظ على تصرف  
المادة؟ هل تذكُر ذلك؟  
- تماماً.

- حسناً، عندما أصبح هذا الاختلاف واضحاً، بدأ البحث عن  
طريقة لتقريب الطرفين. كان هناك افتراض، وما يزال قائماً، أنه لا  
يمكن أن تكون هناك قوانين متباينة وفق حجم المادة، بعضها خاصة  
بالعالم الأكبر وأخرى مختلفة خاصة بالعالم الأصغر. لا بدّ من  
قوانين واحدة. لكن، كيف يمكن تفسير هذه الاختلافات بين هاتين  
النظريتين؟ أثارت المشكلة سلسلة من الجدالات بين واضع نظرية  
النسبية، ألبرت أينشتاين، وأهم مُنظر لفيزياء الكم، نيلز بور. حتى  
يبرهن على سخافة تأويل نظرية الكم، أشار أينشتاين إلى جُزئية غريبة  
في هذه النظرية: أن جُزئية ما لا تقرر وضعها إلا عندما تكون تحت  
الملاحظة. إن أينشتاين، وبودولسكي وروزين هم الذين تشكل  
الحروف الأولى لأسمائهم مفارقة إي بي آر. قام هؤلاء بصيغة  
المفارقة التي تتمثل فكرتها الأساسية في قياس نظامين متفرقين،  
لكنهما كانا متحدين من قبل، لمعاينة إن كانت لهما تصرفات متشابهة  
عند ملاحظتهما. اقترح العلماء الثلاثة ما يلي: إغلاق النظامين في  
علبتين مختلفتين، ووضعهما في نقطتين مختلفتين من نفس الغرفة أو  
حتى على بعد عدة كيلومترات، ثم فتح العلبتين بشكل متزامن وقياس  
حالتهما الداخلية. إن كان تصرفهما متطابقاً بشكل تلقائي فهذا يعني  
أن النظامين قد تمكنا من التواصل بينهما بطريقة فورية. ولكن هذا  
الأمر يشكل مفارقة. لاحظ أينشتاين ومساعداه أنه لا يمكن حدوث



إرسال فوري للمعلومات ما دام أنه لا شيء ينتقل بسرعة تفوق سرعة الضوء.

- وماذا كان جواب عالم فيزياء الكم؟

- بورز؟ ردّ بورز بأنه لو كان ممكناً إنجاز تلك التجربة لتبيّن أن هناك توأماً فورياً. إن كانت الجزيئات دون الذرية غير موجودة ما دامت لا تخضع للملاحظة، قال مجادلاً، فإنه لا يمكن اعتبارها أشياء مستقلة. إن المادة، كان يقول، تشكل جزءاً من نظام غير قابل للتجزئة.

- نظام غير قابل للتجزئة - ردّد تينزينغ - غير قابل للتجزئة مثل الحقيقة النهائية للبراهمان. غير قابل للتجزئة مثل الحقيقة المترابطة بخيوط لا ترى في الدارماكايا. غير قابل للتجزئة مثل واحد التاو الذي تفرع عنه المتعدد. غير قابل للتجزئة مثل الماهية النهائية للمادة، ذلك الواحد الذي ليست الأشياء ولا الأحداث سوى تجلياته، الحقيقة الوحيدة تحت عدة أقنعة.

- بكل هدوء - تدخّل طوماس - هذا ما كانت تقوله فيزياء الكم. لكن أينشتاين كان يفكر بطريقة مختلفة، أليس كذلك؟

- تماماً - أكدت أريانا - كان أينشتاين يرى أن هذا التأويل سخيف ويعتبر أن مفارقة إي بي آر، إن جُربت، قد تبرهن على ذلك. - المشكلة أنه لم يكن من الممكن تجريب هذه المفارقة ...

- في فترة أينشتاين، لم يكن ذلك ممكناً - قالت الإيرانية - لكن، ابتداء من سنة ١٩٥٢، أشار عالم فيزياء من جامعة لندن، يدعى ديفيد بوم، إلى أن هناك طريقة لتجريب المفارقة. في سنة ١٩٦٤، كُلف عالم الفيزياء جون بيل، من المركز الأوروبي للأبحاث النووية في جنيف، بأن يبرهن بشكل منهجي كيف يتم إنجاز التجربة. لكن بيل لم ينجز التجربة التي لم تتحقق إلا في سنة

١٩٨٢ على يد آلان أسبيكت وفريقه في باريس . إنها تجربة معقدة يصعب شرحها لشخص عادي، لكنها أنجزت فعلاً.

- هل جرب الفرنسيون المفارقة؟

- نعم .

- وماذا؟

نظرت أريانا خلصة إلى تينزينغ قبل أن تجيب عن سؤال طوماس .

- كان بوز على حق .

- كان على حق؟ - قال المؤرخ - كان على حق، كيف ذلك؟

عن أي شيء كشفت التجربة؟

أخذت أريانا نفساً عميقاً .

- اكتشف أسبيكت أنه، في ظروف معينة، تتواصل الجزيئات

فيما بينها تلقائياً . هذه الجزيئات تحت الذرية يمكن أن تتواجد في

نقط مختلفة من الكون، واحدة في طرف من الكون والأخرى في

الطرف الآخر منه، ومع ذلك يكون التواصل بينها تلقائياً .

بدا المؤرخ غير مصدق .

- هذا غير ممكن - قال - لا شيء ينتقل بشكل أسرع من سرعة

الضوء .

- هذا ما يذهب إليه أينشتاين في نظرية النسبية المحدودة - ردّت

عليه الإيرانية - لكن أسبيكت أثبت أن الجزيئات الدقيقة تتواصل فيما

بينها بشكل فوري .

- ألا يمكن أن يكون هناك خطأ في تلك التجارب؟

- ولا خطأ - أكدت الإيرانية - أجريت تجارب أخرى سنة

١٩٩٨، في زوريخ وفي إنسبروك، باستعمال تقنيات أكثر تعقيداً،

وأكدت كل شيء .

حكّ طوماس رأسه .

- هل يعني هذا أن نظريات النسبية خاطئة؟

- كلا، إنها صحيحة.

- إذن، كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة؟

- هناك تفسير واحد - قالت أريانا - أكد أسبيكت خاصية من خصائص الكون. لقد أثبت بالتجربة أن الكون له روابط لا ترى، أن الأشياء ترتبط فيما بينها بطريقة غير مشكوك فيها، وأن المادة تملك نظاماً ذاتياً لا يمكن أن يتصوره أحد. وإذا كانت الجزيئات تتواصل فيما بينها عن بعد، فإن ذلك لا يُعزى إلى أي إشارة تبعث بها الواحدة إلى الأخرى. يرجع ذلك، بكل بساطة، إلى أنها تشكل كياناً واحداً. وتفرّقها مجرد وهم.

- الجزيئات تشكل كياناً واحداً؟ وتفرّقها مجرد وهم؟ لا أفهم

نظرت أريانا من حولها، وهي تحاول أن تجد طريقة جيدة لشرح معنى كلماتها.

- انظر، طوماس - قالت وهي تقبض على فكرة - هل سبق لك

أن شاهدت مباراة في كرة القدم على شاشة التلفزة؟

- نعم، طبعاً.

- أثناء بث تلفزي، هناك أحياناً عدة كاميرات تركز على نفس

اللاعب في الوقت ذاته، أليس كذلك؟ من يشاهد صور كل كاميرا ولا يعرف كيف يشتغل ذلك، قد يظن أن كل كاميرا تلتقط لاعباً مختلفاً. واحدة تُظهر اللاعب وهو ينظر شمالاً، والأخرى تقدم نفس اللاعب وهو ينظر يميناً. إن كان المشاهد لا يعرف هذا اللاعب قد يظن أن الأمر يتعلق بلاعبين مختلفين. لكن، إن نظرنا بانتباه، نلاحظ أنه بمجرد أن يقوم اللاعب بحركة نحو الجانب، يقوم اللاعب في

الصورة الأخرى بنفس الحركة على الفور، لكن نحو الجهة الأخرى. ينتج هذا، طبعاً، عن وهم. في الحقيقة، الكاميرتان تُظهران دائماً نفس اللاعب، لكن من زوايا مختلفة. هل فهمت؟

- نعم. كل هذا بديهي.

- حسناً، كان شيئاً يشبه هذا هو ما أثبتته تجربة أسبيكت فيما يتعلق بالمادة. يمكن أن يفرق الكون بكامله بين جُزئيتين دقيقتين، لكن حين تتحرك واحدة منهما فإن الأخرى تتحرك فوراً. أظن أن ذلك يحدث لأنه، في الحقيقة، لا يتعلق الأمر بجُزئيتين مختلفتين، بل بنفس الجُزئية الدقيقة. إن وجود جزئيتين اثنتين وهم، تماماً مثل وجود لاعبين اثنين تصورهما كاميرتان من زوايا مختلفة. إننا نرى دائماً نفس اللاعب، تماماً كما نرى دائماً نفس الجُزئية الدقيقة. في مستوى عميق من الحقيقة، المادة ليست فردية، بل هي صورة لوحدة أساسية.

ران صمّت.

تنحّح تينزينغ.

- إن الأشياء والأحداث التي نراها ونشعر بها من حولنا ليست سوى تجليات مختلفة لنفس الحقيقة - همهم البوذي بنبرة تأملية - كل شيء يرتبط بخيوط لا تُرى. كل الأشياء وكل الأحداث ليست سوى وجوه مختلفة لنفس الجوهر. الحقيقي هو الواحد الذي يُشتقّ منه المتعدد. وهذا هو براهمان، هذا هو دارماكايا، هذا هو التاو. النصوص المقدسة تفسر الكون - ثم أغمض عينيه واستنشق الهواء في وضعية تأملية - هذا ما نجده في براجناباراميتا، قصيدة بوذا حول جوهر كل شيء.

ثم بدأ يستظهرها، كأنه يُرتّل مانترا مقدسة:

خالية هادئة متحررة من ذاتها  
طبيعةُ الأشياء .  
لا وجود لأي كائن  
في الحقيقة .

ليست هناك من نهاية ولا من بداية،  
ولا من وسط .  
كل شيء وهم،  
مثل رؤيا أو حلم .

كل كائنات العالم  
تتجاوز عالم الكلمات .  
طبيعتها النهائية، الصافية الحقيقية،  
مثل الفضاء اللانهائي .

نظر إليه طوماس بعينين جاحظتين، وهو ما يزال غير مصدق .  
- أهكذا وصف بوذا جوهر الأشياء؟ قال متعجباً - إنه أمر لا  
يصدق!

نظر إليه البوذيساتفا بكل هدوء .  
- قال تُشو تُشو مرّة: «الطريق ليس مختلفاً، يكفي ألا تكون  
هناك إرادة أو لا إرادة» - ثم قام بحركة نحو ضيفه - «الأساتذة  
يفتحون الباب، لكن عليك أن تدخل وحدك» .  
قَطَّب طوماس حاجباً .  
- هل حان الوقت لأدخل؟  
- نعم .

- وماذا عليّ أن أفعل؟

- أن تدخل .

حدج المؤرخ البوذي بنظرة مرتبكة .

- أن أدخل؟

- هناك قول مأثور من الرّزن يقول: «اركب حصان ذهنك القوي»

- ثم ابتسم تينزينغ - لكن، بالنسبة لسفرنا، أقدم لكما وجبة خفيفة  
سوف تريح معدة الذهن .

- وجبة خفيفة؟

- نعم . لكن، لنأخذ شايّاً، أولاً . أشعر بالعطش .

- انتظر - قال طوماس - وما هي هذه الوجبة الخفيفة؟

- إنها المعادلة الإلهية .

- آه! - صاح المؤرخ - إنك لم تشرح لي بعد ما هي .

- لم أفعل شيئاً آخر غير شرحها لك . لقد سمعتني لكنك لم  
تصغ لما قلتُ .

احمرّ وجه طوماس خجلاً .

- أوه ...

- ذات مرة، جاء أينشتاين ليزورنا، أنا واليسوعي، وقال لنا:

«تحدثتُ مع رئيس وزراء إسرائيل وتقدم إليّ بطلب . ترددتُ كثيراً في  
قبول هذا الطلب، ولكني الآن قبلتُ وأريدكما أن تساعداني في هذا  
المشروع» .

- قال لكما هذا؟ طلب منكما أن تتعاوننا معه في تصميم قنبلة

نووية سهلة الصنع؟

انقبض وجه البوذيساتفا مندهشاً .

- قنبلة نووية؟ أي قنبلة نووية؟

- ألا يتعلق مشروع المعادلة الإلهية بقبلية نوية؟

نظر تينزينغ إلى طوماس بحيرة.

- طبعاً لا.

التفت طوماس على الفور نحو أريانا ولاحظ أنها كانت تشاطرة

الارتياح.

- أرايت - قال لها مبتسماً - ماذا كنت أقول لك؟

انحنت الإيرانية شيئاً ما إلى الأمام، كما لو أنها تريد أن تقبض

بشكل أحسن على ما قيل. كانت قد قرأت المخطوط وتلتهف لفهمه

أخيراً. بالإضافة إلى هذا، كان يحركها حافظ آخر: كانت تعرف أن

هذه المعلومة كانت حاسمة كي تتوقف الاستخبارات الإيرانية عن

المطاردة الحتمية التي كانت ستشرع فيها ضدها هي وضد طوماس.

لكن معرفة الحقيقة لم تكن كافية، كان عليها أن تثبتها أيضاً. لهذا

حدجت التّبي بنظرة ملؤها القلق.

- لكن، إذن، اشرح لنا - قالت مستعطفة - ما هو مشروع

المعادلة الإلهية، في نهاية المطاف؟

- قال شونريو سوزوكي: «حين تفهم شيئاً بشكل تام، ستفهم

كل شيء».

- هل يعني هذا أن فهم مشروع المعادلة الإلهية هو فهم كل

شيء؟

- نعم.

- ولكن ما هو موضوع المعادلة الإلهية؟

رفع تينزينغ ثوبتين يده، تركها تنزلق في الهواء ببطء ثم رسم

حركة رياضية صينية أنيقة قبل أن يتصلب من جديد. استنشق النسيم

المعلق فوق فناء المعبد واستشعر الدفء الممتع لأشعة الشمس

المتسربة عبر أوراق الأشجار. أشار بحركة إلى راهب كان يمر من

هناك وطلب منه أن يُحضر الشاي. بعد ذلك، استعاد وضعيته التأملية ونظر إلى الزائرين.

- إنه أكبر بحث خاض غماره الفكرُ البشري، فكَّ أكبر لغز من ألغاز الكون والكشف عن الهدف من الوجود.

كان طوماس وأريانا ينظران إليه، متطلعين، غير قادرين على إخفاء تلهفهما. أدرك البوذيساتفا القلق الذي يخنقهما وابتسم، مستعداً، أخيراً، ليكشف عن السر.

- إنه الدليل العلمي على وجود الله.



جاء راهب يحمل صينية، دنا من الشجرة، انحنى محيياً ووزع فناجين على ثلاثتهم. أخذ البوذيساتفا الغلاية وصبّ سائلاً ساخناً في كل فنجان، فتصاعد البخار من كل الفناجين. فحص طوماس الشاي، اشتم رائحته المميزة، واضطر ليشيح بوجهه حتى يخفي تكشيرة تقزز.

- شاي بشحم حيوان الياك - قال وهو يتبادل نظرة محبطة مع أريانا.

- علينا أن نتحمل - همست له خلصة - شيئاً من الصبر.

وجد الزائران صعوبة في الحفاظ على هدوئهما. كانا جد متحمسين لما سمعاه للتو من حقائق ويريدان معرفة المزيد من التفاصيل عن ذلك العمل الفريد الذي أنجزه التّبي رفقة أينشتاين. وبدل ذلك، كانا مضطرين لابتلاع ذلك الخليط الدهني المقرف.

- أيها المُعلّم - ألحّ طوماس حتى قبل أن يتذوق الشاي - اشرح لنا بماذا تتعلق المعادلة الإلهية.

أسكتهُ المضيفُ بحركة مهية.

- قال شونريو سوزوكي: «ينطوي ذهن المبتدئ على عدة إمكانيات، ولكن ذهن الحكيم ينطوي على القليل منها».

- ماذا تعني بهذا؟ - سأله طوماس، دون أن يفهم أهمية تلك الجملة في ذلك السياق.

- لو كنتم حكيمين لعرفتما أن لكل شيء وقته - قال تينزينغ - وهذا وقت الشاي.

نظر الزائر إلى فنجان به وجه مشمئز، ولم يجد نفسه قادراً على ابتلاع ذلك الشراب الدسم. هل يستطيع أن يقول شيئاً؟ أم عليه أن يشرب ويظل صامتاً؟ كيف ينبغي له أن يتصرف؟

- أيها المعلم - سأل في الأخير - أما لديك شيء آخر تقدمه لنا غير هذا . . . الشاي؟

- وأي شيء آخر تريد غير هذا الشاي؟  
- لست أدري . . . أعترف أنه بعد رحلة هذا اليوم الطويلة، أشعر بشيء من الجوع - ثم نظر إلى أريانا - وأنت، ألا تشعرين بالجوع؟

أومأت أريانا موافقة برأسها.

أصدر البوذيساتفا أوامر باللغة التبتية فاخفى الراهب على الفور. ظل تينزينغ صامتاً، مُركزاً اهتمامه على الفنجان كما لو أن الشاي كان لحظتها أهم شيء في العالم. حاول طوماس مرة أخرى أن يسأله عما حدث في برنستون، لكن المضيف بدا كأنه يتجاهله ولم يقطع صمته إلا مرة واحدة.

- هناك قول مأثور في الزن يقول: «الكلام كما الصمت يتعديان».

ولم يتكلم بعد ذلك أحد بينما كان التبتية يشرب الشاي.

أثناء ذلك، ظهر من جديد ذلك الراهب الذي أحضر الفناجين. لم يأت هذه المرة حاملاً في الصينية غلاية شاي بل صحنين يتصاعد

منهما البخار. جثا على ركبتيه قرب الزائرين وقدم صحناً لكل واحد منهما.

- توڭبا - قال مبتسماً - دي شيمبو دو.  
لم يفهم أي منهما شيئاً، لكنهما شكراه.  
- تو ديفتشي.  
ثم أشار الراهب مرة أخرى إلى الصحنين.  
- توڭبا.

فحص طوماس محتوى الصحن. كان حساء بالعجائن واللحم والخضر، يثير شكلها الشهية بشكل مدهش.

- توڭبا؟

- توڭبا.

نظر المؤرخ إلى أريانا.

- على ما يبدو، هذا الحساء يسمى توڭبا.

أكلا بشهية، ولو أنهما كانا يظنان أن ذلك يعود لما ألمّ بهما من جوع أكثر مما يعود إلى جودة الحساء. في الحقيقة، لم يكن طوماس من المتحمسين للمطبخ التّبتّي، وقد كانت إقامته القصيرة هناك كافية ليدرك أن الأطباق المحلية لم تكن متنوعة ولا غنية المذاق. بهذا المعنى، كان الغزو الصيني، الذي جلب معه عدة مطاعم من سيشوان، أمراً محموداً. وهو الشيء الجيد الوحيد الذي جلبه الغزو الصيني لأهل التّبت.

بعد أن انتهى الزائران من تناول الحساء، لاحظ أن البوذياتفا قد انتهى من شرب الشاي وبدو غارقاً في التأمل. أخذ الراهب الذي كان في خدمتهما الصحنين الفارغين، وظلا معاً جالسين هناك، ينتظران أن يحدث شيء ما.

بعد عشرين دقيقة، فتح تينزينغ عينيه .

- قال الشاعر باشو: «لا تقتف آثار القدماء، اسع إلى ما بحثوا عنه» .

- عفواً؟

- بحثُكُمَا يركز كثيراً على القدماء . يركز عليّ، على أينشتاين، على أوغوستو . لا تبحثا عن طُرفنا، ابحثا عما كنا نبحث عنه .

- ولكن ماذا لو كان بحثكم يؤدي إلى نفس هدف بحثنا؟ - سأل طوماس - أليس من الأسهل أن نبلغ وجهتنا باقتفاء آثار من وصلوا إليها من قبلنا؟

- قال كريشنامورتي: «التأمل ليس وسيلة لبلوغ غاية ما، إنه الوسيلة والغاية على حد سواء» .

- ماذا تعني بهذا الكلام؟

- أن البحث ليس فقط وسيلة لبلوغ غاية ما، بل هو الغاية نفسها . إذا أراد أحد أن يدرك الحقيقة، فعليه أن يمشي مسافة الطريق .

- فهمتُ - قال طوماس - مع الأسف، ولأسباب تتجاوزنا، الطريق الذي سلكه الأولون هو أيضاً هدف بحثنا . نريد أن نعرف الحقيقة، ولكن يجب أن نعرف أيضاً الطريق التي قطعتموها للوصول إلى هذه الحقيقة .

فكر تينزينغ لحظة في هذا الجواب .

- لديكما مبررات وعليّ أن أحترمها - أقرّ - والحقيقة أن تُساي كين تانُ قال مرة: «ما من أسماك تسبح في المياه الصافية جداً» - ثم تنهّد - أقبل أن تكون هناك مبررات تسمح بأن تكون مياهكم غير صافية تماماً وسأكشف لكما كل ما أعرفه عن هذا المشروع .

تبادل الزائران نظرة، مرتاحين لوصولهما أخيراً إلى الهدف الذي سافرا من أجله .

- خلال لقائه بأينشتاين في برنستون، طلب رئيس الوزراء الإسرائيلي من عالم الفيزياء إن كان يستطيع أن يثبت وجود أو عدم وجود الله . أجابه أينشتاين أنه يستحيل تقديم هذا الدليل . لكن، بعد عدة أيام، حتى يستريح، من دون شك، من بحثه في نظرية كل شيء، سألتني عن الأجوبة التي تقدمها روحانيات الشرق بخصوص الكون . ومثلكما تماماً، صدمه التشابه بين الكتابات المقدسة الشرقية وأحدث الاكتشافات في مجالي الفيزياء والرياضيات . وبما أنه يهودي العقيدة، راح ينقب بحماس في العهد القديم بحثاً عن خيوط مشابهة . هل يمكن أن ينطوي الكتاب المقدس بدوره على حقائق علمية؟ هل يمكن للحكمة القديمة أن تحوي من العلم أكثر من العلم نفسه؟ هل يمكن أن تكون المعرفة الروحانية أكثر معرفة مما كنا نعتقد؟

صمت لحظة وعيناه تحدقان في الزائرين . بعد ذلك، أخذ كتاباً كان بالقرب منه وعرضه عليهما .

- إنكما تعرفان هذا المؤلف، أفترض .

لاحظ طوماس وأريانا المجلد الضخم بين يدي البوذي العجوز . لم ينتبها إليه من قبل ولم يتمكننا من فك شفرات عنوانه .  
- لا .

- جلبه لي جانغبو بينما كنتما تتناولان حساء توغبا - فتح المجلد، تصفح بعض الأوراق ووجد ما كان يبحث عنه - هكذا يبدأ الكتاب، قال وهو يستعد للقراءة بصوت مرتفع . «في البدء خلق الله السماوات والأرض» . - رتل - «وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه . وقال

اللّه: ليكن نور، فكان نور.» - ثم رفع وجهه العظمي - هل تعرفتما هذا النص؟

- إنه الكتاب المقدس.

- وبالتحديد، استهلال العهد القديم، أو سفر التكوين - ثم وضع المجلد - كل هذا الجزء من النص أثار اهتمام أينشتاين أيما إثارة، لسبب خاص. هذا المقطع الأساسي، يلتقي، في خطوته الكبرى، مع فكرة البيغ بانغ - ثم ضبط صوته - يجب أن نفهم أنه في سنة ١٩٥٢، لم يكن مفهوم بداية الكون بانفجار عظيم أمراً مقبولاً حقاً في أوساط العلماء. كان البيغ بانغ فرضية من بين فرضيات أخرى، شأنها شأن نظرية الكون السرمدي. ولكن أينشتاين كانت له دوافع كثيرة كي ينحاز لنظرية البيغ بانغ. من جهة، هناك اكتشاف هابل بأن المجرات تبتعد بعضها عن بعض، وهو ما يعني أنها كانت فيما مضى متحدة، كما لو أنها انطلقت من نقطة واحدة. من جهة ثانية، كانت هناك مفارقة أولبر، التي لا تقبل الحل إلا إذا لم يكن الكون خالداً. وكان هناك مؤشر ثالث يتمثل في القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية الذي ينص على أن الكون يتطور نحو الإنتروبيا، مما يفسح المجال لافتراض أنه كانت هناك لحظة أولية من التنظيم والطاقة القصوى. وفي الأخير، هناك نظريات النسبية التي جاء بها هو نفسه، والتي تركز على فرضية أن الكون دينامي، وهو إما في حالة تمدد أو في حالة انكماش. وقد كان البيغ بانغ يتوافق مع سيناريو التمدد - علت وجهه تكشيرة - بقيت، بالطبع، مسألة معرفة ما هو ذلك العنصر الذي يعاكس الانكماش الناتج عن الجاذبية. لحلها، اقترح أينشتاين وجود طاقة مجهولة، سمّاها «الثابت الكوني». لاحقاً، استبعد هو نفسه هذه الإمكانية، قائلاً إنها كانت أكبر خطأ في حياته، لكن يفترض اليوم أن أينشتاين كان على حق

تماماً، وأن هناك، بالفعل، طاقة مجهولة تعاكس الجاذبية وتؤدي إلى التمدد المتسارع للكون. وبدل أن نسميها «الثابت الكوني» نسميها اليوم «الطاقة المظلمة» - نظر إلى مخاطبيته - هل تتابعان تفكيري؟ - نعم.

- حسناً! - صاح راضياً - كان أينشتاين يحاول أن يحدد إن كانت هناك أية حقيقة خفية في الكتاب المقدس. لم يكن يبحث عن حقائق مجازية ولا أخلاقية، بل عن حقائق علمية. فهل كان من الممكن العثور عليها في العهد القديم؟  
نظر تينزينغ إلى مخاطبيته، كأنه ينتظر منهما جواباً عن سؤاله، لكن لم يتكلم أحد منهما فتابع البوذيساتفا عرضه.

- طبعاً، كانت هناك صعوبة كبيرة في سفر التكوين. إن الآيات الأولى من الكتاب المقدس تنص، من دون أدنى شك، على أن الكون خُلق في ستة أيام. ستة أيام فقط. والحال أن هذا الأمر مناف للعقل من الناحية العلمية. طبعاً، يمكن أن نقول إن النص مجازي، وإن الله يتحدث عن ستة مراحل، وإن هذا الأمر أو ذاك، لكن أينشتاين كان يرى أن كل هذا مجرد طريقة لتحاشي طرح السؤال، حيلة تستعمل حتى يبقى الكتاب المقدس دائماً على حق بأي ثمن. وبصفته رجل علم، لم يقبل هذه المنهجية. لكن السؤال ظل مطروحاً. كان الكتاب المقدس يقول إن الكون خُلق في ستة أيام. لكن هذا كان خطأ واضحاً - لزم صمتاً - أم أنه لم يكن كذلك؟ - انتقلت عينا البوذي بين زائريه - ما رأيكما؟  
تململت أريانا في وسادتها.

- بصفتي مسلمة، لا أريد أن أناقض ما جاء في العهد القديم، الذي يعترف به الإسلام. بصفتي امرأة علم، لا أستطيع أن أؤكد، بما أن خلق العالم في ستة أيام يشكل أمراً مستحيلاً بكل وضوح.

- أفهم موقفك - قال - لا تنسَ أن أينشتاين، رغم أنه يهودي، لم يكن رجلاً متديناً. كان يعتقد أن شيئاً متسامياً يمكن أن يكون وراء الكون، لكن هذا الشيء قد لا يكون بكل تأكيد هو الله الذي أمر إبراهيم بقتل ابنه حتى يتأكد أن الشيخ العجوز كان وفيّاً له. كان أينشتاين يؤمن بالتناسق المتسامي، وليس بالقوة اللئيمة. كان يؤمن بقوة كونية، وليس بإله له ملامح بشرية. فهل كان من الممكن العثور عليها في الكتاب المقدس؟ كان كلما تعمق في تحليل الكتابات المقدسة العبرية، اقتنع بأن الجواب يختبئ في مكان ما من سفر التكوين، وخاصة في مسألة خلق العالم في ستة أيام. هل كان ممكناً خلق كل شيء في ستة أيام؟

- ماذا تقصد بعبارة «كل شيء»؟ - سألتُه أريانا - الحسابات المتعلقة بالبيغ بانغ تؤكد أن المادة بكاملها خلقت في أجزاء من الثانية. قبل أن تنتهي الثانية الأولى، كان الكون ممتداً على ملايين الكيلومترات والقوة العظمى قد انشطرت إلى قوة الجاذبية، قوة نووية قوية وقوة نووية ضعيفة.

- إنني أقصد بعبارة «كل شيء» الضوء، والنجوم، والأرض، والنباتات، والحيوانات والإنسان. يقول الكتاب المقدس إن الإنسان خلق في اليوم السادس.

- آه، ولكن هذا غير ممكن.

- هذا ما كان يعتقد أينشتاين. أن خلق «كل شيء» في ستة أيام فقط أمر مستحيل. لكن، رغم هذا الاستنتاج الأولي، اجتمع بنا، أنا واليسوعي، وطلب منا أن ننظف ذهنيّنا وأن ننطلق من مبدأ أن ذلك ممكن. فكيف نحل هذه المشكلة؟ كان بديهياً أن جوهر المسألة يكمن في تعريف ستة أيام. فماذا كانت ستة أيام؟ هذا السؤال هو



الذي قدم لأينشتاين خيلاً، فانكب على دراسة الموضوع وجرنا معه إلى القيام ببحث غير مألوف - حرك تينزينغ رأسه - من المؤسف أنني لا أتوفر هنا على نسخة من المخطوط الذي حرره. إنه شيء يبدو لي

- قرأته - قاطعته الإيرانية.

توقف العجوز التّبيّتي عن الكلام وقطّب حاجبه.

- هل قرأته؟

- نعم. قرأته.

- هل قرأتِ المخطوط الذي يحمل عنوان المعادلة الإلهية؟

- نعم.

- لكن كيف؟

- إنها قصة طويلة - أجابته - ولكني قرأته. كان المخطوط في

حوزة الأستاذ سيزا.

- هل سمح لك الأستاذ سيزا بقراءته؟

- نعم . . . سمح لي بذلك. إنها قصة طويلة، كما قلت لك.

ظل تينزينغ يُسمّر عينيه فيها، متسائلاً.

- وكيف وجدتِ المخطوط؟

- حسناً، كيف أقول . . . إنها وثيقة مذهشة. كنا ننتظر أن

ينطوي على المعادلة الخاصة بتصميم قبلة نووية سهلة الصنع، لكن

المحتوى تركنا . . . لنقل في حيرة من أمرنا. كانت هناك معادلات

وحسابات، كما هو منتظر، لكن كل شيء كان يبدو مشوشاً، من دون

معنى واضح ولا اتجاه محدد.

ابتسم البوذيساتفا.

- عادي أن يعطيك هذا الانطباع، لأن المخطوط وضع كي لا

يفهمه سوى المطلعين على السر.

- حقاً! - صاحت أريانا متعجبة - هل تعلم، تساءلنا إن لم يكن هناك مخطوط ثانٍ . . .

- أي مخطوط ثانٍ؟

- ألا يوجد مخطوط ثانٍ؟

- طبعاً، لا - ابتسم - أعترف أن هذه الوثيقة، بشكلها الملتوي، يمكن أن تخلق هذا الوهم. ولكن، في حقيقة الأمر، خضع النص لعملية تشفير دقيقة. أُخْفِيَ مضمون المخطوط بطريقة لا يستطيع معها أحد أن يشك حتى في وجود هذا المضمون.

- هذا يفسر عدة أمور! - صاحت أريانا - لكن، لماذا قام أينشتاين بذلك؟

- لأنه كان يريد أن يتم التأكد من اكتشافاته قبل نشرها.

- كيف ذلك؟

- سوف نأتي على ذلك - قال تينزينغ وهو يقوم بحركة من يده - لكن، أولاً، ربما ينبغي أن نفهم ما الذي اكتشفه أينشتاين، في نهاية المطاف.

- تماماً.

- وهو يدرس الزُّبور أو كتاب المزامير، ذلك النص العبراني الذي يعود لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، انتبه أينشتاين إلى جملة في المزمور التسعين الذي يقول تقريباً - ثم ركّز تينزينغ كي يستعيد النص من ذاكرته - ما يلي: «لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعدما مرّ، وكهزيع من الليل» - حدّق البوذي بعينه في الزائرين - هل ألف سنة هي مثل يوم ينقضي؟ هل هو مجرد مجاز؟ استنتج أينشتاين أن الأمر يتعلق بمجاز، لكن المزمور التسعين سرعان ما أحال أينشتاين على نظرياته الخاصة بالنسبية. «ألف سنة في عينيك» تمثل الزمن من

منظور أول، «يوم أمس بعدما مرّ» تمثل نفس الفترة من الزمن من منظور آخر.

- إنني لا أفهم - قال طوماس.

- المسألة بسيطة - قالت أريانا - جاحظة العينين من تحمسها للفهم. الزمن نسبي.

- كيف؟

- الزمن نسبي - كرّرت.

- الآنسة ذكيّة - قال تينزينغ - هذا بالضبط ما فكر فيه أينشتاين وهو يقرأ المزمور التسعين. الزمن نسبي. وهذا ما تقوله نظريات النسبية.

- أستسمحك، ولكن هذا يبدو حجة واهية - قال طوماس مجادلاً.

أخذ البوذيساتفا نفساً عميقاً.

- ماذا تعرف عن تصور الزمن في نظريات النسبية؟

- أعرف ما يعرفه كل الناس - قال طوماس - أعرف مفارقة التوأمين، مثلاً.

- هل يمكنك أن تقول لنا ما هي؟

- حسناً... حسب علمي، كان أينشتاين يقول إن الزمن يمضي بأشكال مختلفة من السرعة حسب سرعة الحركة في الفضاء. ولشرح ذلك، قدم مثال توأمين يفترقان. يذهب الأول في رحلة فضائية على متن صاروخ سريع جداً ويبقى الآخر على الأرض. بعد مدة شهر، يعود التوأم الذي سافر على متن الصاروخ الفضائي ليكتشف أن شقيقه قد أصبح رجلاً عجوزاً الآن. وهذا يعني أنه بينما مر شهر واحد في الصاروخ الفضائي، انقضت خمسون سنة على الأرض.

- نعم، هذا بالضبط - قال تينزينغ موافقاً - الزمن مرتبط

بالمكان مثل الين واليانغ. بتعبير تقني، لا يمكن التمييز كثيراً بين هذين الأمرين لدرجة أنه تم ابتكار مفهوم الزمكان. العامل الحاسم هو السرعة، والمرجع هو سرعة الضوء، التي توصل أينشتاين إلى أنها ثابتة. ما تكشف لنا عنه نظريات النسبية هو أن الزمن، نظراً لثبات سرعة الضوء، ليس عاماً وشاملاً. فيما مضى، كان يُعتقد أنه كان ثمة زمن وحيد وشامل، ما يشبه ساعة غير مرئية يشترك فيها الكون بكامله وتقيس الزمن بنفس الطريقة في كل الأمكنة، لكن أينشتاين أثبت أن الأمر ليس كذلك. ليس هناك من زمن وحيد وشامل. فمرور الزمن يختلف حسب وضعية وسرعة الملاحظ - وضع سبّابتي يديه جنباً إلى جنب - لنفترض وقوع حدثين، حدث «ألف» وحدث «باء». بالنسبة لمُلاحظٍ يوجد على مسافة متساوية فإن الحدثين يقعان في وقت متزامن، لكن مُلاحظاً آخر يوجد أقرب من الحدث «ألف» سوف يعتبر أن هذا الحدث وقع قبل الحدث «باء»، بينما الملاحظ الذي يوجد أقرب إلى الحدث «باء» سوف يرى عكس ذلك. وفي الحقيقة، الملاحظون الثلاثة على حق. أو أحسن من ذلك، هم على حق وفق نقطتهم المرجعية، ما دام الزمن متوقفاً على وضعية الملاحظ. ليس هناك من زمن وحيد. هل هذا واضح؟

- نعم.

- كل هذا يعني، إذن، أنه ليس هناك من زمن حاضر عام يشمل كل شيء. فحاضر ملاحظ ما هو ماضٍ ثانٍ ومستقبل ملاحظ ثالث. هل فهمت ما يعنيه ذلك؟ أن شيئاً ما لم يحدث بعد قد حدث. بين ويانغ. هذا الحدث حتمي لأنه رغم أنه وقع من قبل في نقطة معينة، ولم يقع بعد في نقطة أخرى، فإنه سيقع.

- وهذا أمر غريب، أليس كذلك؟

- غريب جداً - وافقه البوذيساتفا - ولكن هذا هو ما تقوله

نظريات النسبية. ثم إن هذا ينسجم مع تأكيد لايبلاس الذي يقول إن المستقبل، مثله مثل الماضي، يوجد محدداً سلفاً - ثم التفت نحو طوماس - بالعودة إلى مفارقة التوأمين، من المهم أن نحدد أن إدراك الزمن بالنسبة للمُلاحِظ يتوقف على السرعة التي يتحرك بها. كلما اقتربت سرعة حركة الملاحِظ من سرعة الضوء، تباطأ اشتغالُ ساعته. لكن، بالنسبة لهذا الملاحِظ، يبقى الزمن عادياً، وتظل الدقيقة هي الدقيقة. فقط من يتحرك بسرعة أقل تبدو له ساعةُ الملاحِظ السريع أكثر بطئاً. وعلى نفس المنوال، الملاحِظُ الذي يتحرك بسرعة قريبة من سرعة الضوء سيرى أن الأرض تدور حول الشمس بسرعة كبيرة جداً. وسيبدو له أن زمن الأرض يزداد سرعة، وأن سنة تنقضي في ثانية، لكن، فوق الأرض، تدوم السنة سنة واحدة.

- لكن هذا مجرد نظرية؟

- في الحقيقة، لقد تم إثبات هذا الأمر - أجاب تينزينغ - في سنة ١٩٧٢، وُضعت ساعةٌ عالية الدقة داخل طائرة فائقة السرعة، من أجل مقارنة قياس زمنها مع ساعة أخرى عالية الدقة أخرى بقيت على الأرض. عندما كانت الطائرة تحلق نحو الشرق، فقدت الساعة التي كانت على متنها ستين نانوثانية بالمقارنة مع الساعة التي بقيت فوق الأرض. وعندما توجهت الطائرة نحو الغرب، ربحت الساعة التي على متنها ستين نانوثانية. ويعزى هذا الفرق، طبعاً، إلى ارتباط سرعة الطائرة فائقة السرعة بدوران الأرض. على أي حال، أكد رواد الفضاء على متن مركبة *Space Shuttle* هذا الأمر.

- هممم ...

- حسناً، وصلنا الآن إلى النقطة الحاسمة، مسألة الجاذبية - عدل التَّبَيتي العجوز جلسته - من الأشياء التي اكتشفها أينشتاين أن

الفضاء منحني. عندما يقترب شيء ما من جسم كبير جداً، مثل الشمس تجذبه هذه الكتلة الضخمة، كأنه يقف، فجأة، على حافة خندق. وهذا ما يفسر الجاذبية. ينحني الفضاء، وبما أن الفضاء والزمن مرتبطان، فإن الزمن ينحني بدوره. إن ما كشفت عنه نظرية النسبية العامة هو أن مرور الزمن أكثر بطئاً في أماكن ذات جاذبية أقوى وأسرع في أماكن ذات جاذبية أضعف. ويؤدي هذا إلى عدة نتائج مرتبط فيما بينها. أولها أن كل شيء موجود في الفضاء له جاذبيته الخاصة، الناتجة عن مميزاته، مما يعني أن الزمن يمر بطريقة مختلفة في كل نقطة من نقط الكون. وثاني نتيجة أن الزمن على القمر أسرع من الزمن على الأرض وأن الزمن على الأرض أسرع من الزمن على الشمس. كلما ازدادت كتلة الشيء، كان الزمن بطيئاً على سطحه. وأكثر الأشياء جاذبية هي الثقوب السوداء، مما يعني أنه لو مرت مركبة فضائية بالقرب من ثقب أسود، فإن الطاقم سيرى تحت عينيه تاريخ الكون يمر سريعاً، حتى نهايته.

- هذا عجيب - قال طوماس معلقاً - ولكن، ما علاقة هذا

بسؤالنا؟

- هذا مهم كي أشرح كيف أن أينشتاين قرر أن ينطلق من مبدأ أن الستة أيام المشار إليها في خلق الكون، كما وُصف ذلك في الكتاب المقدس، ينبغي النظر إليها في ضوء العلاقة بين الزمن على الأرض والزمان في الكون. حين يتحدث العهد القديم عن يوم واحد، فإنه يشير بالطبع إلى يوم أرضي. لكن حسب نظريات النسبية، كلما زادت كتلة الشيء، كان مرور الزمن بطيئاً على سطحه. والسؤال الذي طرحه أينشتاين على نفسه هو كالتالي: كم من الوقت، على سلم الزمن الكوني، يساوي يوم أرضي واحد؟ ظل السؤال معلقاً لحظة.

- الآن بدأتُ أفهم الحسابات والمعادلات التي قرأتها في المخطوط - همهمت أريانا - كان أينشتاين يحاول أن يقيس مرور الوقت على مستوى الكون.

- تماماً - قال تينزينغ وهو يتسم. حتى الكتاب المقدس ينص على أن الأرض لم تخلق إلا في اليوم الثالث. إذن، رغم أن القياس يُقدّم وفق الأيام الأرضية، فإن العهد القديم يشير بالطبع إلى اليوم الثالث على مستوى الكون، بما أن الأرض لم تكن موجودة في اليومين الأولين.

- ولكن، ما هي النقطة المرجعية للقياس؟ - سألته الإيرانية.  
- اعتمد أينشتاين على توقع أنجز سنة ١٩٤٨ بخصوص نظرية البيغ بانغ: وجود ضوء خلفه فعل خلق الكون العظيم. كل موجة ضوء تشتغل مثل «تيك» يشكل جزءاً من «تيك تاك» كوني كبير. الموجات التي تصل إلى الأرض تمتد بقياس ٢,١٢ جزء من المليون، مقارنة مع الموجات المتولدة عن ضوء الأرض. وهذا يعني، مثلاً، أنه مقابل كل مليون ثانية على الأرض، تفقد الشمس ٢,١٢ ثانية. والسؤال هو كالتالي: إذا كانت الشمس تفقد أكثر من ثانيتين بالمقارنة مع الأرض، فكم من الزمن يفقد الكون، الذي تعتبر كتلته أكبر حجماً؟

- مهلاً - كان ردُّ فعل أريانا - حسب ما أعرف، تتغير جاذبية الكون مع مرور الزمن. في البداية، عندما كانت كل المادة مركزة، كانت الجاذبية أقوى من المراحل اللاحقة. فهل أخذ أنشتاين هذا الأمر بعين الاعتبار؟

- طبعاً، أخذه بعين الاعتبار - جمع البوذي كلتا يديه كأنه يضغط على شيء ما - عندما بدأ الكون، كانت كل المادة مركزة. مما يعني أن قوة الجاذبية الأولية كانت هائلة، وبالتالي، كان مرور

- الوقت بطيئاً جداً - تفرقت يداه ببطء - ومع تمدد المادة، تزايدت سرعة مرور الزمن، لأن الجاذبية كانت تقل.
- وإلى أي مدى كان الزمن الأولي بطيئاً؟ - ألحت الإيرانية.
- مليون مليون مرة - قال تينزينغ - وهذا الحساب تم تأكيده بقياس موجات الضوء البدائية.
- لكنه تسارع بعد ذلك.
- طبعاً.
- بأي نسبة؟
- كل مضاعفة بحجم الكون سرّعت الزمّن بعامل يساوي اثنين.
- وعن أي شيء كشفت تلك الحسابات؟
- فتح البوديساتفا ذراعيه.
- شيء عجيب! - صاح - دام اليوم الأول من الأيام المذكورة في سفر التكوين ثمانية مليارات سنة. ودام اليوم الثاني أربعة مليارات سنة، واليوم الثالث ملياري سنة، والرابع مليار سنة، والخامس خمسمئة مليون سنة، والسادس مئتين وخمسين مليون سنة.
- وكم مجموع كل هذه المدة الزمنية؟
- خمسة عشر مليار سنة.
- ظلت أريانا لحظة طويلة وهي مسمرة تنظر إلى العجوز البوذي.
- خمسة عشر مليار سنة؟
- نعم.
- ولكن، إنها مصادفة مذهلة!
- تململ طوماس في كرسيه.
- أستسمحكما - قال - هل يمكنكما أن تشرحا لي؟ أي شيء خاص هذا الذي يميز خمسة عشر مليار سنة؟
- نظرت إليه أريانا.



- ألم تفهم يا طوماس؟ يقول الكتاب المقدس إن الكون بدأ قبل خمسة عشر مليار سنة.

- وماذا؟

- كيف لماذا؟ هل تعرف الحسابات الحالية حول عمر الكون؟

- إيه... لا.

- المعطيات العلمية تُقدّر عمر الكون بين عشرة وعشرين مليار سنة. وخمسة عشر مليار سنة هي نقطة وسط. مثلاً، تشير تقديرات أخيرة صادرة عن وكالة الفضاء الأمريكية إلى أن عمر الكون يبلغ حوالي أربعة عشر مليار سنة.

- هممم - فكر طوماس - إنها مصادفة غريبة.

أحنى تينزينغ رأسه.

- هذا بالضبط ما فكر فيه أينشتاين. مصادفة غريبة. غريبة لدرجة أنها شجعت على مواصلة حساباته. فقرر أن يقارن بين كل يوم من أيام سفر التكوين والأحداث التي وقعت في الكون بالتزامن مع ذلك اليوم.

- وماذا كانت النتيجة؟ - سألته أريانا.

- أوه، أشياء مثيرة جداً - رفع البوذي إبهامه - دام اليوم الأول من الأيام المذكورة في سفر التكوين ثمانية مليارات سنة. بدأ قبل خمسة عشر مليار وسبعمئة مليون سنة وانتهى قبل سبعة مليارات وسبعمئة مليون سنة. يقول الكتاب المقدس إن الضوء قد خلق وقتئذ كما خلقت السماء والأرض. وكما نعرف، في هذه الفترة حدث البيغ بانغ وخلقت المادة. ثم تشكلت، بعد ذلك، النجوم والمجرات.

- حسناً - وافقت أريانا - وماذا بعد؟

- دام اليوم الثاني من الأيام المذكورة في سفر التكوين أربعة مليارات سنة وانتهى قبل ثلاثة مليارات وسبعمئة مليون سنة. يقول

الكتاب المقدس إن الله قد خلق السماء خلال هذا اليوم الثاني،  
ونعرف اليوم أنه خلال هذه الفترة تشكلت مجرتنا، درب التبانة،  
والشمس. بعبارة أخرى، كل ما يحيط بالأرض خلق في تلك الفترة.

- هذا مثير. وماذا وقع في اليوم الثالث؟

- دام اليوم الثالث من الأيام المذكورة في سفر التكوين ملياري  
سنة وانتهى قبل مليار وسبعمئة مليون سنة، وخلالها تشكلت الأرض  
والبحار وظهرت النباتات. تشير المعطيات العلمية إلى أن الأرض قد  
عرفت برودة خلال تلك الفترة وأن الماء ظهر في شكل سائل،  
وسرعان ما تلاه ظهور البكتيريات والأعشاب البحرية، وخاصة  
الطحالب. ودام اليوم الرابع من الأيام المذكورة في سفر التكوين  
مليار سنة، وانتهى قبل سبعمئة وخمسين مليون سنة. يقول الكتاب  
المقدس إنه خلال هذا اليوم الرابع ظهرت الأضواء في السماء، أي  
الشمس والقمر والنجوم.

- مهلاً - قال طوماس - ألم تظهر الشمس والنجوم من حولنا

في اليوم الثاني؟

- نعم - قال تينزينغ موافقاً - لكنها لم تكن تُرى.

- لم تكن تُرى؟ كيف ذلك؟ إنني لا أفهم...

- ظهرت الشمس والنجوم في مجرة درب التبانة خلال اليوم

الثاني من الأيام المذكورة في الكتاب المقدس، قبل حوالي سبعة

مليارات سنة، لكنها لم تكن تُرى من الأرض. يقول الكتاب

المقدس إنها لم تصبح مرئية إلا في اليوم الرابع. ويصادف اليوم

الرابع، بالضبط، الفترة التي أصبح فيها جو الأرض شفافاً ليسمح

برؤية السماء. كما يصادف أيضاً الفترة التي بدأ فيها التركيب الضوئي

يبيث الأوكسيجين في الهواء.

- آه، فهمتُ.

أخذ تينزينغ المجلد الضخم بالقرب منه ونظر إلى الصفحات الأولى.

- استمر اليوم الخامس خمسمئة مليون سنة وانتهى قبل مئة وخمسين مليون سنة - ثم وضع إصبعه على سطر في النص - لقد كُتِبَ هنا أنه في اليوم الخامس قال الله: «لَتَقْفِضَ الْمِيَاهُ زَحَافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلَيَطِرُّ طَيْرٌ فَوْقَ الْأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلْدِ السَّمَاءِ» - ثم نظر إلى الزائرين - وكما يمكن أن نرى، تشير الدراسات الجيولوجية والبيولوجية إلى أن هذه الفترة عرفت ظهور الحيوانات ذات الخلايا المتعددة وظهور الحياة البحرية، بالإضافة إلى أولى الحيوانات الطائرة.

- هذا مذهش.

- ونصل إلى اليوم السادس، الذي بدأ قبل مئتين وخمسين مليون سنة - ونزل التَّيْتِي بعض السطور بإصبعه - حسب ما جاء في الكتاب المقدس، يقول الله: «لِتُخْرِجِ الْأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجَنَسِهَا: بِهَائِمٍ، وَدِبَابَاتٍ، وَوَحُوشٍ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا» - ثم، بعد ذلك، أردف: «نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ» - ثم رفع رأسه - هذا مثير، أليس كذلك؟

- لكن الحيوانات كانت موجودة منذ أكثر من مئتين وخمسين مليون سنة - قالت أريانا مجادلة.

- طبعاً، كانت موجودة - وافقها تينزينغ - لكنها لم تكن هي هذه الحيوانات التي نعرفها اليوم.

- ماذا تعني؟

حدَّق البوذيساتفا بعينه في أريانا.

- أخبريني أنستي، هل تعرفين ما حدث قبل مئتين وخمسين مليون سنة بالضبط، من الناحية البيولوجية؟

- حسناً . . . حصل انقراض كبير، أليس كذلك؟

- تماماً. قبل مئتين وخمسين مليون سنة حدث أكبر انقراض معروف طال أنواع الحيوانات. لسبب ما يزال مجهولاً، لكن البعض يفترضون أنه مرتبط باصطدام جسم سماوي كبير في القطب الجنوبي. بين عشية وضحاها، اختفت خمسة وثمانون في المئة من الأنواع الحيوانية. بل انقرض ثلث الحشرات المعروفة أيضاً. كاد هذا الانقراض يقضي على الحياة فوق وجه الأرض. وقعت هذه الكارثة العظمى قبل مئتين وخمسين مليون سنة بالضبط. بشكل غريب، صادف ذلك بداية اليوم السادس من الأيام المذكورة في الكتاب المقدس - ترك فكرته تأخذ مكانها - بعد هذا الانقراض الكبير، عرفت الأرض إعماراً جديداً - نظر من جديد إلى الكتاب المفتوح بين يديه - هل سبق لك أن لاحظت هذه الإشارة الصريحة في الكتاب المقدس إلى الزواحف حسب أنواعها؟

- هل تكون هي الديناصورات؟

- تعطي هذا الانطباع، أليس كذلك؟ ثم إن ذلك يصادف الفترة. ولاحظي أيضاً أن الإنسان يظهر في الأخير، عند نهاية سلسلة التطور.

- هذا . . . مدهش - علقت أريانا - لكن، هل تظن أن هذا يعني أنه كان هناك خلق ولم يكن هناك تطور؟

- حماقة! - ردّ تينزينغ. طبعاً، كان هناك تطوّر. لكن المهم في عمل أينشتاين أن التاريخ التوراتي للكون ينسجم مع تاريخه العلمي، بعد قياس الزمن وفق ترددات الضوء في نظرية البيغ بانغ. تنحج طوماس.

- إذن، هل هذا هو محتوى مخطوط أينشتاين؟

- نعم.

- وهذا يعني أنه كان يرى أن الكتاب المقدس على صواب

# مكتبة

t.me/t\_pdf

حرك البوذيساتفا رأسه .

- ليس هذا بالضبط

- لا؟ وماذا؟

- لم يكن أينشتاين يؤمن بإله الكتاب المقدس ، لم يكن يؤمن بإله لثيم ، غيور ومغرور يشترط العبادة والوفاء . كان يرى أن إله الكتاب المقدس من صُنْع الإنسان . لكن ، في الوقت ذاته ، توصل إلى أن حكمة القدماء تنطوي على حقائق عميقة وبدأ يؤمن بأن العهد القديم يخفي سرّاً عظيماً .

- سرّاً عظيماً؟ أي سر؟

- الدليل على وجود الله .

- أي إله؟ الإله اللثيم ، الغيور والمغرور؟

- لا . الإله الحقيقي . تلك القوة الذكية التي هي وراء كل شيء .

براهمان ، دارماكايا وتاو . الواحد الذي يتجلى متعددأ . الماضي والمستقبل ، ألفا وأوميغا ، اليبين واليانغ . ذلك الذي يظهر تحت ألف اسم ليست سوى اسم واحد . ذلك الذي يرتدي ملابس شيفا ويؤدي رقصة الكون . ذلك الثابت غير الدائم ، الكبير الصغير ، الخالد العابر ، الحياة والموت ، كل شيء ولا شيء - وبحركة من ذراعيه شمل كل شيء من حوله - الله .

- هل كان أينشتاين يعتقد أن العهد القديم يخفي دليل وجود

الله؟

- لا .

نظر طوماس إلى تينزينغ مرتبكاً .

- اسمح لي، لم أعد أفهم شيئاً. يبدو لي أنك قلت إن أينشتاين كان يؤمن بأن الكتاب المقدس يخفي هذا السر.
- بدأ يؤمن بذلك، نعم.
- وبعد ذلك، لم يعد يؤمن؟
- لا.
- وماذا؟ لم أعد أفهم . . .
- ما حدث أن الموضوع لم يعد بالنسبة إليه مسألة إيمان.
- كيف ذلك؟
- لقد اكتشف أينشتاين ذلك الدليل.
- ران صمّتٌ قصير، حاول خلاله طوماس أن يستوعب نتائج هذا الإفصاح.

- هل اكتشف الدليل؟

- نعم.

- دليل وجود الله؟

- نعم.

- هل أنت متأكد؟

- تماماً. وجد المعادلة التي يركز عليها كل شيء. المعادلة التي يتولد عنها الكون، تلك التي تفسر الوجود، وتجعل من الله ما هو.

نظر طوماس وأريانا إلى بعضهما. كانت الإيرانية تبدو حائرة، لكنها لم تقم بأي تعليق. حدق طوماس مرة أخرى في التّبيتي العجوز.

- وأين توجد هذه المعادلة؟

- في المخطوط.

- في *Die Gottesformel* ؟

- نعم .

التفت طوماس مرة أخرى نحو أريانا . هزّت المرأة كتفيها كأنها تقول إنها لم تجد شيئاً عندما قرأت الوثيقة .

- في أي مكان من الوثيقة توجد المعادلة؟  
- إنها مخبأة .

حكّ المؤرخ ذقنه ، مفكراً .

- لكن ، لأي سبب خبأها أينشتاين؟ ألا تظن أنه لو اكتشف حقاً الدليل على وجود الله ، فإنه من الطبيعي أن ينشره حتى يعرفه الجميع؟ لأي سبب يكون قد أخفى اكتشافاً بهذا الحجم؟  
- لأنه كان بحاجة إلى أن يتأكد من بعض الأمور .

- إلى أن يتأكد من أي شيء؟

أخذ تينزينغ نفساً عميقاً .

- أنجز كلُّ هذا العمل بين سنتي ١٩٥١ و ١٩٥٥ ، سنة وفاة أينشتاين . المشكلة أن تلك الترددات الضوئية الناتجة عن البيغ بانغ لم تكن وقتها سوى توقع نظري صدر قبيل ذلك ، سنة ١٩٤٨ . فكيف يمكن لصاحب نظريات النسبية أن يؤكد بشكل قاطع أن أيام الخلق الستة في سفر التكوين تتوافق مع خمسة عشر مليار سنة لوجود الكون ، ما دامت تلك الحسابات تركز على توقع ترددات يقتصر وجودها على مجرد فرضية أكاديمية؟ وعلاوة على ذلك ، لم تكن وقتذاك حسابات عُمر الكون دقيقة كهذه التي تتوفر عليها اليوم . يجب ألا ننسى ، من جهة أخرى ، أن العلماء في تلك الفترة كانوا يساوون بين نظرية البيغ بانغ ونظرية الكون الخالد . في مثل هذه الظروف ، كيف كان لأينشتاين أن يغامر بسمعته؟

حرك طوماس رأسه موافقاً .

- لقد فهمتُ . . .

- رأى أينشتاين أنه لا يمكن أن يكون موضوع تهكم ولذلك اتخذ احترازين. الأول، أنه ترك كل اكتشافاته مسجلة في مخطوط سمّاه *Die Gottesformel*. لكنه خشي أن تقع الوثيقة بين أيادي شريرة، فحرص على أن يشقّر النص بدقة حتى يمنع أي شخص آخر غير أوغوستو وأنا، من فهم الوثيقة. وكإجراء إضافي، قام بتشفير صريح لدليل وجود الله، مستعملاً تشفيراً مضاعفاً.

- تشفيراً مضاعفاً؟

- نعم.

- وما هو مفتاح هذا التشفير؟

- لا أعرفه. كل ما أعرفه هو أن المفتاح الأول له علاقة

باسمه.

- باسم أينشتاين؟

- نعم.

- هممم - همهم طوماس مفكراً في هذه المعلومة - يجب أن

أنظر إلى هذا الأمر بعناية - ثم حدق بعينه من جديد في التّبيتي -

وأين توجد هذه الرسالة المشفرة؟ هل يتعلق الأمر بتلك المعادلة التي

حررت في نهاية الوثيقة تقريباً؟

- نعم.

- تلك التي تقول *see sign*، وتليها بعض الحروف؟

- تماماً.

- يتعلق الأمر بستة حروف في مجموعتين، مسبوقتين بعلامة

تعجب - تذكرت أريانا التي كانت تحفظ المتوالية عن ظهر قلب. -

«!ya ovqo».

- لا بدّ أنه كذلك - اعترف تينزينغ - لا أذكر ذلك جيداً،

أتعرفان. مرت سنوات كثيرة.



- أنا أتفهم ذلك - قال طوماس - أهدان هما الاحترازان اللذان اتخذهما أينشتاين؟

- كلا - قال التّبيّ - لم يكن تشفير السر سوى الاحتراز الأول الذي اتخذته. لم يكن أينشتاين يريد أن يخاطر بأي شيء، وحين سلمنا المخطوط، فرض علينا التزاماً آخر. لا يمكن الكشف عن الوثيقة إلا بعد أن تتأكد نظرية البيغ بانغ وتردّدات الضوء التي اكتُشفت. من جهة أخرى، فرض علينا أن نواصل الأبحاث لنجد طريقاً أخرى تثبت وجود الله.

- طريقاً أخرى؟ أي طريق؟

- كان علينا أن نكتشفها بأنفسنا - ردّ تينزينغ. يقول لاو تسو: «عندما تصل طريق ما إلى نهايتها، غير الاتجاه، ثم تابع السير قُدماً».

- وماذا يعني هذا؟

- أوغوستو وأنا اتبعنا طريقين مختلفين كي نصل إلى نفس الهدف. بعد موت أينشتاين، عدتُ إلى التّبيّ لآتي إلى هنا، إلى هذا الدير في تاشيلومبو، حيث استكشفت طريقي الخاصة لتأكيد وجود الله. بعد حياة من التأمّل، أدركت الاستنارة. انصهرت في الدارماكايا وأصبحت بوذيساتفا.

- والأستاذ سيزا؟

- اتبع أوغوستو طريقه. احتفظ بالمخطوط واستكشفت طريقه الخاص لتأكيد وجود الله.

- وماذا كانت طريقه؟

- طريق سيزا كانت هي طريق علوم الغرب، بطبيعة الحال. طريق الفيزياء والرياضيات

- وماذا حدث بعد ذلك؟

ابتسم تيزينغ.

- وأخيراً، أصبحت تلك الشروط التي وضعها أينشتاين لنشر المخطوط متوفرة.

- آه، نعم؟

- حدثت الخطوة الأولى بعد عشر سنوات على وفاة أينشتاين.

في سنة ١٩٦٥، كان عالمان فلكيان أمريكيان يجربان صحنًا خاصاً بالاتصالات في نيوجرسي، عندما اكتشفا بالصدفة الضوء الأولي الذي توقعته نظرية البيغ بانغ واستعمله أينشتاين في حساب عمر الكون. هذه الظاهرة تسمى اليوم «الإشعاع الكوني العميق» وتشكل الموجات الدقيقة لأول ضوء صدر عن الكون ووصل إلينا. هي عبارة عن صدى البيغ بانغ لكنها يمكن أن تشتغل مثل ساعة كونية.

- سمعتُ بذلك - قال طوماس وهو يتذكر تلك القصة - أليس

هو ذلك الضجيج الذي يظهر على شاشة التلفزة عندما لا تلتقط أي قناة؟

- نعم - أكد له التّبيّي - واحد في المئة من هذا الضجيج يأتي

من الإشعاع الكوني العميق.

- إذن، اكتشاف الضوء الأولي كان يفني بشروط نشر المخطوط

- لا. لم يكن هذا يفني سوى بالشرط الأول. كان ينقص الشرط

الثاني.

- اكتشاف طريق ثانٍ يثبت وجود الله؟

- نعم - رفع تيزينغ يده إلى صدره - عبر الطريق النبيل الثماني

المقدس لبوذا، اتبعت طريقي واستوفيت هذا الشرط.

- والأستاذ سيزا؟

- تابع طريقه في جامعة كويمبرا.

- وهل استوفى الشرط الثاني؟
- استغرق البوذيساتفا وقتاً طويلاً قبل أن يجيب.
- نعم - قال، في الأخير.
- انحنى طوماس وأريانا نحو الأمام جد متبهين.
- لكن، كيف؟
- تنهّد تيزينغ.

- في بداية هذه السنة، تسلّمت بطاقة بريدية من صديقي أوغوستو يبلغني فيها بهذا الخبر. كما قال لي إن الشرطين اللذين وضعهما معلمنا الكبير سنة ١٩٥٥ كانا مستوفيين. كما تتصوران، كنت مسروراً لذلك وأجبتة على الفور، ودعوته ليزورني كي نشارك معاً هذا الخبر السار.

- رأيت هذه البطاقة البريدية - قال طوماس - وهل جاء إلى هنا؟

مدّ العجوز التّبي ذراعه وداعب الشجرة بيده.

- نعم. جاء إلى تاشيلومبو وجلسنا معاً تحت هذه الشجرة بالضبط.

- وماذا؟

- بخصوص الاحتراز الأول، ظهرت معطيات إضافية جديدة. أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية قمراً اصطناعياً يدعى «كوبي» لقياس الإشعاع الكوني العميق خارج جو الأرض، فكشف سنة ١٩٨٩ عن تغيرات دقيقة في حرارة هذا الإشعاع تساوي تقلبات كثافة المادة التي تفسر نشأة النجوم والمجرات. وهناك قمر اصطناعي أكثر تطوراً، يدعى WMAP، بدأ منذ سنة ٢٠٠٣ يُرسل معطيات خاصة بالإشعاع الكوني العميق، كاشفاً عن حقائق أكثر دقة عن نشأة الكون. هذه

المعلومات الحديثة تؤكد أن الكون ظهر انطلاقاً من تضخم قوي حدث قبل حوالي أربعة عشر مليار سنة.

- والشرط الثاني؟

- أخبرني أوغوستو أنه أنهى دراساته الخاصة بالطريق الثاني.

هناك اليوم طريقة ثانية لإثبات وجود الله إثباتاً علمياً.

- وما هي؟

فتح البوذيساتفا ذراعيه في حركة تنم عن العجز.

- لم يحدثني عنها. قال لي فقط إنه يستعد للقيام بإعلان عام

ويريدني أن أستجيب لدعوات الأوساط العلمية، وأؤكد أنني كنت شاهداً على عمل أينشتاين.

- وماذا كان ردك؟

- قبلت الدعوة، بطبيعة الحال. إذا كان كل ما يطلبه مني هو أن

أقول الحقيقة، فقد كنت مستعداً للقيام بذلك.

رآن صمّت.

- وماذا كان هذا الدليل الثاني؟

- لا أعرف.

تبادل طوماس وأريانا نظرة أخرى، وهما يشعران أنهما قريبان

جداً من الهدف.

- هل ثمة وسيلة لمعرفة هذا الدليل؟

- نعم.

- عفواً؟

- نعم. هناك وسيلة لمعرفته.

- وما هي؟

- قال ناغارجوننا: «الاعتماد المتبادل هو منبع الكائن وطبيعة

الأشياء، التي لا وجود لها بذاتها».

- ماذا تعني بهذا الكلام؟

ابتسم البوذيساتفا .

- كان للأستاذ سيزا أستاذ مساعد يعتمد عليه .

- الأستاذ لويس روشا - قال طوماس - أعرفه . أي شيء خاص

يميزه؟

- هو من يعرف كل شيء .

# 35

كان طابور الانتظار الخاص بالزوار الوافدين من خارج الاتحاد الأوروبي طويلاً وبطيئاً، لكن طوماس كان يحتفظ بأمل تجاوز هذه المشكلة. ترك أريانا في الصف واقترب من شبابيك شرطة الجمارك ليرى إن كانت الإجراءات التي اتخذوها قبل مغادرة لاسا قد أتت أكلها. لم ير الشخص الذي كان في انتظاره، فانزعج وأخذ هاتفه المحمول وبحث عن رقم. كان عليه أن ينتظر أن يلتقط الجهازُ التغطية، وحين شرع في تركيب الرقم، ظهر ذلك الوجه المألوف الذي كان ينتظره.

- أهلاً، طوماس - حياه غريغ سوليفان - دائماً بتلك الهيئة الفريدة التي تجعله يشبه واحداً من جماعة المورمون - ها أنذا. تنهّد عالم فكّ التشفير شبه مرتاح.

- أهلاً غريغ! - صاح وعلى وجهه ابتسامة عريضة - هل كل الأمور مرتبة؟

أشار الملحق الأمريكي إلى رجل قصير القامة، له شارب أسود وبطن مُدوّر؛ واجتازا معاً منطقة الجمارك ليلتحقا بطوماس.

- هذا هو السيد موريرا، مدير مصلحة الأجانب والحدود في المطار - قال غريغ وهو يقدم الغريب.

تبادلا التحية ودخل موريرا مباشرة في صلب الموضوع.

- أين هي المرأة المعنية بالأمر؟ - سأل وهو يحدق في صف المسافرين من خارج الاتحاد الأوروبي.

قام طوماس بحركة من رأسه فغادرت أريانا الطابور لتلتحق بالرجال الثلاثة. بعد التقديم، قادهم موريرا نحو منطقة الجمارك ثم توجه نحو مكتب صغير، وترك الإيرانية لتدخل هي الأولى. تقدم طوماس خطوة ليتبعها بيد أن الرجل القصير وقف في طريقه.

- أريد فقط أن أقوم بالإجراءات الإدارية مع السيدة - قال بأدب وحزم - يمكنكما أن تنتظرا هنا.

منزعجاً، بقي طوماس وراء الزجاج، ينظر إلى أريانا وهي تملأ مطبوعات لا تحصى كان موريرا يمدّها بها.

- كل شيء مرتب - قال غريغ. هدى من روعك.

- أتمنى ذلك.

عدل الأمريكي ربطة عنقه الحمراء.

- طوماس، اشرح لي بشكل أحسن ما يحدث. عندما اتصلت بي من لاسا، أعترف أنني لم أفهم جيداً كل التفاصيل.

- لم تفهم كل التفاصيل لأنني لم أقدمها لك. لم يكن ذلك ممكناً عبر الهاتف.

- طبعاً. ولكن ماذا يجري؟

- ما يجري هو أننا جميعاً كنا نبحث عن شيء لا وجود له.

- آه، نعم؟

- معادلة لصنع قبلة نووية سهلة الصنع. هذه المعادلة لا وجود

لها.

لا وجود لها؟ كيف ذلك؟

- لا وجود لها، أؤكد لك ذلك.

- إذن، عمّ يتحدث هذا المخطوط الذي يشغل كثيراً بال  
بيلامي؟

- إنه وثيقة علمية مشفرة أثبت فيها أينشتاين أن الكتاب المقدس  
سجل تاريخ الكون وأدرج فيه معادلة يعتقد أنها تثبت وجود الله.  
علت وجه غريغ تكشيرة عدم تصديق.

- ولكن، عن أي شيء يتحدث هنا؟  
- إنني أتحدث عن المعادلة الإلهية. مخطوط أينشتاين الذي  
يحتفظ به الإيرانيون ليس وثيقة عن الأسلحة النووية، كما كنا نعتقد،  
بل نصاً يتناول مسألة الله والدليل الذي يقدمه الكتاب المقدس على  
وجوده.

حرك الأمريكي رأسه، كأنه يوقظ خلايا دماغه النائمة.  
- آسف، طوماس، ولكن هذا الأمر ليس له أي معنى. هل  
تخيل أينشتاين يحزر نصاً ليقول لنا إن الكتاب المقدس يثبت وجود  
الله؟ أي طفل في المدرسة الابتدائية يمكن أن يقول لك . . .

- غريغ، إنك لاتفهم - قال طوماس ملحاً وقد نال منه القلق  
والتعب ما نالا - اكتشف أينشتاين أن الكتاب المقدس يصف خلق  
الكون من خلال معلومات لم يتأكد منها العلم إلا أخيراً. مثلاً، يقر  
الكتاب المقدس أن البيغ بانغ حدث قبل خمسة عشر مليار سنة،  
وهو الأمر الذي أكدته أخيراً الأقمار الاصطناعية التي حللت الإشعاع  
الكوني العميق. المسألة هي كما يلي: كيف كان يمكن لمؤلفي العهد  
القديم أن يعرفوا هذا قبل آلاف السنين؟

لزم غريغ صمتاً يطبعه الشك.  
- هل يقول الكتاب المقدس إن البيغ بانغ حدث قبل خمسة  
عشر مليار سنة؟ - قال متعجباً. لم يسبق لي أن سمعت بشيء كهذا  
- ثم علت وجهه تكشيرة - لا أتذكر سوى ستة أيام من الخلق.



تَهْدِ طوماس من الحق.

- دع عنك هذا الآن. سوف أشرح لك كل شيء بالتفصيل لاحقاً

- اتفقنا. ما يهمني هنا هو مسألة القنبلة النووية. هل أنت متأكد أن مخطوط أينشتاين لا يحتوي على معادلة صنع القنبلة النووية؟  
- متأكد.

- هل قرأت المخطوط؟

- طبعاً اطلعت عليه. لقد ذهبت إلى طهران.

- أعرف ذلك. لكنني أريد أن أعرف إن كنت قد قرأته؟

- لا، لم أقرأه.

- إذن، كيف يمكن أن تكون متأكداً مما تقول؟

- لأنني تحدثتُ مع عالم فيزياء سابق من التَّبِتِ اشتغل مع أينشتاين والأستاذ سيزا في برنستون.

- وأخبرك أن المخطوط لا يتناول موضوع القنبلة النووية؟

- هذا ما قاله لي.

- وهل تأكدت من هذه المعلومة؟

- نعم، تأكدت منها.

- كيف؟

وبرأسه أشار طوماس إلى مكتب مدير مصلحة الأجانب والحدود.

- لقد قرأت أريانا المخطوط الأصلي وأكدت لي أن المعلومات متوافقة.

التفت غريغ برأسه ونظر إلى الإيرانية التي كانت تملأ وثائق الجمارك.

- هل قرأت هي المخطوط؟

- نعم .

ظل الملحق لحظة طويلة وهو يحدق في أريانا، ثم اتخذ قراراً .  
- اسمح لي - قال لطوماس - ولكن ينبغي أن أرتب بعض

التفاصيل .

أخرج الهاتف المحمول من جيبه، ابتعد واختفى في ممر من  
ممرات مطار لشبونة .

استغرقت الإجراءات الإدارية وقتاً طويلاً . أثناء ذلك، عاد  
غريغ، وناداه مدير مصلحة الأجانب والحدود . رأهما طوماس  
يتحدثان خلف الزجاج، إلى أن ودع موريرا سوليفان والإيرانية .  
- سوف تبقى الآن تحت حمايتنا - قال غريغ وهو يغادر  
المكتب .

- كيف ذلك، تحت حمايتكم؟ - قال طوماس متعجباً .

- أعني تحت حماية السفارة الأمريكية .

نظر المؤرخ إلى الملحق حائراً .

- إنني لا أفهم! - صاح متعجباً - هل الوثائق غير قانونية؟

- إنها قانونية بطبيعة الحال . لكنها ستبقى تحت حمايتنا .

سنأخذها الآن إلى السفارة .

نظر طوماس إلى أريانا، التي كانت تبدو مفزوعة، ثم نظر من

جديد إلى غريغ، دون أن يفهم فعلاً ما يجري .

- تأخذونها إلى السفارة؟

هزّ الملحق كتفيه .

- ينبغي أن نستجوبها؟

- تستجوبونها؟ ولكن . . . عن أي شيء؟

وضع غريغ يده على كتف طوماس، بطريقة شبه أبوية .

- اسمع، طوماس. الأستاذة أريانا باكرافان شخص له مسؤوليات داخل البرنامج النووي الإيراني. يجب أن نستجوبها. وكفى.

- لكن ماذا تعني باستجوبها؟ هل ستحدثون معها لمدة ساعة؟  
- كلا. سوف نستجوبها لعدة أيام.

فتح طوماس فمه حائراً.

- تستجوبونها لعدة أيام؟ لا تفكروا في ذلك! - مدّ ذراعه وأخذ يد أريانا - تعالي، سنذهب.

سحبها بنية مواصلة الطريق، لكن غريغ أوقفه.

- طوماس، لا تعقد الأمور، من فضلك.

نظر إليه المؤرخ بوجه غاضب.

- اسمح لي يا غريغ، ولكنك مخطئ. أنتم من تعقدون كل ما هو بسيط للغاية ...

- اسمع، طوماس ...

- لا، أنت من يسمعي - وأشار بإصبعه إلى صدر الملحق - عبر الهاتف، اتفقنا على أن تأتي أريانا إلى البرتغال وأن ترتبوا أنتم كل شيء؛ اتفقنا على أن تتمتع بحريتها وأن تحظى بحمايتكم في حالة تهديد من الإيرانيين. أناشدكم أن تفوا بوعدكم.

- طوماس - قال غريغ بكل صبر - هذا الاتفاق كان يشترط أن نُقدّم لنا سرّ مخطوط أينشتاين.

- وهذا ما قمتُ به.

- في هذه الحالة، ما هي المعادلة الإلهية؟

ظل طوماس جامداً، يبحث عن جواب في ذهنه دون أن يجده.

- حسناً ... لم أفك شفرتها بعد.

تهلل وجه غريغ بابتسامة انتصار.

مكتبة

t.me/t\_pdf

- رأيت؟ إنك لم تف بتعهدك.

- ولكنني سأفعل.

- أصدق كلامك. فقط، هذا لم ينجز بعد. وما دمت لم تف

بتعهدك، لا يمكنك أن تطالبنا بأي شيء.

لم يطلق طوماس يد أريانا، التي كانت عيناها تستجديانه.

- اسمع، يا غريغ. بسبب هذه القصة، قضيت بضعة أيام داخل

سجن في طهران واحتطفني حراس إيرانيون في لاسا. ثم إن هؤلاء

المجانين ما زالوا يتعقبونني، لذا أطلب منك أن تصدق بأنه لا أحد

أكثر تحفظاً مني للكشف عن هذا اللغز ووضع حد لهذه الوضعية. بعد

كل ما عانيت، الشيء الوحيد الذي أطلبه هو أن تتركوا أريانا لتأتي

معي إلى كويمبرا. فهل استكثرتم عليّ هذا الطلب؟

لحظتها جاء رجلان قويا البنية ووجهها تحية عسكرية إلى غريغ.

على ما يبدو، كانا رجلين من رجال الأمن الأمريكيين، ربما يكونان

عسكريين في زي مدني تابعين لسفارة الولايات المتحدة في لشبونة،

تم استدعاؤهما إلى المطار لمرافقة الإيرانية.

عانق طوماس الإيرانية بسرعة، كأنه بذلك يلتزم بجدية أن

يحميها. نظر الملحق الثقافي إلى الثنائي وحرك رأسه.

- أفهم جيداً، حقاً - قال - لكن لدي أوامر وعليّ أن أنفذها.

أخبرتهم في لانغلي بكل ما قلته لي، فاتصلوا بالسلطات البرتغالية

وأصدروا لي أوامر جديدة. الأستاذة باكرافان ضيفتنا وعليها أن

ترافقني إلى السفارة.

- لا تعولوا على ذلك.

- سوف تأتي معنا. شاءت ذلك أم أبت.

أمسك طوماس بقوة أكبر معصم أريانا.

- لا.

أخذ الأمريكي نفساً عميقاً .

- طوماس ، لا تُعقّد الأمور أكثر من هذا .

- أنتم من تجعلون الأمور أكثر تعقيداً .

ثم أشار غريغ برأسه إلى رجلي الأمن اللذين انقضّا على طوماس ولويا ذراعه . تلوى المؤرخ وهو يحاول يائساً أن يخلص ذراعه ، لكنه تلقى ضربة على رقبته وسقط على الأرض . سمع أريانا تصيح ، وحاول أن ينهض ، لكن ذراعاً قويةً كالحديد أمسكته وشلّت حركته .

- لا تشغل بالك يا طوماس - سمعها تقول بصوت هادئ بشكل غريب يكاد يكون أمومياً - سوف يمر كل شيء على أحسن ما يرام ، لا تقلق - ثم بنبرة حادة - وأنتما دعاهُ وشأنهُ ، هل سمعتما؟ لا تلحقا به أي سوء .

- لا تشغلي لذلك يا أستاذة . سيكون بخير . تعالي معي .

- ارفع يدك عني أيها الخنزير . أنا أعرف كيف أمشي وحدي .

ثم ابتعدت الأصوات حتى لم تعد تُسمع . حينئذ فقط قام رجل أمن كان يمسك بطوماس على الأرض ، ووجهه على الأرضية الباردة ، بإطلاقه والسماح له برفع رأسه كي يرى ما حوله . شعر طوماس بدوخة وحاول أن يجد الاتجاهات . رأى مسافرين يدفعون عربات وحقائب ينظرون إليه نظرة لوم . لمحَ رجلَ الأمن الأمريكي يبتعد بهدوء عبر الممر ، نحو منطقة سحب الأمتعة . نظر في كل الاتجاهات بحثاً عن طيف أريانا الأليف لكنه لم ير لها أثراً . نهض بصعوبة ، وهو يغالب دوخة جديدة ، جال بعينيه في المحطة حتى اضطر لتقبل الأمر البديهي .

اختفت أريانا .

قضى طوماس الساعة التالية في إجراء اتصالات هاتفية محمومة. اتصل من جديد بمدير مصلحة الأجانب والحدود ثم اتصل بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية. حاول أن يقنع إدارة مؤسسة غولبنكيان ورئاسة جامعة لشبونة الجديدة باستعمال نفوذهما. بل اتصل كذلك بوكالة المخابرات الأمريكية في لانغلي وحاول أن يتحدث مع فرانك بيلامي.

فشلت كل مساعيه.

في الحقيقة، لقد اختطفوا منه أريانا للتو فأصبحت الآن بعيدة عن متناوله. كأن سوراً انتصب فجأة من حول المرأة التي يحبها. سوراً ليس سوى سور سفارة الولايات المتحدة في لشبونة.

جلس فوق مقعد في منطقة وصول المسافرين وفرك وجهه بيديه. شعر باليأس والعجز. ما الذي يستطيع أن يقوم به الآن. كيف كان شعور أريانا؟ هل كانت تشعر بالخيانة؟ حلٌّ واحد كان يفرض نفسه. عليه أن يكشف عن سر مخطوط أينشتاين. لم يعد له خيار آخر.

لكن، كيف يمكن القيام بذلك؟ من جهة، كان عليه أن يجد الطريق الثاني الذي اكتشفه الأستاذ سيزا. من جهة أخرى، كانت هناك دائماً مسألة الرسالة التي لم يتم فك شفرتها بعد، تلك التي يُفترض أنها تخفي المعادلة الإلهية. كانت هي المعادلة التي يركز عليها كل شيء، وفق ما قاله تينزينغ. المعادلة التي تولد عنها الكون، تشرح الوجود، وتجعل من الله ما هو.

دسّ يده في جيبه وأخرج الورقة التي كتبت عليها القصيدة المشفرة. وفوقها كانت القصيدة التي فك شفرتها من قبل. وتحت هذه القصيدة، كأنه يسخر منه، كان اللغز الأخير الذي ما زال يخبئ سرّه الدفين.

يا إلهي! كيف أستطيع فكّ هذا اللغز؟ تساءل. قام بمجهود ليتذكر ما قاله البوذيساتفا من معلومات بخصوص الطريقة التي شفرّ بها أينشتاين هذه الرسالة. تحدث تينزينغ عن نظام تشفير مضاعف وكذلك عن اللجوء إلى . . .  
رنّ هاتفه.

هل ستؤتي مجهوداته أكلها؟ هل سيأتيه أحد بالحل مع القيود التي حجز بها الأمريكيون أريانا؟  
وهو يكاد يرتعش من القلق، أخرج الهاتف من جيبه وضغط على الزر الأخضر.

- ألو، نعم؟

- ألو؟ طوماس؟

كانت أمه.

- نعم، أمي - همهم قائلاً، وهو يحاول جاهداً أن يخفي خيبته. نعم، أنا.

- آه، ابني. وأخيراً! كنت قلقة جداً، لا يمكنك أن تتصور . . .

- نعم، لقد رجعت. ماذا حدث؟

- لم أكف عن الاتصال بك لكنك لا تجيب أبداً. لا تقول

شيئاً. أكاد لا أصدق!

- ولكن، يا أمي، تعرفين جيداً أنني كنت في الثبّت.

- كان بإمكانك أن تقول لنا شيئاً، أليس كذلك؟

- ولكنني قلت لكم.

- فقط يوم وصولك. بعد ذلك، لم تقل أي شيء آخر

- اسمعي، أمي، لن تتصوري كل المشكلات التي كنت أتخبط فيها هناك، فلم أجد وقتاً للاتصال بك. لكني الآن هنا، أليس كذلك؟

- حمداً للرب! يا بني. حمداً للرب!

بدأت السيدة نورونيا تنتحب في الجهة الأخرى من الخط فغير طوماس نبرته، مبدياً قلقه واهتمامه.

- ألو، أمي، ماذا هناك؟

- إنه والدك . . .

- ماذا حدث له؟

- والدك . . .

- نعم؟

- دخل إلى المستشفى.

- هل دخل أبي إلى المستشفى؟

- نعم. يوم أمس.

- أين؟

- في المستشفى الجامعي.

كانت أمه الآن تبكي بشكل واضح في الجهة الأخرى من

الخط.

- أمي، هدئي من روعك.

- طلبوا مني أن أستعد.

- لأي شيء.

- أخبروني أنه سيموت.



# 36

رائحة المستشفيات المعهودة، ذلك العفن التعقيمي الذي يبدو كأنه يرشح من الجدران البيضاء، أزعجَ طوماس. نظر إلى جانبه، وبحركة حنان داعب شعر أمه المشبوك. شعرٌ مصطنع لأنه مصبوغ، وطبيعي لأنه بلون شعر مرحلة شبابها. كانت السيدة نورونيا تمسك بمنديل في يدها. عيناها كانتا حمراوين، لكنها تحاول أن تتحكم في نفسها. كانت تعرف أنه عليها، لحظة لقاء زوجها، أن تكون واثقة، إيجابية، ومفعمة بالطاقة، وهذا الواجب كان يمدّها بالقوة لترويض القلق الذي يجتاحها.

رأيا الباب يفتح. دخل إلى قاعة الانتظار الصغيرة رجلٌ أصلع، كان يرتدي وزرة بيضاء ويضع نظارتين سميكتين، ثم دنا منهما. وضع قبلتين على خدي السيدة نورونيا ومدّ يده إلى طوماس.

- ريكاردو غوفيا - قدم نفسه - كيف حالك؟

كان هو طبيب والده.

- أهلاً دكتور. أنا ابن الأستاذ نورونيا.

- آه، المغامر! - قال الطبيب مبتسماً. لقد حدثني والداك كثيراً

عنيك.

- آه، نعم؟ وماذا قالاً؟

رماه غوفيا بغمزة من عينيه.

- ألم تسمع قط عن السر الواجب بين الطبيب والمريض؟

- أشار لهما الطبيب أن يتبعاه وأخذهما إلى قاعة ضيقة، حيث يقف هيكل عظمي بحجم إنسان. دعاهما ليجلسا أمام مكتبه وتصفح بعض الملفات، ثم ترك بعض الدقائق تنقضي قبل أن يواجه العيون القلقة التي تراقبه. يبدو أنه كان يحاول كسب شيء من الوقت، لكنه رفع رأسه في النهاية.

- آسف، لكن ليس هناك أي تغيير بخصوص حالة زوجك الصحية - قال غوفيا وهو يلتفت نحو السيدة غراسا - إنه دائماً في حال سيئة مثل يوم أمس. الشيء الوحيد الذي يمكن أن نتحدث عنه هو أنه يبدو أن حالته بدأت تستقر.

- وهل هذا مؤشر جيد؟ - سألته بتوتر شديد.

- حسناً . . . لنقل إنه ليس مؤشراً سيئاً.

- كيف يتنفس مانويل، يا دكتور؟

- بصعوبة. قدمنا له الأوكسيجين وأدوية تُمدد قنوات التنفس،

حتى نخفف من معاناته، لكن الصعوبات تظل قائمة.

- آه، أيتها العذراء! وهل يعاني كثيراً؟

- لا.

- قل لي الحقيقة، من فضلك.

- إنه لا يعاني، كوني مطمئنة. لقد وصل يوم أمس وهو يعاني

من آلام فظيعة، لدرجة أننا أعطيناه مخدراً قوياً وهذا ما يخفف الألم كثيراً.

عضت السيدة نورونيا شفتها السفلى.

- هل تظن أنه سينجو من هذا، يا دكتور؟

تنهّد غوفيا.

- زوجك يعاني من مرض خطير. يجب ألا ننسى ذلك. لو كنت

مكانك، لهيات نفسي لما هو أسوأ - قال لها، ثم علت وجهه تكشيرة - على أي، ليس من المستبعد أن تتحسن حالته. هناك أمثلة عديدة لحالات مأساوية تغيرت في آخر لحظة. ربما تكون حالته كذلك. مهما يكن، أظن أنه ينبغي النظر إلى هذه الوضعية بهدوء وتبصر - بدا مستسلماً - هذه هي الحياة. أحياناً، ينبغي أن نتقبل الأمور، حتى إن كان ذلك صعباً للغاية.

طوماس، الذي لزم الصمت حتى تلك اللحظة، تمللم في كرسيه.

- من فضلك دكتور، هل يمكن أن تشرح لي ما يعاني منه والذي بالضبط؟

- إن والدك يعاني من سرطان غدد الخلايا الحرفية في المرحلة الرابعة - أجاب الطبيب وهو مرتاح على ما يبدو للخوض في شروحات تقنية، مجال يشعر فيه بالراحة.

- يتعلق الأمر بسرطان الرئة، أليس كذلك؟  
- إنه سرطان رئوي انتشر في كل الجسد. كما أن هناك أوراماً في الدماغ، في العظام، والآن في الكبد أيضاً.

- هل هذا مرض عضال؟  
حرك الطبيب رأسه.  
- أخشى أن يكون كذلك.  
- وماذا عن العلاج؟

- في الحالة التي يوجد عليها والدك ليس هناك من علاج فعال. عادة يتم علاج هذا النوع من السرطان بالجراحة، لكن ذلك ليس ممكناً في المرحلة الرابعة، عندما ينتشر في كل أرجاء الجسد. عندما تصبح العملية الجراحية غير ممكنة، نلجأ إلى العلاج بالأشعة، كما فعلنا مع والدك مؤخراً.

- لكن، ما هو الهدف من العلاج بالأشعة؟ معالجته؟

- لا. كما قلت لك، لا أرى أي إمكانية لشفائه - ثم قام بحركة غامضة نحو السقف - إلا إذا كان هناك تدخل إلهي، طبعاً. أحياناً، تحدث بعض المعجزات.

- إذن، ما الهدف من العلاج بالأشعة؟ ربح شيء من الوقت؟

- نعم، إنه يعمل فقط على تأخير تطور المرض. من جهة أخرى، يفيد أيضاً في الحد من آلام العظام - نهض وأشار إلى نقطتين في الهيكل البلاستيكي - يخفف العلاج من أعراض الوريد الأجوف العلوي هنا ومن ضغط المادة النخاعية - ثم جلس من جديد - والعلاج بالأشعة له بعض الجوانب السلبية أيضاً. ومن بينها أنه يسبب التهاب الرئتين، مما يؤدي إلى السعال، والحمى والزُّلة.

- الزُّ . . . ماذا؟

- الزُّلة. عُسر التنفُّس.

- آه، نعم؟ وكيف تعالجون هذه الأعراض؟

- نستعمل أدوية الكوريستورويد، مثل دواء البريدنيسون، الذي يخفف من هذه الأعراض.

- وكم من الوقت يمكن أن نمدد حياة شخص في هذه الحالة؟

بدا الطبيب متردداً.

- حسناً . . . هذا يتوقف على الحالات. هناك من يقاوم لوقت

طويل، وهناك من يقاوم أقل من ذلك. يصعب الجزم في هذا الأمر.

- لكن، ما هو المعدل؟

عض غوفياً شفتيه، كأنه يفكر.

- أستطيع أن أقول إن حظوظ العيش لأكثر من خمس سنوات

تقل عن عشرة في المئة. ربما تكون في حدود خمسة في المئة.

- يا إلهي - همهم طوماس متأثراً - هذا الوقت فقط؟

- نعم - قال الطبيب وحكّ ذقنه - أفضع ما في الأمر أن سرطان الرئة عبارة عن تنشُر ورمي واسع الانتشار. إنه السبب الأول للموت بالسرطان. من بين كل ثلاثة أشخاص يموتون بالسرطان، هناك شخص واحد يموت من سرطان الرئة.

- آه نعم؟ وما هو سبب هذا السرطان؟  
هزّ غوفيا كتفيه.

- أي سبب في نظرك؟ إنه التدخين بالطبع.

- صحيح أن والدي كان يدخن كثيراً - قال طوماس وهو يغرق في ذكريات الطفولة - أتذكره في مكتبه منكباً على معادلاته وسط سحابة من الدخان. لا أدري كيف كان يستطيع أن يتنفس.

- هذا له ثمن - لاحظ الطبيب - قليل من الناس يعرفون ذلك، ولكن خطر إصابة مدخن بالسرطان يفوق أربع عشرة مرة خطر إصابة من لا يدخن. أربع عشرة مرة.  
تنهّد طوماس.

- حسناً - قال بنبرة غاضبة بعض الشيء - ولكن آخر شيء نحن بحاجة إليه الآن هو درس أخلاقي حول أضرار التدخين. لقد وقع ما وقع.

- عفواً - قال الطبيب وهو يعتقد أنه قد ذهب بعيداً - كنتُ فقط أجيب عن أسئلتك.

- طبعاً.

متوترةً، تلملمت السيد نورونيا في كرسيها.

- دكتور غوفيا، هل تظن أنه يمكننا أن نرى زوجي؟

نهض الطبيب من فوق كرسيه كأنه يشير إلى انتهاء اللقاء.

- طبعاً هذا ممكن، سيدة نورونيا - قال بتلطف - سوف تأتي

المرمضة لتبحث عنكما عندما يحين الوقت، هل هذا جيد؟

- ومتى ذلك؟
- عندما يستيقظُ المريض .

دخلت الممرضة فجأة إلى قاعة الانتظار الصغيرة . فوق الوزرة البيضاء، كانت تضع على صدرها بطاقة تشير إلى اسمها، بيرتا . كانت تبدو نشطة واحترافية . أشارت إليهما بسرعة .

- أهلاً - قالت - لقد استيقظ زوجك .

- هل يمكن لنا أن نراه؟

- طبعاً . اتبعاني، من فضلكما .

وسارا عبر الممر، يحاولان أن يمشيا على إيقاع خطوات الممرضة . أسرع طوماس خطواته وتمكن من السير إلى جانبها .

- كيف هو؟

- لقد استيقظ للتو . إنه في حالة وعي .

- نعم، ولكنني أريد أن أعرف كيف هي حالته . . . .

حدجته الممرضة بنظرة خاطفة .

- لنقل . . . إنه ليس على أحسن حال . لكنه لا يعاني من

الآلام .

- على الأقل .

مشت بيرتا بضع خطوات بسرعة ثم نظرت إلى طوماس مرة أخرى .

- اسمع، إنه واهن ومتعب - قالت بصوت أكثر ارتخاء - لا

ينبغي أن تبالغا كثيراً، هل فهمت؟

- نعم .

- يبدو أنه دخل في مرحلة تقبُّل .

- تقبُّل؟

- نعم، تقبّل الموت. عموماً، وحدهم المرضى المسنون يبلغون هذه المرحلة عندما يصلون إلى المراحل النهائية. أما الأقل سناً، فيجدون صعوبة كبيرة في تقبّل الموت. شيء فظيع. بينما كبار السن، عندما يتعلق الأمر بأشخاص ناضجين عاطفياً ولديهم إحساس بأن حياتهم كان لها معنى، فيبدو أنهم يتقبّلون هذه الأمور بشكل أفضل.

- هل تقصدين أن والذي قد تقبّل فكرة الموت؟

- نعم، رغم أنه ما زال متعلقاً بالحياة، طبعاً. فليس من طبيعة الإنسان أن يتقبّل الموت بكل هدوء. يحتفظ بأمل أن يحدث شيء ما يُحسّن حالته ويسمح له بالحياة. لكنه، من جهة أخرى، شخص يرى أنه قد أدى مهمته، أن حياته كان لها معنى، وهذا ما يساعده على مواجهة الوضع. وعلاوة على هذا، إنه على وعي بأن أي شيء لا يدوم سوى لوقت معين ويتقبّل أن وقته قد وصل إلى نهايته.

- لا شيء خالداً في هذه الحياة، أليس كذلك؟ كل شيء عابر.

- تماماً. - وافقت الممرضة - لكن من الأسهل أن نقول هذا ونحن نتمتع بصحة جيدة على أن نقوله ونحن مرضى. عندما نكون بصحة جيدة، يمكن أن نقول كل شيء، حتى أفضع الأمور. لكن، ينبغي أن نكون حيث هو، على حافة الموت، كي نفهم حقاً هذه الأمور.

- أتصور ذلك.

- لا، لا يمكن أن تتصور ذلك - قالت وهي تبتسم من دون دعابة - لكن، يوماً ما، يوم تكون أنت هنا أيضاً، بعد عدة سنوات، عندما يكف الموت عن كونه شيئاً مجرداً ليصبح حقيقة ملموسة، يومها، سوف تفهم.

تردّد صدى جلبة داخل المستشفى. عبرا الممر في صمت،

محاولتين احترام خصوصية المرضى، ووصلا إلى قسم الغرف الفردية. أخذتهما بيّرتا إلى أحد الأبواب، ودون أن تنبس بينت شفة، فتحته بهدوء، مشيرة إلى الزائرين ليدخلا. ترك طوماس أمه لتمر أولاً ثم تبعها بعد ذلك، دون أن يتنفس تقريباً.

وهو يرى والده، اجتاحته رغبة في البكاء.

كان من الصعب التعرف على ملامح مانويل نورونيا. نحيف جداً، وجنتاه غائرتان، جلده متجعّد، ووجهه شاحب. كان شعره الأشيب مشعثاً فوق الوسادة، وعيناه ذابلتين رغم أنهما لمعتا لحظة عندما تعرّف زوجته وابنه.

عانقته السيدة غراسا وابتسمت له، ابتسامة واثقة لم يجد أمامها طوماس بُدّاً من أن يبدي إعجابه بأمه وبقوتها الداخلية. كان قد رآها محطمة خارج هذه الغرفة، أما الآن في حضرة زوجها، فكانت تشعُّ ثقة وهدوءاً. طرحت عليه بعض الأسئلة بخصوص حالته وما يحتاج إليه، وهو ما ردّ عليه بصوت واه. بعد ذلك، وبمهارة «بابا نويل» المستشفيات، فتحت سلة قصبية، كانت تحملها مخفية تحت شالها، وأخرجت منها قطعة جبن دائرية، يُسِيلُ شكلها اللعاب، وخبزاً طبيعياً باللوز. وتعرّف طوماس في ذلك على مأكولات والده المفضلة. أخذت السيدة نورونيا تطعم زوجها بحنان الأم الحامية، وهي تهمس في أذنه كلاماً لطيفاً.

بعد أن انتهى من الأكل، مسحت الزوجة فمه، لمست شعره، سحبت الملاءة وعدلت ياقة منامته، بحركات أمومية، كأنها أم تُغْطِي رضيعاً في المهد. وهو يراها كذلك، أبوه ممدد أعزل، وأمّه تنحني عليه وتهتم به، أدرك طوماس تلك العروة الوثقى التي تجمعهما.

لقد عاشا معاً لمدة خمسين سنة، تقاسما خلالها الحلو والمر، الأيام المشرقة والأيام الحالكة؛ كان واضحاً بشكل مؤلم أنهما كانا



يقضيان الآن آخر لحظتهما كزوجين، وقريباً سوف تفترق طرفهما كما يفرق الأفق بين السماء والأرض. كانا يتقاسمان حباً ناضحاً، لم يكن عشقاً جامحاً ولا عاطفة باردة، بل حناناً عطوفاً، مزيجاً من الأحاسيس المتبادلة على امتداد علاقة عميقة. كانت هي الشجرة وهو أوراقها، كانا الضوء واللون، الأرض والسماء، الحوض والنيلوفر، البحر والرمال. لم يكن الابن يستطيع تصورهما مفترقين، ولكن ذلك الفراق كان وشيكاً.

بعد أن شعر أنهما قد هدا، اقترب طوماس من السرير، أمسك يد والده الواهية وحاول أن يتسم.

- هذا مزعج حقاً، أليس كذلك؟

حاول العجوز أن يرسم ابتسامة على وجهه.

- ها أنا ذا مثل طفل رضيع.

- رضيع؟ لماذا؟

قام الأب بحركة بطيئة، مشيراً إلى السرير الذي يرقد فيه.

- ألا ترى؟ إنني لا أستطيع القيام بأي شيء.

- لا تقل حماقات.

- يقدمون لي الأكل، يلبسونني. ينظفون عورتني.

- هذا مؤقت. عندما تتحسن حالتك، سوف تعطني بنفسك

وحدك.

قام والده بحركة تنم عن العجز.

- متى تتحسن حالتي؟ حالتي لن تتحسن أبداً

- لا تقل حماقات. ولكنها سوف تتحسن، طبعاً.

- أبدو مثل طفل رضيع - كرر بصوت واه دائماً بالكاد يُسمع -

بل إنني أنام أيضاً مثل رضيع.

- كي تسترجع قواك.

- لا أفعل شيئاً آخر غير النوم. كأنني عدت إلى الطفولة. طفولة معكوسة.

- إذن، يجب ألا تنسى الرضاعة - قال طوماس مازحاً.

ابتسم عالم الرياضيات العجوز ابتسامة خفيفة. لكن عيناه سرعان ما علاهما تعبير متسائل.

- كيف هو الموت؟

- مانويل، لا تتكلم عن هذا، هيا! - قاطعته الزوجة على الفور

بنبرة لائمة - ماذا بك؟

- بكل جد - ألح المريض - إنني أتساءل عما ينتظرنني.

- هيا، غير موضوع الحديث. إن سمعك أحد، قد يظن أن

- عزيزتي غراسا، دعيني أتكلم عن هذا الأمر، أرجوك. إنه

شيء مهم بالنسبة لي، أتفهمين؟

بدت الزوجة مستسلمة ونظر مانويل نورونيا إلى ابنه.

- في الأيام الأخيرة، وجدت صعوبة كبيرة لأنام - همس

الأستاذ العجوز، وقد صار صوته خيطاً رقيقاً - بدأت أتقلب في

السرير وأنا أفكر كيف يكون الموت، وما يمكن أن يكون عدم

الوجود. شيء فظيع، أليس كذلك؟ وكلنا سنواجه هذا الموقف . . .

- لزم صمتاً ونظره شارد في السقف - عاجلاً أم آجلاً، هذا هو

مصيرنا.

- هذا صحيح، فعلاً - قال طوماس.

- لذلك أتساءل كيف هو الموت - قال، ثم أخذ نفساً عميقاً -

هل يشبه عدم الوجود الذي يسبق الميلاد؟ هل تبدأ الحياة مع البيغ

بانغ وتنتهي مع البيغ كرانش؟ - ثم زمّ شفثيه - نولد، نكبر، نبلغ

أوجنا، نندحر ونموت - ثم حذق بقوة في ابنه - أهذا كل ما في الأمر؟ هل تختزل الحياة في هذا الأمر؟  
- هل تفكر كثيراً في الموت، يا أبي؟  
لوى العجوز شفثيه .

- أفكر فيه شيئاً ما، نعم. نعم، ألا يفكر في الموت من حاله مثل حالي؟ لكنني ربما أفكر في الحياة أكثر مما أفكر في الموت.  
- بأي معنى؟

- أحياناً، أفكر أن الحياة لا قيمة لها، أنها شيء تافه. سوف أموت ولن تشعر الإنسانية بغيايبي. سوف تموت الإنسانية ولن يشعر الكون بغيابها. سوف يموت الكون ولن يشعر الخلود بغيايبي. لسنا سوى ظلال، غبار تافه، تائه في الزمن - أحنى رأسه - لكنني، أحياناً أخرى، أظن أننا نولد مع مهمة نؤديها، وأنا جميعاً نلعب دوراً، ونشكل جزءاً من منظومة. قد يكون هذا الدور صغيراً جداً، مهمة تافهة، لكن، في النهاية، من يعرف أن شيئاً تافهاً ليس جزءاً جوهرياً في تصور كعكة الكون؟ - لهث مُتعباً - نحن فراشات دقيقة ربما يملك خفقان أجنحتها الواهناً القوة الغريبة على توليد عواصف بعيدة في الكون.

فكر طوماس لحظة في هذه الكلمات. ثم مدّ ذراعه وأمسك يد والده الباردة.

- هل تعتقد أننا سوف نتمكن يوماً ما من الكشف عن سر كل شيء؟

- عن سر كل شيء؟  
- عن سر الحياة، والوجود، والكون، واللّه. سر كل شيء.  
تنهد مانويل، يعلو وجهه التعب، ويغلب النوم عينيه.  
- كان أوغوستو يملك جواباً لكل هذا.

- أي أوغوستو تقصّد؟ الأستاذ سيزا؟

- نعم.

- وماذا كان جوابه؟

- كان قولاً ماثوراً من أقوال لاو تسو - لزم صمتاً كي يسترجع  
أنفاسه - لقنه إياه صديقٌ من التّبت، قبل وقت طويل - قام بجهد  
ليركز - هيا، لنرّ . . .

دخلت الممرضة بيرتا إلى الغرفة.

- كفى - قالت وهي تحرك ذراعيها - أوقفا هذا الحديث.

عليكما أن تتركاه يستريح الآن.

- لحظة - طلب منها طوماس - ما هو هذا القول المأثور؟

تنحني والده، ضيق عينيه وتذكر.

- «عند نهاية الصمت يوجد الجواب. عند نهاية اليوم يوجد

الموت. عند نهاية حياتنا، هناك بداية جديدة.»

رنّ هاتف المؤرخ لحظة خروجه من المستشفى، تتبعه أمه التي

كانت تكفكف دموعاً لا تنضب.

- أهلاً طوماس - حياها الصوت في الجهة الأخرى من الخط.

كان غريغ.

- ماذا؟ - قال طوماس، دون أن يحيّي الأمريكي - هل انتهيتم

من ضرب أريانا؟ هل قالت لكم ما كنتم تريدون معرفته؟

- Come on، طوماس. لا تكن هكذا.

- هل كان ذلك بالصفعات أم بالشحنات الكهربائية؟

- طوماس، لم يحدث أي شيء من هذا. إننا لسنا بمتوحشين.

- آه، لا؟ وماذا فعلتم بالسجناء العراقيين؟

- كان . . . أمراً مختلفاً. مكتبة

- وماذا فعلتم بمعتقلي غوانتانامو؟

- كان أمراً مختلفاً .

- مختلفاً في ماذا؟ - سأله بصوت ملؤه الغيظ . بعضهم

عراقيون، والبعض إيرانيون، والبعض أفغانيون وهي إيرانية . أليس الأمر نفسه بالنسبة إليكم؟

- هيا لا تكن هكذا . . .

- لست هكذا . أنتم هكذا .

- إنك لست منصفاً .

- آه، نعم؟ وماذا تفعل أريانا في سفارتكم؟

- اسمع، كان علينا أن نستجوبها - قال غريغ مبرراً - ألا تفهم

كم هو مهم بالنسبة إلينا؟ إنها مرتبطة بالمشروع النووي الإيراني، وشئنا ذلك أم أبينا فإنها تملك معلومات ذات قيمة عالية . لا يمكن أن نضيع هذه الفرصة . في نهاية المطاف، المسألة تتعلق بالأمن القومي! من البديهي أنه كان علينا أن نستجوبها .

- وهل ترك الاستجواب آثاراً على جسدها؟

- كان استجواباً متحضراً، كن مطمئناً .

- متحضراً؟ هذا يتوقف على معاييرك . . .

- ألا تصدقني؟ حسناً، يمكنني أن أؤكد لك أنها لم تقل لنا شيئاً

آخر غير ما كنا نعرفه .

- هذا جيد .

- إنهم غاضبون منها في لانغلي .

- هذا جيد، يسرني أن أعرف ذلك .

طقطق غريغ لسانه في تعبير عن الحقن .

- اسمع، طوماس، هذا ليس لعباً، هل سمعتني؟ وصلتني للتو أوامر من لانغلي بخصوصها، ولذلك اتصلت بك.
- أوامر؟ أية أوامر؟
- يأمرونا بترحليها؟
- ماذا؟
- يقولون في لانغلي إنها ترفض أن تتعاون معنا. لذا يستحسن إعادتها إلى إيران.
- هل جُنتُم؟
- عفواً؟
- لا يمكنكم أن تفعلوا هذا، هل سمعتني؟
- آه، لا؟ ولماذا؟
- لأنهم . . . سيقتلونها.
- سيقتلها الإيرانيون؟
- طبعاً. هل نسيت أنها ساعدتني؟
- وفيمَ يعيننا نحن ذلك؟
- إنهم يعتقدون الآن أنها انتقلت الآن إلى جانب وكالة المخابرات الأمريكية. هؤلاء مجانين، ماذا تظن؟
- أكرر سؤالِي - قال غريغ - فيمَ يعيننا نحن ذلك؟
- إن أرسلتموها إلى هناك فإنكم ترسلونها إلى الموت.
- وماذا بعد؟ إننا لا ندين لها بأي شيء. في نهاية المطاف، لم تساعدنا. لماذا علينا أن نكثرث لما يجري بينها وبين النظام الذي تحاول أن تحميه بكل بلاده؟
- إنها لا تحاول أن تحمي أي نظام. تحاول فقط ألا تخون بلدها. شيء عادي تماماً. ألا ترى ذلك؟

- حسناً. إذن، شيء عادي جداً أن نُرحّلها، ما دامت ترفض مساعدتنا. ألا تظن ذلك؟

- لا، لا أظن ذلك! - صاح طوماس وهو يرفع صوته لأول مرة - أظن أنها جريمة. إن فعلتم هذا، لن تكونوا سوى مجرمين وقطاع طرق من أفضع نوع.

- Come on، طوماس، لا تبالغ.

- أنا؟ أبالغ؟ لا تنسوا أنكم التزمت بحمايتها من الإيرانيين. وما هي النتيجة؟ لم تكتفوا باختطافها لدى وصولها لى لشبونة، بل ها أنتم تريدون ترحيلها إلى هؤلاء الإيرانيين الذين كان عليكم أن تحموها من بطشهم. فكيف تسمّون هذه القذارة؟

- اسمع، طوماس. لقد التزمنا بحمايتها مقابل السر المخفي في مخطوط أينشتاين. وأنت لم تكشف لنا عن هذا السر حسب علمي.

- لكنني كشفت لكم عن أهم شيء فيه.

- إذن، ما هي المعادلة الإلهية؟

- إنها الشيء الوحيد الذي لم أحله بعد. لكنني قلت لك إنني على وشك أن أقوم بذلك.

- هذا مجرد كلام. الحقيقة أنك لم تكشف لنا عن أي شيء والوقت الذي منحناك إياه أشرف على نهايته.

- امنحوني بضعة أيام أخرى.

رأى صمّتٌ قصيرٌ ومُخرجٌ.

- هذا غير ممكن - قال غريغ في النهاية - سوف تنطلق طائرة تابعة لوكالة المخابرات الأمريكية هذه الليلة من قاعدة جوية في كيبي، تكساس، باتجاه لشبونة. ستصل غداً عند الفجر. وعلى الساعة الثامنة سوف تقلع نحو إسلام آباد في باكستان، حيث سيتم تسليم صديقتك للإيرانيين.

- لا يمكنكم أن تفعلوا هذا! - زار طوماس، وقد جن جنونه.  
- طوماس لست أنا من اتخذ هذا القرار. إنه أمر صادر من لانغلي وهو الآن بصدد التنفيذ. لدي هنا رسالة تقول إن التعاليم قد أرسلت وفق *Joint Command and Control Warface Center* في كيلبي أ. ف. ب.

- هذه جريمة.

- إنها السياسة - ردّ غريغ بنبرة هادئة - اسمع، يا طوماس، ما زالت هناك وسيلة لإيقاف كل هذا. لديك حتى يوم غد صباحاً على الساعة الثامنة كي تسلمني سر المخطوط. إن لم تسلمني سرّ المخطوط في هذا الأجل، لن أوقف مسلسل ترحيل صديقتك، هل فهمت؟

- غداً، على الساعة الثامنة؟ لكن، كيف تريدني أن أكشف عن كل شيء في وقت وجيز جداً؟ هذا مستحيل!  
- أنت محترف وأدري بما تفعل.

- اسمع، غريغ، يجب أن تمنحني مزيداً من الوقت.

- إنك لم تفهم بعد، يا طوماس. هذا القرار ليس قراري. اتخذه في لانغلي ولا رجعة فيه. كل ما أقوم به هو أنني أخبرك بطريقة لإيقاف هذا المسلسل، ليس إلا. إن كشفت لنا السرّ، فسنكون تلقائياً ملزمين باحترام شروط الاتفاق الذي أبرمناه هاتفياً عندما كنت في لاسا. وما دمت لم تف كلياً بتعهداتك، فسوف نعتبر أننا غير ملزمين بالوفاء بتعهداتنا. هل فهمت؟

- لا يمكنكم أن تفعلوا هذا.

- طوماس، لا جدوى من النقاش معي. هذا لن يغير في الموضوع شيئاً لأنني لست أنا من يقرر.



- لكن يمكنك أن تقنع رؤساءك في لانغلي بأن يمنحوني مزيداً من الوقت .

- طوماس . . .

- إنه وقت قصير جداً كي أستطيع حل كل شيء .

- *Damn it* ، طوماس! - صاح غريغ ، الذي نفذ صبره - هل

أنت بليد أم ماذا؟

ظل طوماس جامداً عند الهاتف ، مندهشاً للغضب المفاجئ

الذي بدا على الأمريكي .

- لقد قلت لك للتو إن هذا الأمر ليس من اختصاصي! - صاح

الأمريكي وهو يتحمس لأول مرة - لست أنا من يتخذ القرارات . لا

شيء يتوقف عليّ . لا شيء . ليس هناك سوى شيء واحد يمكن أن

يوقف ترحيل صديقتك . شيء واحد لا غير . أن تفك شفرات هذا

المخطوط اللعين .

ظل عالم فك التشفير صامتاً .

- لديك حتى يوم غد على الساعة الثامنة صباحاً - قال غريغ

سوليفان ، ثم وضع السماعة .

# مكتبة

t.me/t\_pdf

# 37

كان «فناء المدارس» هادئاً في تلك الساعة المتأخرة من النهار. كانت تُرى فقط مجموعة من الطلبة وهم يصعدون السلالم المؤدية إلى شارع «لاتينا» وموظفان يتحدثان عند أسفل برج الكنيسة الجميل. بعد تجاوز «الباب الحديدي»، خفف طوماس الخطو، ورغم القلق، لم يستطع أن يكف عن الاستمتاع بهذا المزيج من الواجهات، البسيطة والمنمقة، التي تختزل أكثر من سبعة قرون من التعليم. في الأصل، كان ذلك قصراً ملكياً، حيث ولد وترعرع عدة ملوك من الأسرة الملكية الأولى، لكن منذ عدة قرون، أصبح المكان قلب الأكاديمية التي كان والده يعطي فيها دروساً، جامعة كويمبرا.

كان مجموع البناءات موضوعاً على شكل حرف U، حول فناء يغطيه الحصى. عبّره طوماس وتوجه نحو البناية في الخلف، ثم توقف عند المدخل الرائع. كانت البوابة تدرج داخل قوس نصر رائع، تكلّل قمّته شعارات البرتغال. وكانت تلك الكتلة المستطيلة واحدة من أجمل مكتبات العالم.

مكتبة جوانينا.

وهو يلجُ تلك المَعلمة التي يتجاوز عمرها ثلاثة قرون، شعر عالم فكّ التشفير بالجدران وهي تفوح برائحة الجلد الذي يغلف المخطوطات، ممزوجاً بطعم خفيف يصعد من الورق القديم. وأمامه

كانت تمتد ثلاث قاعات، تفرقها أقواس زينت بنفس الأسلوب الفخم الذي يزين البوابة. كانت المكتبة تغفو في ضوء خافت، يخيم عليه الظل والصمت. كان كل داخل البناية مغطى بالرفوف، وتظهر عليها صفوف من الكتب على مستويين؛ والسقف المصبوغ يتناسق مع الألوان الحمراء والذهبية للديكور، هنا حيث يبلغ الأسلوب الباروكي أوج بريقه.

- أستاذ نورونيا.

نظر طوماس إلى الشمال من حيث جاء الصوت، ثم رأى لويس روشا يظهر من مقصورة ويتقدم نحوه تعلقو شفتيه ابتسامة. حاول أن يرد على ابتسامته، لكن شفتيه التوتتا وظلت نظرتة حزينة وعابسة، مشحونة بالقلق.

- كيف حالك أستاذ روشا؟ - حياه طوماس وهو يمد ذراعه.

تصافحا.

- مرحباً بك في ملاذي المفضل! - صاح لويس ثم مسح بحركة من يده كل المكتبة، بما فيها تلك المجلدات المغلفة بشكل منمق فوق الرفوف - مئة ألف مجلد تحيط بنا.

- آه، حسناً - قال المؤرخ شاردأ، وهو غير قادر على الاستمتاع بأي شيء - أولاً، أشكرك لأنك قبلت بسرعة أن تتحدث معي.

- هيا، لا داعي لتشكرني - ردّ عالم الفيزياء بحركة مسترخية - لكن، ما هي مسألة الحياة أو الموت التي حدثتني عنها؟ أعترف أنني وجدتك قلقاً جداً وأنا أتحدث معك عبر الهاتف ... تنهّد طوماس.

- لا تحدثني عن هذا - همس قائلاً وهو يدير عينيه - لا أحد غيرك يستطيع أن يساعدي ...

بدا لويس روش حائراً.

- حسناً، ماذا يجري؟

- اسمع، إنني متورط في قضية شائكة بدأت هنا في كويمبرا، قبل بضعة شهور، وهي، بطريقة ما، تخصك أنت أيضاً.

- هل أنت متأكد؟

- نعم، نعم - أكد طوماس - إنها قصة طويلة، يمكن أن نضيع وقتنا لو حكيتها لك الآن. المهم أن كل شيء بدأ بحادث كنت شاهداً عليه.

- أنا؟

- اختفاء الأستاذ سيزا.

وهو يسمع اسم مُعلّمه، بدا كأن عالم الفيزياء يرتعش.

- آه! - قال متعجباً - لقد فهمتُ - ثم حرك رأسه وبدا قلقاً فجأة - اتبعني.

أخذ لويس طوماس إلى قاعة ثانية ثم اتجها نحو طاولة خشبية داكنة وفسيحة في ركن من المكتبة. كان قليل من الأشخاص يترددون على المكتبة في تلك الساعة، فوجد الأستاذان نفسيهما على راحتهما؛ كان هناك فقط زائران اثنان يستمتعان برفوف القاعة الثالثة، وموظف ينفذ الغبار عن ظهور الكتب في الطابق الأول من القاعة الثانية.

جلس لويس على كرسيه وشبك رجله.

- حسناً، قل لي، يا أستاذ، ما الذي يجري؟

- لقد عدت للتو من التّبت، حيث التقيتُ راهباً بوذياً يدعى تينزينغ ثوبتين - ثم رفع حاجبه، متسائلاً - إنك تعرف هذا الاسم، أعتقد ...

حاول عالم الفيزياء أن يخفي لكن مجهوده خانه . من الواضح أنه كان يعرف تينزينغ .

- نعم . . . نعم - تمتم وهو يدرك أنه قد وقع في الفخ - وماذا؟

عدّل طوماس جلسته فوق الكرسي .

- اسمع ، أستاذ روشا ، ربما يُستحسن ألا نلّف حول الموضوع لفاً - قال وهو يخفض صوته ويسرع في كلامه - اتصلوا بي قبل مدة قصيرة كي أفك شفرة نص ملغز اكتُشف أخيراً ويحمل توقيع ألبرت أينشتاين . يحمل هذا النص اسم المعادلة الإلهية وكما لا بد أنك تعرف كان في حوزة الأستاذ سيزا وتم اختلاسه بتزامن مع اختفاء الأستاذ . ما لا تعرفه من دون شك ، هو أنني ، بطرق شرعية وأخرى ملتوية ، حددت مكان تواجد المخطوط في طهران .

- في طهران؟

- نعم .

- ولكن . . . كيف؟

- لا يهم . كل ما يهم أنني حددت مكان تواجده .

- ولكن هذا رائع! هل تدرك هذا؟ هذا المخطوط اختفى مع الأستاذ سيزا ، وها هو الآن يُعثَرُ عليه من جديد في طهران . إذن ، من المحتمل جداً أن يكون الأستاذ سيزا هناك أيضاً

- دعني أكمل ، من فضلك - طلب منه طوماس بصوت ملؤه الصبر .

- بكل تأكيد . تفضّل .

أعاد طوماس ترتيب أفكاره .

- حسناً كل هذا البحث قادني ، في النهاية ، إلى التّبت ، حيث التقيتُ تينزينغ ثوبتين ، راهب تعرفه جيداً حسب ما قلت لي للتو .

- فقط بالاسم - أوضح الفيزيائي - فقط بالاسم . كان الأستاذ سيزا يتحدث عنه كثيراً . وكان يسميه «بوذا الصغير» .  
ابتسم طوماس ابتسامة خفيفة .

- «بوذا الصغير»؟ اسم مناسب، نعم - تلاشت الابتسامة واستأنف روايته - حكى لي تينزينغ قصة مثيرة جداً، حدثت سنة ١٩٥١، في برنستون، تهم أينشتاين، الأستاذ سيزا وهو نفسه . «بوذا الصغير» هذا، كما تسمّيه، كشف لي عن سرّ المعادلة الإلهية، لكنه لم يكشف عن المعادلة نفسها التي ما تزال مشفرة . بعد ذلك، قال لي إن الأستاذ سيزا اتصل به عند بداية السنة ليخبره أنه قد اكتشف طريقة ثانية لإثبات وجود الله . ويبدو أن هذا كان شرطاً وضعه أينشتاين لنشر المخطوط . ويبدو أن الأستاذ كان يخطط للقيام بإعلان يكشف فيه عن وجود هذا المخطوط ويخبر الجميع بالطريقة الثانية التي اكتشفها للتو .

لزم طوماس صمتاً ثم خفض رأسه، بنظرة متسائلة، وهو ما أربك مُحاوره .

- هممم - هممم لويس وهو عازم على ألا يكشف عن أي شيء .

- ماذا؟ هل هذه القصة حقيقية؟

- لا أستطيع أن أقول لك أي شيء .

- لا تستطيع أن تقول لي أي شيء؟

- لا، لا أستطيع .

- ولكنك كنت متعاوناً مقرباً جداً من الأستاذ سيزا . لا بد أنك كنت على علم بما كان يجري .

قام لويس روشا بحركة تنم عن الغضب .

- اسمع، أبحاث الأستاذ سيزا هي ملك للأستاذ سيزا. هو وحده من يستطيع أن يتحدث عما اكتشفه.

- حسب ما لديّ من معلومات، كان ينوي القيام بذلك. أليس كذلك؟

- لا أستطيع أن أقول لك شيئاً.

- كان ينوي القيام بذلك إلى أن اختطفه رجال تابعون لحزب الله بأمر من إيران.

تردّد عالم الفيزياء.

- رجال من ...؟ - قال متعجباً - أي قصة هذه؟

- إنها قصة معقدة جداً، أستاذ روشا. يبدو أن مُعلّمك أدلى بتصريحات مبهمة وغير محترزة خلال مؤتمر دولي. تصريحات التقطتها آذان فضولية وأساءت فهمها. تمّ تأويل أقوال الأستاذ سيزا على أنها إشارة إلى معادلة لأينشتاين تسمح بصنع سلاح نووي رخيص يسهل تصميمه. وقد أدى سوء الفهم هذا إلى اختطافه.

حدجّه لويس روشا بنظرة شك.

- لكن، كيف تعرف كل هذا؟

- لنقل ... إنه قد تطلب مني مجهوداً كبيراً لتحديد مكان الأستاذ سيزا. لقد حدثتكَ عن ذلك خلال لقائنا الأول، أتذكّر؟

- فعلاً، ولكنني لم أكن أعرف أنه قد تم الكشف عن كل هذه الأمور المتعلقة باختفاء الأستاذ. اختطفوه واقتادوه إلى إيران بسبب المخطوط. أهذا ما تقوله؟

- نعم.

- هل أنت متأكد؟

- تماماً.

- ولكن هذا أمر . . . مجنون تماماً! - حرك رأسه، كمن يريد أن يستيقظ - لم أكن لأتصور قط شيئاً كهذا!  
- ربما، لكن هذا هو ما حصل بالفعل.  
- أمر لا يصدق!

انحنى طوماس فوق الكرسي، متلهفاً للحصول على المعلومة التي كان يبحث عنها يائساً.

- أخبرني، يا أستاذ، ما هي الطريقة الثانية التي اكتشفها الأستاذ سيزا؟

كان الفيزيائي ما يزال يهضم ما كشف عنه المؤرخ للتو فنظر إليه بحرج.

- اسمح لي، ولكن علينا أن ننتظر أن . . . يتم الإفراج عن الأستاذ سيزا حتى يستطيع الحديث عن ذلك. كما يمكنك أن تفهم، يتعلق الأمر ببحث هو من أنجزه وأنا لا يمكنني أن أنشر أي شيء. أنا ملزمٌ بواجب الوفاء والسرية. مهما يكن، يبدو لي مهماً أن

- أستاذ روشا.

- . . . علينا أن نتحرك باتجاه معرفة مكان تواجد الأستاذ سيزا . . .

- أستاذ روشا.

- . . . وتبديد سوء الفهم هذا.

حذق طوماس في مُحاوره المرتبك.

- أستاذ روشا، لديّ خبر سيّئ أقوله لك.

- نعم؟

- لقد مات الأستاذ سيزا.

ثم ران صمّتٌ مرعب.



- كيف؟

- لقد توفي الأستاذ سيزا في السجن . كان الإيرانيون يستجوبونه عندما مات - خفض رأسه، متأسفاً لأنه كان هو حامل الخبر - أنا آسف جداً .

فتح لويس روشا شفتيه، مصدوماً . وضع يده على فمه، وبعينين جاحظتين راح يفكر في عواقب هذا الخبر الذي جاءه به المؤرخ .

- يا له من خبر . . . يا له من شيء عثي - تمتم - وكيف حدث ذلك؟

- مات أثناء الاستجواب .

- يا له من أمر فظيع! ومتى . . . متى تم الإعلان عن هذا الخبر؟

- لم يتم أي إعلان - قال طوماس - هذه المعلومة، رغم صحتها، ليست رسمية . الإيرانيون لن يعترفوا أبداً أنهم اختطفوا الأستاذ سيزا ولن يعترفوا طبعاً أنه قد مات بين أيديهم . لن يقولوا شيئاً . هل فهمت؟

حرك الفيزيائي رأسه، وهو ما يزال يحاول استيعاب ذلك الخبر .

- أيُّ عالمٍ هذا الذي نعيش فيه!

تركه طوماس دقيقة أخرى حتى يهضم خبر موت مُعلمه .

- اسمع، يا أستاذ إن حياة شخص ثانٍ في خطر في هذه الأثناء بسبب نفس المخطوط وبسبب نفس سوء الفهم . ولإنقاذه أنا بحاجة إلى معلومة حاسمة . أنت الوحيد الذي يمكنك أن تساعدني .

بعد أن استجمع نفسه الآن، ردّ لويس روشا على نظرة طوماس المحدقة .

- إنني أسمعك .

- أنا بحاجة إلى معرفة ما هي الطريقة الثانية التي اكتشفها الأستاذ سيزا. هل تعرفها؟  
- طبعاً، أعرفها - ردّ الفيزيائي على الفور. لم نقم أنا والأستاذ سيزا بشيء آخر في السنوات الأخيرة سوى الاشتغال على هذا الموضوع.

- إذن، هل يمكنك أن تشرحها لي؟  
- المسألة أن . . . الأمر يتعلق ببحث أنجزه الأستاذ سيزا . . .

- لقد مات الأستاذ سيزا، هل فهمت؟ - قاطعه طوماس وقد نفذ صبره. ويجب أن أعرف هذه الطريقة الثانية حتى أتمكن من موت شخص آخر لنفس الأسباب.  
تردّد لويس روشا مرة أخرى.

- ولكن ألا تظن أنه ليس من اللائق أن أقوم الآن بنشر أبحاث الأستاذ سيزا؟

- اسمع، الأستاذ سيزا مات - ألحّ طوماس وهو يبدي صبراً كان ما يزال قادراً على التحلي به - لم يعد أي شيء من هذا مهماً الآن. لا شيء يمنعك من نشر مقالة في مجلة علمية أو حتى كتاب تعرض فيه كل معطيات اكتشاف الطريقة الثانية، بالإضافة إلى كل التفاصيل المتعلقة بمخطوط أينشتاين. إن الأستاذ سيزا لم يعد بيننا ليقوم بهذا الإعلان للعموم، وهو الإعلان الذي كان ينوي القيام به.

- إذن، أنت تعتقد أنه يجب أن نشرها؟  
- طبعاً! اكتشاف كهذا . . . مثير، لا ينبغي أن يظل دائماً في السر. طبعاً، يجب أن تنشره. بل إن هذا ما كان ينوي الأستاذ سيزا القيام به، لذا فمن واجبك أن تحقق إرادته.  
فكّر الفيزيائي في الحجة.

- فعلاً - قال أخيراً - ربما أنت على حق .

- هذا بديهي . في نهاية المطاف ، سيكون ذلك تكريماً للمعلم .  
ويمكنك أن توقع النص بصفتك مشاركاً في تأليفه ، مثلاً . وهذا أمر  
لائق . أليس كذلك؟

- نعم ، أنت على حق - قال لويس روشا ، بصوت أكثر ثقة -  
سوف أنشر كل شيء .

تنهّد طوماس ، مرتاحاً لهذا النصر ، لكنه لم يترك محاوره .

- ولكن ، قبل أن تقوم بأي شيء ، يجب أن تشرح لي هذه  
الطريقة الثانية . فكما قلت لك ، تتوقف حياة شخص آخر على هذه  
المعلومة .

نهض لويس روشا فجأة من فوق كرسيه .

حسناً! - قال متعجباً - هيا بنا .

نظر إليه طوماس مندهشاً وهو يراه واقفاً .

التفت الفيزيائي وهو يتعد ، ملقياً نظرة أخيرة نحو الخلف .

- أنا ذاهب لأبحث عن فنجاني قهوة - قال - سأعود حالاً .

# 38

رائحة دافئة ومعطرة غزت المكتبة ما إن ظهر لويس روشا يحمل صينية. دعا طوماس ليلتحق به في الغرفة الصغيرة المختبئة على اليسار، خلف الباب الرئيسي، حيث دخل بسرعة كأنه يستعد للقيام بفعل مشين. وضع الصينية فوق طاولة صغيرة، وما إن جلس الزائر حتى أخذ فنجاناً يتصاعد بخاره، مغطى بزبد كثير القشدة، بلون البندق، ثم ابتسم.

- حضرت قهوة إسبريسو - قال وهو يقدم فنجاناً لطوماس - هل تريد سكرًا؟  
- نعم.

أخذ طوماس ظرف سكر وأفرغه في الفنجان الساخن.  
- لو رأنا مدير المكتبة، سيقتلنا - قال الفيزيائي ضاحكاً، بعد أن ألقى نظرة على الخارج ليتأكد من أنه لا أحد قد رآهما.  
تفحص طوماس تلك الغرفة الضيقة الغارقة في الفوضى.

- لهذا جئنا إلى هنا، أليس كذلك؟  
- نعم - أكد لويس وهو يبدو متواطئاً - في هذا الركن، سنكون على راحتنا.

- ألا يستحسن أن نذهب إلى الخارج ونجلس في رصيف مقهى؟

- كلا، نحن أحسن حالاً هنا مختبئين. لن يأتي أحد ليزعجنا - قال، ثم استنشق العطر المتصاعد من الفنجان - أتعرف، لا يمكنني أن أستغني عن قهوة في مثل هذه المناسبات. لا شيء أحسن من قهوة إسبريسو لذيدة قبل الدخول في حديث معقد. إنها تساعدني على التركيز.

- وهل سيكون حديثنا «معقداً»؟

- إن فهمَ ما سأقول ليس «معقداً» - قال لويس - الأمر المعقد هو أن أجعله لا يبدو معقداً، هل فهمت؟ - غمز بعينه - هذا هو المعقد!

- البساطة أمر معقد.

- أكثر مما يتصوره الناس. خلال الأبحاث التي أنجزتها مع معلمي، أصبحت مدمناً على الكافيين، ما إذا تظن؟ أنا كنت أتناول قهوة إسبريسو، وهو يشرب قهوة باردة تعلم كيف يحضرها في إيطاليا، شراب بارد تغطيه القشدة. كان يسميها «*granita di caffè*».

- إنها قهوة مثلجة، أليس كذلك؟

- نعم، كان مهووساً بشراب هذه القذارة - ارتعش - في فصل الشتاء، كان تلك القهوة تصيبني بالقشعريرة... على أي، لا مجال لنقاش الألوان والأذواق.

- فعلاً.

احتسباً جرعات من القهوة. كان لها مذاق قوي، مميز، ويترك زبدها مذاقاً عذباً مستمراً في الفم.

وضع لويس روشا فنجاناه في الصينية وركز على ما كان عليه أن يقوله.

- حسناً هيا بنا! - صاح وهو يستعد لبدأ - إن كنت قد فهمت

جيداً، الصديق التّبيّتي للأستاذ سيزا هو من شرح لك ما حدث في  
برنستون سنة ١٩٥١ .

- نعم، حكى لي كل شيء .

- إذن، أنت تعرف قصة رئيس الوزراء الإسرائيلي والتحدي  
الذي وضعه لأينشتاين بتصور معادلة إلهية والشرط الذي وضعه  
أينشتاين باكتشاف طريقة علمية ثانية لنشر المخطوط . لا شيء من هذا  
جديد بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

- لا، إنني أعرف كل هذا .

- حسناً - قال متنهّداً - ما حدث هو أن الأستاذ سيزا اعتنى  
بمشروع أينشتاين عناية خاصة فقرر أن يكرس حياته لحل هذا اللغز .  
هل كان من الممكن إيجاد طريقة ثانية تثبت علمياً وجود الله؟ هذا  
هو التحدي الذي كان عليه أن يرفعه .

- وكيف واجه هذا التحدي؟

- أول شيء كان عليه أن يقوم به هو أن يحدد موضوع دراسته .  
ما هو الله؟ حين نتحدث عن الله فعن أي شيء نتحدث بالضبط؟ هل  
نتحدث عن الله كما يصفه الكتاب المقدس؟

- أعتقد ذلك

- ولكن الله الذي يصفه الكتاب المقدس، كما شرحتُ لك قبل  
أسبوعين، إله عبثي - ثم نهض، غادر الغرفة الضيقة وتوجه نحو رفّ  
قريب، أخذ منه مجلداً ضخماً مغلفاً بعناية ثم عاد إلى مكانه، حيث  
جلس وفتح الكتاب فوق ركبتيه - لنرّ - قال وهو يتصفح الأوراق  
الأولى قبل أن يعثر على المقطع الذي كان يبحث عنه - حسناً، هنا،  
في بداية العهد القديم، كُتب إن الله أراد أن يقدم للإنسان مساعدة  
تناسبه، فقام بما يلي: «وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات

البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية». ثم يضيف الكتاب المقدس: «وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحداً من أضلاعه وملاً مكانه لحماً. وبنى الرب الإله الضلع الذي أخذه من آدم امرأة وأحضره إلى آدم.» - رفع لويس عينيه - ألا تجد شيئاً غريباً في هذه القصة؟  
هزّ طوماس كتفيه.

- حسناً . . . إنها قصة من قصص الكتاب المقدس.  
- أليس من المفترض أن يكون الربّ عالماً بكل شيء؟ ألا ينبغي له أن يعرف مسبقاً أنه لا يستطيع أي حيوان أن يكون للإنسان معيناً؟ لأي سبب ينتظر الربّ ليرى أي أسماء سيعطيها الإنسان للحيوانات؟ بما أنه عليم بكل شيء، ألا يستطيع أن يعرف ذلك؟ -  
ثم تصفح الفيزيائي صفحات أخرى - والآن، اسمع ما وقع عندما قرر الربّ أن يحدث الطوفان: «فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ.» - ثم حدّق لويس في طوماس مرة أخرى -  
تأسّف الربّ؟ مرة أخرى، ألم يكن عليماً بكل شيء؟ ألم يكن قادراً على أن يتوقع أن الإنسان مآله الفساد؟ بما أنه كامل وعلى كل شيء قدير، ألم يكن بمقدور الربّ أن يتوقع كل شيء؟ أي إله هذا الذي ينبري لإصلاح أخطائه؟ وهل يرتكب الربّ أخطاء، في نهاية الأمر؟

- فعلاً

- دون الحديث، طبعاً، عن إله قادر على كل شيء وطيب، لكنه يترك الشر ينتشر في كل مكان. بما أنه طيب ولديه القدرة على أن يفرض الخير، لماذا يترك الشر موجوداً؟ وإن كان كامل الأوصاف،

فلماذا خلق الإنسان ناقصاً؟ - أغلق الفيزيائي المجلد من جديد ووضعه على الأرض - كل هذا دفع أينشتاين ليرى بأن الإله الحقيقي ليس هو إله الكتاب المقدس. فالإله الحقيقي كيان قادر على كل شيء وذكي، وهو القوة التي تقف وراء الكون، المهندس الذي تصور كل شيء، وليس ذلك الكيان الذي يشبه معالم الإنسان، الأبوي والأخلاقي، كما يصوره الكتاب المقدس. فناعة أينشتاين هذه هي التي استوعبها الأستاذ سيزا وتبناها.

- إذن، هذا يعني أن الأستاذ لم يبحث عن إله الكتاب المقدس

- لا، بالفعل. ثم إنه كان دائماً يعتقد بأن أكبر مقاومة يقوم بها علماء اللاهوت ضد البرهنة العلمية على وجود الله كان سببها أنهم دائماً يريدون أن تشمل هذه البرهنة إله الكتاب المقدس. والحال أن إله الكتاب المقدس يمثل كثيراً من التناقضات. لا يمكن أن يوجد. الله ليس شخصية حامية تقضي وقتها في الانشغال بما يفعله البشر. هذا الإله هو من صنع البشر.

- ولكن... ماذا عن دليل خلق الكون في ستة أيام، المكتوب في مخطوط أينشتاين؟ ألا تعتقد أن هذا الدليل يؤكد ما جاء في الكتاب المقدس؟

- هذا عنصر مهم جداً - اعترف لويس روشا - كما قلت لك، كان أينشتاين مقتنعاً بأن إله الكتاب المقدس لا يوجد. لكنه، في الوقت ذاته، استنتج أن ثمة حقائق عميقة تختبئ بشكل غامض في العهد القديم.

- كيف تفسر ذلك؟

- ليس هناك من تفسير. في الحقيقة، ولأسباب مجهولة، تنطوي الكتب القديمة على أسرار خفية. مثلاً، اكتُشف مؤخراً أن



هناك علاقة متبادلة بين الحقائق القبلانية، المرتبطة بتأويل العهد القديم، وبين نظريات الفيزياء الأكثر تقدماً.

- وما هو تفسير هذا الأمر؟

- مثلاً، من أكبر النظريات المنافسة لنظرية كل شيء هناك نظرية الحبال. يصعب شرحها نوعاً ما، لكن معادلاتها ترى أن المادة الأولية مشكلة من حبال ترتجّ، تنتشر في فضاء من ستة وعشرين بُعداً بالنسبة للجزيئات الطاقية الدقيقة، التي تسمى البوزونات، ومن عشرة أبعاد بالنسبة للجزيئات الأخرى أو الفيرميونات. وكما أن القوة النووية القوية والقوة النووية الضعيفة تظّلان محصورتين في العالم الأكبر بعد البيغ بانغ، يرى الفيزيائيون أن واحداً وعشرين بُعداً تظل بدورها محصورة في العالم الأصغر بعد خلق الكون. لسبب ما، وحدهما الجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية مارستا تأثيراً واضحاً على الكون الأكبر، بعد أن أقحمتا فيه فقط أربعة أبعاد زمكانية. لهذا السبب يبدو لنا أن الكون له ثلاثة أبعاد فضائية وبعده زمني واحد. وهي التي تؤثر على عالما المرئي، لكن هناك اثنين وعشرين بُعداً أخرى لا تُرى في الكون الأصغر، وهي قادرة على أن تؤثر فقط في تصرفات الجزيئات الدقيقة.

- وهل هذا ممكن حقاً؟

- الرياضيات تشير إلى أن ذلك ممكن - أجابه الفيزيائي -

لكن، الآن، أخبرني، هل تعرف ما هي القبالة؟

- نعم، بطبيعة الحال. أنا مؤرخ، ومتخصص في اللغات القديمة وفكّ التشفير. من واجبي أن أعرف ما هي القبالة. ثم إنني قضيت سنوات في تعلم اللغتين العبرية والآرامية، وهذا مجال أشعر أنني أتحرك فيه بارتياح.

- هذا جيد، ستفهم، إذن، بشكل كامل العلاقة بين واحدة من نظريات الفيزياء الأكثر تقدماً، نظرية الحبال، وبين القبالة. بدا طوماس حائراً.

- العلاقة بيت الفيزياء والقبالة؟ عن أي شيء نتحدث؟  
ابتسم الفيزيائي.

- أستاذ، أظن أنك تعرف ما هي «شجرة الحياة» . . .

- طبعاً - أجب المؤرخ - شجرة الحياة بنية قبلانية تشرح فعل نشأة الكون. وهي وحدة الخلق الأساسية، وأقل جزئية فيها تحتوي عناصر الكل. تتشكل من عشر سبحيروترات، أي عشر انبعاثات أظهرها الله أثناء عملية الخلق. وكل واحدة من هذه السبحيروترات تعادل صفة من صفات الله.

- أعد ما قلته، كم من السبحيروترات تحتوي عليها شجرة

الحياة؟

- عشرة.

- حسناً! - صاح لويس روشا مقتنعاً - وأتصور أنك تعرف

أيضاً ما هي الجيماتريا؟

- فعلاً - قال طوماس، وهو دائماً مرتاح في هذا المجال - إنها

تقنية من تقنيات القبالة تُؤوّل كلام الكتاب المقدس من خلال اللعب بالمقابلات الرقمية لحروف الأبجدية العبرية. حسب من يقرأون القبالة، فإن الله قد خلق الكون من أعداد وكلمات، كل عدد وكل رقم ينطوي على لغز وحله. مثلاً، أول كلمة في سفر التكوين هي «بيريشيت»، وتعني بالعبرية «في البداية». حسناً، لو قسمنا «بيريشيت» إلى كلمتين، سنحصل على «بيري»، وتعني خلق، و«شيت»، وتعني ستة. دام الخلق ستة أيام. هل رأيت؟ هذا شكل من أشكال الجيماتريا. أول كلمة في العهد القديم تتضمن أيام الخلق الستة.

هناك شكل آخر من أشكال الجيماتريا يقتصر على عدّ الحروف .  
مثلاً ، في سفر التكوين ، يُذكرُ أن إبراهيم أخذ معه ٣١٨ عبداً إلى  
معركة من المعارك . لكن قيمة رقم عبده أليعازر ، حسب من يؤولون  
القبالة ، هي ٣١٨ ، مما يعني أن إبراهيم لم يأخذ معه سوى هذا  
العدد .

- أرى أنك متضلع في هذا الموضوع - قال لويس روشا -

إذن ، أخبرني الآن ، ما هي جيماتريا أكبر اسم من أسماء الله؟

- حسناً . . . أكبر اسم من أسماء الله . . . هو «ووددهي  
فاهي» . لكن أعترف أنني لا أعرف الجيماتريا التي تعادل هذا  
الاسم . يجب أن أقوم بحساب ذلك . . .

- جيماتريا أكبر اسم من أسماء الله هي ستة وعشرون - أحنى

رأسه - كم حرفاً هناك في الأبجدية العبرية؟

- اثنان وعشرون .

- والآن ، سؤال أخير - قال الفيزيائي - حسب من يؤولون

القبالة ، كم هي دروب الحكمة التي قطعها الله كي يخلق الكون؟

- ستة وثلاثون . دروب الحكمة التي قطعها الله كي يخلق

الكون تعادل تركيبة عشر سبحيروتات شجرة الحياة مع اثنين وعشرين

حرفاً من حروف الأبجدية العبرية ، التي تنضاف إليها أربعة دروب .

ابتسم لويس روشا .

- هل لاحظت كل هذه المصادفات؟

- أية مصادفات؟

- عشر سبحيروتات لخلق الكون ، عشرة أبعاد في حبال

الفيرميونات لخلق المادة - قال - ستة وعشرون هي جيماتريا أكبر

اسم من أسماء الله ، ستة وعشرون هو عدد الأبعاد في حبال

البوزونات لخلق المادة . اثنان وعشرون هو عدد حروف الأبجدية

العبرية، واثنان وعشرون هو عدد الأبعاد التي تبقى مختفية في العالم الأصغر. ستة وثلاثون هو عدد الدروب التي قطعها الله لخلق الكون، وستة ثلاثون هو مجموع الأبعاد التي تهتز فيها البوزونات والفيرميونات - غمز بعينه مثل طفل عثر على مفتاح صندوق اللعب - هل يكون كل هذا من محض الصدفة؟

- على أي، هو . . . . حقاً مدهش .

- ما لاحظته أينشتاين هو أن النصوص المقدسة تنطوي على حقائق علمية عميقة، يستحيل معرفتها في تلك الفترة. ليس في الكتاب المقدس فحسب، بل أيضاً في النصوص الهندوسية، والنصوص البوذية، والنصوص الطاوية. كلها تنطوي على حقائق خالدة، نوع من الحقائق التي لم يبدأ العلم في اكتشافها إلا اليوم. والسؤال هو: كيف استطاع حكماء العصر القديم أن يصلوا إلى هذه المعارف؟

لزم صمتاً .

- وما هو الجواب؟ - سأله طوماس .

- لست أدري . لا أحد يعرف الجواب . ربما تكون مجرد صدفة . في النهاية، الإنسان يميل إلى رؤية أنماط في كل شيء . لكن، كما أن الجزيئات الدقيقة في تجربة تجربة أسبيكت ليست سوى ملازمات لحقيقي واحد، فإنه من الممكن أيضاً أن تشكل الحقائق العلمية المتضمنة في الكتابات المقدسة ملازمات لنفس الحقيقي الواحد . كأن الحكماء القدامى تلقوا الإلهام من شيء عميق، خالد، موجود في كل مكان لكنه لا يُرى .

- فهمتُ

- كل هذا لأقول لك إنه رغم أن أينشتاين والأستاذ سيزا لم يكونا يؤمنان بإله الكتاب المقدس، فإنهما كانا يريان معاً أن في

بعض المظاهر وتحت بعض الأشكال كانت الكتابات المقدسة تخفي بعض الحقائق العميقة.

ثم احتسبا جرعات قهوة أخرى.

مهما يكن، ورغم هذه المصادفات الغريبة، لم يكن الإله الذي يبحث عنه الأستاذ سيزا هو إله الكتاب المقدس - قال طوماس.

- بالفعل - وافق لويس روشا - لم يكن هو إله الكتاب المقدس. كان شيئاً مختلفاً. كان الأستاذ سيزا يبحث عن قوة خالقة، ذكية وواعية، وليس بالضرورة أخلاقية، طيبة، أو شريرة - قال، ثم تنهّد - بعد أن حدد مجال البحث وأعاد تحديد موضوع الدراسة، كان لا بدّ من معالجة مسألة أخرى: ماذا يعني إثبات وجود الله؟

ترك الفيزيائي السؤال معلقاً.

- هل تطرح السؤال عليّ أنا؟ - سأل طوماس متردداً، دون أن يعرف إن كان السؤال بلاغياً محضاً أم أنه يستوجب جواباً.

- نعم، بطبيعة الحال. ماذا يعني إثبات وجود الله؟

- حسناً... لست أدري، أعترف بذلك.

- هل يتعلق الأمر بتصميم منظار ضخم يسمح لنا برؤية الرب، بلحيته الكبيرة، وهو يلعب بالنجوم؟ هل يتعلق الأمر بتطوير معادلة رياضية تحتوي على الحمض النووي للرب؟

- إنه سؤال وجيه، من دون شك - قال طوماس - وما هو

الجواب؟

رفع لويس روشا ثلاثة أصابع.

- يركز الجواب على ثلاث نقط. النقطة الأولى، الله دقيق. من خلال نظرية الفوضى، مبرهنتي عدم الاكتمال ومبدأ اللايقين، ندرك أن الخالق قد أخفى توقيعه، وأنه قد اختبأ وراء حجاب

موضوع ببراعة حتى لا يراه أحد. وهذا، كما يظهر، يُصعب كثيراً مهمة إثبات وجوده - أخذ إصبعاً آخر - النقطة الثانية، لا يمكن فهم الله من خلال الملاحظة. بتعبير آخر، لا يمكننا أن نثبت وجوده من خلال منظار أو مجهر.

- ولمَ لا؟ - قاطعه طوماس.

- لأسباب عديدة - ردّ الفيزيائي - لنفترض أن الكون هو الله، كما كان يرى أينشتاين. فكيف نلاحظه في شموليته؟ كان الأستاذ سيزا قد توصل إلى استنتاج مفاده أن الفيزيائيين وعلماء الرياضيات يلاحظون الكون شيئاً ما كما يلاحظ مهندسٌ جهاز تلفاز. تصور لو طلبنا من مهندس أن يعطينا تعريفاً للتلفزة. سيقوم المهندس بملاحظة الجهاز، يفككه بالكامل ويقول، بعد ذلك، إن التلفزة مجموعة من الخيوط والدوائر الكهربائية المركبة بطريقة معينة - ثم أشار إلى طوماس بإصبعه - لكني، أسألك: هل تظن أن هذا يقدم جواباً كاملاً لسؤال ما هي التلفزة؟

- أظن أنه يعطي جواب مهندس.

- تماماً، إنه يعطي جواب مهندس. لأن التلفزة، بطبيعة الحال، أكثر من مجرد خيوط ودوائر كهربائية. التلفزة تبث برامج إخبارية وترفيهية، وتحدث وقعاً نفسياً على كل فرد، تسمح بإرسال رسائل، وإحداث آثار اجتماعية مهمة لها بعد سياسي وثقافي، إنها . . . شيء أكثر بكثير من وصف مكوناتها التقنية.

- هل تشير إلى تلك المسألة التي حدثتني عنها من قبل، الهارذوير والسوفتوير؟

- تماماً - قال لويس روشا موافقاً - المنظور الاختزالي، الذي يركز على الهارذوير، والمنظور الدلالي المدمج في السوفتوير. الفيزيائيون وعلماء الرياضيات ينظرون إلى الكون كما ينظر مهندس

إلى جهاز تلفاز أو إلى حاسوب. لا يرون سوى المادة والذرات، القوى والقوانين التي تحكمها، لكن كل هذا، بتمحيص النظر، ليس سوى الهارذوير. لأنه ما هي رسالة هذه التلفزة الضخمة؟ ما هو سوفتوير هذا الحاسوب العظيم؟ استنتج الأستاذ سيزا أن الكون يتوفر على برنامج، يتوفر على سوفتوير وله بُعد يتجاوز بكثير مجموع مكوناته. بتعبير آخر، الكون أكثر من مجرد الهارذوير الذي يشكله. إنه سوفتوير هائل، وما الهارذوير إلا آلية لإظهار هذا البرنامج.

- مثل كائن بشري - لاحظ طوماس.

- تماماً. يتشكل الكائن البشري من خلايا، وأعضاء، ودم وأعصاب. هذا هو الهارذوير. لكنه بنية معقدة لديها وعي؛ يضحك، يبكي، يفكر، يغني، يعاني ويرغب. في الحقيقة، نحن أكثر، أكثر بكثير، من مجرد الأجزاء التي تشكلنا. جسمنا هو الهارذوير الذي يمر من خلاله سوفتويرٌ وعينا - وقام بحركة واسعة من ذراعيه - وهذا ينطبق أيضاً على أعمق حقيقة في الوجود. الكون هو الهارذوير الذي يمر من خلاله سوفتوير الله.

- إنها فكرة جريئة - لاحظ طوماس - لكنها تملك منطقاً خاصاً.

- وهذا ما يحيلنا على مسألة اللامحدود! - صاح الفيزيائي - لاحظ، إذا كان الكون هو هارذوير الله، فإن هذا يطرح عدة أسئلة غريبة. مثلاً، إذا كنا نحن البشر جزءاً من الكون فهذا يعني أننا نشكل جزءاً من الهارذوير، أليس كذلك؟ ولكن، ماذا نحن بدورنا، هل نحن كون؟ هل يكون الكون شخصاً كبيراً جداً، كبيراً لدرجة أنه يصبح غير مرئي؟ شخص كبير جداً بالنسبة لنا كما نحن كبار بالنسبة لخلايانا؟ هل نكون نحن بالنسبة للكون كما هي الخلايا العصبية بالنسبة لنا؟ هل نحن خلايا عصبية لكائن أكبر بكثير؟ هل الكون كيان

عضوي نشكل نحن أدق خلاياه؟ هل نكون إله خلايانا ونحن خلايا الإله؟

ظلاً لحظة وهما يتأملان هذه الأسئلة.

- ما رأيك - سأله طوماس .

- أظن أن مسألة اللامحدود شائكة - أجاب لويس روشا -  
أتعرف، نحن الفيزيائيين نبحث عن الجزيئات الأساسية، لكن ما إن نجد واحدة منها حتى ندرك، في الأخير، أنها تتشكل من جزيئات أصغر منها بكثير. في البداية، كنا نعتقد أن الذرة هي البنية الأساسية. بعد ذلك، اكتُشف أن الذرة تتشكل من جزيئات أصغر منها، هي البروتونات، والنيوترونات والإلكترونات. وساد الاعتقاد بأنها تشكل البنيات الأساسية، لكن اكتُشف، أخيراً، أن البروتونات والنيوترونات تتشكل بدورها من جزيئات أخرى أصغر منها بكثير، وهي الكواركات. وهناك من يعتقد أن هذه الكواركات بدورها تتشكل من جزيئات أصغر وأكثر دقة تحتوي هي أيضاً على جزيئات أدق. إن الكون الأصغر دقيق بشكل لامحدود.

- كما في مفارقة زينون - علق طوماس مبتسماً - كل شيء قابل للقسمة على اثنين.

- تماماً - أكد الفيزيائي - ولنفس السبب، كل شيء قابل للضرب في اثنين. مثلاً، كوننا شاسعٌ، أليس كذلك؟ لكن، آخر النظريات في مجال دراسة الكون تقبل إمكانية أن كوننا واحد فقط من بين ملايين الأكوان الأخرى. لقد نشأ كوننا، وهو الآن يكبر، وسوف يموت كما أثبت ذلك القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية. لكن، إلى جانبه، سوف توجد أكوان أخرى مشابهة. كما لو أن كوننا لم يكن سوى فقاعة زبد، تجاورها فقاعات مشابهة، وسط محيط شاسع - لزم صمتاً - يسمّونه الميتاكون.



- إذن، الكون لا محدود فعلاً.

- إنها إمكانية. لكنها ليست الإمكانية الوحيدة.

- هل هناك إمكانية أخرى؟

- يمكن أيضاً أن يكون الكون محدوداً.

- أن يكون الكون محدوداً؟ وهل تظن أن هذا ممكن؟

- اسمع، إنها إمكانية أخرى.

- ولكن، كيف يكون هذا ممكناً؟ إن كان الكون محدوداً، فماذا

يوجد عند حدّه؟

- قد يكون محدوداً، من غير أن يكون له حد.

- كيف ذلك؟ لا أفهم...

- هذا بسيط. بدأ البحارة البرتغالي فرناندو ماجلان رحلته

متجهاً نحو الغرب. ثم أبحر، أبحر، وأبحر، وفي الأخير، بشكل

مفاجئ، عاد إلى نقطة الانطلاقة - رفع لويس روشا يديه وأدارهما

كأنه يمسك كرة - بتعبير آخر، أثبت ماجلان أن الأرض محدودة،

دون أن يكون لها حدّ. ويمكن أن يكون الكون أيضاً كذلك.

محدود، من دون أن يكون له حدّ.

- فهمتُ.

أنهى كلاهما شرب القهوة.

- كل هذا لأقول لك إن مسألة دليل وجود الله ترتكز على ثلاث

نقط أساسية. الأولى أن الله دقيق، والثانية أننا لا نستطيع ملاحظته

من خلال منظار أو مجهر. لكن، رغم كل هذه الصعوبات، هناك

طريقة غير مباشرة للوصول إلى دليل وجود الله.

- وما هي؟

- بالاعتماد على خاصيتين أساسيتين: الذكاء والغائية. لمعرفة

ما إذا كان الكون قد خُلق من لدن ذكاء واع، كان على الأستاذ سيزا أن يجيب عن سؤال جوهرى: هل ثمة ذكاء وغاية في خلق الكون؟ - أحنى رأسه - لم يكن كافياً أن يكون الجواب بالتأكيد بالنسبة لواحدة من هاتين النقطتين. كان لا بد أن يكون بالتأكيد لكليهما. هل فهمت؟

علت وجهه كوماس تكشيرة شك.

- لم أفهم جيداً. لا يكفي إثبات أن هناك ذكاء؟

- طبعاً، لا. إذا ما لاحظنا دوران الأرض حول الشمس، يبدو أن هناك ذكاء في هذه الحركة. لكن هل هذا الذكاء مقصود أم عرضي؟ لأنه، في نهاية المطاف، يمكن أن يكون مجرد صدفة، أليس كذلك؟ إذا كان الكون كبيراً من دون حدّ، فإن من بين كل الأوضاع اللامحدودة المختلفة لا بد أن لبعضها نفس خصائص وضعيتنا. لكن، لو كان ذكاء الكون عرضياً، فإنه يستحيل أن نرى في ذلك يد الله. لذا، يجب أن نحدد أيضاً إن كانت هناك غاية. - فهمتُ.

- المشكلة أن مفهوم القصدية يصعب التحقق منه. أي أستاذ لمادة الحقوق سيقول لك هذا. أثناء المحاكمات، واحدة من الصعوبات بالضبط هي تحديد قصد المتهم مما أقدم على فعله. المتهم قتل شخصاً، لكن هل أراد فعل ذلك أم أن القتل حدث بشكل عرضي؟ فالمتهم يعرف أن القتل عن قصد أخطر، لذلك فإنه، عموماً، يدعي أنه لم يكن يقصد القتل، وأن كل ذلك حدث بسبب تضافر عدة ظروف، فكانت مجرد صدفة فظيعة. تكمن الصعوبة في تحديد قصدية الفعل - فتح ذراعيه - ونفس الأمر ينطبق على الكون. ونحن ننظر إلى كل ما يحيط بنا، نلاحظ أن هناك ذكاء خارقاً في تصور الأشياء. لكن، هل هذا الذكاء عرضي أم أن هناك قصدية وراء

كل ذلك؟ وإن كانت ثمة قصدية فما هي؟ وأخيراً، وهذه نقطة حاسمة، إن كانت ثمة قصدية، فهل من وسيلة لإثبات وجودها؟  
- ألا يوجد الجواب في استعارة الساعة التي حدثتني عنها في المرة الأخيرة؟

- نعم، ساعة ويليام بيلي حجة قوية. إن وجدنا ساعة فوق الأرض وفحصناها سرعان ما ندرك أنها من تصميم كائن ذكي يتصرف وفق قصد معين. إذن، إن كان هذا صحيحاً بالنسبة لشيء بسيط بساطة ساعة صغيرة، فلماذا لا يكون كذلك بالنسبة لشيء أكثر ذكاءً وتعقيداً مثل الكون؟

- تماماً. ألا يمكن أن يكون هذا دليلاً؟

- إنه مؤشر قوي على الذكاء والقصدية، لكنه ليس دليلاً.

- إذن، كيف يمكن وضع دليل؟

نهض لويس روشا من كرسيه.

- أينشتاين هو من قدم الخيط.

- أي خيط؟

نهض الفيزيائي من مكانه ودعا طوماس ليتبعه إلى خارج تلك

الغرفة الضيقة.

- اتبعني - قال - سوف أريك الطريقة الثانية.

مكتبة

t.me/t\_pdf

# 39

قطعا السجاد الأحمر الطويل وعبرا المكتبة بكاملها. كان لويس روشا يبدو مثل مرشد يقود طوماس نحو لوحة كبيرة تغطي جداراً في الخلف تمثل صورة لجواو الخامس، الملك الذي تحمل المكتبة اسمه. وضع الفيزيائي أغراضه فوق بيانو أنيق ذي لون أسود ينتصب عند أسفل اللوحة وأشار إلى طوماس أن يتبعه.

- تعال - قال له.

توجه نحو صف من الأقواس تؤدي إلى آخر قاعة، فتح باباً مخفياً في الجدار ثم انغمس في العتمة. رغم الدهشة، اقتفى طوماس خطوات الفيزيائي. صعدا معاً سلالم صغيرة غارقة في الظلام تؤدي إلى الطابق الأول، فوق جسر خشبي ضيق ثم سارا فوقه حتى بلغا الجزء العلوي من اللوحة. فحص لويس الطابق الثالث على اليسار، أخذ مجلداً أبيض، دسّ يده في الفراغ الذي تركه الكتاب ثم أخرج محفظة ورقية زرقاء، أعاد المجلد إلى مكانه وأشار إلى ضيفه أن يعودا معاً عبر نفس الطريق.

- ما هذا؟ - سأله طوماس حائراً، بعد أن عادا إلى الطابق السفلي.

- إنها الطريقة الثانية - كشف له لويس روشا وهو يسترخي على

كرسي قرب البيانو، تحت النظرات الجامدة لجواو الخامس - الدليل العلمي على وجود الله الذي وضعه الأستاذ سيزا.

وقعت عينا طوماس على المحفظة. كانت محفظة ورقية بالية تظهر عليها شعارات جامعة كويمبرا، يلقيها خيط مطايطي.

- لكن، ماذا يفعل مخطوط بهذه الأهمية هنا؟ - سأل المؤرخ مندهشاً - هل كان الأستاذ سيزا يحتفظ بأغراضه في المكتبة؟

- كلا، طبعاً. لكن، بعد اختطاف الأستاذ، أصابني خوف شديد. عندما استعرضتُ لائحة الأشياء التي سرقوها من بيته، ولم أجد مخطوط أينشتاين فكرتُ أن كل البحث كان في خطر. لذلك قررتُ أن أخرج من بيته كل الوثائق التي لها علاقة بالبحث. احتفظتُ بها في بيتي لبعض الوقت، لكن ذلك زاد من توترتي ففكرت أنها لم تكن في مكان آمن. إذا كانوا قد اقتحموا شقة الأستاذ، فيمكانهم أن يقتحموا شقتي أيضاً. قررتُ، إذن، أن أوزع بعض الوثائق الأقل أهمية على عدة زملاء، كوالدك، مثلاً - ثم تلمس الملف الورقي - لكن المشكلة كانت هي ما تحويه هذه المحفظة، الطريقة الثانية، وهي أهم وثيقة. أبيتُ أن أستودع أياً كان هذه المحفظة، ولكنني لم أكن أستطيع أن أحتفظ بها في بيتي أيضاً - ثم أشار بإصبعه إلى الرف الذي أخرجها منه - وحينئذ خطر لي أن أخبئ هذه المحفظة في ذلك الثقب هناك في الأعلى، قرب صورة الملك بالضبط، خلف صف من الكتب.

- هل كنت خائفاً إلى هذا الحد؟

- وكيف لا أكون خائفاً؟ لم يكتف المختطفون باختطاف الأستاذ بل أخذوا المعادلة الإلهية أيضاً، وأصبح واضحاً بالنسبة لي أن هناك علاقة بين الاختطاف والبحث. وبما أنني كنتُ مشاركاً في

البحث، فقد أصابني قلق شديد. يمكن أن يأتي المختطفون ويطلقوا باب بيتي أيضاً - طبعاً.

صمت لويس روشا ونظر من حوله. رفع ذراعيه وقام بحركة واسعة من يديه شملت كل مكتبة جوانينا.

- هل تعرف، كان الأستاذ سيزا يقول إن هذه المكتبة هي مجازاً يعبر عن توقيع الله في الكون.

- توقيع الله في الكون؟ لا أفهم...

- إنها صورة استلهمها من أحاديثه مع أينشتاين - أشار بإصبعه إلى الرفوف المليئة بالكتب - تصور أن يدخل طفل إلى هذه المكتبة ويكتشف كل هذه الكتب، المحررة بلغات يجهلها، معظمها باللاتينية. طبعاً، الطفل يعرف أن أحداً ما ألف هذه الكتب وأنها تكشف عن بعض الأشياء، حتى وإن كان يجهل من كتبها ولا يعرف ما تقول. بالإضافة إلى أن الطفل لا يعرف اللاتينية. يشك أن المكتبة بكاملها تخضع لنظام، وهذا النظام يبدو له ملغزاً - وضع يده على صدره - إننا نشبه هذا الطفل والكون مثل هذه المكتبة. الكون يحتوي على قوانين، وقوى وثوابت خلقها أحد ما، لهدف ملغز ووفق نظام غير مفهوم بالنسبة لنا. ندرك القوانين بشكل غامض، نفهم الخطوط الكبرى للنظام الذي يدير كل شيء، ونلاحظ بشكل سطحي كيف تتحرك بطريقة معينة الذرات ومجموعات النجوم. تماماً مثل الطفل، نجعل التفاصيل ولا نملك سوى فكرة غامضة عن المعنى العام. لكن ثمة شيء نحن متأكدون منه: كل هذه المكتبة مرتبة عن قصد. حتى إن لم نكن قادرين على قراءة الكتب، حتى إن كنا لا نستطيع أن نتعرف أبداً على المؤلفين، الحقيقة أن هذه الكتب تنطوي على رسائل وأن هذه المكتبة مرتبة وفق نظام ذكي. هذا هو حال الكون.

- هل هذا هو الخيط الذي قدمه أينشتاين للأستاذ سيزا كي يجد الطريقة الثانية؟

- لا. إنها الصورة المجازية التي كان يستعملها الأستاذ سيزا ليشرح الذكاء القصدي للكون، مجازاً استلهمه من أحاديثه مع أينشتاين.

بدا طوماس متسائلاً.

- إذن، ما هو الخيط الذي قدمه أينشتاين؟

سحب لويس روشا الخيط المطاطي من حول المحفظة وفتحها. كانت تعج بالوثائق والتعليقات المدونة، معظمها مليئة بالمعادلات التي يستعصي فهمها على الأشخاص العاديين. تصفح الفيزيائي الصفحات حتى وجد صفحة خاصة.

- ها هي - قال - انظر.

انحنى طوماس على التعليق.

- ما هذا؟

- إنها جملة مشهورة لأينشتاين. يقول: «ما يهمني حقاً هو أن أعرف هل كان بإمكان الله أن يصنع الكون بطريقة أخرى، أي إن كانت الحاجة إلى بساطة منطقية تترك شيئاً من الحرية».

- وهل هذا خيط؟

- نعم. كان الأستاذ سيزا دائماً يعتبر هذه الجملة خيطاً يقوده في أبحاثه عن الطريقة الثانية، وإذا ما محصنا في ذلك فمن السهل أن نفهم لماذا. لأن ما يطرحه أينشتاين هنا هو حتمية الكون كما هو موجود ومسألة الحتمية. أي، وهذا هو السؤال الجوهرى: لو كانت ظروف البداية مختلفة، فإلى أي حد سيكون الكون مختلفاً؟

- هممم.

- طبعاً، وقتئذ كان من الصعب جداً الجواب عن هذا السؤال.

مثلاً، كانت تنقص النماذج الرياضية لمعالجته. لكن، بعد عقد من الزمن، تغير كل شيء مع ظهور نظرية الفوضى، التي قدمت وسائل رياضية دقيقة جداً لمعالجة مسألة تغيير الظروف الأولى لنظام معين.

- إنني لا أفهم - قال طوماس - ماذا تعني بالظروف الأولى؟

- إن عبارة «الظروف الأولى» تحيل على ما حدث في اللحظات الأولى من خلق الكون، مع تشتت الطاقة والمادة. لكن، ينبغي أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار قوانين الكون، نظام مختلف القوى، والقيم الثابتة للطبيعة... كل شيء، كل شيء على الإطلاق. انظر، مثلاً، إلى ثوابت الطبيعة، ألا تظن أنها تشكل عنصراً حاسماً في هذا الحساب؟

- القيم الثابتة للطبيعة؟

- نعم - قال لويس روشا وقطب حاجبه - أفترض أنك تعرف بأي شيء يتعلق هذا الأمر؟  
- لا.

- آه، عفواً، نسيت أنني أتحدث مع شخص غير متخصص! -  
صاح الفيزيائي، وهو يرفع يده معتذراً - ثوابت الطبيعة هي كميات تلعب دوراً أساسياً في تصرف المادة ولها مبدئياً نفس القيمة في كل أرجاء الكون، وفي كل لحظة من لحظات تاريخه. مثلاً، ذرة من الهيدروجين هي نفسها في الأرض أو في أي مجرة بعيدة. بل، أكثر من هذا، تمثل ثوابت الطبيعة سلسلة من القيم الملغزة التي توجد في قلب الكون وتمنحه مجموعة من مميزاته الحالية، لتشكل ما يشبه سنناً ينطوي على أسرار الكون.

علت وجه طوماس ابتسامة حائرة.

- آه، نعم؟ لم أسمع بها قط

- أصدقك. هناك أشياء عديدة يكتشفها العلماء ولكن معظم



الناس لا يعرفونها بكل بساطة. ولكن هذه الثوابت تعتبر معطى أساسياً، لأنها تشكل خاصية غريبة من خصائص الكون وتؤثر في كل ما يحيط بنا. اكتُشف أن حجم وبنية الذرات، والجزيئات، والأجسام، والكواكب، والنجوم لم تكن نتيجة صدفة ولا ثمرة مسلسل انتقاء، بل محصلة لهذه القيم الثابتة. وعليه فإن السؤال الذي يطرحه الأستاذ سيزا بسيط جداً: ماذا لو أن قيم ثوابت الطبيعة كانت مختلفة بعض الشيء؟

- كيف ذلك، مختلفة؟

- حسناً، لو أن قوة الجاذبية كانت أضعف أو أقوى قليلاً مما هي عليه، لو كان الضوء يتحرك في الفراغ بسرعة أقل قليلاً أو أكبر مما هي عليه الآن، لو أن ثابت بلانك، الذي يحدد أصغر وحدة طاقة، كانت قيمته مختلفة شيئاً ما . . . باختصار، هذا النوع من الأمور. ماذا سيحدث لو أن هذه الثوابت شهدت تغيرات خفيفة؟  
ران صمّت.

- ماذا اكتشف الأستاذ سيزا؟ - سأل طوماس وهو يفيض فضولاً.

أحنى الأستاذ سيزا رأسه.

- لست أدري إن كنتَ تذكرُ، لكن عندما حضرتَ الدرس الذي ألقيته هنا قبل بضعة أسابيع، تحدثتُ عن مسألة أوميغا. أتذكر ذلك؟  
- طبعاً.

- ماذا تذكر مما قلته؟

- حسناً . . . قلت إن هناك نهايتين محتملتين للكون. إما أن ينتهي مسلسل تمدد الكون ويبدأ في الانكماش، حتى ينسحق . . .  
- إنه البيغ كراش . . .

- . . . أو يتابع مسلسل تمّده إلى ما لا نهاية حتى يستنفد كل طاقته فيتحول إلى مقبرة جامدة.

- إنه البيغ فريز أو التجمّد الكبير. وهل تذكر ما سبب هذا؟

- أظن أنها . . . الجاذبية، أليس كذلك؟

- تماماً! - صاح الفيزيائي وهو يحرك رأسه موافقاً - أرى أنك

قد فهمت ما شرحته أثناء الدرس. إذا تمكنت سرعة التمدّد من هزم

قوة الجاذبية، فإن الكون سيتمدد إلى الأبد. إن لم تتمكن من ذلك،

فسيعود الكون إلى نقطة البداية، تماماً مثل قطعة نقدية نلقي بها في

الهواء وتسقط مرة أخرى في النهاية. ما دامت تصعدُ فإنها تهزم

الجاذبية، لكن، بعد ذلك، تنتصر الجاذبية في نهاية المطاف.

- هذا إذن، أتذكّر هذا المثال.

رفع لويس روشا إصبعاً.

- إلا أنني لم أقل كل شيء. ثمة فرضية ثالثة، أن تكون قوة

التمدّد هي تماماً نفس قوة جاذبية كل المادة الموجودة. إن إمكانية

حدوث هذا الأمر ضئيلة جداً، بالطبع، لأنه قد تكون مصادفة رائعة

أن تعاكس الجاذبية التي تمارسها كل المادة تمدّد الكون، نظراً لحجم

القيم الكبيرة التي توجد على المحك، ألا تظن ذلك؟

- حسناً . . . نعم، أظن أن الأمر كذلك.

- ومع ذلك، هذا ما تقوله لنا الملاحظة. الكون يتمدد بسرعة

تقترب بشكل عجيب من الخط الحاسم الذي يفصل كوّن البيغ فريز

عن كوّن البيغ كُرانش. لقد اكتُشف أن التمدّد في تسارع، مما يوحي

بتجمّد كبير في المستقبل، لكن هذا بعيدٌ كل البعد عن اليقين. في

الحقيقة، مهما بدا ذلك أمراً لا يصدق، نحن نوجد على الخط الذي

يفصل بين الإمكانيتين.

- آه، نعم؟

- غريب، أليس كذلك؟ وهذا يعني، يا عزيزي، أننا فزنا بالجائزة الكبرى.

- كيف ذلك؟

- بسيط جداً. تصور فقط الحجم الهائل من الطاقة التي تحررت لحظة نشأة الكون. هل تظن أنه يمكن التحكم في هذا التدفق الهائل؟  
- طبعاً، لا.

- بكل تأكيد، لا. نظراً لقوة البيغ بانغ العنيفة، فإنه لا يمكن التحكم في التمدد. هذه القوة ينبغي لها أو لا ينبغي لها أن تهزم قوة جاذبية كل المادة. ومن غير المحتمل بشكل كبير جداً أن يحدث توازن بين التمدد والجاذبية. ومع ذلك، يبدو كلاهما قريبين جداً من نقطة التوازن. وهذا، يا عزيزي، هو الفوز العظيم في اليانصيب. لأنه، إن كان البيغ بانغ حدثاً عرضياً يستحيل التحكم فيه، فإن احتمال بقاء الكون في حالة فوضى أبدية، وإنتروبيا قصوى، قد يكون مرتفعاً بشكل هائل. إن وجود بنيات ذات إنتروبيا منخفضة يعتبر لغزاً كبيراً، كبيراً جداً لدرجة أن بعض علماء الفيزياء يتحدثون عن صدفة لا تصدق. لو أن كل الطاقة التي تحررت مع البيغ بانغ كانت أضعف بجزء صغير جداً، لتراجعت المادة إلى الوراء وسقطت في ثقب أسود كبير. لو أن الطاقة كانت أقوى من ذلك بشكل قليل جداً، لتشتتت المادة بسرعة كبيرة لدرجة قد لا تسمح حتى بتكوّن المجرات.

- حين نتحدث عن جزء أضعف أو أقوى، عن أي شيء نتحدث؟ عن فرق خمسة في المئة، عشرة في المئة؟

ضحك لويس روشا.

- لا - قال - إنني أتحدث عن أجزاء ضئيلة جداً - أخذ لويس روشا قلماً - قام الأستاذ سيزا بحسابات واكتشف أن هذه الطاقة،



لتنظيم الكون هي التي تحررت. أي فقط الطاقة الضرورية بكل دقة كي يوجد الكون - قال، ثم تصفح صفحات أخرى - هذا الاكتشاف المدهش هو ما دفع الأستاذ سيزا لدراسة الظروف الأولية لنشأة الكون.

- البيغ بانغ؟

- نعم، البيغ بانغ وما تلاه - وتابع يتصفح الملاحظات إلى أن توقف عند إحدى الصفحات - مثلاً، مسألة خلق المادة. عندما حدث التمدد الكبير المُولد للخلق، لم تكن ثمة مادة. كانت الحرارة عالية، عالية جداً لدرجة أن الذرات لم تستطع أن تتشكل. كان الكون وقتئذ عبارة عن حساء يغلي من الجزيئات والجزيئات المضادة الناتجة عن الطاقة، التي كانت تقضي بعضها على بعض من دون توقف. هذه الجزيئات، الكواركات والكواركات المضادة، متطابقة، لكن بشحنات مضادة، لدرجة أنها تنفجر عند أدنى تلامس وتصبح طاقة من جديد. ومع استمرار تمدد الكون، انخفضت الحرارة، مما سمح للكواركات والكواركات المضادة أن تشكل جزيئات أكبر، تسمى هادرونات، لكنها ظلت تقضي بعضها على بعض. هكذا نشأت المادة والمادة المضادة. بما أن كميات المادة والمادة المضادة كانت متطابقة وتواصل القضاء بعضها على بعض، فقد كان الكون يقتصر على هذه الجزيئات السريعة الزوال، من دون إمكانية تشكّل مادة دائمة. هل تفهمني؟

- نعم.

- ومع ذلك، لسبب ملغز جداً، بدأ تشكّل المادة يفوق بشكل طفيف تشكّل المادة المضادة. مقابل كل عشرة آلاف مليون جزيئة مضادة، كانت تشكّل عشرة آلاف مليون وجزئية واحدة. ثم كتب المقارنة بالقلم اللبدي.

- هل رأيتَ؟ - قال وهو يريه ما كتب من أرقام - فرق قليل جداً، يكاد يكون تافهاً. ومع ذلك، كان كافياً لإنتاج المادة. أي عشرة آلاف مليون مضادة دمّرت عشرة آلاف مليون جزيئة، لكن كانت تبقى دائماً واحدة لم تتعرض للتدمير. وهذه الجزيئة الناجية تحديدا هي التي شكلت المادة، بعد التحاقها بالجزيئات الأخرى الناجية في نفس الظروف - ثم ضرب الورقة بإصبعه - بتعبير آخر، انتبه الأستاذ سيزا إلى أن نشأة الكون نتجت عن صدفة عجيبة مرة أخرى. لو أن عدد الجزيئات والجزيئات المضادة لم يتغير، وهو ما يبدو أمراً طبيعياً، فإن المادة ما كانت لتكون - وأبتسم - ومن دون المادة، ما كنا لنكون هنا.

- فهمتُ - همهم طوماس مندهشاً - هذا مذهل .

- كل هذا بفضل جزيئة إضافية - قال، ثم حدد صفحة أخرى - هناك مسألة أخرى يتطلب فيها الكون دقة مذهشة، وهي التجانس. إن توزيع طاقة المادة متجانس جداً، لكن تجانسها ليس كاملاً. عندما حدث البيغ بانغ، كانت الفروق في الكثافة ضئيلة جداً، وبعد ذلك بدأت تكبر مع مرور الوقت بسبب عدم استقرار جاذبية المادة. مرة أخرى، اكتشف الأستاذ سيزا أن هذه الدقة كانت ضربة حظ أخرى لا تصدق. إن درجة عدم التجانس ضئيلة بشكل مذهل، بنسبة واحد من مئة ألف، وهي بالضبط النسبة الضرورية التي تسمح للكون بإعادة التشكّل. لا أقل ولا أكثر. لو كانت هذه النسبة أكثر بقليل من هذا، لتحولت المجرات بسرعة إلى كتل كثيفة ولتشكلت ثقوب سوداء قبل أن تتوفر الظروف المواتية لخلق الحياة. من جهة أخرى، لو أن درجة

عدم التجانس كانت أقل من ذلك بشكل ضئيل، لكانت كثافة المادة ضئيلة أكثر من اللازم ولما تشكلت النجوم. بتعبير آخر، كان لا بدّ للتجانس من أن يكون تماماً كما كان حتى تكون الحياة ممكنة. كانت احتمالات أن يكون كذلك ضئيلة، ولكنها تحققت.

- هذا ما أراه.

- وجود النجوم التي لها بنية شبيهة ببنية الشمس، موالية للحياة، هي ناتجة عن ضربة حظ أخرى - قال وهو يرسم نجمة على صفحة بيضاء - انظر، بنية النجمة تتركز على توازن داخلي دقيق. إذا كان إشعاع الحرارة قوياً جداً، تتحول النجمة إلى نجمة ضخمة زرقاء وإن كان الإشعاع ضعيفاً جداً تتحول النجمة إلى نجمة حمراء. ستكون الأولى مفرطة الحرارة وستكون الثانية مفرطة البرودة، ولن يكون لأي منهما كواكب على الأرجح. لكن معظم النجوم، بما فيها الشمس، تقع بين هذين الحدين، والأروع من ذلك أن النسب التي تفوق هذين الحدين محتملة جداً، لكنها لم تحدث. وبدل هذا، علاقة القوى وعلاقة كتل الجزئيات لها قيمة تبدو كأنها حددت كي تقع معظم النجوم بين الحدين، مما يسمح بوجود وهيمنة نجوم مثل الشمس. يكفي أن تتغير قليلاً نسبة الجاذبية، القوة الكهرومغناطيسية أو علاقة الكتل بين الإلكترون والبروتون حتى يصبح الكون المحيط بنا مستحيلًا.

- هذا مدهش - علق طوماس وهو يحرك رأسه - لم تكن لدي أدنى فكرة عن هذا كله.

تصفح لويس روشا مرة أخرى صفحات الملاحظات.

- بعد تحليل الظروف الأولية للكون، كرس الأستاذ سيزا اهتمامه للجزئيات الدقيقة - ثم توقف عند صفحة أخرى مليئة بالمعادلات - مثلاً، بدأ يدرس ثابتين أساسيتين من الثوابت

الطبيعية، وخصوصاً نسبة كتل الإلكترونات والبروتونات، التي تسمى «ثابتة بيتا»، وقوة التفاعل الكهرومغناطيسي، التي تسمى «ثابت البناء الدقيقة»، أو «ألفا». غير نسبها ثم قام بإحصاء عواقب ذلك التغيير. وهل تعرف ماذا اكتشف؟

- أخبرني.

- إذا حدث تزايد طفيف في «بيتا» فإن بنيات الجزيئات المنظمة لن تكون ممكنة، بما أن القيمة الحالية لبيتا هي التي تحدد الوضعيات المحددة والقارة لنويات الذرات وتُجبر الإلكترونات على التحرك وفق مسارات دقيقة جداً حول هذه النويات. إن تغيرت نسب بيتا بشكل طفيف قد تحدث رجة قوية في الإلكترونات تحول دون تحقق مسلسل دقيق، مثل تكاثر الحمض النووي. من جهة أخرى، إن النسبة الحالية لبيتا، في علاقتها بألفا، هي التي تنتج في النجوم ما يكفي من الحرارة لتوليد تفاعلات نووية. لو أن بيتا تجاوزت بـ ٠,٠٠٥ القيمة المربعة لألفا، فلن تكون ثمة نجوم. ومن دون نجوم، لن تكون هناك شمس. ومن دون شمس، لن تكون هناك من أرض ولا من حياة.

- لكن، هل الهوامش ضيقة إلى هذا الحد؟

- إنها ضيقة جداً. وهذا ليس هو كل ما في الأمر.

- وماذا؟

- حسناً، لو أن ألفا ازدادت فقط بنسبة أربعة في المئة، سوف يستحيل تولّد الكربون في النجوم. ولو ازدادت بنسبة ١٠،٠ في المئة، لن يحدث انصهار في النجوم. ومن دون كربون ولا انصهار نجوم لن تكون هناك من حياة. بتعبير آخر، حتى يكون الكون قادراً على خلق الحياة، من الضروري أن تكون نسبة ثابتة البناء الدقيقة تماماً كما هي عليه. لا أقل ولا أكثر.



حدد الفيزيائي ورقة أخرى من الملاحظات .

- كما أن الأستاذ سيزا حلل القوة النووية القوية، تلك التي تُحدث الانصهار النووي في النجوم وفي القنابل الهيدروجينية . قام بعدة حسابات واكتشف أنه إن لم تكن القوة القوية قد ازدادت بنسبة أربعة في المئة، خلال المراحل الأولى من البيغ بانغ، فإن هيدروجين الكون بأكمله كان سيحترق بسرعة، ليتحول إلى هيليوم ٢ . ولكان ذلك كارثة، لأن النجوم قد تستنفد بسرعة محروقاتها وقد تتحول بعضها إلى ثقوب سوداء حتى قبل أن تتوفر الظروف لخلق الحياة . من جهة أخرى، لو أن القوة القوية تقلصت بنسبة عشرة في المئة، قد يؤثر ذلك على نواة الذرات لدرجة تحوّل دون تشكل عناصر أثقل من الهيدروجين . والحال أنه من دون هذه العناصر الأكثر ثقلًا، ومن بينها الكربون، لا تكون ثمة حياة - قال وضرب بسبابته تلك الأرقام - بتعبير آخر، أثبت الأستاذ سيزا أن نسبة القوة القوية لا تتوفر على هامش ضئيل لخلق الشروط المواتية للحياة، وبمعجزة خارقة، فإنه في هذا الهامش بالضبط توجد القوة القوية .

- عجيب - همهم طوماس وهو يفرك ذقنه من دون شعور - عجيب .

تصفح لويس روشا عدة أوراق أخرى تعج بمعادلات غامضة .  
- من جهة أخرى، إن تحوّل الهيدروجين إلى هيليوم، الحاسم لوجود الحياة، مسلسل يستوجب دقة عالية . يجب أن يخضع التحول إلى نسبة دقيقة تصل إلى سبعة أجزاء من الألف من كتلته بالنسبة للطاقة . ولو نزل ذلك عن جزء بسيط واحد، لن يحدث أي تحول وينفد الهيدروجين بسرعة في الكون بكامله .

ثم كتب طوماس تلك النسب :



- فعلاً. ومع ذلك، خلال هذه اللحظة المتناهية القصر يجب على نواة البيريليوم المُشع أن تحدد موقع نواة الهيليوم ثم تصطدم بها وتمتصها، لتخلق ذلك الكربون. لكن، حتى يحدث كل هذا في وقت وجيز جداً، لا بد لطاقتي هاتين النواتين أن تكونا متطابقتين تماماً لحظة الاصطدام. وهذه مفاجأة أخرى، إنهما كذلك بالضبط! - ثم غمز بعينه - فوز آخر باليانصيب الأكبر! لو كان هناك فرق قليل، ولو ضئيل جداً، ما كان للكربون أن يتشكل أبداً. لكن، مهما بدا هذا الأمر مدهشاً، ليس هناك أي فرق. بفضل ضربة حظ غير متوقعة، تقع الطاقة المُشكَّلة للنجوم في نقطة محددة تسمح بانصهارها.

- هذا أمر لا يصدق - قال طوماس معلقاً.

- لكن، هناك أيضاً ضربة حظ أخرى - أضاف لويس روشا - لأن مدة اصطدام الهيليوم أقل من مدة حياة البيريليوم المُشع القصيرة جداً، وهذا ما يسمح بالتفاعل النووي الذي يُنتج الكربون. من جهة أخرى، هناك مشكلة الكربون الذي يتبقى بعد انتهاء النشاط النووي في النجمة، وهو ما لا يكون ممكناً إلا في ظروف خاصة جداً. وانظر ما يقع! بفضل صدفة أخرى رائعة، اجتمعت هذه الظروف كي يتحول الكربون إلى أوكسجين - قال ثم ابتسم - أعترفُ أن هذا شيء غير مفهوم بالنسبة لإنسان غير متخصص. لكن عالم فيزياء قد يرى في هذا كله حظاً لا يصدق. إنها أربع جوائز كبرى في ورقة يانصيب واحدة!

- يا إلهي! صاح طوماس ضاحكاً - سوف نصبحُ من أصحاب المليارات!

أخذ لويس روشا رزمة الأوراق المملوءة بالملاحظات والحسابات وأراها لمُحاوره.

- رأيَت؟ هذا يعج بالاكشافات من كل الأصناف والأنواع.

قضينا أنا والأستاذ سيزا السنوات الأخيرة نبحت ونصنف مصادفات غير محتملة وضرورية لخلق الحياة. الدقة العجيبة الموجودة في مختلف القوى، في حرارة الكون الأولية، في نسبة تمدده، وأيضاً المصادفات العجيبة الضرورية لوجود كوكبنا. مثلاً، مشكلة انحناء محور كوكب من الكواكب. نظراً للأصداء الناتجة عن دوران الكواكب ومجموع أجسام النظام الشمسي، ينبغي أن يكون للأرض تطور مضطرب في انحناء محور دورانها، وهو ما قد يحول دون وجود الحياة. هكذا، قد يقضي نصف الكرة الأرضية ستة أشهر تحت أشعة الشمس، من دون ليل، وستة أشهر أخرى تحت ضوء النجوم. لكن كوكبنا كان له حظ لا يصدق. أتعرف ما هو؟

- لا .

- ظهور القمر. إن القمر جسم كبير جداً لدرجة أن آثار دورانه تقلص زاوية انحناء كوكبنا، وهذا ما يجعل الحياة ممكنة.

- يا إلهي، حتى القمر!

- صحيح - قال الفيزيائي موافقاً - هل تعرف، كل التفاصيل تبدو كأنها تتواطأ كي تكون الحياة ممكنة فوق الأرض. مثلاً، تتوفر الأرض على كميات كافية من النيكل والحديد الذائب في نواتها لتُولد حقلاً مغناطيسياً ضرورياً لحماية الغلاف الجوي من الجزيئات القاتلة المنبعثة من الشمس. وهذا حظ كبير. وهناك مصادفة أخرى عجيبة تتمثل في أن الكربون هو العنصر الصلب الأكثر انتشاراً في الفضاء الحراري حيث يكون الماء في حالة سائلة. بل حتى المدار الأرضي حاسم. خمسة في المئة أقرب إلى الشمس أو خمسة عشر في المئة أبعد منها مسافة كافية لتمنع تطور أي شكل معقد من أشكال الحياة - قال ثم أعاد الصفحات إلى المحفظة - باختصار، لائحة المصادفات والأشياء غير المحتملة لا تنتهي على ما يبدو.

تملئ طوماس فوق الكرسي.

- إنني أفهم - قال وهو يحاول أن يستنتج معنى من كل تلك المعلومات. ولكن، ماذا يعني كل هذا؟

- أليس بديهياً؟ - صاح الفيزيائي مندهشاً - هذا يعني أنه ليست الحياة وحدها هي التي تكيّفت مع الكون، بل إن الكون، بدوره، تكيّف مع الحياة. بطريقة ما، كأنّ الكون كان دائماً على علم بأننا سوف نظهر على الأرض. إن وجودنا البسيط يبدو متعلقاً بسلسلة من المصادفات والأشياء غير المحتملة. إن خصائص الكون، كما هي مشكّلة، تعتبر شروطاً ضرورية لوجود الحياة. وهذه الخصائص يمكن أن تكون مختلفة إلى ما لا نهاية. وكل الخيارات الأخرى قد تؤدي إلى كون تنعدم فيه الحياة. حتى تكون هناك حياة، ثمة عدد كبير من المعايير التي ينبغي أن تُضبط على نسب محددة بشكل دقيق ومضبوط. وماذا نكتشف نحن؟ أن هذا الضبط موجود - ثم أغلق المحفظة - هذا ما نسمّيه المبدأ الأنثروبي.

- ماذا؟

- المبدأ الأنثروبي - كرر الفيزيائي - يعني المبدأ الأنثروبي أن الكون قد خُلِقَ عن قصد كي يستطيع أن يعيش فيه الإنسان. - فهمتُ.

- إنه التفسير الوحيد لهذه السلسلة المدهشة من المصادفات والأشياء غير المحتملة التي تسمح لنا بأن نكون هنا. فرك المؤرخ وجهه وهو يفكر.

- هذا مدهش حقاً - اعترف - لكن، يمكن أن يكون كل شيء من محض الصدفة، أليس كذلك؟ أعني، إنه من المستبعد جداً أن أربح اليانصيب، طبعاً. لكن، اليانصيب، أليس له من رابح؟ إن قانون الاحتمالات يقول إنه كذلك. من البديهي، أن كل هذا، من

وجهة من يربح اليانصيب، يبدو بعيد الاحتمال. ومع ذلك، لا بد أن يفوز شخص ما بالجائزة الكبرى لليانصيب.

- صحيح - اعترف لويس روشا - إلا أن الأمر هنا يتعلق بعدة ألعاب من اليانصيب. انظر، لقد فزنا بالجائزة الكبرى المتعلقة بدقة تمدد الكون، وجائزة دقة الحرارة الأولية، وجائزة دقة التجانس، وجائزة الهيمنة الخفيفة للمادة على المادة المضادة، وجائزة دقة ثابت البناء الدقيق، وجائزة دقة نسب القوى القوية والضعيفة وقوة الجاذبية، وجائزة دقة نسبة تحوّل الهيدروجين إلى هيليوم، وجائزة المسلسل الدقيق لتشكيل الكربون، وجائزة وجود معادن في نواة الأرض تخلق الحقل المغناطيسي، وجائزة مدار كوكب الأرض . . . باختصار، ربحتنا كل جوائز اليانصيب. كان يكفي أن تكون نسبة واحدة من هذه النسب مختلفة بشكل طفيف فيما يتعلق بعامل واحد من هذه العوامل . . . فلا تكون هناك أية حياة. لكن لا، كلها تتطابق. هذا رائع، ألا تعتقد ذلك؟ - ثم قام بحركة غامضة من يده - انظر، كأن أقوم بجولة عبر العالم وأشتري ورقة يانصيب في كل بلد أزوره. عندما أعود إلى بيتي، أكتشف أن كل الأوراق التي اشتريتها ربحت الجائزة الكبرى، كل الأوراق من دون استثناء! - ثم ضحك - من الواضح أنه، بفضل حظ عجيب، قد أفوز باليانصيب في بلد من تلك البلدان. لكن قد يكون أمراً في غاية الروعة أن أربح اليانصيب في بلدين اثنين. فما بالك لو ربحت اليانصيب في كل البلدان؟ حذار! قد أشك في الأمر بسرعة. لا داعي ليكون المرء عبقرياً كي يدرك أن في الأمر شيئاً ما غير عادي . . . مزحة، مثلاً. أو ربما تكون هناك سمسة قادرة. حسناً، هذا هو ما وقع مع الحياة. لقد فازت بالجائزة الكبرى في كل المعايير. كلها! - قال، ثم رفع إصبعاً - إذن، هناك استنتاج واحد: هناك خدعة، ووراء الأكمة ما وراءها.

- نعم، بالفعل . . . كل هذا الحظ يبدو شيئاً ما غير قابل للتفسير. عندما يكون مبلغ الصدقة كبيراً جداً فإن المُتسوّل يرتاب من الأمر . . .

انحنى لويس روشا فوق الكرسي.

- ما أريد أن أقوله، أستاذ نورونيا، هو أنه كلما لاحظنا الكون وحللناه، استنتجنا أنه يكشف عن الخاصيتين الأساسيتين الكامنتين في فعل قوة ذكية وواعية. الخاصية الأولى هي الذكاء الذي تم به تصور كل شيء. الخاصية الثانية هي القصدية في تخطيط الأشياء من أجل خلق الحياة. يكشف لنا المبدأ الأنثروبي أن ثمة قصدية في تصميم الحياة. الحياة ليست حادثاً، إنها ليست ثمرة الصدفة، وهي ليست نتاجاً عرضياً لظروف غير عادية. إنها النتيجة الحتمية لأبسط تطبيق للفيزياء والنسب الملعزة لهذه الثوابت - لزم صمتاً، كي يزيد من الوقع الدرامي لكلامه - لقد صُمم الكون ليُخلَق الحياة.

تردّد صدى الكلمات في مكتبة جُوانينا، وتبخرت في الصمت مثل سحابة في السماء.

- إنني أرى ذلك - همس طوماس - شيء مدهش ما تكشف عنه هذه الطريقة الثانية، مدهش، هذا أقل ما يمكن أن يقال.

- نعم - وافق لويس روشا - يُشكّل اكتشاف المبدأ الأنثروبي الطريقة الثانية لإثبات وجود الله - ثم أخذ من جديد رزمة الأوراق، وحدد صفحة كان قد اطلع عليها من قبل - هل تتذكر ذلك الخيط الذي أشار إليه أينشتاين؟

- نعم.

قرأ المؤرخ الملاحظات المكتوبة على الورقة.

- قال أينشتاين: «ما يهمني حقاً هو أن أعرف إن كان بإمكان الله أن يصنع الكون بطريقة أخرى، أي إن كانت الحاجة إلى

بساطة منطقية تترك شيئاً من الحرية» - ثم نظر إلى طوماس - هل تعرف جواب هذا السؤال؟

- على ضوء ما قلته لي للتو، لا يمكن أن يكون الجواب إلا بالنفي.

- تماماً. الجواب فعلاً هو لا - ثم حرك لويس روشا رأسه - لم يكن بإمكان الله أن يصنع الكون بطريقة أخرى - وقطب حاجبه ورسم ابتسامة شبه مأكرة على شفثيه - لكن، هناك شيء آخر لا تعرفه كذلك.

- شيء آخر؟ وما هو؟

- كما هو واضح، يشكل المبدأ الأنثروبي مؤشراً مهماً جداً على وجود الله. بما أن كل شيء قد نظم بعناية فائقة كي تكون الحياة ممكنة، فلأن الكون قد صمم، فعلاً، لخلقها. لكن يبقى هناك شكّ طفيف. إنه ضئيل، لكنه موجود، مثل شوكة انغرست في القدم، وتشكل عائقاً يمنعنا من امتلاك اليقين المطلق - ثم خفض صوته - وماذا لو كان كل هذا مجرد صدفة هائلة؟ وماذا لو كانت كل الظروف نتيجة لتضافر مصادفات مذهلة؟ لقد ربحتنا عدة جوائز في يانصيب الكون، هذا أمر مؤكد لا يقبل الشك، لكن، مهما بدا ذلك مستبعداً، هناك دائماً إمكانية صغيرة جداً بأن يكون كل هذا مجرد حادثة هائلة، أليس كذلك؟

- نعم، بكل تأكيد - وافق طوماس. هذا الاحتمال وارد.

- ما دام هذا الاحتمال الغامض قائماً، لا يمكن أن نقول بكل تأكيد إن المبدأ الأنثروبي هو الدليل النهائي. إنه مؤثر قوي، هذا صحيح، لكنه ليس دليلاً بعد.

- فعلاً، إنه ليس دليلاً بعد.

- هذا الاحتمال البعيد بأن يكون كل هذا مجرد حادث هائل



شغل كثيراً الأستاذ سيزا. كان يرى أن هذه الوضعية غير المريحة، هذا الشك الهامشي المزعج، يشكل جزءاً من دقائق الله المعتادة، التي وصفها أينشتاين. هكذا، وكما أن مبرهنتي عدم الاكتمال تُظهران أنه لا يمكن أن نبرهن على انسجام نسق رياضي رغم أن مقولاته الرياضية صحيحة، فإن هذا الاحتمال البعيد يمنعنا من أن نثبت، من دون أدنى شك ممكن، وجود قوة ذكية وراء هندسة الكون. كان يبدو للأستاذ سيزا أن الله كان يعود ليختبئ وراء مجموعة من المرايا بالغة الدقة، ليخفي دليل وجوده في اللحظة بالضبط التي نكون على وشك الوصول إليه.

- فمهتُ.

- إلى أن مرّ الأستاذ سيزا بلحظة إلهام بداية هذه السنة.

- عفواً؟

- نزل عليه الوحي.

- نزل عليه الوحي؟ كيف ذلك؟

- كان الأستاذ سيزا ذات يوم في مكتبه يدرس التصرف الفوضوي للإلكترونات داخل حقل مغناطيسي عندما خطر له، فجأة، أنه يمكن أن يقوم، دفعة واحدة، بحل الشك الأخير وتحويل المبدأ الأنثروبي ليس فقط إلى مؤشر قوي على وجود الله، بل إلى دليل نهائي على هذا الوجود.

تململ طوماس من جديد فوق الكرسي. انحنى قليلاً إلى الأمام وفرك عينيه.

- الدليل النهائي؟ هل توصل إلى الدليل النهائي؟

احتفظ لويس روشا بابتسامته اللطيفة.

- يرتكز الدليل النهائي على مسألة الحتمية.

- لا أفهم.

- كما قلتُ لك من قبل، كتب كانط مرة أن هناك ثلاث مسائل لن تُحلَّ أبداً: وجود الله، الخلود وحرية الاختيار. لكن الأستاذ سيزا لم يكن يرى أن هذه المسائل قابلة للحلِّ فحسب، بل إنها مترابطة فيما بينها - تنحنح - تتعلق مسألة حرية الاختيار بمعرفة إلى أي مدى نحن أحرار في اتخاذ قراراتنا. ساد الظن لوقت طويل أننا كنا أحراراً في ذلك، لكن الاكتشافات العلمية حدّت تدريجياً من حريتنا. اكتُشف أن قراراتنا مشروطة بعدة عوامل، ولو بدت لنا حرة. مثلاً، حين أقرّر أن آكل، فهل هذا القرار يتخذه وعيي أو تتخذه حاجة بيولوجية نابعة من جسدي؟ وشيئاً فشيئاً، أدركنا أن قراراتنا لم تكن حقاً بين أيدينا. كل ما نقوم به نابع مما تمليه علينا خاصياتنا الأصلية، مثل الحمض النووي، بيولوجيا جسدنا وكيمياؤه، ناهيك عن العوامل الأخرى، المرتبطة في تفاعل دينامي ومعقد مع عوالم خارجية، مثل الثقافة، والإيديولوجيا وكل الأحداث المتعددة التي تقع في حياتنا. مثلاً، اكتُشف أن هناك أشخاصاً حزانى، ليس لأن حياتهم حزينة، بل لسبب بسيط وهو أن أجسادهم لا تفرز السيروتونين، وهي مادة تنظم المزاج. لدرجة أن أغلب أفعال هؤلاء الناس المكتئبين يحددها هذا النقص الكيميائي وليس حرية اختيارهم. هل فهمت؟

- نعم، فهمتُ ذلك - قال طوماس متردداً - لقد حدثني أبي عن ذلك وأعترف أن هذا ما زال يزعجني.

- ما الذي يزعجك؟

- فكرة ألا نملك حرية الاختيار، وألا تكون حرية الاختيار سوى وهم. كأننا مجرد روبوتات.

- ربما، أعترف بذلك - قال لويس روشا - لكن هذا ما يخلص إليه العلم بطريقة ما. الرياضيات، مثلاً، حتمية بطبعها. اثنان زائد

اثنان تساوي أربعة. الفيزياء هي تطبيق الرياضيات على الكون، الذي تخضع فيه المادة والطاقة لقوانين وقوى كونية. عندما يدور كوكب ما حول الشمس أو إلكترون معين حول نواة ذرة ما، لا يحدث هذا لأنهما يرغبان في ذلك، بل لأن قوانين الفيزياء تجبرهما على ذلك. هل هذا واضح؟

- نعم، كل هذا يبدو لي بديهياً.

- إذن، تحاول المادة أن تنظم نفسها بعفوية، بخضوعها لقوانين الكون. وهذا التنظيم يفترض تعقّداً. لكن، انطلاقاً من لحظة معينة تنظم فيه الذرات نفسها في عناصر، تكف دراستها عن الانتماء إلى مجال الفيزياء وتنتقل إلى مجال الكيمياء. بتعبير آخر، الكيمياء فيزياء معقّدة. عندما تتعقّد العناصر الكيميائية بدورها، تنشأ الكائنات الحية التي تتميز بدورها بالقدرة على التوالد وبتصرفاتها الغائية، يعني أنها تتصرف وفق هدف معين: البقاء على قيد الحياة. ما أقصد بهذا هو أن البيولوجيا هي الكيمياء المعقّدة. عندما تصبح البيولوجيا معقّدة بدورها، حينئذ يبرز الذكاء والوعي، اللذان تبدو تصرفاتهما أحياناً غريبة ولا تخضع لأي قانون. لكن العلماء النفسيين وأطباء النفس أثبتوا أن هذه التصرفات لها أساس منطقي، لأنها تحدث بشكل عفوي وليس عن طريق المعجزة. قد نجهل الأسباب لكنها موجودة. بل هناك تجارب موثقة تظهر أن الدماغ يتخذ قرار الفعل قبل أن ينتبه الوعي لذلك. يتخذ الدماغ القرار ثم يخبر بذلك الوعي فيما بعد، لكن هذا يتم بدقة عالية لدرجة أن الوعي يعتقد أنه هو من اتخذ القرار. هذا يعني أن علم النفس هو البيولوجيا المعقّدة. هل تتابع تفكيري؟

- نعم.

- حسناً. أحاول من خلال هذا أن أقول إنه، عندما نبحث عن الأصل البسيط للأشياء، ندرك أن أساس الوعي هو البيولوجيا،

وأساس البيولوجيا هو الكيمياء، وأساس الكيمياء هو الفيزياء،  
وأساس الفيزياء هو الرياضيات. وأذكرك، مرة أخرى، أن الإلكترون  
لا يدور يساراً أو يميناً لأنه يرغب في الأمر، بل لأن قوانين الفيزياء  
تجبره على ذلك. ربما يستحيل تحديد تصرف الإلكترون، بسبب حدة  
تعقده الفوضوي، لكنه يبقى تصرفاً محدداً سلفاً - وضع يده على  
صدره - بما أننا جميعاً نتشكل من ذرات، تنظمها قوانين الفيزياء  
بطريقة غاية في التعقيد، فإن تصرفنا محدد سلفاً بدوره. لكن، تماماً  
مثل الإلكترون، فإن تصرفنا يستحيل تحديده، لأنه ناتج عن تعقد  
فوضوي ملازم له. شيئاً ما مثل حالة الطقس. فتوقعات الطقس  
محددة سلفاً، لكن تحديدها يظل مستحيلًا، بسبب عدة عوامل  
وبسبب مسألة اللامحدود، حيث أبسط التغيرات في الظروف الأولية  
تحدث نتائج غير متوقعة على المدى الطويل. إنها الحكاية القديمة  
التي تتحدث عن خفكان أجنحة الفراشة التي تستطيع أن تحدث  
عاصفة في الطرف الآخر من الكوكب في وقت لاحق. كما أن علماء  
النفوس يقولون إن حدثاً وقع في الطفولة يمكن أن يؤثر على تصرف  
فرد معين خلال سن الرشد، أليس كذلك؟ فماذا يكون هذا غير أثر  
الفراشة مطبقاً على مستوى الإنسان؟

- فهمتُ.

- حتى وإن بدت لنا قراراتنا حرة، فإنها ليست كذلك في  
الحقيقة. على العكس من ذلك تماماً، كل قراراتنا مشروطة بعوامل  
لا نملك عنها أدنى فكرة في غالب الأحيان.

- لكن هذا فظيع - لاحظ طوماس - هذا يعني أننا لسنا أسياد  
نفوسنا. إذا كان كل شيء محدداً سلفاً، فما الغاية من الانتباه  
لا أعرف، مثلاً، لماذا ينبغي أن ننظر يميناً ويساراً عندما نقطع  
الطريق؟

- إنك تخلط بين الحتمية والقدرية.

- ولكن، أليسا نفس الشيء، في نهاية المطاف؟

- كلا، إنهما ليسا نفس الشيء. من وجهة نظر العالم الأكبر،

كل شيء محدد سلفاً، لكن، من وجهة نظر العالم الأصغر الخاصة بكل فرد، لا شيء يبدو محدداً سلفاً لأنه لا أحد يعرف ما سيحدث.

هناك عدة عوامل خارجية تجبرنا على اتخاذ قرارات. مثلاً، إذا بدأت

تُمطر، نقرر أن نأخذ مطريّة. هذا القرار قرارنا، حتى وإن كان محدداً

سلفاً لأنه، دون أن نعرف ذلك، تضافرت قوانين الفيزياء كي تمطر

السماء في هذه اللحظة كما أن السوفتوير المدمج في دماغنا قرر أن

المطريّة هي الرد المناسب أمام تلك الوضعية الخارجية. هل تفهم؟

إن إرادة الاختيار مفهوم مرتبط بالحاضر. لكننا لا نستطيع أن نغير ما

قمنا به في الماضي. وهذا يعني أن الماضي محدد سلفاً، أليس

كذلك؟ إذن، إذا كان الماضي والمستقبل يوجدان معاً، وإن على

مستويين مختلفين، فإن المستقبل محدد سلفاً بدوره.

- وتستمر المشكلة مطروحة - قال طوماس ملحاً - إننا مجرد

دمى متحركة.

- لا ينبغي أن ننظر إلى الأمور بهذا الشكل - قال الفيزيائي -

تخيل مباراة في كرة القدم.

- مباراة في كرة القدم؟

- تصور أنك سجلت مباراة فرنسا ضد إيطاليا في نهائي كأس

العالم لسنة ٢٠٠٦. خلال المباراة يتخذ اللاعبون قرارات حرة.

يأخذون الكرة ويقذفونها في هذا الاتجاه أو ذاك. لكن، ونحن

نشاهد التسجيل، نعرف أن كل شيء محدد سلفاً. تنتهي المباراة

بنتيجة ١-١ وستفوز إيطاليا بضربات الترجيح. مهما فعل اللاعبون

أثناء هذا التسجيل، فالنتيجة محددة سلفاً، ولا يمكن أن تتغير أبداً.

عند نهاية عرض الفيديو الرقمي، تفوز إيطاليا. أكثر من هذا، كل أفعال اللاعبين، الذين كانوا أحرار في تلك اللحظة، هي الآن محددة سلفاً. إلى أن وقعت تلك النطحة التي وجهها زيدان لماتيرازي - قال وضحك - إذن، الحياة مثل مباراة مسجلة. نتخذ قرارات حرة، لكنها محددة سلفاً.

- إنني أفهم، لكن هذا لا يرضيني - ألح طوماس - في نهاية الأمر، هذا يعني أننا لسنا أسياد نفوسنا.  
ظل لويس روشا يحدق في مُحاروه.

- هذا يعني شيئاً أكثر أهمية بكثير، يا عزيزي - قال.

- أكثر أهمية بكثير؟ - قال المؤرخ متعجباً - بأي معنى؟

لزم الفيزيائي صمتاً وهو يفكر في أحسن طريقة يواصل بها

الشرح.

- هل تذكر «شيطان لا بلّاس»؟

- تقريباً.

- كما تعرف، اكتشف العلمُ أن أي حدث له أسباب ونتائج،

بما أن الأسباب هي أصلاً نتائج لحدث سابق وأن النتائج ستصبح

أسباباً لحدث لاحق. هل تذكر هذا؟

- طبعاً.

- في القرن الثامن عشر، ذهب ماركيز لا بلّاس إلى أقصى حد

في المسلسل اللامتناهي للأسباب والنتائج فتوصل إلى أن الحالة

الحاضرة للكون كانت نتيجة لحالة سابقة وسبباً لحالة لاحقة. إن

نحن عرفنا مجمل الحالة الحاضرة للمادة بكاملها، في أدق

تفاصيلها، سيكون بوسعنا أن نحدد كل الماضي وكل المستقبل.

وباستعمال التعبير الذي استخدمه لا بلّاس نفسه، سيكون المستقبل

والماضي، في هذه الحالة، حاضرين أمام عيوننا - ثم أشار إلى

طوماس بإصبعه - والآن أنا من أسألك: ما هي تداعيات هذه الملاحظة؟

تنهّد المؤرخ.

- كل شيء محدد سلفاً.

- لقد أصبت! - صاح لويس روشا - كل شيء محدد سلفاً.

بطريقة ما، يوجد الماضي والحاضر. وكما أننا لا نستطيع تغيير الماضي، كذلك لا نستطيع تغيير المستقبل، لأن الاثنين معاً هما نفس الشيء في زمنين مختلفين. وهذا يعني أنه إن كان الماضي محددًا سلفاً فكذلك هو شأن المستقبل. هل فهمت؟ ثم إن هذا الاكتشاف تأكد مع نظريات النسبية، التي تنص معادلاتها الحتمية ضمناً على أن كل ما وقع وما سيقع يوجد مسجلاً في معلومات الكون الأولية. لا تنس أن المكان والزمن يمثلان تجليين مختلفين لنفس الوحدة، شيئاً مثل الين واليانغ، لدرجة أن أينشتاين سمى هذا المفهوم «الزّمكان». هكذا، فكما أن لشبونة ونيويورك توجدان، لكن ليس في نفس المكان، كذلك يوجد الماضي والمستقبل، لكن ليس في نفس الزمن. من لشبونة، لا أستطيع أن أرى نيويورك، تماماً كما لا أستطيع أن أرى المستقبل انطلاقاً من الماضي، رغم أن الاثنين يوجدان.

- هممم.

- من جهة أخرى، أثبتت نظريات النسبية أن الزمن ينقضي

بطريقة مختلفة في أماكن مختلفة من الكون، مشروطاً بسرعة المادة وقوة الجاذبية. إن الحدثين «ألف» و«باء» يقعان بتزامن في نقطة معينة من الكون، ويحدثان بشكل متتابع في أماكن أخرى، يقع «ألف» أولاً ثم يليه «باء»، بينما في نقطة ثالثة يقع «باء» أولاً ثم يليه «ألف». مما يعني أنه في نقطة ما من الكون، «باء» لم يقع بعد، لكنه سيقع.

ومهما حدث فإن «باء» سيقع، لأن ذلك محدد سلفاً - ثم أحنى رأسه وعيناه تحدقان دائماً في طوماس - والآن أنا من أسألك، متى تحدد كل هذا؟

# مكتبة

t.me/t\_pdf

- متى؟

- نعم، متى؟

- إيه... لست أدري! في البداية، أعتقد.

- تماماً! - صاح لويس روشا - تحدد كل شيء في البداية، في اللحظة التي تشكل فيها الكون. تم توزيع الطاقة والمادة بطريقة محددة كما تم تصور القوانين ونسب الثوابت بطريقة محددة، وهذا سرعان ما حدّد التطور المستقبلي لكل هذه المادة ولكل هذه الطاقة. هل فهمت؟

- نعم...

- وألا ترى العلاقة الموجودة بين كل هذا وبين المبدأ الأنثروبي؟

تردد طوماس وهو يبحث عن العلاقة بين الأمرين. بيد أن تردده لم يدم إلا لحظة قصيرة، مدة شهيق وزفير، إذ سرعان ما فتح عينين جاحظتين ثم، لاهثاً ومرعوباً، رأى الدليل يكتمل.

- يا إلهي... - تتمم قائلاً بخرقٍ وارتباكٍ من يرى الحقيقة تظهر مثل ضوء يلمع - هذا أمر مذهل!

- ما أقصده هو أن كون كل شيء محدد سلفاً يعني أن كل ما حدث، يحدث وسيحدث متوقع منذ بداية الزمان. حتى حديثنا الجاري الآن كان متوقعاً منذ البداية. كما لو أننا جميعاً ممثلين فوق ركح عظيم، وكل واحد منا يؤدي دوره، في خضوع تام لسيناريو كتبه سيناريست خفي عندما بدأ الكون - ثم ترك الفكرة تسبح في الفضاء - كل شيء محدد سلفاً.



- يا إلهي ...

- هذه هي الحجة التي كانت تنقص والتي تسمح، في نظر الأستاذ سيزا، بتحويل المبدأ الأنثروبي إلى دليل على وجود الله. لقد تم خلق الكون ببراعة عالية تشي بالذكاء وبدقة كبيرة تشي بغاية معينة. لذا فإن وجودنا ليس له أدنى حظ ليكون عرضياً لسبب بسيط وهو أن كل شيء محدد منذ البداية.

# 40

غادرا مكتبة جُونينا جنباً إلى جنب. كان الليل قد حل بكويمبرا ونسيم عليل يهبُّ هادئاً على «فناء المدارس». توقف طوماس عند أحد الأدراج ونظر نحو ساعة البرج؛ كانت تشير إلى التاسعة مساءً. لم يتناول طعاماً منذ مدة طويلة، لكن قلقه وهو يعرف أنه لم يتبق له سوى إحدى عشرة ساعة ليحل اللغز كان يزيل شهية الأكل لديه. أكيد أن لويس روشا كشف له للتو عن جزء مهم من اللغز، لكن كان ينقصه التفصيل الأخير. السننُ الذي كان يحتوي المعادلة الإلهية.

- أخبرني - قال طوماس - أليست لديك فكرة عن محتوى الرسالة الأخيرة المشفرة التي وضعها أينشتاين؟  
حدجه الفيزيائي بنظرة غريبة.

- تعال معي - قال له وهو يدعو ليتبعه بإشارة من يده.  
نزل لويس روشا السلالم والتفت شمالاً، يتبعه طوماس. مشياً حتى بلغا الباب التالي، في البناية التي تقع قرب المكتبة. عبر المؤرخ الباب المزخرف بشكل رائع، ورغماً عنه، ربما بحكم هواجسه المهنية، تعرّف على الأسلوب المانويلي.  
- هل هي كنيسة؟ - سأل.

- إنه مُصلّى ساو ميغيل - أخبره لويس روشا وهو يسحبه إلى الداخل. بدأ تشييده في القرن السادس عشر.

كانت الجدران مغطاة بالزليج الأزرق والسقف مزخرفاً بشكل باذخ، لكن ما يهيمن على المصلى هو ذلك الأرنج الباروكي المدمج في الجدار، على اليمين. كان آلة موسيقية جميلة، صممت بدقة، وفوقها كان يجلس مجموعة من الملائكة ينفخون في بوق.

- لماذا جئت بي إلى هنا - سأله طوماس.

جلس الفيزيائي عند طرف مقعد مغطى بالجلد وابتسم.

- ألا ترى أنه من المنطقي أن نكون في بيت الرب كي نتحدث عن مسألة وجود الله؟

- ولكن الإله الذي حدثني عنه ليس هو إله الكتاب المقدس - لاحظ المؤرخ وهو يشير بحركة من رأسه إلى صورة المسيح مصلوباً في المذبح.

- لقد قدمت لك الإله، يا عزيزي. أما البقية فمجرد تفاصيل، ألا تظن ذلك؟

- إن كنت تقول ذلك . . .

- البعض يسميه الرب، البعض «يهوه»، البعض «الله»، البعض «براهمان»، البعض «داركامايا»، وآخرون «تاو» - وضع يده على صدره - نحن العلماء، نسميه الكون. اختلف الأسماء، تباينت الصفات والجوهر واحد.

- إنني أرى - علق المؤرخ - لكن هذا لا يحل مشكلتي.

- وما هي مشكلتك؟

- ما هو محتوى الرسالة الأخيرة المشفرة التي وضعها أينشتاين؟ انزلق لويس روشا ليجلس على المقعد وأشار إلى طوماس الذي كان واقفاً أن يجلس بالقرب منه. لبي المؤرخ رغبته، رغم القلق الذي كان ينخره.

- هل تعرف ما هي الماتريوشكات؟ سأله الفيزيائي.

- ماذا؟

- الماتريوشكات .

- إنها الدمى الروسية، أليس كذلك؟

- نعم . عندما نفتح دمية، هناك دائماً دمية أخرى بداخلها - قال  
وابتسم - تماماً مثل دمية ماتريوشكا، اكتشاف الطريقة الثانية حلّ  
لُغزاً، لكنه كشفَ عن لغزٍ آخر. إن كان الله موجوداً وهو من خلق  
الكون بدقة عالية حددت خلقنا، فهذا يعني أن وجودنا هو غاية  
الكون، ألا ترى ذلك؟  
- هذا منطقي .

- ولكن هذا ليس له أي معنى، أليس كذلك؟

- أتظن أن ليس له أي معنى؟ - تعجب طوماس - بالنسبة لي  
هذا له معنى كامل .

- هذا له معنى تُعتبرُ ملاحظة مريحة - قال لويس روشا . في  
نهاية المطاف، يقول لنا العلمُ دائماً إن وجودنا كان شيئاً تافهاً على  
مستوى الكون، ولا قيمة لنا في شساعة الوجود، أليس كذلك؟ بل  
من الفيزيائيين من ادعى أن الحياة لم تكن سوى مزحة وأن حضورنا  
لم يكن له أي فائدة تذكر .

- لقد كانوا مخطئين، على ما يبدو .

- فعلاً - وافق لويس روشا - إذا اعتبرنا أن الكون صمم ليخلق  
الحياة وأن هذا لا ينم عن أي حادث عارض لأن كل شيء كان  
محددًا سلفاً منذ البداية، نعم، يجب أن أعترف أن زملائي كانوا  
مخطئين . ومع ذلك، يبقى السؤال مطروحاً: إنه لا معنى أن نقول إن  
وجودنا هو غاية الكون .

- ولكن، لماذا تقول هذا؟

- لسبب بسيط وهو أننا لم نظهر إلا في فترة أولية نسبياً من عمر

الكون. لو كنا نحن غاية الكون، لكننا ظهرنا في النهاية، أليس كذلك؟ لكن هذا لم يحدث. لقد ظهرنا بُعيد البداية. لماذا؟  
- ربما كان الله على عجلة من أمره ليخلقنا؟  
- ولكن، لماذا؟ كي نتسلى؟ كي نقضي وقتنا في مشاهدة التلفاز؟ كي نشرب كؤوساً على رصيف مقهى؟ كي نتحدث من دون توقف عن كرة القدم والنساء؟ كي تقرأ النساء مجلات الحب الرومنسية ويشاهدن المسلسلات؟ لماذا؟  
هزّ طوماس كتفيه.

- لست أدري! - قال طوماس متعجباً - ولكن، لماذا تطرح هذا السؤال؟

حدّق لويس روشا في طوماس.  
- لأن آخر رسالة لأينشتاين تجيب عن هذا السؤال.  
- كيف ذلك؟  
- الشفرة التي وضعها أينشتاين في المعادلة الإلهية تحل مشكلة الغاية من وجودنا.

دسّ طوماس يده في جيبه وأخرج منه ورقة مطوية كانت ترافقه على الدوام. بسطها وقرأ مرة أخرى الرسالة المشفرة.

See sign  
!ya ovqo

- هذه؟  
- نعم.  
- هل أنت تقول لي إن هذا اللغز يحل سرّ وجودنا؟  
- نعم. إنه يكشف عن الغاية من وجود الحياة.

فحص المؤرخ الرسالة مرة أخرى .

- لكن ، كيف تعرف ذلك؟

- الأستاذ سيزا هو من أخبرني .

- وهل كان الأستاذ سيزا يعرف السر؟

- كان الأستاذ سيزا يعرف الخيط المؤدي إلى السر . قال لي إن

أينشتاين أسرّ له بأن هذه الرسالة المشفرة تحتوي «endgame» الكون .

- «endgame»؟

- إنها عبارة متداولة في أمريكا . وتعني الغاية النهائية من أي

لعبة .

حرك طوماس رأسه ، وهو يحاول أن يفهم ما كشف له عنه لويس

روشا .

- اسمح لي ، ولكنني لا أفهم! - صاح - ماذا تقصد بهذا

الكلام؟

قام الفيزيائي بحركة واسعة .

- انظر إلى كل ما يحيط بنا ، هنا في هذا الكوكب - قال -

الحياة في كل مكان . في السهول كما في الجبال ، وفي المحيطات

كما في الأنهار ، بل وحتى تحت الأرض . أينما ولّينا وجهنا ، نجد

الحياة . ومع ذلك ، نعرف أن كل هذا زائل ، أليس كذلك؟

- طبعاً ، سنموت جميعاً .

- إنني لا أقصد هذا - صرح لويس روشا - عندما أقول إن كل

شيء زائل ، أقصد أن كل شيء محكوم بالزوال . مدة إمكانية الحياة

في الكون محدودة جداً .

- وماذا تقصد؟

- أقصد أنه لا شيء خالد. أعني أن هذه المدة الخصبه بالحياة ليست سوى حلقة قصيرة في تاريخ الكون.

- حلقة قصيرة؟ إنني لا أفهم . . .

- حسناً، إن الحياة فوق الأرض تتوقف على نشاط الشمس. ولكن الشمس لن توجد إلى الأبد. إن كانت الشمس بشراً، فقد تكون سنها الآن أكثر من أربعين عاماً، مما يعني أنها ربما تكون قد تجاوزت منتصف عمرها. كل يوم، تصير نجمتنا أكثر لمعاناً، وتسخن بالتدريج كوكبنا إلى أن تأتي اللحظة التي تدمر فيها كل المحيط الحيوي، وهو ما قد يقع بعد مليار سنة. وكأن هذا ليس كافياً، بعد أربعة أو خمسة مليارات سنة، سوف تستنزف كل المحروقات التي تغذي نشاط الشمس. وفي محاولة يائسة لمواصلة إنتاج الطاقة، ستضطر النواة لتتكمش إلى أن تجعلها التأثيرات الكمية تستقر من جديد. عندئذ، سوف تنتفخ الشمس كثيراً حتى تتحول إلى نجمة ضخمة حمراء، وتتسع مساحتها حتى تبتلع النجوم المجاورة.

- يا للفضاعة!

- فعلاً - قال الفيزيائي - لكن، من الأحسن أن نتعود على هذه الفكرة. سينتهي كل شيء بشكل سيئ. والأرض نفسها سوف تبتلعها الشمس، وستغرق في جحيم مُستعر. وعندما تنتهي كل محروقات الشمس، سينخفض الضغط الداخلي وستتكمش الشمس لتبلغ حجم الأرض الحالي، وهي تبرد مثل نُجِمة سوداء. ونفس المسلسل سوف يحدث في النجوم المتواجدة في السماء. وواحدة تلو الأخرى، سوف تنتفخ ثم تنطفئ، وسينكمش بعضها حتى تصير نُجيمات، وبعضها سينفجر في استعار عظيم أو ما يسمى سوبرنوفا.

- ولكن، يمكن أن تنشأ نجوم أخرى، أليس كذلك؟

- أكيد، سوف تنشأ نجوم أخرى. المشكلة أنه سينشأ عدد أقل

فأقل من النجوم، لأن العناصر التي تكونها هي في طور الاختفاء، الهيدروجين الأولي يُستنزف والغازات بدأت تتلاشى. وأفظع ما في الأمر أنه بعد بضعة آلاف من ملايين السنين، ستتوقف النجوم عن النشأة. لن تكون هناك سوى جنائز في المجرات. مع الموت المتزايد للنجوم، سوف تصبح المجرات أكثر فأكثر ظلمة، إلى أن يأتي يوم تنطفئ فيها جميعاً ويتحول الكون إلى مقبرة هائلة، تعج بالثقوب السوداء. لكن، حتى الثقوب السوداء سوف تختفي في النهاية، مع العودة الكاملة للمادة إلى حالتها الطاقية. وفي مرحلة جد متقدمة، سوف تبقى فقط بعض الإشعاعات.

- يا إلهي! - صاح طوماس، وتعبيراً حزن يعلو محياه - يبدو المستقبل حالكاً.

- حالكاً جداً - اعترف لويس روشا - مما يثير مشكلة كبيرة أمام المبدأ الأنثروبي، ألا تظن ذلك؟

- هذا واضح. إن كان مقدرًا للكون أن يموت بهذا الشكل، فما الغاية من الحياة؟ لأي سبب نظم الله الخلق في الكون وسمح بنشأة الحياة إن كان يخطط لتدميرها بعد ذلك؟ ما هي الغاية من كل هذا؟ - هذا بالضبط ما فكر فيه الأستاذ سيزا. لماذا يتم خلق الحياة إن كانت الفكرة هي تدميرها بعد ذلك؟ لماذا كل هذا الجهد من أجل منتج زائل؟ وما هي، في نهاية المطاف، «endgame» أو الغاية النهائية من اللعبة؟

- فعلاً، هذه مشكلة من دون حل؟

- كلا - قال الفيزيائي - هناك حل.

فتح طوماس عينين جا حظتين.

- ماذا؟ - قال متعجباً - هناك حل؟

- نعم - اكتشف الأستاذ سيزا الحل.



- هيا، أخبرني به، يا رجل - صاح طوماس، متلهفاً. لا تتركني معلقاً، هكذا!

- يسمى هذا الحلّ «المبدأ الأنثروبي النهائي»، ويرتكز على فكرة أنه قد يكون من العبث أن يكون الكون منظماً بطريقة تسمح بظهور الحياة كي يتركها تختفي، بعد ذلك، بهذا الشكل. يطرح «المبدأ الأنثروبي النهائي» فكرة أن الكون رُتب ليخلق الحياة. لكن، ليس أي حياة، بل الحياة الذكية. وبعد أن تظهر، لن تختفي الحياة الذكية أبداً.

- لن تختفي الحياة الذكية أبداً؟

- نعم.

- لكن ... كيف يكون هذا ممكناً؟ ألم تقل لي قبل قليل أن الأرض سوف تُدمّر؟

- نعم، بطبيعة الحال. هذا أمر حتمي.

- إذن، كيف يمكن للحياة الذكية ألا تختفي؟

- يجب أن تغادر كوكب الأرض، هذا واضح.

- تغادر الأرض؟ - أطلق طوماس قهقهة عالية - اسمح لي،

ولكن هذا بدأ يشبه خيالاً علمياً من النوع الرديء.

- أتظن ذلك؟ لكن بعض الفيزيائيين بدأوا، فعلاً، يفكرون بجدّ

في هذا السيناريو ...

تلاشت الابتسامة عن وجه المؤرخ.

- بجدّ؟

- طبعاً. الأرض لا مستقبل لها، لأنها محكومة بالدمار.

- وأين سنذهب؟

- إلى نجوم أخرى، بطبيعة الحال.

حرك طوماس رأسه، مرتبكاً.

- اسمح لي، ولكن، إن كان كذلك، ماذا سيحلُّ هذا الأمرُ؟  
- حسناً... يبدو لي ذلك بديهياً، لو ذهبنا إلى نجوم أخرى،  
سوف نقلت من دمار الأرض الحتمي.

- ولكن، فيم سيفيدنا ذلك؟ ألن تختفي كل النجوم؟ ألن تنطفئ  
كل المجرات؟ ألن يفنى الكون بكامله؟ حتى لو تمكنا من الفرار من  
الأرض، ألن نقوم سوى بتأجيل الحتمي، ألا ترى ذلك؟ في مثل  
هذه الظروف، كيف يمكن الدفاع عن فكرة أن الحياة الذكية لن  
تختفي أبداً؟

جال لويس روشا بنظره عبر المذبح ذي الأسلوب المانويلي في  
المصلى، بيد أن ذهنه كان بعيداً عن هناك، غارقاً في متاهات  
أفكاره.

- إن دراسة البقاء على قيد الحياة وتصرفات الحياة في المستقبل  
البعيد قد أصبحت، في الآونة الأخيرة، فرعاً جديداً من فروع علم  
الفيزياء - قال بنبرة محايدة تميز العروض الأكاديمية - بدأت  
الأبحاث بخصوص هذه المسألة سنة ١٩٧٩ بنشر مقالة من توقيع  
فريمان دايسون تحت عنوان *Time Without end: Physics and*  
*Biology in an Open Universe*. في هذه الدراسة، وضع دايسون  
ملامح خطأ أولى، غير مكتملة، سرعان ما أعاد صياغتها علماء  
آخرون اهتموا بنفس المسألة، وخاصة ستيفين فرواتشي، الذي نشر  
بدوره نصاً علمياً حول نفس الموضوع في مجلة *Science* سنة  
١٩٨٢. ثم جاءت، بعد ذلك، دراسات أخرى حول هذه المسألة،  
وكلها تركز على قوانين الفيزياء وعلى نظريات الحواسيب.  
ظل طوماس حائراً.

- أجد كل هذا مدهشاً - قال - لم أكن أعرف أن فرعاً جديداً  
من فروع الفيزياء يهتم بدراسة البقاء على قيد الحياة في المستقبل

البعيد. بل ولا أرى كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً، بعد هذا السيناريو الكارثي الذي وضعته لي عن الموت الحتمي للنجوم والمجرات. فكيف يمكن للحياة أن تنجو في مثل هذه الظروف؟

- هل تريد أن أشرح لك ذلك؟

- لو تفضلت. كلي آذن مُصغية.

- سأكتفي بالخطوط الكبرى، اتفقنا؟ لأن التفاصيل غارقة في التقنية وتبدو غير مفيدة لحديثنا.

- جيد جداً.

- إن المرحلة الأولى قد بدأت بالفعل. يتعلق الأمر بتطور الذكاء الاصطناعي. صحيح أن حضارتنا ما تزال تخطو خطواتها الأولى في مجال المعلوماتية، لكن التطور يسير بوتيرة سريعة وربما يأتي يوم نكون فيه قادرين على تطوير تقنية تعادل ذكاءنا، أو تفوقنا ذكاء. من جهة أخرى، حسب وتيرة التطور الحالية، تشير التقديرات إلى أن الحواسيب ستبلغ مستوى الإنسان في معالجة المعطيات في غضون قرن واحد على أكبر تقدير. ويوم تبلغ مستوانا، سوف تكتسب الحواسيب وعياً، كما يوحي بذلك اختبار تورينغ، الذي ربما سبق لك أن سمعت عنه.

- نعم، حدثني عنه والدي.

- إذن، يتوقع العلماء أنه لن نطور حواسيب تضاهينا ذكاء فحسب، بل أيضاً روبوتات ستكون «آلات تصنيع عالمية». أتعرف ما هي آلات التصنيع العالمية؟

- لا

- آلات التصنيع العالمية هي آلات قادرة على بناء أي شيء. مثلاً، الآلات التي تصنع السيارات بالتسلسل في المعامل ليست آلات تصنيع عالمية، لأنها لا تستطيع أن تصنع سوى السيارات. لكن

الكائنات البشرية هي آلات تصنيع عالمية لأنها قادرة على صنع كل شيء. ويؤمن العلماء إيماناً راسخاً بإمكانية تصميم آلة يمكن أن تكون آلة تصنيع عالمية. لقد بيّن عالم الرياضيات فون نيومان كيف يمكن ابتكار هذه الآلات، وتؤكد وكالة الفضاء الأمريكية أنه من الممكن صنعها في غضون عشرات السنين إن توفرت التمويلات الخاصة بذلك، طبعاً.

- ولكن، لم تصلح هذه... آلات التصنيع العالمية؟ هل ستوفر علينا العمل؟

لزم لويس روشا صمتاً قصيراً.

- قد تصلح لضمان بقاء الحضارة على قيد الحياة.  
قطب محاوره حاجبه، مندهشاً.

- آه، نعم؟

- لا تنس أن الأرض محكومة بالموت. بعد مليار سنة، سيؤدي تزايد نشاط الشمس إلى تدمير كل المحيط الحيوي. لكن «المبدأ الأنثروبي النهائي» يرى أن الذكاء، بعد ظهوره، لا يمكن أن يختفي أبداً من الكون. وعليه، فإنه لن يكون أمام الذكاء فوق الأرض من خيار آخر: سيتعين عليه أن يغادر مهده وينطلق لينتشر عبر النجوم. والأدوات التي سوف تنجز هذا المسلسل ستكون هي الحواسيب وآلات التصنيع العالمية. ويبدو حتمياً أنه، في المستقبل البعيد، سيضطر البشر إلى أن يرسلوا آلات تصنيع عالمية إلى أقرب النجوم من كوكب الأرض. وستلقى آلات التصنيع العالمية هذه تعليمات محددة لتستوطن أنظمة شمسية جديدة وتبني فيها آلات تصنيع عالمية أخرى ستذهب بدورها لاستكشاف نجوم أخرى، في مسلسل يعرف نمواً متسارعاً. طبعاً، سوف يبدأ هذا باستكشاف أقرب النجوم إلى كوكب الأرض، مثل نجم ألفا سينتوري، ثم تدريجياً نحو النجوم

التالية، وهي على التوالي نجم تاو قيطس، نجم إبسيلون إريداني، نجم الشعري الشامية ونجم الشعري اليمانية، في مرحلة لاحقة.

- هل هذا ممكن؟

- بعض العلماء يرون أن ذلك ممكن. سيكون المسلسل طويلاً جداً، بطبيعة الحال. بضعة آلاف من السنين. لكن، إن كان هذا طويلاً جداً على المستوى البشري، فإنه ليس كذلك على مستوى الكون.

- وكم ستكون تكلفة شيء كهذا؟ أتخيل أنها ستكون تكلفة عالية جداً.

- لن تكون كبيرة جداً! - صاح الفيزيائي - ستكون التكلفة منخفضة نسبياً. لأنه يكفي صناعة أربع أو خمس من آلات التصنيع العالمية هذه. فبعد بلوغ نظام شمسي معين، ستبحث آلة التصنيع العالمية على كواكب أو كوكبات حيث يمكنها أن تنقب عن المعادن وكل المواد الأولية التي قد تحتاج إليها. سيبدأ الروبوت في استيطان هذا النظام وملئه بحيوات اصطناعية نبرمجها نحن أو حتى بحيوات بشرية بما أنه سيكون من الممكن أن ننقل لها شفرتنا الوراثية كي تتوالد في ظروف معينة. وعلاوة على هذا، ستكون من مهام الروبوت أيضاً صناعة آلات تصنيع عالمية أخرى، يرسلها إلى نجوم موالية. وشيئاً فشيئاً، سيتسارع مسلسل استيطان النجوم لأنه سيكون هناك مزيد من آلات التصنيع العالمية. حتى إن اختفت الحضارة الأصلية، على إثر أي كارثة من الكوارث، فإن هذه الحضارة ستستمر في الانتشار في المجرة بطريقة مستقلة، بفضل آلات التصنيع العالمية وبرنامجها الآلي في الاستيطان.

- ولكن، ما هو الهدف من كل هذا؟

- حسناً، الهدف الأول هو الاستكشاف، أليس كذلك؟ نريد أن

نتعلم أشياء عن الكون، شيئاً ما مثل الاستكشافات التي نقوم بها في القمر وكواكب النظام الشمسي. بعد ذلك، ومع تحول الأرض إلى كوكب تستحيل فوّه الحياة، سوف تُعطى الأولوية للكواكب التي يمكن أن ننقل إليها الحياة.

- نقل الحياة؟ هكذا، كما لو أن الأمر يتعلق بسفينة نوح تجوب المجرات.

- تماماً.

تململ طوماس فوق مقعد المُصلّي.

- لكن ألا ترى أن كل هذا له شكل خيال علمي مبالغ فيه؟

- نعم، أعترف بذلك. عادي أن يبدو هذا في شكل خيالي. لكن، يوم تستفحل الأمور فوق الأرض، مع زيادة نشاط الشمس وتدهور المحيط الحيوي، أؤكد لك أن المشكلة ستطرح بكل جدية، هل فهمت؟ وما يبدو لنا الآن خيالاً علمياً سيصبح غداً هو الحقيقة.

- نعم، ربما تكون على حق.

- مع الزيادة المطردة في أعداد آلات التصنيع العالمية، سيكتمل استيطان كل مجرتنا في النهاية. وانطلاقاً من كوكب هامشي، سينتشر الذكاء الاصطناعي عبر كل أرجاء مجرة درب التبانة.

- وهكذا ستنجو الحياة من فناء الأرض الحتمي.

- لم أقل هذا. ما قلته هو أن الذكاء سينتشر في المجرة.

- أليس هو الشيء نفسه؟

- ليس بالضرورة. إن الطبيعة لا تتمكن من خلق الذكاء إلا في ظروف استثنائية تنخرط فيها ذرات الكربون، التي يسمح تنظيمها المعقد بظهور الحياة. بيد أن الكربون لا يهيمن إلا عندما يكون في حالة صلبة داخل شريط حراري غريب. أما نحن البشر فنطور شكلاً

آخر من أشكال الحياة من خلال ذرات أخرى، مثل السيليكون. ما ستقوم آلات التصنيع العالمية بنشره في المجرة سيكون هو الذكاء الاصطناعي المخزن في رقائق الحواسيب. ليس أكيداً أن الحياة، المبنية على ذرات الكربون، ستكون قادرة على البقاء بعد رحلات تدوم آلاف السنين بين النجوم. ربما ليس الأمر مستحيلاً، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يكون أكيداً، هل فهمت؟ يقيننا الوحيد هو أن الذكاء الاصطناعي سيكون قادراً على القيام بذلك.

- ولكن ما تقوله لي هو أن الحياة محكوم عليها بالفناء . . .

- كل شيء يتوقف على ما تعنيه بالحياة، طبعاً. إن الحياة المعتمدة على ذرة الكربون محكوم عليها بالفناء، لا شك في ذلك. لكن، حتى لو تمكنا من بناء سفينة نوح العابرة للمجرات تلك ونقل الحياة كما نعرفها نحو كوكبة قنطورس، مثلاً، فإن كل النجوم ستختفي في يوم من الأيام، أليس كذلك؟ والحال أنه، من دون نجوم، تصبح الحياة المبنية على ذرات الكربون شيئاً مستحيلاً.

- ولكن، ألا ينطبق هذا أيضاً على الذكاء الاصطناعي؟

- ليس بالضرورة. فالذكاء الاصطناعي ليس بحاجة إلى نجوم كي يشتغل. لا بد له من مصادر طاقة، هذا بديهي، ولكن هذه المصادر ليست هي النجوم بالضرورة. يمكن أن تكون القوة القوية التي توجد في النواة، مثلاً. لا تنس أن هذا الذكاء يمكن أن يوضع في أماكن صغيرة جداً، باستعمال تقنية النانو، وفي هذه الحالة سيحتاج إلى كميات طاقة أقل بكثير كي يستمر في الاشتغال. بهذا المعنى، إن عرّفنا الحياة كمسلسل معقد لمعالجة المعلومات، فإنها سوف تستمر. والفرق هو أن الجسم البشري سيكف عن لعب دور الهاردوير وستقوم الرقائق بهذه الدور. ولكن، لو تمعنا في الأمر، فإن ما يصنع الحياة ليس هو الهاردوير، أليس كذلك؟ إنه السوفتوير.

يمكنني أن أستمع على قيد الحياة، ليس داخل جسم عضوي يتشكل من الكربون، بل في جسم معدني، مثلاً. بما أن هناك أشخاصاً يعيشون بساق أو بقلب اصطناعي، لماذا لا يمكن أن نعيش بجسم اصطناعي بكامله؟ لو نقلوا كل ذاكرتي وكل عمليات إدراكي إلى حاسوب وزودوني بكاميرات أرى بها كل ما يجري من حولي وميكروفون أتكلم من خلاله، سأستمر في الشعور بأنني أنا. في جسم مختلف، هذا أكيد، ولكنني سأكون أنا. لو أمعنا النظر في الأمر، فإن وعيي عبارة عن برنامج حاسوب ولا شيء يمنع هذا البرنامج من الاستمرار في الوجود إن تمكنت من بناء هارذوير مناسب يؤويه.

بدا المؤرخ غير مصدق.

- وهل تظن أن هذا ممكن حقاً؟

- إنه ممكن، بطبيعة الحال. لقد انكبّ فيزيائيون، ورياضيون ومهندسون على دراسة المسألة، ماذا تظن؟ وقد استنتجوا، مهما بدا ذلك غريباً، أن كل هذا قابل للتطبيق. وإذا كان كذلك، فإنه ليس من الصعب استنتاج أنه يمكن أن يطبق - وشدد على صيغة المستقبل في كلامه - إن «المبدأ الأنثروبي النهائي» يؤكد على بقاء الذكاء الاصطناعي في الكون.

- هذا مذهل! - صاح طوماس - ولكن، ماذا سيحدث، في النهاية تماماً، عندما تختفي المادة لتتحول إلى طاقة؟

نظر الفيزيائي إلى مُحاوره.

- حسناً، هناك خياران. إما أن تكون نهاية الكون عبارة عن بيغ فريز، أي تجمّد كبير أو أن تكون بيغ كْرانش، أي انسحاق كبير. لحد الساعة، يبدو أن تمدد الكون يقترب من النقطة الحرجة، مما يمنعنا من أن نحدد بدقة ماذا سيكون مصيره. لكن، رغم معاينة تسارع هذا



التمدد، كان الأستاذ سيزا يرى أن المبادئ التي تحكم الطبيعة تشير إلى سيناريو البيغ كرائش.

- آه، نعم؟ ولماذا؟

- لسببين اثنين. أولاً، لأن تسارع مسلسل تمدد الكون يجب أن يتوقف بالضرورة.

- وكيف تعرف ذلك؟

- لسبب بسيط. هناك مجرتان تبتعدان عن كوكبنا بسرعة تناهزُ خمسة وتسعين في المئة من سرعة الضوء. لو استمرت السرعة كما هي عليه، ستأتي لحظة تكون فيها سرعة التمدد أكبر من سرعة الضوء. وهذا مستحيل. إذن، يجب أن تخف سرعة تمدد الكون، لأنه ليس هناك من خيار آخر.

- هممم - هممم طوماس - ولكن هذا لا يعني بالضرورة تحول التمدد إلى انكماش.

- هذا صحيح - اعترف الفيزيائي - ولكن هذا يعني أن السرعة مرحلة ستصل إلى نهايتها. ومن ثمة إلى الانكماش هناك فقط خطوة واحدة، نستنتج احتمال حدوثه من ملاحظة بسيطة - قال وتنحج - انتبه، إن كان هناك شيء لا نكف عن فحصه كلما درسنا نظاماً معيناً فهو أن لكل شيء بداية ونهاية. بل أكثر من ذلك، كل ما ينشأ يموت في النهاية. النباتات تنشأ وتموت، الحيوانات تنشأ وتموت، النُظم الإيكولوجية تنشأ وتموت، الكواكب تنشأ وتموت، المجرات تنشأ وتموت. ونحن نعلم أن المكان والزمن قد نشأ، أليس كذلك؟ نشأ مع البيغ بانغ. إذن، انسجماً مع مبدأ كل ما ينشأ لا بد أن يموت، فإن المكان والزمن سيموتان في النهاية بدورهما. لكن البيغ فريز، على العكس من ذلك، يشير إلى أن الزمن والمكان، رغم أنهما نشأ، لن يموتا مما يتنافى مع هذا المبدأ العام. وعليه فإن البيغ كرائش، أو

الأنسحاق الكبير، هو مصير الكون الأكثر احتمالاً، ما دام ينسجم مع مبدأ كل ما ينشأ لا بد أن يموت.

- فهمتُ - همهم طوماس - هذا يعني أنه ستأتي لحظة تبدأ فيها المادة بالتراجع، أليس كذلك؟

- لا، لا. كان الأستاذ سيزا يظن أنها لن تتراجع.

- إذن، ماذا سيحدث؟

- كما شرحتُ لك من قبل، يعتقد العلماء أن الكون كروي الشكل، متناه لكن من دون حدود. لو استطعنا أن نسافر عبر الفضاء دائماً في نفس الاتجاه، سنعود في النهاية إلى نقطة انطلاقنا.

- سنكون بمثابة ماجلان الكون.

- تماماً. بما أن نظريات النسبية تثبت أن الزمن والمكان هما تجليان لنفس الشيء، فإن الأستاذ سيزا كان يرى بأن الزمن، بطريقة ما، كروي الشكل أيضاً.

- الزمن كروي الشكل؟ لا أفهم...

- تخيل ما يلي - قال لويس روشا وهو يحاكي كرة بيديه - تصور أن الزمن هو كوكب الأرض وأن البيغ بانغ يوجد في القطب الشمالي. هل تصورت ذلك؟

- نعم.

- تصوّر أن هناك ثلاث سفن توجد مجتمعة في القطب الشمالي، نقطة البيغ بانغ. الأولى تدعى «درب التبانة»، الثانية «أندروميда» والثالثة «مسييه ٨٧». فجأة، تشرع السفن في الإبحار باتجاه الجنوب، متخذة مسارات مختلفة. ماذا سيحدث؟

- حسناً... إنها تبتعد بعضها عن بعض.

- تماماً. بما أن الأرض كروية الشكل والسفن تبتعد عن القطب

الشمالي، هذا يعني أنها تبتعد بعضها عن بعض. ومع تزايد ابتعادها، تتوقف السفن عن رؤية بعضها البعض. أليس كذلك؟  
- نعم.

- سوف يستمر التباعد حتى تبلغ السفن خط الاستواء، وهو نقطة الذروة. لكن، بعد تجاوز خط الاستواء، وبما أن الأرض كروية الشكل سيبدأ الفضاء في الانكماش وستشعر السفن في الاقتراب بعضها من بعض. ومع اقترابها من القطب الجنوبي، ستلمح بعضها بعضاً مرة أخرى.  
- تماماً.

- وتصطدم جميعاً فيما بينها في القطب الجنوبي.  
ضحك طوماس.

- إن لم تأخذ حذرهما.

- كان الأستاذ سيزا يرى أن الكون هكذا. وأن الزمكان كروي الشكل. في هذه اللحظة، ونظراً للبيغ بانغ وتمدد الزمن والمكان الذي ربما يكون كروي الشكل، فإن المادة تبتعد. إن المجرات سوف تبتعد بعضها عن بعض حتى تأتي لحظة تتوقف فيها عن رؤية بعضها البعض. وفي الوقت ذاته، فإنها تموت شيئاً فشيئاً، وتتحول إلى مادة جامدة. ثم سيعم البرد كل الأرجاء. لكن، ستأتي لحظة، بعد أوج التمدد، يبدأ فيها الزمن والمكان بالانكماش. وسيؤدي هذا إلى ارتفاع الحرارة تماماً كما يسخن الغاز وهو ينكمش. وسينتهي انكماش الزمكان باصطدام عنيف في القطب الجنوبي، فيما يشبه البيغ بانغ معكوساً. إنه البيغ كرائش أو الانسحاق الكبير.

- وهل ستنجو الحياة من هذا الأمر؟

- هل تعني الحياة البيولوجية المرتكزة على ذرات الكربون؟  
قال محرراً رأسه - لا. هذه الحياة ستنتهي قبل ذلك، كما قلت لك.

لكن فرضية «المبدأ الأنثروبي النهائي» تقول إن الذكاء سيبقى قائماً على امتداد تاريخ الكون.

- لكن، كيف ذلك؟

- بالانتشار في كل أرجاء الكون، بحيث سيسيطر على كل المسلسل.

ضحك طوماس مرة أخرى.

- لا بد أنك تمزح.

- إنني أتحدث بجدّ. هناك العديد من الفيزيائيين الذين يعتقدون أن هذا ممكن بل إن بعضهم قد بينوا كيف سيحدث.

- اسمع، هل تظن حقاً أن ذكاء قادماً من شيء صغير جداً كالأرض يمكن أن يسيطر على شيء شاسع كالكون؟

- إن هذا ليس مستحيلاً كما قد يبدو للوهلة الأولى - قال لويس روشا متحججاً - لا تنس ما تقوله نظرية الفوضى. إذا كان بإمكان فراشة أن تؤثر في طقس الكوكب، لماذا لا يستطيع الذكاء أن يؤثر في الكون؟

- إننا نتحدث عن أمرين مختلفين . . .

- هل نتحدث عن أمرين مختلفين؟ - قاطعه الفيزيائي - هل أنت متأكد من ذلك؟

- حسناً . . . أظن، نعم. في نهاية المطاف، الكون أكثر شساعة من الأرض، أليس كذلك؟

- لكن المبدأ هو نفس المبدأ. انظر، عندما بدأت الحياة على الأرض قبل أربعة مليارات سنة، من كان يظن أن الجزيئات الدقيقة والتافهة سوف تتطور لدرجة تسيطر معها يوماً على الكوكب بكامله؟ لا أحد، بطبيعة الحال. ربما كان هذا سيبدو عبثياً ومضحكاً. ومع ذلك، ها نحن هنا اليوم نناقش آثار النشاط البشري على الأرض. أن

نقول إن الحياة قد سيطرت على كوكبنا يعتبر اليوم شيئاً مبتدلاً تماماً. حسناً، إذا كانت الحياة، انطلاقاً من جزئيات بسيطة، قد تمكنت من السيطرة على الأرض لدرجة التأثير في تطورها، فما الذي يمنع الذكاء، بعد أربعة مليارات سنة من الهيمنة على كل المجرة لدرجة التأثير في تطورها أيضاً؟

- هممم ... فهمت ...

- لقد شرحتُ عدّة دراسات علمية آليات هذه السيطرة، وخاصة تلك الدراسات التي أنجزها كل من تيلير وباروو، لكنني أعفيك من التفاصيل الخاصة بمقاربة هذه المسألة من وجهة نظر فيزيائية ورياضية. المهم أن الأستاذ سيزا كان مقتنعاً بأن فرضية «المبدأ الأنثروبي النهائي» كانت صحيحة. أي أن الذكاء، بما أنه ظهر في الكون، فلن يختفي منه أبداً. وإن اضطر الذكاء من أجل البقاء ليسيّط على المادة وقوى الكون، فسيُفعل ذلك.

- هل هذه هي غاية الكون؟ أن يَسْمَحَ للذكاء بالظهور.

- إنني لا أعرف ما هي غاية الكون. كل ما أعرف أن الحياة

ليست هي الهدف، بل خطوة ضرورية للسماح بظهور الذكاء.

- إنني أفهم - تهتد طوماس - وهو غارق فيما يترتب على هذه

الفكرة. إنه ... أمر مذهل حقاً.

- فعلاً.

استند المؤرخ إلى الكرسي، متأملاً، غارقاً في تفكير مذهل.

لكن دوامة تلك الأفكار سرعان ما استوقفها شكٌّ قلّو، فتوقف طوماس عن التفكير والتفت نحو مُحاوره.

- حسناً، تقول إن الذكاء، بعد ظهوره، لن يختفي أبداً، أليس

كذلك؟

- نعم، هذا ما يتوقعه «المبدأ الأنثروبي النهائي».

- لكن كيف يمكن للذكاء أن ينجو من البيغ كرانش؟ كيف يمكن أن يبقى الذكاء قائماً بعد نهاية الكون؟  
ابتسم لويس روشا .
- إن الجواب عن هذا السؤال، يا عزيزي، قد أُدرج في آخر رسالة مشفرة وضعها أينشتاين .
- وهل توجد المعادلة في المخطوط؟
- نعم . وهي التي تكشف عن «endgame» أو نهاية لعبة الكون .

# 41

كانت الورقة التي حُربشت عليها بعض الحروف في طهران في حالة سيئة، كلها مدعوكة، زواياها مقطعة، ونسيجها ممزق من كثرة ما لحقها من سوء المعاملة في جيوب معاطف طوماس. لكن مظهر الورقة لم يكن مهماً؛ فهي لا تعدو أن تكون ورقة عادية أخذت من رزمة أوراق من نوع A4 داخل مقر وزارة العلوم في طهران. ما له قيمة هناك لم يكن هو الورقة، بل الحروف المخربشة؛ لأن الأمر يتعلق، في نهاية المطاق، بالنسخة الوحيدة التي شقّرها أينشتاين حوالي سنة ١٩٥٥، عندما حرر في برنستون تلك الوثيقة التي احتفظ بها تلميذاه في السر والتي توجد الآن مخبأة في مكان ما في إيران.

جلس طوماس في مكتب بقسم الفيزياء بجامعة كويمبرا وانحنى على الطاولة، يسند جبينه بيده، عيناه تحدقان بإمعان في اللغز، وذهنه يبحث عن خطة لفك شفرة ذلك السنن. ثم انفتح باب المكتب.

- العشاء جاهز - قال لويس روشا وهو يريه سندويش وعصير فواكه. لا يمكن أن نشتغل ببطن فارغ.

جلس الفيزيائي إلى طاولة المكتب ومدّ سندويشاً إلى ضيفه.  
- ما هذا - سأل طوماس وهو يفحص السندويش الملفوف في ورق شمعي.

- إنه سندويش بالتونة. أخذته هناك من الموزع الآلي.

قضم منه المؤرخ قطعة وبدا موافقاً .

- هممم - قال وهو يدير عينيه ويمضغ السندويش - كنتُ جائعاً حقاً .

- طبعاً - قال لويس روشا ضاحكاً وهو يخرج سندويشه من الورق الملفوف . لا تنس أن الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، ومعدتي بدأت تدور في الفراغ .

- الحادية عشرة ليلاً؟

- نعم ، ماذا تظن؟ إنه وقت متأخر .

شعر طوماس بالقلق ينمو في بطنه فنظر إلى الساعة .

- يا إلهي! لم يبق أمامي سوى . . . تسع ساعات .

- تسع ساعات؟ لماذا؟

- لأفك شفرة اللغز - ثم وضع سندويشه فوق المكتب وانتهى من

جديد إلى الورقة المدعوكة - يجب أن أشتغل .

- هدى من روعك! كلُّ أولاً .

- لا أستطيع . لقد أضعت كثيراً من الوقت .

انكبَّ المؤرخ من جديد على مشكلة السنن وفمه مملوء بقضمة

كبيرة من سندويش التونة . أخذ زميله يأكل بدوره وسحب كرسيّاً نحو

المكتب حتى يستطيع هو أيضاً أن يرى الورقة المجعدة .

See sign

!ya ovqo

- هل هذه هي الرسالة المشفرة؟

- نعم .

- وكيف يمكن فكّ شفرتها؟



- لست أدري. يجب أن أقرأ الوثيقة كاملة. هل قرأتها أنت؟

- نعم، كان الأستاذ سيزا قد أراني إياها.

- وهل قدم لك خيطاً بخصوص طريقة فك شفرتها؟

- لا. قال لي فقط إن هناك علاقة بين سنن الشفرة واسم

أينشتاين.

تنهّد طوماس.

- فعلاً، هذا ما قال له لي تينزينغ أيضاً - حكّ رأسه - هذا

يعني أن اسم أينشتاين يمكن أن يكون... هو كلمة مفتاح هذه

الأبجدية المشفرة. ربما يكون استعمل الترميز القيصري مع اسمه -

ثم أخذ قلماً وورقة بيضاء - لنرّ.

خرّبش الأبجدية المشفرة مع اسم أينشتاين.

*E i n s t a b c d e f g h j k e l m o p q r s u w v x y z*

- إنني لا أفهم - قال لويس روشا وعيناه لا تفارقان هذا

السطر.

- إنه الترميز القيصري مع اسم أينشتاين في البداية - شرح

طوماس - الفكرة هي كتابة كلمة السر في البداية، وهي اسم أينشتاين

في هذه الحالة، لكن مع حذف الحروف التي تتكرر، أي «ein» في

النهاية. بعد ذلك، ينبغي وضع بقية حروف الأبجدية وفق ترتيب

عادي، مع تفادي الحروف المستعملة من قبل في كلمة السر

«einst». هل فهمت؟

- نعم. ولكن ماذا نفعل بهذا الآن؟

- الآن؟ نضع الأبجدية العادية تحت الأبجدية المشفرة لنرى إن

كانت الحروف تشير إلى أي رسالة.

ثم كتب حروف الأبجدية العادية تحت حروف الأبجدية المشفرة.

*E i n s t a b c d f g h j k l m o p q r s u v w x y z*  
*A b c d e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z*

- والآن، سنرى ما تعنيه عبارة «ya ovqo» التي نجدها في السطر الثاني من المخطوط - أخذت عيناه تتراقصان بين السطرين - حرف y هو دائماً y، a تصبح e، o أصبح هو o، v تبقى هي v، و q يصبح o.  
ثم كتب الحل.

*Ye lvol*

ثم أخذنا معاً يحللان النتيجة.  
- *ye lvol*؟ - همس لويس روشا - ماذا يعني هذا؟  
- هذا يعني أنه ليس هذا هو الحل - تنهّد طوماس - مما يعني أنه يجب علينا أن نبحث عن خيط آخر - ثم حك ذقنة مفكراً - أي سنن آخر يمكن أن يحتوي اسم أينشتاين؟  
جرب المؤرخ احتمالات مختلفة، وعدة تنويعات مستعملاً اسم أينشتاين، لكنه عند منتصف الليل وجد نفسه أمام طريق مسدود. لم يتمكن من العثور على أبجدية مشفرة تستعمل هذا الاسم. متعباً ويائساً، استند إلى الكرسي وأغمض عينيه.  
- إنني لا أستطيع - همس محبطاً - مهما حاولت، لا شيء ينجح.

- هل ستستسلم؟

نظر طوماس إلى الفيزيائي لحظة طويلة، ومثل دمىة شحنت بطايرتها فجأة بالطاقة، عدل جلسته وركز من جديد على الصفحة.

- لا أستطيع! - صاح - يجب أن أستم في البحث.

- وماذا تنوي القيام به؟

كان ذلك سؤالاً وجيهاً. إن لم تنفع كل التنويعات حول اسم

أينشتاين، فما العمل الآن؟

- حسناً، في هذه اللحظة يستحسن أن ننسى السطر الثاني - ثم

علت تكشيرة وجه طوماس - انظر، سنفحص هذا السطر - وأشار

إلى السطر الأول - هل رأيت؟ إنه يقول «see sign» أو «انظر إلى

الإشارة» - رفع عينيه عن الورقة وحدق في مُحاوره - عندما قرأت

المخطوط، هل لاحظت إشارة خاصة؟

لوى الفيزيائي شفثيه.

- حسب علمي، لا. لم ألاحظ شيئاً.

- ولكن، أي إشارة هذه التي تشير إليها الشيفرة؟

وظلا معاً هناك، يتأملان عبارة «see sign».

- هذه العبارة في حد ذاتها، ألا يمكن أن تكون إشارة؟ - سأله

لويس روشا.

رفع طوماس حاجباً.

- أن تكون هذه العبارة إشارة في حد ذاتها؟

- دع عنك هذا، إنها فكرة سخيفة.

- كلا، ليس بالضرورة - أخذ نفساً عميقاً - كيف يمكن لهذه

العبارة في حد ذاتها أن تكون إشارة؟ حسناً... إلا إذا كانت جناساً

تصحيفياً.

- جناساً تصحيفياً؟

- نعم، لِمَ لا؟ لنرَ ما سيقع إن نحن غيرنا ترتيب الحروف -  
أخذ من جديد الورقة وجرب عدة تركيبات - لنربط الآن الصّوامت  
بالصّوائت. الصّوامت هي s، g، وn، والصّوائت هي e و i. لنبدأ  
بحرف n.

جرب عدة تركيبات تضم الحروف التي تشكل كلمتي see sign.

*N e g i s e s*

*N i g e s e s*

*N e g e s i s*

*N e s i g e s*

- هذا لا معنى له - لاحظ خبير التشفير - ربما يستحسن أن  
نحاول أن نبدأ بحرف g.

*G i s e n e s*

*G e s i n e s*

*G e n i s e s*

*G e n e s i s*

توقف.

نظر إلى المتوالية مندهشاً، بضم فاغرة مثل سمكة، وهو تحت  
سحر الكلمة الأخيرة. ظل لحظة طويلة دون أن يستطيع النطق ببنت  
شفة وعيناه لا تفارقان هذه الكلمة غير المتوقعة. ثم، مثل من يمشي  
نائماً، تمكن من التلفظ بالرسالة التي يخفيها ذلك الجنس  
التصحيقي.

- Genesis ، أي تكوين .

أمضيا الساعة التالية في حالة من الحماس المطلقة، مُنكبين على نسخة من الكتاب المقدس التي ذهبا لينتزعها من يدي قس مُصلّي ساؤ ميغيل . قرأ طوماس وأعاد قراءة أسفار موسى الخمسة يبحث عن إشارة في النص تكون هي «افتح يا سمسم» التي قد تُخلصه .

- «في البدء خلق الله السماوات والأرض .» - قرأ مرة أخرى بصوت مرتفع للمرة الثالثة - «وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه . وقال الله ليكن نور فكان نور . ورأى الله النور أنه حسن وفصل الله بين النور والظلمة . ودعا الله النور نهائياً والظلمة دعاها ليلاً وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً . وقال الله ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه . . . »

- طوماس - احتج لويس روشا الذي بدأ حماسه يفسح المجال للتعب . لن تقرأ كل هذا مرة أخرى ، هل ستقوم بذلك؟  
تردد خبير التفسير .

- يجب أن أعيد القراءة، وإلا كيف يمكننا أن نجد الإشارة؟

- ولكن، هل أنت متأكد أن الإشارة توجد هنا؟

حرك المؤرخ الورقة المدعوكة المغطاة بالملاحظات .

- هل رأيت الرسالة التي شقّرها أينشتاين؟ عبارة *see sign* تعطي *Genesis* ، أي «تكوين» . إنها رسالة هولوغرافية، حيث الرسالة والشفرة يكملان بعضهما . هل رأيت؟ *see sign* تعطي *Genesis* . في الحقيقة، أينشتاين يريد أن يقول «*see the sign in Genesis*» أي «انظر إلى الإشارة في سفر التكوين» .

- ولكن، أية إشارة؟

نظر طوماس إلى مجلد الكتاب المقدس الضخم المفتوح فوق المكتب.

- لست أدري. هذا ما عليّ أن أكتشفه.

- وهل تظن أنك ستكتشفها بإعادة قراءة سفر التكوين ثلاثمئة مرة؟

- إن كان ضرورياً. سوف أقرأه كل ما كان ضرورياً من المرات إلى أن أفهم إلى أي إشارة يلمح أينشتاين. هل لديك من بديل؟

أشار لويس روشا إلى السطر الثاني من الرسالة المشفرة.

- الحل الآخر هو أن نحاول فك شفرة الجزء الثاني من الرسالة، هذه العبارة . . . *ya ovqo*!

- ولكنني لا أستطيع فك شفرتها

- اسمح لي، ولكنني رأيت كيف استطعت أن تفك شفرة السطر الأول.

- كان ذلك جناساً تصحيفياً، شيء أسهل نوعاً ما.

- لا يهم. إن كنت قد استطعت أن تفك شفرة السطر الأول، يمكنك أن تفعل الشيء نفسه مع السطر الثاني.

- اسمع، إنك لا تفهم. إن السطر الثاني يمثل صعوبة أكبر بكثير من . . .

رنّ هاتفه المحمول.

تردّد طوماس في أخذ المكالمة. كان عليه أن يركز تركيزاً مطلقاً حتى يتمكن من كشف الشفرة كاملة، ويستطيع الكشف عن السر قبل الساعة الثامنة صباحاً. إن لم يفعل ذلك، فسيرحلون أريانا إلى إيران وهو لا يمكن أن يسمح بذلك. كان عليه أن يفك شفرة الرسالة الأخيرة وبحاجة إلى أن يركز تركيزاً مطلقاً. كان من الأحسن أن يغلق الهاتف.

ظل الهاتف يرنُّ.

- ألو.

قرّر في النهاية أن يرد، لأن هذا لن يضر في شيء بتركيزه وربما يكون غريغ الذي يتصل به ليزوده بأخبار أريانا.

- أستاذ نورونيا؟

لم يكن غريغ.

- نعم، هذا أنا. من معي؟

- دكتور غوفيا، من المستشفى الجامعي.

كان طبيب والده.

- آه، دكتور. منذ تلك الظهيرة. كيف حالك؟

- أستاذ نورونيا، هل يمكنك أن تمر إلى هنا على وجه السرعة؟

- إلى المستشفى؟

- نعم.

- ماذا حدث؟ هل أبي بخير؟

- لا، أستاذ نورونيا. والدك ليس بخير.

- وماذا حدث له، يا دكتور؟

- تعال بسرعة، من فضلك.

- لكن، ماذا حدث؟

ثم ران صمت قصير عبر الخط.

- والدك لن يتجاوز هذه الليلة.

مكتبة

t.me/t\_pdf

# 42

ما إن وصل طوماس إلى المستشفى حتى أخذته الممرضة إلى الغرفة التي كان يرقد فيها والده. كانت الساعة تشير إلى الواحدة ليلاً وردحات المستشفى غارقة في الظلام، لا تضيئها سوى الأضواء الصفراء المنبعثة من مصابيح متناثرة تلقي بظلال شبحية على الجدران. وكانت تسمع سعال غليظة أو جافة تتخلل النوم المضطرب لنزلاء المستشفى.

جاء الدكتور غوفيا ليستقبل طوماس في الممر وحياه بوجه حذر.

- مرّ بنوبة خطيرة جداً - قال الطبيب وهو يُشير له أن يدخل إلى الغرفة - هو الآن في حالة وعي، لكن لا أعرف لكم من الوقت.  
- أين هي أمي؟

- لقد أخطرناها بالأمر، لن تتأخر في الوصول.  
دخل طوماس إلى الغرفة. كان الضوء خافتاً فرأى شكل والده تحت الأغطية البيضاء. كان الأستاذ العجوز يضع رأسه على وسادة كبيرة ويتنفس بصعوبة. كانت عيناه مشوشتين، بل منطفئتين، لكنهما لمعتا وهو يتعرّف ابنه.

طبع الوافد الجديد قبلة على جبينه، وبعد لحظة لم يعرف ما يفعل خلالها، سحب كرسيّاً وجلس إلى جانب سريره، قرب



المنضدة، عاجزاً عن النطق ببنت شفة. أمسك طوماس بيد والده الواهية والباردة، ثم شدّ عليها بحنان كأنه يريد أن يعطيه الطاقة ويث فيه القوة. رد عليه مانويل نورونيا بابتسامة ضعيفة لكنها كافية لتشجع ابنه كي يتحدث إليه.

- أبي؟ كيف حالك؟

استنشق عالم الرياضيات العجوز الهواء مرّتين قبل أن يستجمع قواه ليجيب.

- لم أعد أتحمّل - همس قائلاً - لم أعد أتحمّل.

انحنى طوماس على السرير وهو يغالب دموعه، ثم عانق والده. شعر كم كان والده ضعيفاً، متعباً، مثل ورقة يابسة مستعدة لتنفصل عن الشجرة مع أقل هبة ريح.

- أبي ...

تحسس العجوز بلطف ظهر ابنه.

- لا تشغل بالك، يا طوماس. هذه هي الحياة ...

رفع طوماس رأسه ونظر إلى والده.

- ولكنك لا تبدو في حالة سيئة جداً ...

- لا تكن واهماً، يا ابني. أنا في المحطة الأخيرة قبل الرحلة

النهائية.

- هل أنت ... خائف؟

حرك مانويل رأسه بهدوء.

- كلا. أنا لست خائفاً - لهث - هذا غريب، لأنني كنتُ

أرتعش خوفاً من قبل، أتعرف؟ كنتُ خائفاً من أنني لن أستطيع أن

أتنفس، وخائفاً من الألم. كما كنتُ خائفاً من المجهول، من

مواجهة اللاوجود، ومن التقدم نحو هذه الطريق المظلمة - ثم لزم

صمتاً آخر كي يأخذ نفساً عميقاً - الآن، لم أعد حائفاً. أتقبل أن تكون هذه هي النهاية. أتقبل ذلك.

شدّ الابن على يد والده بقوة أكبر.

- سوف تتحمّل. سترى.

ابتسم الأستاذ العجوز ابتسامة ضعيفة.

- لن أتحمّل، يا طوماس - كان يتحدث كأنه انتهى من جري الماراتون، كأنه لم يعد يملك القوة على الكلام، ولكنه، في الوقت ذاته، كأنه لا يستطيع أن يمتنع عن الكلام، كأنه يريد أن يغتنم تلك الفرصة الأخيرة كي يُخرج كل ما يعتملُ في صدره - هل تعرف، لقد انفصلتُ عن أمور هذا العالم. لم تعد تهمني مكائد الجامعة ولا حماقات السياسيين - رفع يده بتناقل نحو النافذة - إنني أفضل الآن أن أظلّ هنا أسمع زقزقة خطّاف أو همس شجرة تحت الريح. وهذا يحدثني بكلام أبلغ من غوغاء البشر، الغامض والتافه.

- أفهم ذلك.

ثم تحسس مانويل بحنان ذراع ابنه.

- أريدك أن تسامحني لأنني لم أكن أباً مثالياً.

- آه، لا تقل هذا. لقد كنت أباً رائعاً.

- كلا، وأنت تعرف ذلك جيداً - لهث - كنتُ أباً غائباً، لم

أهتم بك كثيراً، كنتُ أقضي وقتي غارقاً في المعادلات والمُبرهنات، منشغلاً بأبحاثي، منغمساً في عوالمي.

- لا عليك، كنتُ دائماً فخوراً بك، هل تعلم؟ إن أباً يبحث عن

أسرار الكون في المعادلات أحسن من أب لا يعرف ما يبحث عنه.

ابتسم عالم الرياضيات العجوز، ووجد الطاقة حيث لم يكن يظن ذلك.

- آه، نعم. كثير من الناس لا يعرفون ما يبحثون عنه - حدق في

السقف بعينه - معظم الناس يعبرون هذه الحياة مثل نيام مُسرنمين . يريدون امتلاك الأشياء ، كسب المال واستهلاك كل شيء . فالناس يفتنون بالكماليات وينسون الأساسيات . يريدون سيارة جديدة ، بيتاً أوسع ، وملابس أكثر أناقة . يريدون أن يتخلصوا من الوزن الزائد ، أن يسترجعوا الشباب ، ويحلمون بإدهاش الآخرين - تنفّس بعمق كي يستعيد نفسه ، ثم نظر إلى ابنه - أتعرف لماذا؟

- لا ، لماذا؟

- لأنهم متعطشون للحب . متعطشون للحب ولا يجدونه . لذلك يلجأون إلى الكماليات . السيارات ، المنازل ، الملابس ، الحلّي . . . كل هذه الأشياء ليست سوى بدائل . يفتقدون الحب ويبحثون عن البدائل - حرّك رأسه - لكن هذا لا يفيد . المال ، السلطة ، الامتلاك . . . لا شيء من هذا يعوض الحب . لهذا فإنهم حين يقتنون سيارة ، بيتاً ، أو قطعة لباس فإن رضاهم يكون عابراً . وما إن يقتنونها حتى يبحثوا عن سيارة جديدة ، منزل جديد ، أو قطعة لباس جديدة . إنهم يبحثون عن شيء لا يوجد هناك . لا شيء من هذه الأشياء يمنح الرضى الدائم لأن لا شيء منها مهم حقاً . وكلهم يتسارعون لامتلاك شيء ينفلت . عندما يقتنون ما يرغبون فيه ، يشعرون أنهم فارغون من الداخل . لأنهم كانوا يرغبون في شيء آخر مختلف عما اقتنوه . إنهم يريدون الحب ، وليس الأشياء . إن الأشياء لا تعدو أن تكون بدائل ، وكماليات تُقنّع الجواهر .

- ولكن أنت لم تكن هكذا ، يا أبي . . .

- كيف ذلك؟

- كنت تشتري أشياء قليلة ولم تكن منشغلاً بالمال .

- لأنني سرت في طريق آخر . ولم أرغب قط في أن كون غنياً ،

هذا صحيح . لكنني قضيت حياتي في البحث عن المعرفة .

- أرايت؟ هذا أحسن بكثير، أليس كذلك؟

- طبعاً، هذا أحسن. لكنني مقابل ذلك أهملتك. لا أدري إن كان هذا جيداً - لهت مرة أخرى - هل تعرف، توصلتُ إلى نتيجة مفادها أن الأهم هو أن نكرس أنفسنا للآخرين. أن نكرس أنفسنا للعائلة وللجماعة المشتركة. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يملأنا بالرضى. هذا هو الشيء الوحيد الذي له معنى.

- لكن، ألم يكن لعملك معنى؟

- طبعاً، كان له معنى.

- إذن، كان شيئاً يستحق العناء.

- لكنني أديت ثمن ذلك بإهمال أسرتي

- آه، لكن هذا ليس شيئاً. أنا لا أشتكي من ذلك. وأمي أيضاً.

نحن بخير ونفتخر بك.

تعانقا لحظة مرة أخرى، ثم ران الصمت في الغرفة.

- لم أفهم قط لماذا لا يرى الناس ما يبدو لي بديهياً. يغضبون،

يتألمون، يقلقون للتفاهات، ويلهثون وراء ما ليس ضرورياً. ربما

بسبب شيء من هذا لجأت إلى الرياضيات. كنتُ أرى أنه لا شيء

أهم من فهم جوهر العالم الذي يحيط بنا.

- أهذا ما بحثتُ عنه في الرياضيات؟

- نعم بحثتُ عن جوهر الأشياء، وأكتشف الآن، بشيء من

الحرج، أنني قضيتُ كل هذا الوقت في البحث عن الله، في نهاية

المطاف - ابتسم - بحثتُ عن الله من خلال الرياضيات.

- وهل وجدته؟

بدا كأن العجوز قد حوّل عينيه.

- لستُ أدري - قال في الأخير - لستُ أدري - تنهّد - وجدتُ

شيئاً غريباً جداً. لست أدري إن كان هو الله، ولكنني وجدت شيئاً  
... رائعاً.

- وما هو؟ ماذا وجدت؟

- وجدت ذكاءً في تصميم الكون. شيئاً لا نظير له. لقد صُمم  
الكون بذكاء. أحياناً، نكتشف شيئاً غريباً في الرياضيات، شيئاً تافهاً  
يبدو لأول وهلة أن لا قيمة له. لكننا، بعد ذلك، نلاحظ في النهاية  
أن ذلك الرقم الغريب يلعب دوراً أساسياً في بنية شيء ما من صنع  
الطبيعة.

- فهمتُ.

- وأغرب ما في الطبيعة أن كل الأشياء مرتبطة. هل تفهم؟ حتى  
الأشياء التي تبدو متنافرة جداً، ولا يجمع بينها أي رابط ... حتى  
هذه الأشياء مرتبطة فيما بينها. عندما نفكر، تتحرك بعض  
الإلكترونات في دماغنا. وهذه الحركات المتناهية الصغر تؤثر في  
تاريخ الكون بكامله، في نهاية المطاف - ثم بدا حالماً - وأتساءل إن  
لم نكن نحنُ الله.

- كيف ذلك؟ لا أفهم ...

- اسمع، ياطوماس، الله هو كل شيء. عندما تنظر إلى شيء  
في الطبيعة، ترى وجهاً من أوجه الله.

- فهمتُ.

- كما لو أن الله هو جسدنا ونحن الخلايا العصبية لهذا الجسد  
- كان يتحدثُ بثاقل، كما لو أن كل كلمة ستكون هي الأخيرة، لكن  
كل كلمة كانت تتلوها كلمة أخرى، ثم أخرى، فبدا كأن العجوز وجد  
في نفسه طاقة غير متوقعة - تصوّر الخلايا العصبية في جسدي. من  
الأکید أن كل خلية عصبية لا تعرف أنها تشكل جزءاً من قطعة مُفكرة  
وواعية من جسدي. وتعتقد كل واحدة منها أنها منعزلة عني، لا

تشكل جزءاً من ذاتي، وأنها تتمتع بفردانيّتها الخاصة. ومع ذلك، فإن وعيي هو مجموع كل هذه الفردانيّات، التي لا تشكل، علاوة على ذلك، أي فردانيّات، بل أجزاء من كُُلِّ. إن خلية من خلايا ذراعي لا تفكر، إنها مثل حجر في الطبيعة، لأنها لا تملك وعياً. ولكن الخلايا في الدماغ تفكر. ربما تنظر إليّ كما لو كنتُ الله ولا تدرك أنني لست سوى محصلة كل الخلايا مجتمعة. تماماً كما يمكن أن نكون نحن البشر خلايا الله العصبية ولا نعرف ذلك. نعتقد أننا فردانيّات، منعزلة عن الآخرين، بينما نحن بشكل جزءاً من كُُلِّ - اُبتسم - كان أينشتاين يعتقد أن الله هو كُُلِّ ما نراه ولكنه أيضاً كُُلِّ ما لا نراه.

- كيف تعرف ذلك؟

- ماذا؟ أن الله هو كل شيء؟

- لا. كيف تعرف أن أينشتاين كان يعتقد ذلك؟

- أوغوستو هو من حكى لي ذلك.

- الأستاذ سيزا؟

- نعم، أوغوستو - بدا متأسفاً - المسكين، ما الذي يكون قد

وقع له؟

كان طوماس على وشك أن يكشف له عن مصير صديقه، لكنه امتنع عن الكلام في الوقت المناسب؛ لأن المكان واللحظة لم يكونا مناسبين لإطلاعه على خبر صادم كهذا. فضّل أن يترك والده يفرغ ما في صدره بكل حرية.

- كنتما تتفاهمان جيداً، أليس كذلك؟

- من؟ أنا وأوغوستو؟

- نعم.

- طبعاً. كنا نتحدث كثيراً. كان أوغوستو يؤمن بوجود الله،  
وكنت أنا ألعب دور المُتَشَكِّك، وهو ما كان يسليني كثيراً.

- وماذا كان يقول؟

- كان يستشهد كثيراً بأقوال مُعلِّمه. كان أينشتاين يقول هذا،  
كان أينشتاين يقول كذا. كان الرجل بطلاً في نظره - ابتسم مرة  
أخرى - بل إنه احتفظ بكل ما أعطاه أينشتاين، هل تعرف ذلك؟  
- آه، نعم؟

- كل شيء - واتخذ صوته نبرة حنين - عندما اختفى أوغوستو،  
جاء مساعده ليزورني في البيت، قلقاً جداً، وسلّمني ظرفاً مختوماً  
كان في حوزة أوغوستو. أظن أنني قد حكيت لك ذلك.  
- نعم.

- كان الرجل الشاب متوتراً. كان يقول إن الذين اختطفوا  
أوغوستو يمكن أن يعودوا وأنه هو نفسه ليس في أمان. على أي،  
كان مرعوباً.  
- أتخيل ذلك.

- كان يوزع على الأساتذة مختلف أغراض أوغوستو حتى يُعقد  
المهمة على المختطفين المزعومين. كان ذلك جنوناً، بطبيعة الحال،  
لأنه لم يكن ممكناً أن يصاب الأستاذ المساعد بأي سوء، لكنه كان  
يستحيل إقناعه بذلك. كان في حالة رعب كبير، فاحتفظتُ بالظرف.  
- حسناً فعلت.

- والآن، سوف تضحك. غلبني فضولي ففتحتُ الظرف ونظرتُ  
إلى ما بداخله. هل تعرف ماذا وجدت؟  
- لا.

- وجدت ذخيرة من الذخائر النفيسة التي احتفظ بها أوغوستو  
من فترة برنستون.

- آه، نعم؟

- كانت قطعة ورقية خربش عليها أينشتاين بعض الأشياء.

- حقاً؟

- هذا صحيح. أشياء لا معنى لها، طبعاً. ثلاث أبجديات وضعت الواحدة فوق الأخرى، وفي الأعلى اسم أينشتاين باللغة الإيطالية. انظر، حتى هذه الأشياء احتفظ بها أوغوستو. هل تصدق هذا؟

- اسم أينشتاين باللغة الإيطالية؟ إنني لا أفهم...

- نعم، كان هناك اسمه باللغة الإيطالية.

- ولكن كيف هو اسم أينشتاين باللغة الإيطالية؟ أينشتايني؟

ضحك الأب ضحكة صريحة.

- ليس هذا، أيها الأبله، بل ألبرتي. كتب «ألبرتي» على

الورقة.

تململ طوماس فوق الكرسي، واختنق فجأة، لأن الإثارة كادت

تنفجر في صدره.

- ألبرتي؟ هل أنت متأكد أن هذا هو ما كُتب على الورقة؟

- نعم. لماذا؟

- قل لي، يا أبي - قال وهو ينحني على المريض - أين تَحْتَفِظُ

بهذا الظرف؟

- في الجارور الأول من مكتبي، في البيت. لماذا؟

حاول الابن أن يكبح حماسه. أخذ نفساً عميقاً، تحكّم في

رغبته الجامحة في الذهاب مهرولاً إلى بيت والديه ثم عدل جلسته

فوق الكرسي.

- لا شيء، يا أبي. لا شيء.



نظر إليه مانويل مرتاباً، وهو يستشعر التغير الذي طرأ على حالته  
الذهنية.

- ما الذي يحدث؟ هل قلتُ شيئاً غير عادي؟

- لا، لا. كل شيء على ما يرام.

كان والده متعباً جداً كي يلح على الأمر. تنفس بعمق وألقى  
نظرة على الباب.

- أين أمك؟

- إنها في الطريق. لن تتأخر كثيراً.

- اعتن بها جيداً، هل سمعت؟

- طبعاً. لا تشغل بالك.

- إذا اضطرت يوماً لوضعها في دار من دور العجزة، فاحرص  
على أن تكون أحسن دار.

- أرجوك، يا أبي، دعنا من هذا الكلام ...

- دعني أتكلم.

- حسناً.

- اعتن جيداً بأمك - سَعَل - وساعدها على أن تعيش بكرامة  
حتى آخر يوم من أيام حياتها.

- كن مطمئناً.

توقف مانويل ليستعيد أنفاسه. أحياناً، لم يكن يُسمعُ غير لهائه  
الثقيل.

- هناك شيء من السَّلْم في فكرة الموت - همسَ قائلاً - لكن،  
كي نستسلم للموت علينا أن نُقرَّ السَّلْم مع الحياة. هل فهمت؟ علينا  
أن نسامح الآخرين. وحتى نتمكن من ذلك علينا أن نسامح أنفسنا  
أولاً. سامح نفسك وسامح الآخرين، بعد ذلك. إننا نخشى الموت

لأننا نظن أننا لسنا جزءاً من الطبيعة، نعتقد أننا شيء وأن الكون شيء آخر. بطريقة ما، نحن كونٌ، ولذلك نموت أيضاً - ثم بحثت يده عن يد ابنه وتشابكت أصابعهما - أودُّ أن أحكي لك سرّاً. هل تريد أن تسمعه؟

- نعم.

- إن الكون دوري.

- كيف ذلك؟

- حكى لي أوغوستو مرة أن الهندوس يعتقدون أن كل شيء في الكون دوري، حتى الكون نفسه. فالكون ينشأ، يعيش، ويموت، ليدخل في اللاوجود ثم ينشأ من جديد، في دورة لا تنتهي، في عوْد أبدي. كل شيء دوري. ويسمون هذا ليل ونهار براهمان. وتعرف ماذا أيضاً؟

- قل لي.

ابتسم الأب.

- الهندوس على حق.

سمعا الباب يفتح ورأى طوماس أمه تدخل. كانت تعلو وجه السيدة نورونيا ابتسامة واثقة، كما لو أن الأمر يتعلق بزيارة أخرى من الزيارات، لقاء جديد مع زوجها في فترة نقاهة. لكن الابن كان يعلم أن ذلك مجرد واجهة، وأن تلك الابتسامة كانت تُخفي دموعاً، وأن تلك الثقة قناع يُخبئ يأساً عميقاً.

حينئذ، أدرك طوماس أن ذلك كان آخر لقاء بين أبويه، اللحظة التي سيحبّان فيها بعضهما لآخر مرة، ولم يتبق لهما إلا قليل من الوقت ليودعا بعضهما قبل أن يسلك كل واحد طريقاً مختلفاً. فلا فراق أكثر إيلاماً من الفراق إلى الأبد. لم يستطع أن يكبح أكثر ذلك

التأثر الذي يخنق غصته، فارتمى على والده وعانقه عناقاً قوياً،  
ليترك، أخيراً، دموعه تتدفق منهجرة من عينيه وأطلق العنان لعاطفة من  
يعرفُ أن ذلك كان هو الفراق.  
إلى الأبد.

# 43 مكتبة

t.me/t\_pdf

كان هدير الرعد بعيداً ينبئ بالاقتراب البطيء للمطر. نظر طوماس إلى السماء وتأمل غيوم السدوم الكثيفة التي راحت تتراكم على علو منخفض، داكنة في الأسفل، لامعة في الأعلى؛ بيد أنها كانت شاسعة كأنها غطاء ضخّم ومعتّم ينزلق عند مستوى الأرض في المنطقة بكاملها ليلقي عليها ظلمة حزينة ورمادية. كانت السماء تتأهب للبكاء.

*“ Pater noster, qui es in caelis,  
Sanctificetur nomen tuum,  
Adveniat regnum tuum,  
Fiat voluntas tua  
Sicut in caelo et in terra. ”*

كانت أشجار السرو، هيفاء سامقة، تتهدد مع الريح. ضمّ طوماس أمه إليه وهو يسمع القس ينهي خطبة القداس وينشد صلاة الأب السماوي باللغة اللاتينية، بصوت وقور وعميق. كانت السيدة نورونيا تبكي بهدوء، ومنديل من التخاريم تحت أنفها، بينما كان ابنها يضمها إلى جسده، كأنه يقول لها ألا تقلق، وأنه ليس ثمة ما تخشاه، وأنه سيحميها.

كان تابوت والده، المصنوع من خشب الجوز المطلي، يلمع تحت ضوء الصباح الخافت. كان موضوعاً على الأرض الرطبة، قرب القبر الذي حُفر في الأرض، وقد التفت حوله مجموعة من الأقارب، والأصدقاء، والمعارف أو بعض الطلبة القدامى، في حلقة مترابطة، وهم يستمعون للكلمات الجليلة التي كان ينطق بها القس في مقبرة لاكونشادا.

*“ Panem nostrum supersubstantialem da nobis hodie;  
Et dimitte nobis debita nostra,  
Sicut et nos dimittimus debitoribus nostris;  
Et ne inducas in tentationem,  
Sed libera nos a malo.  
Amen. ”*

ارتفع همس وسط الحشد مؤكداً عبارة «آمين» النهائية، ثم عمد القس التابوت. وقف حفارو القبور في أماكنهم متأهبين، ثم رفعوا التابوت وأنزلوه بتثاقل في اللحد. صار بكاء الأم مضطرباً بل لم يستطع طوماس نفسه أن يتحكم في مشاعره. رأى ذلك الثقب المظلم يبتلع والده فداهمته صورة ذلك الرجل الحكيم، المتحفظ، المنعزل في مكتبه، المنكب على سبر أسرار الكون. رجلٌ عظيم تحوّل اليوم إلى عدم.

إلى عدم.

لطالما قالوا له إن الرجل لا يصبح رجلاً إلا بعد موت والده؛ لكن طوماس لم يكن يشعر أنه رجل أكثر من السابق بعد دفن والده. وهو يرى أولى رفوش التراب تنهال على غطاء التابوت، شعر أنه صغير، طفل تائه في عالم عدائي، تخلى عنه من كان يحميه، محروماً من سند من كان دائماً ينظر إليه كمن يتطلع إلى جبل شامخ.

صفوفٌ من الناس جاؤوا يصفحونه . كانوا يرتدون ملابس سوداء، عيونهم ثقيلة، الريح تعبث بشعرهم، وينطقون بكلام يناسب المقام، يقولون عبارات مواساة وكلمات ترفع من همّة. كان يعرف بعض الوجوه، من أبناء عم، وأعمام جاؤوا من بعيد أو بعض زملاء والده؛ بيد أن أكثرهم كانوا غرباء جاؤوا فقط ليوعدوا أستاذ الرياضيات العجوز.

عند باب المقبرة، رأى سيارة ليموزين سوداء تحمل لوحة معدنية دبلوماسية رابضة في الشارع. ألقى نظرة من حوله فرأى رجالاً يرتدون ملابس سوداء، ويضعون نظارات سوداء مضحكة لا تناسب جو ذلك اليوم الداكن، وقد تحلقوا حول مقعد في الحديقة، في هيئة مسترخية. عندما رآه الرجال، عدلوا هيئتهم، إما احتراماً له أو لأنهم كانوا يستعدون لشيء ما. ظهر شخصٌ يرتدي ملابس زرقاء، بجسم أهيّف وعينين فانتنيتين، ثم ابتعد عن المجموعة وأثار انتباه طوماس بقوة مثل قوة المغناطيس.

أريانا.

اقتربا من بعضهما ببطء ثم تعانقا. داعب طوماس شعرها الأسود، وجلدها الناعم، ثم قبّل خدها العذب وشفتيها الندية، ليشعر بدموع ساخنة تنهمر على وجهها. سمعها تئن وتتنهّد، فضمّها إليه واستدفأ بجسدها المرتعش، وشعرَ بنهديها يضغطان على صدره، بينما يداها تداعبان ظهره وأصابها تنغمسٌ في شعره.

- اشتقتُ إليك - همسَ قائلاً.

- وأنا أيضاً - ردّت عليه متنهّدة - اشتقتُ إليك كثيراً.

- هل أنتِ بخير؟

- نعم، أنا بخير. بخير.

- هل أحسنوا معاملتك؟

- نعم. قالت ثم أبعدت وجهها ونظرت إليه قلقة - وأنت؟ كيف تشعر؟

- بخير، لا تقلقي.

شعر طوماس بالحركة من حوله، لكنه لم يكثرث لذلك. في تلك اللحظة، وحدها أريانا كانت تهمة. أريانا التي كان، أخيراً، يضمها بين ذراعيه، ويتقاسم معها دموعاً من الملح والشوكولاتة، وهي ترتعش شوقاً وحنيناً.

- أهلاً، طوماس - قال صوت مألوف لديه - اسمح لي إن قاطعت لقاء لم شملكما.

كان غريغ.

- أهلاً.

- آسف جداً لموت والدك... على أيّ، الظروف ليس سهلة، ولكن أمامنا عمل يجب أن نكملة.

ابتعد طوماس عن أريانا ولكنه لم يمد يده إلى الأمريكي؛ كان يعتبر أنه لا يدين له بأي شيء وأن لا شيء يجبره على أن يكون مهذباً بعد كل ما حدث.

- نعم.

- كما يمكن أن تتصور، جازفتُ كثيراً وأنا ألغي رحلة طائرة وكالة المخابرات الأمريكية إلى إسلام آباد. عندما اتصلت بي، كنا في طريقنا إلى المطار ووجدت صعوبة كبيرة في إقناع لانغلي بأنك قد أوفيت فعلاً بالتزامك، وأنه ينبغي علينا أن نفي بالتزامنا.

- ماذا تنتظر مني، غريغ؟ - سأله طوماس بنبرة جافة - أن أشكرك؟

- كلا، لا أنتظر شيئاً من هذا - قال غريغ وهو يحتفظ بنبرة

مهنية - أنتظر منك فقط أن تريني تلك الرسالة التي أخفاها أينشتاين في مخطوطه. لقد اتصل بي السيد بيلامي نفسه مرتين ليعرف الجواب.

بدأت تسقط أولى قطرات المطر، محتشمة في البداية، ثم ملحة، بعد ذلك. نظر طوماس من حوله، كمن يبحث عن شيء ما. كانوا عند باب المقبرة وكان ما يزال هناك عدة أشخاص جاؤوا لحضور الجنازة، معظمهم يفتحون مطريّات سوداء ويتفرقون بسرعة فوق الرصيف.

- اسمع، ألا ينبغي أن نذهب إلى مكان بعيد عن الأنظار حيث يمكننا أن نجلس؟  
وأشار الأمريكي إلى سيارة ليموزين الضخمة التابعة للسفارة، كانت رابضة على بعد بضعة أمتار.  
- هيا بنا إلى هناك.

كانت سيارة ليموزين واسعة، بمقاعد على طول هيكلها وفي الوسط وضعت طاولة صغيرة. جلس طوماس وأريانا جنباً إلى جنب. جلس غريغ بدروه وأغلق باب السيارة. أما بقية الأمريكيين، وهم رجال حرس من دون شك، فقد ظلوا في الخارج، تحت وابل من المطر.

- ويسكي؟ - اقترح ملحق السفارة وهو يرفع غطاء ليكشف عن ثلاجة صغيرة.  
- لا، شكراً.

كان المطر يسوط سطح السيارة في طقطقة مستمرة. احتضن العاشقان بعضهما، ليشعرا بدفء الجسدين وراحة الملجأ.  
أخذ غريغ ويسكي مع قطع الثلج والتفت نحو المؤرخ.



- ماذا إذن؟ أين الرسالة؟

دسّ طوماس يده في جيب معطفه وأخرج منه الورقة المدعوكة التي أراها للملحق.  
ألقي غريغ نظرة ورأى اللغز.

See sign  
!ya ovqo

- اسمح لي، ما هذا؟

- إنها الرسالة المشفرة.

- فهت ذلك. ولكن، أين هو حل شفرة الرسالة؟

أشار طوماس إلى السطر الأول.

- هل ترى «see sign»؟

- نعم.

- إنه جناس تصحيفي. بتغيير ترتيب الحروف، نكتشف أن

«see sign» تصبح «Genesis». بتعبير آخر، أراد أينشتاين أن يقول:

«See the sign in Genesis» أي «انظر إلى الإشارة في سفر

التكوين».

- إشارة في سفر التكوين؟ أي إشارة؟

زّم خبير التشفير شفتيه.

- فعلاً، هذه هي المشكلة؟ أي إشارة؟ ثم أشار بإصبعه إلى

«!ya ovqo» في السطر الثاني - هذا الجزء الأخير قد يجيب عن هذا

السؤال. فهو لا يتعلق بجناس تصحيفي، بل بسنن إبدالي، وهو ما

يزيد من تعقيد الأمور لأننا نحتاج إلى مفتاح لفك رموزه. أخبروني

أن المفتاح هو اسم أينشتاين، وهو ما يعني أننا أمام ترميز قيصري.

لكن كل المحاولات التي قمتُ بها لحل هذا اللغز باستعمال الترميز القيصري باءت بالفشل .

- وما هي المحاولة التي كللت بالنجاح؟  
بدا طوماس محرّجاً .

- حسناً . . . لم تكّلل أي محاولة بالنجاح .  
- عفواً؟

- لم تكّلل أي محاولة بالنجاح .  
علت الحيرة وجه غريغ .

- اسمح لي ، هل تمزحُ معي؟ ألم تفك شفرة الرسالة بعد؟  
- لا .

وعلت حمرة غضب وجه الأمريكي .

- اللعنة ، يا طوماس! وماذا كنت تحكي لي دائماً في الهاتف؟  
ألم تخبرني أنك قد نجحت في فك الشفرة؟ إيه؟ ألم تقل إنك قد  
وجدت الحل؟  
- فعلاً .

- وماذا؟ ماذا أفعل هنا؟

ابتسم طوماس لأول مرة في ذلك اليوم ، وهو مرتاح في أعماق  
نفسه لأنه نجح في أن يُغضب مُحاورَهُ .

- إنك هنا لتعاين فكّ الشفرة .

رمشتُ عينا غريغ مرتبكاً .

- اسمح لي ، ولكني لا أفهم .

- اسمع ، لقد وجدت المفتاح ، كن مطمئناً . المشكلة أنه مع  
موت والدي لم أجد الوقت ولا المزاج لأفك السنن ، هل فهمت؟

- آه . . . أوكي .

- هيا نقوم الآن بفكّ الشفرة ، اتفقنا؟

- حسناً.

أخرج طوماس ظرفاً من جيبه، كان ورقه مصفراً بفعل الزمن، وختمه ممزقاً. أدخل فيه أصابعه وأخرج منه ورقة صغيرة مصفرة بدورها. في وجه الورقة، كانت تظهر عبارة «Die Gottesformel» مع توقيع أينشتاين تحتها، وفي الخلف تظهر متواليه من الحروف الأبجدية خربشت بالحبر الذي لا يمحي

*Alberti*

ABCDEFGHIJKLMN OPQRSTUVWXYZ

FZBVKJXAMEPLSDHGORGNQEUTW

GOXBFWTHQJKAPZGDES VYERKUHN

*Atbash*

- ما هذا؟ - سأله غريغ وتكشيرة تعلق وجهه.

- إنه المفتاح.

- مفتاح السنن؟

- نعم - قال ثم عدل جلسته - يبدو أن أينشتاين قد سلم للأستاذ سيزا المخطوط الذي يحمل عنوان *Die Gottesformel*، شريطة ألا ينشره تلميذه قبل أن يكتشف طريقة علمية ثانية لإثبات وجود الله. طبعاً، لم يكن صاحب نظريات النسبية يريد أن يكون موضوع سخريه، أليس كذلك؟ كان بحاجة إلى تأكيد ما اكتشفه من قبل في تحليله لأيام الخلق الستة في سفر التكوين من منظور نظريات النسبية - ثم أشار إلى الورقة المدعوكة التي كتبت عليها السطران - ثم اتخذ احترازاً إضافياً فشفّر المعادلة الإلهية. المشكلة أن السنن

كان معقداً وخشي ألا يستطيع أحد فكه أبداً، فدرس المفتاح في ظرف ختمه بالشمع قبل أن يسلمه للأستاذ سيزا شريطة ألا يفتحه إلا بعد أن يكتشف الطريقة الثانية - ثم لَوَّح بالورقة التي أخرجها من الظرف المختوم - لكن رجال حزب الله الذين اختطفوا الأستاذ وأخذوا المخطوط إلى طهران لم يكونوا على علم بوجود هذا الظرف. ومساعد الأستاذ سيزا، الأستاذ لويس روشا، لم يكن يعرف بدوره قصة هذا الظرف، لكنه كان يعرف أن مُعلِّمهُ كان يوليه أهمية كبيرة، وخوفاً من أن يعود المهاجمون لبيحثوا عنه، سلمه إلى والدي.

- هل كان الظرف في حوزة والدك؟

- نعم، علمت ذلك خلال آخر حديث جرى بيننا. كان والدي صديقاً مقرباً من الأستاذ سيزا، الذي كان زميلهُ في جامعة كويمبرا، لذلك فكر الأستاذ لويس روشا أن الظرف سيكون في أمان وهو بين يدي والدي.

- وهل كان والدك يعرف شيئاً عن محتوى الظرف؟

- كلا، لم تكن لديه أدنى فكرة. وبما أنه كان... رجلاً شديد الفضول، فقد فتح الظرف ونظر إلى ما بداخله - ثم أظهر الجهة التي يوجد فيها توقيع أينشتاين - كان دائماً يعرف أنها ملاحظة كتبها أينشتاين بخط يده، كما يدل على ذلك توقيعه، لكنه ظن أن الأمر يتعلق بذخيرة بسيطة، لا أهمية لها.

- I see -

- حدّثني عن ذلك بالصدفة، فحلّ اللغزُ.

- بالصدفة؟ - سأله غريغ - وهل هناك من صدفة؟

ابتسم طوماس.

- أنت على حق، ليس هناك من صدفة. كان ذلك مقدرًا سلفاً.

شرب الأمريكي جرعة ويسكي.

- أوكي، قصة جميلة! - صاح - وماذا الآن؟

- والآن، سنقوم بفكّ شفرة الرسالة.

- Great!

أشار طوماس إلى العبارة في أعلى الورقة مع المفتاح.

- هل ترى هذا الاسم؟

- ألبرتّي؟

- نعم.

- ماذا به؟

- إنها فكرة ذكية، أتعرف؟ هنا، لعب أينشتاين باسمه

الشخصي، ألبرت. قد يظنُّ أي شخص عادي أنها مجرد إشارة إلى

الصيغة الإيطالية لاسمه الشخصي، لكن خبيراً في التشفير سرعان ما

يلاحظ أنه أمام شيء مختلف تماماً.

- آه، نعم؟ وما هو؟

- كان ليون باتيستا ألبرتّي رجلاً موسوعياً وفناناً من فلورنسا في

القرن الخامس عشر. كان شخصية بارزة من شخصيات عصر النهضة

في إيطاليا، شيئاً ما مثل ليوناردو دا فنشي على نطاق أصغر. كان

فيلسوفاً، مؤلفاً موسيقياً، شاعراً، مهندساً معمارياً ورساماً. هو من

أنجز أول تحليل علمي حول المنظور، وصاحب دراسة حول ذباب

البيت - ابتسم - هو من صمم أول نافورة «تريفي» في روما.

حرك غريغ رأسه ولوى شفّيته.

- لم يسبق لي أن سمعت عنه.

- لا يهم - قال خبير التشفير بحركة غامضة - ذات مرة، كان

ألبرتّي يتجول في حدائق الفاتيكان عندما التقى بأحد أصدقائه الذي

يشتغل لدى البابا. تناول حديثهما العادي بعض الأمور الهامة

المتعلقة بالتشفير فشجع الصديقُ ألبرتّي على إعداد دراسة حول

الموضوع. متحمساً، اقترح ألبرتني نوعاً جديداً من السنن. تتلخص فكرته في استعمال أبجديتين مشفرتين، حيث يتناوب كل حرف بين أبجدية وأخرى، مما قد يربك فكاكي الشفرة. كانت فكرة عبقرية، بما أن ذلك يعني أن نفس الحرف في النص الأصلي لا يظهر بالضرورة بنفس الحرف في الأبجدية المشفرة، وهو ما يعقد فك الشفرة.

- لا أفهم.

عدّل طوماس الورقة التي تحمل المفتاح وأشار إلى الخطوط التي تمثل الأبجديات.

*Alberti*

ABCDEFGHIJKLMN OPQRSTUVWXYZ

FZBVKJXAMEPLSDHGORGNQEUTW

GOXBFWTHQJKAPZGDESVYERKUH N

*Atbash*

- بسيط - قال - السطر الأول يمثل الأبجدية العادية. ويمثل السطران تحته الأبجديتين المشفرتين. تصوّر أنني أريد أن أكتب aacc، سيكون الحرف الأول الموافق لحرف a هو f والحرف الموافق لحرف c هو حرف b. أما الحروف المقابلة لذلك في الأبجدية المشفرة الثانية فهي g و x. هكذا، تصبح الرسالة aacc، المشفرة في هذا النظام هي fgbx، هل رأيت؟ باستعمل تناوب حروف الرسالة الأصلية بين الأبجديتين المشفرتين، ليس هناك تكرار للحروف، وهو ما يعقد عملية فك الشفرة.

- آه، فمهتُ.

- ما يقوله لنا أينشتاين هو أنه استعمل شفرة من شفرات ألبرتي  
وبيّن لنا ما هي المتواليات الصحيحة في الأبجديتين المشفرتين.

أشار غريغ إلى السطر الثاني من الرسالة المشفرة.

- إذن، إذا استعملنا هذه الطريقة، هل سنجد الرسالة المخفية

في عبارة «!ya ovqo»؟

- نعم، مبدئياً.

- إذن، ماذا ننتظر؟ هيا بنا!

أخذ طوماس قلمه وقارن كل حرف من حروف الأبجديتين  
المشفرتين.

- لنرّ، إذن، ماذا تعني عبارة «!ya ovqo». - تنهّد - إن حرف

y في الأبجدية المشفرة الأولى يوافق حرف i وحرف a في الأبجدية

المشفرة الثانية يوافق حرف l - ثم سجّل الحروف - همم ...

حرف o يعطينا r وحرف v يعطينا s. حرف q يساوي v وحرف o

يساوي b.

ظهرت العبارة على الورقة.

*Il rsvb*

- إنني لا أفهم - قال غريغ وهو يرفع حاجبه - *il rsvb*؟ ما

هذا؟

- إنها الرسالة الأصلية الي شفرها أينشتاين - شرح طوماس.

رفع الأمريكي عينيه ونظر إليه نظرة تساؤل.

- لكن هذا لا يعني أي شيء ...

- تماماً.

- وماذا؟

- إذن، علينا أن نتابع فكّ التشفير.

- نتابع فكّ التشفير؟ كيف ذلك؟ ألم يتم فكّ شفرتها بعد؟

- طبعاً، لا! - صاح طوماس - كما لاحظت، *il rsvb* لا تعني

شيئاً. مما يعني أنا لم نتجاوز سوى المرحلة الأولى من فكّ الشفرة.

- وهل ثمة مراحل أخرى؟

- بطبيعة الحال - قال طوماس وأشار إلى الكلمة الأخيرة

المكتوبة تحت الأبجديتين - هل رأيت هذا الاسم هنا؟

- نعم، ما به؟

- هل يمكنك أن تقرأه؟

انحنى غريغ على الورقة.

- أت... أتبّارث؟

- أتبّاش

- أتبّاش - كرّر الأمريكي - ولكن، ما هذا؟

- إن أتبّاش شكل تقليدي من أشكال نظام التشفير الإبدالي في

الثقافة العبرية يُستعمل لإخفاء معاني العهد القديم. تتمثل الفكرة في

أخذ حرف يوجد في المرتبة الثالثة، مثلاً، انطلاقاً من بداية الأبجدية

وتعويضه بحرف آخر يوازيه في المرتبة الثالثة، انطلاقاً من نهاية

الأبجدية. مثلاً، حرف c يصبح هو حرف x، هل تتابع معي؟ الحرف

الثالث انطلاقاً من البداية يُعوض بالحرف الثالث انطلاقاً من النهاية

وهكذا دواليك.

- فهمتُ.

- هناك أمثلة كثيرة من شفرة أتبّاش في العهد القديم. في سفر

«إرميا» تظهر عدة مرات كلمة «شيشاك»، التي تبدأ بالحرفين العبريين

«شين» و«كاف». «شين» هي الحرف ما قبل الأخير في الأبجدية



العبرية. إذا ما عوضناه بثاني حرف من حروف الأبجدية، نحصل على حرف «بيت». «كاف» هو الحرف الحادي عشر انطلاقةً من البداية، لذا سنعوضه بالحرف الحادي عشر انطلاقةً من النهاية. إذن، شين/ كاف التي تعطي «شيشاك» تصبح بيت/بيت/لاميد. «بابل». «شيشاك» تعني «بابل». هل فهمت؟

- نعم، هذا ذكي.

- ذكي وبسيط.

- إذن، هل استعمل أينشتاين شفرة أتباش لوضع هذه الشفرة؟

- هذا ما تقوله الملاحظة التي كتبها على الورقة، أليس كذلك؟

انظر، ألبرتني تعني، من دون شك، شفرة ألبرتني، بما يعنيه ذلك من تطابق بين الأبجديات المشفرة. أما أتباش، فتعني أنه يتعين علينا أن

نبحث عن حروف تناظرية تعادل *il rsvb*، أليس كذلك؟

- يبدو هذا منطقياً - اعترف غريغ - هل نباشر ذلك؟

حداق طوماس بعينه في الملاحظة التي تظهر فيها عبارة *il rsvb*

ثم حدد موقع كل حرف في الترتيب الأبجدي.

- إذن حرف i هو التاسع انطلاقةً من البداية. الحرف التاسع

انطلاقةً من النهاية هو ... r. حرف l هو الثاني عشر انطلاقةً من

البداية وهو يعادل حرف ... o. حرف r يعطي ... i، وحرف s

يعطي ... h، حرف v يعطي ... e وحرف b يحيل على حرف

.y

ثم قدم النتيجة.

*l ro ihey*

- ما هذا - سأله غريغ - *Ro ihey* ؟ ماذا يعني هذا؟

ضيق خبير التشفير عينيه وفحص الرسالة، حائراً.

- حسناً . . . - همهم قائلاً وهو يعرض شفته السفلى - لست أدري . . . لا أرى ما يمكن أن يكون هذا.  
- هل تكون لغة غريبة؟

هذه الملاحظة جعلت طوماس يفتح عينين جاحظتين.

- طبعاً، هي كذلك! - صاح - إن كانت الرسالة إشارة في سفر التكوين، فلا بد أن تكون باللغة العبرية.

- وهل تعرف أنت اللغة العبرية؟

- بدأت أتعلمها - قال - لكنني أعرفها بما يكفي لأدرك أنها لغة تُقرأ من اليمين إلى اليسار وليس من اليسار إلى اليمين - ثم أخذ قلماً - انتظر، سوف أقلب ترتيب الحروف.  
ثم قلب تسلسل الحروف.

*Yehi or!*

- *Yehi or!* - قرأ غريغ - ماذا يعني هذا؟

شحب وجه طوماس.

- يا إلهي! يا إلهي!

- ما الذي يجري؟

- *Yehi or!*، ألا تفهم، *Yehi or!*

- ولكن، ما هذا؟

- *see sign Genesis. Yehi or!* - ثم نقر بسبّابته تلك الجملة

المخربشة على الورقة. إنها إشارة سفر التكوين. *Yehi or!*

- نعم، ولكن ماذا تعني *Yehi or*؟

نظر طوماس إلى غريغ وأريانا، مندهشاً، مذهولاً، يستوعب

حجم ما اكتشفه للتو، يغمره وابلٌ من الصور، والأصوات، والكلمات، والأفكار التي كانت لحظتها تتراقص متزامنة، كأنها نغمٌ رفيع ينبع من أوركسترا الفوضى العارمة، وتتداخل فيما بينها لتُخرج من الظلمات أعمق حقيقة.

أوم.

إنه الأوم الأولي الذي خلق الكون وتردّد صداؤه في ذاكرته، يوم رتلّه كورس الرهبان التّيبّيين. على نغمات الصوت النافذ للمانترا المؤسس تذكّر رقصة النشأة والموت الخالدة، رقصة الميلاد والموت، رقصة الخلق والفناء، رقصة شيفا الإلهية. ومرة أخرى، بواسطة هذا المقطع الصوتي المقدس فهم سر الخلق، واللغز الكامن وراء ألفا وخلف أوميغا، المعادلة التي تصنع الكون، غاية الله السرية، هدف الحياة المدهش، السوفتوير المسجل في هاردوير الكون.

*The endgame* أو نهاية لعبة الوجود.

أمامه، مكتوبة بالقلم، كانت المعادلة التي تنفي عدم الوجود وتخلق كل شيء.

كل شيء، بما في ذلك الخالق.

- طوماس - قال الأمريكي ملحاً وقد نفذ صبره، يكاد يرج مُحاوره - ولكن، بالله عليك، ماذا تعني *Yehi or*؟

نظر خبير التشفير إليه وإلى أريانا. نظر إليهما بدهشة وتعجب، نظر إليهما كما لو أنه استفاق من غشية طويلة. بنّفس ضعيف، يكاد يكون خائفاً، نطق أخيراً بالمعادلة السحرية، بالمنطوق الذي ينبغي للذكاء الذي سوف ينتشر في الكون أن يطبقه يوماً ما كي ينجو من كارثة نهاية الأزمنة وليبدأ كل شيء من جديد.

المعادلة الإلهية.

- ليكن نور!

ظل وجه غريغ خالياً من أي تعبير، كأنه نافذة مغلقة تغطي وهج النهار من خلفها، مثل قماش أبيض ينتظر فرشاة ملونة تمنحه الحياة.

- ليكن نور؟ - همهم أخيراً - إنني لا أفهم ...

انحنى طوماس إلى الأمام، وقرب وجهه المتحمس من الوجه المعتم للأمريكي.

- إنه الدليل التوراتي على وجود الله. «ليكن نور!»

حرك محاروه رأسه، وهو لا يفهم شيئاً بعد.

- اسمح لي، ولكن هذا لا معنى له. كيف يمكن أن تكون هذه العبارة دليلاً على وجود الله؟

تنهد خبيراً التشفير وقد نفذ صبره.

- اسمع، غريغ، هذه العبارة في حد ذاتها لا تثبت وجود الله.

ينبغي تأويلها في سياق الاكتشافات التي أنجزت في مجال العلوم.

وهذا هو السبب الحقيقي الذي جعل أينشتاين يرفض نشر مخطوطه.

كان يعرف أن هذه الجملة التوراتية لم تكن كافية، وأنه لا بد من

تأكيد علمي - ثم استرخى فوق المقعد وفتح عينين جاحظتين، في

تحمس متزايد - وهذا التأكيد موجود الآن. هذا التأكيد يثبت أن

الكتاب المقدس، مهما بدا ذلك أمراً لا يصدق، ينطوي على حقائق

علمية عميقة. وبهذا المعنى، فإن عبارة «ليكن نور!» تثبت وجود

الله.

- اسمح لي، ولكنني ما زلت لا أرى أي دليل. اشرح لي

بوضوح أكبر.

- حسناً - صباح طوماس وهو يمسد وجهه بأطراف أصابعه بينما

كان يرتب أفكاره، ثم أخذ نفساً عميقاً وحدث في محاوره - يقول

الكتاب المقدس إن الكون بدأ بانفجار ضوئي، أليس هذا صحيحاً؟  
«وَقَالَ اللَّهُ: لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ».

- نعم .

- حدسَ أينشتاين أن هذه العبارة التوراتية صحيحة . وبعد بضع سنوات على موته، جاء اكتشاف الإشعاع الكوني العميق ليقدم الدليل على أن فرضية البيغ بانغ كانت صحيحة . فالكون، بالفعل، نشأ من شيء يشبه انفجاراً أولياً، مما يعني أن الكتاب المقدس كان على حق: بدأ كل شيء حين كان النور .

- نعم .

- والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو تحديد أي كيان هذا الذي أجبر الضوء ليكون

- هل تتحدث عن الله . . .

- سمَّه الله إن شئت، فالاسم لا يهم . ما يهم هو الأمر التالي :  
لقد بدأ الكون مع البيغ بانغ وسينتهي مع البيغ فريز (التجمد الكبير) أو مع البيغ كُرانش (الانسحاق الكبير) . كان أينشتاين يظن أنه سيكون البيغ كُرانش .

- وهو البيغ بانغ معكوساً .

- تماماً - أكد طوماس، ثم انحنى نحو الأمام متحمساً -  
والآن، انتبه لهذا الأمر . إن اكتشاف المذهب الأنثروبي، في ارتباطه بأن كل شيء محدد منذ بداية الزمن، يبرهن على أنه كانت هناك غاية من خلق الإنسانية . والسر هو لماذا . لأي سبب خلقت الإنسانية؟ ما الغاية من ذلك؟ لماذا نحن هنا؟ لأي سبب خلقتنا؟

- إنها أسرار غامضة . . .

- ربما ليست غامضة كما يبدو .

- ماذا تقصد؟ هل تكون ثمة أجوبة لهذه الأسئلة؟

- طبعاً، هناك أجوبة - ثم لَوِّحْ بالورقة التي كتبت عليها عبارة «Yehi or» التي كانت بادية للعيان فوق الورق - إن الجواب مدوّن هنا في المعادلة الإلهية. «ليكن نور!». لقد استنتج أينشتاين أن الإنسانية لم تكن هي نهاية لعبة الكون بل وسيلة لبلوغ *endgame* أو نهاية اللعبة.

- وسيلة؟ إنني لا أفهم.

- فكر في تاريخ الكون. الطاقة تُولّد المادة، والمادة تُولّد الحياة، والحياة تُولّد الذكاء - ثم لزم صمتاً - فماذا سوف يُولّد الذكاء؟

- ليست لدي أدنى فكرة.

- بمطابقة عبارة «ليكن نور!» مع المعادلة الإلهية، كان أينشتاين أول شخص يجيب عن هذا السؤال.

- آه، نعم؟ وماذا استنتج؟

- الله.

- ماذا؟

- الذكاء يُولّد الله.

قطب غريغ حاجبيّه وحرّك رأسه.

- لست أدري إن كنتُ أتابع تسلسل أفكارك . . .

- الأمر بسيط للغاية - همس طوماس - لقد خلقت الإنسانية لتُطور ذكاءً أكثر تعقيداً من الذكاء البيولوجي. الذكاء الاصطناعي. الحواسيب. بعد مئات السنين، ستكون الحواسيب أكثر ذكاء من الإنسان وبعد بضعة ملايين من السنين ستكون قادرة على النجاة من التغيرات الكونية التي ستؤدي إلى نهاية الحياة البيولوجية. إن

مكتبة  
t.me/t\_pdf

الكائنات الحية المرتكزة على ذرات الكربون لن تكون حياتها ممكنة بعد عدة مليارات من السنين، عندما تتغير ظروف الكون، ولكن الكائنات الحية المرتكزة على أنواع أخرى من الذرات يمكن أن تستمر. إنها الحواسيب. سوف تنتشر في جميع أرجاء الكون، وبعد أن تنتظم في شبكات في غضون بضعة مليارات من السنوات، سوف تصبح هوية واحدة، لتكون عالمة بكل شيء وحاضرة في كل مكان. حينئذ سيؤلّد الحاسوب الكوني. المشكلة أن بقاءه سيكون مهدداً بالبيغ كُرانش أو الأنسحاق الكبير. سيواجه الحاسوب الكوني الكبير، إذن، هذه المشكلة: كيف سينجو من نهاية الكون؟ سيظهر الجواب بطريقة مروّعة. - لزم صمتاً - ليس هناك من نجاة، لأن النهاية حتمية.

- إذن، سينتهي كل شيء.

ابتسم طوماس ابتسامة مآكرة.

- ليس كذلك بالضبط. هناك طريقة تسمح للحاسوب الكوني الكبير بالعودة إلى الوجود.

لزم خبير التشفير صمتاً، كأنه يريد أن يخلق مزيداً من التشويق.

- وما هي؟ - سأله الأمريكي.

- يجب على الحاسوب الكوني الكبير أن يتحكم في طريقة حدوث البيغ كُرانش. سيكون عليه أن يتحكم في كل شيء وفق طريقة تسمح له بإعادة خلق نفس الكون بعد البيغ كُرانش، بحيث يمكن لكل شيء أن يوجد من جديد. كل شيء، بما في ذلك هو نفسه.

- إعادة خلق كل شيء؟

- نعم، لأن الحاسوب الكوني الكبير سيختفي مع البيغ كُرانش، لكنه، أثناء ذلك، سيبتكر معادلة تسمح له بالظهور مرة أخرى في الكون الجديد. وينجم عن هذه المعادلة توزيع للطاقة بدقة كبيرة

سوف تسمح بظهور المادة في الكون الجديد، ثم تتلوه الحياة وأخيراً الذكاء، ليتم تطبيق المبدأ الأثروبي من جديد.

- وماذا ستكون هذه المعادلة؟

هزّ طوماس كتفيه.

- إننا نجهلها. إنها شيء على درجة عالية من التعقيد بحيث إن ذكاء خارقاً هو الذي يستطيع وحده أن يتصورها. لكن المعادلة ستوجد في يوم من الأيام وقد جاء تصورها مدوناً مجازياً في الكتاب المقدس.

- «ليكن نور!» - همس غريغ وعيناه الزرقاوان تلمعان.

- تماماً - ابتسم طوماس - «ليكن نور!» - ثم حنى رأسه - إنها

المعادلة الإلهية.

- لحظة من فضلك - قاطعه الأمريكي وهو يرفع يده كمن يطلب

توقفاً - هل تلمح إلى أن الله حاسوب؟

- كل ذكاء مُبرمجٌ - أجابه خبير التشفير بنبرة متنازلة - هذا ما

علّمني إياه الفيزيائيون وعلماء الرياضيات - ثم ضرب جبهته بإصبعه

- الذكاء مُبرمجٌ. الكائنات البشرية، مثلاً، هي ضرب من الحواسيب

البيولوجية. النملة حاسوب بيولوجي بسيط، نحن أكثر تعقيداً. هذا

هو الفرق الوحيد.

- يبدو لي هذا التعريف مبالغاً فيه . . .

هزّ طوماس كتفيه.

- اسمع، إذا كان يزعجك أن نسمّيه الحاسوب الكوني الكبير،

يمكن أن نسمّيه . . . لست أدري . . . الذكاء الخلاق، المهندس

الأكبر، الكيان الأعلى، ما تشاء. لا يهم الاسم. ما يهم هو أن هذا

الذكاء هو أصل كل شيء.

- فهمتُ.



- استنتج أينشتاين أن الكون يوجد ليخلق الذكاء الذي سيؤلّد الكون المستقبلية. هذا هو سوفتوير الكون، وهذا هو نهاية لعبة الوجود. «ليكن نور!» استعارة توراتية لمعادلة خلق الكون، المعادلة التي سيكون على الحاسوب الكوني الكبير أن يطبقها عندما سيحدث البيغ كرانش، وهي المعادلة التي سوف تؤدي إلى بيغ بانغ جديد وتعيد خلق كل شيء. كل شيء، بما في ذلك الله. فالغاية النهائية من الكون هي إعادة خلق الله ونحن لسنا سوى وسيلة لإنجاز هذا الفعل.

تراقصت عينا الأمريكي بين طوماس وأريانا. نظر إلى قطعة الورق التي كان يمسكها خبير التشفير بين أصابعه ففهم أخيراً السر النهائي لأينشتاين: الكشف عن وجود الله، غاية الكون، وهدف الإنسانية.

- هذا ... مذهل.

لم يردّ عليه طوماس. فتح باب السيارة ونظر إلى الخارج. كفت المطر عن النزول. داعبت ريح باردة وجهه. كانت نسيماً خفيفاً وصافياً. برك صغيرة تتناثر فوق الرصيف وعلى الطريق، شفافة، تعكس مثل مرايا السماء الواطئة، كأن المطر قد غسل كل شيء. وصار الصباح أزرق، هادئاً وكثيباً. كان ضوء الشمس ينتشر بلطف، تُصفيه الغيوم التي تبتعد هناك في الأعالي، بعضها مُحَمَّلة ثقيلة، وأخرى شاحبة خفيفة.

ترجل المؤرخ من السيارة ومدّ يده لأريانا ليساعدها على الخروج. حراس الأمن الأمريكيون الذين اختبأوا تحت شجرة بلوط مورقة، اقتربوا، والمطر ما زال يتقاطر منهم، يسألون غريغ بنظراتهم، كأنهم ينتظرون منه أوامر. أشار إليهم الملحق بإشارة صامتة من رأسه بأن كل شيء على ما يرام فاسترخوا.

قبل أن يبتعد، التفت طوماس نحو باب الليموزين ونظر إلى غريغ لآخر مرة.

- غريب كيف أنه لوقت طويل جداً كانت الإنسانية عموماً تملك حدس الحقيقة الجوهرية المختبئة وراء الكون - قال - هل سبق لك أن فكرت في هذا الأمر؟

- ماذا تعني؟

- قبل موته، حكى لي والدي أن الهندوس يعتبرون أن كل شيء دوري. فالكون يولد، يحيا ويموت، يدخل في اللاوجود ثم يولد من جديد، في دورة لا تنتهي، في عود أبدي يسمونه «ليلٌ ونهارٌ براهمان». إن التاريخ الهندوسي لخلق العالم هو تاريخ الفعل الذي بواسطته يصبح الله هو العالم، ويصبح العالم هو الله.

- مدهش.

ابتسم طوماس.

- نعم، أليس كذلك؟ - ثم أخذ نفساً عميقاً - كما أن والدي ذكر لي قولاً مأثوراً مهماً للاؤتسو، وهو عبارة عن قصيدة طافية تنطوي على سر الكون. هل تريد أن تسمعها.

- نعم.

حرّكت هبةً ريح مفاجئة أشجار البلوط، وكانت عنيفة وقوية، فانتزعت الأوراق وساطت الظلال المعتمة المحيطة بالسيارة المبللة. الآن، كانت السماء تبدو كأنها تعوي، بطريقة شبه مشؤومة، كأنها تحاول وضع حد للهدوء الذي استقر بعد المطر، كأنها تهدد بإطلاق طوفان عقابي جديد، كأنها تريد أن تنتقم للسر العميق الذي انتزع منها للتو.

لكن طوماس لم يترك نفسه عرضة للخوف وتلا القصيدة كأنه ما زال يسمعها من شفّتي والده المرتعشتين. تلاها بحماس، بعشق،

بحدة من يعرف أنه وجد طريقه ويعلم أن قدره هو أن يقطع هذا الطريق.

«عند نهاية الصمت هناك الجواب،  
عند نهاية أيماننا هناك الموت.  
عند نهاية حياتنا ثمة بداية جديدة.»

بداية جديدة.

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة



## ملاحظة أخيرة

عندما اقترح براندون كارتر، عالم الفيزياء الفلكية، سنة ١٩٧٣، المبدأ الأنثروبي، دخل قسم كبير من العلماء في نقاش حاد بخصوص وضعية الإنسانية في الكون والمعنى النهائي لوجودها. إذا كان الكون قد نُظِمَ لخلقنا، فهل لنا من دور نلعبه في هذا الكون؟ من تصوّر هذا الدور؟ وخصوصاً، ما هو هذا الدور؟

انطلاقاً من كوبرنيكوس بدأ العلماء يعتقدون أن وجود الكائنات البشرية شيء تافه داخل الكون، وهي فكرة سيطرت منذئذ على التفكير العلمي. لكن، في ثلاثينيات القرن العشرين، لاحظ كل من آرثر إدينغتون وبول ديراك مصادفات غريبة تهتم رقماً ضخماً يظهر في سياقات متعددة من علم الكونيات وفيزياء الكم، وهو الرقم  $10^{40}$  الغريب.

ومع مرور الوقت تراكمت ملاحظة المصادفات الغريبة. اكتُشف أن ثوابت الطبيعة تستوجب أرقاماً غاية في الدقة حتى يكون الكون على ما هو عليه وتمت ملاحظة أن تمدد الكون، حتى في أدق آلياته، كان لا بدّ أن يخضع لمراقبة صارمة كي يُنتج ذلك التوازن الغريب الذي يسمح بوجودنا. وتكاثرت الاكتشافات. تمّ إدراك أن البنيات الضرورية للحياة، مثل ظهور النجوم التي تشبه الشمس أو مسلسل

إنتاج الكربون، يتوقف على تضافر عجيب وغير محتمل لمجموعة من المصادفات المتوالية.

فما هي دلالات هذه الاكتشافات؟ الملاحظة الأولى أن الكون صُمم بدقة تسمح بخلق الحياة. بيد أن هذا الاستنتاج يطرح حتماً مشكلة فلسفية كبرى، ألا وهي مسألة الغاية من خلق الكون.

للتصدي لهذا الاستنتاج البديهي الناجم عن هذه الاكتشافات، يدافع كثير من العلماء عن فكرة أن كوننا ليس سوى كون من بين آلاف ملايين الأكوان الأخرى، وكل كون له ثوابت بأرقام مختلفة، مما يعني أن معظم الأكوان تخلو من الحياة. هكذا، فإنه ليس سوى من محض الصدفة أن يكون كوننا مبرمجاً لينتج الحياة، خصوصاً أن معظم الأكوان الأخرى لا حياة فيها. مشكلة هذه الحجة أنها لم تركز على أية ملاحظة أو أي اكتشاف. لم يسبق لأحد أن لمح أدنى أثر على وجود أكوان أخرى، ولم يسبق لأحد أن لاحظ أرقاماً أخرى في ثوابت الطبيعة. بتعبير آخر، إن فرضية الأكوان المتعددة تركز على ما ينتقده العلم في الفكر غير العلمي: الإيمان.

هل يمكن أن نقول نفس الشيء عن الأطروحة التي تستند إليها هذه الرواية؟ إن فكرة كون دوري، يخفق على إيقاع البيغ بانغ والبيغ كُرانش على التوالي، توجد مدرجة في عدة تصورات دينية خاصة بنشأة الكون، بما فيها الهندوسية. في المجال العلمي، كان أول من طرحها هو ألكسندر فريدمان، ثم طورها بشكل منفرد كل من طوماس جولد وجون ويلر. تعتمد هذه النظرية على فرضية أساسية مفادها أن الكون لن ينتهي بالبيغ فريز (التجمد الكبير)، بل بالبيغ كُرانش (الانسحاق الكبير). إن ملاحظة تسارع تمدد الكون تشير إلى وقوع بيغ فريز، لكن هناك أسباب وجيهة تجعلنا نعتقد أن هذا التسارع ظرفي وأن البيغ كُرانش يبقى وارداً.

صحيح أننا في هذه الرواية نشير فرضية أكثر جرأة، تعتمد على مبدأ الكون الدوري لكنها تتجاوز ذلك. يتعلق الأمر بإمكانية أن يكون الكون مُنظماً من أجل خلق الحياة، دون أن تكون الحياة هدفاً في حد ذاتها، بل فقط وسيلة تسمح بتطوير الذكاء والوعي، اللذين يصبحان بدورها أداتين لبلوغ لعبة الكون النهائية: خلق الله. قد يكون الكونُ برنامجاً دورياً ضخماً من صنع ذكاءٍ كونٍ سابق حتى يضمن عودته في كونٍ لاحق.

رغم طابعها التكهني، فإن إمكانية وجود كونٍ نابض تنسجم مع بعض الاكتشافات العلمية التي أنجزها الإنسان. صحيح أنه لا يوجد أي دليل على أنه قبل كوننا كان هناك كونٌ آخر انتهى مع البيغ كرانش (الانسحاق الكبير). من المحتمل جداً أن تكون أكوان أخرى قد سبقت كوننا، لكن البيغ بانغ محا كل الأدلة. ومسحت ألقانا آثار آخر آثار أوميغا. لكن الأكيد أن هناك شيئاً ما تسبب في حدوث البيغ بانغ. شيئاً ما نجهله. يتعلق الأمر بمجرد احتمال، لكنه احتمال، رغم أنه ميتافيزيقي، يرتكز على فرضية تسلم بها الفيزياء.

أنصح من يشكون في الأساس العلمي لهذه الفرضية بمطالعة البيبليوغرافيا التي لجأت إليها من أجل دعم الأطروحة التي تستند إليها هذه الرواية. بخصوص الأسئلة المتعلقة بالمبدأ الأنثروبي وانتشار الذكاء عبر الكون، استعنتُ بمراجع لا غنى عنها مثل *The Anthropic Cosmological Principle* لمؤلفيه جون بارو و فرانك تيلر؛ *The Physics of Immortality* لفرانك تيلر؛ *The Constants of Nature* لجون بارو؛ *The Accidental Universe* لبول ديفيس. بالنسبة للاستنتاجات الثابتة في تخيل *Die Gottesformel*، اعتمدتُ على *The Science of God* لجيرالد شرودر. بالنسبة للمعلومات العلمية العامة، رجعتُ إلى *Theories of the Universe* لغاري

*The Meaning of Relativity*؛ مورينغ؛ *Universe*؛ لمارتن ريس؛  
لألبرت أينشتاين؛ *The Evolution of Physics*؛  
*The Physical Principles of the Quantum*؛ وليوبولد إنفلد؛  
*Theory* و *La Nature dans la physique contemporaine*؛ لفيرنير  
هايزنبرغ؛ *Chaos*؛ لجيمس غليك؛ *Introducing Chaos*؛ لزيودين  
ساردار و إيونا أبرامس؛ الفوضى والانسجام لمؤلفه ترين شوان  
ثوان؛ *Chaos and Nonlinear Dynamics*؛ للكاتب روبرت هيلبورن؛  
*Sync*؛ لبول ديفيس؛ *The Tao of Physics*؛ فريتجوف كابر؛  
*Introducing Time*؛ لكريغ كالندر؛ *A Short History of Nearly*  
*Everything*؛ لبيل بريسون؛ خمس معادلات غيرت العالم لمؤلفه  
مايكل غيلن؛ *How We Believe*؛ مايكل شيرمر.

أتوجه بالشكر إلى كارلوس فيولياش وجواو كيرو، أستاذي  
الفيزياء والرياضيات على التوالي في جامعة كويمبرا، على المراجعة  
العلمية لهذه الرواية؛ وعليه فإن بقاء أي خطأ بين سطورها ليس من  
مسؤوليتهما بل مردّه إلى عنادي الذي يُضرب به المثل. كما أشكر  
سامتين، مرشدي التّبيتي. والشكر موصول أيضاً لناشري، غيرمي  
فالنتي وكل فريق منشورات «غراديفا» البرتغالية على انخراطهم في  
هذا العمل وتفانيهم في إنجازه. وأشكر، طبعاً، فلوربيلا، التي هي  
دائماً قارتي الأولى وناقدي الأساسية.

# مكتبة

telegram @t\_pdf

هذا الكتاب

في ربيع ١٩٥١، زار رئيس الوزراء الإسرائيلي بن غوريون جامعة برينستون للقاء ألبرت أينشتاين. هدف الزيارة: الحصول على تصميم لسلاح نووي سهل التصنيع وبكلفة قليلة. بعد حديثهما عن الذرة انتقل الحديث سريعاً إلى مسألة وجود الله . . .

بعد ستين عاماً، التقى البرتغالي طوماس نورونيا، أستاذ اللغات القديمة وخبير التشفير، بامرأة إيرانية يلقيها الغموض عرضت عليه الذهاب إلى إيران لقاء أجر مُغري للعمل على فك شفرة مخطوط بخط يد أينشتاين يحمل عنوان «المعادلة الإلهية».

خلال عمله انخرط في قلب عملية تجسس دولية، ورغم إرادته ألقى نفسه «عميلاً مزدوجاً» لطهران ووكالة المخابرات الأمريكية، فسعى جاهداً لكشف سر هذا المخطوط الذي تجاوز كل التوقعات وأربك النظام العالمي، ولكن ليس للأسباب التي قد نظنها . . .

